سرشناسه : نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸.
عنوان و نام پدیدآور : ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر : تهران: قائن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری : ۱۸ج.
شابک : دوره 7-24-8981-964-978 ؛ ج. ۱۱: 1-55-8981-964-978
وضعیت فهرست نویسی : فیپا.
یادداشت : عربی.
موضوع : تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع : Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره : ۱۳۹۵ ۹ض۷ن/۹۸ BP
رده‌بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی : ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد الحادی عشر

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمیة: ۱۰۰۰

الطبعة: الاوّل

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. – ۱۴۳۹ ق.

تنسیق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران – شارع انقلاب – بازارچه کتاب – رقم ۱۰ – دارالکتب الاسلامیة

جمیع الحقوق محفوظة لمؤلف

شابک: ۱ – ۵۵ – ۸۹۸۱ – ۹۶۴ – ۹۷۸

شابک دوره: ۷ – ۲۴ – ۸۹۸۱ – ۹۶۴ – ۹۷۸

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا
تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾
فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا
فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ
يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا
﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ
بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ
فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَ كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ
كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَ أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ
مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾
فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَ
أَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَ أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ
يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ
أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَ
يَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ مَا فَعَلْتُهُ
عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ
صَبْرًا ﴿٨٢﴾

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا

أي قال الخضر لموسىٰ ألم أقل، لك مراراً **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** و هذا الكلام منه تحقيق ما قال له أوّلاً لا توبيخاً له لأنّه جار مجرى الذّم و هو لا يجوز على الأنبياء فقال له موسى في الجواب عن ذلك إن سألتك عن شيئ تعمله بعد هذا فلا تصاحبني قد بلغت من لدُّني عذراً، و هذا إقرارٌ من موسىٰ بأنّ صاحبه قد قدّم إليه ما يوجب القدر عنده فلا يلزمه ما أنكره و قرأ الجمهور فلا تصاحبني و قرأ عيسى و يعقوب فلا تصحبني بصيغة المضارع مضارع صحب و قرئ بضمّ التّاء و كسر الحاء مضارع، أصحب و معنى قد بلغت من لدُّني عذراً، أي قد إعتذرت إلّي و بلغت لى العذر من، لدُّني، بإدغام نون، لدُن، في نون الوقاية التّي إتّصلت بياء المتكلّم و قرأ نافع و عاصم بتخفيف النّون و هى نُون، لدن، إتّصلت بياء المتكلّم و هو القياس لأنّ أصل الأسماء إذا أضيفت إلى ياء المتكلّم لم تلحق نُون الوقاية نحو غلامي و فرسى.

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا

فإنطلقا أي مشيّا حتّى إذا أتيا قرية، قيل و القرية التّي أتيا أهلها أنطاكية أو الأبلة أو بجزيرة الأندلس و هى الجزيرة الخضراء أو ناصرة من أرض الرُّوم و الأقوال فيها كثيرة مختلفة و الكلّ لا دليل عليه و اللّه أعلم بحقيقة ذلك فالمعنى أنّهما مضيا حتّى أتيا قرية إستطعما أهلها أي طلبا منهم ما يأكلانه فإمتنع أهل القرية من تضييفهما، فوجدا، أي موسى و الخضر، فيها، في القرية جداراً يريد أن ينقّض أي وجدا حائطاً قارب أن ينقّض أي يسقط أو يتفتت فيصير حصاةٍ، فأقامه، أي فأقام الخضر الجدار لئّلا يسقط فظاهر الكلام يدلّ

على أنّ الخضر لم يهدم الجدار بل بناه كما هو المستفاد من قوله فأقامه، **قَالَ لَوْ شِئْتَ**، أي قال موسى لخضر لو شئت لإتّخذت عليه أجراً لأنّ بناه بعد هدمه يستحقّ عليه أجراً.

و قال إبن جبير مسحه بيده و أقامه فقام و قيل أقامه بعمودٍ و عمده به.

قال بعض المفسّرين لمّا أقام الجدار لم يتمالك موسى بعد أن رأى الحرمان و مساس الحاجة إن قال الخضر لو شئت لإتّخذت عليه أجراً و طلبت على عملك جعلاً حتّى تنتعش به و تستدفع الضرورة.

و قال إبن عطية قوله، **لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**، و أن لم يكن سؤالاً ففي ضمنه الإنكار لفعل الخضر من إقامته الجدار بلا عوض ففيه تخطئة ترك الأجر لقومٍ أبو أن يضيّفوهما و الحاصل أنّ في كلامه هذا إنكار لما فعله خضر من إقامة الجدار بلا عوضٍ ضمناً و لذالك قال الخضر في جواب موسى ما حكى اللّه عنه.

قَالَ هٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا

أي قال الخضر لموسىٰ هذا فراق بيني و بينك، و الظّاهر أنّ، هذا، إشارة الى قوله: **لَوْ شِئْتَ** لا الىٰ جميع جواز الإنكار أي هذا الإعراض سبب الفراق بيننا على حسب ما سبق من الميعاد و هو قوله إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني، و هذه الجملة و أنْ لم تكن سؤالاً ظاهراً ألاّ أنّها تتضّمنه إذاً المعنىٰ ألم تكن تتخّذ عليه أجراً لإحتياجنا إليه ثمّ قال الخضر لموسى، سأنّبئك، أي سأخبرك بتأويل قولي لك أنّك لن تستطيع معي صبراً، من خرق السّفينة و قتل الغلام و إقامة الجدار بما آل إليه الأمر فيما كان ظاهره أن لا يكون.

قال بعض المحقّقين في هذه الأمثلة الّتي وقعت بين موسى و الخضر حجّة على موسى و إعجاله و ذلك أنّه لمّا أنكر خرق السّفينة نودي يا موسى أين كان تدبيرك هذا و أنت في التّابوت مطروحاً في اليّم، فلّما أنكر قتل الغلام قيل له

أين إنكارك هذا من وكز القبطي و قضائك عليه، فلّما أنكر إقامة الجدار نودي أين هذا من رفعك الحجر لبنات شعيب دون أجرةٍ سأنبّئك في معاني هذا معك و لا أفارقك حتّى أوضح لك ما إستبهم عليك فقال:

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَ كَانَ وَرَآءَهُم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا، قيل أنّ موسىٰ لمّا عزم الخضر على مفارقته أخذ بثيابه و قال لا أفارقك حتّى تخبرني بم أباح لك فعل ما فعلت فلمّا إلتمس ذلك أخذ الخضر في البيان و التّفصيل فقال لموسى **أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ** بدأ بقصّة ما وقع له أوّلاً.

قيل أنّها كانت لعشرة إخوة زمني و خمسة يعملون في البحر و قيل كانوا جراء فنسبت إليهم للإختصاص و كيف كان فالآية تدّل على أنّ للسفينة كانت لقومٍ ضعفاء ينبغي أن يشفق عليهم و إحتجّ بهذه الآية على أنّ المسكين هو الّذي له بلغة من العيش كالسّفينة لهؤلاء و أنّه أجصلح حالاً من الفقير، فأردت أن أعيبها، و السّبب في ذلك أنّه كان ورائهم ملك يأخذ كلّ سفينة غصباً، هذا الكلام دلالة على أنّ الملك كان يأخذ السفينة الصحيحة و لا يأخذها إذا كانت معيبة و هذا هو السِّر في خرق السَّفينة.

وَ أَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا

قيل في الكلام حذف و تقديره و كان كافراً و كذا وجد في مصحف، أبّي، و قرأ إبن عبّاس و أمّا الغلام فكان كافراً و كان أبواه مؤمنين قيل و نصّ في الحديث على أنّه كان كافراً مطبوعاً على الكفر و يراد بأبويه أبوه و أمّه ثنّي تقلّيباً من باب القمرين في القمر و الشمس، **فَخَشِينَآ** فخشينا، أي خفنا، أن يرهقهما، أي أوقعهما، طغياناً و كفراً فيكون ذلك مفسدة فأمر اللّه بقتله لذلك كما لو أماته.

فَأَرَدْنَآ أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوٰةً وَ أَقْرَبَ رُحْمًا أي أردنا من قتل الغلام أن يبدل اللّه لأبويه خيراً من هذا الغلام زكاةً، أي صلاحاً و طهارةً، و أقرب رحماً، أي أبَرّ بوالديه من المقتول و قيل معناه أقرب أن يرحما به ثمّ أخبر الخضر عن مال الجدار فقال:

وَ أَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَ كَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَ يَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا

قال الخضر، و أمّا الجدار فكان، ملكاً، لغلامين يتيمين، صغيرين إذ لا يتم بعد البلوغ قيل إسمهما أحرم و حريم و إسم أبيهما كاشح و إسم أمهما دهنا، و كان تحته، أي تحت الجدار، كنز لهما، أي لليتيمين الصغيّرين و الكنز مالٌ مدفون تحت الأرض، و كان أبوهما صالحاً، يعني أبا اليتيمين، فأراد ربّك أن يبلغا أشدّهما، يعني كما لهما من الإحتلام و العقل، و يستخرجا كنزهما رحمةً من ربّك أي نعمةً عن أمري، أي ما فعلت ذلك من قبل نفسي بل فعلت ما فعلت بأمر اللّه تعالى، ذلك، الذي قلته لك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً هذا ما ذكره المفسّرون في تفسير الآية بقي في المقام أبحاث حول الآية لابدّ لنا من التّنبيه عليها إجمالاً.

البَحث الأوّل: أنّ موسى المذكور في الآية هل هو موسى بن عمران المرسل إلى بنيإسرائيل أو غيره فقال قومٌ أنّ المذكور في الآية هو موسى بن ميشا بن يوسف أو موسى بن أفرائيم بن يوسف و الجمهور على خلافه.

قال محمّد بن إسحاق يقول أهل الكتاب أنّ موسى الّذي طلب الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف و كان نبيّاً في بنيإسرائيل قبل موسى بن عمران إلاّ أنّ الّذي عليه الجمهور أنّه موسى بن عمران إنتهى.

و قال في قوله تعالىٰ: **فَوَجَدا عَبْدًا مِنْ عِبادِنآ** الجمهور على أنّه الخضر و إسمه بليا بن ملكان و قيل اليسع و قيل الياس **آتَيْنٰيهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا** هي الوحي و النّبوة و الفتى في الآية يوشع بن نون هذا هو المشهور عند المفسّرين من العامّة و الخاصّة و يؤيّده أنّ اللّه تعالى لم يذكر في كتابه موسى غير موسى بن عمران.

البحث الثّاني: أنّ موسى بن عمران كان من أعاظم الأنبياء و قد عدّ من أولي العزم فكيف يجوز أن يتّبع غيره و يتّعلم منه و عندنا أنّ النّبي لا يجوز أن يفتقر إلى غيره ثمّ كيف يجوز أن يقول له الخضر أنّك لن تستطيع معي صبراً، و الإستطاعة هي القدرة فكيف يمكن أن لا يكون موسى قادراً على الصَّبر هذا أوّلاً.

ثمّ كيف قال موسى ستجدني إنشاء اللّه صابراً أو لا أعصي لك أمراً فإستثنى المّشيئة في الصّبر و أطلق فيما ضمنه من طاعته و إجتناب معصيته و كيف قال موسى لقد جئت شيئاً إمراً أو شيئاً نكراً و ما أتى الخضر منكراً على الحقيقة و ما معنى قوله لا تؤاخذني بما نسيت و قد ثبت أنّ الأنبياء لا يجوز عليهم النّسيان ولم نعت موسى النّفس بأنّها زكيّة و لم يكن كذلك على الحقيقة و لم قال فخشيا فأن كان الّذي خشيه هو اللّه تعالى على ما ظنّه قومٌ لا يجوز عليه تعالى و أن كان هو الخضر فكيف يستبيح دم الغلام لأجل الخشية فهذه الأمور كلّها ينافي مقام النّبوّة و هذا هو الّذي صار باعثاً على القول بأنّ موسىٰ المذكور في الآية ليس موسى بن عمران.

نقول في الجواب أنّ هذه الأمور لا تنافي مذهب الجمهور و لا مقام النّبوة.

أمّا العالم الّذي نعته اللّه في هذه الأيات فلا يجوز الاّ أن يكون نبيّاً فاضلاً و قد قيل أنّه الخضر و ليس يمتنع أن يكون اللّه تعالى قد أعلم هذا العالم ما لم يعلمه موسى و أرشد موسى ليتعلّم منه و أنّما الممتنع أن يحتاج النّبي في العلم إلى بعض رعيّته ممّن أرسل إليهم إذ عليه يلزم تقديم المفضول على الفاضل و هو قبيح عقلاً.

و أمّا ما تعلّمه النّبي من عالم أخر غير ما ذكرناه فليس تعلّمه منه الاّ كتعلّمه من الملك الّذي يهبط إليه بالوحي و ليس في هذا دلالة على أنّه كان أفضل من النّبي و إلاّ يلزم أن يكون جبرئيل مثلاً أفضل من رسول اللّه و غيره من الأنبياء هذا أوّلاً.

أمّا ثانياً: فنقول كون عالم أفضل من عالم أخر في بعض العلوم لا يدلّ على الأفضليّة مطلقاً إذا عرفت هذا فنقول:

العالم الّذي تعلّم منه موسى و هو الخضر على الأشهر لم يكن ممّن أرسل إليه موسى و لم يكن أعلم و أفضل من موسى في جميع العلوم بل كان أعلم في علم خاصّ أو علوم خاصّة من علم الغيب كما قال تعالىٰ: **وَ عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً** أي نوعاً من العلم و أمّا في غير هذا النّوع من العلوم فلم تثبت أفضليّته بل الأمر بالعكس و إذا كان كذلك فهو أفضل من موسى في بعض العلوم الّذي يتعلّق بالبواطن و موسى أفضل منه في العلوم الظاهريّة و الباطنيّة من حيث المجموع فموسى أفضل منه بقولٍ مطلقٍ و هو المطلوب.

و أمّا نفي إستطاعته فأنّما أراد بها أنّ الصّبر لا يخفّ عليك و أنّه يثقل على طبيعتك و ذلك كما يقول أحدنا لغيره أنّك لن تستطيع أن تنظر إلّي و كما يقول للمريض الّذي يجهده الصّوم و أن كان قادراً عليه أنّك لن تستطيع الصّيام تطيقه فليس معنى هذا الكلام سلب الإستطاعة مطلقاً و ما نحن فيه من هذا القبيل و بالجملة أنّ الصّبر على ما تكرهه النّفس ثقيل عليها و لا فرق في ذلك بين النّبي و غيره إلاّ أنّ النّبي يصبر عليه مع ثقله على النّفس و غيره لا يصبر لقلّة إيمانه فقوله: **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ليس فيه نفي ماهيّة القُدرة و الإستطاعة هذا كلّه مضافاً إلىٰ أنّه ربّما يعبّر بالإستطاعة عن الفعل نفسه كما قال تعالى حكايةً عن الحواريّين **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِنَ ٱلسَّمَآءِ**[1] أي هل نفعل ذلك فعلى هذا الوجه كأنّه قال لموسى أنّك لن تصبر و

١- المائدة = ١١٢

لن يقع منك الصّبر بمقتضى طبيعتك و الحاصل أنّ المنّفي في المقام هو الصّبر دون الإستطاعة و الدّليل على ذلك هو قول موسى في الجواب ستجدني إنشاء اللّه صابراً حيث لم يقل مستطيعاً ولو كان المنّفي هو الإستطاعة لقال ستجدّني إنشاء اللّه مستطيعاً.

و أمّا قوله و لا أعصي لك أمراً فهو أيضاً مشروط بالمّشيئة و ليس بمطلقٍ فكأنّه قال ستجدني صابراً و لا أعصي لك أمراً إنشاء اللّه و تعليق الفعل على المشيّئة ممّا لا إشكال فيه.

و أمّا قوله لقد جئت شيئاً إمراً فقد قيل أنّه أراد شيئاً عجباً أو منكراً بعضهم أنّ الأمر هو الداهيّة فكأنّه قال جئت داهيّة و على هذا فمعنى الكلام أنّ ظاهر ما، يتيه المنكر و من يشاهده ينكره قبل أن يعرف علّته و يحتمل أن يكون من حذف الشّرط فكأنّه أراد أن كنت قبلته ظالماً لقد جئت شيئاً نكراً، أو يكون المراد أنّك أتيت أمراً بدلياً غريباً و أمثال ذلك من الإحتمالات و محصّل الكلام أنّك أتيت أمراً عجيباً أو منكراً ظاهراً و هذا لا ينافي أن يكون إعتقاده بحسب الواقع أنّه غير منكرٍ.

و أمّا قوله: **لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ**، فيمكن أن يراد بالنّسيان التّرك كما في قوله تعالىٰ: **وَ لَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ**(١) أي ترك و عليه فالمعنىٰ لا تؤاخذني بما تركت من عهدك، و يمكن أن يقال أنّه أراد لا تؤاخذني بما فعلته ممّا يشبه النّسيان فسّماه نسياناً للمشابهة كما قال المؤذّن لإخوة يوسف أنّك لسارقون، أي أنّكم تشبهون السّراق وكما يتأول الخبر الّذي رواه أبو هريرة عن النّبي أنّه قال كذب إبراهيم ثلاث كذبات، في قوله سارة أختي، و فى قوله بل فعله كبيرهم و فى قوله: **إِنِّى سَقِيمٌ** و المراد بذلك أن كان الخبر صحيحاً أنّ إبراهيم فعل ما ظاهره الكذب و إذا حملنا هذه اللّفظة، بلى غير النّسيان الحقيقي فلا سؤال فيها أصلاً.

١- طه = ١١٥

و أمّا إذا حملناه على النّسيان الحقيقي فعلى مذهب العامّة لا إشكال فيه لأنّهم يجوّزون السَّهو و النسيان على الأنبياء و أمّا على مذهبنا فأنّه لا يجوز على النّبي النّسيان فيما يؤديّه أو في شرعه أو في أمرٍ يقتضي التّنفير عنه وأمّا فيما هو خارج عمّا ذكرناه فلا مانع من النّسيان بمقتضى الطّبع البشري كما إذا نسي أو سهى في مأكله أو مشربه على وجهٍ لا يستمرّ و لا يتّصل فأنّ ذلك غير ممتنعٍ هكذا قيل و فيه نظر و الحقّ أنّ النّسيان بمعنى التّرك كما مرَّ فلا سؤال جوابٍ.

البحث الثّالث: في قوله: **أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**، حيث وصف موسى النّفس بأنّها زكيّة و لم تكن كذلك واقعاً فكيف خفي على موسى ذلك.

و الجواب أنّ الكلام خرج مخرج الإستفهام لا على سبيل الأخبار و إذا كان إستفهاماً فلا سؤال و لا جواب في هذا الموضوع و قد إختلف المفسّرون في هذه النّفس فقال أكثرهم أنّه كان صبيّاً لم يبلغ الحلم و على هذا يجب أن يحمل قوله: **زَكِيَّةً**، على أنّه من الزّكاة الّذي هو الزّيادة و النّماء لا من الطّهارة في الدّين و ذهب قوم إلى أنّه كان رجلاً بالغاً كافراً و لم يكن موسى يعلم بإستحقاقه القتل فإستفهم عن حاله.

و أمّا قوله: **فَخَشِينَآ** أن يرهقهما طغياناً و كفراً فالظّاهر أنّ الخشية هي من العالم لا منه تعالى و الخشية هنا بمعنى العلم كما:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً**[٢].

و أمثال ذلك فأنّ الخشية فيها بمعنى العلم و على هذا فالمعنى أنّي علمت بإعلام اللّه لي أنّ هذا الغلام متى بقي كفر أبواه و متى قتل بقيا على إيمانهما فصارت تبقيته مفسدة و وجب إحترامه و لا فرق بين أن يميته اللّه تعالى و بين

١- النساء = ١٢٨ ٢- التوبة= ٢٨

أن يأمر بقتله و أن قلنا أنّ الخشية هاهنا بمعنى الخوف الّذي لا يكون معه يقين و لا قطع فهذا يطابق جواب من قال أنّ الغلام كان كافراً مستحقّاً للقتل لكفره.

و أمّا مسئلة الجدار و السّفينة فلا كلام لأحدٍ فيها و محصّل الكلام في الكلّ هو أنّ العالم أعني به الخضر كان له علم خاصّ ممّا علمّه اللّه تعالى و قد يعبّر عنه بعلم الباطن ولم يكن هو من أمّة موسى و هذا ممّا لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً فأنّ النّبي ينبغي أن لا يحتاج في علمه إلىٰ أمّته و أمّا إلى غير الأمّة فلا دليل عليه مضافاً إلى أن يكون الغير في علم خاصّ أعلم من النّبي لا يلزم منه أن يكون أعلم منه في جميع العلوم و ذلك لأنّ علوم الأنبياء ليست من العلوم الكسبيَّة بل هي الدَّنية أفاض اللّه عليهم و الإفاضات الربانيّة بحسب الإستعدادات و القابليّات و المصالح التّي لا يعلمها إلاّ هو و لهذا قال تعالى: **تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**(١) و هذا على القول بأنّ الخضر كان من الأنبياء واضح لا خفاء فيه إذ لازم ذلك أن يكون نبيّاً أعلم من نبّي أخر محذور فيه.

البَحث الرّابع: أنّ المستفاد من الآية أنّه لا ينبغي لأحدٍ من المخلوقات أن يعجب بنفسه في علمه و ذلك لأنّ فوق كل ذي علم عليم و الّذي أحاط علمه بكلّ الأشياء ظاهرها و باطنها هو اللّه تعالى و أمّا ما سواه كائناً ما كان فهو محتاج إلى التّعلّم إلى أخر عمره نبيّاً كان أو غيره إلاّ أنّ الأنبياء يتعلّمون من اللّه تعالى بالوحي و الإلهام و أمّا غيرهم فيتعلّمون منه بواسطة العلماء و إن شئت قلت علوم الأنبياء ليست كسبيّة.

و أمّا القول بأنّ النّبي و ان كان من أعاظم الأنبياء يعلم جميع الأشياء و لا يحتاج إلىٰ التعلّم و لو من اللّه تعالى فلم يقل به أحد و هذا رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أمره اللّه أن يقول ربّ زدني علماً، و الأصل فيما ذكرناه هو قوله تعالىٰ: **وَ مَآ**

١- البقرة = ٢٥٢

أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا[١] فالمخلوق فقيرٌ محتاج في جميع شئونه في علمه و قدرته و حياته و بالجملة في ذاته و صفاته و الغنّي المطلق ليس إلاّ اللّه تعالىٰ و هذا بحمد اللّه واضحٌ لا خفاء فيه.

البحث الخامس: روى المجلسي رحمه الله عن الصّدوق بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال لمّا لقي موسى العالم و كلّمه و سأله نظر إلى خطّافٍ تصغي و ترتفع في الماء و تسفل في البحر فقال العالم لموسى أتدري ما تقول هذه الخطّاف قال و ما تقول قال تقول و ربّ السّموات و الأرض و ربّ البحر ما علمكما من علم اللّه إلاّ قدر ما أخذت بمنقاري من هذا البحر و أكثر و لمّا فارقه موسى قال موسى أوصني فقال الخضر إلزم ما لا يضرك معه شئ كما لا ينفعك مع غيره شئ و إيّاك و اللّجاجة و المشي إلى غير حاجٍ و الضّحك في غير تعجُّب يابن عمران لا تعيّرن أحداً بخطيئته و أبك على خطيئتك إنتهىٰ.

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان وصّي موسى يوشع بن نون و هو فتاه الّذي ذكره اللّه في كتابه إنتهى.

و بأسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: كان مُوسىٰ أعَلَم من الخِضر إنتهىٰ.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قول اللّـه فأردنـا أن يبدلهما ربّهما خيراً منه زكوةٍ و أقرب رحماً، قال ولدت لهما جارية فولدت غلاماً فكان نبّياً إنتهى.

و في حديثٍ أخر ولدت سبعين نبيّاً،

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: و كم من إنسانٍ له حقّ لا يعلم به قال قلت و ماذاك يا بن رسول اللّه قال عليه السلام: أنّ صاحبي الجدار كان لهما كنزٌ تحته أمّا أنّه لم يكن ذهب و لا فضّة قال قلت فأيّهما كان أحق به فقال الأكبر كذلك نقول إنتهى.

١- الاسراء= ٨٥

و عن صفوان الجمال عن أبي عبد اللّه قال: سألته عن قول اللّه و أمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة و كان تحته كنزٌ فقال عليه‌السلام أمّا أنّه ما كان ذهباً و لا فضّةٍ و أنّما كان أربع كلمات، أنّي أنا اللّه لا إله إلاّ أنا، من أيقن بالموت لم يضحك سنّه و من أقر بالحساب لم يفرح قلبه و من آمن بالقدر لم يخش إلاّ ربّه إنتهى.

وفي حديثٍ أخر و عجبت لمن أيقن بالقدر كيف يستبطئ اللّه في رزقه و عجبت لمن يرى النّشأة الأولى كيف ينكر النّشأة الأخرة إنتهى[1].

■

۱- بحار الأنوار ج ۵ ص ۲۹۶

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنْ ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ
مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَ اٰتَيْنٰهُ
مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتّٰىٓ إِذَا
بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَنْ
تُعَذِّبَ وَ إِمَّآ أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا
مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلٰى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ
عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَ أَمَّا مَنْ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صٰلِحًا فَلَهُ
جَزَآءً ٱلْحُسْنٰى وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتّٰىٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ
وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلٰى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا
سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذٰلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتّٰىٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ
وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا
﴿٩٣﴾ قَالُوا يٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلٰىٓ
أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى
فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ
بَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ اٰتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتّٰىٓ إِذَا
سَاوٰى بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنْفُخُوا حَتّٰىٓ إِذَا جَعَلَهُ
نَارًا قَالَ اٰتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا
ٱسْطٰعُوٓا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا ٱسْتَطٰعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

قَالَ هٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى
جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَ تَرَكْنَا
بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ
لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي
غِطَآءٍ عَنْ ذِكْرِى وَ كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا
﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي
مِنْ دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً
﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ هُمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾
ذٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَ ٱتَّخَذُوٓا آيَاتِي
وَ رُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا
ٱلصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ
كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ
أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾
قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلٰهُكُمْ
إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
عَمَلًا صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

◀ اللّغة

عَيۡنٍ حَمِئَةٍ: أي ماء ذات حمأة.

رَدۡمًا: الرّدم أشدّ الحجاب.

زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ: الزُّبر بضمّ الزّاء الجملة المجتمعة من الحديد والصفر و نحوهما و أصله الإجتماع.

بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ: الصّدفان الجبلان.

قِطۡرٗا: القطر النّماس.

دَكَّآءَ: بفتح الدّال أي مدكوكاً مستوياً بالأرض.

هُزُوٗا: أي سخريّة و إستهزاء.

◀ الإعراب

فَأَتۡبَعَ يروى بوصل الهمزة و التّشديد و سَبَبًا مفعوله و يقرأ بقطع الهمزة و التّخفيف و هو متعدّ إلى إثنين أي أتبع سبباً سبباً حَمِئَةٍ صفة عينٍ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ أن في وضع رفع بالإبتداء و الخبر محذوف أي أمّا العذاب واقع منك بهم جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰ مصدر في موضع الحال أي مجزيّاً بها و قيل هو مصدر على المعنى أي يجزي بها جزاء و قيل تمييز و يقرأ بالنَّصب من غير تنوينٍ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ يجوز أن يكون مكاناً و أن يكون مصدراً و المضاف محذوف أي مكان طلوع الشّمس كَذَٰلِكَ أي الأمر كذلك بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ بين هاهنا مفعول به و السّد بالفتح مصدر سدَّ و هو بمعنى المسدود و بالضمّ إسم له يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ هما إسمان أعجميّان لم ينصرفا للعجمة و التّصريف مَا مَكَّنِّي ما، بمعنى، الّذي و هو مبتدأ و (خَيۡرٞ) خبره و (قِطۡرٗا) مفعول أتوني و مفعول، أفرغ، محذوف أي أفرغه ٱلَّذِينَ كَانَتۡ في موضع جرٍّ صفة للكافرين أو نصب بإضمار أعني أو رفع بإضمار، هم أَعۡمَٰلًا تمييز وَزۡنٗا تمييز أو حال ذَٰلِكَ مبتدأ و جَزَآؤُهُمۡ مبتدأ ثانٍ و جَهَنَّمُ خبره و الجملة خبر الأوّل و العائد محذوف أي

جزاؤهم به ﴿لَا يَبْغُونَ﴾ حال من الضّمير في خالدين ﴿مَدَدًا﴾ تمييز ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ هاهنا مصدريّة و لا يمنع من ذلك دخول ما، العامّة عليها.

◀ التّفسير

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنْ ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾

الضّمير في يسألونك عائد على قريش أو على اليهود و المشهور أنّ السّائلين قريش حين دسّتها اليهود على سؤاله عن الرّوح و فتيته ذهبوا في الدّهر ليقع إمتحانه بذلك و ذو القرنين هو الإسكندر اليوناني على قول إبن إسحاق و قال وهب هو رومي و هل هو نبّي أو عبدٌ صالح ليس بنبّي قولان، قيل ملك الدّنيا مؤمنان سليمان و ذو القرنين و كافران، نمرود و بخت نصر و كان بعد نمرود و نقلت العامّة في تفاسيرهم عن علّي عليه السلام أنه قَالَ كان عبداً صالحاً ليس بملكٍ و لا نبّي ضرب على قرنه الأيمن فمات في طاعة اللّه ثمّ بعثه اللّه فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه اللّه فسمّي ذو القرنين.

و قيل سمّي به لأنّه طاف قرني الدنيا يعني جابها شرقها و غربها.

و قيل كان له قرنان صغيرتان و الأقوال فيه كثيرة.

و قد روي أبو بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال سألته عن قول اللّه يسألونك عن ذي القرنين الأية، قال عليه السلام أنّ ذا القرنين بعثه اللّه إلى قومه فضرب على قرنه الأيمن فأماته اللّه خمس مائة عام ثمّ بعثه اللّه إليهم بعد ذلك فضرب على قرنه الأيسر فأماته اللّه خمس مائة عامٍ ثمّ بعثه إليهم بعد ذلك فملّكه مشارق الأرض و مغاربها من حيث تطلع الشّمس إلى حيث تغرب الحديث، و سئل أميرالمؤمنين عليه السلام عن ذي القرنين أنبياً كان أم ملكاً فقال لا نبيّاً و لا ملكاً بل كان عبداً أحبَّ اللّه فأحبَّه اللّه و نصح للّه فنصح له فبعثه اللّه إلى قومه فضربوه على قرنه الأيمن فغاب عنهم ما شاء اللّه أن

يغيب ثمّ بعثه اللّه الثّانية فضربوه على قرنه الأيسر فغاب عنهم ما شاء اللّه ثمّ بعثه اللّه الثّالثة فمَكّن اللّه له في الأرض و فيكم مثله يعني نفسه الحديث[1].

أقول يظهر من هذا الخبر و امثاله أنّ ذا القرنين كان نبيّاً بدليل قوله عليه السلام فبعثه اللّه إلى قومه ثمّ مكّنه اللّه في الأرض بعد النّبوّة فصار ملكاً و على هذا فهو مثل سليمان النّبي ملك الأرض شرقها و غربها مع النّبوّة و اللّه أعلم.

و ذكر الطّبري في تفسّيره لهذه الآية ما يعجبني ذكره و نسبه إلى رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال عليه السلام كان شاباً من الرّوم فجاء فبنى مدينة مصر الإسكندريّة فلمّا فرغ جاءه ملك فعلا به في السّماء فقال له ما ترى فقال أرى مدينتي و مدائن ثمّ علا به فقال ما ترى قال أرى مدينتي ثمّ علا به فقال ما ترى قال أرى الأرض قال فهذا اليم محيط بالدّنيا أنّ اللّه بعثني إليك تعلم الجاهل و تثيب العالم فأتى به السّد و هو جبلان ليّنان يزلق عنهما كلّ شئ ثمّ مضى به حتّى جاوز يأجوج و مأجوج ثمّ مضى به إلى أمّةٍ أخرى وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون مأجوج و يأجوج ثمّ مضى به حتّى قطع به أمّة أخرى يقاتلون هؤلاء الّذين وجوههم وجوه الكلاب ثمّ مضى به حتّىٰ قطع به هؤلاء إلى أمّةٍ أخرى قد سمّاهم إنتهى.

أقول أنظروا يا أهل الإنصاف إلى هذه الأقاويل الباطلة الفاسدة التّي هي بكلام الشّياطين أشبه منه بكلام رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و العجب أنّه و امثاله بهذه الموصوفات يفسّرون كلام اللّه و إذا كان الطّبري و هو يقول في تفسيره أمثال هذه الأراجيف فما ظنّك بأتباعه و أشياعه من المفسّرين و هم أكثرهم لولا جمعهم و أنت أيّها القارئ ما تفهم من هذا الحديث الموضوع و نظائره كثيرة في كتابه.

١- بحار الأنوارج ٥ ص ١٦٠

و قد روي جابر بن عبد اللّه الأنصاري قال: سمعت رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول أنّ ذا القرنين كان عبداً صالحاً جعله اللّه عزّ وجلّ حجّة على عباده فدعا قومه إلى اللّه و أمرهم بتقواه فضربوه على قرنه فغاب عنهم زماناً حتّى قيل مات أو هلك بأيّ وادٍ سلك ثمّ ظهر و رجع إلى قومه فضربوه على قرنه الأخر و فيكم من هو على سنّته الحديث.

و عن أبي حمزة الثّمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: أنّ اللّه لم يبعث أنبياء ملوكاً في الأرض إلاّ أربعة بعد نوح، أوّلهم ذو القرنين و إسمه عياش و داود و سليمان و يوسف.

و عن كتاب الخصال بأسناده، ملك الأرض كلّها أربعة مؤمنان و كافران فأمّا المؤمنان فسليمان بن داود وذي القرنين و أمّا الكافران، نمرود و بخت نصر و إسم ذي القرنين عبد اللّه بن ضحاك بن معّد إنتهى[١].

إذا عرفت هذا فنقول يظهر من بعض الأخبار أنّ الخضر كان مع ذي القرنين.

فقد روي المجلسي في البحار عن الصّدوق بالأسناد عن أبي جعفر عليه السلام قال: أنّ ذي القرنين كان عبداً صالحاً لم يكن له قرن من ذهبٍ و لا فضّةٍ بعثه اللّه في قومه فضربوه على قرنه الأيمن فغاب عنهم ثمّ عاد إليهم فدعاهم فضربوه على قرنه الأيسر و فيكم مثله قالها ثلاث مراتٍ و كان قد وصف له عين الحياة و قيل له من شرب منها شربة لم يمت حتّى يسمع الصّيحة و أنّه خرج في طلبها حتّى أتى موضعاً كان فيه ثلاث مائة و ستّون عيناً و كان الخضر على

١- نور الثّقلين ج ٣ ص ٢٩٥

مقدّمته و كان من أتوا أصحابه عنده فدعاه و أعطاه و أعطى قوماً من أصحابه كلّ واحدٍ منهم حوتاً مملوحاً ثمّ قال إنطلقوا إلى هذه المواضع فليغسل كلّ رجلٍ منكم حوته و أنّ الخضر إنتهى إلى عينٍ من تلك العيون فلمّا غمس الحوت و وجد ريح الماء حيّ و أنساب في الماء فلمّا رأى ذلك الخضر رمى بثيابه و سقط في الماء فجعل يرتمس في الماء و يشرب رباء أن يصيبها فلمّا رأى ذلك رجع و رجع أصحابه فأمر ذو القرنين بقبض السّمك فقال أنظروا فقد تخلّفت سمكةٍ واحدة فقالوا الخضر صاحبها فدعاه و قال ما فعلت بسمكتك فأخبره الخبر فقال ماذا صنعت قال سقطت فيها أغوص و أطلبها فلم أجدها قال عن الماء قال نعم قال فطلب ذو القرنين العين فلم يجدها فقال للخضر أنت صاحبها و أنت الّذي خلقت لهذه العين و كان إسم ذي القرنين عياشاً و كان أوّل الملوك بعد نوح ملك ما بين المشرق و المغرب إنتهى(١).

أقول و يعلم من هذا الحديث و امثاله وجه الرّبط بين القصّتين أعني بها قصّة الخضر مع موسى و قصته مع ذي القرنين و لعلّه هو الوجه في ذكر قصّة ذي القرنين عقيب قصّة الخضر و موسى و اللّه أعلم بحقيقة الأمر و لنرجع إلى تفسير الآية **وَيَسْـَٔلُونَكَ** الضّمير عائد على قريشٍ و قيل على أهل الكتاب الّذين سألوا النّبي في ذي القرنين قل يا محمّد **سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا** أي من أخباره و سيرته.

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا

و المعنى إنّا بسطنا يده و قدّرناه في الأرض علماً و عملاً و فى قوله: **مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا** إشارة إلى أنّ اللّه تعالى أعطاه ما يتّوصل به إلى مراده و قيل

١-ج ٥ ص ٢٩٥

المراد بالسَّبب العلم أي أتيناه علماً يتَّسبب به إلى ما يريد و أنّما أشار تعالىٰ إلى السَّبب لأنّ الدنيّا دار الأسباب بمعنى أنّه تعالى جعل لكلّ شئ سبباً و أبى أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها و أن كانت الأسباب أيضاً تحت قدرته و قد ورد في الآثار أنّ اللّه تعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً هيّأ له أسبابه فأنّه مسبّب الأسباب و لكنّ جرّت سنّته في عالم الكون و الفساد على ذلك فالمريض لابدّ له من مراجعة الطّبيب و شرب الدّواء و الجاهل لابدّ له من مراجعة العالم و تعلُّم العلم منه و هكذا و فى قوله: **اٰتَيْنٰهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا**، إشارة إلىٰ نقطةٍ أخرى و هى أنّ ذا القرنين كان من عباد اللّه الصّالحين و هو كان كذلك كما عرفت **فَأَتْبَعَ** سَبَباً قرأ إبن عامر و أهل الكوفة بقطع الهَمَزة و فتحها و تخفيف التّاء و سكونها و قرأ الباقون بوصل الهَمَزة و تشديد التّاء و فتحها من قولهم أتبَع إتباعاً والتّخفيف أشهر و عليه المصاحف وكيف كان فالمعنى أنّه أتبع طريقاً إلى ما أريد منه و بعبارةٍ أخرى أنّه تمسّك بالأسباب للوصول إلى المسببات فكان يستعين بالأسباب على الملوك و فتح الفتوح و قتل الأعداء في الحروب و الفاء في قوله فأتبع للتّفريع أي لمّا آتيناه من كلّ شيٍ سبباً فأتبع ذلك السَّبب في الوصول إلى المقصد فإذا أراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً يوصله إليه حتّى بلغ وكذلك إذا أراد بلوغ المشرق أو بلوغ السَّدين وبالجملة أنّه لم يتخلّف عن قانون الطبيعة و السُّنة الجارية للوصول إلى مقاصده بل كان يتبعها.

حَتّىٰٓ إِذاٰ بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهٰا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَهٰا قَوْمًا

في هذه الآية إشارة بل دلالة على أنّ ذا القرنين سار حتّى بلغ مغرب الشّمس و فيها أبحاث:

الأوّل: أنّه كيف بلغ إلى مغرب الشّمس أقول قد ذكر اللّه تعالى أنّه مكّنه في الأرض و أعطاه العلم بالأسباب و أنّه أتبع السّبب.

قد روي الصّدوق في كتاب كمال الدّين و اتمام النّعمة بأسناده عن رجلٍ من بني أسد قال: سأل رجلٌ علياً عليه السلام أرأيت ذا القرنين كيف إستطاع أن بلغ الشّرق و الغرب، قال عليه السلام: سخّر اللّه له السّحاب و مدَّ له في الأسباب و بسط له النُّور فكان اللّيل و النّهار عليه سواء.

وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: أنّ ذا القرنين خيّر بين السّحاب الصَّعب و السّحاب الذَّلول فركب فإختار الذَّلول فركب الذَّلول فكان إذا إنتهى إلى قومٍ كان رسول نفسه إليهم لكي لا يكذب الرُّسل إنتهى.

و عن حارث بن حبيب قال: أتى رجل عليّاً فقال له عليه السلام أخبرني عن ذي القرنين فقال عليه السلام: سخَّر له السّحاب و قربت له الأسباب و بسط له في النّور فقال له الرّجل كيف بسط له في النّور فقال عليٌّ عليه السلام كان يضيئ باللّيل كما يضيئ بالنّهار ثمّ قال عليٌّ عليه السلام للرّجل أزيدك فسكت إنتهى.

البحث الثّاني: ما المراد بمغرب الشّمس و غروبها في عين حمئةٍ، على قراءة المشهور و عين حاميةٍ على قراءة الكسائي و حمزة و إبن عامر عن عاصم بالألف من غير همزةٍ أي حارّة.

نقول أمّا على القراءة الأولى و هى المشهور فالمعنى أنّها تغرب في ماءٍ و طينٍ فأنّ الحمئة ما فيه ماءٌ و حمأة سوداء، و أمّا على القراءة الثّانية فالمعنى أنّها تغرب في ماءٍ حارٍّ فأنّ الحامية هي الحارّة و الحقّ أنّ المعنى فيهما واحد إذ يجوز أن تكون العين جامعة للوصفين.

نقل الرّازي في تفسيره عن أبى ذر قال: كنت رديف رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم على جملٍ فرأى الشّمس حين غابت فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه قلت اللّه و رسوله أعلم قال فأنّها تغرب في

عينٍ حاميةٍ قال الرّازي و إتّفق أنّ إبن عبّاس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية بألف فقال إبن عبّاس حمئةٍ فقال معاوية لعبد اللّه بن عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ أميرالمؤمنين عليه السلام.

ثمّ وجه أبي كعب الأحبار و قال كيف تجد الشّمس تغرب قال في ماءٍ و طينٍ كذلك نجده في التّوراة و الحمئة ما فيه ماء و حمأة سوداء إنتهى و قلنا لا منافاة بين القراءتين في المعنى لجواز أن تكون العين جامعة للوصفين.

البحث الثّالث: أنّ غروب الشّمس في عينٍ حمئةٍ أو حامية غير معقول بحسب الظّاهر و ذلك لأنّ العين الحمئة أو حامية تكون في الأرض لا محالة و قد ثبت أنّ الشّمس أكبر من الأرض بمراتب كثيرة فكيف يعقل غروبها في نقطةٍ من الأرض و إنّما قلنا في نقطةٍ من الأرض لأنّ العين لا تطلق على كلّ الكرة فلا محالة تكون واقعة في بعضها و إذا كان الأمر على هذا المنوال يلزم دخول الكثير في القليل و هو كما ترى و لنعم ما قيل بالفارسيّة.

أوصاف خدا به گفتگو ممكن نيست   گنجايش بحر در سبو ممكن نيست

و قد أجاب عنه الرّازي بعد ذكره الإشكال الّذي ذكرناه بوجوهٍ:

الأوّل: أنّ ذي القرنين لمّا بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شي من العمارات وجد الشّمس كأنّها تغرب في عينٍ و هذه مظلمة و أن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أنّ راكب البحر يرى الشّمس كأنّها تغرب في البحر إذا لم ير الشّط و هى في الحقيقة تغيب وراء البحر هذا هو التّأويل الّذي ذكره أبو علّي الجبائي في تفسيره.

الثّانى: أنّ للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها فالنّاظر الى الشّمس يتخيّل كأنّها تغيب في تلك البحار الغربيّة قويّة السُّخونة فهي حامية و هي أيضاً حمئة لكثرة ما فيها من الحمئة السّوداء و الماء فقوله تغرب في عينٍ حمئة إشارة الى أنّ الجانب الغرّبي من الأرض قد أحاط به البحر و هو موضع شديد السّخونة.

الثّالث: قال أهل الأخبار أنّ الشّمس تغيب في عينٍ كثيرة الماء و الحمئة و هذا في غاية البعد و ذلك لأنّ إذا رصد ناكسوناً قمرياً فإذا إعتبرناه و رأينا أنّ المشرّقيين قالوا حصل في أوّل النّهار فعلمنا أنّ أوّل اللّيل عند أهل المغرب هو أوّل النّهار الثّاني عند أهل المشرق بل ذلك الوقت الّذي هو أوّل اللّيل عندنا فهو وقت العصر في بلدٍ و وقت الظّهر في بلدٍ آخر و وقت الضّحوة في بلدٍ مالت و وقت طلوع الشّمس في بلدٍ رابع و نصف اللّيل من بلدٍ خامس كانت هذه الأحوال معلومة بعد الإستقراء و الإعتبار و علمنا أنّ الشّمس طالعة ظاهرة في كلّ هذه الأوقات كان الّذي يقال أنّها تغيب في الطّين و الحمأة كلاماً على خلاف اليقين و كلام اللّه مبرّء عن هذه التُّهمة فلم يبق إلاّ أن يضار الى التّأويل الّذي ذكرناه إنتهى كلام الرّازي.

أقول ما ذكره في الجواب عن الإشكال لا بأس به ظاهراً إلاّ أنّ أصل الإشكال محّل نظرٍ و تأويل و ذلك لأنّ ظاهر الآية أن الشّمس تغرب في عينٍ حمئةٍ أو عامية و أمّا أن تلك العين أين تكون في الأرض لا دليل و من أين ثبت أنّ العين واقعة في الأرض حتّى يقال كيف تغرب الشّمس في عينٍ من عيون الأرض مع أنّ الشّمس أكبر من كلّ الأرض بمرّات و لّما لم يبيّن في الآية موضع العين الّتي تغرب الشّمس فيها فالسّكوت أولى لقوله عليه السلام: **أسكتُوا مماسَكَت اللّه عنه** فأنّ الوقّوف عند الشُّبهة خير من الإقتحام في الهلكة و لعلّ أن يكون اللّه تعالى عين حمئة لا نعلم موضعها و الشّمس تغرب فيها و أن يكون المراد بغروبها هو إستتارها فيها و أمّا كيفيّة القضية و العلم بها تفصيلاً فهو موقوفة على تعقلّها و تصّورها فأنّ التّصديق بشيٍ موقوف على تصّوره أنّ تصّور العين الحمئة غير ممكنٍ لنا في المقام ما لعلم بها خارج عن خطيئة أدراكنا فلا نقول إلاّ ما قال اللّه تعالى و إنّا بعد الفحص التّام في الأخبار و الآثار لم نجد ما يفيد القطع و اليقين فنقول اللّه أعلم بحقيقة كلامه.

البحث الرّابع: و وجد عندها قوماً، الضّمير في عندها، يعود على الشّمس و يكون التّأنيث لها و قيل يعود إلى العين الحامية فعلى الأوّل معنى الكلام أنّ ذا القرنين وجد عند الشّمس قوماً و حيث أنّ جلوس قومٍ في قرب الشّمس غير معقول فيصير المعنى أنّه لمّا تخيّل أنّ الشّمس تغربُ هناك كان سكّان هذا الموضع كأنّهم سكنوا بالقرب منها و على الثّاني يصير المعنى أنّه وجد عند العين قوماً هكذا فسّر الرّازي الكلام و الّذي عندنا في معنى الكلام هو أنّه وجد في جهة المغرب و سمته سكّاناً و هذا ممّا لا إستبعاد فيه فأن البلاد في المغرب و المشرق أي في جهتهما موجودة الآن يقال بلاد الشّرق و بلاد الغرب فالقوم الّذين وجدهم كانوا من سكّان البلاد في جهة المغرب **قُلْنَا يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّآ أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا** قال بعض المفسّرين أنّ هذه الآية تدلّ على أنّه تعالى تكلّم معه من غير واسطة يدلّ علىٰ أنّه كان نبيّاً و حمل اللّفظ على أنّ المراد أنّه خاطبه على ألسنة بعض أنبيائه عدولٌ عن الظّاهر.

أقول لا يستفاد من قوله: **قُلْنَا يَا ذَاٱلْقَرْنَيْنِ** أنّه تعالى تكلّم معه من غير واسطة و أية دلالةٍ فيه على التّكلم معه بلاواسطةٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**(٢) و أمثال ذلك من الأيات.

نعم لو قال و أوحينا إليه أو كلّمه اللّه لكان ما ذكره حقّاً مع أنّ في أوحينا أيضاً كلام لقوله تعالىٰ: **وأوحينا إلىٰ النّحل** الآية و الحاصل أنّ النّبوة لا تثبُت بهذه الإحتمالات و معنى الآية أنّه قلنا له إمّا أن تعذّب، هؤلاء القوم لإقامتهم علىٰ الشِّرك و الكفر و إمّا أن تتّخذ فيهم حسناً، بأن تأسرهم فتعلمهم الهدى و تستقدم من العمي و يحتمل أن يكون المعنى في الجملة الثانيّة و إمّا أن

١- البقرة = ٦٥ ٢- الأنبياء = ٦٩

ترشدهم إلى الهدى فيسلموا على يديك ويظهر من الآية أنّهم كانوا على الشّرك وكانوا عبدة الشّمس هكذا قيل و عندنا أنّ الآية لا تدلّ عليه فلا يستفاد منها ما فسَّروها به بل الآية تدلّ على أنّه وجد عندها قوماً إمّا أنّهم كانوا مشركين لا يستفاد منها اللّهم إلاّ أن يقال أنّ الأصل يقتضي الكفر و لا سيّما بالنّسبة إلى قومٍ لم يبعث إليهم نبي قطّ و القوم كانوا كذلك و الأحسن أن يقال لم يكن لهم دينٌ أصلاً فما كانوا عبدة الشَّمس و لا عبدة اللّه تعالى فأمر اللّه تعالى ذا القرنين أن يدعوهم إلى التّوحيد فيعذّبهم في صورة الإنكار بعد ظهور الحقّ أو يتَّخذ فيهم حسناً في صورة الإطاعة و الإنقياد و هذا هو المستفاد من ظاهر الآية و أمّا قولهم إمّا تعذّبهم بالقتل لإقامتهم على الشّرك، فلا دليل عليه و اللّه أعلم فتّدبر فيها (قال أمّا من ظلم) أي ظلم نفسه بعدم الإيمان (فسوف نعذّبه) في الدّنيا و ثمّ يردّ إلى ربّه فيعذّبه عذاباً نكراً، يوم القيامة، أي عظيماً منكراً أنكره النّفس من جهة الطّبع و هو عذاب النّار صحّ.

وَ أَمَّا مَنْ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحًا فَلَهُ جَزٰآءً اَلْحُسْنٰى وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنٰا يُسْرًا

و هذه الآية دليل على ما ذكرناه، أي أدعهم إلى الإيمان و أقم لهم البراهين و الحجج عليه ففي صورة الإنكار و العناد عذّبهم لأنّهم مستّحقون له و أمّا من قبل الدَّعوة و آمن باللّه و عمل صالحاً فله جزاء الحسنى و هو جزاء الطّاعة و قيل جزاء الحسنى الجنّة، قرأ بعضهم جزاء الحسنى بالرَّفع و الأخرون بالنَّصب فعلى الرَّفع معناه ما ذكرناه أي فله جزاء الطّاعة و هى الحسنى و أمّا على القول بالنّصب فيحتمل أن يكون نصباً على المصدر في موضع الحال أي فلهم الجنّة يجزون بها جزاءً و قيل نصب على التَّمييز و هو ضعيف لأنّ التَّمييز يصحّ تقديمه و تفصيل البحث فيه في النّحو.

و قوله سنقول له من أمرنا يسراً، قيل أي قولاً جميلاً و قيل معناه لا تأمره بالصّعب الشّاق و لكن بالسّهل الميسر من الزّكاة و الخراج و غيرهما و تقديره ذا يسرٍ كقوله قولاً ميسوراً و الضّمير في، له، عائد على من، في قوله و أمّا من آمن.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا

أي أتبع طريقاً إلى مقصده الّذي يسّر له و قيل طريقاً و مسلكاً لجهاد الكفّار.

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ

أي الموضع الّذي تطلع منه.

وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا

أي لم يكن بتلك الأرض جبل و لا شجر و لا بناء فكانوا إذا طلعت الشّمس عليهم يغورون في المياه و الأسراب و إذا غربت تصّرفوا في أمورهم.

قال قتادة هي الزّنج (كذلك و قد أحطنا بما لديه خبراً) أي كذلك علّمناهم و علّمناه أو المعنى كذلك أتبع سبباً إلى مطلع الشّمس كما أتبعه إلى مغربها.

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا

المراد بالسّدين الجبلان اللّذان جعل الرّدم بينهما في قول إبن عبّاس و قتادة و السّد وضع ما ينتفي به الخرق و قيل السّد الحاجز بينك و بين الشّئ.

قال الكسائي الضّم و الفتح في السّد بمعنى واحد و قال أبو عبيدة و عكرمة السُّد بالضّم من فعل اللّه و بالفتح من فعل الآدميّين.

و قال الخليل و سيبويه بالضّم الإسم و بالفتح المصدر قال وهب السّدان جبلان منيفان في السّماء من ورائهما و من أمامهما البلدان وهما بمنقطع أرض

التّرك و ذكر الهروي أنّهما جبلان من وراء بلاد التُّرك و قيل هما جبلان من جهة الشّمال ليستان أملسان يزلق عليهما كلّ شيءٍ و سمّي الجبلان سدَّين لأنّ كلّ واحدٍ منهما سدَّ فجاج الأرض و كانت بينهما فجوة يدخل منها يأجوج و مأجوج و الأقوال فيهما كثيرة لا فائدة في ذكرها إذ لا دليل من العقل و النّقل على صحّتها.

و أمّا قوله: **وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً** معناه وجد ذوالقرنين من دون السَّدين قوماً يعيشون لا يكادون يفقهون قولاً، لإختلاف لغتهم عن سائر اللُّغات و أنّما قال تعالى لا يكادون يفقهون قولاً و لم يقل لا يعلمون قولاً لأنّهم فقهوا بعض الشّيئ عنهم و أن كان بعد شدّةٍ و عسرةٍ و بذلك حكى اللّه عنهم أنّهم.

قَالُوا يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا

و الضّمير في قالوا، عائد على هؤلاء القوم و المعنى أنّهم قالوا له أنّ مأجوج و يأجوج مفسدون في الأرض في تخريب الدّيار و قطع الطُّرق و غير ذلك من أنواع الفساد فهل نجعل لك خرجاً، أي أجراً على أن تجعل بيننا و بينهم سدّاً، يمنع عن دخولهم الأرض و الإفساد فيها و أنّما قالوا له ذلك و طلبوا فيه ما طلبوا لأنّهم رجوا عنده ما ينفعهم لكونه ملك الأرض و دَوخ الملوك و بلغ إليهم ولم يبلغ أرضهم ملك قبله و إختلفوا في يأجوج و مأجوج، فقال قوم أنّهم من ولد آدم قبيلتان، و قيل من ولد يافث إبن نوح، و قيل أنّهم من التُّرك و قيل يأجوج من التُّرك و مأجوج من الجيل و الدَّيلم.

و قال قتادة و السُّدي بنى السَّد على أحد و عشرين قبيلة و بقيت منهم قبيلة واحدة دون السَّد فهم التّرك و إختلف في عددهم و صفاتهم و الحقّ أنّ كلّ ما ذكروه لا دليل عليه و أنّهما لم يعرفا إلى الآن و اللّه أعلم.

قٰالَ مٰا مَكَّنّى فيهِ رَبّى خَيْرٌ فَأَعينُونى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا

الرَّدم، أشدّ الحجاب في قول إبن عبّاس و منه قول الشّاعر:

هل غادر الشّعراء من متّردمٍ أم هل عرفت الدّار بعد توّهم

يقال ردَّم ثوبه ترديماً إذا أكثر الرّقاع فيه و قيل الرَّدم السَّد المتراكب مكّني، بنُونٍ واحدةٍ قراءة المشهور و قرأ إبن كثير، مكّني، بنُونين فمن شدَّد أدغم كراهية المثلين، و من لم يدغم قال لأنّهما من كلمتين لأنّ النّون الثانيّة للفاعل والياء للمتكلّم و هو مفعول به و قلنا للقراءة المشهورة، مكّني بنون واحدة مشدودة يعني قال ذو القرنين في جوابهم ما مكّني، أي أقدرني فيه خيرٌ أي أنّي لا أحتاج إلىٰ أجركم فأنّ اللّه أغناني عمّا سواه، و لكن أعينوني أي أعينوني برجالٍ لا بمالٍ، أجعل بينكم و بينهم و هم مأجوج و يأجوج، ردماً، أي حاجزاً حصيناً موّثقاً.

قال في التّبيان و ترك الهمزة في ياجوج و ماجوج هو الإختيار لأنّ الأسماء الأعجميّة لا تهمز مثل طالوت و جالوت و ماروت و هاروت، و من همز قال لأنّه مأخوذٌ من أحجَّ النّار و من الملح الأجاج فيكون مفعولاً فيه في قول من جعله عربيّاً و ترك صرفه للتّعريف و التّأنيث لأنّه إسم قبيلة ولو قال لو كان عربيّاً لكان هذا إشتقاقه و لكنّه أعجّمي فلا يشتّق لكان أصوب قال روبة:

لو أنّ ياجوج و ماجوج معاً و عاد عاد و إستجاشوا تبعاً

فترك الصّرف في الشّعر كما هو في التّنزيل و جمع ياجوج و ماجوج بأجج مثل يعقوب و يعاقب و من جمع جعل ياجوج و ما جوج، فاعولاً جمعه يواجج بالواو مثل طاغوتٍ و طواغيت و هاروت و هواريت و ساق الكلام إلى أن قال الجبائي أنّ ياجوج و ماجوج قبيلان من ولد آدم و قيل من ولد يافث بن نوح و من نسلهم الأتراك و بأل سعيد بن جبير قوله، مفسدون في الأرض، معناه يأكلون النّاس و قال قوم معناه أنّهم سيفسدون، ذهب إليه قتادة إنتهى.

ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا

قرأ إبن كثير و أبو عمرو و إبن عامر، الصَّدفين، بضّم الصّاد و الدّال و الباقون بفتحهما إلاّ أبا بكر عن عاصم فأنّه ضمّ الصّاد و سكن الدّال فالأقوال ثلاثة:

ضمّ الصّاد و الدّال و فتحهما، و ضمّ الصّاد و سكون الدّال. حكى اللّه تعالى عن ذي القرنين أنّه قال للقوم الّذين شكوا إليه إفساد ياجوج و ماجوج، آتوني زبر الحديد، قرأ الجمهور، زبر، بفتح الباء و الحسن بضّمها مع إتّفاقهما في ضمّ الرّاء.

و قال الرّاغب في المفردات الزُّبرة قطعة من الحديد جمعه، زبر، و قد يقال الزُّبرة من الشِّعر جمعه زبر، قال لهم ذو القرنين، آتوني زبر الحديد، أي أعطوني زبر الحديد و ناولونيها أمرهم بنقل الألة و زبر الحديد، قطع الحديد **حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ** والتّقدير إذا ساوىٰ البناء بين الصَّدفين وهُما جانبا الجبل و سميّا بذلك لتصادفهما أي لتلاقيهما قال الشّاعر:

كلا الصَّدفين ينفذه سناها توقد مثل مصباح الظّلام

و يقال للبناء المرتفع صدف تشبيهاً بجانب الجبل فالصَّدفان الجبلان المتناوحان و لا يقال للواحد، صدف، قال، أي ذو القرنين لهم، أنفخوا، أي أنفخوا على زبر الحديد بالأكيار و ذلك أنّه كان يأمر بوضع طاقة من الزُّبر و الحجارة ثمّ يوقد عليها الحطب و الفحم بالمنافخ حتّى تحمى و الحديد إذا أوقد عليه صار كالنّار و ذلك قوله: **حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا**، ثمّ يؤتى بالنّحاس المذاب أو بالرّصاص أو بالحديد بحسب الخلاف في القطر فيفرغه على تلك الطّاقة المنَّضدة فإذا إلتأم و إشتّد و لصق البعض بالبعض إستأنف وضع طاقةٍ أخرى إلى أن إستوى العمل فصار جبلاً صلداً و معنى آتوني أفرغ عليه قطراً، أي أعطوني قطراً، أفرغ عليه و القطر عند أكثر المفسّرين النُّحاس المذاب الرّصاص المذاب و منه قوله، و أسلنا له عين القطر.

و قال بعض المفسّرين أنّ ذا القرنين قاس مابين الصَّدفين من حفر الأساس حتّى بلغ الماء ثمّ جعل حشوه الصَّخر وطينه النُّحاس المذاب ثمّ يصبّ عليه و البنيان من زبر الحديد بينهما الحطب و الفحم حتّى سدَّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما و قيل طول ما بين السَّدين مائة فرسخ و عرضه خمسون و الأقوال كثيرة.

فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَ مَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا

أي لم يقدروا أن يعلوه و ما إستطاعوا له نقباً من أسفله على قول قتادة، فما إسطاعوا أي ياجوج و ماجوج أن يظهروه أي يصلوا إليه لبعده و إرتفاعه و إملاسه و لا أن ينقبوه لصلابته و ضخامته فلا سبيل إلى مجاوزته إلاّ بأحد هذين إمّا إرتقاء و إمّا نقب و قد سلب قدرتهم على ذلك و حاصل ذلك المعنى هو عجزهم أي ياجوج و ماجوج على أن يعلوه أو ينقبوه لإرتقاءه و صلابته و فى إستطاع ثلاث لغات، إستطاع يستطيع و إسطاع يسطيع بحذف التّاء.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا

أي قال ذو القرنين لهم، هذه أي هذا السَّد نعمة من اللّه و رحمة منه على عباده، أو هذا الإقدار والتَّمكين من تسويته رحمة من ربّي إذ لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه، في الكلام حذف و تقديره فلمّا أكمل بناء السَّد و إستوى و إستحكم قال هذا رحمة من ربّي، فإذا جاء وعد ربّي و هو يوم القيامة **جَعَلَهُ** أي جعل السَّد دَكَّآءَ منّوناً أراد دكَّه دكّاً و هو مصدر و من قرأ بالمَّد أراد جعل الجبل أرضاً دكّاء منبسطة و جمعها دكاءت و كان وعد ربّي حقّاً، أي ما وعد اللّه بأنّه يفعله لابدّ من كونه فأنّه حقّ و هو لا يخلف وعده و فيه إشارة إلى أنّ السَّد أيضاً لا يبقى كغيره من الجبال فأنّ الدنيّا و ما فيها في معرض الفناء.

وَ تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا

يقول اللّه تعالى، و تركنا، هذا الضّمير للّه تعالى و قوله بعضهم، الظّاهر أنّ الضّمير فيه عائد على ياجوج و ماجوج و قيل يعود على الخلق و يقويّه قوله و نفخ في الصُّور فعلى الأوّل معنى الكلام أنّا تركنا بعضهم يومئذٍ يموجون في بناء السَّد و يخوضون فيه متَّعجبين و معنى يومئذٍ، يوم إنقضاء السَّد و لمّا نفخ في الصُّور فجمعناهم جمعاً يعني يوم القيامة يحشرهم اللّه جميعاً.

على الثّاني: و هو رجوع الضّمير على الخلق فالمعنى تركنا الخلق في الدُّنيا كذلك و يوم القيامة يحشرهم اللّه جميعاً و أنّما قال و تركنا بعضهم ولم يقل و تركناهم لأنّ المتَّصفين بما وصفهم اللّه به هم بعض الخلق لا جميعهم فأنّ التَّعبير بالموج الّذي هو إضطراب الماء بتراكب بعضه على بعضٍ هو شأن جهّال النّاس و اللّه أعلم.

و أمّا النَّفخ في الصُّور فقيل أنّه ينفخ فيه ثلاث نفخات:

الأولىٰ: نفخة الفرج التّي يفزع من في السّموات و الأرض.

الثّانية: نفخة الصَّعق.

الثّالثة: نفخة القيام لربّ العالمين و سيأتي الكلام فيه في موضعه بوجهٍ أبسط.

وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا

أي أبرزناها و أظهرناها حتّى يروها، يومئذٍ أي يوم إذ جمعناهم و قيل اللاّم في للكافرين، بمعنى على و التّقدير و عرضنا الكافرين على جهنّم عرضاً وصف الكافرين بالغطاء في العين و قال.

ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا

إستعار الغطاء لأعينهم و المراد أنّهم لا ينصرون آياتي التّي ينظر إليها فيعتبر بها و هذا على حذف مضافٍ أي عن آيات ذكري المراد بالذّكر هاهنا القرآن و المعنى أنّهم في غطاء عن القرآن و تأمّل معانيه و المراد بالأعين البصائر لا الجوارح لأنّ الجوارح لا نسبة بينها و بين الذّكر فأنّ الذّكر يكون بالقلب و قوله و كانوا لا يستطيعون سمعاً، مبالغةً في إنتفاء السّمع إذ نفيت الإستطاعة و هم و أن كانوا صمّاً لأنّ الأصّم قد يستطيع السّمع إذا صيح به و أمّا هؤلاء أصمّت أسماعهم فلا إستطاعة بهم للسّمع و لا يقدرون عليه.

أقول الحقّ أنّ الذّكر في الآية بمعنى التّوحيد و العين عين البصيرة لا عين البصر كما أنّ المراد بالسّمع ليس الحاسّة بل المراد به سمع القلب المعبّر عنه بالتّفقه و التّدبر و هذا لا يختّص بالكافر بمعنى المصطلح أعني به المشرك أو المنكر لتوحيد اللّه بل المراد به الكفر بمعناه العامّ الشّامل للكفر الجحود وكفر النِّعمة فمن أقرَّ بالتّوحيد و أنكر الرّسالة و الولاية داخل في قوله: **أَعْيُنُهُمْ** في غطاء عن ذكري، و إلى هذا المعنى أشار الإمام علّي بن موسى الرّضا في الحديث المشهور بسلسلة الذّهب **كلمة لا إلٰه إلاّ اللّه حصني فمن دخل حصني أمن من عذابى** حيث قال عليه‌السلام بعد ذكر الحديث **بشروطها و أنا من شروطها** فلو كان الإقرار بالتّوحيد كافياً لدخول الجنَّة و الأمن من العذاب لما قال عليه‌السلام ما قال و السّر في ذلك أنّ المعتقد بالتّوحيد معتقد بالرّسالة أيضاً لأنّ الرّسول مبعوث إلى الخلق من قبله تعالى و من إعتقد بالرّسول حقّاً إعتقد بجميع ما جاء به الرّسول من قبل اللّه تعالى رأس جميع الأمور الولاية.

قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في الحديث المشهور عند الجميع من العامّة و الخاصّة من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة الجاهليّة أي ميتة الكفر أي و ان كان مقرّاً معتقداً بالتّوحيد و الرّسالة ظاهراً و ذلك لأنّ الولاية بمنزلة اللُّب و الرّسالة بمنزلة القشر قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ** و في أخبارنا ما يدلّ عليه:

ما ذكره الصّدوق في العيون في باب ما جاء عن الرّضا من الأخبار في التّوحيد بأسناده عن عبد اللّه بن صالح الهروي قال سأل المأمون أبا الحسن علّي بن موسى الرّضا عليه السلام عن قول اللّه تعالى: **ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا** فقال عليه السلام أنّ غطاء العين لا يمنع من الذّكر والذّكر لا يرى بالعين و لكّن اللّه عزّ وجلّ شبّه الكافرين بولاية علّي بن أبي طالب بالعميان لأنّهم كانوا يستثقلون قول النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فيه و لا يستطيعون له سمعاً، فقال المأمون فرّجت عني فرّج اللّه عنك الحديث.

و بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه حديث طويل وفيه قلت قوله عزّ وجّل: **ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي**. قال عليه السلام يعني بالذّكر ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام و هو قوله ذكري، قلت قوله ولا يستطيعون سمعاً، قال عليه السلام: كانوا لا يستطيعون إذا ذكر علّيٌ عندهم أن يسمعوا ذكره لشّدة بغضٍ له و عداوة منهم له و لأهل بيته.

و محصّل الكلام أنّ الآية صرّحت بأنّ المراد من الكافرين كلّ من كانت عين بصيرته في غطاءٍ و سترٍ عن ذكره تعالى و لا يستطيع سمعاً أي تفقّهاً و تدبّراً في الأيات التكوينيّة و التّشريعية سواء كان كافراً أي منكراً أو مشركاً له تعالى أو مسلماً ظاهراً بأنّ الملاك في عرضه على جهنّم أو عرضها عليه هو ما ذكره في الآية من الغطاء و الصّم و هذا ظاهرٌ و لا ينكره إلاّ المعاند و للبحث فيه مقام أخر.

أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا

قرأ الجمهور، أفحسب الذّين، بكسر السّين و فتح الباء و عليها المصاحف و قرأ بعضهم بتسكين السّين و ضمّ الباء مضافاً إلى الّذين و نسب هذه القراءة إلى عليّ عليه‌السلام و زيد بن عليّ بن الحسين و على هذا، فحسبٌ، مبتدأ و الخبر قوله: **أَنْ يَتَّخِذُوا**، و أمّا على القراءة الأولى فهو بمعنى، فلن و لذلك قرأ عبد اللّه، أفظنَّ الّذين كفروا الأية.

قال الزّمخشري أو على الفعل و الفاعل لأنّ إسم الفاعل إذا إعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل كقولك قائم الزّيدان و المعنى أنّ ذلك لا يكفيهم و لا ينفعهم عند اللّه كما حسبوا و هى قراءة محكيّة جيّدة إنتهى.

و أورد عليه أنّ، حسب ليس بإسم فاعلٍ فتعمل و لا يلزم من تفسير شيءٍ أن تجري عليه جميع أحكامه وكيف كان فمعنى الآية على المشهور أفحسب الّذين كفروا بتوحيد اللّه و جحدوا ربوبيّته، أن يتّخذوا عبادي، من الملائكة و المسيح، من دونه أي من دون اللّه أولياء و أنصاراً يمنعونهم من عقابي لهم على كفرهم و قد أعددت جهنّم للكافرين، نزلاً، أي مأوى و منزلاً، أي ما ظنّوه باطل قطعاً و أمّا على القراءة الأخرى فالمعنى أنّ ذلك لا يكفيهم و لا ينفعهم عند اللّه، و قيل معناه أحسبهم على إتّخاذهم عباد اللّه من دون اللّه أولياء إن جعل لهم جهنّم نزلاً و مأوى، أي لا يكفيهم فأنّ الهمزة للإنكار و على التّقديرين فالمعنى واضح و قد إتّفق المفسّرون على أنّ المراد بقوله عبادي، الملائكة و المسيح و كلّ عبدٍ يعبد من دون اللّه فأنّهم لا يمنعونهم من عقاب اللّه يقدرون عليه و هذا ممّا لا كلام فيه و أنّما الكلام في معنى الكفر في الآية فمن قال أنّ المراد به كفر الجحود أي إنكار الرّب وإتّخاذ معبودٍ غيره من عباده كالملائكة و المسيح مثلاً فقد خصّ الآية بالكفّار والمشركين و هو المشهور بين المفسّرين فأنّهم خصّوا الآية بالكّفار المنكرين لتوحيد اللّه الجاحدين لربوبيّته و أمّا من قال أنّ المراد بالكافرين في الآية كلّ منكرٍ لإلوهيّته و ربوبيّته ونعمه فيصير المعنى فيها عامّاً و الأمر سهل بعد وضوح المراد.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمٰالاً، اَلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا

الأنباء الأخبار أمر اللّه نبيّه أن يقول لهم هل ننَبِّئكم أي نخبركم بالأخسرين أعمالاً، الخسر بضّم السّين و الخسران إنتقاص رأس المال و ينسب ذلك إلى الإنسان فيقال خسر فلان، و إلى الفعل فيقال خسرت تجارته و يستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال و الجاه في الدُّنيا و هو الأكثر و فى المقتنيات النّفسية كالصّحة و السّلامة و العقل و الإيمان و الثّواب و هو الّذي جعله اللّه تعالى الخسران المبين و هذا هو المراد من الخسران في الآية فأنّ قوله بالأخسرين أعمالاً، بصيغة التّفضيل يدلّ على خسران العمل من حيث الثّواب و العقاب لا خسران المال و الجاه في الدنيّا بل نقول كلّ خسرانٍ ذكره اللّه تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى دون الخسران المتّعلق بالمقتنيات الدنيوية و التّجارات البشريّة و الوجه فيه أنّ الدنيا و ما فيها من النِّعم في معرض الزّوال و الفناء لتغيّرها و حدوثها فزوالها لا يعدّ خسراناً.

و أمّا الأخرة فهي باقية و نعمها دائمة لا زوال فيها فمن تركها لأجل الدنيا الفانية فقد خسر خسراناً مبيناً.

قال بعض المفسّرين أنّهم اليهود و النّصارى، و قيل الرُّهبان منهم و روي عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: هم أهل حروراء من الخوارج سأله إبن الكّواعن عن ذلك فقال عليه السلام: أنت و أصحابك منهم و هم الّذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدّنيا أي جاز عنهم و هلك و هم مع ذلك يحسبون أي يظّنون أنّهم يفعلون الأفعال الجميلة و الحسبان هو الظّن و هو ضدّ العلم.

أقول الآية لا تختّص بقومٍ دون قوم لأنّ تعالى ذكر فيها حكماً كليّاً يشمل الكافر و المسلم و المؤمن و الفاسق و بالجملة جميع الأصناف و الأفراد لأنّ

قوله الّذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا، معناه بطلان عمله بعدم ترّتب الثّواب عليه و قوله: وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أنّهم يحسنون صنعاً، معناه عدم علمه ببطلان عمله بل يحسب أنّه يحسن.

و هذا أي بطلان العمل و عدم العلم به لا يختّص بقومٍ دون قوم بل هو من الأصول الجارية بالنسبة إلى جميع الأعمال، فأنّ العمل الصّادر عن عامله قد يكون معلوم الحسن و قد يكون معلوم القبح و قد يكون مشكوكاً فيه لا كلام لنا في القسمين الأوّلين و أمّا المشكوك فيه فهو على قسمين:

أحدهما: أن يكون الطَّرفين متساويين بالنَّظر إلى الإعتقاد و هذا هو الشَّك.

ثانيهما: أن يتَّرجح أحد الجانبين على الأخر و هو المسّمى بالظَّن و ما نحن فيه من هذا القبيل و قد ثبت أنّ الظّن لا يغني عن الحقّ شيئاً، و لا سيّما في الإعتقادات ففي الآية إشارة أو دلالة على أنّ الظّن بحسن العمل لا يكفي بل لابدّ له من القطع بصحّة عمله وعلى هذا فالآية لا تختّص بأهل حروراء أو باليهود و النّصارى بل تشمل جميع الفرق الّذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، وكلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْنًا

الظّاهر أنّ المراد بالأيات أعمّ من التَّشريعية و التَّكوينية و الكفر بها إنكارها و اللّقاء كناية عن لقاء ثوابه و عقابه لا رؤية العين كما ذهب إليها أهل السُّنة و قوله: **فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ** إلاّ أنّهم أوقعوها على غير الوجه المتّحرر في الشّريعة و لذلك قال تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً، فأنّ العمل الفاسد لا وزن له أي لا قيمة له فلا يستّحق فاعله الثّواب.

و قد ورد في الأخبار أنّ اللّه تعالىٰ: **لا يَنظُر إلىٰ أعمالكم ينظر إلىٰ نيّاتكم** و في بعض أخر لا ينظر إلى صوركم بل ينظر إلى قولكم و المآل واحد.

فقد روي في الصّحيح أنّ النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: أنّه ليأتي الرّجل السَّمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضةٍ.

و في كتاب الإجتماع عن أميرالمؤمنين في حديث طويل يذكر فيه أهل الموقف و أحوالهم و فيه، و منهم أئمّة الكفر وقادة الضّـلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً و لا يعبأ بهم لأنّهم لم يعبئوا بأمره و نهيه فهم يوم القيامة في جهنّم خالدون تـلفح وجـوههم النّار و هم فيها كالحون إنتهى.

و في تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمٰالاً قال عليه السلام: هُم النّصارىٰ و القسّيسون و الرُّهبان و أهل الشُّبهات و الأهواء و من أهل القبلة و الحروريّة و أهل البدع إنتهى.

ذٰلِكَ جَزٰآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمٰا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوٓا اٰيٰاتي وَ رُسُلي هُزُوًا

ذلك، كذلك لأنّ جهنّم جزاؤهم بما كفروا، باللّه و رسوله (و إتّخذوا آياتي و رسلي هزواً) أي سخريّة و إستهزاء، أثبت اللّه تعالى لهم ذنبين:

أحدهما: الكفر و هو الأصل في الباب.

الثّاني: سخريّتهم و إستهزاؤهم بالرُّسل و الأيـات ثـمّ بـعد ذلك أشـار اللّـه تعالى إلى حال المؤمنين يوم القيامة.

إِنَّ الَّذينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ كٰانَتْ لَهُمْ جَنّٰاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا

أي مأوى، و الفردوس البستان الّذي يجمع الزّهر و الثّمر و سائر ما يمتّع و يلذ و قيل هو البستان الّذي فيه الأعناب و قيل هو أطيب مـوضع فـي الجنّة و قيل غير ذلك.

خٰالِدينَ فيهٰا لٰا يَبْغُونَ عَنْهٰا حِوَلًا

نصب خالدين على الحال و الحول بكسر الحاء و فتح الواو التَّحول و التَّبدل أي لا يطلبون عنها التَّحول و الإنتقال إلى مكانٍ أخر غيرها و قيل معناه لا يبغون عنها من حالٍ إلى حالٍ و الجامع عدم إنتقالهم عمّا يكونون عليه مكاناً و حالاً و قال في المفردات الحول السَّنة إعتباراً بإنقلابها و دوران الشّمس في مطالعها و مغاربها إنتهى.

أقول قد روى أبو بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إلىٰ قوله: حِوَلاً قال عليه السلام: خالدين لا يخرجون عنها و لا يبغون عنها حولاً، أي لا يريدون بها بدلاً ثمّ قال عليه السلام هذه نزلت في أبي ذرّ و المقداد و سلمان و عمّار بن ياسر إنتهىٰ.

قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا

أمر اللّه أن يقول لجميع المكلّفين قل لو كان ماء البحر مداداً و هو ما يمّد به الدّواة من الحبر و ما يمُد به السّراج من السّليط لكتابة كلمات اللّه لنفد ماء البحر و لم تنفد كلمات اللّه و قوله: **وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** فالمدد و هو الجائي شيئاً بعد شيئ على إتصّالٍ و المداد الّذي يكتب به فقوله مدداً، نصب على المصدر بمعنى و لو أمددناه بمثله إمداداً ثمّ ناب المدد و مناب الأمداد مثل أنبتكم نباتاً، قال صاحب الكشّاف و المعنى لو كتبت كلمات علم اللّه و حكمته و كان البحر مداداً لها و المراد بالبحر الجني، لنفد البحر قبل أن تنفد الكلمات و لو جئنا بمثل البحر مداداً لنفد أيضاً و الكلمات غير نافذة إنتهى.

و قال في التّبيان، الكلمة الواحدة من الكلام و لذلك يقال للقصيدة لأنّها قطعة واحدةٍ من الكلام و الصّفة المفردة كلمة إنتهى.

و قال القرطبي قالت اليهود لرسول اللّه ﷺ أنك أوتيت الحكمة، و من أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ثمّ زعمت أنك لا علم لك بالرّوح فقال تعالىٰ: قل لهم و إن أوتيت القرآن و أوتيتم التّوراة **فهي بالنّسبة الى كلمات اللّه قليلة.**

قال إبن عبّاس، لكلمات ربّي، أي مواعظ ربّي، و قيل عني بالكلمات الكلام القديم الّذي لا غاية له و لا منتهى و هو و أن كان واحداً فيجوز أن يعبّر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فرائد الكلمات و لأنّه ينوب منابها إنتهى كلامه.

و قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه عن صاحب الكشّاف و تقرير الكلام أنّ البحار كيفما فرضت في الإتّساع و العظمة فهي متناهية و معلومات اللّه غير متناهية و المتناهي لا يعني بضمير المتناهي البتّة إنتهى كلامه.

أقول حمل الكلمات على علم اللّه و حكمه و معلوماته خلاف ظاهر الآية إذ ليس البحث في علم اللّه و حكمه و حمل الكلمة على العلم و الحكمة لا يساعده العقل و اللُّغة أمّا اللّغة فواضحة و أمّا العقل فلأنّ الكلمة حاكية عن العلم و الحاكي غير المحكّي عنه و العجب أنّ جميع المفسّرين حملوا الكلام على ظاهره و فسّروا الكلمات بأنّها جمع كلمة أعني بها الحروف ثمّ حكموا بأنّها غير متناهية و لم يعلموا أنّ كلمات اللّه بهذا المعنى متناهية و الّذي يقوّي في نفسي هو أنّ المراد بالكلمات معناها العامّ الشّامل للتكوينيات و التشريعيات أي الموجودات الخارجيّة و الأحكام و المواعظ و إطلاق الكلمة على الموجود الخارجي شائعٌ و قد عبَّر اللّه تعالى عن المسيح عيسى إبن مريم بالكلمة حيث قال تعالىٰ:

إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ(١).

و قال اللّه تعالى: **أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ**(٢).

١- آل عمران = ٤٥ ٢- آل عمران = ٣٩

و قـال اللّـه تـعالى: **إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَ كَلِمَتُهُۥٓ**(١).

و لذلك يقال أنّ كلمات اللّه علىٰ قسمين تكوّيني و تشّريعي إذا عرفت هذا فنقول:

الكلمة التكوينيّة، هي التّي قد يعبّر عنها بكلمة الإيجاد المشار إليها:

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**(٢).

قال اللّه تعالى: **سُبْحَانَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**(٣).

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**(٤).

و أمّا الكلمات التشريعية، فهي عبارة عن الأوامر و النـواهـي و المـواعـظ و غيرهما ممّا هو موجود في الشّرائع الإلهيّة و الكتب السماويّة و هذه الكـلمات هي التّي قد تتخلّف فيها الإرادة عن المراد لكون الإختيار واسطة بينهما.

و أمّا الكلمات التّكوينيّة، فلا تخّلف فيها أصلاً فقوله تـعالىٰ: **قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى** المراد بها التّكوينيات أي الموجودات الخارجيّة أو الأعمّ منها و من التّشريعيات و من المعلوم عدم تناهيها بـالنسبة إليـنا و أمّا بالنسبة إلى خالقها فهي متناهيّة و الآية لا تدلّ على عدم تناهيها بقولٍ مطلقٍ بل تدلّ على كثرتها و أنّه ينفذ البحر قبل أن تنفذ و لا شكّ أنّ إحصاء المخلوقات خارج عن قدرة البشر قال اللّه تعالى: **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ**(٥).

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا في الآية مسائل:

١- النّساء = ١٧١
٢- النّحل = ٤٠
٣- مَريم = ٣٥
٤- يٰس = ٨٢
٥- ابراهيم = ٣٤

أحدهما: قوله: **قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** قال الرّاغب في المفردات البَشَرة ظاهر الجلد و الأدمة باطنه كذا قال عامّة الأدباء و قال أبو زيد بالعكس ذلك و جمعها بشر و أبشار، و عبّر عن الإنسان بالبشر إعتباراً بظهور جلده من الشّعر بخلاف الحيوانات التّي عليها الصُّوف أو الشَّعر أو الوّبر و إستوى في لفظ البشر الواحد و الجمع و ثنّي فقال، المؤمن لبشرين، و خصّ في القرآن كلّ موضع أعتبر من الإنسان جثته و ظاهره بلفظ البشر و ساق الكلام إلى أن قال: **إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** فيه تنبيهٌ على أنّ النّاس يتّساوون في البّشرية إنتهى موضع الحاجة من كلامه إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ إطلاق البشر على الإنسان أنّما هو بإعتبار جثته و جسمه لا بإعتبار روحه فقوله قل أنا بشرٌ مثلكم، معناه أنّي مثلكم من حيث الجثّة و الجسد و هذا ممّا لا كلام فيه فأنّ الأنبياء كانوا من جنس البشر لا من جنس الملك و الجنّ فمن هذه الجهة لا فرق بينهم و بين غيرهم من أفراد البشر و لأجل ذلك كانوا يأكلون و يشربون و ينامون و هكذا في جميع صفات البشر.

الثّانية: قوله: **يُوحَىٰٓ إِلَيَّ** أصل الوحي الإشارة السّريعة و لتّضمن السُّرعة قيل أمرٌ وحيٌ و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز و التّعريض و قد يكون بصوتٍ مجّردٍ عن التّركيب و بإشارةٍ ببعض الجوارح و بالكتابة و يقال للكلمة الآلّهية الّتي تلقى الى أنبيائه و أوليائه وحيٌ و ذلك أمّا برسولٍ مشاهد ترى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرئيل و للنّبي في صورةٍ معيّنة، و أمّا بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام اللّه، و إمّا بألقاءٍ في الرّوع كما ذكر النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، أنّ روح القدس نفث في روعي، و إمّا بإلهامٍ نحو: **وَ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ**(١) و أمّا بتسخير نحو قوله: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ**(٢).

و إمّا بمنامٍ كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم إنقطع الوحي و بقيّت المبشّرات رؤيا المؤمن.

١- القصص = ٦ ٢- النحل = ٦٧

فقوله: **يُوحَىٰٓ إِلَيَّ** إشارة الى مقام نبوتّه و هذا هو الفرق بينه و بين غيره من البشر.

فقوله: **أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** بمنزلة الجنس و قوله: **يُوحَىٰٓ إِلَيَّ** بمنزلة الفعل المميّز كما يقال في تعريف الإنسان أنّه حيوان ناطق فقوله حيوان يدخل فيه، جميع الحيوانات و قوله ناطق يخرج ما ليس له نفس ناطقة فقوله: **أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ** في الحقيقة تعريف للنّبي كأنّه قيل، النّبي ما هو، قيل هو بشر يوحى إليه، و بهذا القيد أعني به الوحي يخرج عن التّعريف جميع أفراد البشر ممّن لا يوحى إليه و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ**(١) أي من لا يُوحىٰ إليه ليس بِنبّي قَطعاً وليس كلّ بشر يصلح للوحي و بما ذكرناه يظهر لك فساد ما قال بعض الجهّال كما حكى اللّه عنهم:

قال اللّه تعالى: **قَالُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا**(٢).

قال اللّه تعالى: **هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**(٣).

قال اللّه تعالى: **مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ**(٤).

قال اللّه تعالى: **أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا**(٥).

قال اللّه تعالى: **إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ**(٦).

فهذه الآيات تدلّ على جهل قائلها، و ذلك لأنّ اللّه تعالى لم يأمرنا بطاعة البشر و متابعته في أقواله و أفعاله من حيث أنّه بشر بل أمرنا بالإنقياد له من حيث أنّه يوحى إليه ففي الحقيقة أمرنا بمتابعة الوحي في الحقيقة راجعة الى طاعة اللّه فمن أطاع النّبي فقد أطاع اللّه و من عصاه فقد عصاه و حيث أنّ الجاهل لجهله لا يعلم ما يقول يزعم أنّه يطيع البشر فيقول ما يقول.

١- الانبياء = ٢٤
٢- إبراهيم الآية ١٠
٣- الأنبياء = ٣
٤- المؤمنون = ٣٣
٥- التغابن = ٦
٦- المُدّثر = ٢٥

الثّالثة: قوله **إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ** في هذاالكلام إشارة الىٰ أنّ النبي يدعو النّاس الى التّوحيد في بدأ الأمر و أنّه أي التّوحيد هو الأصل و لذلك قال النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: **قُولُوا لا إله إلاّ اللّه تُفلَحُوا** و الوجه فيه واضح فأنّ الطّاعة فرح المعرفة.

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا خَلَقْتُ اَلْجِنَّ وَ اَلْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ**(١) أي لِيُعرفُون، وكلمة، إنّما تفيد الحصر و المعنى أنّ الإلوهيّة منحصرةٌ به تعالى لا شريك له في الملك فهو الواجب الوجود الّذي يستّحق أن يعبدوا ما سواه كائناً ما كان مخلوق له محتاج اليه حدوثاً و بقاء و قوله واحدٌ، أي واحدٌ بالوحدة الحقّة الحقيقة لا أنّه واحدٌ بالعدد كسائر الموجودات العدديّة.

الرّابعة: قوله **فَمَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صٰالِحًا وَ لاٰ يُشْرِكْ بِعِبٰادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**(٢) أي فمن كان يرجوا الثّواب من اللّه على أعماله في الدنيّا فليعمل عملاً صالحاً، و هو العمل على طبق موازين الشريفة خالصاً لوجه اللّه و لا يشرك بالشّرك الخفّي و هو الرّياء بعبادة ربّه أحداً، ففي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال سئل رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم عن تفسير قوله عزّ وجّل: **مَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰآءَ رَبِّهِ** فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم من صلّى مرائاة النّاس فهو مشرك، و من زكّى مراياة النّاس فهو مشرك و من صام مرائاة النّاس فهو مشرك و من حجّ مرائاة النّاس فهو مشرك و من عمل عملاً بما أمره اللّه عزّ وجّل مرائاة النّاس فهو مشرك و لا يقبل اللّه عزّ وجّل عمل مراءٍ إنتهى.

و في كتاب التّوحيد عن عليّ عليه السلام حديث طويل، يقول فيه و قد سأله رجل عمّا إشتبه عليه من الآيات فأمّا قوله: **بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ كٰافِرُونَ**(٣) يَعني بالبعث فسّماه اللّه عزّ وجّل لقاه و كذلك ذكر المؤمنين الّذين يظّنون أنّهم ملاقوا ربّهم يعني أنّهم يؤمنون أنّهم يبعثون و يحشرون و يجزون بالثّواب و العقاب و الظّن هنا اليقين و كذلك:

١- الذاريّات = ٥٦ ٢- الكهف = ١١٠
٣- السجدة = ١٠

قال اللّه تعالى: **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا**[۱].

قال اللّه تعالى: **مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللّٰه فَإنّ أَجَل اللّٰه لآتٍ**[۲].

يعني بقوله من كان يؤمن بأنّه مبعوث فأنّ وعد اللّه لآتٍ من الثّواب و العقاب فاللّقاء هاهنا ليس بالرؤيّة و اللّقاء هو البعث فإفهم جميع ما في كتاب اللّه من لقاءه فأنّه يعني بذلك البعث إنتهى.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول اللّه عزّ و جلّ: فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا قال عليه السلام: الرّجل يعمل شيئاً من الثّواب و لا يطلب به وجه اللّه أنّما يطلب تزكية النّاس، يشتهي أن تسمع به النّاس فهذا الّذي أشرك بعبادة ربّه ثمّ قال عليه السلام ما من عبدٍ أسَّر خيراً فذهبت الأيام أبداً حتّى يظهر اللّه له خيراً و ما من عبدٍ يسر شرّاً فذهبت الأيام حتّى يظهر اللّه له شرّاً إنتهى.

و أمّا أنّ الرّجل يعمل عملاً خيراً فرآه إنسان فيسُّره ذلك فلا إشكال لقول أبي جعفر عليه السلام ما من أحدٍ إلاّ و يحبّ أن يظهر له في النّاس الخير إذا لم يصنع ذلك.

■

۱- الكهف = ۱۱۰ ۲- العنكبوت = ۵

سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ
نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ
مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِنْ وَرَآءِى وَ
كَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾
يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا
﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ
نَجْعَلْ لَهُۥ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى
غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ
عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ
خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ
لِىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا
﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ
إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ
ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا
مِنْ لَدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ

وَ لَمْ يَكُنْ جَبّٰارًا عَصِيًّا ﴿۱۴﴾ وَ سَلاٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿۱۵﴾

◄ اللّغة

وَهَنَ: الوهن الضَّعف.

اَشْتَعَلَ: الإشتعال الإنتشار.

الشَّيْب: ضدّ الشَّباب.

عٰاقِرًا: أي لا تلد و العقر في البدن الجرح و منه أخذ العاقر.

عِتِيًّا: العتّي و العسي واحد و العاسي هو الّذي غيّره طول الزّمان إلى حال اليبس و الجفاف و قيل من له بضع و سبعون سنة.

هَيِّنٌ: أي سهلٌ يسير.

◄ الإعراب

ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ذكر، خبر مبتدأه محذوف أي هذا ذكر رحمة ربّك إِذْ ظرف لرحمة أو لذكر شَيْبًا نصب على التّمييز و قيل هو مصدر في موضع الحال و قيل هو منصوب على المصدر خِفْتُ اَلْمَوٰالِيَ فيه حذف مضاف أي عدم الموالي أو جور الموالي سَمِيًّا فعيل بمعنى مسامياً و لام الكلمة واو من سما يسمو عِتِيًّا أصله عتّو على فعول مثل تعود و جلوس إلاّ أنّهم إستثقلوا توالي الضّمتين و الواوين فكسروا التّاء فإنقلبت الواو ياءً لسكونها و إنكسار ما قبلها ثمّ قلبت الواو التّي هي لام ياءً لسبق الأولى بالسّكون و قيل، من زائدة، عتيّاً مصدر مؤكّد أو تمييز أو مصدر في موضع الحال من الفاعل كَذٰلِكَ أي الأمر كذلك و قيل هو في موضع نصب سَوِيًّا حال من الفاعل في تكلّم أَنْ سَبِّحُوا أن مصدريّة و قيل بمعنى، أي و بِقُوَّةٍ مفعول أو حال وَ حَنٰانًا معطوف على الحكم وَ بَرًّا أي و جعلناه برّاً و قيل هو معطوف على خبر كان.

◀ التّفسير

كٓهيٰعٓصٓ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ، إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا

قد تقدّم الكلام في أوّل البقرة و غيرها من السُّور إختلاف المفسّرين في الحروف المقطّعة و أنّه لا يعلم معناها إلاّ اللّه تعالى و المشهور عندهم أنّها أسماء السُّور و قال بعضهم أنّ كلّ حرفٍ منها حرف من إسم من أسماء اللّه و اللّه أعلم.

قوله: **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ**، أي هذا ذكر رحمة ربّك عبده زكريّا، وصفه بالعبوديّة إشارة إلىٰ تقرّبه عند اللّه و أنّه نال مقام العبوديّة كما عبّر عن رسوله بالعبد حيث قال: **سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**(١) و قد ثَبت أنّه لا مقام فوق مَقام العبوديّة و لذلك في أيّوب النّبي:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ**(٢).

و في نوح:

قال اللّه تعالىٰ: **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا**(٣).

و في داوود و سليمان:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ وَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**(٤).

و في عيسىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ**(٥).

و في نوح:

قال اللّه تعالىٰ: **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**(٦).

و في الخِضر:

١- الاسراء = ١
٢- ص = ٤١
٣- القَمَر = ٩
٤- ص = ٣٠
٥- مَريم = ٣٠
٦- الإسراء = ٣

قال اللّه تعالى: **فَوَجَدا عَبْدًا مِنْ عِبادِنآ**[١].

و قد ورد في الأخبار أنّ مقام العبّودية فوق الرّسالة و النبّوة **إِذْ نادىٰ رَبَّهُ نِدآءً خَفِيًّا** أي حين دعا ربّه سِرّاً غير جَهراً لا يُريد به رياء و قيل أسَرَّه من مواليه الّذين خافهم، و قيل دعائه كان في جوف اللّيل، و قيل لإخلاصه فيه فلا يَعلَمه إلاّ اللّه والإحتمالات كثيرة.

قالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَ ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا

حكى اللّه تعالى في هذه الآية ما دعا زكرّيا ربّه قال ربّ، أي ربّي، حذفت الياء لدلالة الكسرة عليه، أنّي وهن العظم منّي، أي عرض علّي الضَّعف و هو نقصان القوّة و أنّما أسند الوهن إلى العظم لأنّه عمود البدن و به قوامه و هو أصل بناءه فإذا وهن تداعى ما وراءه و تساقطت قوّته و لأنّه أشدَّ ما فيه و أصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن و وحَّد العظم لأنّه يدلّ على الجنس و قصد في كلامه هذا أنّ هذا الجنس الّذي هو العمود و القوام و أشدَّ ما ترَّكب منه الجسد قد أعياه الوهن.

و قال قتادة إشتكى سقوط الأضراس، و قال الكرماني كان له سبعون سنة و قيل خمس و سبعون وقى خمس و ثمانون و قيل ستُّون و قيل غير ذلك بعض المفسّرين في وجه الإضافة إلى العظم أنّ العظم مع صلابته إذا كبر ضعف و تناقص فكيف باللّحم و العصب و قوله: **ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا** شبّه الشَّيب بشواظ النّار في بياضه و إنتشاره في الشّعر وفشوه فيه و أخذه منه كلّ مأخذ بإشتعال النّار ثمّ أخرجه مخرج الإستعارة ثمّ أسند الإشتعال إلى مكان الشَّعر و منبته و هو الرّأس و أخرج الشّيب مميّزاً ولم يضف الرّأس إكتفاءً بعلم

١- الكهف = ٦٥

المخاطب أنّه رأس زكريّا فمن ثمّ فصحت هذه الجملة و شهد لها بالبلاغة.

قال الزّمخشري و إلى هذا نظر إبن دريد حيث قال:

و إشتعل المبّيض في مسّوده مثل إشتعال النّار في جزل الفضاء

و قيل قوله: شَيْبًا مصدر في موضع الحال و إشتعال الرّأس إستعارة المحسوس للمحسوس إذا المستعار منه النّار و المستعار له الشّيب و الجامع بينهما الإنبساط و الإنتشار و قوله، و لم يكن، نفي فيما مضى أي ما كنت بدعائك ربّ شقيّاً بل كنت سعيداً موّفقاً إذ كنت تجيب دعائي فأسعد بذلك فعلى هذا الكاف مفعول و قيل المعنى لم أكن فيما مضى بدعائك إلى الإيمان شقيّاً بل كنت ممَّن أطاعك و عبدك مخلصاً فالكاف على هذا فاعل و الأوّل أظهر لأنّه شكر اللّه تعالى بما سلف إليه من أنعامه أي قد أحسنت إلّي فيما سلف و سعدت بدعائي إيّاك فالإنعام يقتضي أن تجيبني آخراً كما أجبتني أوّلاً.

وَ إِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوالِىَ مِنْ وَرآءِى وَ كانَتِ ٱمْرَأَتِي عاقِرًا فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُني وَ يَرِثُ مِنْ الِ يَعْقُوبَ وَ ٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا

الموالي بنو العمّ و القرابة الّذين بالنَّسب قال الشّاعر:

مهلاً بني عمّنا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفوناً

و قال لبيد:

و مولي قد دفعت الضّيم عنه و قد أمسى بمنزلة المضيم

و قال إبن عبّاس و مجاهد و قتادة الموالي هنا الكلالة، خاف أن يرثوا ماله و أن يرثه الكلالة و قالت فرقة أنّما كان مواليه مهملين الدّين فخاف بموته أن يضيع الدّين فطلب وليّاً يقوم بالدّين وحده و قال صاحب الكشّاف كان مواليه و هم عصبة و أخوته و بنو عمّه شرار بنيإسرائيل فخافهم على الدّين أن يغيّروه و يبدّلوه و أن لا يحسنوا الخلافة على أمّته فطلب عقباً من صلبه صالحاً

يقتدي به في إحياء الدّين من ورائي أي من بعد موتي و كانت إمرأتي عـاقراً لا تصلح للولادة فهب لي من لدنك ولّياً فأنّك قادرٌ على ذلك ثـمّ قـال يـرثني و يرث من آل يعقوب و إجعله ربّ رضيّاً أي إجعل ذلك الوّلي الّذي يـرثني مرضيّاً عندك ممتثلاً لأوامرك و نواهيك ففي هذه الآيـة طلب زكـرّيا مـن اللّـه تعالى وليّاً يرثه و يرث من آل يعقوب و أن يكون صالحاً مرضيّاً عند اللّه و هذا ظاهر لا خلاف فيه أنّما الكلام في قوله: **يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ اٰلِ يَعْقُوبَ** و أنّ زكرّيا عليه السلام أيّ إرثٍ أراد و بعبارةٍ أخرى مالمراد بالإرث في الآية هل هو المـال أو العلم و الحكمة و النبوّة و نحن نذكر أوّلاً ما ذهب إليه المفسّرون من العامّة ثمّ نردفه بما ذكره الخاصّة أعني بهم الشيعة تبعاً لأهل البيت فنقول:

قال الطّبري و قوله فهب لي من لدنك وليّاً يقول فأرزقني من عندك ولداً و ارثاً معيّناً و قوله: **يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ اٰلِ يَعْقُوبَ** يقول يرثني من بعد وفاتي مالي و يرث من آل يعقوب النبوّة و ذلك أنّ زكريّا كان من ولد يعقوب ثمّ نقل الأخبار الواردة في الباب و بعد ذلك نقل منها ما يدلّ على أنّ المراد هو العـلم أو النبّوة و العلم دون المال.

و نقل عن السّدي أنّه قال يرث نبوّتي و نبوّة آل يعقوب.

و قال القرطبي و قالت طائفة أنّما كان مواليه مهملين للدّين فخاف بموته أن يضيع الدّين فطلب وليّاً يقوم بالدّين بعده حكى هذا القول الزّجاج و عليه فلم يسأل من يرث ماله لأنّ الأنبياء لا نورث و هذا هو الصّحيح مـن القـولين فـي تأويل الآية و أنّه عليه السلام أراد وراثة العـلم و النبّوة لا وراثـة المـال لمـا ثـبت عـن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال إنّا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة.

و في كتاب أبي داود أنّ العلماء ورثة الأنبياء و أنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً و لا درهماً و وَّرثوا العلم و ساق الكلام إلى أن قال و أنّ سليمان لم يرث من داود مالاً خلّفه داود بعده و أنّما ورث منه العلم و الحكمة و كذلك ورث يحيى من آل يعقوب هكذا قال أهل التّأويل (أهل العلم بالتّأويل) ما عدا الرّوافـض و إلاّ

ما روي عن الحسن أنّه قال يرثني مالاً و يرث من آل يعقوب النبوّة و الحكمة و كلّ قولٍ يخالف قول النبي ﷺ فهو مدفوعٌ مهجورٌ إنتهىٰ كلامه.

و قال الرّازي و إختلفوا في المراد بالميراث على وجوهٍ:

أحدها: أنّ المراد به في الموضعين هو وراثة المال و هذا قول إبن عبّاس و الحسن و الضّحاك.

ثانيها: أنّ المراد به في الموضعين وراثة النبوّة و هو قول أبي صالح.

ثالثها: يرثني المال و يرث من آل يعقوب النبوّة و هو قول السُّدي و مجاهد و الشُّعبي.

رابعها: يرثني العلم و يرث من آل يعقوب النبوّة و هو مرّويّ عن مجاهد و إعلم أنّ هذه الرّوايات ترجع إلى أمور خمسة و هى المال، و منصب الحبورة و العلم و النبّوة و السيّرة الحسنة ولفظ الإرث مستعملٌ في كلّها إنتهى موضع الحاجة من كلامه و من أراد الوقوف على ما ذكره مفصّلاً فعليه بكتابه.

و قال الألوسي في تفسيره لهذه الآية بعد نقله الأقوال ما هذا لفظه و مذهب أهل السّنة أنّ الأنبياء لا يرثون مالاً و لا يورثون لما صحّ عندهم من الأخبار إنتهى.

و قال البيضاوي و المراد وراثة الشّرع و العلم فأنّ الأنبياء لا يورثون المال و قيل يرثني الحبورة فأنّه كان حبراً و يرث من آل يعقوب الملك إنتهى.

و قال السّيوطي في الدّر المنثور بعد ما فسَّر الورثة بالعصبة في قوله ربِّ هب لي من لدنك وليّاً يرثني و يرث من آل يعقوب، قال يرثني مالي و يرث من ال يعقوب النبوّة، ثمّ نقل بعد ذلك من الأخبار ما يدلّ على أنّ المراد بالميراث هو النبوّة و العلم، و فى حديثٍ السنّة و العلم كما ذكره الطّبري و حاصل الكلام أنّهم حملوا الوراثة على الوراثة في العلم و النبوّة و الحكمة و غير ذلك ممّا شاءوا و أرادوا لا على وراثة المال و الّذي دعاهم إلى ذلك هو الحديث الّذي رواه أبو بكر عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما

تركناه صدقة، فهذا هو الّذي ألجأهم إلى حمل الآية على خلاف ظاهرها و منشأ ذلك ليس إلاّ التّعصب و العناد فأنّ كلمة الوراثة حقيقة في الوراثة الماليّة مجازٌ في غيرها و ذلك لأنّ وراثة العلم و النبوّة و الحكمة و أمثالها من الفضائل لا معنى لها حقيقةً لأنّها من الأمور الكسبيّة أو الإفاضيّة من عالم الغيب و لا يعقل أن يكون أحدٌ وارثاً لعلم غيره أو سخاءه أو شجاعته و هو ممّا يشهد به العقل بل الحسّ أيضاً ففي كلّ موردٍ أطلق لفظ الإرث على غير المال يحمل على المجاز المعلوم أنّ حمل اللّفظ على المعنى المجازي يحتاج إلى القرنية المصححة فإذا لم توجد القرينة يحمل اللّفظ على معناه الحقيقي و أيّة قرينة دلَّت في الآية على ما ذكروه و لذلك قال إبن عطّية و الأكثر من المفسّرين على أنّ زكريّا أنّما أراد وراثة المال و يحتمل قول النّبي إنّا معشر الأنبياء لا نورث، أن لا يريد به العموم بل على أنّه غالب أمرهم فتأمّله و الأظهر الأليق بزكريّا عليه السلام أن يريد وراثة العلم و الدّين فتكون الوراثة مستعارة إنتهى.

فقوله مستعارة تصريح منه بأنّه أن أريد بالوراثة العلم و الدّين، فهو ليس على المعنى الحقيقي بل إستعارة و إذا كان الأمر على هذا المنوال فحمل الكلام على وراثة المال و العلم أولى من حمله على العلم فقط ولكنّهم لا يرضون به الآن كما لم يرضوا به سابقاً تعصّباً و عناداً، و أمّا المفسّرون منّا فقد إتّفقوا على حمل اللّفظ على معناه اللّغوي و هو المال و هذا المعنى شائع في العرف أيضاً فإذا قيل زيدٌ وارث عمرو أو ورث عمرواً لا يفهم العرف منه إلاّ الوراثة في المال قال بعض المحقّقين في هذه الآية دلالة على بطلان ما رواه أبو بكر من أنّ الأنبياء لا تورث و ذلك لأنّ زكريّا طلب الوارث و من الواضح أنّ المراد من يرث المال أو الأعمّ منه و من العلم و النبوّة و الحمل على أنّه أراد من يرث العلم و النبوّة خاصّة خلاف المتبادر الّذي هو علامة الحقيقة و إرادة الخاصّ من العامّ مع عدم وجود المخصّص غير منقول و لا مخصَّص في المقام بالإتّفاق فأن قالوا أنّ المخصَّص هو الخبر الّذي رواه أبو بكر قلنا:

أمّا أوّلاً: أنّه خبرٌ واحد و هو لا يصلح لتخصيص عموم الكتاب.

ثانياً: لم تثبت صحّته إذ لم يشهد على صحّته إلاّ عائشة و حفصة و عمر و هو كما ترى.

ثانياً: أنّه مخالف للأيات على ما سيأتي في موضعه و أعجب من ذلك كلّه إستدلال العامّة بهذه الآية على التّعصب أيضاً لأنّه أي زكريّا طلب وليّاً يرثه وَلَم يطلب وليّه ولولا التّعصب لم يخصّ الطّلب به بل قال وليّاً أو وليّته فلمّا خصّصه به دلّ على أنّ بني عمّه يرثونه مع الولّية فلذلك لم يطلبها و لم يعلموا أنّ الوَّلي يشمل الذّكر و الأنثى و التّذكير بإعتبار التّغليب و إلاّ يلزم أن يكون قوله اللّه ولّي الّذين آمنوا مثلاً مختصّاً بالرّجال و أنّ اللّه تعالى مذّكر لا مؤنّث لأنّه لم يقل ولّيته للّذين آمنوا، و بعد الغّض عن جميع ما ذكرناه نقول وجه التّخصيص أنّه جرى على ما عليه طباع البشر من الرّغبة في البنين دون البنات أو أنّه طلب من يرث المال و يقوم بأعباء النّبوة معاً و مثله لا يصلح للنّساء و محصّل الكلام أنّ الميراث في المال كان ثابتاً في جميع الأمم و هذا هو الأصل في قانون الإرث و ما سواه مجاز و قد ثبت هذا الأصل في الإسلام أيضاً بصريح الأيات و الأخبار و الإجماع و العقل بل لا يبعد أن يكون من ضروريّات الإسلام المعلوم أنّ الرّسول في جميع الأمم أولى بالعمل بالأحكام الّتي جاء بها من غيره فكيف يعقل إنتشاءه عن الحكم و ثبوته لأمّته و أيُّ فرقٍ بين قوله إنّا معشر الأنبياء لا نورث و بين القول إنّا معشر الأنبياء لا نصلّي أو لا نصوم و هكذا في المحرّمات ثمّ نقول كيف يعقل الأخذ بالحديث الّذي لم تثبت صحّته بل تنادي ألفاظه بأنّه مجعول، و ترك الكتاب و الإعراض عمّا جاء فيه، أليس اللّه أثبت الميراث في كتابه بالنسبة إلى جميع الأمم ألم يقل و ورث سليمان داود، أليس حكم الأمثال واحد فأن قال قائلٌ الأيات تدلّ على ثبوت الإرث في الأمم السّالفة و أنبيائهم و أمّا في الإسلام فلا و لا يبعد أن يكون حكم الإرث ثابتاً للأنبياء و إستثنى منهم رسول الإسلام دون أمّته، نقول في الجواب أمّا أوّلاً فهذا محتاج إلى الإثبات.

ثانياً: لو كان كذلك لقال صلى الله عليه وآله وسلم أنا من بين الأنبياء لا أورث، و أمّا قوله، إنّا معشر الأنبياء أو نحن، فهو يشمل جميع الأنبياء من آدم إلى خاتم الأنبياء و يلزم التّعارض بين الحديث و نصّ الكتاب، و كان جاعل الحديث غفل عن هذه النّقطة و لم يقل أنا من الأنبياء لا أورث حتّىٰ لا يقع التّعارض بين الحديث و الكتاب و يمكن تخصيص الكتاب به على فرض صحّته و أمّا على ما نقلوه من أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال إنّا معشر الأنبياء لا نورث فلا يمكن تخصيص الكتاب به لإستحالة تخصيص العامّ بعامٍّ أخر و هو واضح.

إن قلت فما كان الوجه في تمَسّكهم بالحديث على خلاف الكتاب.

قلت الوجه فيه منع الزّهراء عليها السلام عن الميراث عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بقولٍ مطلق إذ ثبوت الميراث في المال يستلزم الثّبوت في غيره أيضاً و قد نقل إبن أبي الحديد المعتزلي في شرحه على نهج أنّه قال لأستاذه، ما بال أبي بكر لم يصدِّق فاطمة الزّهراء في قولها بثبوت الميراث لها بصريح الكتاب ألم يعلم أنّها صدّيقة شهدت آية التّطهير بصدقهما قال الأستاذ و هو أبو جعفر النّقيب نعم كان أبو بكر عالماً بأنّ الزّهراء صادقة في قولها قلت فلم لم يرّد اليها ما إدَّعتها قال لأنّ أبا بكر كان يعلم أنّ تصديقها في مسألة الميراث و فدك يوجب تصديقها في جميع الموارد و منها مسألة الخلافة، إنتهى كلامه بتلخيص منّا و قد تكلّمنا في هذا الباب في شرحنا على خطبة فدك بما لا مزيد عليه و قلنا هناك أنّ السِّر في جعل الحديث هو هذا: **وسيعلَم الّذين ظَلمُوا أيّ مُنقَلب يَنقلِبُون إنّا لِلّه وإنّا إليه راجعُون.**

و لنعم ما قال الشيخ في التّبيان حيث قال و فى الآية دلالة على أنّ الأنبياء يورثون المال بخلاف ما يقول من خالفنا أنّهم لا يورثون، لأنّ زكريّا صرح بدعاءه و طلب من يرثه و يحجب منّي عمّه و عصبته من الولد و حقيقة الميراث إنتقال ملك المورث، إلى ورثته بعد موته بحكم اللّه و حمل ذلك على العلم و النّبوة على خلاف الظّاهر لأنّ النّبوة و العلم لا يورثان لأنّ النُّبوة

تابعة للمصلحة لا مدخل للنّسبة فيها و العلم موقوف على من يتّعرض له و يتعلّمه على أنّ زكريّا إنّما سأل وليّاً من ولده يحجب مواليه من بني عمّه و عصبته من الميراث و ذلك لا يليق إلاّ بالمال لأنّ النُّبوة و العلم لا يحجب الولد عنهما بحالٍ على أنّ إشتراطه أن يجعله رضيّاً لا يليق بالنُّبوة لأنّ النّبي لا يكون إلاّ رضيّاً معصوماً فلا معنى لمسألته ذلك وليس كذلك المال لأنّه يرثه الرّضي و غير الرّضي إنتهى موضع الحاجّة من كلامه رفع مقامه و للبحث فيه مقام آخر.

يٰا زَكَرِيّٰآ إِنّٰا نُبَشِّرُكَ بِغُلاٰمٍ اَسْمُهُ يَحْيٰى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا

قيل المنادى هم الملائكة بوحيٍ من اللّه و ذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **فَنٰادَتْهُ اَلْمَلاٰئِكَةُ وَ هُوَ قٰائِمٌ يُصَلّي فِى اَلْمِحْرٰابِ أَنَّ اَللّٰهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيٰى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اَللّٰهِ وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنَ اَلصّٰالِحِينَ**[١].

و الغلام الولد الذّكر و قد يقال للأنثى غلامة، و الظّاهر أنّ يحيى ليس عربيّاً لأنّه لم تكن عادتهم أن يسّموا بالفاظٍ عربيّة فيكون منعه الصّرف للعلَمية و العميّة، و قيل يسّمىٰ بذلك لأنّه يحيى بالحكمة و العفّة أو بهدايته و إرشاده خلق كثير، و قيل لأنّه يستشهد و الشُّهداء أحياء و كيف كان فقد بشّر زكريّا بما طلبه من اللّه و هو الولد و قوله: **لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا** قال إبن عبّاس معناه لم يلد مثله العواقي ولداً و قال مجاهد لم نجعل له من قبل، مثلاً، و قال إبن جريح و قتادة لم يسّم أحداً بإسمه قبله من الأنبياء.

قٰالَ رَبِّ اَنّٰى يَكُونُ لي غُلاٰمٌ وَكٰانَتِ اَمْرَأَتي عٰاقِرًا وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ اَلْكِبَرِ عِتِيًّا

١- آل عُمران = ٣٩

أي قال زكريّا لّما نودي بذلك، أنّى، أي كيف يكون لي غلام، و إمرأتي عاقر، لا يلد مثلها، و قد بلغت، أنا من الكبر أي من السِّن عتيّاً، العتّي بكسر العين و التّاء المبالغة في الكبر و العاسي هو الّذي غيّره طول الزّمان الى حال اليبس و الجَّفاف.

و قال قتادة كان له تسع و سبعون سنة، و هذا أي كسر العين في قوله عتيّاً، هو قرائة الكسائي و حمزة و الأعمش و أمّا غيرهم من الشّيعة فقرأوها بالضّم و المعنى واحداً و لا خلاف فيه.

قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئًا.

قال أي قال اللّه تعالى له، كذلك أي الأمر كذلك فهو تصديقٌ له ثمّ إبتدأ فقال: **قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**، أي ليس يشّق عليه خلق الولد من بين شيخٍ و عاقرٍ لأنّه قادرٌ على كلّ شيءٍ و فى قوله: **قَالَ رَبُّكَ** إشارة إلى أنّ المنادي كان ملكاً من قبل اللّه تعالى و هو الّذي أخبر عن اللّه بقوله قال ربّك ولو كان المنادي هو اللّه تعالى لقال، أقول و هو علّي هيّنٌ أي سهلٌ يسيرٌ و كيف لا يكون سهلاً و قد خلقتك من قبل، ذلك و لم تك شيئاً،موجوداً و هذاالكلام بمنزلة التّعليل لقوله: **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** بقياس الأوّلوية و ذلك لأنّ الخلق من العدم المحض أصعب من الخلق من بين شيخٍ و عاقرٍ و الأوّل قد حصل فالثّاني أولىٰ بالحصول و المقصود كيف تتَّعجب من حصول الولد لك و أنت شيخ و إمرأتك عاقر و قد علمت أنّي خلقتك ولم تك شيئاً، و فيه إشارة إلى عموم قدرته تعالى بجميع الممكنات و صورة القياس هكذا، إنّ خلق الولد عن الشّيخ و العاقر أمرٌ ممكنٌ لا إستحالة فيه و كلّ ممّكنٍ تتّعلق القدرة به و يوجد فهو يوجد.

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا.

الآية العلامة طلب زكريّا من ربّه آية و علامة يعلم بها وقوع ما بشّر به و أنّما طلب ذلك ليزداد يقيناً لا أنّه كان شاكّاً في قدرته كما قال إبراهيم عليه السلام: **وَ لَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** قال اللّه تعالى له: **ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ**، ثلاث ليالٍ، قال إبن عبّاس إعتقل لسانه من غير مرضٍ ثلاثة أيّام.

و قال قتادة إعتقل لسانه من غير خرسٍ، قيل أنّه لمّا حملت زوجته بيحيىٰ أصبح لا يستطيع أن يكلّم أحداً و هو مع ذلك يقرأ التّوراة و يذكر اللّه فإذا أراد مناداة أحد لم يطقه و سوّياً حال من ضمير أي لا تكلّم في حال صحّتك ليس بك خرس و لا مرض و قيل قوله: **سَوِيًّا** عاقد على اللّيالي أي كاملات مستويات فتكون صفة لثلاث و دلّ ذكر اللّيالي هنا، و الأيّام في آل عمران على أنّ المنع من الكلام إستّمر له ثلاثة أيّام بلياليهن، و أن، في قوله أن لا تكلّم النّاس هي النّاصبة للمضارع وليست بالمخفّفة من الثّقيلة كما زعم.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا

أي و هو بتلك الصّفة من كونه لا يستطيع أن يكلّم النّاس من المحراب أي من محراب عبادته و المحراب بكسر الميم هو موضع الصّلاة، فأوحى إليهم، أي أشار إليهم لعدم قدرته على التّكلم أو لعدم كونه مأموراً به فأشار إليهم و قيل كتب على الأرض و قال عكرمة كتب في ورقةٍ و الوحي في كلام العرب الكتابة و منه قول ذي الرّمة:

سوى الأربع الدّهم اللّواتي كأنّها　　بقيّة وحي في بطون الصّحائف

و قال الآخر:

كوحي صحائف من عهد كسرى　　فأهداها لأعجم طمّطميُ

و قال جرير:

كأنّ أخا اليهود يخّط وحياً　　بكافٍ في منازلها ولام

و قوله: **أَنْ سَبِّحُوا** فقيل أي صلُّوا و قيل أمرهم بتسبيح اللّه و ذكره المفسّرون كان يخرج على قومه بكرةً و عشيّاً فيأمرهم بالصّلاة إشارةً.

أقول و لا يبعد أن يكون الأمر بالتّسبيح لنقطةٍ و هى أنّ العادة جارية أنّ كلّ من رأىٰ أمراً عجيباً يقول سبحان اللّه سبحان الخالق و علي هذا فلمّا رأى حصول الولد من شيخٍ و عاقرٍ تعَّجب منه فسَّبح هو و أمر غيره بالتَّسبيح أيضاً، و أن، في قوله: **أَنْ سَبِّحُوا** مفّسرة و قيل قوله: **أَنْ سَبِّحُوا**، نصب بأوحى، و قيل أنّها مصّدرية و هى تكون بمعنى أى:

يٰا يَحْيىٰ خُذِ ٱلْكِتٰابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنٰاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا

قيل في الكلام حذف و تقديره، فلمّا ولد يحيى و كبر و بلغ السّن الّذي يؤمر فيه قال اللّه على لسان الملك يايحيى خذ الكتاب و هو التّوراة إذ لم يكن الإنجيل موجوداً، و قيل كان له كتاب خصّ به كما خصّ كثير من الأنبياء بمثل ذلك و قيل الكتاب صحف إبراهيم و المشهور عند المفسّرين هو القول الأوّل و قوله: **بِقُوَّةٍ**، أي بجدٍ، و آتيناه الحكم صبيّاً، أي أعطيناه الفهم لكتاب اللّه و قيل الحكم هنا النبّوة و قيل الحكمة و العلم بالأحكام و قيل هو اللُّب و العقل الكامل، و قيل آداب الخدمة أو الفراسة الصّادقة و الكلّ محتملٌ و قوله صبيّاً، أي طفلاً لأنّه كان إبن سنَّتين و قيل إبن ثلاث و قيل إبن سبع و الآية تدلّ على أنّه كان صبيّاً و أمّا تعيين السّن فلا دليل عليه و فى الآية إشارة إلى أنّ الصَّبي يمكن أن يكون نبيّاً و هو كذلك.

وَ حَنٰانًا مِنْ لَدُنّٰا وَ زَكٰوةً وَ كٰانَ تَقِيًّا، وَ بَرًّا بِوٰالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبّٰارًا عَصِيًّا، وَ سَلاٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا

وَ حَنٰاناً، معطوف علىٰ الحكم أي و آتيناه الحكم صبيّاً و حناناً من لدُّنا و الحنان الرّحمة أي آتيناه الحكم و الرَّحمة من لدُّنا، أي من عندنا و ذلك لأنّ

الحكم و الرّحمة من عند اللّه فقط سواء كان الحكم بمعنى النبّوة أم العلم و الحكمة فأنّ الكلّ من عند اللّه تعالى الرّحمة و قوله: **زَكَوٰةً** أي عملاً صالحاً و عن الزّجاج أي تطهيراً، و قيل زيادة في الخير هكذا قيل و قال الشّيخ في التّبيان أي إنّا زكّيناه بحسن الثّناء عليه كما يزكّي الشّهود الإنسان و أنا أقول الزّكوة في الأصل النمو أي رفعناه مكاناً رفيعاً عليّاً، و كان تقيّاً، أي كان يحيى تقيّاً لا يعدل به غيره لانّه لم يعص اللّه بلO بم يهّم قطّ بكبيرةٍ و لا صغيرةٍ و كان طعامه العشب المباح، و بعبارةٍ أخرىٰ كان يتّقي معاصي اللّه و ترك طاعته زاهداً في الدّنيا راغباً للأخرة، و برّاً بوالديه، أي كثير البّر و الإكرام و التّبجيل و قرأ بعضهم، بِرّاً، بكسر الباء أي و ذا برٍّ، و لم يكن جبّاراً أي متكبراً، عصيّاً أي عاصياً كثير العصيان، و سلامٌ عليه، و سلام اللّه على يحيى يوم ولد من أمّه يموت و يوم يبعث حيّاً، أي يوم القيامة.

قال الطّبري أي أمان و قال إبن عطيّة و الأظهر أنّها التحيّة المتعارفة و أنّما الشّرف في أن سلم اللّه عليه و حيّاه في المواطن التّي يكون الإنسان فيها في غاية الضّعف و الحاجة و قلّة الحيلة و الفقر إلى اللّه.

أقول نقل المجلسيﷺ في البحار بأسناده عن الرّيان بن شبيب قال دخلت على الرّضاعليه السلام في أوّل يومٍ من المحرّم فقال عليه السلام يابن شبيب أصائم أنت فقلت لا فقال عليه السلام إنّ هذا اليوم هو اليوم الّذي دعا زكريّا ربّه فقال ربّ هب لي من لدنك ذريّةً طيّبةً أنّك سميع الدُّعاء فإستجاب اللّه له و أمر الملائكة فنادت زكريّا و هو قائم يصّلي في المحراب أنّ اللّه يبشّرك بيحيىٰ فمن صام هذا اليوم ثمّ دعا اللّه عزّ وجلّ إستجاب اللّه له كما إستجاب لزكريّا إنتهى.

و بأسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفرعليه السلام قال: قلت ما عني اللّه تعالى بقوله في يحيىٰ: وَ حَنانًا مِنْ لَدُنَّا وَ زَكَوٰةً قال عليه السلام تحنّن اللّه قال قلت فما بلغ من تحنُّن اللّه عليه قال عليه السلام كان إذا قال ياربّ قال اللّه عزّ وجلّ لبيّك يا يحيى إنتهى.

و بأسناده عن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ كان من زهد يحيى إبن زكريّا أنّه أتى بيت المقدس فنظر إلى المجتهدين من الأحبار و الرُّهبان عليهم مدارع الشَّعر و برانس الصُّوف و إذا هم قد خرقوا تراقيهم و سلكوا فيها السّلاسل و شدّوها إلى سواري المسجد فلمّا نظر إلى ذلك أتى أمّه فقال يا أمّاه أنسجي لي مدرعة من شعرٍ و برنساً من صوف حتّى أتى بيت المقدّس فأعبد اللّه مع الأحبار و الرُّهبان فقالت له أمّه حتّى يأتي نبي اللّه و أوامره في ذلك فلمّا دخل زكرّيا أخبرته بمقالة يحيى فقال له زكريّا يا بنّي ما يدعوك إلى هذا و أنت صبّي صغير فقال له يا أبه ما رأيت من هو أصغر سنّاً منّي قد ذاق الموت قال بلى، ثمّ قال لأمّه أنسجي له مدرعة من مشعر و برنساً من صوف ففعلت فتدّرع المدرعة على بدنه و وضع البرنس على رأسه ثمّ أتى بيت المقدّس فأقبل يعبد اللّه عزّ وجلّ مع الأحبار حتّىٰ أكلت مدرعة الشعر لحمه فنظر ذات يوم الى ما قد نحل من جسمه فبكى فأوحى اللّه عزّ وجلّ اليه يا يحيى أتبكي ممّا نحل من جسمك و عزّتي و جلالي لو إطلّعت الى النّار إطلاعة لتدرّعت مدرعة الحديد فضلاً عن المنسوج فبكى حتّى أكلت الدّموع لحم خدَّيه و بدا للناظرين أضراسه فبلغ ذلك أمّه فدخلت عليه و أقبل زكريّا و إجتمع الأحبار و الرّهبان فأخبروه بذهاب لحم خديّه فقال ما شعرت بذلك فقال زكريّا يا بنّي ما يدعوك الى هذا أنّما سئلت ربّي أن يهبك لي لتقّربك عيني قال أنت أمرتني بذلك يأ أبه قال و متى ذلك يا بنّي قال ألست القائل إنّ بين الجنّة و النّار لعقبة لا يجوزها إلاّ البكاؤن من خشية اللّه قال بلى فجّد و أجتهد و شأنك غير شأني فقام يحيى فتفقد مدرعه فأخذته أمّه فقالت أتأذن لي يا بنّي أن أتّخذ لك قطعتي لبود تواريان أضراسك و تنشفان دموعك

فقال لها شأنك فأتخذت قطعتي لبود تواريان أضراسه و تنشفان دموعه حتّى إبتلتا من دموع عينيه فحسر عن ذراعيه ثمّ أخذهما فعصرهما فتحدّر الدّموع من بين أصابعه فنظر زكريّا الى إبنه و الى دموع عينيه فرفع رأسه الى السّماء فقال اللّهم هذا إبني و هذه دموع عينيه و أنت أرحم الرّاحمين إنتهى موضع الحاجة منه والحديث طويل.

و بأسناده عن ياسر الخادم قال: سمعتُ الرّضا عليه السلام يقول أنّ أوحش ما يكون لهذا الخلق في ثلاثة مواطن يوم يلد فيخرج من بطن أمّه فيرى الدُّنيا و يوم يموت فيعاين الأخرة و أهلها و يوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدّنيا و قد سلم اللّه تعالى على يحيى في هذه المواطن اللاثة و آمن من روعته فقال و سلامٌ عليه يوم ولد و يوم يموت و يوم يبعث حيّاً وقد سلم عيسى إبن مريم على نفسه في هذه الثّلاثة المواطن فقال والسّلام علّي يوم أموت و يوم أبعث حيّاً إنتهى.

و بأسناده سأل سعد بن عبد اللّه القائم عليه السلام عن تأويل كهيعص، قال عليه السلام: هذه الحروف من أنباء الغيب إطّلع اللّه عليها عبده زكريّا ثمّ قصّها على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

و ذلك أنّ زكرّيا سأل ربّه أن يعلّمه أسماء الخمسة فأهبط عليه جبرائيل فعلَّمه أيّاها فكان زكريّا إذا ذكر محمّداً و عليّا و فاطمة و الحسن و الحسين سرّي عنه همّه و إنجلى كربه و إذا ذكر إسم الحسين عليه السلام خنقته العبرة و وقعت عليه البهرة فقال عليه السلام ذات يوم إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعة منهم تسَّليت بأسماءهم من همومي و إذا ذكرت الحسين تدمع عيني و تثور زفرتي فأنبأه اللّه تبارك و تعالى عن قصّته فقال كهيعص، فالكاف إسم كربلاء، و الهاء هلاك

العترة و الياء يزيد و هو ظالم الحسين و العين عطشه و الصّاد صبره فلمّا سمع ذلك زكريّا لم يفارق مسجده ثلاثة أيّام و منع فيهنّ النّاس من الدّخول عليه و أقبل على البكاء و النَّحيب و كان يرثيه إلهي خير جميع خلقك بولده إلهي أتنزل بلوى هذه الرّزية بفناءه، إلهي أتلبس عليّاً و فاطمة ثياب هذه المصيبة إلهي أتَّحل كربة هذه المصيبة بساحتهما ثمّ كان يقول إلهي أرزقتني ولداً تقرّ به عيني على الكبر فإذا رزقتنيه فأفتني بحبّه ثمّ أفجعني بعدكما تفجع محمّداً حبيبك بولده فرزقه اللّه بيحيى و فجعه به و كان حمل بيحيى ستّة أشهر و حمل الحسين عليه السلام كذلك الخبر، و أمّا شهادته فقد روى أيضاً بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال أنّ ملكاً كان على عهد يحيى بن زكرّيا لم يكفه ما كان عليه من الطُّروقة حتّى تناول إمرأةً بغيّاً، فكانت تأتيه حتّىٰ أسنت فلمّا أسنت هيّأت إبنتها ثمّ قال لها أني أريد أن أتي بك الملك فإذا واقعك فيسألك ما حاجتك فقولي حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريّا فلمّا واقعها سألها حاجتها فقالت قتل يحيى إبن زكريّا فلمّا كان في الثّالثة بعث إلى يحيى فجاء به فدعا بطست ذهب فذبحه فيها و صبُّوه على الأرض فيرتفع الدَّم و يعلو و أقبل النّاس يطرحون عليه التّراب فيعلو عليه الدّم حتّى صار تلاً عظيماً و مضى ذلك القرن فلمّا كان من أمر بخت نصر ما كان رأى ذلك الدَّم فسأل عنه فلم يجد أحداً يعرفه حتّى دلّ على شيخٍ كبيرٍ فسأله فقال أخبرني أبي عن جدّي أنّه كان من قصّة يحيى بن زكريّا كذا و كذا و قصَّ عليه القصّة و الدَّم دمه فقال بخت نصر لا جرم لأقتلَّن عليه حتّى يسكن فقتل عليه سبعين ألفاً فلمّا وفىٰ عليه سكن الدَّم، و فى خبر أخر أنّ هذه البّغي كانت زوجة ملك جبّار قبل هذا الملك و تزّوجها هذا بعده فلمّا أسنَّت فكانت لها إبنة من الملك

الأوّل قالت لهذا الملك تزّوج أنت بها فقال لأسأل يحيى بن زكريّا عن ذلك فأن أذن فعلت فسأله عنه فقال يحيى لا يجوز فهيّأت بنتها و زيّنتها في حال سكره و عرضتها عليه فكان من حال قتل يحيى ما ذكر فكان ما كان إنتهى(١).

أقول ما أشبه ولادته و شهادته بولادة الحسين و شهادته و قصّة بخت نصر بقصّة المختار حيث قتل كثيراً من الظّالمين و لأجل ذلك كان الحسين عليه‌السلام في مسيره إلى كربلاء كثيراً مّا يذكر قصّة يحيى إبن زكريّا ألا لعنة اللّه على الظّالمين و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون و قد ورد في الأخبار أنّه ما بكت السّماء و الأرض إلاّ على يحيىٰ إبن زكريّا و الحسين بن علّي سلام اللّه عليهما و ذلك لشّدة مظلوميتهما و شقاوة من ظلم عليهما فأنّ الأنبياء و أولاد الأنبياء لا يقتلهم إلاّ أولاد الزّنا و يزيد بن معاوية كان كذلك كما أنّ معاوية أيضاً كان كذلك على ما تشهد به التّواريخ.

■

١- بحار الأنوار ج ٥ ص ٣٠٩ إلىٰ ص ٣١٢

وَ ٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا
مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾
قَالَتْ إِنِّيَ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا
﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا
زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ لَمْ
يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ
رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً
مِنَّا وَ كَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ
مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾

مناسبة هذه القصّة لما قبلها واضحة و ذلك أنّه تعالى لمّا ذكر قصّة زكريّا و طلبه الولد و أجابه اللّه إيّاه فولد له من شيخ فانٍ و عجوزٍ له عاقر و كان ذلك ممّا يتّعجب منه أردفه بما هو أعظم في الغرابة و العجب و هو وجود ولدٍ من غير ذكرٍ فدلّ ذلك على عظم قدرة اللّه و حكمته و أيضاً فقصّ عليهم ما سألوه من قصّة أهل الكهف و قصّة الخضر و موسى ثمّ قصّ عليهم ما سألوه و هو قصّة ذي القرنين ثمّ ذكر في هذه التّوراة قصصاً لم يسألوه عنها و فيها غرابة ثمّ أتبع ذلك بقصّة إبراهيم و موسى و هارون موجزة ثمّ بقصّة إسماعيل و إدريس ليستّقر في أذهانهم أنّه إطّلع نبيّه على ما سألوه و على ما لم يسألوه و أنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وحيه في ذلك واحد يدلّ على صدقه و صحّة رسالته من أمّي لم يقرأ الكتب والرحل و لا خالط من له علم و لا عني بجمع سير فقال تعالى (وأذكر يا محمّد) في الكتاب و هو القرآن، و الذِّكر إدراك النّفس للمعنى بحضوره في القلب و الإذكار إحضار النّفس له و أنّما سمّي كتاباً لأنّه ممّا

يكتب، و مريم، هي إبنة عمران أمّ عيسى عليه السلام وكانت خالة يحيى فهما أي عيسى و يحيى كانا إبنا الخالة.

نقل الطَّبري أنّ يحيى قال لعيسى أدع لي فأنت خير منّي فقال له عيسى بل أنت أدع لي فأنت خيرٌ منّي سلَّم اللّه عليك و أنا سلَّمت على نفسي إنتهى.

إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا قال الزّمخشري، إذ، بدل من مريم بدل الإشتمال لأنّ الأحيان مشتملة على ما فيها وقته إذ المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصّة العجيبة فيها إنتهى و قوله إذ إنتبذت، الإنتباذ إتّخاذ الشّئ بإلقاء غيره عنه و الأصل الإلقاء من قولهم نبذه وراء ظهره أي ألقاه و النَّبذ الطَّرح.

و قال قتادة معنى إنتبذت إنفردت و قيل معناه إتَّخذت مكاناً تنفرد فيه للعبادة و قيل معناه تباعدت و قال السّدي إنتبذت لتطهر من حيضها و قال غيره لتعبد اللّه وكانت وقفاً على سدانة المتَّعبد و خدمته و قوله مكاناً شرقيّاً، فإنتصب، مكاناً على الظَّرف أي في مكانٍ و وصف بشرقي لأنّه كان يلي بيت المقدّس أو من دارها و بسبب كونه في الشّرقي أنّهم كانوا يعظمون جهة الشَّرق من حيث تطلع الشّمس و عن إبن عبّاس إتَّخذت النّصارى الشَّرق قبلة لميلاد عيسى و قيل قعدت في مشرقة للإغتسال من الحيض محتجبة بحائطٍ أي شئ ليسترها و كان موضعها المسجد كما قال تعالى: **فَٱتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا** إلى مريم روحنا فتَمثل لها بشراً سويّاً، قيل المراد بالرّوح جبرئيل عليه السلام و سمّاه روحاً لأنّه روحاني لا يشبه شيئاً من غير الرّوح و خصّ بهذه الصّفة تشريفاً له و قيل لأنّه تحيى به الأرواح بما يؤديّه إليهم من أمر الأديان و الشّرائع وكيف كان لا خلاف عند المفسّرين في أنّ المراد بالرُّوح الملك جبرئيل أو غيره و لا يبعد أن يكون الرّوح إسم ملك من الملائكة كما قال تعالى: **تَنَزَّلُ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَ ٱلرُّوحُ**[1] و قوله: **فَتَمَثَّلَ لَهَا** أي فتَمَثل المَلَك لها

١- القدر = ٤

أي لمريم بشراً سويّاً أي مستوي الخلق، قيل أتاها الملك في صورة آدّمي شاب أمرد وضيئ الوجه جعد الشَّعر سوّي الخلق لم ينتقص من الصُّورة الآدميّة شيئاً أو حسن الصّورة مستوي الخلق.

قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا، قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا، قَالَتْ اَنّٰى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا

لمّا تمَّثل الملك لها بصورة البشر قالت، أي قالت مريم له، أنّي أعوذ بالرّحمن أي ألتجئ إليه منك إن كنت تقيّاً، تخاف عقوبة اللّه و أنما علّقت التّعويذ على التّقوى إذ أتَّعوذ بالرّحمن منه أن يرتدع عمّا يسخط اللّه بخلاف الفاسق الفاجر فأنّه لا يعرف اللّه و لا يرتدع عن عصيانه ففي ذلك تخويف و ترهيب كما يقول القائل إن كنت مؤمناً فلا تظلمني وكانت مريم غير عالمة بأنّه تقّيٌ أم لا فلمّا سمع الملك منها هذا القول قال عليه السلام لها، أنّما أنا رسول ربّك، أرسلني اللّه لأبشرك بأنّه تعالى يهب لك غلاماً ذكراً زكيّاً، طاهراً من الذّنوب، و قيل نامياً في أفعال الخير وقرأ بعضهم روحنا بفتح الرّاء لأنّه سبب لما فيه روح العبادة و إصابة الرُّوح عند اللّه الّذي هو عدة المقرّبين في قوله: **فَأَمَّآ إِنْ كَانَ مِنَ اَلْمُقَرَّبِينَ، فَرَوْحٌ وَ رَيْحَانٌ**(١) أو لأنّه من المقّربين و هم الموعودون بالرّوح أي مقّرينا وذا روحنا و ذكر النّقاش أنّه قريْ روحنّا بتشديد النّئن إسم ملك من الملائكة و إنتصب البشر سويّاً على الحال، و أنّما مثل الملك لها بصورة البشر لتستأنس مريم بكلامه و لا تنفر عنه ولو بدا لها في صورة الملَّكية لنفرت ولم تقدر على إستماع كلامع و دلَّ على عفافها و ورعها أنّها تعّوذت به من تلك الصّورة الجميلة الفائقة الحسن و كان تمثيله لها على تلك الصّفة إبتلاءً لها و

١- الواقعة = ٨٨/٨٩

سبراً لعفّتها، قيل كانت مريم في منزل زوج أختها زكريّا ولها محراب على حدة تسكنه و كان زكريّا إذا خرج أغلق عليها فتّمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فإنفرج السَّقف لها فخرجت فجلست في المشرقة وراء الجبل فأتاها الملك قال بعضهم قام الملك بين يديها في صورة ترب لها إسمه يوسف من خدم بيت المقدّس و قيل غير ذلك و المتَّبع ما في الكتاب لا غيره و قيل، إن، في قوله: **إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا** نافية أي ما كنت تقيّاً بدخولك علّي و نظرك إلّي و فسّرت الزّكوة، في قوله: **زَكِيًّا**، هنا بالصّلاح و بالنبّوة و تعجبت مريم بما ألقى في روعها أنّه من عند اللّه، قالت، أي مريم، أنّى يكون لي غلام أي كيف يكون ذلك **وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ** بالجماع على وجه الزوجية، **وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا**، تخصيصٌ بعد تعميم لأنّ مسيس البشر يكون بنكاح و بسفاح.

قال الزّمخشري جعل المسّ عبارة عن نكاح الحلال لأنّه كناية عنه لقوله تعالى: **مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ** و قوله: **أَوْ لَمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ** والزّنا ليس كذلك أنّما يقال فجر بها و خبث بها و ما أشبه ذلك، و البغي المجاهرة المشتهرة في الزّنا، قيل لمّا كان هذا اللّفظ خاصّاً بالمّؤنث لم يحتج إلى علامة التّأنيث فصار كحائض و طالق و أنّما يقال للرّجل باغ.

قَالَ كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا

أي قال الملك لها لمّا سمع تعجّبها من هذه البشارة، كذلك يعني أنّ اللّه تعالى قال ذلك، قال ربّك هو علّي هيّنٌ، أي سهلٌ، و قوله هو، يرجع إلىٰ الغلام أي خلق الغلام علّي هيّنٌ كما خلقتك قبل و أخرجتك من العدم إلى الوجود على ما مرَّ في قصّة زكريّا، و لنجعله أي و لنجعل الغلام، آيةٌ، و غلامٌ علىٰ قدرة اللّه، للنّاس، ليعلموا أنّ اللّه على كلّ شيئٍ قدير، و رحمةً منّا، معطوف على آية أي أنّه رحمة منّا على الخلق و ذلك لأنّ النّبي رحمة، و كان أمراً مقضيّاً، أي و

كان وجود الغلام أمرا مفروغاً منه أي قضاه اللّه و قدّره و ما قضاه اللّه بأنّه كائن من كونه **فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا** يعني حملت مريم عيسى في بطنها، ذكروا أنّ جبرئيل نفخ في جيب درعها أو فيه و في كمّها، فلمّا حملت بعيسى، إنتبذت مكاناً قصيّاً، أي إنفردت مكاناً بعيداً و معناه قاصيّاً و هو خلاف الدّاني، قيل كانت مريم بنت أربع عشرة سنة و قيل خمس عشرة و كانت لم تحض قطّ فلمّا أحسَّت و خافت ملامة النّاس أن يظنّوا بها الشّر إرتمت به إلى مكانٍ قصي حياءً و فراراً قيل أنّها ببيت لحم بينه و بين إيليا أربعة أميال، و قيل بعيداً من أهلها وراء الجبل و قيل أقصى الدّار و ذكر المفسّرون في المقام أقوالاً لا يعتمد عليها بل الإعراض عنها أولى من التّعرض لها لكونها مضطربة متناقضة.

■

فَأَجاۤءَهَا ٱلْمَخاضُ إِلىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قالَتْ يٰا
لَيْتَني مِتُّ قَبْلَ هٰذا وَ كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنادیٰها مِنْ تَحْتِهاۤ أَلَّا تَحْزَني قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ
تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَ هُزّيۤ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
تُسٰاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلي وَ ٱشْرَبي
وَ قَرّي عَيْنًا فَإِمّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولىٓ
إِنّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ
إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قٰالُوا يٰا مَرْيَمُ
لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يٰاۤ أُخْتَ هٰرُونَ ما كٰانَ
أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كٰانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾
فَأَشٰارَتْ إِلَيْهِ قٰالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كٰانَ فِي
ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قٰالَ إِنّي عَبْدُ ٱللّٰهِ اٰتٰينِيَ
ٱلْكِتٰابَ وَ جَعَلَني نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَ جَعَلَني مُبٰارَكًا أَيْنَ
ما كُنْتُ وَ أَوْصٰني بِالصَّلٰوةِ وَ ٱلزَّكٰوةِ ما دُمْتُ
حَيًّا ﴿٣١﴾ وَ بَرًّا بِوٰالِدَتي وَ لَمْ يَجْعَلْني جَبّارًا
شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَ ٱلسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ
أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذٰلِكَ عيسَى ٱبْنُ
مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذي فيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ما كٰانَ
لِلّٰهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰانَهُ إِذٰا قَضىٰ أَمْرًا
فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَ إِنَّ ٱللّٰهَ رَبّي وَ
رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ
ٱلْأَحْزٰابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذينَ كَفَرُوا مِنْ

مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ
يَأْتُونَنَا لَكِنِ ٱلظَّالِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
﴿٣٨﴾ وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَ
هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ
ٱلْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

◀ اللّغة

فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ: الأصل جاءها ثمّ عدّي بالهَمزة إلى مفعول ثانٍ و إستعمل بمعنى ألجأها و ذلك لأنّ رجاء، قد يعّدىٰ بالباء و قد يعّدى بالألف مثل ذهبت به و أذهبته و خرجت به و أخرجته فعلى التّعدية بالباء يقال جاء به، و على التّعدية بالهَمزة يقال أجاء و ما نحن فيه من هذا القبيل ثمّ دخلت الفاء على الهَمزة و من المعلوم أنّ تعّدي الفعل بالهمزة يستدعى مفعولاً ثانياًيقال أستعمل بمعنى، ألجأها أي إضطرّها قال الشّاعر:

ود جارٌ سار معتمداً إليكم — أجائته المخافة و الرّجاء

أي جائت به، وٱلْمَخَاضُ، بفتح الميم وجع الولادة و يقرأ بالكسر و هما لغتان و قيل الفتح إسم للمصدر مثل السّلام و العطاء و الكسر مصدر مثل القتال نَسْيًا: بكسر النّون و عليه فهو بمعنى المنسّي و يقرأ بالفتح أي شيئاً حقيراً و يقرأ بفتح النّون و هَمزة بعد السّين و هو من نسأت اللّبن إذا خالطت به ماءٍ كثير و قيل النّسي خرقة الحيض الّتي تلقيها المرأة.

مِنْ تَحْتِهَا: بفتح الميم فاعل، نادى، و أن فى أَلَّا مصدريّة أي لا تغّمى.

سَرِيًّا: السّر هو النّهر الصّغير و إنّما سمّي النّهر سريّاً لأنّه يسري بجريانه.

وَ هُزِّي: الهَز التّحريك الشّديد و يُقال هززت الرّمح فأهتّز.

جَنِيًّا: الجّني فعيل بمعنى، مفعول أي المجني المأخوذ من الثّمرة الطريّة يقال إجتناه إذا إقتطفه (فَرِيًّا) الفري القبيح من الإفتراء.

◄ الإعراب

أَلَّا أن مصدرية أو بمعنى أي رُطَبًا حال موطئة و صاحبه الضّمير في العقل و قيل هو مفعول، هزّي، و قيل تمييز و جَنِيًّا بمعنى مجنّي بمعنى فاعل أي طرياً مِنَ ٱلْبَشَرِ حال من أَحَدًا و مفعول به فَأَتَتْ بِهِۦ الجّار و المجرور حال و كذلك تَحْمِلُهُۥ و صاحبه مريم و قيل تَحْمِلُهُۥ حال من ضمير عيسى صَبِيًّا حال من الضّمير في الجّار بَغِيًّا حال خبر كانت نَبِيًّا حال بَرًّا معطوف على، مباركاً، و يقرأ بكسر الباء و هو معطوف على الصلَوة وُلِدْتُ ظرف و العامل فيه الخبر الّذي هو، علَّي ذَٰلِكَ مبتدأ و عِيسَى خبره و ٱبْنُ مَرْيَمَ نعت أو خبر ثانٍ قَوْلَ ٱلْحَقِّ أي أقول قول الحَق و قيل هو حال من عيسى و قيل التّقدير أعني قول الحَق وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى بالكسر على الإستئناف و بفتح الهَمزَة على أنّه معطوف على قوله بالصّلاة أي و أوصاني بأنّ اللّه ربّي أَسْمِعْ بِهِمْ بهم في موضع رفع كقولك أحسن بزيد أي أحسن زيد هذا بناءً على مسلك المشهور من أنّ لفظه لفظ الأمر و معناه التّعجب.

و أمّا على قوله بأنّه أمرٌ حقيقة فالجّار و المجرور نصب و الفاعل مضمر.

◄ التّفسير

فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا

أي لمّا حملت مريم بعيسى و إتّخذت به و الباء في به، للحال أي مصحوبة به و المعنى لمّا إعتزلت مريم و هو أي عيسى في بطنها، فأجاءها المخاض و إختلفوا في مدّة الحمل على أقوالٍ:

فمنهم من قال كانت مدّة الحمل ساعة واحدة و منهم من قال ثلاث ساعات و قيل حملت في ساعة و صُور في ساعة و وضعته في ساعةٍ.

و **قيل** ستّة أشهر و قيل في سبعة أشهر و قيل ثمانية و قيل غير ذلك و الّذي يستفاد من الأخبار الواردة عن أئمّة أهل البيت أنّ مدّة الحمل كانت ستّة أشهر.

فعن كتاب علل الشّرائع عن الصّادق عليه السلام و قد ذكرنا فاطمة عليها السلام قال عليه السلام فعلقت و حملت بالحسين عليه السلام فحملت ستّة أشهر ثمّ وضعت ولم يعش ولد قطّ لستّة أشهر غير الحسين بن علّي علّيهما السّلام و عيسى إبن مريم عليه السلام إنتهىٰ.

و في حديثٍ أخر قال عليه السلام: ولم يولد لستّة أشهر إلاّ عيسى بن مريم و الحسين بن علّي عليه السلام إنتهىٰ.

و قد روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام القول بتسع ساعات أيضاً و اللّه أعلم بحقيقة الحال وكيف كان لمّا قرب وضع الحمل فأجاءها المخاض أي ألجأها و إضطرّها إلى جذع النّخلة، و الأصل في، فأجاءها، جاءها ثمّ عدّي بالهمزة إلى مفعولٍ ثانٍ و إستعمل بعض ألجأها و قد أوضحناه في شرح اللّغات و قلنا هو ممّا يعدّي تارة بالباء فيقال جاء به و أخرى بالألف فيقال فأجاءها و ما نحن فيه من قبيل التّعدي بالهمزة، و قيل أنّ الأجاءة تدلّ على المطلق، فتصلح لما هو بمعنى الألجاء و لما هو بمعنى الإختبار كما لو قلت أقمت زيداً فأنّه قد يكون مختاراً لذلك و قد يكون مجبوراً قد قسرته على القيام و على هذا فقوله تعالىٰ: **فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ**، معناه و جاء المخاض إلى جذع النّخلة أمّا بإختيار منها أو بالألجاء بسبب المخاض و هذا هو الحقّ فلا يدّل الإستعمال على تغيير المعنى و على هذا فمعنى الكلام، أجاءها كما يقال أجاءه إلى موضع كذا و قرأ بعضهم، فأجأها، من المعاناة و قيل في مصحف، أبّي، فلمّا أجاءها، أقول قراءة، فأجأها، و أن كانت غير مشهورة إلاّ أنّها أوفق بسياق العبارة و العقل و الحسّ أيضاً يحكمان بأنّ المخاض و فى شدّة الولادة و أوجاعها يأتي بغتةً و مفاجأةً و علىٰ هذا فأجأها المخاض أحسن من فأجاءها المخاض معنىً و أمّا

لفظاً فالقراءة المشهورة أولىٰ لوجود الفاء المفيدة للتّفريع و كيف كان فالمعنى لا خفاء فيه على القراءتين.

و أمّا **المخاض** بفتح الميم و كسرها هو شدّة الولادة و أوجاعها يقال ناقة ماخض، أي دنا ولادتها و قوله إلى جذع النَّخلة، فالجذع بكسر الجيم ساق النّخلة اليابسة في الصّحراء الّذي لا سقف عليه و لا غصن ولهذا لم يقل إلى النّخلة، فكأنّها طلبت شيئاً تستند إليه و تتَّعلق به كما تتَّعلق الحامل لشدّة وجع الطّلق، ولم تجد شيئاً سوى جذع النَّخلة فتَّعلقت به و المشهور أنّ ميلاد عيسى كان بيت اللّحم و أنها لمّا هربت و خافت عليه أسرعت به و جاءت به إلى بيت المقدّس فوضعته على صخرةٍ فإنخفضت الصَّخرة له و صارت كالمهد و هى الآن موجودة تزار بحرم بيت المقدّس ثمّ بعد أيّام توّجهت إلى بحر الأردن فعمدَّته فيه و هو اليوم الّذي تتَّخذه النّصارى و تسمّونه يوم الغطاس و همأ يظّنون أنّ المياه في ذلك اليوم تقدَّست فلذلك يغطسون في كلّ ماءٍ و من زعم أنّها ولدته بمصر قال بكورة أهناس قيل و نخلة مريم قائمة إلى اليوم و الظّاهر أنّها كانت موجودة قبل مجيئ مريم إليها و قيل أنّ اللّه أنبت لها نخلة تعلَّقت بها و قيل أنّها بلغت إلىٰ موضع كان فيه جذع نخلةٍ يابسٍ بال أصله مدَّود لا رأس له و لا ثمر و لا حفرة هذا ما ذكره بعض المفسّرين.

و قال صاحب الكشّاف و التَّعريف **(فِي النَّخْلَةِ)** لا يخلو إمّا أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النَّجم و الصَّعق كان تلك الصَّحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند النّاس فإذا قيل جذع النَّخلة فهم منه ذلك دون غيره.

و أمّا أن يكون تعريف الجنس أي جذع هذه الشّجرة خاصّة و كان الوقت شتاء إنتهى.

قال بعض المحقّقين أنّ النَّخلة من خواصّها أنّها لا تثمر إلاّ بعد اللِّقاح قطعت رأسها لا تثمر فكأنّه تعالى قال أنّ الأنثى لا تلد إلاّ مع الذَّكر فكذا النَّخلة لا تثمر إلاّ عند اللّقاح ثمّ أنّى أظهر الرّطب من غير اللّقاح ليدلّ ذلك على جواز

ظهور الولد من غير ذكر و حاصل الكلام أنّ النّخلة من بين الأشجار أشبه شيئ بالإنسان في ظهور الثّمر عليها، ولعلّه لهذه النّقطة إختار النّخلة في المقام من بين الأشجار فأطعمها اللّه منها الرُّطب الّذي هو ضرسة النّفساء.

قٰالَتْ يٰا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذٰا وَ كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا) أي قالت مَريم يا ليتني مت قبل هذا، إستحياءً من النّاس و كنت نسيّاً، فالنّسي الشّيئ المتروك حتّى ينسى، و يجوز فيه الفتح و الكسر مثل الوتر و الوتر و قيل الشّيئ بالفتح المصدر يقال نسيت الشّيئ نسياً و نسياناً و بالكسر الإسم و قيل النّسي خرقة الحيض التّي تلقيها المرأة قال الشّاعر:

كأنّ لها في الأرض نسياً تقصّه إذا ما غدت و إن تمالك بتلت

و قوله مِتُّ بكسر الميم و ضمّها فعلى الكسر من مات يمت و على الضّم من مات يموت، الظّاهر أنّها قالت هذا الكلام و وتمّنت الموت بعد ولادة عيسى أو عندها لما رأته من الآلام والتّغرب و إنكار قومها و أنّما تمّنت الموت من جهة الدّين إذ خافت أن يظّن بها الشّر في دينها، و قوله نسياً منسيّاً، فالنّسئ الشّيئ الحقير الّذي من شأنه أن ينسى فلا يتّألم لفقده كالوتد و الحبل للمسافر و خرقة الطّمث و منسيّاً تأكيدٌ له و لا شكّ أنّها تمّنت ذلك لما لحقها من فرط الحياء على حكم العادة البّشرية لا كراهةٍ لحكم اللّه أو لشدّة التكليف عليها إإذا بهتوها و هى عارفة ببراءة ساحتها، و قيل لحزنها على النّاس أن يأثموا بسببها.

فَنٰادٰيهٰا مِنْ تَحْتِهٰآ أَلاّٰ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا جزء ١٦

الظّاهر أنّ المنادي عيسى عليه السلام و قال إبن عبّاس وقتادة و الضّحاك المنادي كان جبرئيل عليه السلام و كان في بقعةٍ من الأرض أخفض من البقعة التّي كانت مريم عليها قاله الحسن و أقسم على ذلك، و قرأ إبن عبّاس فناداها ملك من تحتها و قرأ الباقون بحرف الجرّ فقط و قرأ بعضهم من تحتها، بفتح الميم بمعنى الّذي و

تحتها ظرف منصوب صلة، لمن، و المراد به عيسى أي ناداها المولود، و أن، في ألاّ، حرف تفسير أي لا تحزني، و السّري في قول الجمهور الجدول.

و قال قتادة عظيماً من الرّجال له شأن و رومي أنّ الحسن فسمّى الآية فقال أجل لقد جعله اللّه أي المولود سويّاً كريماً، و الحقّ أنّ المراد بالسَّري معناه اللّغوي و هو الجدول و النّهر و أنّما قيل للنّهر سرّي لأنّه يسري بجريانه كما قيل جدول لشّدة جريه قال لبيد:

فّتوسطا عرض السَّري فصَّدعا مسجورةُ مّتجاوزُ أقدامها

و قال السُّدي كان الجذع مقطوعاً و أجري تحته النَّهر و المعنى، لمّا غلب عليها الحزن فناداها عيسى من تحتها أي من بطنها أن لا تحزني أي لا تحزني و لا تغتّمي قد جعل ربّك تحتك سريّاً يشرب منه و ذلك لأنّ الجذع كان يابساً و على هذا فقد ظهرت لها آيات تسكن إليها ولم يكن حزنها لفقد الطّعام و الشّراب حتّى تتّسلى بالأكل و الشُّرب و لكن لمّا ظهر في ذلك من خرق العادة حتّى يتّبين لقومها أنّ ولادتها من غير فحلٍ ليس ببدعٍ من شأنها.

وَ هُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا

أمرها اللّه تعالى بهز الجذع اليابس لترى آيةً أخرى في إحياء موات الجذع و الباء في قوله: **بِجِذْعِ** قيل زائدة.

وقال صاحب الكشّاف صلة للتّأكيد كما يقال خذ بالزّنام، و أعط بيدك قال تعالىٰ: **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ**[1] أي فليمدد سبباً.

و قيل المعنى و هزّي اليك رطباً على جذع النَّخلة و **تساقط** أي تتساقط فأدخم التّاء في السّين و قرأ، هَمزَة تساقط مخففّاً فحذف التّي أدغمها غيره وقرأ عاصم، تساقط، بضمّ التّاء مخفّفاً و كسر القاف و قرئ، تتساقط، بإظهار التّائين، و

١- الحجّ = ١٥

يساقط، بالياء و إدغام التّاء و يسقط و يسقط و تسقط و قوله: **رُطَبًا** نصب بالهمّزه و يختلف نصبه، بحسب معاني القرآت و قوله: **جَنِيًّا** بفتح الجيم و كسر النُّون صفة للرطّب و معناه طابت و صلحت للإجتناء و هى من جنيت الثَّمرة قال الفرّاء، الجنّي و المجني واحد يذهب أنّهما بمنزلة الفتيل و المفتول و الجريح و المجروح و قال غيره الجنّي المقطوع من نخلةٍ واحدة و المأخوذ من مكان نشأته كما قال الشّاعر:

و طيبٍ ثمار في رياضٍ أريضةٍ و أغصان أشجارٍ جناها على قربٍ

يريد بالجنّي ما يجني منها أي يقطع و يؤخذ و المعنى و هزّي اليك أي هزّي النّخلة اليك كما في قوله تعالى: **تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ**[١] تساقط النّخلة عليك رطباً جنيّاً أي رطباً طابت و صلحت للإجتناء و تقديره تساقط عليك ثمر النّخلة رطباً.

قيل ولم يكن للنّخلة رأس و كانت في الشّتاء فجعله اللّه آية:

فَكُلِي وَ ٱشْرَبِي وَ قَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا

لمّا قال جبرائيل أو الملك لها: **هُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا** قال لها بعد ذلك، فكلي، من ذلك الرطّب **وَ ٱشْرَبِي** من السّري و هو النّهر، **وَ قَرِّى عَيْنًا** نصب على التّمييز أي و قرّي عيناً برؤية الولد النّبي و هو عيسى و الفتح في القاف قرائة الجمهور و كسر القاف لغة نجد، و هو مأخوذ من المقرّ و القرّة، و هما البرد و دمعة السُّرور باردة و دمعة الحزن حارّة و قيل الدَّمع كلّه حارّ فمعنى أقرَّ اللّه عينيه أي سكن اللّه عينيه بالنَّظر الى من يحبّه حتّى تقرّ و تسكن، يقال فلان قرّة عيني أي نفسي تسكن بقربه و قال الشّيباني، و قرّي عيناً، أي ما في حضّها على الأكل و الشّرب و النّوم قال أبو عمرو، أقرَّ

١- المؤمنون = ٢٠

اللّه عينيه أي أنام عينيه و أذهب سهره و أنّما قال ذلك لأنّ راحة البشر في الأكل و الشّرب و النّوم.

و قال بعض المفسّرين معناه لتبرد عينك بسرور ما ترى و قال الأخر لتسكن سكون سرور برؤيتها ما تحبّ و نزل القرآن بلغة قريش **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا** ترَّين، أصله ترأيين مثل ترغبين فالهَمزة عين الفعل و الياء لامه و هو مبّنيٌ هنا من أجل نُون التّأكيد مثل لنضربن، فألقيت حركة الهَمزة على الرّاء و حذفت اللاّم للبناء كما تحذف في الجزم و بقيت ياء الضّمير و حرّكت لسكونها و سكون النّون بعدها و يقرأ، ترين، بإسكان الياء و تخفيف النّون على أنّه لم يجزم، بأمّا، و هو بعيد و من البشر حال من أحداً أو مفعول به و المعنى أنّ اللّه ألقى إليها بعد الأمر بالأكل و الشُّرب ما تقول أن رأت أحداً من البشر و سألها عن ولدها **فَقُولِيٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا** هذا ما ألقاه اللّه إليها أن تقول في جواب من سألها عن ولدها و أمرها أن تقول أنّي نذرت لرّحمن صوماً، أي صمتاً و بعبارةٍ أخرى نذرت للرّحمن أن أسكت فالمراد بالصّوم قيل السّكوت و قيل المراد به الصَّمت من الطّعام و الشّراب و الكلام أي إمساكاً و أنّما أمرها اللّه بذلك ليكفيها الكلام ولدها بما يبرئ ساحتها، و قيل من كان صام في ذلك الوقت لا يكلّم النّاس فأذن لها في هذا المقدار من الكلام، و قيل أمرها اللّه أن تشير إليهم بهذا المعنى و يحتمل أن يكون المعنى فلن أكلّم اليوم إنسيّاً، بعد قولي هذا و بين الشّرط و جزاءه جملة محذوفة يدلّ عليه المعنى أي فأمّا ترَّين من البشر أحداً و سألك أو جاؤوك الكلام فقولي له كذا و كذا.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَآ أُخْتَ هٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَ مَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا

أي فأتت مريم به أي بعيسى قومها، قيل إتيانها كان من ذاتها بمعنى أنّها لم تكن مأمورة به فحنَّت إلىٰ الوطن و علمت أنّ عيسى سيكفيها من يكلّمها، فعادت إلى قومها و قيل أرسلوا إليها لتحضري إلينا بولدك و كان الشّيطان قد أخبر قومها بولادتها وكيف كان أنّها أتت قومها و الحال أنّها كانت تحمل عيسى قالوا أي قال قومها، يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً، أي شنيعاً و قيل أي عملاً عجيباًهو من الإفتراء و معناه القبيح، يا أخت هارون، نسبت إلى هارون أخي موسىٰ لأنّها كانت من ولده، و قيل نسبت إلى هارون شقيقها أو أخوها من أمّها و كان من أمثل بنيإسرائيل.

و قال قتادة أنّه كان رجلاً صالحاً في بنيإسرائيل ينسب إليه من عرف بالصّلاح، و قال قوم كان رجلاً فاسقاً معلناً بالفسق فنسبت إليه **مٰا كٰانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَ مٰا كٰانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** أي ما كان أبوك و أمّك أهلاً لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها و هذا من التّعريض الّذي يقوم مقام التّصريح.

فَأَشٰارَتْ إِلَيْهِ قٰالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كٰانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا.

أي فأشارت مريم إلى إبنها عيسى أي هو الّذي يجيبكم إذا ناطقتموه قيل كان المستنطق لعيسى زكريّا و يروى أنّهم لمّا أشاروا إلى الطّفل قالوا إستخفافاً بنا أشدّ علينا من زناها ثمّ قالوا لها على جهة الإنكار و التّحكم بها كيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً أي أنّ من كان في المهد يربّى لا يكلّم و أنّما أشارت إليه لما تقدّم لها من وعده أنّه يجيبهم عنها و يغنيها عن الكلام، و قيل أنّما كان ذلك بوحيٍ من اللّه إليها قيل، كان، هاهنا زائدة و نصب صبيّاً، على الحال، قال الشّاعر:

فكيف إذا رأيت ديار قومى و جيران لنا كانوا كرام

و المعنى و ديار جيران كرامٍ و(كانوا) فضلة فلذلك لم تعمل، و قيل ليست

بزائدة و معناه على الشّرط و تقديره من كان في المهد صبيّاً، كيف نكلّمه على التّقديم و التّأخير و على أيّ حالٍ لمّا سألوه.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا

أي قال عيسى إنّي عبد اللّه، قيل أنّه قام متّكئاً على يساره و أشار إليهم بسبابته اليمنى و أنطقه اللّه تعالى أوّلاً بقوله: **إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ** و أنّما أشار أوّلاً بمقام العبوديّة لأنّه الأصل في جميع الإفاضات و مع ذلك فيه إشارة إلى أنّ اللّه تعالى أوجده بقدرته ثمّ أشار ثانياً بأنّ اللّه تعالى أعطاه الكتاب و هو الإنجيل و ثالثاً بأنّه تعالى جعله نبيّاً.

و قال قومٌ معناه إنّي عبد اللّه سيؤتيني الكتاب و يجعلني نبيّاً، فيما بعد،

أقول لو كان معنى الكلام ما ذكروه لقال اللّه تعالى سيؤتيني الكتاب و يجعلني نبيّاً، و حيث لم يقل ذلك و جاء بصيغة الماضي فالمعنى أتاني الكتاب و جعلني نبيّاً فيما مضى أي في علم اللّه و هذا هو الحقّ عندنا و أمّا عند العامّة و غيرهم من أهل الظّاهر فالماضي بمعنى المضارع و لتوضيح ذلك نقول النبّوة من أعلى المواهب الربانيّة و أفضل المناصب الإلهيّة وليس كلّ واحدٍ من النّاس لائقاً بهذا المقام.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَ بِكَلَٰمِي**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**(٣).

و غيرها من الآيات و هذا ممّا لا كلام فيه و أنّما الكلام في أنّ النبّوة الّتي أعطاها اللّه من شاء و أراد أعطاها قبل ولادة النّبي أو بعدها و بعبارةٍ أخرى

١- آل عمران = ٣٣
٢- الأعراف = ١٤٤
٣- فاطر = ٣٢

النّبي نبيٌّ في بطن أمّه أو بعد ولادته في الدّنيا و ذلك إنّا لا نشكّ في أنّ رسول الإسلام مثلاً صار مأموراً بالدَّعوة بعد مضّي أربعين سنة من عمره و هكذا غيره من الأنبياء فأن قلنا أنّ اللّه تعالى جعلهم أنبياء في دار الدُّنيا بعد مضّي أربعين سنة أو أقلّ أو أكثر فالنّبي في المهد بل قبل ذلك الزّمان ليس بنبّي بل هو كغيره من أحاد النّاس و أن قلنا أنّه تعالى جعلهم أنبياء في الأزل قبل إيجادهم في هذه الدُّنيا فهم أنبياء من حين الولادة إلى الموت و على هذا تبتني العصمة التّي إتَّفقوا على وجودها فيهم لأنّ العصمة من شئون النبّوة و لوازمها فهي تدور مدار وجود النبّوة و لذلك إختلفوا في عصمة الأنبياء هل هي ثابتة لهم من حين الولادة أو هي ثابتة لهم من حين الدَّعوة و حيث أنّ العامّة إختاروا الشّق الثّاني ذهبوا إلى أنّ الأنبياء قبل وصولهم إلى مقام الدَّعوة كانوا كغيرهم من النّاس فلهم مالهم و عليهم ما عليهم، و لذلك إحتاجوا إلى التّأويل في الأيات المشعرة بخلاف مذهبهم كما فيما نحن فيه.

و أمّا على مذهب الحقّ و هو أنّ النبّوة ثابتة للنّبي من حين الولادة مع لوازمها فالأيات على ظواهرها و لا تحتاج إلى التّأويل و هذا هو الأصل في هذا الباب إذا عرفت هذا فقوله تعالى حكايةً عن عيسى: **إِنِّى عَبْدُ ٱللَّـهِ ءَاتَـىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَ جَعَلَنِى نَبِيًّا**. الخ لا يحتاج إلى التّأويل بقولهم سيؤتيني الكتاب و يجعلني نبيّاً، بل هو على ظاهره لأنّ عيسى كان في المهد نبيّاً و إذا أثبتت النبّوة لوازمها ممّا هو مذكورٌ في الآية إلاّ أنّ زمان فعليّتها في المستقبل فأنّ العالم عالمٌ قبل ظهور العلم منه و الطّبيب طبيب قبل ظهور الطّبابة و الشّجاع شجاع قبل ظهور الشّجاعة و بالجملة حصول ملكة العدالة و الشّجاعة و السّخاوة و العدالة شيءٌ و فعليّتها و ظهورها في الخارج شيئ أخر و محصّل الكلام هو أنّ مقام النبّوة و لوازمها من العلم و العصمة و التّقوى و العدالة و غيرها كانت حاصلة للأنبياء من بدو ولادتهم إلاّ أنّ ظهور الدَّعوة منهم كان موكولاً إلى زمانٍ

خاصّ لا يعلمه إلاّ اللّه و هذا أصلٌ يعتمد عليه في النبّوة و الإمامة فما ثبت للنّبي ثبت للإمام من حيث الصّفات و الخواص قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لأميرالمؤمنين عليه السلام أنت منّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلاّ أنّه لا نبّي بعدي، و لذلك نقول أنّ التّكلم في المهد من العصمة و العلم و غيرها لا تختّص بالأنبياء بل هي ثابتة للأوصياء أيضاً و للبحث فيه مقام أخر.

وَ جَعَلَنِي مُبٰارَكًا أَيْنَ مٰاكُنْتُ وَ أَوْصٰنِي بِالصَّلٰوةِ وَ ٱلزَّكٰوةِ مٰا دُمْتُ حَيًّا

الواو للعطف فأنّ الآية معطوفة علىٰ ما قبلها و المعنى جعلني نبيّاً و جعلني مباركاً أينما كنت، أي معلّماً للخير أينما كنت و قيل نفّاعاً، و البركة نماء الخير و المبارك الّذي ينّمي الخير به قال بعض المفسّرين و ظاهر قوله: **وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا**، **وَ جَعَلَنِي مُبٰارَكًا** أنّه تعالى نبّأه حال طفوليّته فأكمل عقله و إستبأه طفلاً و قيل أنّ ذلك سبق في قضاءه و سابق حكمه و يحتمل أن يجعل الأتي لتّحققه كأنّه قد وجد إنتهى.

و قوله: **أَيْنَ مٰا كُنْتُ** شرط و جزاءه محذوف و تقديره **جَعَلَنِي مُبٰارَكًا** و حذف لدلالة ما تقدَّم عليه و لا يجوز أن يكون معمولاً، لجعلني السّابق، لأنّ، إنّي، لا يكون إلاّ إستفهاماً أو شرطاً و لا يجوز أن يكون هنا إستفهاماً فتّثبتت الشّرطية و إسم الشّرط لا ينصبه فعل قبله أنّما هو معمول للعقل الّذي يليه و هو الفعل المحذوف و قوله و أوصاني بالصّلوة و الزّكوة، أي أمرني بهما و الظّاهر حمل الصّلاة و الزّكاة على ما شرع في البدن و المال و قيل المراد بالصّلاة الدُّعاء و بالزّكاة التّطهر و (ما) في، ما دمت، مصدريّة ظرفيّة و قوله: **مٰا دُمْتُ حَيًّا**، أي مُدّة حياتي.

وَ بَرًّا بِوٰالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبّٰارًا شَقِيًّا

أي و أوصاني أن أكون بارّاً بوالدتي أي محسناً إليها قرأ بعضهم، بِرّاً[١] بكسر الباء و عليه فهو أمّا على حذف مضافٍ أي وذا برٍّ و أمّا على المبالغة جعل ذاته

من فرط برّه و يجوز أن يضمر فعل في معنى، أوصاني، و هو كلّفني لأنّ أوصاني بالصّلاة و كلّفنيها واحد، و من قرأ و برّاً[1] بفتح الباء و هو المشهور فقد جعله معطوفاً على مباركاً و فيه بعد للفعل بين المعطوف و المعطوف عليه و بالجملة الّتي هي أوصاني و متعلّقها و الأولى إضمار فعلٍ أي و جعلني برّاً.

و حكى أبي البقاء أنّه قرئ وَ بِرٍّ بكسر الباء و الرّاء عطفاً على بالصّلاة و الزّكاة، و قوله: **بِوالِدَتي**، بيان محلّ البّر و أنّه لا والد له و بهذا القول برأها قومها و لم يجعلني جبّاراً شقيّاً، أي لم يحكم اللّه علّي بالتّجبر و الشّقاء ولم يسمّني بذلك.

وَ ٱلسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا

و أنّما قال و السّلام علّي، بالألف و اللاّم ولم يقل و سلامٌ علّي، لنقطةٍ و هى أنّ اللاّم للجنس أي و جنس السّلام علّي خاصّة فقد عرّض بأنّ ضدّه عليكم و نظيره و السّلام على من إتّبع الهدى، يعني أنّ العذاب و هو ضدّ السّلام على من كذّب و توّلى و أنّما خصّ السّلام بالأيّام الثّلاثة أعني بها يوم الولادة و يوم الموت و يوم البعث لأنّها أيّام الشّدائد و المحن فمن نجىٰ من شدائدها فقد نجى من عذاب الأخرة و قد يعبّر عنها بأيّام اللّه، و قيل اللاّم لتعريف المنكّر في قصّة يحيى في قوله: **وَ ٱلسَّلامُ** الخ نحو قوله تعالى: **كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا، فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ**[1] أي و ذلك السّلام الموّجه إلى يحيى في المواطن الثّلاثة موّجهٌ إلّي.

قال بعض المحقّقين أنّ سلام يحيى أرجح من سلام عيسى لأنّ يحيى لم يقل سلامٌ علّي بل قال اللّه تعالى و سلامٌ عليه يوم ولد الخ و أمّا عيسى فقال: **ٱلسَّلامُ عَلَيَّ** الخ و من المعلوم أنّ سلام اللّه أرجح و أفضل من سلام عيسى على نفسه.

١- المزمل = ١٦/١٥

أقول الحقّ أنّ الأمر بالعكس و ذلك لأنّه تعالى أقام عيسى في ذلك مقام نفسه فسّلم نائباً عن اللّه تعالى لكونه مظهراً كاملاً لخالقه.

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ

الإشارة بذلك، إلى المولود الّذي ولدته مريم المتّصف بتلك الأوصاف الجميلة و، ذلك، مبتدأ و، عيسى، خبره و إبن مريم صفة لعيسى أو خبر بعد خبر أو بدل و المقصود ثبوت نبّوته من مريم خاصّة من غير أبٍ فليس بإبن له كما يزعم البّغدادي و لا لغيره كما يزعم اليهود، و قرأ المشهور، قول الحَق، بنصب اللاّم على أنّه مصدر مؤكّد لمضمون الجملة أي هذه الأخبار عن عيسى أنّه إبن مريم ثابتٌ صدق ليس منسوباً لغيرها أي أنّها ولدته من غير فسق بشر كما تقول هذا عبد اللّه الحّق لا الباطل أي أقول الحّق و أقول قول الحّق فيكون الحَّق هنا الصِّدق و هو من إضافة الموصوف الىٰ صفة أي القول الحَّق كما قال، وعد الصدق أي الوعد المصّدق و أن عني به اللّه تعالى كان القول مراداً به الكلمة، كما قالوا كلمة اللّه كان إنتصابة على المدح و على هذا فتكون، الّذي صفة للقول و على الوجه الأوّل تكون صفة للحّق.

أقول رفع القول أولى من النَّصب على أنّه بدل من عيسى إبن مريم أو هو خبر، لذلك أي ذلك الّذي هو عيسى إبن مريم، قول الحّق بناءً على أن يكون ذلك عيسى إبن مريم مبتدأ و قول الحَّق خبره، أو هو خبر بعد خبر بناءٍ على المشهور من أنّ ذلك مبتدأ و عيسى إبن مريم خبره، و عليه فالمعنى ذلك أي عيسى إبن مريم، قول الحّق و كلمته:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ**(١).

١- آل عمران = ٤٥

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ**[١].

و الكلمة هي القول كما قيل في تعريفها الكلمة قولٌ مفردٌ، و على هذا التَّغيير فقوله: **قَوْلَ ٱلْحَقِّ** إشارة الى أنّه أي المسيح إنّما وجد للكلمة كن، المشار إليها بقوله: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[٢] ففي هذا الكلام ردٌّ على الفُّساق الّذين قالوا في عيسى ما قالوا من الأكاذيب و الإفتراء فكأنّه قيل عيسى إبن من، فقال تعالى ذلك أي عيسى، قول الحّق أي قول اللّه أي موجودٌ بقوله: كن، و أمّا قوله: **فِيهِ يَمْتَرُونَ** فالضّمير راجع على عيسى أو راجعٌ على قول الحّق و الإمتراء الشّك، أي هو قول الحّق الّذي تشّكون فيه أي في عيسى أو في قول الحّق و ذلك لأنّهم كانوا يشّكون في قدرة اللّه تعالى و أنّه قادرٌ على إيجاد البشر من غير أبٍ هذا ما فهمناه من الآية و اللّه أعلم بكلامه.

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

و هذه الآية في الحقيقة مفسرةٌ لما قبلها و تثبت ما ذكرناه و حاصل الكلام فيها أنّه ليس كلّ من وجد بغير أبٍ فهو ابن اللّه كما يزعم النَّصاري ففي الآية إشارة الىٰ أمرين:

أحدهما: ما يستحيل في حقّه تعالى و هو إتّخاذ الولد.

ثانيهما: أنّه قادر على كلّ شئ و منه إيجاد البشر من غير أبٍ فقوله: **مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ** إشارة إلى الأوّل و قوله: **إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** إشارة الى الثّاني و هو عموم قدرته فنفى اللّه شيئاً و أثبت شيئاً و كلاهما حقّ لا مرية فيه أمّا الأوّل فلأن إتّخاذ الولد لا يعقل إلاّ من الجسم الّذي فيه الشّهوة و هو تعالى منّزه عن الجسميّة و لوازمها و لذلك أتى بكلمة، سبحانه.

١- النّساء = ١٧١ ٢- النّحل = ٤٠

و أمّا الثّاني فهو ثابت لا يحتاج إلى الإثبات لأنّه في الحقيقة من قبيل تحصيل الحاصل و إعلم أنّ السّلام مصدر سلّمت سلاماً و معناه عموم العافية و السّلامة و السّلام جمع سلامة و السَّلام إسمٌ من أسماء اللّه، و سلامٌ يبتدأ به في النّكرة لأنّه يكثر إستعماله تقول سلامٌ عليكم، و السّلام عليكم، و أسماء يحسن الإبتلاء بها لأنّ فائدتها واحدة و لمّا جرى ذكر، سلامٌ، أعيد هاهنا بالألف واللاّم ليرد على الأوّل إنتهى ما أفاده المفسّرين.

وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ

لا كلام عندهم أنّ الواو للعطف و إختلفوا في المعطوف عليه على أقوالٍ:

أحدها: أنّه معطوف على قوله: **و أوَصاني** أي أنّه تعالى أوصاني بكذا و أنّ اللّه ربّي و ربّكم فأعبدوه.

الثّاني: أنّه معطوف على، ذلك عيسى إبن مريم، أي ذلك عيسى إبن مريم و أنّ اللّه ربّي و ربّكم و عليه فيكون موضعه الرّفع بأنّه خبر المبتدأ.

الثّالث: أنّ المعنى و قضى اللّه أنّ اللّه ربّي و ربّكم.

الرّابع: التّقدير و لأنّ اللّه ربّي و ربّكم فأعبدوه، و العامل فيه فأعبدوه.

الخامس: أنّه معطوف على قوله، قال إنّي عبد اللّه، و كيف كان فأنّ اللّه تعالى حكى عنه أنّه قال لهم أنّ اللّه ربّي و ربّكم فأعبدوه هذا صراطٌ مستقيم لا عوج فيه أي عبادة اللّه تعالى صراطٌ مستقيمٌ لا عبادة الأوثان و الأصنام و الملائكة و غيرهما و أنّما قال ربّي و ربّكم ولم يقل أنّ اللّه ربّكم فأعبدوه، للإشارة إلى أنّي مثلكم في البشريّة و الرّبوبيّة فلا تتّخذوني معبوداً فأنّ حكم الأمثال واحد و أنّما قدّم لفظ الجلالة لأنّ اللّه علمٌ على الأصحّ للذّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الكمالات فهو أي مقام الألوهيّة فوق مقام الخالقيّة و الرّازقية و غيرهما من الأسماء و فى أمره للعبادة حيث قال فأعبدوه إشارة إلى أنّه تعالى منعمٌ عليكم حيث خلقكم و ربّاكم و شكر المنعم واجب عقلاً على الإنسان العاقل و لا نعني بالشّكر الحقيقي إلاّ العبادة و المعرفة.

فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ

الإختلاف في المذهب هو أن يعتقد كلّ قومٍ خلاف ما يعتقده الأخرون و الأحزاب جمع حزب و الحزب الجمع المنقطع في رأيه عن غيره و المعنى إختلف أهل الكتاب في عيسى ففي هذه الآية إخبار من اللّه للرّسول بتَّفرق بنيإسرائيل فرقاً و قوله من بينهم يعني أنّ الإختلاف لم يخرج منهم و ذلك لأنّ سبب الإختلاف كان موجوداً فيهم و يحتمل أن يكون المراد بالأحزاب اليهود و النّصارى و قال الحسن تحَّزبوا على الأنبياء لما قصّ عليهم قصّة عيسى إختلفوا فيه من بين النّاس فالضّمير في، بينهم، على هذا ليس عائداً على الأحزاب.

و قيل الأحزاب هنا المسلمون و اليهود و النّصارى، و قال قتادة إنّ بنيإسرائيل جمعوا أربعة من أحبارهم فقال أحدهم عيسى هو اللّه نزل إلى الأرض و أحيا من أحيا و أمات من أمات فكذَّبه الثّلاثة و إتَّبعه اليّعقوبية ثمّ قال أحد الثّلاثة عيسى إبن اللّه فكذَّبه الإثنان و اءتبعته النّطورية و قال أحد الإثنين عيسى أحد ثلاثة، اللّه إلهٌ و مريم إلهٌ، و عيسى إلهٌ، فكذَّبه الرّابع و إتَّبعته الإسرائيلّية، و قال الرّابع عيسى عبد اللّه و كلمته ألقاها إلى مريم و روحٌ منه، فإتَّبعته فرقة من بنيإسرائيل ثمّ إقتتل الأربعة فغلب المؤمنون و ظهرت اليعقوبيّة على الجميع و فى ذلك نزلت **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللّٰهِ**[1] و الأربعة يعقوب و نطور و مليكا و إسرائيل إنتهىٰ.

و قوله و مشهد، هو مفعل من الشُّهود و هو الحصور أو من الشّهادة مصدراً و مكاناً و زماناً، فمن الشّهود يجوز أن يكون المعنى من شهود هول الحساب و من الشّهادة يجوز أن يكون المعنى من شهادة ذلك اليوم و أن تشهد عليهم الملائكة و الأنبياء و ألسنتهم و أيديهم بالكفر و اليوم العظيم يوم القيامة.

١- آل عمران = ٢١

و قال قتادة هو يوم قتل المؤمنين حين إختلف الأحزاب و قيل ما قالوه و شهد غرابة في عيسى و أمّه يوم إختلافهم، و حاصل المعنى في الآية أنّهم أي اليهود و النّصارى أو جميع النّاس إختلفوا في عيسى فمنهم من قال بألوهيّته و منهم من قال عيسى إبن اللّه و جميع هذه الأقوال كفرٌ و إلحاد فويلٌ لهؤلاء القوم من يوم الشّهود و هو يوم القيامة.

وَأَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

قيل معناه ما أسمعهم و ما أبصرهم على وجه التّعجب و المعنى أنّهم حلّوا في ذلك محَّل من يتَّعجب منه و فيه تهديد و وعيد أن يسمعون ما يصدع قلوبهم و يردُّون ما يهيلهم، و قال الحسن و قتادة لأن كانوا في الدّنيا صمّاً عمياً عن الحقّ فما أسمعهم به و ما أبصرهم به يوم القيامة هكذا فسّروا الكلام تقَّدم منّا البحث في قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ**(٢).

و قلنا هناك أنّ التّقدير خلاف الأصل و ظاهر الآية هو الأمر بالإبصار و الإسماع و ليس في الكلام ما يدلّ على التَّعجب هذا مضافاً إلى أنّ التَّعجب من اللّه تعالى لا معنى له و المراد بالبصر هاهنا ليس هو المماسة بل المراد به البصيرة فقوله: **أَبْصِرْ** كناية تفهم المقصود بسبب الأيات و الدّلائل و قوله: **أَسْمِعْ** كناية عن إبلاغ الحكم لئلا يقولوا إنّا لم نسمع و المعنى إجعلهم على بصيرة و أتمم عليهم الحجّة بالتّبليغ، يوم يأتوننا أي قل لهم يوم القيامة يومٌ عظيم هو يومٌ يفّر المرء من أخيه و صاحبته و بنيه و بعبارةٍ أخرى أبصرهم البيّنات و الدّلائل و أسمعهم المواعظ و الأيات هذا ما وصل إليه فهمي القاصر و العلم عند اللّه.

١- البقرة = ١٧٥
٢- الكهف = ٢٦

و أمّا قوله: **وَلٰكِنِ ٱلظَّالِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**، فمعناه واضح إذ لا يملك أحد في يوم القيامة الأمر و النّهي إلاّ اللّٰه تعالى.

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

المراد بيوم الحسرة يوم القيامة سمّي به لأنّ الظّالم يتّحسر فيه و يقول يا ليتني لم أفعل كذا و كذا كما حكى اللّٰه تعالى في كتابه:

قال اللّٰه تعالى: **أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ ٱللَّهِ**(١).

قال اللّٰه تعالى: **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا**(٢).

و إذا كان يوم القيامة يوم الحسرة و النّدامة و العقل حاكمٌ بأنّ الحسرة بعد الوقوع في التّهلكة لا فائدة فيها فينبغي التّحرز منها قبل الوقوع فيها فأنّ الدّفع أسهل و أيسر من الرّفع و لأجل ذلك أمر اللّٰه أنبياءه بالإنذار و في قوله: **إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ** إشارة إلى ما ذكرناه و أنّهم كانوا في الدّنيا غافلين عمّا سيقع بهم بعد موتهم فلم يؤمنوا فيها هذا الكلام إشارة إلى أنّ الغفلة منشأ الشّرور و الأفات و هو كذلك.

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ

أخبر اللّٰه تعالى في هذه الآية عن نفسه فقال إنّا نحن نرث الأرض و من عليها فان أي لا يبقى منهم أحدٌ عليها و إلينا يرجعون كلّهم يوم القيامة و فيه إشارة إلى فناء الموجودات و بقاء:

قال اللّٰه تعالى: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَ يَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَ ٱلْإِكْرَامِ**(٣).

١- الزّمر = ٥٦ ٢- الأنعام = ٣١
٣- الرّحمٰن = ٢٦

قال اللّه تعالىٰ: **اِنّا لِلّهِ واِنّا اِليه راٰجِعُون.**

و لِنُشر إلىٰ شطرٍ من الأخبار الواردة في قصّة عيسىٰ تَيّمناً وتَبَركاً بها فنقول:

روىٰ في البحار بأسناده عن أبي بصير قال: لأبي عبد اللّه عليه السلام لم خلق اللّه عيسىٰ من غير أبٍ و خلق سائر النّاس من الأباء و الأمّهات فقال عليه السلام ليعلم النّاس تمام قدرته و كمالها و ليعلموا أنّه قادرٌ علىٰ أن يخلق خلقاً من أنثى من غير ذكرٍ كما أنّه قادر على أن يخلقه من غير ذكرٍ و الأنثى و أنّه عزّ وجلّ فعل ذلك ليعلم أنّه على كلّ شيٍ قدير إنتهى.

و بأسناده عن الأصول قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن الرّوح التّي في آدم في قوله: **فَإذاٰ سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا**(١) قال عليه السلام هذه روحٌ مخلوقة و الرُّوح التّي في عيسى مخلوقة إنتهى.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: أنّ مريم حملت بعيسىٰ عليه تسع ساعات كلّ ساعةٍ شهراً إنتهى.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: أنّ الصّيام ليس من الطّعام و الشّراب وحده ثمّ قال عليه السلام قالت مريم إنّي نذرت للرّحمن صوماً، أي صمتاً، إنتهىٰ(٢).

و عن تهذيب الأحكام بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: و قد ذكر يوم عاشوراء و هذا اليوم الّذي ولد فيه عيسى إبن مريم و الحديث طويلٌ.

و في كتاب سعد السّعود بأسناده عن المغيرة بن شعثة و قد بعثه النّبي إلى نجران فقالوا ألستم تقرأون (يا أخت هارون) و بينهما كذا و كذا فذكر ذلك للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم ألا قلت لهم أنّهم كانوا يسمّون بأنبيائهم و الصّالحين منهم إنتهى.

١- الحجر = ٢٨

٢-ج ٥ ص ٣٢١

و في كتاب معاني الأخبار بأسناه عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قول اللّه عزّ وجلّ: وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ(١) قال نفّاعاً إنتهىٰ.

و في أصول الكافي بأسناده عن بريد الكناسي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام أكان عيسىٰ بن مريم حين يكلّم في المهد حجّة اللّه على أهل زمانه فقال عليه السلام كان يومئذٍ نبيّاً حجّة اللّه غير مرسلٌ، أما تسمع لقوله حين قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا، مَا دُمْتُ حَيًّا(٢) قلت فكان يومئذٍ حجّة للّه على زكريّا في تلك الحال و هو في المهد فقال عليه السلام كان عيسى في تلك الحال آية للّه و رحمة منه لمريم حين يكلّم فعبّر عنها و كان نبيّاً و حجّةً على من سمع كلامه في تلك الحال ثمّ صَمت فلم يتّكلم حتىّ مضت له سنتان و كان زكرّيا الحجّة للّه عزّ وجلّ بعد صمت عيسىٰ لسنتين ثمّ مات زكريّا فورثه إبنه يحيى الكتاب و الحكمة و هو صبيٌ صغيرٌ أما تسمع لقوله عزّ وجلّ: يَا يَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا(٣) فلمّا بلغ سبع سنين تكلّم بالنّبوة و الرّسالة حين أوحى اللّه إليه فكان يعني الحجّة على يحيى و على النّاس أجمعين و ليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوماً واحداً بغير حجّةٍ للّه على النّاس منذ يوم خلق اللّه آدم و أسكنه الأرض و الحديث طويل أخذنا موضع الحاجة.

و بأسناده عن صفوان إبن يحيىٰ قال: قلت للرضّا عليه السلام قد كنّا نسألك قبل أن يهب اللّه لك أبا جعفر عليه السلام فكنت تقول يهب اللّه لي غلاماً فقد وهب اللّه لك فقرّ عيوننا فلا أرانا اللّه يومك فأن كان كون مالي من، فأشار بيده الى أبي جعفر عليه السلام و هو قائم بين يديه فقلت

١- مريم = ٣١
٢- مريم = ٣٠/٣١
٣- مريم = ١٢

جعلت فداك هذا إبن ثلاث سنين قال عليه السلام و ما يضرّه من ذلك شئ قد قام عيسى بالحجّة و هو إبن ثلاث سنين إنتهىٰ...

الحسين بن محمّد الخيراني عن أبيه قال: كنت واقفاً بين يدي أبي الحسن بخراسان فقال له قائل يا سيّدي أن كان كون فإلى من، قال عليه السلام: الى أبي جعفر إبني فكأنّ القائل إستصغر سنّ أبي جعفر عليه السلام فقال أبو الحسن أنّ اللّه تبارك و تعالى بعث عيسى إبن مريم رسولاً نبيّاً صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السّن الّذي فيه أبو جعفر عليه السلام إنتهى.

و بأسناده عن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد اللّه عن أفضل ما يتّقرب به العباد الى ربّهم و أحَّب ذلك الى اللّه ما هو فقال عليه السلام: ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصّلوة ألا ترى أنّ العبد الصّالح عيسى إبن مريم عليه السلام قال وَ أَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَ ٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا إنتهى.

و في تفسير علي بن إبراهيم قال الصّادق عليه السلام في هذه الأية: (وَ أَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَ ٱلزَّكَوٰةِ) قال عليه السلام: زكوة الرؤس لأنّ كلّ النّاس ليست لهم أقوال و أنّما الفطرة على الفقير و الغنّي و الصّغير و الكبير إنتهى.

و في عيون الأخبار بأسناده عن الصّادق عليه السلام حديث طويل في تعداد الكبائر و منها عقوق الوالدين لأنّ اللّه عزّ وجلّ جعل العّاق جبّارًا شقيًّا في قوله تعالى حكايةً عن عيسىٰ: وَ بَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا[1] إنتهىٰ[2].

■

١- مريم = ٣٢
٢- نور الثّقلين ج ٣ ص ٣٣٠ الى ٣٣٥

وَ ٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتٰابِ إِبْراٰهِيمَ إِنَّهُ كٰانَ صِدّيقًا نَبِيًّا
﴿٤١﴾ إِذْ قٰالَ لِأَبِيهِ يٰٓا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مٰا لٰا يَسْمَعُ وَ
لٰا يُبْصِرُ وَ لٰا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يٰٓا أَبَتِ إِنِّى
قَدْ جٰآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مٰا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ
صِراٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يٰٓا أَبَتِ لٰا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطٰانَ إِنَّ
ٱلشَّيْطٰانَ كٰانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يٰٓا أَبَتِ إِنِّيٓ
أَخٰافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذٰابٌ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيْطٰانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قٰالَ أَراٰغِبٌ أَنْتَ عَنْ اٰلِهَتِي
يٰٓا إِبْراٰهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ ٱهْجُرْنِي
مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قٰالَ سَلاٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ
إِنَّهُ كٰانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ مٰا تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَ أَدْعُوا رَبِّى عَسَىٓ أَلّآ أَكُونَ
بِدُعٰآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَ مٰا
يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَهَبْنٰا لَهُٓ إِسْحٰاقَ وَ
يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنٰا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَ وَهَبْنٰا لَهُمْ مِنْ
رَحْمَتِنٰا وَ جَعَلْنٰا لَهُمْ لِسٰانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

◀ اللّغة

سَوِيًّا: أي معتدلاً.

مَلِيًّا: أي دهراً، و قيل سليماً سويّاً.

حَفِيًّا: الحفيّ بفتح الحاء و كسر الفاء اللطيف لعموم النِّعمة.

◀ الإعراب

إِذْ قٰالَ لِأَبِيهِ إذ ظرف و العامل فيه صديقاً نبيّاً أَراٰغِبٌ أَنْتَ مبتدأ و خبر و أنت فاعله و أغنى عن الخبر و جاز الإبتداء بالنّكرة لإعتمادها على الهَمزَة و مَلِيًّا ظرف أي دهراً طويلاً و قيل هو نعت لمصدر محذوف وَكُلًّا جَعَلْنٰا هو منصوب بجعلنا.

◀ التّفسير

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتٰابِ إِبْرٰاهِيمَ إِنَّهُ كٰانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا

و أذكر يا محمّد أي أتل عليهم نبأ إبراهيم و ذاكره و مورده في التّنزيل هو اللّه تعالى و مناسبة هذه الآية لما مثلها أنّه تعالى لمّا ذكر قصة مريم و إبنها عيسى و إختلاف الأحزاب فيهما و عبادتهما من دون اللّه من قبيل من قامت بهما الحياة ذكر الفريق الضّال الّذي عبد جماداً و الفريقان و إن إشتركا في الضّلال، فالفريق العابد للجماد أضلّ ثمّ ذكر قصّة إبراهيم عليه‌السلام تذكيراً للعرب بما كان إبراهيم عليه من توحيد اللّه و قوله: **صِدِّيقًا نَبِيًّا**، فالصّديق من أبنية المبالغة و هو مبنّيٌ من الثّلاثي للمبالغة أي كثير الصّدق و يقابله الكذب وصف اللّه تعالى إبراهيم بالصدّق على العموم في أقواله و أفعاله.

قال الزّمخشري المراد فرط صدقه و كثرة ما صدّق به من غيوب اللّه و آياته و كتبه و رسله و كان الرجّحان و الغلبة في هذا التّصديق لكتبه و الرسّل أي كان مصدّقاً لجميع الأنبياء و كتبهم و كان نبيّاً في نفسه.

إِذْ قٰالَ لِأَبِيهِ يٰا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مٰا لاٰ يَسْمَعُ وَ لاٰ يُبْصِرُ وَ لاٰ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا

قال الطّبرسي رحمه‌الله قد بيّنا فيما مضى أنّ الّذي يقوله أصحابنا أنّ هذا الخطاب من إبراهيم أنّما توّجه الى من سمّاه اللّه أباً له لأنّه كان جدّ إبراهيم من أمّه و أنّ أباه الّذي ولده كان إسمه تارخ لإجتماع الطّائفة على أنّ آباء الأنبياء

الى آدم كلّهم مسلمون موحدّون و لما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لم يزل ينقلني اللّه تعالى من أصلاب الطّاهرين الى أرحام المطّهرين حتّى أخرجني في عالمكم هذا و الكافر غير موصوف بالطّهارة لقوله تعالىٰ: **إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**(١) إنتهى كلامه رفع مقامه.

أقول ما ذكره قدس سره حقّ لا مرية فيه و قد إتّفقت الشّيعة تبعاً لأئمتهم على ذلك و قد ورد في زيارة الحسين عليه السلام: أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشّامخة و الأرحام المطّهرة لم تنجّسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلّهمات ثيابها الخ.

هذا و أمّا العّامة فقد حملوا اللّفظ على ظاهره و قالوا أنّ أباه آزر كان كافراً و قد أجمعوا في تفاسيرهم على ذلك فعلى قولهم كان آذر أباً لأبراهيم حقيقياً، و لنرجع الى تفسير ألفاظ الآية فنقول إذ قال إبراهيم لأبيه، آزر، يا أبت، أي يا أبي و دخلت التّاء للمبالغة في تحقيق الإضافة **لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ** إستفهم إبراهيم عن السّبب الحامل لأبيه على عبادة الصَّنم و هو منتفٍ عنه السَّمع و البصر و الإغناء عنه شيئاً تنبيهاً على شنعة الرأي و قبحه و فساده في عبادة من إنتفت عنه هذه الأوصاف و توضيح الكلام بحيث الإجمال أنّ المعبود ينبغي أن يسمع دعاء العابد و يبصر عمله ليجزيه عليه ثواباً و عقاباً، و أن يكون ملاذاً و ملجأً في الشّدائد و يجيب دعوة المضطّر إذا دعاه و أن يفرج له بعد الشّدة و من المعلوم أنّ هذه الأمور متّوقفة على الإدراك و أمّا الأصنام و الأوثان و الأحجار و أمثالها من الجمادات الّتي لا إدراك لها و لا شعور كيف يعقل أن تتّصف بهذه الأمور و ما ليس متّصفاً بها كيف يعبد، و (ما) في لا يسمع قيل أنّها موصولة بمعنى الّذي و قيل أنّها نكرة موصوفة و معمول، يسمع و يبصر، منسّي و لا ينوي أي ما ليس به إستماع و لا إبصار لأنّ المقصود نفي هاتين الصفّتين دون تقييد بمتّعلق، و قوله: **شَيْئًا** أمّا مصدر أو مفعول به.

١- التوبة = ٢٨

يٰٓ أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا

لمّا سأله عن العلّة في عبادة الصّنم و لم يجد جواباً إذ لم يقدر آزر على الجواب إنتقل معه الى إخباره بأنّه قد جاءه من العلم ما لم يأته و لم يصف أباه بالجهل صريحاً إذ يغني عنه السؤال السّابق مضافاً الى مراعاة الأدب في الكلام و عملاً بقوله تعالىٰ: **أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَ جَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**[1] و، من، في قوله من العلم للتبعيض أي أتاني من اللّه شيئاً من العلم ليس معك فأتبّعني على توحيد اللّه بالعبادة و أرفض الأصنام و عبادتهما أهدك صراطاً سويّاً أي مستقيماً غير ذي عوج و هو الإيمان باللّه و إفراده بالعبادة و الإنقياد له في أوامره و نواهيه قال اللّه تعالى: **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ثمّ قال: **صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا ٱلضَّآلِّينَ.**

و هذا الكلام في الحقيقة تفسير لقوله: **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** و قد مرّ الكلام فيه في تفسير سورة الحمد بما لا مزيد عليه و إنتقل من أمره بإتّباعه إلى نهيه عن عبادة الشّيطان فقال: **يٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا** حيث إستعصى حين أمره بالسّجود لآدم فأبى فهو عدوّ لك و لأبيك آدم من قبل و العاقل لا يعبد عدّوه، إن قلت، أنّه ما كان عابداً للشّيطان بل كان عابداً للصّنم فما معنى قوله: **لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ.**

قلت عبادة الصّنم و الوثن و بالجملة عبادة غير اللّه في الحقيقة عبادة الشّيطان لأنّه السّبب في ذلك **يٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا** قيل، أخاف، هاهنا بمعنى أعلم **فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا**[2].

١- النّحل = ١٢٥

٢- الكهف = ٨١

أي علمنا أن يمسك و يلحقك عذابٌ من اللّه على إشراكك معه في العبادة غيره و متى فعلت ذلك فقد كنت ولّياً للشّيطان أي ناصراً و مساعداً له فأنّ التّابع ناصرٌ لمتبوعه لا محالة و لذلك يتّبعه و قيل في الكلام تقديمٌ و تأخير و التّقدير أنّي أخاف أن تكون وليّاً في الدنيا للشّيطان فيمسّك في الأخرة عذابٌ من الرّحمن و قيل لأنّه لم يعّين أنّ العذاب في الأخرة فيحتمل أن يحمل العذاب على الخذلان من اللّه فيصير موالياً للشّيطان و يحتمل أن يكون مسَّ العذاب في الدّنيا فأن يبتلي على كفره بعذابٍ في الدّنيا فيكون ذلك العذاب سبباً لتماديه على الكفر و صيرورته إلى ولاية الشّيطان إلى أن يوافىٰ على الكفر كما قال تعالىٰ: **وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**[١] و كيف كان فهذه المناصحات تدلّ على شدّة تعلّق قلبه بمعالجة أبيه و الطّمع في هدايته قضاءً لحقّ الأبّوة و إرشاداً إلى الهدى لقوله ﷺ: **لأن يَهدي اللّه بِك رجلاً خيرٌ لك من حُمر النَعم.**

قٰالَ أَراٰغِبٌ أَنْتَ عَنْ اٰلِهَتي يٰآ إِبْراٰهيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْني مَلِيًّا

قال، آزر، **أَراٰغِبٌ أَنْتَ عَنْ اٰلِهَتي يٰآ إِبْراٰهيمُ**، أي أتاركٌ أنت و زاهدٌ في عبادة آلهتي، ثمّ قال، لَئِن لَم تَنتَه أي أن لَم تَمتَنع من ذلك لأرجُمنَّك، أي لأرمينَّك بالحجارة حتّىٰ تباعَد عنّي و قيل لأرمينَّك بالذَّم والعيب وأُهجُرني مليّاً، أي سَوّياً سَليماً من عقُوبتي و قيل دَهراً، والهَجر التّرك أي أُتركني وباعد عنّي حتّىٰ لا أراك و هو كناية عن طَرده إبراهيم عن نفسه و من هذا الكلام نعلم أنّ الحقّ مُرٌّ علىٰ الأسماع فَضلاً عن العَمَل به.

قال صاحب الكشّاف قدّم الخَبَر علىٰ المبتدأ في قوله: **أَراٰغِبٌ أَنْتَ عَنْ اٰلِهَتي** لأنّه كان أصّم عبده و فيه ضَربٌ من التَّعجُب والإنكار لرَغبَته عن آلِهته

١- الاعراف = ١٦٨

وأنّ آلِهته ما ينبغي أن يَرغب عنها أحَد و فى هذا سلوان وثَـلج لِصَدر رسـول اللّه ﷺ عمّا كان يلقي من مثل ذلك من كفّار قومه إنتهىٰ.

أقُول ما ذَكره في إعراب الكلام أنكره بعض المفسّرين حيث قال والمختار فـي إعـراب، أراغبٌ أنتَ أن يكـون راغب مـبتدأ لأنّـه قـد إعتمد عـلىٰ أداة الإستفهام وأنت فاعل سَدَّ مَسدَّ الخَبر ويَتَرجـح هـذا الإعـراب عـلىٰ مـا أعَـرَبه الزّمخشري بوجهين:

أحدهما: أنّه لا يكون فيه تقديم وتأخير إذ رُتبة الخبر أن يتّأخر عن المبتدأ.

الثّاني: أن لا يكون فصل بين العامل الّذي هو، أراغبٌ وبَين مـعموله الّـذي هو عن آلهتي، بما ليس بمعمُولٍ للفاعل لأنّ الخَبر ليس هُو عـاملاً فـي المـبتدأ بخلاف كَون أنتَ فاعلاً فأنّه معمُول أراغبٌ فَلم يَفصل بين، أراغبٌ وَبَـين عـن آلهتي بأجبنّي أنّما فصل بمعمُول له ولمّا أنكر عَـليه رغـبته عـن آلِـهته تَـوَّعَده مُقسِماً علىٰ إنفاذ ما تَوَّعَد به أن لَم يَنتَه إنتهىٰ.

و إختلفوا فـي الرَّحـم فـقال قـوم أي لأقـتلّنك، و قـال قـومٌ أي لأشـتُمَّنك لارجمَّنك بالحجارة.

فأن قلت علام عطف و أهجرني.

قلت علىٰ معطوف عـليه مـحذوف يـدلّ عـليه لأرجـمَّنك أي فـإحذرني و أهجرني لأنّ لأرجمَّنك تهديد و تقريع و أنّما قلنا ذلك لـيناسب بـين جـملتي العـطف و المـعطوف عـليه و قـوله: **مَـلِيًّا** إنـتصب عـلى الظَّـرف أي دهـراً طويلاًالملوان و هما اللّيل و النّهار و الملاوة بتثليث حركة الميم، الدّهر الطّـويل من قولهم أمليت لفلان في الأمر إذا أطلت له قال الشّاعر:

فعنا بها من الشّباب ملاوة ... فالحج أيات الرّسول المحبب

و قيل معناه أبداً، و منه قول الشّاعر:

فَتّصدعت صمَّ الجبال لموته ... وبكت عليه المرملات ملّياً

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا

قرأ أبو البّر، سلاماً، بالنَّصب، و الجمهور بالرّفع و هو الأصحّ قالوا هذا بمعنى المسالمة لا بمعنى التّحية أي أمنته منّي لك و أنّما قالوا ذلك لأنّهم لا يجوّزون إبتدأ الكافر بالسّلام و قال النّقاش، حليمٌ خاطب سفيهاً كقوله: **وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**[١] و قيل أنّه دعاء له بالسّلامة على سبيل الإستمالة ثمّ وعده بالإستغفار و ذلك يكون بشرط حصول ما يمكن معه الإستغفار و هو الإيمان باللّه و إفراده بالعبادة و هذا كما يرد الأمر و النّهي على الكافر مع أنّه لا يصّح الإمتثال إلاّ بشرط الإيمان.

و قال الشّيخ ﵀ في التّبيان، سلامٌ عليك، أي سلامة عليك أي إكرام وبّر بحقّ الابّوة و شكر التّربية و قال ذلك علىٰ وضع التّواضع له و لين الجانب لموضعه إنتهى.

و هذا هو الحقّ إذ لا نعني بقوله: **أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**[٢] إلاّ هذا و أمّا قوله سأستغفر لك ربّي فمعناه أنّه وعده بالإستغفار على مقتضى العقل و هو ممّا لا إشكال فيه.

و قال قوم أنّه وعده بالإستغفار بشرط تركه عبادة الأوثان و لذلك قال سأستغفر لك أي في المستقبل ولم يقل أستغفر لك، و قيل معنى الكلام أدعو اللّه في هدايتك فيغفر لك بالإيمان فأنّ إبراهيم كان يعلم أنّ اللّه لا يغفر للكافر مادام كونه كافراً و قوله: **إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا** أي إنّ اللّه كان بي رحيماً، حليماً، و قيل باراً، و قيل الحفّي المكرم المحتَّفل الكثير البّر و الألطاف.

وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا

١- الفرقان = ٦٣
٢- النّحل = ١٢٥

لمّا أمره آزر بهجره الزّمان الطّويل في قوله: **وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا**، أخبره إبـراهـيم بأنّه يتمثل أمره و يعتزله و قومه و معبوداتهم فهاجر إبراهـيم إلى الشّـام و قـيل إلى حرّان بأرض كوشاء، و فى هجرته هذه تزّوج سارة ولقي الجبّار الّذي أخدم سارة هاجر و قوله أدعو ربّي قيل معناه و أعبد ربّـي كـما جـاء فـي الحـديث الدُّعاء العبادة لقوله تعالىٰ: **فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ** و يجوز أن يراد بالدّعاء الّذي حكاه اللّه في سورة الشّـعراء، ربّ هب لي حكـماً إلى أخره، وقوله: **عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا** قيل فيه تعريض أخر بشقاوتهم بدعاء آلهتهم مع التّواضع للّه في كلمة عسـى، و مـا فـيه مـن هـضم النّفس و في عسى، ترّج في ضمنه خوفٌ شديد.

فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا

أي فلمّا إعتزلهم إبراهيم أي فارقهم و أرضهم و خرج منها إلى ناحية الشّام، وهبنا له أي آنسنا وحشته بأولاد كرام على اللّه رسل للّه و جعلناهم أنبياء فولد له إسحاق و إبنه يعقوب تسلية له و شدّاً لعضده و إسحاق أصغر من إسـماعيل و لمّا حملت هاجر بإسماعيل غارت سارة ثمّ حملت بإسحاق.

وَ وَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا المراد بالرّحمة النّبوة و قيل المال و الولد، و الحقّ أنّ المراد بـها خـير الدّيـني و الدُّنـيوي مـن العلم و المنزلة و الشّرف في الدنيّا و النعيم في الأخـرة و لسـان الصِّـدق الثّـناء الحسن الباقي عليهم أخر الأبد و عبّر باللّسان كما عبّر باليد عمّا يـطلق بـاليد و هي العطّية و اللّسان في كلام العرب الرّسالة الرّائعة كانت في خيرٍ أو شرٍّ قـال الشّاعر:

إنّي أتتني لسان لا أسّر بها

و قال أخر:

ندمت على لسانٍ كان منّي

و لسان العرب لغتهم وكلامهم إستجاب اللّه دعوته فصًيره قدوة حتّى عظّمه أهل الأديان كلّهم و إدّعوه فقال تعالى ملّة أبيكم إبراهيم و ملّة إبراهيم حنيفاً، ثمّ أوحينا إليك أن إتَّبع ملّة إبراهيم حنيفاً، و أعطى ذلك ذرّيته فأعلى ذكرهم و أثنى عليهم.

أقول في هذه الأيات دلالة على أنّ الإنسان إذا دعا قومه إلى الحقّ و أنكروه فالإعتزال عنهم ممدوح و ذلك أنّ إبراهيم عليه السلام إعتزلهم بعد إنكارهم الدَّعوة.

ففي كتاب علل الشّرائع بأسناده قال إحتّجوا في مسجد الكوفة فقالوا ما بال أميرالمؤمنين عليه السلام لم ينازع الثّلاثة (أبو بكر وعمر وعثمان) كما نازع طلحة و الزّبير و عائشة و معاوية فبلغ ذلك عليّاً، فأمر أن ينادي الصّلاة جامعة فلمّا إجتمعوا صعد المنبر فحمد اللّه و أثنى عليه ثمّ قال:

قلنا ذلك قال عليه السلام أنّ لي بستّة من الأنبياء أسوة فيما فعلت قال اللّه تعالى في محكم كتابه لقد كان لكم في رسول اللّه أسوةٌ حسنة قالوا و من هم يا أميرالمؤمنين قال عليه السلام أوّلهم إبراهيم عليه السلام إذ قال لقومه، و أعتزلكم و ما تدعون من دون اللّه، فأن قلتم أنّ إبراهيم إعتزل قومه لغير مكروهٍ أصابه منهم فقد كفرتم و أن قلتم إعتزلهم لمكروهٍ رأه منهم فالوَّصي أعذر.

و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة إنتهىٰ.

بيَّن عليه السلام وجه إعتزاله عن القوم و هو وصول المكروه منهم إليه و لا شكّ أنّ المراد من المكروه هو إنكارهم عليه لمّا دعاهم إلى الحقّ و فعل المعصوم حجّة كما ثبت في محلّه.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم رحم اللّه عبدٌ طلب من اللّه عزّ وجلّ حاجة فألَّح في الدّعاء أستجيب له أو لم أستجيب و تلى هذه الأية: وَ أَدْعُوا رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا.

و في تفسير علّي بن إبراهيم، فلمّا إعتزلهم يعني إبراهيم وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إلىٰ قوله: مِنْ رَحْمَتِنَا يعني لإبراهيم و إسحاق ويعقوب من رحمتنا رسول اللّه و جعلنا لهم لسان صدقٍ علّياً، يعني أميرالمؤمنين عليه السلام حدثّني بذلك أبي عن الحسن بن علّي العسكري عليه السلام انتهى.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال أميرالمؤمنين لسان الصِّدق للمرء يجعله اللّه في النّاس خيراً من المال يأكله و يورثه الحديث بطوله إنتهىٰ[1].

■

١- نور الثّقلين ج ٣ ص ٣٣١

وَ ٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتٰابِ مُوسىٰ إِنَّهُ كٰانَ مُخْلَصًا وَ
كٰانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَ نٰادَيْنٰاهُ مِنْ جٰانِبِ ٱلطُّورِ
ٱلْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنٰاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَ وَهَبْنٰا لَهُ مِنْ
رَحْمَتِنٰآ أَخٰاهُ هٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَ ٱذْكُرْ فِى
ٱلْكِتٰابِ إِسْمٰاعِيلَ إِنَّهُ كٰانَ صٰادِقَ ٱلْوَعْدِ وَ كٰانَ
رَسُولاً نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَ كٰانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلٰوةِ وَ
ٱلزَّكٰوةِ وَ كٰانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَ ٱذْكُرْ فِى
ٱلْكِتٰابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كٰانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَ
رَفَعْنٰاهُ مَكٰانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللّٰهُ
عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ اٰدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنٰا
مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْرٰآئِيلَ وَ مِمَّنْ
هَدَيْنٰا وَ ٱجْتَبَيْنٰآ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ اٰيٰاتُ ٱلرَّحْمٰنِ
خَرُّوا سُجَّدًا وَ بُكِيًّا ﴿٥٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
أَضٰاعُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ ٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوٰاتِ فَسَوْفَ
يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تٰابَ وَ اٰمَنَ وَ عَمِلَ
صٰالِحًا فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَ لاٰ يُظْلَمُونَ
شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنّٰاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ عِبٰادَهُ
بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كٰانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لاٰ يَسْمَعُونَ
فِيهٰا لَغْوًا إِلَّا سَلاٰمًا وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهٰا بُكْرَةً وَ
عَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبٰادِنٰا
مَنْ كٰانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَ مٰا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مٰا
بَيْنَ أَيْدِينٰا وَ مٰا خَلْفَنٰا وَ مٰا بَيْنَ ذٰلِكَ وَ مٰا كٰانَ

رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَ ٱصْطَبِرْ لِعِبٰادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

◀ اللّغة

ٱلطُّورِ: بِضَم الطّاء جبلٌ بالشّام.

نَجِيًّا: أي إختّصه بكلامه.

وَ ٱجْتَبَيْنٰآ: الإجتباء و الإختيار.

فَخَلَفَ: أي ترك.

غَيًّا: الغَّي بفتح الغين الشَّر و الخيبة.

◀ الإعراب

نَجِيًّا هو حال و هارُون بدل و نَبِيًّا حال مَكٰانًا عَلِيًّا ظرف مِنْ ذُرِّيَّةِ ءٰادَمَ هو بدل من النبّيين بإعادة الجّار و سُجَّدًا حال مقّدرة بُكِيًّا أيضاً كذلك جَنّٰاتِ عَدْنٍ من كسر التّاء بدله من الجنّة في الآية قبلها و من رفع فهو خبر مبتدأ محذوف إِنَّهُ كٰانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا الهاء ضمير إسم اللّه و يجوز أن تكون ضمير الشّأن و وَعْدُهُ بدل منه بدل الإشتمال.

◀ التّفسير

وَ ٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتٰابِ مُوسىٰٓ إِنَّهُ كٰانَ مُخْلَصًا وَ كٰانَ رَسُولًا نَبِيًّا

قرأ الكوفّيون مخلصاً، بفتح اللاّم أي أخلصه اللّه للعبادة و النُّبوة كما قال تعالىٰ إِنّآ أَخْلَصْنٰاهُمْ بِخٰالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدّٰارِ[1] و قرأ باقي السَّبعة و الجمهور بكسر اللاّم أي أخلص العبادة عن الشِّرك و الرِّياء أو أخلص نفسه و أسلم وجهه

١- ص = ۴۶

للّه و المعنى و أذكر يا محمّد في الكتاب موسى إبن عمران أنّه كان مخلصاً في عبادته و رسالته و قوله: **كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا**، إشارة الى أنّه صاحب كتابٍ و شريعة أرسله اللّه تعالى الى عباده كغيره من المرسلين و فى هذا الكلام دلالة علىٰ أنّ موسى كان رسولاً و نبيّاً، أي أعطاه اللّه مقام الرّسالة و النُّبوة معاً لا أنّه كان نبيّاً فقط مثل هود و صالح و إدريس و أمثالهم.

إن قلت قوله: **وكَانَ رَسُولًا**، مغنٍ عن قوله: **نَبِيًّا**، لأنّ كلّ رسولٍ نبيٌّ و لاعكس.

قلت لعّل الوجه في ذكر النّبي بعد الرّسول إشارة الى خروج الملائة لأنّ الرَّسول يطلق على الملك كما يطلق على البشر:

قال اللّه تعالىٰ: **يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَآئِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ ٱلنَّاسِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **جَاعِلِ ٱلْمَلَآئِكَةِ رُسُلًا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ**(٣) والآيات كثيرة.

و على هذا فقوله نبيّاً، يدلّ على أنّه كان رسولاً من جنس البشر لأنّ الملك لا يكون نبيّاً و اللّه أعلم.

نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا

ندائه إيّاه هو تكليمه تعالى إيّاه و الطُّور الجبل المشهور بالشّام و الظّاهر أنّ الأيمن منفذ للجانب لقوله في الآية الأخرى، جانب الطُّور الأيمن بنصب الأيمن نعتاً لجانب الطُّور و الجبل نفسه لا يمنة و لا يسرة و لكن كان على يمين موسى بحسب وقوفه فيه و أحتمل بعضهم أن يكون صفة للطُّور إذ معناه الأسعد المبارك.

١- الحجّ = ٧٥ ٢- فاطِر = ١
٣- هُود = ٦٩

قلت فعلى هذا هو مشّتق من اليمن و البركة أي كان الطُّور مباركاً هذا و الجمهور على أنّه صفة للجانب أي أنّه تعالى ناداه من ناحيته اليمنى يمين موسى و قوله **قَرَّبْنٰاهُ نَجِيًّا**، إختلفوا في معنى المراد من المقّرب فقال الجمهور تقريب التّشريف و قال إبن عبّاس أدنى موسى من الملكوت و رفعت له الحجب حتّى سمع صريف الأقلام، و قال سعيد أردفه جبرئيل عليه السلام وقال الزّمخشري شبّهه بمن قرّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلّمه بغير واسطة ملك إنتهى.

و نجّي فعيل من المناجاة بمعنى مناج كالجليس و قال قتادة معنى نجاة صدقه.

أقول المراد بالقرب في الآية هو القرب المعنوي الّذي يحصل للإنسان بسبب الإخلاص في العبوديّة كما يقال فلانٌ مقّرب عند اللّه و أمّا ما نقلوه عن إبن عبّاس أنّ موسى رفعت له الحجب حتّىٰ سمع صريف الأقلام فهو كلام لا طائل تحته إذ ليس هناك صريفٌ حتّى يسمع و لتوضيح ذلك نقول القرب و البعد يتقابلان و يستعمل ذلك في المكان و يعّبر عنه بالقرب المكانى.

قال اللّه تعالى: **وَ لاٰ تَقْرَبٰا هٰذِهِ اَلشَّجَرَةَ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ لاٰ تَقْرَبُوا مٰالَ اَلْيَتِيمِ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ لاٰ تَقْرَبُوا اَلزِّنىٰ إِنَّهُ**...(٣).

قال اللّه تعالى: **فَلاٰ يَقْرَبُوا اَلْمَسْجِدَ اَلْحَرٰامَ بَعْدَ عٰامِهِمْ هٰذٰا**(٤).

و يستعمل في الزّمان و يعبّر عنه بالقرب الزّماني و منه:

قال اللّه تعالى: **اِقْتَرَبَ لِلنّٰاسِ حِسٰابُهُمْ**(٥).

قال اللّه تعالى: **وَ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مٰا تُوعَدُونَ**(٦).

١- البقرة = ٣٥   ٢- الانعام = ١٥٢
٣- الاسراء = ٣٢   ٤- التوبة = ٢٨
٥- الانبياء = ١   ٦- الانبياء = ١٠٩

و قد يستعمل في النّسبة:

قال اللّه تعالى: **وَ إِذا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبىٰ وَ ٱلْيَتامىٰ**[١].

قال اللّه تعالى: **ٱلْوالِدانِ وَ ٱلْأَقْرَبُونَ**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبىٰ**[٣] و أمثالها منها.

وقد يستعمل في الخطوة:

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلْمَلآئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ**[۴].

و قوله في عيسىٰ عليه السلام.

قال اللّه تعالى: **وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيا وَ ٱلْاٰخِرَةِ وَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ**[۵].

قال اللّه تعالى: **نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ**[۶].

قال اللّه تعالى: **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ**[٧].

و هكذا قد يستعمل في الرّعاية:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ رَحْمَتَ ٱللّٰهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ**[٨].

قال اللّه تعالى: **فَإِنّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدّاعِ**[٩].

قال اللّه تعالى: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ**[١٠].

إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ قوله وَ **قَرَّبْناهُ نَجِيًّا** من قبيل قوله تعالىٰ في عيسى و الملائكة حيث وصفهم بالقرب و يحتمل أن يكون المراد بالقرب هو حذف الواسطة في التّكلم في قوله: **وَ كَلَّمَ ٱللّٰهُ مُوسىٰ تَكْلِيمًا**[١١] أي بدون الواسطة و هو من أعلىٰ مراتب القرب وَ **وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنآ أَخاهُ هٰرُونَ نَبِيًّا** الهبة أن تجعل ملك لغيرك بغير عوض يقال وهبته هبةً و موهبتاً و موهباً، و

١- النساء = ٨
٢- النساء = ٧
٣- المائدة = ١٠۶
۴- النساء = ١٧٢
۵- آل عمران = ۴۵
۶- الاعراف = ١١۴
٧- المطففين = ٢٨
٨- الاعراف = ۵۶
٩- البقرة = ١٨۶
١٠- الواقعة = ٨۵
١١- النساء = ١۶۴

قد تكون الهبة بعوضٍ و يعبّر عنها بالهبة المعوَّضة كما يعبّر عن الأولىٰ بغير المعوَّضة و ما نحن فيه من القسم الأوّل لأنّ مواهب اللّه تعالى تكون بلا عوض لأنّها على أساس الجود الّذي لا عوض فيه و لا غرض فقوله أو أحينا له، إشارة إلىٰ أنّ هارون كان من مواهب اللّه أعطاه لموسى ليكون له عضداً و وزيراً، قال اللّه تعالىٰ: **سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمٰا سُلْطٰاناً**(١) و قوله **مِنْ رَحْمَتِنٰا**، فكان، من، نشأتّه أو تبعيضيّته أي أنّها نشأت من رحمتنا الّتي هي قريبٌ من المحسنين و قوله: **نَبِيًّا**، إشارة إلى أنّه أي هارون كان نبيّاً، لو كان حيّاً بعد موسى إلاّ أنّه مات قبله و الكلام مشعرٌ بأنّ هارون كان شريكاً له في النّبوة إلاّ أنّ ظهور النّبوة و فعليّتها كان مشروطاً ببقاءه بعد موسى و إلى هذا المعنىٰ أشير بقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم **يا علّي أنتَ مِنّي بمنزلة هارُون من مُوسىٰ إلاّ أنّه لا نَبّي بعدي**.

و قد مرَّ الكلام في قصّة موسى و ولادته و سيأتي تفصيل الكلام في سورة القصص إنشاء اللّه و يظهر من الأخبار أنّ اللّه تعالى كما قرَّب موسى نجيّاً، قرَّب عليّاً عليه السلام نجيّاً.

في بصائر الدّرجات بأسناده عن حمران قال قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام فداك بلغني أنّ اللّه تبارك و تعالى ناجى علّياً قال عليه السلام أجل قد كان بينهما مناجاة بالطّائف نزل بينهما جبرئيل عليه السلام إنتهى.

و بأسناده عن جابر بن عبد اللّه قال: لمّا كان يوم الطّائف ناجى رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم عليّاً فقال أبو بكر و عمر إنتجيته دوننا فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم ما إنتجيته بل اللّه ناجاه إنتهى.

وَ ٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتٰابِ إِسْمٰاعِيلَ إِنَّهُ كٰانَ صٰادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكٰانَ رَسُولاً نَبِيًّا.

أي و أذكر يا محمّد في الكتاب الّذي هو القرآن أيضاً إسماعيل و هو إبن إبراهيم الخليل أبو العرب فأنّ المشهور أنّه أوّل من تكلّم بالعربّية قول

١- القصص = ٣٥

الجمهور، و قيل المراد به هو إسماعيل بن حزقيل بعثه اللّه إلى قومه فشّجوا جلدة رأسه فخّيره اللّه فيما شاء من عذابهم فإستعفاه و رضي بثوابه و فوّض أمرهم إليه في عفوه و عقوبته و صدق وعده أنّه كانت مواعيد اللّه للنّاس توّفى بالجميع فلذلك خصّ بصدق الوعد قيل لم يعد ربّه موعدة إلاّ أنجزها فمن مواعيده الصَّبر و تسليم نفسه للذَّبح و وعد رجلاً أن يقيم بمكانٍ فغاب عنه مدّة قيل سنة و قيل أثنى عشر يوماً فقال برحت من مكانك فقال لا و اللّه ما كنت لأخلف موعدى.

أقول يظهر من الأخبار أنّ إسماعيل هذا غير إسماعيل إبن إبراهيم الخليل.

فقد روي إبن أبي عمير بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال عليه‌السلام: سمّي إسماعيل صادق الوعد لأنّه وعد رجلاً في مكانٍ فإنتظر سنة فسّماه اللّه عزّ وجلّ صادق الوعد ثمّ أنّ الرّجل أتاه بعد ذلك فقال له إسماعيل ما زلت منتظراً لك إنتهى.

و في عيون الأخبار بأسناده عن أبي الحسن الرّضا عليه‌السلام قال عليه‌السلام: أتدري لم سمّي إسماعيل صادق الوعد قال قلت لا أدري قال عليه‌السلام وعد رجلاً فجلس له حولاً ينتظره إنتهى.

و في كتاب علل الشّرائع بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال: أنّ إسماعيل الّذي قال اللّه عزّ وجلّ في كتابه وَ ٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولاً نَبِيًّا لم يكن إسماعيل بن إبراهيم بل كان نبيّاً من الأنبياء بعثه اللّه عزّ وجلّ إلى قومه فأخذوه فسلخوا فروة رأسه و وجهه فأتاه ملك فقال أنّ اللّه جلَّ جلاله بعثني إليك فمرني بما شئت فقال لي أسوّةٌ بما يصنع بالأنبياء عليهم السّلام إنتهى.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام أنّ إسماعيل كان رسولاً نبيّاً سلَّط عليه قومه فقّشروا جلدة وجهه وفروة رأسه فأتاه رسول من ربّ

العالمين فقال له ربّك يقرؤك السّلام ويقول قد رأيت ما صنع بك و قد أمر ربّي بطاعتك فمرني بما شئت فقال يكون لي بالحسين بن علّي عليه السلام أسوةٌ إنتهى.

و في تفسير علّي بن إبراهيم، و أذكر في الكتاب إسماعيل أنّه كان صادق الوعد، وعد وعداً فإنتظر صاحبه سنة و هو إسماعيل بن حزقيل عليه السلام إنتهى.

و قال الشّيخ في التّبيان و الطّبرسي في مجمع البيان و تبعهما من كان بعدهما من المفسّرين أنّه إسماعيل بن إبراهيم، و به قال الطّبري و الرّازي و غيرهما من مفّسري العامّة و هو المشهور بين المفسّرين.

و قيل أنّ إسماعيل بن إبراهيم مات قبل أبيه إبراهيم و أنّ هذا هو إسماعيل بن حزقيل و اللّه أعلم بحقيقة الحال وكيف كان لا شكّ أنّه كان من المرسلين.

وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَ ٱلزَّكَوٰةِ وَ كَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا

أي و كان إسماعيل يأمر أهله بالصّلاة و الزّكاة و كان عند ربّه مرضيّاً، قيل المراد بالأهل أمّته و هو خلاف ظاهر اللّفظ و متفاهم العرف فأنّ الأهل في الظّاهر أقرب أقاربه لغةً و عرفاً و قوله: **مَرْضِيًّا** و هو إسم مفعول أي قد رضي أعماله لأنّها كلّها طاعات قيل أراد بذلك أفعاله الواجبات و المندوبات دون المباحات لا يرضها اللّه و لا يسخطها و أصل مرضي، مرضّ، فقلبت الضّمة كسرة و الواو ياء و أدغمت في الياء فصار مرضيّاً.

وَ ٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا

أي و أذكر يا محمّد في الكتاب أي في القرآن، إدريس قيل هو جدّ أبي نوح و هو أخنوع و هو أوّل من نظر في النّجوم و الحساب و جعله اللّه من معجزاته و أوّل من خطّ بالقلم و خاط الثّياب و لبس المخيط و كان خيّاطاً و كانوا قبل يلبسون الجلود و أوّل مرسل بعد آدم و أوّل من إتّخذ الموازين و المكاييل و

الأسلحة فقاتل بني قابيل، و قيل هو الياس بعث الىٰ قومه بأن يقولوا لا إلٰه إلاّ اللّه و يعملون ما شاؤوا فأبوا و أهلكوا و إدريس إسم أعجّمي منع من الصَّرف للعمليّة و العجمة و لا يجوز أن يكون أفعيلاً، من الدَّرس كما قال بعضهم لأنّه كان يجب صرفه إذ ليس فيه إلاّ سببٌ واحد العلَّمية، ثمّ وصفه اللّه تعالى بكونه صديقاً أي كثير التَّصديق بالحقّ و نبيّاً من قبل اللّه تعالى الى الخلق.

وَ رَفَعْنٰاهُ مَكٰانًا عَلِيًّا

و المكان العلّي شرف النبّوة و الزلّفى عند اللّه و قد أنزل اللّه عليه ثلاثين صحيفة، و قيل هو رفع النبُّوة و التّشريف و المنزلة في السّماء كسائر الأنبياء و قيل بل رفع الى السّماء ذلك بأمر اللّه كما رفع عيسى عليه السلام قالوا في كيّفية رفعه الى السّماء أنّه كان له خليلٌ من الملائكة فحمله على جناحه و صعد به حتّى بلغ السّماء الرّابعة فلقى هناك ملك الموت فقال له أنّه قيل لي إهبط الى السّماء الرّابعة فأقبض فيها روح إدريس و إنّي لأعجب كيف يكون هذا فقال له الملك الصّاعد هذا إدريس معي فقبض روحه.

و روي أنّ هذا كلّه كان في السّماء السّادسة قاله إبن عبّاس وعن الحسن، رَفَعْنٰاهُ مَكٰانًا عَلِيًّا أي إلى الجنّة إذ لا شئ أعلى منها.

و في الكافي بأسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أخبرني جبرئيل أنّ ملكاً من الملائكة كانت له عند اللّه منزلة عظيمة فتّعتب عليه فأهبطه من السّماء إلى الأرض فأتى إدريس و قال له أنّ لك من اللّه منزلة فإشفع لي عند ربّك فصّلى ثلاث ليالٍ لا يفتر و صام أيّامها لا يفطر ثمّ طلب إلى اللّه عزّ وجلّ في السّحر في الملك فقال الملك أنّك قد أعطيت سؤلك أطلق اللّه لي جناحي و أنا أحبّ أن أكافيك فأطلب إليّ حاجة فقال تريني ملك

الموت لعلّي أنس به فأنّه ليس يهنّيني مع ذكره شيءٌ فبسط جناحه ثمّ قال إركب فصعد به يطلب ملك الموت في السّماء الدنيّا فقيل له إصعد فإستقبله بين السّماء الرّابعة و الخامسة فقال الملك يا ملك الموت ما لي أراك قاطباً قال العجب أنّي تحت ظلّ العرش حي أمرت أن أقبض روح آدّمي بين السّماء الرّابعة و الخامسة فسمع إدريس فإمتعض، فخّر من جناح الملك فقبض روحه مكانه قال اللّه عزّ وجلّ: وَ رَفَعْنٰاهُ مَكٰانًا عَلِيًّا إنتهىٰ.

و قد روي عن النّبي أنّه ﷺ رأه في السّماء الرّابعة ليلة المعراج قال ﷺ: فقلت من هذا ياجبرئيل فقال هذا إدريس رفعه اللّه مكاناً عليًّا، فسّلمت عليه و سلّم علّي و إستغفرت له و إستغفر لي.

و قد ذكر في تفسير نور الثّقلين حديثاً طويلاً في الباب إن شئت فراجعه.

أُولٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيّٖنَ مِنْ ذُرِّيَّةِ اٰدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْرٰآئِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنٰا وَ ٱجْتَبَيْنٰآ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ اٰيٰاتُ ٱلرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَ بُكِيًّا

أولئك إشارة إلى ما تقدّم ذكره من حالات الأنبياء و(مِن) في قوله: **مِنَ ٱلنَّبِيّٖنَ** بيّانية لأنّ جميع الأنبياء منعمٌ عليهم و من، الثّانية للتّبعيض و كان إدريس من ذريّة آدم لقربه منه لأنّه جدّ أبي نوح، و إبراهيم من ذريّته من حمل مع نوح لأنّه من ولد سام بن نوح، و من ذريّة إبراهيم إسحاق و إسماعيل و يعقوب و إسرائيل معطوف على إبراهيم، و زكريّا و يحيى و موسى و هارون من ذريّة إسرائيل و كذلك عيسى لأنّ مريم من ذريّته.

قال بعض المفسّرين فأن حملنا(مِن) في قوله: **مِنَ ٱلنَّبِيّٖنَ** علىٰ التّبعيض لا إشكال فيه إذ لم تدلّ على من عداهم لم ينعم عليهم بل لا يمتنع أن يكون

أنّما أفردهم بأنّه أنعم عليهم نعمة مخصوصة عظيمة رفيعة وأن كان غيرهم أيضاً قد أنعم عليهم بنعمة دونها إنتهىٰ.

إن قلت لم قال منْ ذرِّيَّةِ ادم، و الأنبياء كلّهم من ذريّته.

قلت لأنّ النّبي في الآية يشمل الرّسول أيضاً و هو لا يختّص بذريّة آدم لأنّ اللّه بعث رسلاً ليسوا من ذريّة آدم بل هم من الملائكة:

قال اللّه تعالىٰ: **يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَآئِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ ٱلنَّاسِ**(١).

و قوله: **وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ ٱجْتَبَيْنَآ** أي ممَّن هديناهم إلى الطّاعات فإهتدوا إليها و إجتبيناهم أي إخترناهم و إصطفيناهم، من النّاس، إذا تتلى عليهم آيات الرّحمن، أي أعلامه و أدلّته **خَرُّوا سُجَّدًا** أي سجدوا له تعالى و بكيّاً أي بكوا، و بكّي جمع باك و نصبها على الحال و تقديره، خرُّوا ساجدين باكين، و قيل بكيّاً، مصدر بمعنى البكاء، و قيل أنتصب، سجداً، على الحال المقدّرة لأنّه حال ضرورة لا يكون ساجداً، و المعنىٰ أنّهم إذا تليت عليهم آياته يخضعون لربّهم و يبكون يخضعون لعظمته و يبكون من خشيته و فيه إشارة إلى علّو مقامهم و مرتبتهم في التّوحيد.

إن قلت لم فرَّق في ذكر نسبهم و كلّهم من ذريّة آدم.

قلت لعَّلَ التَّفريق لتَّبيين مراتبهم في شرف النَّسب فكان لإدريس شرف القرب من آدم لأنّه جدّ نوح و كان إبراهيم من ذريّة من حمل مع نوح لأنّه من ولد سام بن نوح و كان إسماعيل و إسحاق و يعقوب من ذريّة إبراهيم فكان بهم شرف إبراهيم لتباعدهم من آدم و هكذا.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ ٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا

١- الحّج = ٧٥

الخَلَف بفتح اللاّم يستعمل للصّالحين و بتسكين اللاّم في الصّالح، قال الشّاعر:

ذهب الذّين يعاش في أكنافهم و بقيت في خلفٍ كجلد الأجراب

و لذلك أجمعوا على سكون اللاّم في الآية و قال الفرّاء يستعمل كلّ واحدٍ منهما في الأخر و على هذا فيجوز فتح اللاّم في الآية و فى الآية دلالة على أنّ المراد بالخلف من لم يكن صالحاً و هذا ممّا لا خلاف فيه، لأنّهم أضاعوا الصّلاة و إتّبعوا الشّهوات أمّا بتركها أو بتأخيرها عن مواقيتها فأنّ الإضاعة تطلق على التّرك و التّأخير.

و قد ورد في الحديث أنّ الصّلاة تقول ضيّعتني ضيّعك اللّه لمن أخرّها من غير عذرٍ و لا يبعد أن يكون المراد بالإضاعة التّأخير عن وقتها لا تركها لأنّ الاضاعة لا تطلق على المعدوم، و قيل الإضاعة الإخلال بشروط الصّلوة عدم إعتقاد وجوبها و قيل تعطيل المساجد و الإشتغال بالضّائع و الأسباب و هذه الأقوال لا بأس بها فأنّ الإضاعة تطلق على الجميع و أمّا الشّهوات فية عامّ في كلّ مشتهر يشغل عن الصّلاة و ذكر اللّه هكذا قيل و الحقّ أنّ المراد بها المحرّمات و أنّما خصّ الصّلاة بالذّكر من بين الواجبات لأنّها أفضل الواجبات و أهمّها في جميع الأديان إن قبلت قبل ما سواها و إن ردّت ردّ ما سواها و قوله: **فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** الغي بفتح الغين الشّر و الخيبة قال الشّاعر:

فمن يلق خيراً يحمد النّاس أمره و من يغو لا يعدم على الغيّ لائماً

و قال إبن مسعود الغّي وادٍ في جهنّم و قال إبن زيد أي ضلالاً و قيل معناه يلقون مجازاة غيّهم يوم القيامة.

إِلَّا مَنْ تَابَ وَ ءَامَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا

الظّاهر أنّ الإستثناء متّصل و قال الزّجاج منقطع، إستثنى منهم من تاب و رجع عمّا كان عليه من إضاعة الصّلاة و إتباع الشّهوات، و أمن و عمل صالحًا، قيل قوله: **أَمَنَ**، يدلّ على أنّ تلك الإضاعة إضاعة كفرٍ، و الحقّ أنّ الإضاعة أعمّ من إضاعة الكفر و غيرها و التّخصيص لا دليل عليه و في قوله: **عَمِلَ صٰالِحًا**، إشارة إلى أنّ الإيمان لا يتّحقق بدون العمل و قوله: **فَأُولٰئِكَ**، إشارة إلى التّائبين الذّين أمنوا و عملوا الصّالحات فأنّهم يدخلون الجنّة و لا يظلمون شيئاً، فأنّ ربّك ليس بظّلامٍ للعبيد لأنّ الظُّلم قبيح و هو تعالى منّزه عن القبائح ثبت ذلك بالأدلّة العقليّة و النَّقلية كما هو ظاهرٌ لا خفاء فيه.

جَنّٰاتِ عَدْنٍ اَلَّتِي وَعَدَ اَلرَّحْمٰنُ عِبٰادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كٰانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا

جنّات عدنٍ، جنّات في موضع نصب بدلاً من قوله: **الجَنّة** في قوله: **يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّةَ** كأنّه قيل و ما الجنّة التّي يدخلون فيها، قيل لهم جنّات عدنٍ و قيل في موضع رفع بتقدير هي جنّات و الجنّة البستان الّذي يجنّه الشّجر فإذا لم يكن فيه شجر و يكون من خضرة فهو روضة و لا يسمّى جنَّة هكذا قيل و أنّما قيل جنّات على لفظ الجمع لأنّ كلّ واحدٍ من المؤمنين له جنّة تجمعها الجنَّة العظمى و العدن بفتح العين و سكون الدّال و النُّون الإقامة يقال عدن بالمكان إذا أقام به و الوعد الإخبار بما يتَّضمن فعل الخير و نقيضه الوعيد و هو الإخبار عن فعل الشّر و معنى الآية أنّ من تاب و أمن و عمل صالحاً يدخلون الجنَّة الّتي هي جنّات عدنٍ و هو كناية عن الخلود فيها التّي وعد الرّحمن عباده بالغيب بمعنىٰ أنّها ليست حاضرة عندهم بل هي غائبة عن الحوّاس في الدُّنيا أنّه أي أنّ الرّحمن و قيل أنّ الهاء ضمير الشّأن و قوله كان وعده مأتيًّا، أي كان وعد الرّحمن مأتيّاً يأتيه أولياءه و قيل مأتيّاً أي مفعولاً و فيه إشارة إلى أنّ اللّه لا يخلف الميعاد و حاصل الكلام في الآية هو أنّ اللّه وعدهم الجنَّة و وعده حقٌّ لا خلف فيه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللّٰهِ قِيلًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَعْدَ ٱللّٰهِ لَا يُخْلِفُ ٱللّٰهُ وَعْدَهُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيَا**[٤] والأيات كثيرة.

و في هذا الكلام إشارة إلىٰ نقطةٍ أخرى و هى أنّ اللّه قادرٌ على كلّ شيْ‌ءٍ فلا يقدر أحدٌ على منعه عمّا أراد و شاء فلا محالة يكون وعده مأتيّاً ثمّ وصف اللّه الجنَّة.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا

أي لا يسمعون في جنّات عدن لغواً أي كلاماً لا معنى له و قد يكون اللّغو الهذر من الكلام، إلاّ سلامًا قيل هو إستثناء منقطع و هو قول الملائكة سلامٌ عليكم بما صبرتم، يسلم اللّه عليهم عند دخولها.

أقول لا يبعد أن يكون الإستثناء متصّلاً و كان السّلام منهم أي يسلم كلّ واحدٍ على الأخر، و قوله: **وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا** أي في الجنّة، بكرةً و عشيّاً، يعني يأتيهم طعامهم مرّتين في مقدار اليوم و الليلة من الزّمن.

و قال مجاهد لا بكرة فيها و لا عشّي و لكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيّا.

و قال صاحب الكشّاف، اللّغو فضول الكلام و ما لا طائل تحته و فيه تنبيةٌ ظاهر على وجوب تجنب اللّغو و إتّقاءه حيث نزّه اللّه عنه الدّار التّي لا تكليف

١- النّساء = ١٢٢
٢- الكهف = ٩٨
٣- الرّوم = ٦
٤- لقمان = ٣٣

فيها و ما أحسن قوله: **وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً** (١) **وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ** (٢) أي إن كان تسليم بعضهم على بعضٍ أو تسليم الملائكة عليهم لغواً فلا يسمعون لغواً إلاّ ذلك فهو من وادي قوله:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنَّ طولٌ من قراع الكتائب

أو لا يسمعون فيها إلاّ قولاً يسلمون فيه من العيب و النَّقيصة على الإستثناء المنقطع و قال أيضاً و لا يكون هناك ليل و لا نهار و لكن على التّقدير و لأنّه المتَّنعم عند العرب من وجد غداءً و عشاءً، و قيل أراد دوام الرّزق كما تقول أنا عند فلان صباحاً و مساءً و بكرةً و عشيّاً و لا يقصد الوقتين المعطوفين إنتهى.

أقول ما ذكره لا بأس به و الأمر واضح.

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا

أي تلك الجنَّة التّي وصفناها نعطيها من كان تقيّاً في دار الدّنيا بترك المعاصي و فعل الطّاعات و أنّما قال نورث، تشبيهاً بالميراث:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ** (٣).

قال اللّه تعالىٰ: **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ** (٤).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ** (٥).

وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذٰلِكَ وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا

قيل أبطأ جبرئيل عن الرّسول مرّةً فلمّا جاء قال جبرئيل قد إشتقت إليك أفلا تزورنا أكثر ممّا تزورنا فنزلت الآية أخبر اللّه فيها بأنّا لا نتّنزل إلاّ بأمر اللّه،

١- الفرقان = ٧٢
٢- القصص = ٥٥
٣- النّحل = ٣٠
٤- محمّد = ١٥
٥- الفُرقان = ١٥

له، أي للّه تعالى ما بين أيدينا و هو الدُّنيا و ما خلفنا و هو الأخرة، و ما بين ذلك، هو ما بين النَّفختين، **وما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** أي ليس اللّه مِمَّن ينسى و يخرج عن كونه عالماً لأنّه عالمٌ لنفسه و تقدير الكلام و ما نسيك ربّك و إن أخرَّ الوحي عنك و قيل أنّ الآية متصلة بما قبلها و ذلك لأنّ جبرئيل إحتبس عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم حين سأله قومه عن قصّة أصحاب الكهف و ذي القرنين و الرُّوح فلم يجبهم و رجا أن يأتيه جبرئيل بجواب ما سألوا عنه فأبطأ عليه أربعين يوماً و قيل أثنتي عشرة ليلة و قيل خمسة عشر يوماًثلاثة عشر و قيل ثلاثة أيّام فقال النّبي أبطأت علّي حتّى ساء ظنّي و إشتقت إليك فقال جبرئيل إنّي كنت أشوق و لكنّي عبدٌ مأمور إذا بثت نزلت و إذا حبست إحتبست فنزلت الآية و قال بعض المفسّرين هو إخبار عن أهل الجنَّة أنّهم يقولون عند دخولها و ما نتَّنزل هذه الجنان إلاّ بأمر ربّك ثمّ أنّ قوله: **وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ** يحتمل وجهين:

أحدهما: إنّا إذا أمرنا فأنزلنا عليك.

والثّاني: إذا أمر ربّك نزلنا عليك فيكون الأمر على الوجه الأوّل متوّجهاً إلى النّزول و على الثّاني متوّجهاً إلى التّنزيل.

و أمّا قوله: **وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** حيث نفي النّسيان عنه تعالى فالوجه فيه هو أنّ النّسيان ترك الإنسان ضبط ما إستودع إمّا لضعف قلبه و إمّا غفلةٍ وإمّا عن قصدٍ حتّى ينحذف عن القلب ذكره وكلّ ذلك محال في حقّه تعالى لكونه منزّهاً عن مشابهة الأجسام.

رَبُّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَ ٱصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا

إرتفع ربّ السّموات على أنّه خبر مبتدأ محذوف أي هو ربُّ السَّموات أو على البَّدل من الرَّب في قوله: **وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**، و المعنى أنّ اللّه تعالى

هو المالك المتّصرف في السّموات و الأرض و ما بينهما من المخلوق فليس لأحدٍ منعه منه و قوله: **فَاعْبُدْهُ** أي إذا كان اللّه ربّهما فأعبده وحده لا شريك له، **وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ** أي أصبر على تحّمل مشّقة عبادته **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** أي مثلاً و شبهاً على قول إبن عبّاس و مجاهد و قيل معناه أنّه لا يستّحق أحد أن يسمّى إلهٍ إلاّ هو.

و قال بعضهم السّمي من توافق في الإسم تقول هذا سمّيك أي إسمه مثل إسمك فالمعنى أنّه لم يسّم بإسم اللّه أي بلفظه شئ قطّ و كان المشركون يسمّون أصناهم ألهة و العزّى إله، و أمّا لفظ اللّه فلم يطلقوه على شئ من أصنامهم، و يحتمل أن يعود الضّمير على قوله: **رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما**، أي هل تعلم من يسمّى أو يوصف بهذا الوصف غير اللّه تعالى هذا ما ذكروه في تفسير الكلام.

أقول الأقوى عندي أنّ قوله: **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** كلامٌ مستّقل و ذلك أنّ اللّه تعالى لمّا وصف نفسه بما وصف من عدم النّسيان و أنّه ربّ السّموات و الأرض و ما بينهما، قال: **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**، أي هل تعلم له من كان لائقاً بهذه الأوصاف أي بعدم النّسيان و خلق السّموات و الأرض و ما بينهما فالإستفهام للإنكار أي لا تعلم له سمّياً، أي مثلاً و شبيهاً فأنّ ما سواه كائناً ما كان مخلوق له و كلّ مخلوقٍ فهو مربوبٌ فلا ربّ في الحقيقة إلاّ هو كما قال تعالى: **الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ** و مُحصّل الكلام أنّ الرّب بمعناه الحقيقي منحصرٌ به تعالى قوله: **فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ** حيث أتى الكلام بالفاء التّي تفيد التّفريع إشارة إلى أنّ الرّب الموصوف بما ذكرناه هو المستّحق للعبادة لا غيره و من المعلوم أنّ العبادة تلازم المشقة فالعابد لا محيص له من الصّبر عليها بل نقول لا صبر أشدّ من الصّبر على العبادة.

وَ يَقُولُ ٱلْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا
﴿٦٦﴾ أَوَ لا يَذْكُرُ ٱلْإِنْسانُ أَنّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ
يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ ٱلشَّياطِينَ
ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ
مِنْ كُلِّ شيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾
ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذينَ هُمْ أَوْلٰى بِها صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَ
إِنْ مِنْكُمْ إِلّا وارِدُها كانَ عَلٰى رَبِّكَ حَتْمًا
مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذينَ ٱتَّقَوْا وَ نَذَرُ ٱلظّالِمينَ
فيها جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَ إِذا تُتْلٰى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ
قالَ ٱلَّذينَ كَفَرُوا لِلَّذينَ آمَنُوا أَيُّ ٱلْفَريقَيْنِ خَيْرٌ
مَقامًا وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ
قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثًا وَ رِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كانَ
فِي ٱلضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ مَدًّا حَتّٰى إِذا
رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذابَ وَ إِمَّا ٱلسّاعَةَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكانًا وَ أَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾
وَ يَزيدُ ٱللّٰهُ ٱلَّذينَ ٱهْتَدَوْا هُدًى وَ ٱلْباقِياتُ
ٱلصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوابًا وَ خَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾
أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذي كَفَرَ بِآياتِنا وَ قالَ لَأُوتَيَنَّ مالًا وَ
وَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْدًا
﴿٧٨﴾ كَلّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذابِ
مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ وَ يَأْتينا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَ
ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا
﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّياطِينَ عَلَى ٱلْكافِرِينَ
تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ
عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمٰنِ وَفْدًا
﴿٨٥﴾ وَ نَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلٰى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾
لا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمٰنِ
عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَ قالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ
جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكادُ ٱلسَّمٰواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ
وَ تَنْشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَ تَخِرُّ ٱلْجِبالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ
دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَما يَنْبَغي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ
يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي ٱلسَّمٰواتِ وَ
ٱلْأَرْضِ إِلَّآ اٰتِي ٱلرَّحْمٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ
أَحْصٰيهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَ كُلُّهُمْ اٰتِيهِ يَوْمَ
ٱلْقِيٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا
ٱلصّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّما
يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ
قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ
تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

◄ اللّغة

جِثِيًّا: جمع جاثي و هو الّذي برك على ركبتيه.

لَنَنْزِعَنَّ: أي لنستخرجنّ.

عِتِيًّا: أي تمّرداً قيل هو جمع عاتٍ.

صِلِيًّا: جمع صال و الصَّلاء يقال للوقود و للشّواء.

نَدِيًّا: أي مجلساً يقال ندوت الصّوم أندوهم ندواً إذا جمعتهم في مجلسٍ.

أَثَاثًا: الأثاث المتاع.

وَرِءْيًا: الرِّءي المنظر.

تَؤُزُّهُمْ: أي تزعجهم إزعاجاً، و الإز، الإزعاج إلى الأمر.

وَفْدًا: أي ركباناً في قدومهم.

وِرْدًا: أي عطاشاً.

إِدًّا: بكسر الألف أي منكراً عظيماً.

يَتَفَطَّرْنَ: أي يتّشققن الإنفطار الإنشقاق.

هَدًّا: الهدّ، تهّدمٌ بشدّة صوت.

وُدًّا: الودّ بضّم الواو الحبّ.

لُدًّا: اللّد بضّم اللاّم مأخوذ من اللّد و هو شدّة الخصومة.

رِكْزًا: الرِّكز بكسر الرّاء الصَّوت و قيل الحسّ.

◀ الإعراب

أَءِذَا العامل فيها فعل دلَّ عليه الكلام أي أبعث إذا، و لا يجوز أن يعمل فيها أُخْرَجُ لأنّ ما بعد اللاّم و سوف، لا يعمل فيما قبلها يَذْكُرُ بالتّشديد أي يتّذكر جِثِيًّا حال أَيُّهُمْ موضعها نصب بننزع هذا إذا قلنا أنّ الضّمة فيها ضمّة بناء و أمّا إذا قلنا أنّها ضمّة الإعراب ففيه أقوال:

أحدها: أنّها مبتدأ و أشدّ خبره و هو على الحكاية و هذا هو الحقّ وَ إِنْ مِنْكُمْ أي و ما أحدٌ منكم فحذف الموصوف مَقَامًا بالفتح موضع الإقامة أو هو مصدر كالإقامة و بالضّم فيه الوجهان أيضاً نَدِيًّا لام الّذي وأو يقال ندوتهم و مصدره النّدو وَ كَمْ أَهْلَكْنَا كم منصوب بأهلكنا و أَحْسَنُ أَثَاثًا صفة لكم و

رَئيًّا يقرأ بِهَمزة ساكنة بعد الرّاء و هو من الرُّؤية أي أحسن منظراً و يقرأ بتشديد الیّاء من غير هَمزة بناءً على قلب الهَمزَة یاء لسكونها و إنكسار ما قبلها ثمّ أدغم، و قيل هو من الرَّي ضد العطش لأنّه يوجب حسن البشرة و يقراه، رئيّاً، بِهَمزة بعد ياءٍ ساكنة و هو مقلوب قُلْ مَنْ كٰانَ هي شرطيّة و الأمر جوابها و الأمر هنا بمعنى الخبر إِمَّا ٱلْعَذٰابَ وَ إِمَّا ٱلسّٰاعَةَ كلاهما بدل ممّا يوعدون فَسَيَعْلَمُونَ جواب إذا وَ يَزِيدُ معطوف على معنى، فليمدد مَنْ هُوَ من بمعنى الّذي و هو شَّر صلتها، و قيل هي إستفهام أَطَّلَعَ الهَمزَة هَمزة الإستفهام لأنّها مقابلة الأم، و هَمزة الوصل محذوفة لقيام هَمزة الإستفهام مقامها و يقرأ بالكسر على أنّها هَمزة وصلٍ و حرف الإستفهام محذوف لدلالة، أم، عليه كَلّٰا بضّم الكاف و التّنوين حال بِعِبٰادَتِهِمْ المصدر مضاف الى الفاعل أي سيكفر المشركون بعبادتهم الأصنام و قيل هو مضاف الى المفعول أي سيكفر المشركون بعبادة الأصنام وضِدًّا واحد في معنى الجمع وَفْدًا جمع وافد مثل ركب جمع راكب لٰا يَمْلِكُونَ حال إِلّٰا مَنِ ٱتَّخَذَ في موضع نصب على الإستثناء و المنقطع أو هو في موضع رفع بدلاً من الضّمير في يملكون هَدًّا مصدر على المعنى و قيل هو حال أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ في موضع نصب على أنّه مفعول له و قيل في موضع جّرٍ على تقدير اللاّم، و في موضع، أي الموجب لذلك دعاؤهم مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ من نكرة موصوفة و فى السّموات صفتها إِلّآ آتِي خبر كلّ و وحّد حملاً على لفظ كلّ.

◀ التّفسير

وَ يَقُولُ ٱلْإِنْسٰانُ أَءِذٰا مٰا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا

قيل في سبب نزولها أنّ رجلاً من قريش قيل هو أبّي بن خلف جاء بعظم رفات فنفخ فيه و قال للرّسول أيبعث هذا و كذب و سخر و أسناد هذه المقالة لاجنس بما صدر من بضهم أو للجنس الكافر الّذي ينكر البعث و المعنىٰ يقول

الإنسان الكافر المنكر للبعث، أإذا ما مّت لسوف أخرج حيّاً **أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا**، و الهَمزَة للإستفهام الإنكاري أي لا أخرج حيّاً بعد الموت فهو إنكارٌ للبعث و الإنكار لا يفيد إذا لم يكن مقروناً بالدّليل فأنّ الأشياء على الإمكان ما لم يدلّ دليل على الإمتناع لقولهم أي الفلاسفة، كلّ ما قرع سمعك فذره في بقعة الإمكان ما لم تدرك عنه قائمة البرهان و منها البعث و هو الحياة بعد الموت فهو ممكنٌ في حدّ نفسه إذ لم يدلّ دليل على إمتناعه عقلاً وليس للمنكر دليلٌ إلاّ مجّرد الإستبعاد أجاب اللّه تعالى عنه بقوله:

أَوَ لَا يَذْكُرُ ٱلْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا

قرأ نافع و إبن عامر و عاصم، **أَوْ لَا يَذْكُرُ**، خفيفاً و قرأ الباقون بالتّشديد فمن شدَّد الدّال أراد أو لا يتّذكر، فأدغم التّاء في الدّال لقرب مخرجهما، خفَّف فلقوله: **فَمَنْ شَآءَ ذَكَرَهُ**(١) و بعبارةٍ أخرى من شدّة أخذه من التّذكر و من ضعف أخذه من الذّكر والمأل فيهما واحد.

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن جهل المنكرين و عدم تفكّرهم في البعث و لذلك أنكروه و ذلك لأنّ البعث ليس إلاّ الحياة بعد الموت فمن زعم أنّ الإنسان بموته يعدم بالكلّية يلزم منه الإحياء عن العدم و من ذهب إلى أنّ الإنسان لا يعدم بالموت بل المادّة الأصليّة باقية بعد تلاشي الأعضاء كما هو الحقّ يلزم من قوله أن لا يكون الإحياء عن العدم و على التّقديرين لا إشكال فيه و لا إمتناع و ذلك لأنّ الإحياء علىٰ الأوّل أعني به الإحياء عن العدم فهو ممكنٌ بل واقعٌ في حقّ المنكر أليس اللّه أوجده من العدم و قد ثبت أنّ حكم الأمثال واحد.

و أمّا على الثّاني فالأمر أسهل، فقوله تعالىٰ: **أَوْ لَا يَذْكُرُ ٱلْإِنْسَانُ**، الى

١- المُدّثر = ٥٥

قوله: **وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا** ردٌّ على المنكر وجوده فكأنّه قيل له لو إستحال الإحياء عن العدم فكيف صرت موجوداً بعد أن لم تكن شيئاً، و حيث أنّك لا تقدر على إنكار وجودك بعد أن لم تكن كذلك لا تقدر على إنكار الوجود بعد العدم مطلقاً و محصل الكلام هو أنّ إنكار البعث للمنكر يرجع إلى إنكار الوجود في حقّ نفسه و هو كما ترى و سيأتي البحث فيه في موضعه إنشاء اللّه.

إن قلت قال تعالىٰ **وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا** ولم يقل و كنت معدوماً، فلا يلزم أن يكون الإحياء من العدم كما هو المطلوب.

قلت الشّيء مساوقٌ للوجود فمعنى قوله: **وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا**، لم يك موجوداً، و ما لى بموجود يكون معدوماً لعدم الواسطة بين الوجود و العدم كما ثبت في محلّه فالمطلوب حاصلٌ.

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ ٱلشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا

الواو في قوله: **فَوَرَبِّك** للقسم، أي لنبعثنّهم من قبورهم مقرنين أوليائهم من الشّياطين والواو في **وَ ٱلشَّيَاطِينَ** للعطف أو بمعنى، مع، أي يحشرون مع قرنائهم من الشّياطين الّذين أغووهم يقرن كلّ كافرٍ مع شيطانٍ في سلسلةٍ هذا إذا كان الضّمير في، لنحشرنّهم، للكفرة، و أمّا إذا كان الضّمير عائداً على الجميع مؤمناً كان أو كافراً كما هو الحقّ فالمعنى لنحشرنّ جميع النّاس مع شياطينهم و أنّما قلنا هو الحقّ لأنّ الشّياطين لجميع النّاس من ولد آدم:

قال اللّه تعالىٰ: **يَا بَنِيَ آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**[٢].

فعلى هذا لكلّ إنسانٍ شيطان يفتنه فقوله **لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ ٱلشَّيَاطِينَ** معناه

١- الأعراف = ٢٧ ٢- يوسف = ٥

نحشرهم جميعاً ثمّ لنحضرنّهم حول جهنّم جثيّاً، إذا كان الضّمير عامّاً كما هو المختار فالمعنى أنّهم يتّجاثون عند موافاة شاطئ جهنّم كما كانوا في الموقف متّجاثين لأنّه من توابع التّوافق للحساب قبل الوصول إلى الثّواب و العقاب و قال تعالى في حالة الموقف: **وَ تَرٰى كُلَّ أُمَّةٍ جٰاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعٰىٰ إِلٰى كِتٰابِهَا اَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[1] و جثيّاً حال مقدّرة و عن إبن عبّاس، جثيّاً، أي قعوداً و قيل جماعات جمع جثوة و هو المجموع من التّراب والحجارة.

و قال مجاهد و غيره على الرّكب، و قال السّدي قياماً على الرُّكب ليضيق المكان بهم و قرأ حمزة و الكسائي و حفص، جثيّاً و عتيّاً و صليّاً، بكسر الجيم و العين و الصّاد و الجمهور بضّمها.

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمٰنِ عِتِيًّا.

ثمّ للتّراخي أي بعد حشرهم و حضورهم حول جهنّم، لنزعنَّ أي لنخرجنَّ و قيل لنرمينَّ من نزع القوس و هو الرّمي بالسّهم و قوله من كلّ شيعةٍ، فالشيعة الجماعة المرتبطة بمذهب، يقال شائع فلاناً أي تابعه، و المعنى ثمّ لنخرجنَّ من كلّ جماعةٍ من أتباع الشّيطان أيّهم أي أيُّ فرقةٍ منهم أشدَّ على الرَّحمن عتيّاً، أي متّمرداً عاصياً، قال أبو الأعوص يبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً.

و قال الزّمخشري يمتاز من كلّ طائفة من طوائف الغّي و الفساد أعاصهم فأعصاهم و أعتاهم فأعتاهم فإذا إجتمعوا طرحناهم في النّار على التّرتيب فقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم و الضّمير في أيّهم عائد على المحشورين المحضرين.

قال إبن عبّاس عتيّاً، أي جرأةً، و قال مجاهد فجراً، و قيل إفتراءً بلغة تميم و قيل عتيّاً، جمع عاتٍ فإنتصابه على الحال.

١- الجاثيّة = ٢٨

ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا

لمّا قال في الآية السّابقة، **أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا**، و يمكن أن يتّوهم متّوهمٌ أنّ اللّه تعالي أنّما فعل ذلك ليعلم أيّهم أعتى و أعصى فدفع هذا التّوهم بقوله: **ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا** أي نحنُ أعلم مواضعهم لأنّا قد أحطنا علماً بكلّ واحدٍ فنعلم من هو أولى بالنّار ممّن ليس كذلك و بعبارةٍ أخرى نحن أعلم بأهل النّار من أهل الجنّة قبل إيجادهم في الدنّيا فضلاً من بعده و قوله: **صِلِيًّا**، قيل معناه نعلم أولى بالخلود.

و قال الكلبي صليّاً، أي دخولاً، و قيل لزوماً، و قيل جمع صال فإنتصب على الحال و، بها، متعلّق بأولى و هو الحقّ عندنا.

وَ إِنْ مِنكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا

الضّمير في واردها، عائد إلى جهنّم في قوله: **لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا** و كلمة (إن) نافية أي ليس منكم أحد **إِلَّا وارِدُها**، فأنّ الكناية في قوله إلاّ واردها، راجعة إلى جهنّم بلا خلاف إلاّ قول مجاهد، فأنّه قال هي كناية عن الحمّى و الأمراض قال بعض المفسّرين الخطاب للكفّار أي قل لهم يامحمّد، ليس منكم إلاّ واردها فيكون الورود في حقّهم الدُّخول، و أكثر المفسّرين على أنّ الخطاب عامّ يشمل الكلّ من المؤمن و الكافر قالوا ليس الورود الدّخول بل المراد جوارحهم على الصّراط الّذي ممدودٌ عليها.

قال إبن عبّاس، قد يرد الشّيْ ولم يدخله كقوله: **وَ لَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ**[١] و وردت القافلة البلد ولم تدخله و لكن قربت منه أو وصلت اليه قال الشّاعر:

فلّما وردن الماء رزقاً حمامةً ... وضعن عصّي الحاضر المُتَّخيم

و تقول العرب وردنا ماء بني تميم وبني كلب إذا حضروهم و دخلوا بلادهم و ليس يراد به الماء بعينه إنتهى.

١- القصص = ٢٣

و يمكن أن يستدّل على العموم بقوله تعالى:

ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَ نَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا

فأنّ هذه الآية صريحة في المدّعى و القرآن يفسّر بعضه بعضاً، قال قتادة و يابن مسعود، ورودهم اليها هو ممَّرهم عليها، هذا ما قالوه في المقام.

أقول أمّا الآية الأولى و هى قوله: **وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُهٰا**.

فالظّاهر أنّ الورود للكلّ بلا إستثناء و قوله: **كٰانَ عَلٰى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا** يدلّ على أنّ الورود حقّ سبق به القضاء أي أنّ اللّه تعالى قضى بذلك و لا مرَّد لقضاءه.

و أمّا الآية الثانيّة و هى قوله: **ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا** فتدلّ على أنّ المتّقين ينجيّهم اللّه من العذاب و النّجاة لا معنى لها إلاّ بعد الدُّخول فلو كان الورود بمعنىٰ المرور عليها كما ذهب اليه بعضهم أو أكثرهم فلا معنى لقوله: **ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا** فأنّ النّجاة بعد الوقوع في الهلكة لا قبله ظاهر و قوله: **وَ نَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** أي نبركهم فيها باركين على ركبهم، و هذا الكلام يؤيّد ما ذكرناه كما لا يخفى على المتأمّل و ممّا يدلّ على المختار ما رواه أبو صالح غالب بن سليمان عن كثير بن زياد عن أبي سميّة قال إختلفنا في الورود فقال قوم لا يدخلها مؤمن و قال آخرون يدخلونها جميعاً: **ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا** فلقيت جابر بن عبد اللّه الأنصاري فسألته فأومى بإصبعيه الى أذنيه و قال صمتا أن لم أكن سمعت رسول اللّه يقول الورود و الدخول لا يبقى برٌّ فاجر إلاّ يدخلها فيكون على المؤمنين برداً و سلاماً كما كانت على إبراهيم أنّ للنّار أو قال لجهنّم ضجيجاً من بردها ثمّ ينّجي اللّه الّذين إتّقوا و نذر الظّالمين فيها جثيّاً إنتهى.

و روي عن النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه سأل عن المعنى فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أنّ اللّه تبارك و تعالى يجعل النّار كالسّمن الجامد و يجمع عليها الخلق ثمّ

ينادي المنادي أن خذي أصحابك فوالذّي نفسي بيده لهي أعرف بأصحابها من الوالدة بولدها إنتهى.

و قال الصّدوق قدس سره في الإعتقادات أنّه لا يصيب أحداً من أهل التّوحيد ألم النّار إذا دخلوها و أنّما يصيبهم الألم عند الخروج منها فتكون الألام جزاءً بما كسبت أيديهم و ما اللّه بظلّامٍ للعبيد إنتهى.

أقول و فى بعض الأخبار أنّ اللّه تعالى لا يدخل أحداً الجنّة حتّى يطلعه على النّار و ما فيها من العذاب ليعلم تمام فضل اللّه عليه و كمال لطفه و إحسانه إليه فيزداد لذلك فرحاً و سروراً بالجنّة و نعيمها و لا يدخل أحداً النّار حتّى يطلعه على الجنّة و ما فيها من أنواع النّعيم و الثّواب ليكون ذلك زيادة عقوبةٍ له و حسرة على ما فاته من الجنَّة و نعيمها و قد ورد في الخبر أنّ الحمى من قيح جهنّم.

و روي أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عاد مريضاً فقال: أبشر أنّ اللّه عزّ وجلّ يقول الحمى هي نارٌ أسلّطها على عبده المؤمن في الدّنيا لتكون حظّه من النّار.

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: الحمى رائد الموت و هى سجن المؤمن في الأرض و هى حظّ المؤمن من النّار.

و في حديث أخر عنه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم الحمى رائد الموت و سجن اللّه في أرضه وفورها من جهنّم و هى حظّ كلّ مؤمنٍ من النّار إنتهى.

و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة و يستفاد من مجموعها أنّ لكلّ إنسانٍ حظٌّ من النّار و لعلَّ السِّر في ذلك أنّ الوصول إلى اللّذة و النّعمة بعد النّقمة و رؤية العذاب ولو في حقّ الكافر و الفاسق أحلى و ألَّذ و هذا معنى قولهم تعرف الأشياء بأضدادها، فلا يعرف الغنى إلاّ بعد الفقر و لا الصّحة إلاّ بعد

المرض ألا ترى أنّ الغنّي إذا لم يكن غناه مسبوقاً بالفقر لا يعرف قدره الصَّحيح قدر الصّحة و بالعكس و هذا هو السِّر في قوله و أن منكم إلاّ واردها الخ.

وإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ ءايٰتُنا بَيِّنٰتٍ قالَ ٱلَّذينَ كَفَرُوا لِلَّذينَ ءامَنُوٓا أَيُّ ٱلْفَريقَيْنِ خَيْرٌ مَقامًا وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا

قيل نزلت في النّضر بن الحارث و أصحابه، كان فقراء الصحابة في خشونة عيشٍ و المشركون يدهنون رؤوسهم و يرجلون شعورهم و يلبسون الحرير و فاخر الملابس فقالوا للمؤمنين أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً أي منزلاً و سكناً و أحسن ندياً أي مجلساً و لمّا قام الحجّة على منكري البعث و أتبعه بما يكون يوم القيامة أخبر عنهم أنّهم عارضوا تلك الحجّة الدّامغة بأموالهم و رفاههم في الدنيّا و ذلك عندهم يدلّ على كرامتهم على اللّه و ذلك لأنّ الكافر يزعم أنّ اللّه تعالى ينعم في الدنيّا على أهل الحقّ و أنّ أحبَّ الخلق إليه تعالى المتّنعمون الغائصون في اللّذات و الشّهوات ولم يعلموا أنّ اللّه يقول أنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً فيقولون للفقراء نحن قد أنعم اللّه علينا دونكم فنحن أغنياء و أنتم فقراء و نحن أحسن مجلساً و أجمل شارةً و المراد بالبيّنات المعجزات و البراهين و الحجج تكويناً و تشريعاً قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ**(١) و على هذا يصير معنى الآية إذا قرأت على المشركين أدّلة اللّه الظّاهرة و حججه الواضحة يقولون للّذين صدّقوا بذلك مستفهمين لهم و غرضهم الإنكار عليهم أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً، أي منزل إقامة في الجنّة أو في النّار و أحسن ندياً أي مجلساً، فالنّدي المجلس الّذي قد إجتمع فيه أهله فهم يفتخرون على المؤمنين بكثرة نعمهم و حسن أحوالهم و حال مجلسهم فقال اللّه تعالى في جوابهم.

١- المائدة = ٣٢

وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثًا وَ رِءْيًا

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية كثرة ما أهلك من القرون ممّن كان أحسن حالاً منهم في الدنيّا تنبيهاً على أنّه تعالى يهلكهم و يستأصل شأفتهم كما فعل ذلك بغيرهم من المترفين الّذين كانوا قبلهم، و إتّعاظاً لهم إن كانوا ممن يتَّعظ أنّه لم يغن عنهم ما كانوا فيه من حسن الأثاث و الرَّءي و قوله: **مِنْ قَرْنٍ** تبيين لقوله: **وَكَمْ** و هى أي، كم، مفعول لقوله: **أَهْلَكْنا**.

قال صاحب الكشّاف و تبعه أبو البقاء **وَهُمْ أَحْسَنُ** في محلّ النّصب صفة، لكم، و هذا الكلام مخالف لقول الجمهور و ذلك لأنّ النّحويين إتّفقوا على أنّ كم الإستفهاميّة و الخبريّة لا توصف و لا يوصف بها و على هذا يكون، هم، أحسن أثاثاً ورئياً، في موضع الصّفة لقرنٍ و جمع لأنّ القرن مشتمل على أفراد كثيرة فروعي معناه ولو أفرد الضّمير على اللّفظ لكان عربيّاً فصار كلفظ جميع قال لمّا جميعٌ لدينا محضرون و قال نحن جميعٌ منتصر، فوصفه بالجمع و بالمفرد ثمّ أنّ الجمهور قرأه ورئياً بتقديم الهمزة على الياء من رؤية العين

و قال إبن عبّاس الرَّئي المنظر و قال إبن الأحمر واحد الأثاث أثاثة كحمام و حمامة و قال افَّراء لا واحد له وتجمع على أثة و أثث و يجوز في، رئيا، ثلاثة أوجه في العربيّة، رِءْيًا، بالهَمز قبل الياء، وَرِءْيًا، بياء قبل **الهَمْزَةِ**، ورَيًّا، بترك **الهَمْزَةِ** في قول الزّجاج قيل و يجوز أن يكون من الزّاي، كقوله:

أهاجتك الضّغائن يوم بانوا ... بذي الزّي الجميل من الأثاث

أقول في هذه الآية إشارة إلى أنّ الدنيّا و ما فيها من النِّعم في معرض الفناء و ما كان كذلك لا يعتمد عليه فلا ينبغي للعاقل أن يفتخر بها على غيره شبَّهها بعضهم بخيال الظِّل فقال:

رأيت خيال الظِّل أعظم عبرةً ... لمن كان في علم الحقائق راقي
شخوصاً و أصواتاً يخالف بعضها ... لبعضٍ و أشكالاً بغير وفاقٍ
تجيُ و تمضي بابةً بعد بابةٍ ... و تفنى جميعاً و المحرّك باقي

و قال الأخر:

ما أنْعم على عبده بنعمةٍ أوفى من العافية
وكلّ من عوفي في جسمه فأنّه في عيشةٍ راضية
و المال حلوٌ حسنٌ جيّدُ على الفتى لكنّه عارية
ما أحسن الدنيّا و لكنّها مع حسنها غدّارة فانية
أين الأمم الماضية أين الملوك السّالفة
أين القرون الخالية
أين الّذين نصبت على مفارقهم التّيجان
أين الّذين قهروا الأبطال و الشّجعان
أين الّذين دانت لهم المشارق و المغارب
أين الّذين تمتّعوا باللّذات و المشارب
أين الّذين تاهوا على الخلائق كبراً و عتيّاً
أين الّذين راحوا في الحلل بكرةً وعشيّاً
مقيمٌ بالحجون رهين رمسٍ و أهلي راحلون بكلّ وادٍ
كأنّي لم أكن لهم حبيباً و لا كانوا الأحبّة في السّواد
فعوجوا بالسّلام فأن أبيتم فأمّوا بالسّلام على البعاد

قال بعض العرفاء لا فخر فيما يزول و لا غنى فيما لا يبقى و هل الدنيّا إلاّ كما قال بعض الحكماء المتّقدمين، قدرٌ يغلي، و كيف يملي، قال الشّاعر:

ولقد سألت الدّار عن أخبارهم فتبسمت عجباً ولم تبدي
حتّى مهرت على الكنيف فقال لي أموالهم و نوالهم عندي

قُلْ مَنْ كَانَ فِى الضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا

أي قل يامحمّد لهؤلاء الكفّار من كان في الضّلالة عن الحقّ و إتّباعه، فليمدد له الرّحمن مدّاً، المدّ في الأصل الجرّ و منه المدّة للوقت الممتّد يقال

مددته في غيّه و أمددت الجيش بمدد و الإنسان بطعامٍ و أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب و المدّ في المكروه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَ بَنِينَ وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَ بَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**(٦).

قيل و أنّما ذكر بلفظ الأمور ليكون أكد كأنّه ألزم نفسه إلزاماً كما يقول القائل، أمر نفسي، و يمكن أن يكون أراد **فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا** في عذابهم في النّار كما قال: **وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**(٧).

و الحاصل أنّ المدّ إمّا في الدنيا و إمّا في الأخرة من حيث العذاب وكيف كان فهو من ثمرات الضّلالة أعاذنا اللّه منها.

حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أَضْعَفُ جُنْدًا أي لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون لا يتّكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عينٍ إمّا العذاب في الدّنيا و هو غلبة المسلمين عليهم و تعذيبهم إيّاهم قتلاً و أسراً و إظهار اللّه دينه علىٰ أيديهم، و إمّا يوم القيامة و ما ينالهم من الخزي و النّكال فحينئذٍ يعلمون عند

١- الطُور = ٢٢
٢- الشّعراء = ١٣٣
٣- آل عمران = ١٢٥
٤- مَريم = ٧٩
٥- المؤمنون = ٥٥
٦- البقرة = ١٥
٧- مَريم = ٨٠

المعاينة أنّ الأمر على عكس ما قدّروه و أنّهم شرّ مكاناً و أضعف جنداً لا خيرٌ مقاماً و أحسن نديّاً و أنّ المؤمنين على خلاف صفتهم هكذا فسّره بعض المفسّرين.

و قال في التّبيان ما هذا لفظه و قوله: **حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ** أي شاهدوا ما وعدهم اللّه به **إِمَّا ٱلْعَذَابَ** و العقوبة على المعاصي و **إِمَّا** القيامة و المجازاة لكلّ أحدٍ على ما يستحقه، فسيعلمون حينئذٍ و يتّحققون من هو شرّ مكاناً و أضعف جنداً، الكفّار أم المؤمنين و فى ذلك غاية التّهديد في كونهم على ما هم عليه إنتهى كلامه.

أقول و الّذي نفهم من الأيتين هو أنّ اللّه تعالى يدعهم في طغيان جهلهم و كفرهم فقوله: **فَلْيَمْدُدْ** لفظه لفظ الأمر و معناه الخبر أي من كان في الضّلالة مدّه الرّحمن مدّاً حتّى يطول إغتراره فيكون ذلك أشدّ لعقابه فهو نظير قوله: **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا**(١) أي فليعش ما شاء و ليوسع لنفسه في العمر فمصيره إلى الموت و العقاب، حتّى إذا رأوا ما يوعدون إمّا العذاب في الدنيّا و إمّا السّاعة فيصيرون إلى النّار فسيعلمون هناك من هو شرٌّ مكاناً و أضعف جنداً، أي تنكشف حينئذٍ الحقائق و هذا في الحقيقة ردٌّ على قولهم، أيٌّ الفريقين خيرٌ مقاماً و أحسن نديّاً.

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا

لمّا أخبر اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّ من كان في الضّلالة يمدّه في طغيانه و كفره وجهله أخبر في هذه الآية عن المؤمنين الّذي إهتدوا بأنّه يزيد في إيمانهم و أنّ ما يبقى منهم من الأعمال الصّالحة خيرٌ عند ربّك ثواباً وخيرٌ

١- آل عمران = ١٧٨

مرداً، و المراد بالزيادة لهم فيه أن يفعل بهم الألطاف التّي يستكثرون عندها الطاعات بما يبيّنه لهم من الأمور التّي تدعوهم إلى أفعال الخيرات و أن شئت قلت يزيد في توفيقهم و حثّهم على الخيرات و ذلك لأنّهم أمنوا باللّه و رسوله و عملوا الصّالحات و تركوا المعاصي قال اللّه تعالى في قصّة أصحاب الكهف:

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى(١).

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**(٤) والأيات كثيرة.

و قوله: **خَيْرٌ مَرَدًّا**، أي خيرٌ نعيماً تردّه الباقيات الصالحات على صاحبه أي يرجع خيرها إليه وإختلفوا في معنى المراد بقوله و الباقيات الصّالحات فقال قوم هي فعل جميع الطّاعات و إجتناب المعاصي و قيل هي قوله سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلاّ اللّه و اللّه أكبر و للّه الحمد.

و روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام الباقيات الصّالحات القيام أخر اللّيل لصلاة اللّيل و الدّعاء في الأسحار و قيل غير ذلك من الإذكار و الأفعال و الحقّ أنّ المراد بها جميع الأفعال و الأقوال الحسنة التّي تبقى أثارها في الدّنيا و يتّرتب عليه الثّواب في الأخرة و سمّيت بها لأنّ منافعها تبقى في الدّنيا و تنفع كالولد الصّالح و السّنة الحسنة و الأبنية التّي ينتفع بها بعد موته كالمدارس و الحمّامات و دار الأيتام و الموقوفات و غير ذلك و بالجملة كلّ الخيرات و المبرّات، خيرٌ ثواباً، في الأخرة و خيرٌ مردّه الباقيات الصالحات على صاحبه و بعبارةٍ أخرى خيرٌ من حيث العاقبة.

١- الكهف = ١٣
٢- الشّورىٰ = ٢٠
٣- الشّورىٰ = ٢٣
٤- النّساء = ١٧٣

أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ قَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَ وَلَدًا

قيل نزلت في العاص بن وائل عمل له خباب بن الأرث عملاً و كان متيناً فإجتمع له عنده دينٌ فتقاضاه فقال لا أنصفك حتّى تكفر بمحمّدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال خباب لا أكفر بمحمّدٍ حتّى يميتك اللّه و يبعثك فقال العاص أو مبعوث أنا بعد الموت فقال خباب نعم قال فأت إذا كان ذلك فسيكون لي مال و ولد و عند ذلك أقضيك دينك و قال الحسن نزلت في الوليد بن المغيرة و قد كانت للوليد أيضاً أقوال تشبه هذا الغرض و كيف كان ما نعرض عنه الإستهزاء بالدّين.

ورد في الحديث أنّه قال أو ألستم تزعمون أنّ في الجنّة الذّهب و الفضّة و الحرير قال خباب بلى قال فموعد بيني و بينك الجنّة فو اللّه لأوتيّن فيها خيراً ممّا أوتيت في الدُّنيا.

أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْدًا

الهَمْزَةِ في، أَطَّلَعَ، الإستفهام و لذلك عادلتها، أم، و قرئ بكسر الهَمْزَةِ في الإبتداء و حذفها في الوصل على تقدير حذف هَمْزَةِ الإستفهام لدلالة، أم، عليها كقول الشّاعر:

بسبعٍ رمين الجمر أم بثمانٍ

يريد، أبسبع، فعلى القراءة الأولى حذفت همزة الفعل و بقيت هَمزة الإستفهام و التّقدير، ءإطّلع الغيب، و على الثانيّة حذفت الإستفهام و بقيت هَمزة الفعل و أكثر المفسّرين إختاروا القراءة الأولى و عليها المصاحف.

و المعنى أنّ ما إدّعى أن يؤتاه و تألّى عليه لا يتّوصل إليه إلاّ بأحد الطريقين إمّا علم الغيب، و إمّا عهد من عالم الغيب فبأيّها توصل إلى ذلك، و العهد قيل هي كلمة الشّهادة و قيل المراد، هل عهد اللّه إليه أن يؤتيه ذلك و من المعلوم أنّ كلّ واحدٍ منهما منتفٍ في حقّ القائل و لذلك.

قال تعالىٰ: **كَلَّا سَنَكْتُبُ مٰا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذٰابِ مَدًّا**

كلاّ حرف ردع و فيه تنبيهٌ على الخطأ الّذي هو مخطئ فيما تصوّره لنفسه و يتّمناه فليرتّدع عنه و كنّي بالكتابة عمّا يترتّب عليها من الجزاء فلذلك دخله السّين للإستقبال أي سنجازيه على ما يقوله و المعنى ليس الأمر كما زعمه و تصّوره لنفسه سنكتب ما يقول في صحيفة عمله و نمدّ، أي نطول له من العذاب الّذي يعذّب به المستهزؤن أو نزيده من العذاب و نضاعف له المدد و الغرض إنّا نحرمه ما يتّمناه من الولد و المال و نجعله لغيره هكذا قيل و قال الكلبي نجعل ما يتّمنى من الجنّة لغيره.

وَ نَرِثُهُ مٰا يَقُولُ وَ يَأْتِينٰا فَرْدًا

اي نرثه نحن المال و الولد بعد إهلاكنا إيّاه و إبطالنا ما ملّكناه و يأتينا فرداً، أي يجيئنا فرداً يوم القيامة لا أحد معه.

و قال بعضهم، نرثه ما يقول، معناه نحفظه عليه و منه قوله العلماء ورثة الأنبياء أي حفظة ما قالوه و قوله فرْدًا، يدلّ على ذلّته و أنّه لا ناصر له و لا معين.

وَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ اٰلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا

و الضّمير في، و إتّخذوا عائد على الكّفار و عبدة الأصنام و هم الّذين إتّخذوا غير اللّه، آلهة ليكونوا أي الآلهة، لهم عزّاً، يتّعززون بها في النُّصرة و المنعصة و الإنقاذ من العذاب أما اللاّم في، **لِيَكُونُوا**، لام، كي و قد تسّمى بلام العاقبة و فى هذا الكلام تنبيهٌ على أنّ المعبود يكون عزّاً للعابد و هو كذلك قال أميرالمؤمنين عليه‌السلام: **كَفىٰ بي عِزّاً أن تَكُون لِي رَبّاً** فما لا يكون عزّاً للعابد لا ينبغي أن يعبد لأنّ العاقل لا يخضع و لا يعبد ما ليس كذلك و من المعلوم أنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له فالمعبود الّذي يكون عزّاً لغيره لابّد له من أن

يكون عزيزاً في نفسه و ما سوى اللّه كائناً ما كان لا عزّة له في نفسه فكيف يكون عزّاً لغيره و إنّما قلنا ذلك لأنّ العزّة ثابتة للّه تعالى فقط و أمّا غيره فهو عزيزٌ به تعالى و إذا كان كذلك فالإنسان الّذي هو أشرف المخلوقات كيف يعبد الجمادات و الأخشاب الّتي لا حياة لها فضلاً عن الأوصاف بل الحق الّذي لا مرئية فيه أنّه لا ينبغي إطلاق الإنسان على من كان كذلك حقيقة كما أشار اللّه تعالى بقوله:

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا

أي ليس الأمر كذلك سيكفرون هؤلاء الكُفّار، بعبادتهم، الآلهة يوم القيامة، إمّا بإنكارهم العبادة إيّاهم لمّا يرون من سوء عاقبتها فيقولون ما عبدناهم، و إمّا بتيسير عنهم كما قال اللّه تعالى حكاية عنهم، **تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ**[1] أي ما كانت عبادتهم لنا بأمرنا و إرادتنا و إنّما عبدونا من عند أنفسهم و قوله: **يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا** أي عوناً في خصومتهم و تكذيبهم.

و قال قتادة يكونون قرنائهم في النّار يلعنونهم و يتّبرؤن منهم فالضّمير في يَكُونُونَ يصحّ أن يعود الى العابدين و أن يعود الى المعبودين فعلى الأوّل يكون العابد ضدّ المعبود و على الثّاني بالعكس و المقصود كلّ واحدٍ من العابد و المعبود يتّبرأ من الأخر و يكون ضدّاً و مخالفاً له.

أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا

قال المفسّرون، أرسلنا، في الآية بمعنى، سلّطنا، أي ألم تر يا محمّد إنّا سلّطنا الشّياطين على الكافرين يؤزّهم أزّاً، أي تزعجهم إزعاجاً، و المراد بتسليطه الشّياطين على الكفّار هو أنّه تعالى خلّى بين الشّياطين و بين الكفّار حتّى أغووهم ولم تحل بينهم بالإلجاء و بالمنع و عبّر عن ذلك بالإرسال على

١- القَصَص = ۶۴

ضربٍ من المجاز و ذلك مثل قـوله: **فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى**(١).

فقول بعض المفسّرين معناه تـحرّكـهم إلى الكـفر لا مـعنى له أن أرادوا بـه الإلجاء و أن أرادوا به الوسوسة أي أنّ الشّيطان يوسوهم إلى الكفر فلا إشكـال فيه و ذلك لأنّ الشيطان لا يقدر على الإجبار و الإلجاء بمعنى سلب الإختيار عن العبد و إلى ذلك أشار من قال أنّ معنى الكـلام تـغريهم عـلى المـعاصي و تهَّيجهم لها بالوساوس و التّسويلات و على هذا فالمعنى خلّينا بـينهم و بـينهم ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم.

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا

الخطاب في قوله، فلا تعجل، لرسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أي لا تـعجل يـا مـحمّد بالعذاب و الهلاك إنّما نعدُّ لهم، أي لهؤلاء الكـفّار، عـدّاً، أي جـعلنا لهـلاكـهم موعداً معيّناً فليس بينك و بين ما تطلب من هلاكهم إلاّ أيّاماً محصورة و أنفاس معدودةٌ لأنّها في سرعة تقضيها السّاعة التّي تـعدّ فـيها لوجـدت، و قـيل نـعدّ أعمالهم لنجازيهم، و قيل آجالهم فإذا جاء أحللنا العقوبة بـهم، و قـيل أيّـامهم التّي سبق قضاؤنا أن نمهلهم إليها و المعاني متقاربة و أن كانت الألفاظ مختلفة و نشر إلى بعض ما ورد في تفسير هذه الأيات فنقول:

روي في تفسير القمي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله تعالىٰ: وَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ آلِهَةً أي يكونون هـؤلاء الّذين إتّخذوهم ألهة من دون اللّه عليهم ضدّاً في يوم القيامة و يتّبرأون منهم و من عبادتهم ثمّ قال عليه السلام ليست العبادة هي السّجودالرّكوع و أنّما هي طاعة الرّجال من أطاع مخلوقاً في معصية الخالق فـقد عبده و قوله: أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا

ضياء الفرقان في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

١- الزّمر = ٤٢

قال عليه السلام: لمّا طغوا فيها و فى فتنتهاطاعتهم مدَّ لهم في طغيانهم و ضلالهم أرسل إليهم شياطين الإنس و الجنّ تؤزّهم أزّاً، أي تنخسهم نخساً و تحضّهم على طاعتهم و عبادتهم فقال اللّه تعالى: فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا أي في طغيانهم وفتنتهم وكفرهم إنتهى.

و في الكافي بأسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام، قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام قول اللّه عزّ وجلّ إنّما نعدُّ لهم عدًّا، قال عليه السلام: ما هو عندك قلت عدد الأيّام قال عليه السلام أنّ الأباء و الأمّهات يحضون ذلك و لكنّه عدد الأنفاس إنتهى.

يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا

أي أذكر يامحمّد يوم نحشر المتّقين الّذين إتّقوا معاصي اللّه و فعلوا طاعاته إلى الرّحمن وفداً، أي ركباناً في قدومهم و وعدّ لأنّه مصدر وفد، و الوفد مشعرٌ بالإكرام والتَّبجيل ما يفد الوفود على الملوك منتظرين للكرامة عنده، و قيل على نوقٍ رحالهاذهب و على نجائب سرجها ياقوت و قيل أنّهم يؤتون بنوقٍ لم يرمثلها عليها رحال الذّهب و أزقتّها الزَّبرجد فيركبون عليها حتّى يصلوا الى أبواب الجنَّة، وقيل معناه، يحشرهم اللّه جماعة و أنّما قالوا ذلك لأنّ الوفد يطلق على الجماعة و روي أنّه يركب كلّ أحدٍ منهم ما أحَّب من إبلٍ أو خيلٍ، و شبَّهوا بالوفود لأنّهم سراة النّاس و أحسنهم شكلاً و ليست وفادة حقيقية لأنّها تتضّمن الأطراف من الموفود عليه و هولاء ليس لهم إنصراف بل مقيمون أبداً في ثواب ربّهم الجنّة.

في أصول الكافي بأسناده عن أبي الجارود قال: قال أبو جعفر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أنا أوّل وافدٍ على العزيز الجبّار يوم القيامة وكتابه و أهل بيتي ثمّ أمّتي ثمّ أسألهم ما فعلتم بكتاب اللّه و أهل بيتي إنتهى.

و في تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: سأل علّيٌ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن تفسير قوله عزّ وجلّ: يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا علّي الوفد لا يكون إلاّ ركباناً أولئك الرّجال إتّقوا اللّه عزّ وجلّ فأحبّهم و إختّصهم و رضى أعمالهم فسمّاهم اللّه متّقين ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم يا علّي أما و الّذي فلق الحبَّة و برئ النَّسمة أنّهم ليخرجون من قبورهم و بياض وجوهم كبياض الثَّلج عليهم ثياب بياضها كبياض اللَّبن عليهم نعال الذَّهب شراكها من لؤلؤ يتلألأ إنتهى.

و في حديث آخر أنّ الملائكة لتستقبلهم بنوقٍ من نوق الجنَّة عليها رحائل الذَّهب مكلَّلة بالدُّر و الياقوت و جلالها الإستبرق و السندُّس و خطامها جذل الأرجوان و أزقتهم من زبرجد فينظر بهم الى المحشر مع كلّ رجلٍ منهم ألف ملك من قدّامه و من يمينه ومن شماله يزّفونهم حتّى ينتهوا بهم الى باب الجنّة الأعظم و على باب الجنَّة شجرة الورقة منها يستّظل تحتها مأة ألف من النّاس و عن يمين الشّجرة عين مطهرة مكوكبة يسقون منها شربة فيطهر اللّه قلوبهم من الحسد و يسقط عن أبشارهم الشَّعر و ذلك قوله عزّ وجلّ: وَ سَقَيٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا[١] من تلك العين المطهرة ثمّ يرجعون الى عينٍ أخرى عن يسار الشَّجرة فيغتسلون منها و هى عين الحياة فلا يموتون أبداً، ثمّ قال عليه السلام يوقف بهم قدّام العرش و قد سلموا من الأفات و الأسقام و الحرّ و البرد فيقول الجبّار جلّ ذكره للملائكة الّذين معهم أحشروا أوليائي الى الجنّة و لا تقفوهم مع الخلائق قد سبق رضائي عنهم و وجبت لهم رحمتي فكيف أريد أن أوقفهم مع أصحاب الحسنات و السيّئات فيسوقهم الملائكة الى

١- الانسان = ٢١

الجنّة فإذا إنتهوا الى باب الجنّة الأعظم ضربوا الملائكة الحلقة ضربةً فتصير صريراً فيبلغ صوت صريرها كلّ حوراء خلقها اللّه عزّ وجلّ واعدّها لأولياءه فتباشروا إذ سمعوا صوت صرير الحلقة يقول بعضهم قد جاءنا ولياء اللّه فيفتح لهم الباب فيدخلون الجنّة و يشرف عليهم أزواجهم من الحور العين و الآدّميين فيقلن مرحباً بكم فما كان أشدّ شوقاً إليكم ويقول لهم أولياء اللّه مثل ذلك فقال عليّ عليه‌السلام من هؤلاء يا رسول اللّه فقال رسول اللّـه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يا علي هؤلاء شيعتك المخلصون في و لايتك و أنت إمامهم و هو قول اللّه عزّ وجلّ: يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمٰنِ وَفْدًا على الرّسائل إنتهى تفسير نور الثّقلين(١).

وَ نَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا

السَّوق بفتح السّين الحث على السَّير ساقه يسوقه سوقاً فهو سائق و منه السّاق لإستمرار السَّيربهاالسُّوق بضّم السّين لأنّه يساق به البيع و الشّراء شيئاً بعد شيء، قال الفّراء يسوقهم مشاة و قال الأخفش عطاشا، و قيل أفراداً و معنى ورداً، عطاشاً، لأنّ الوردالعطاش قاله إبن عبّاس و لمّا كان من يرد الماء لا يرده إلاّالعطش أطلق الورد على العطاش تسميةً للشيءبسببه و لمّا أشار اللّه تعالى بقوله يوم نحشر المتقّين، الآية أتبعها بذكرالمجرمين و قال نسوق المجرمين الأية، و قوله ورداً نصب على المصدر و التّقدير فيردون ورداً و نقل عن إبن عبّاس أنّه قال، الورد الإبل العطاش، و قيل، ورداًمنصوب على الحال أي حال كونهم مشاةً عطاشاً، و أنّما قال في المتقّين نحشر و في المجرمين نسوق لأنّ المجرم بمنزلة الحيوان و كلمة السَّوق كثيراً ما تقال في الحيوانات يقال ساق الإبل إلى كذا و منه السّائق فكأنّ المجرمين الّذين في رأسهم الكفّار جعلوا بمنزلة الحيوان والوجه فيه ظاهر.

١- ج ٣ ص ٣٥ و ٦٠

لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا

قيل المراد بالعهد العمل الصّالح و عليه فموضع، من، نصب على أنّه إستثناء منقطع لأنّ المؤمن ليس من المجرمين و قد قيل أنّه نصب على حذف اللاّم بمعنى لا يملكون المتّقون الشّفاعة إلاّ لمن إتّخذ عند الرّحمن عهداً، و العهد على هذا هو الإيمان و الإقرار بوّحدانيته و تصديق أنبياءه فأنّ الكفّار لا يشفع لهم و نقل عن الفرّاء أنّه قال من، في موضع رفع بدلاً من الواو و النّون في قوله: **لَا يَمْلِكُونَ**، و المعنى لا يملك الشّفاعة إلاّ من إتّخذ عهداً، و هو الإيمان.

و قال الزّمخشري، الواو في (**لَا يَمْلِكُونَ**) أن جعل ضميراً فهو للعباد و دلّ عليه ذكر المتّقين و المجرمين لأنّهم على هذه القسمة و يجوز أن تكون علامة للجمع كالتّي في قولهم، أكلوني البراغيث، و الفاعل من إتّخذ، لأنّه في معنى الجمع و محلّ، من، إتّخذ، رفع على البدل أو على الفاعليّة و يجوز أن ينصب على تقدير حذف المضاف أي إلاّ شفاعة من إتّخذ، و المراد لا يملكون أن يشفع لهم و إتّخاذ العهد الإستظهار بالإيمان و العمل وعن إبن مسعود أنّ النّبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم أن يتّخذ كلّ صباح و مساءٍ عند اللّه عهداً قالوا و كيف ذلك قال ﷺ يقول كلّ صباح و مساءٍ اللّهم فاطر السّموات و الأرض عالمُ الغيب و الشّهادة أنّي أعهد إليك بأنّي أشهد أن لا إلٰه إلاّ أنت وحدك لا شريك لك و أنّ محمّداً عبدك و رسولك و أنّك إن تكلني إلى نفسي تقربنى من البشر و تباعدني من الخير و أنّي لا أثق إلاّ برحمتك فإجعل لي عندك عهداً توّفينيه يوم القيامة أنّك لا تخلف الميعاد فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع و وضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أين الّذين لهم عند الرّحمن عهدٌ فيدخلون الجنّة و قيل كلمة الشّهادة من عهد الأمير إلىٰ فلان بكذا إذا أمره به أي لا يشفع إلاّ المأمور بالشّفاعة المأذون له فيها و تعضده مواضع في التّنزيل إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول ما ذكره الزّمخشري في المراد بالعهد لا يمكن المساعدة عليه على إطلاقه و ذلك لأنّ الحديث الذّي ذكره هو و غيره من المفسّرين يدلّ على أنّ من قال كلّ صباحٍ و مساءٍ اللّهم فاطر السّموات و الأرض إلى أخره هو في عهد اللّه فيدخل الجنَّةً و لو كان القائل به معاوية و يزيد و عبد الملك و أمثالهم من الظَّلمة و هذا ممّا لا يقبله العقل السليم هذا أوّلاً.

ثانياً: ليس البحث في دخول الجنَّة و عدمه و أنّما البحث في الشفاعة و أنّه من يملكها يوم القيامة و الحديث الذّي نقلوه عن إبن مسعود عن رسول اللّه على فرض صحّته لا يدلّ على أنّ صاحب العهد يملك الشّفاعة بل يدلّ على أنّه يدخل الجنَّة و لا كلام لنا فيه و بعبارةٍ أخرى دلَّت الآية على أنّ مالك الشّفاعة من إتَّخذ عند الرّحمن عهداً، و أين هذا ممّا يستفاد من الحديث و الّذي نفهم من الآية و نعوّل عليه بقرينة السّياق هو أنّ اللّه تعالى ذكر في هذه الأيات أنّ الكفّار قالوا كذا و كذا فمن قوله تعالىٰ: **أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا** الى قوله: **وَ نَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً**، في شأن الكفّار و المشركين إلاّ قوله يوم نحشر المتّقين إلى الرّحمن وفداً، و حيث أنّ الكفّار كانوا يزعمون أنّ هؤلاء الأصنام و الأوثان يشفعون لهم عند اللّه كما حكى اللّه تعالى عنهم بقوله: **وَ يَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ ٱللَّهِ**[1] فلذلك قال في المقام لا يملكون الشّفاعة إلاّ من إتّخذ عند الرّحمن عهداً، ردّاً عليهم و أنّ الشّفاعة تحتاج إلى عهدٍ من اللّه و على هذا فلا يبعد أن يكون المراد بالعهد الإذن من اللّه تعالى و يدلّ عليه قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا تَنْفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **لَا تَنْفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ**[4].

١- يونس = ١٨
٢- سَبأ = ٢٣
٣- طه = ١٠٩
٤- النّجم = ٢٦

و غيرها من الأيات الدالّة على أنّ الشّفاعة لا تكون إلاّ بأذنه تعالى هذا كلّه بالنسبة إلى الشّافعين ويستفاد من الأيات و الأخبار أنّ المشفوعين أيضاًكذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَشْفَعُونَ إِلّا لِمَنِ ارْتَضىٰ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلّا بِإِذْنِهِ**(٢).

والحاصل أنّ المستفاد من الأيات هو أنّ الشّافع والمشفوع تحت قدرة اللّه و إختياره و أنّهما لا يكونان إلاّ بإذنه و هذا هو العهد المذكور في الآية و اللّه أعلم.

وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكادُ السَّمٰواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا، وَ ما يَنْبَغي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا

قرأ الكسائي و نافع تَكادُ بالياء و الباقون بالتّاء و قرأ الكسائي و حفص يَتَفَطَّرْنَ بياء و تاء من تفَّطر و الباقون يتفطّرْن، من إنفطر.

أخبر اللّه تعالى في الآية بأنهم أي الكفّار قالوا إتَّخذ الرّحمن ولداً، كما قالت النّصارى أنّ المسيح إبن اللّه و قالت اليهود عزير إبن اللّه و قال بعض الكفّار أنّ الملائكة بنات اللّه فقال اللّه تعالى على وجه القسم، لقد جئتم شيئاً إدّاً، أي لقد جئتم بهذا القول منكراً عظيماً.

قال الرّاغب في المفردات إدًّا، أي أمراً منكراً يقع فيه جلبة من قولهم أدَّت النّاقة تئدُّ أي رجعت حنيتها ترجيعاً شديداً و الأديد الجلبة، تكاد السّموات يتّفطرن منه.

قال إبن عبّاس أي فزعت منه السّموات و الأرض والجبال و جميع الخلائق وكدن أن يزلن منه تعظيماً للّه تعالى، و قيل تكاد السّموات يتَّفطرن أي تسقط عليهم و تنّشق الأرض أي تخسف بهم و تخّر الجبال هدّاً أي تنطبق عليهم.

١- الأنبياء = ٢٨ ٢- البقرة = ٢٥٥

و قال أبو مسلم تكاد تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلط هذا القول و إنتصب هدّاً، على المصدر لأنّ معنى، تخّر منهنّ فقوله: **تَخِرُّ ٱلْجِبالُ هَدًّا** أي تنهد الجبال هدّاً.

و قال الزّمخشري فأن قلت ما معنى إنفطار السّموات و إنشقاق الأرض و خرور الجبال و من أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات.

قلت فيه وجهان:

أحدهما: أنّ اللّه يقول كدت أفعل هذا بالسّماوات و الأرض و الجبال عند وجود هذه الكلمات غضباً منّي على من تفّوه بها لولا علمي و وقاري و أنّي لا أعجل بالعقوبة كما قال أنّ اللّه: **يُمْسِكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ**.

الثّانى: أن يكون إستعظاماً للكلمة و تهويلاً من فظاعتها و تصويراً لأثرها في الدّين و هدمها لأركانه و قواعده و أنّ مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التّي هي قوام العالم ما تنفطر منه و تنّشق و تخّر إنتهى.

و قوله: **وَ مٰا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا**، فقد تكلّمنا فيه سابقاً و قلنا أنّ الولد من شئون الجسم و لوازمه و هو تعالى منّزهٌ عن هذه الأمور ما ثبت في محلّه.

أقول الحقّ أنّ الكلام في هذه الأيات خرج مخرج المثل و هذه طريقة للعرب مشهورة في المبالغة كما يقولون، هذا كلامٌ يفّلق الصَّخر و يهدّ الجبال و يصرع الطّير و يستنزل الوعول و ليس ذلك بكذبٍ منهم بل المعنىٰ أنّه لحسنه و بلاغته يفعل مثل هذه الأمور لو تأنّت:

قال اللّه تعالىٰ: **لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا ٱلْقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خٰاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ ٱللّٰهِ وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**[١].

١- الحشر = ٢١

و معنى الكلام إنّنا لو أنزلنا القرآن على جبلٍ و كان الجبل ممّا يتّصدع إشفاقاً من شيءٍ أوخشيةً لأمرٍ، لتّصدع مع صلابته و قوّته فكيف بكمم يا معاشر المكلّفين مع ضعفكم و قلّتكم و أنتم أولى بالخشية و الإشفاق، و هكذا ما نحن فيه فالمعنى لو كانت السّموات ممّا يتّفطرن و الأرض ممّا ينّشق و الجبال ممّا ينّهد، لكانت السّموات و الأرض و الجبال تتّصف بتلك الأوصاف من فظاعة هذا الكلام و ركاكته و أي كلام أفظع و أقبح من هذا القول الشّنيع قال الشّاعر:

أما و جلال اللّه لو تذكرينني كذكراك ما نهنهت للعين مدمعاً
فقالت بلى و اللّه ذكراً لموانّه تضّمنه صمّ الصّفا لّتصدعا

و قال الأخر:

وقفت على ربعٍ لميّتة ناقتي فما زلت أبكي عنده و أخاطبه
و أسقيه حتّى كاد ممّا أبثّه تكلّمني أحجاره و ملاعبه

و قال الأخر:

فلو أنّ مابي بالحصى فلق الحصى و بالرّيح لم يسمع لهنَّ هبوبُ

قال في التّبيان، قال قومٌ المعنى لو كان شيءٌ يتّفطر إستعظاماً لما يجري من الباطل لتّفطرت السّموات إستعظاماً لما يضيفونه إلى اللّه تعالى من إتّخاذ الولـد و تنّشق الأرض و تخّر الجبال هدّاً.

إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا

إن، نافية أي ليس كلّ موجودٍ في السّموات و الأرض إلاّ و هو عبدٌ للرّحمن و مخلوق له و قال بعض المفسّرين المراد العقلاء و قوله من، يدلّ عليه لأنّ كلمة من، لا تستعمل إلاّ في ذوي العقول كما أنّ ما، يشمل الجميع قال اللّه: **لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** فهو يشتمل الجميع.

ثانياً: أنّ العبد لا يطلق على غير ذوي العقول فيصير معنى الكلام أنّ جميع ذوي العقول عبيدٌ له و الوجه فيه ظاهر لأنّ اللّه تعالى خلقهم و أوجدهم من

العدم و المخلوق عبدٌ لخالقه قهراً و هذه الآية في الحقيقة ردٌّ على اليهود و النّصارى و غيرهم ممّن إتّخذوا المخلوق ألهة كقولهم في المسيح و عزير ولم يعلموا أنّ المسيح قد أقرَّ بعبوديّته له تعالى حيث قال: **إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا**(١) و محصّل الكلام أنّ ما سوى اللّه كائناً ما كان لا يستّحق أن يكون معبوداً و هو ظاهرٌ.

لَقَدْ أَحْصَيٰهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا

اي علم تفاصيلهم و أعدادهم فكأنّه عدَّهم لا يخفى عليه شئ من أحوالهم و الدّليل عليه أنّه تعالى خلقهم و أوجدهم و لا يعقل أن يكون الخالق جاهلاً بما خلقه مضافاً إلى أنّ العلم في الواجب عين ذاته علّة لإيجاد ما سواه فعلمه بذاته علّة لعلمه بمعلوله بل نقول علمه بذاته هو عين العلم بمعلوله قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**(٢).

ثالثاً: لو لم يكن عالماً لكان جاهلاً لعدم الواسطة بين العلم و الجهل و الجهل نقصٌ و النّقص من شئون الممكن و هو تعالى واجب الوجود فلو كان جاهلاً يلزم أن يكون ممكناً و قد ثبت أنّه واجب و هذا خلفٌ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ**(٥).

و الأيات الدالّة على عموم علمه كثيرة هذا كلّه مضافاً إلى أنّه يرزقهم و الرّازق كيف يكون جاهلاً بمرزوقه و الأمر أوضح من أن يخفى على أحدٍ.

١- مريم = ٣٠
٢- الطّلاق = ١٢
٣- آل عمران = ٢٩
٤- الأنعام = ٥٩
٥- لقمان = ٣٤

وَ كُلُّهُمْ اٰتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فَرْدًا

لا أحد معه و لا ناصر له و لا معين لأنّ كلّ أحدٍ مشغول بنفسه لا يهمّه همُّ غيره و قد ورد أنّ فاطمةعليهاالسلام قالت لأبيها يا أبت أخبرني كيف يكون النّاس يوم القيامة قالصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يافاطمة يشغلون فلا ينظر أحدٌ إلى أحد و لا والدٌ إلى الولد و لا ولد إلى أمّه الحديث.

و إلى هذا أشار اللّه تعالى بقوله: **يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صٰاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ**(١).

إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمٰنُ وُدًّا

لاشكّ أنّ السّين للإستقبال إلاّ انّ المفسّرين إختلفوا في أنّ هذا الجعل في الدّنيا أو في الأخرة فقال بعضهم إنّه في الدّنيا و ذلك لأنّ المؤمنين كانوا بمّكة حال نزول هذه السُّورة و كانوا ممقوتين من الكفرة فوعدهم اللّه بذلك إذا ظهر الإسلام و فشى و قال الأخرون أنّه في الأخرة و ذلك أنّ الآية متصلّة بما قبلها في المعنى أي أنّ اللّه لمّا أخبر عن إتيان كلّ من في السّموات و الأرض حال العبوديّة و الإنفراد أنس المؤمنين بأنّه سيجعل لهم في ذلك اليوم ودّاً و هو ما يظهر عليهم من كرامته لآن محبّة اللّه للعبد أنما هي ما يظهر عليه من نعمة و امارات غفرانه.

و قال الزّمخشري و إمّا أن يكون ذلك يوم القيامة يحبّهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم و ينشر من ديوان أعمالهم و قال أيضاً و المعنى سيحدث لهم في القلوب موَّدة و يزرعها فيها من غير توَّددٍ منهم و لا تعَرّضٍ للأسباب التّي يكتسب بها النّاس موّدات القلوب من قرابة أو صداقة أو إصطناع مبّرة و غير ذلك و أنّما هو إختراعٌ منه إبتداءً إختصاصاً منه لأولياءه بكرامةٍ خاصّة كما قذف في قلوب أعدائهم الرُّعب و الهيبة إعظاماً لهم و إجلالاً لمكانهم إنتهى.

١- عَبَس = ٣٤

و قيل في الكلام حذف و التّقدير سيدخلهم دار كرامته و يجعل لهم ودّاً بسبب نزع الغلّ من صدورهم بخلاف الكفّار فأنّهم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعضٍ و يلعن بعضهم بعضاً و فى النّار أيضاً يتّبرأ بعضهم من بعضٍ، ثمّ أنّ الجمهور علىٰ ضمّ الواو و قرأ أبو الحرث بفتحها و قرأ جناح بن حبيش **وُدًّا** بكسر الواو، و إختلفوا في نزولها فقيل نزلت في عبد الرّحمن بن عوف كان اليهود و النّصارى و المنافقون يحبّونه و كان لمّا هاجر من مكّة إستوحش بالمدينة فشكى ذلك إلى رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم فنزلت و قيل نزلت في المهاجرين إلى الحبشة مع جعفر بن أبي طالب ألقى اللّه لهم ودّاً في قلب النّجاشي و ذكر النّقاش أنّها نزلت في علّي بن أبي طالب.

و قد روي الزّمخشري عن رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال لعلّي عليه السّلام يا علّي: قل اللّهم إجعل لي عندك عهداً و إجعل لي في صدور المؤمنين ودّاً (مَوَّدة).

أقول هذا هو الحقّ في نزول الآية و به قال كثيرون من مفسّري العامّة قال في الدُّر المنثور عند تفسيره لهذه الآية و أخرج إبن مردويه و الدّيلمي عن البراء قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم لعلّي عليه السّلام قل اللّهم إجعل لي عندك عهداً و إجعل لي عندك ودّاً و إجعل لي في صدور المؤمنين موّدة فأنزل اللّه تعالى أنّ الّذين أمنوا و عملوا الصّالحات سيجعل لهم الرّحمٰن ودّاً، قال فنزلت في علّيٍ إنتهى.

و أخرج الطّبراني و إبن مردوية عن إبن عبّاس قال نزلت في علّي بن أبي طالب أنّ الّذين أمنوا و عملوا الصّالحات سيجعل لهم الرّحمٰن ودّاً، قال محبّة في قلوب المؤمنين و قال الألوسي في تفسير روح المعاني و أخرج إبن مردوية و الدّيلمي عن البراء قال: قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم لعلّي كرّم اللّه وجهه قل اللّهم إجعل لي عندك عهداً و إجعل لي في صدور المؤمنينٍ ودّاً، فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية و كان محمّد بن الحنفيّة يقول لا تجد مؤمناً إلاّ و هو يحبّ عليّاً كرّم اللّه وجهه و أهل بيته.

و روى الإمامية خبر نزولها في علّي عليه‌السلام عن إبن عبّاس و الباقر و أيّدوا ذلك بما صحّ عندهم أنّه كرَّم اللّه وجهه قال لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني ولو حببت الدُّنيا بجملتها على المنافق على أن يحبّني ما أحبَّني و ذلك أنّه قضى فإنقضى على لسان النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّه قال لا يبغضك مؤمن و لا يحبّك منافق، و المراد المحبّة الشرعيّة الّتي لا غلّو فيه و زعم بعض النّصارى حبّه كرَّم اللّه وجهه فقد أنشد الإمام اللّغوي رضي الدّين أبو عبد اللّه محمّد بن علّي يوسف الأنصاري الشّاطبي لإبن إسحاق النّصراني الرّسغني:

عدّيٌ وتيمٌ لا أحاول ذكرهم بسوءٍ و لكنّي محبّ لهاشم
وما تعتريني في علّيٍ و رهطه إذا ذكروا في اللّه لومة لائمٍ
يقولون مابال النّصارىٰ تحبّهم و أهل النّهر من أعربٍ و أعاجمٍ
فقلت لهم أنّي لأحسب حبّهم سرى في قلوب الخلق حتّى البهائمٍ

و أنت تعلم أنّه إذا صحّ الحديث ثبت كذبه و أظنّ أنّ نسبة هذه الأبيات للنّصراني لا أصل لها و هى من أبيات الشّيعة بيت الكذب و كم لهم مثل هذه المكائد كما بيّن في التّحفة الأثني عشريّة و الظّاهر أنّ الآية على هذا مدنيّة أيضاً ثمّ العبرة على سائر الرّوايات في سبب النّزول لعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب إنتهى ما ذكره في الباب بألفاظه و عباراته.

و أنا أقول أنظر إلى هذا المتَّعصب المعاند للحقّ كيف نسب الأبيات إلى الشّيعة و عبَّر عنهم ببيت الكذب و الكيد و هذه الأشعار رواها غير واحدٍ من مفّسريهم في تفاسيرهم وليس فيها في تفاسير الشّيعة عينٌ و لا أثر و الأخبار الواردة في فضائل أهل البيت و لا سيّما أميرالمؤمنين أكثر ممّا رآه الألوسي تحتاج الشّيعة في إثبات الفضيلة لعلّي عليه‌السلام إلى قول النّصراني ذنب الشّيعة لو كان النّصراني محبّاً لعلّي عليه‌السلام و نحن نشير إلىٰ بعض ما ورد في الباب من كتاب شواهد التّنزيل للحافظ الحسكاني رغماً لأنف الألوسي و امثاله من المعاندين و الحافظ الحسكاني من أعيان علماء العامّة.

ما رواه بأسناده عن علّي بن موسىٰ الرّضا عن أبائه عن جابر بن عبد اللّه قال رسول اللّه ﷺ لعلّي إبن أبي طالب يا علّى: قل ربّ أقذف لي المودّة في قلوب المؤمنين ربّ إجعل لي عندك عهداً ربّ إجعل لي عندك ودّاً، فأنـزل اللّـه: (إِنَّ ٱلَّـذِينَ ءَامَـنُوا وَ عَـمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا)، فلا تلقى مؤمناًمؤمنةً إلاّ و فى قلبه ودٌّ لأهل اليت إنتهى.

ما رواه بأسناده عن البراء بن عازب قال: قال رسول اللّه ﷺ يا علّي قل اللّهم إجعل عندك عهداً و أجعل لي في صدور المـؤمنين مودَّة فأنزل اللّه: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا قال نزلت في علّي إنتهىٰ.

ما رواه بأسناده عن أبي إسحاقٍ السَّبيعي عن البراء بن عازب قال: قال رسول اللّه ﷺ لعلّي بن أبي طالب يا علّي قل اللّهم إجعل لي عندك عهداً و أجعل لي في قلوب المؤمنين مودّة فأنزل اللّه تعالىٰ: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا قال أنزلت في علّي إبن أبي طالب إنتهىٰ.

ما رواه بأسناده عن عبيد اللّه بن أبي رافع عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول اللّه ﷺ يا علّي قل اللّهم ثبت لي الودّ في قلوب المؤمنين و أجعل لي عندك ودّاً و عهداً فقال علّيٌ ذلك فقال رسول اللّه ثبتت و ربّ الكعبة ثمّ نزلت: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ الىٰ قوله قوماً لدّاً، فقال رسول اللّه ﷺ قد نزلت هـذه الآيـة فـيمن كـان مخالفاً لرسول اللّه ﷺ لعلّي إنتهى.

و قد ذكر أحاديث كثيرة بهذا المضمون أن شئت الوقوف عليها فعليك بكتابه و العجب من الألوسي حيث تمسّك في إثبات مدّعاه بالتحّفة الأثني

عشرية الّتي لا يعرف أحدٌ من علماء الشّيعة، أين هي و من ألفّها و نسّبها اليهم و غفل أو أعرض عناداً عن الكتب المعتبرة عند الخاصّة و العّامة و للبحث فيه مقام أخر ولنعم ما قيل فيه عليه السلام:

لد أعطيت مالم يعط خلقاً هنيئاً يا أميرالمؤمنينا
إليك إشتاقت الأملاك حتّىٰ تحّنت من تشّوقها حنيناً
هنالك برا لها الرّحمٰن شخصاً كشبهك لا يغادره يقيناً

ولم يعلم الألوسي و امثاله أنّ حبّ اللّه و رسوله إيّاه أكثر من حبّ النّاس له لقوله صلى الله عليه وآله وسلم يحبّه اللّه و رسوله و قوله صلى الله عليه وآله وسلم: أنّ اللّه عزّ وجلّ يكثر من الثّناء على علّي بن أبي طالب فوق عرشه فإشتاق العرش إلى علّي بن أبي طالب فخلق اللّه هذا الملك على صورة علّي عليه السلام تحت عرشه ليسكن شوق العرش إليه الحديث[١].

و الأحاديث الواردة في فضائله و مناقبه و حبّ اللّه و رسوله و ملائكته إيّاه فوق جدّ الإحصاء.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا

و المعنى أنّما يسّرنا القرآن بلسانك و جعلناه عربيّاً لتبشّر به، أي بالقرآن، المتّقين، بالجنّة، و تنذر، أي تخّوف به أي بالقرآن قوماً لدّاً، أي مخاصمين ذوي جدلٍ و هو من اللّدد و هو شدّة الخصومة و منه قوله تعالىٰ: **وَ هُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ**[٢] فالمعنى و تنذر به أي بالقرآن قوماً لدّاً أي مخاصماً للحقّ منكراً إيّاه هذا ظاهر الآية و عليه جمهور المفسّرين ولم يزيدوا على ظاهر الآية شيئاً فكأنّهم قنعوا بتفسير ألفاظها من غير تدّبرٍ فيها.

فنقول قال الرّاغب في المفردات الألدّ الخصيم الشّديد التّأبي و جمعه،

١- المناقب لإبن شهر آشوب ج ٢ ص ٢٢٣ ٢- البقرة = ٢٠٤

لُدًّا، بضّم اللاّم و سكون الدّال المّشددة و أصل الألدّ الشّديد اللّدد أي صفحة العنق و ذلك إذا لم يمكن صرفه عمّا يريده و فلانٌ يتّلدد أي يتّلفت إنتهى.

ثمّ أنّي أظنّ أنّ الآية مرتبطةٌ بما قبلها بدليل الفاء الّتي تفيد التّفريع أي أنّ فرعٌ على الآية السّابقة عليها فإذا كان المراد بالآية السّابقة ما ذكرناه على أساس الأخبار الواردة فيها كما مرَّ من أنّ المراد بالودّ محبّة أميرالمؤمنين فالمراد باللُّد هو خصومته و إنكار ولايته فيصير معنى الآية أنّما يسَّرنا القرآن بلسانك لتبشّر به المتّقين و هم الّذين أمنوا و عملوا الصّالحات و تنذر به أي بالقرآن قوماً لدّاً أي قوماً شديد الخصومة لهؤلاء المتّقين الّذين جعل اللّه في قلوبهم حبّ علّي بن أبي طالب بحسب دعائه عليه السلام و هذا لا ينافي قول الجمهور بأنّ المراد باللُّد شديد الخصومة للحقّ و ذلك لأنّ الحقّ مع علّي و بالعكس. قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم علّيٌ مع الحقّ و الحقّ معه يدور معه حيثما دار فالمخاصم للحقّ مخاصمٌ له عليه السلام و مخاصمه مخاصم الحقّ و يدلّ على ما ذكرناه:

ما رواه العيّاشي في تفسيره لهذه الآية بأسناده عن عمار بن سويد قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول في هذه الأية: **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ**[1] و ذكر حديثاً طويلاً و فى أخره و دعا رسول اللّه لأميرالمؤمنين في أخر صلاته رافعاً بها صوته يسمع النّاس يقول: اللّهم هب لعلّي المودّة في صدور المؤمنين و الهيبة و العظمة في صدور المنافقين فأنزل اللّه:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا، فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا

بني أميّة فقال، ركع، و اللّه لصاع من تمرٍ في شنّ بالٍ أحبَّ إلّي ممّا سأل محمّد ربّه أفلا سأله ملكاً يعضده أو كنزاً يستظهر به على فاقته فأنزل إليه فيه عشر أيات من هود أوّلها **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ** إنتهىٰ.

١– هود = ١٢

و في تفسير علّي بن إبراهيم، وأمّا قوله: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ الأية، فأنّه قال الصّادق عليه السلام: كان سبب نزول هذه الآية أنّ أميرالمؤمنين كان جالساً بين يدي رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: له قل يا علّي اللّهم إجعل لي في قلوب المؤمنين ودّاً فأنـزل اللّـه، أنّ الّذين أمنوا و عملوا الصّالحات الأية، ثمّ خاطب اللّه نبيّه فقال فأنّما يسَّرناه بلسانك يعني القرآن لتبّشر به المتّقين الأية.

و في روضة الواعـظين للـمفيد رضي الله عنه قـال رسـول اللّـه صلى الله عليه وآله وسلم: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ هو علّيٌ، و أنّما يسّرناه بلسانك لتبّشر به المتّقين الأية، قال أنّما يسَّره اللّه على لسانه حين أقـام أميرالمؤمنين عليه السلام علماً فبَّشر به المؤمنين و أنذر به الكافرين و هم الّذين ذكرهم اللّه في كتابه، لدّاً، أي كفّاراً إنتهىٰ.

و في تفسير علّي بن إبراهيم مثله، و يظهر من هذه الأخبار أنّ المـراد بـاللدّ من خاتم الرّسول في نبوّته و أميرالمؤمنين في ولايته و محبّته و هو المطلوب و قد مرَّ حديث الحافظ الحسكاني في الباب حيث قال، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قد نزلت هذه الآية فيمن كان مخالفاً لرسول اللّه و لعلّيٍ.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا

أهلك اللّه تعالىٰ من الأمم ما لا تحصون فقال تعالى يا محمد هـل تـحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً أي ذكراً، و قـيل أي صـوتاً و المـعنى إنّـا قـد أهلكنا أمماً كثيرة أعظم منهم كثرةً و أكثر أموالاً و أشّد خصاماً فلم يغنهم ذلك لمّا أردنا إهلاكهم فقوله من أصل في موضع نصب أي هل ترى منهم أحـداً و تجد أو تسمع لهم ركزاً، أي صوتاً أو ذكراً و قيل الرِّكز ما لا يفهم من صوتٍ أو حركةٍ، قال الشّاعر:

وتوجَّست ركز الأنيس فراعها — عن ظهر غيبٍ و الأنيس سقامها

و قيل الصّوت الخَّفي و منه ركز الرُّمح إذا غيَّب طرفه في الأرض قال الشّاعر:

و صادقتا سمع التّوجس لليسرى لركزٍ خفّيٍ أو لصوتٍ مندَّدٍ

و كيف كان ففي الآية تهديدٌ و تخويف لمنكري الحَّق إذا كان عن عنادٍ و لجاجٍ و أمّا إذا كان عن جهلٍ قصوراً لا تقصيراً فلا هذا آخر الكلام في تفسير سورة مريم و الحمد للّه ربّ العالمين.

■

سُورَة طٰه

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طٰهٰ ﴿١﴾ مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْاٰنَ لِتَشْقٰىٓ ﴿٢﴾ إِلَّا
تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشٰى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ
ٱلْأَرْضَ وَ ٱلسَّمٰوٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمٰنُ عَلَى
ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوٰى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ مَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ مَا تَحْتَ ٱلثَّرٰى ﴿٦﴾ وَ إِنْ
تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَ أَخْفَى ﴿٧﴾ اَللّٰهُ لَآ
إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنٰى ﴿٨﴾ وَ هَلْ أَتٰيكَ
حَدِيثُ مُوسٰىٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَاٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا
إِنِّىٓ اٰنَسْتُ نَارًا لَعَلِّىٓ اٰتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ
عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتٰيهَا نُودِىَ يٰا
مُوسٰىٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ
بِالْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَ أَنَا ٱخْتَرْتُكَ
فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحٰىٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللّٰهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّآ
أَنَا فَاعْبُدْنِى وَ أَقِمِ ٱلصَّلٰوةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ
ٱلسَّاعَةَ اٰتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
تَسْعٰى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا

وَ ٱتَّبَعَ هَوِيٰهُ فَتَرْدٰى ﴿١٦﴾ وَ مٰا تِلْكَ بِيَمينِكَ يٰا
مُوسٰى ﴿١٧﴾ قٰالَ هِيَ عَصٰايَ أَتَوَكَّؤُا ٱلْأُولٰى
عَلَيْهٰا وَ أَهُشُّ بِهٰا عَلٰى غَنَمي وَلِيَ فيهٰا مَآرِبُ
أُخْرٰى ﴿١٨﴾ قٰالَ أَلْقِهٰا يٰا مُوسٰى ﴿١٩﴾ فَأَلْقيهٰا فَإِذٰا
هِيَ حَيَّةٌ تَسْعٰى ﴿٢٠﴾ قٰالَ خُذْهٰا وَ لٰا تَخَفْ
سَنُعيدُهٰا سيرَتَهَا ٱلْأُولٰى ﴿٢١﴾ وَ ٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلٰى جَنٰاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضٰآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ اٰيَةً
أُخْرٰى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ اٰيٰاتِنَا ٱلْكُبْرٰى ﴿٢٣﴾
ٱذْهَبْ إِلٰى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغٰى ﴿٢٤﴾ قٰالَ رَبِّ
ٱشْرَحْ لي صَدْري ﴿٢٥﴾ وَ يَسِّرْ لِيٓ أَمْري ﴿٢٦﴾ وَ
ٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسٰاني ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلي ﴿٢٨﴾
وَ ٱجْعَلْ لي وَزيرًا مِنْ أَهْلي ﴿٢٩﴾ هٰرُونَ
أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِٓ أَزْري ﴿٣٠﴾ وَ أَشْرِكْهُ فِيٓ
أَمْري ﴿٣١﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثيرًا ﴿٣٢﴾ وَ نَذْكُرَكَ
كَثيرًا ﴿٣٣﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنٰا بَصيرًا ﴿٣٤﴾ قٰالَ قَدْ
أُوتيتَ سُؤْلَكَ يٰا مُوسٰى ﴿٣٥﴾

◀ اللّغة

ٱسْتَوٰى: الإستواء الإستيلاء و قيل معناه إستوى لطفه و تدبيره.

ٱلثَّرٰى: الثّرى التّراب النَّدى.

ٱمْكُثُوٓا: المكث اللّبث أي ألبثوا مكانكم.

بِقَبَسٍ: القبس الشّعلة و هو نار في طرف عود أو قصبة.

فَاخْلَعْ: الخلع النّزع يقال خلع ثوبه عن بدنه و خلع نعله عن رجله.

الْوٰادِي: سفح الجبل.

طُوًى: إسم للوادى.

فَتَرْدٰى: أي فتهلك يقال ردى يردى إذا هلك.

أَهُشُّ: أي أخبط بها ورق الشّجر اليابس لترعاه غنمى.

مَآرِبُ: الأرب الحاجة.

الإعراب

إِلّاٰ تَذْكِرَةً هو إستثناء منقطع أي لكن أنزلناه تذكرة أي للتّذكرة و قيل هو مصدر أي لكن ذكرنا به تذكرة و قيل مصدر في موضع الحال تَنْزِيلاً مصدر أي أنزلناه تنزيلاً و قيل هو مفعول، يخشى، و من متعلّقة به اَلْعُلٰى بضّم العين جمع العليا لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ مبتدأ و خبر أَخْفَى يجوز أن يكون فعلاً ومفعوله محذوف أي و أخفى السِّر عن الخلق و يجوز أن يكون إسماً أي و أخفى منه إِذْ رَأٰى إذ ظرف للحديث أو مفعول به أي أذكر نُودِيَ المفعول القائم مقام الفاعل مضّمر أي نودي موسى و قيل هو المصدر أي نودي النّداء و ما بعده مفسّر له طُوًى يقرأ بالضّم و التّنوين و هو إسمٌ للوادي و هو بدل منه و يجوز فيه الرّفع أي هو طوىً و يقرأ بغير تنوين على أنّه معرفة مؤنّث إسم للبقعة و قيل هو معدول و أن لم يعرف المعدول عنه لِذِكْرِي اللاّم تتّعلق، بأقم، و التّقدير عند ذكرك إيّاي فالمصدر مضاف إلى المفعول و قيل إلى الفاعل أي لذكري إيّاك أو إيّاها بِمٰا تَسْعىٰ ما، مصدريّة بمعنى الّذي فَتَرْدٰى يجوز فيه النّصب على جواب النّهي و الرّفع أي فإذا تردى وَ مٰا تِلْكَ ما، مبتدأ و، تلك، خبره و هو بمعنى، هذه و بِيَمِينِكَ حال يعمل فيه معنى الإشارة و قيل هو بمعنى الّذي فيكون، بيمينك، صفة لها أَتَوَكَّؤُا موضعه حال من الياء، أو من العصا.

و قيل هو خبر، هي، و عصاي مفعول بفعل محذوف، و قيل هي خبر، و أتوكّأ، خبر آخر (تسعىٰ) يجوز أن يكون خبراً ثانياً، و أن يكون حالاً سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ هو يدلّ من ضمير المفعول بدل الإشتمال و يجوز أن يكون ظرفاً أي في طريقتها و بَيْضَآءَ حال و مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ صفة لبيضاء أو حالاً من الضّمير في بيضاء أو حال من الضّمير في الجار، و قيل منصوبةٍ بفعل محذوف أي و جعلناها آية أو آتيناك آية و لِنُرِيَكَ متعلّق بهذا المحذوف مِنْ لِسَانِي يتّعلق بأحلل أو يكون وصفاً لعقدة.

◄ التّفسير

طٰهٰ إختلف المفسّرون في معناه كما إختلفوا في غيره من الحروف المقطّعة في أوائل السُّور و المشهور عندهم أنّها من الأسرار الّتي لا يعلمها إلاّ هو و قيل أنّها أسماء للسّور القرآنية.

قال إبن عبّاس معناه يا رجل و قيل أنّها لغة معروفة في عكلٍ و قيل في عكٍّ.

قال الكلبي لو قلت في عكٍّ لرجلٍ يا رجل لم يجب حتى تقول، طه و أنشد الطّبري في ذلك.

دعوت بطه في القتال فلم يجب ... فخفت عليه أن يكون مؤمّلاً

و قال عبد اللّه بن عمرو معناه يا حبيبي بلغة عكّ.

و قال قطرب هو بلغة، علّي.

قال الشّاعر:

أنّ السّفاهة طٰه من شمائلكم ... لا بارك اللّه في القوم الملاعين

و حكى الطّبري أنّه بالنّبطية يا رجل.

و قال عكرمة بلسان الجثة و الأقوال فيه كثيرة و الحقّ أنّها من لغة العرب و أن وجدت في لغة أخرى.

و قال بعض المفسّرين أنّه أي، طٰـه، مـن أسـماء النّـبي ﷺ و قـد روي عنه ﷺ أنّه قال، لي عند ربّي عشرة أسماء فذكر أنّ فيها، طٰه، و يٰس، و منه قول الشّاعر:

سلامٌ علىٰ آل طٰه وياسين

و المشهور أنّه إسمٌ للسُّورة و مفتاح لها و اللّه أعلم.

مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ

الشَّقاوة خلاف السّعادة، يقال شقى يشقى شقوةً و شقاوةً و شقاءً.

قال اللّه تعالىٰ: **قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ**[١].

و قرأ شقاوتنا فالشّقوة كالرَّدة و الشّقاوة كالشقاوة من حيث الإضافة فكما أنّ السَّعادة في الأصل ضربان، سعادة اخرويّة و سعادةٌ دنيويّة ثـمّ الدُّنـيوية ثـلاثة أضرب، نفسيّة، بدنيّة، خارجيّة، كـذلك الشّـقاوة عـلى هـذه الأضـربالشّقاوة الأخرويّة.

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَىٰ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا**.

و قرأ شقاوتنا، و فى الدنيويّة:

قال تعالىٰ في كتابه: **فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ**[٣].

قال بعض الأدباء قد يوضع الشّقاء موضع التَّعب نحو شقيت في كـذا وكـلّ شّقاوةٍ تعبٌ و ليس كلّ تعب شقاوة فالتَّعب أعمّ من الشّقاوة قاله في المفردات و على هذا فقوله تعالىٰ: **مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ** أي لتتعب و لذلك قالوا الشّقاء في اللّغة العناء و التَّعب قال الشّاعر:

ذو العقل يشقى في النَّعيم لعقله و أخو الجهالة في الشّقاوة ينعم

١- المؤمنون = ١٠٦ ٢- طٰه = ١٢٣

٣- طٰه = ١١٧

فمعنى، لتشقى، لتتعب أي ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط فأسفك عليهم و على كفرهم و تحسُّرك علىٰ أن يؤمنوا.

و روي أنّ أبا جهل بن هشام و النّضر بن الحرث قالا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أنك شقي لأنّك تركت دين آباءك فنزلت و قيل في سبب نزولها أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتحمل من مشّقة الصّلوة حتّى كادت قدماه تّورم و يحتاج الى التّرويح بين قدميه.

و قال مجاهد كان النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و أصحابه يربطون الحبال في صدورهم في الصّلوة باللّيل من طول القيام ثمّ ننسخ ذلك بالغرض فنزلت هذه الآية.

و قال الكلبي لمّا نزل الوحي على النّبي بمكّة إجتهد في العبادة و إشتّدت عبادته فجعل يصلّي اللّيل كلّه زماناً حتّى نزلت هذه الآية فأمر اللّه أن يخفف عن نفسه فيصلّي و ينام فنسخت هذه الآية قيام اللّيل فكان بعد هذه الآية يصلّي و ينام، و قال مقاتل و الضّحاك فلمّا نزل القرآن على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قام هود و أصحابه فصلّوا فقال كفّار قريش ما أنزل اللّه هذا القرآن على محمّد إلاّ لتشّقىٰ فأنزل اللّه، طٰه يقول يا رجل: ، **مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ**، أي لتتعب.

أقول ما ذكروه في سبب النُّزول لا بأس به لو دلّ الدليل على صحتّه و الحقّ على ما يستفاد من ظاهر الآية هو أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في بدء الأمر قد أتعب نفسه إمّا بكثرة الصّلوة و أمّا بتبليغ الرّسالة فقال اللّه تعالى: **مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ**.

أمّا أنّ هذا التّعب من أين حصل له من الصّلوة أو من غيرها فاللّه أعلم.

نعم يظهر من الأخبار الواردة عن العترة أنّ التّعب كان من الصّلوة.

ففي تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه و أبي جعفر عليهما السلام قالا: كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلّى قام على أصابع رجليه حتّى توّرم فأنزل اللّه تبارك و تعالى، طٰه، بلغة طّي يا محمّد، مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ إنتهى.

و في كتاب معاني الأخبار بأسناده عن الصّادق عليه السلام في حديثٍ طويل يقول فيه، و أمّا، طه، فإسمٌ من أسماء النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و معناه يا طالب الحقّ الهادي اليه، مٰآ أَنْزَلْنا عَلَيْكَ ٱلْقُرْاٰنَ لِتَشْقٰىٓ بل لتسعد إنتهى.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عند عائشة ليلتها فقالت يا رسول اللّه لم تتعب نفسك غفر لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأّخر فقال صلى الله عليه وآله وسلم يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً، قال و كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقوم على أطراف أصابع رجليه فأنزل اللّه طٰه مٰآ أَنْزَلْنا عَلَيْكَ ٱلْقُرْاٰنَ لِتَشْقٰىٓ إنتهى.

و في كتاب الإجتماع للطّبرسي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آباءه عن الحسين بن علّي قال عليه السلام: قال أميرالمؤمنين ولقد قام رسول اللّه عشر سنين على أطراف أصابعه حتّى توّرمت قدماه و إصفّر وجهه يقوم اللّيل أجمع حتّى عوتب في ذلك فقال اللّه عزّ وجلّ: طٰه مٰآ أَنْزَلْنا عَلَيْكَ ٱلْقُرْاٰنَ لِتَشْقٰىٓ بل لِتَسعَد به الحديث. و الأحاديث كثيرة.

إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشٰى

قوله: **تَذْكِرَةً** هو منصوب على المصدر أي أنزلناه لتذكّر به تذكرة أو على المفعول من أجله أي ما أنزلناه إلاّ للتذّكرة، و التّذكرة ما يتذّكر به الشّئ و هو أعمّ من الدّلالة و الإمارة.

قال اللّه تعالى: **فَمٰا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ**[١].

١- المُدّثر = ٤٩

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شٰآءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **نَحْنُ جَعَلْنٰاهٰا تَذْكِرَةً وَ مَتٰاعًا لِلْمُقْوِينَ**(٣).

و في قوله: **لِمَنْ يَخْشٰى** إشارة الى أنّ القرآن ليس تذكرة للقاسية قلوبهم و ذلك لأنّ الخشيّة، خوفٌ يشوبه تعظيمٌ و أكثر ما يكون ذلك عن علمٍ بما يخشى منه و لذلك خصّ العلماء بها:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمٰا يَخْشَى ٱللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ ٱلْعُلَمٰٓؤُا**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمٰآ أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشٰيهٰا**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشٰىٓ**(٦).

و الحاصل أنّ الخشية أعني بها الخوف الناشئ عن العظمة و الكبرياء هي الأصل في قبول النّصح و الموعظة فمن لا خشية له لا ينتفع بالأيات و المواعظ و لذلك قال لمن يخشى و قال بعض المفسّرين التّذكرة هي البشارة و النّذارة و أنّ ما إدّعاه المشركون من إنزاله للشّقاء ليس كذلك بل أنّما نزل تذكرة إنتهى.

تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَ ٱلسَّمٰوٰاتِ ٱلْعُلَى

قوله: **تنزيلاً**، منصوب منَّزل مضمرة أي نزّل تنزيلاً ممّن خلق الأرض و السّموات العلى.

و من المعلوم أنّ خالقها هو اللّه تعالى فالمعنى أنّ اللّه نزل القرآن تنزيلاً، و فيه إشارة الى أنّ القرآن كلام الخالق لا كلام المخلوق كما زعم المشركون **والعُلىٰ** بضمّ العين جمع العلياء مثل كبرى و صغرى، و كبر و صغر، و أنّما أتى

١- المُزّمل = ١٩
٢- الحاقّة = ٤٨
٣- الواقعة = ٧٣
٤- فاطر = ٢٨
٥- النّازعات = ٤٥
٦- النّازعات = ٢٦

بصيغة الجمع مراعاة للسّموات و المراد بالعلّو جهة الفوق أن كان العُلو حسيّاً فأنّ السّموات أعلى من الأرض و يحتمل أن يكون إتّصاف السّموات بالعلى من جهة أنّها مقرّ الملائكة المقرّبين و المقصود أنّ الّذي خلق الأرض و السّموات هو الّذي أنزل القرآن على عبده و رسوله فمن أنكر المنزل أنكر الخالق و هو ظاهرٌ و مع ذلك ففيه إخبارٌ عن عظمته و جبروته و جلاله

ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ

الرّحمٰن رفع بأنّه خبر مبتدأ أي هو الرّحمن و ذلك لأنّه لمّا قال تنزيلاً ممّن خلق بيّنه فكأنّه قال هو الرّحمن، و قيل يجوز فيه النصب على المدح و الجرّ على البدل، و قال النّحاس رفع على الإبتداء و أمّا الخبر فهو قوله: **لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ**، ثمّ أنّ الرّحمن لا يطلق إلاّ على اللّه تعالى من حيث أنّ معناه لا يصحّ إلاّ له إذ هو الّذي وسع كلّ شئ رحمةً بخلاف الرّحيم فأنّه قد يستعمل في غيره تعالى كما قال في وصف رسوله: **لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ** الىٰ قوله: **بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** و قيل أنّ اللّه تعالى رحمن الدّنيا و رحيم الأخرة و ذلك أنّ إحسانه في الدُّنيا عَامٌ يشمل الكافر و المؤمن و أمّا في الأخرة فهو مختّص بالمؤمنين و كيف كان فأنّ الرّحمن من أسماء اللّه تعالى مختّص به، و العرش، بفتح العين و سكون الرّاء في الأصل شئ متّصف و جمعه عروش:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا**(٢).

و قوله: إستوى على العرش فأنّ الإستواء الإستيلاء و قيل معناه إستوى لطفه و تدبيره و المعنى أنّ الرّحمن إستولى على عرشه أو إستوى لطفه و تدبيره في حقّ الجميع و الأوّل أشهر و أقوى.

١- الحج = ٤٥ ٢- البقرة = ٢٥٩

و أعلم أنّ عرش اللّه ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلاّ بـالإسم وليس كـما تذهب اليه أوهام العّامة فأنّه لو كان كـذلك لكـان عـاملاً له تـعالى عـن ذلك لا محمولاً.

قال الرّاغب في المفردات و أعلم أنّ العرش مّا إختلفوا فـي المـعنى المـراد منه فقال القفال العرش في قـوله **ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ**، بـمعنىٰ الملك و قيل هو السّرير الّذي يجلس عليه الملوك ثمّ جـعل كـناية عـن نـفس الملك يقال قلّ عرشه أي أمقصّ ملكه و قالوا إستوى على عرشه إستّقر عـلى سـرير مـلكه و مـنهم مـن فسّـر العـرش بـالجسم الأعـظم و الإسـتواء بـمعنى الإستيلاء.

قال الرّازي في تـفسيره إتّـفق المسـلمون عـلى أنّ فـوق السّمٰوات جسـماً عظيماً هو العرش و إختلفوا في المراد بالعرش هنا فقال أبو مسلم المراد أنّه لمّا خلق اللّه السّموات و الأرض سطحها و رفع سمكها فأنّ كلّ بناءٍ يسمّى عرشاً و بانيه يسمّى عارشاً قـال تـعالىٰ: **وَ مِمَّا يَعْرِشُون** و الإسـتواء عـلى العـرش هـو الإستعلاء عليه بالقهر و المشهور بـين المـفسّرين أنّ المـراد بـالعرش الجسـم العظيم الّذي في السّماء و قيل المراد به الملك و ملك اللّه عبارة عن مخلوقاته و وجود مخلوقاته أنّما حصل بعد خـلق السّموات و الأرض فـلا جـرم صـحّ إدخال حرف (ثمّ) عليه.

و الحاصل أنّ المراد إستواءه على عالم الأجسام بالقهر و القدرة و التّـدبير و الحفظ يعني أنّ مـن فـوق العـرش الى مـا تـحت الثرى فـي حـفظه و تـدبيره الإحتياج اليه فسأل به خبيراً و الباء في، به، بمعنى، عـن، أي عـنه و الخـبر هـو اللّه أو محمّدٌ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

قال المجلسي قدّس سرّه في البحار إعلم أنّ ملوك الدّنيا لمّا كان ظهورهم و إجراء أحكـامهم عـلى رعيّتهم أنّـما يكـون عـند صـعودهم عـلىٰ كـرسيّ المـلك و خروجهم على عرش السّلطنة و منهما تظهر آثارهم و تـتبيّن أسـرارهـم و اللّـه

سبحانه لتّقدسه عن المكان لا يوصف بمحلٍّ و لا قصر و ليس له عرشٌ كرسيّ يستّقر عليهما بل يطلقان على أشياء من مخلوقاته أو صفاته الكماليّة على وجه المناسبة فالكرسّي و العرش يطلقان على معانٍ.

أحدهما: أنّهما جسمان عظيمان خلقهما اللّه فوق سبع سموات و ظاهر أكثر الأخبار أنّ العرش أرفع و أعظم من الكرسّي و يلوح من بعضها العكس و الحكماء يزعمون أنّ الكرسّي هو الفلك الثّامن و العرش هو الفلك التّاسع و ظواهر الأخبار تدلّ على غير ذلك من كونهما مرتبعين ذاتي قوائم و أركان و ربّما يأولان بالجهات و الحدود و الصّفات الّتي بها إستّحقا التّعظيم و التّكريم و لا حاجة لنا الى هذه التّكلفات و أنّما سميّا بالإسمين لبروز أحكامه و تقديراته من عندهما و إحاطة الكرّوبين و المقرّبين و أرواح النبيّن و الأوصياء بهما و عروج من قرّبه من جنابه اليها كما أنّ أوامر الملوك و أحكامهم وآ ثار سلطنتهم و عظمتهم تبدو منهما و تطيف مقرّبوا جنابهم و خوّاص ملكهم بها و ساق الكلام الى أنّ قال ﷺ.

ثانيها: العلم كما عرفت إطلاقها في كثير من الأخبار عليه و ذلك لأنّ منشأ ظهوره سبحانه على خلقه العلم و المعرفة و به يتّجلى على العباد فكأنّه عرشه و كرسيّه سبحانه و حملتها بيننا و أئمتنا لأنّهم خزّان علم اللّه في سماءه و أرضه لا سيّما ما يتّعلق بمعرفته سبحانه.

ثالثها: الملك و قد مرّ إطلاقهما عليه في خبر حنّان و الوجه ما مرَّ أيضاً.

رابعها: الجسم المحيط و جميع ما في جوفه أو جميع خلق اللّه و يستفاد من بعض الأخبار إذ ما من شيٍ في الأرض و لا في السّماء و ما فوقها ألامن أيات وجوده و علامات قدرته و أثار وجوده و فيضه و حكمته بجميع المخلوقات عرش عظمته وجلاله وبها تجلّى على العارفين بصفات كماله و هذا أحد المعاني الّتي خطرت ببالي الفاقر.

خامسها: إطلاق العرش على كلّ صفةٍ من صفاته الكماليّة و الجلاليّة إذ كلّ منها مستّقر لعظمته و جلاله و بها يظهر لعباده على قد قابليّتهم و معرفتهم فله عرش العلم و عرش القدرة و عرش الرحمانيّة و عرش الرحيميّة و عرش الوّحدانية و عرش التّنزه و قد أوّل الوالد قدس سرّه الخبر الّذي ورد في تفسير قوله: **ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ** أنّ المعنى إستوى من كلّ شئ فليس شئٌ أقرب إليه من شئ، أنّ المراد بالعرش هنا عرش الرحمانيّة و الظرف حال أي الرَّب حال كونه علَى العرش الرحمانيّة، إستوى من كلّ شئٍ إذ بالنَّظر إلى الرحيميّة التّي عبارة عن الهدايات و الرّحمات الخاصّة بالمؤمنين أقرب و المراد أنّه سبب صفة الرّحمانية حال كونه على عرش الملك و العظمة و الجلال إستوى نسبته إلى كلّ شئٍ و هى فائدة التّقييد بالحال نفي توهم أنّ هذا الإستواء ممّا ينقص من عظمته و جلاله شيئاً.

سادسها: إطلاق العرش على قلب الأنبياء و الأوصياء و كلّ المؤمنين فأنّ قلوبهم مستّقر محبَّته و معرفته سبحانه كما روي أنّ قلب المؤمن عرش الرّحمن.

و روي أيضاً في الحديث القدّسي لم يسعني سمائي و لا أرضي وسعني قلب عبدي المؤمن إنتهى كلامه رفع مقامه و اللّه تعالى أعلم بحقيقة كلامه.

لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَ مَا بَيۡنَهُمَا وَ مَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ

اللاّم في، له، للملك أو للإختصاص و من المعلوم أنّ الخالق مالك المخلوق و أنّ العبد و ما في يده كان لمولاه فإذا ثبت كونه خالقاً لما سواه فهو مالك لجميع ما سواه و هذه الملكيّة ذاتيّة لا عرَّضية أي أنّها ثابتة له تعالى في مقام ذاته فلا يمكن سلبها عن الذّات و لذلك نقول المالك الحقيقي هو اللّه تعالى لا يشاركه فيه أحد و أمّا الملكيّة في المخلوق عرَّضية أعطاها اللّه إيّاه فإذا شاء

أخذها و قوله: **وَ مٰا تَحْتَ ٱلثَّرىٰ** فالثّرىٰ التُّراب النّدىٰ و المعنى و ما تحت الأرض فأنّ الثّرى في الحقيقة الأرض و أنّما خصَّه بالذّكر لأنّه ليس داخلاً في ما بينهما و أن شئت قلت أنّ اللّه تعالى يملك ما بين السّماء و الأرض من المحسوسات و ما تحت الأرض من الموجودات التّي لا تحسّ و لا ترى و لازم ذلك أن يكون المملوك مطيعاً لربّه خاضعاً لرّبوبيته كما هو شأن المملوك بالنّسبة إلى موجده و خالقه.

وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَ أَخْفَى

الجهر رفع الصَّوت يقال، جهر يجهر جهراً فهو جاهر و الصَّوت مجهور و ضدّه الهمس، و السِّر بكسر السّين ما حدّث به الإنسان غيره في خفيّةٍ و أخفى، منه ما أضمره في نفسه و لم يحدّث به غيره قاله إبن عبّاس و قال سعيد بن جبير السِّر ما أضمره العبد في نفسه و أخفى منه ما لم يكن و لا أضمره أحد، و قال قوم، أخفى، بمعنى الخفّي ورَّد هذا القول بأنّه ترك الظّاهر و عدولٌ بلفظة أفعل، إلى غير معناها من غير ضرورةٍ.

و قال بعضهم السِّر مقابل الجهر كما قال تعالى سرّكم و جهركم، و قيل السِّر ما سرَّه في نفسه و الأخفى ما خفى عنه ممّا هو فاعله و لا يعلمه.

و قال مجاهد السِّر ما تخفيه من النّاس و أخفى منه الوسوسة و قيل السِّر العزيمة و أخفى منه ما لم يخطر على القلب و نقل عن بعض السَّلف أنّه قال، و أخفى فعل ماضٍ لا أفعل تفضيل أي يعلم أسرار العباد و أخفى عنهم ما يعلمه و هو كقوله: **يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ لاٰيُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ**[١] و لا يخفى عليك ضعف هذا القول و الحقّ ما ذهب إليه المشهور من أنّ السِّر ما حدّث في خفية و أخفى منه ما أضمره في نفسه فتقدير الآية يعلم السِّر و

١- البقرة = ٢٥٥

أخفى منه و أنّما حذف منه، لدلالة الكلام عليه كما تقول فلان كالفيل أو أعظم و هذا كالحبَّة أو أصغر، أي أعظم منه و أصغر منه ثمّ أنّ الدّليل على أنّه يعلم السِّر و أخفى منه، هو أنّ اللّه تعالى خالق الإنسان و موجده و هذا ممّا لا كلام فيه، و الخالق عالم بجميع شئون مخلوقه و إلاّ يلزم أن لا يكون خالقاً له و العلم من توابع الوجود فإذا كان الوجود منه تعالى فالعلم أيضاً منه سواءٌ جهر به المخلوق أو أسَّر به و هكذا جميع صفات العبد.

ثانياً: نقول أنّ اللّه تعالى عالمٌ بذاته و ذاته علّة لإيجاد ما سواه فما سواه معلول له و العلم بالعلّة يستلزم العلم بالمعلول تفضيلاً فهو يعلم السِّر و أخفى منه لأنّه داخل في سلسلة المعلولات و هو ظاهر.

ثالثاً: لو لم يعلم السِّر و أخفى منه لزم أن يكون جاهلاً و الجهل نقصٌ و النَّقص من شئون الممكن و قد فرضناه واجباً هف فثبت و تحقَّق أنّ اللّه عالم بجميع الأمور ظاهرها و باطنها و لا يخفى عليه شئ و العقل و النّقل يشهدان بذلك كما مرَّ البحث فيه مراراً.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ

قال الزّمخشري الحسنى تأنيث الأحسن وصفت بها الأسماء لأنّ حكمها حكم المؤنّث كقولك الجماعة الحسنى و مثلها قارب أخرى و من أياتنا الكبرى و الّذي فضّلت به أسماؤه في الحسن سائر الأسماء دلالتها على معاني التّقديس و التّمجيد و التّعظيم و الرّبوبية و الأفعال التّي هي النّهاية في الحسن إنتهى كلامه.

و ذكروا أنّ هذه الأسماء هي التّي قال فيها رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّ للّه تسعاً و تسعين إسماً من أحصاها دخل الجنّة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**(١).

١- الأعراف = ١٨٠

قال اللّه تعالىٰ: **أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ**(٢).

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ، إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى

قوله: **وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ** خطاب للنبي ﷺ و تسلية له ممّا ناله من أذىٰ قومه و التّثبيت له بالصّبر على أمر ربّه كما صبر موسى و قال بعضهم لمّا ذكر تعالى تعظيم كتابه و تضّمن تعظيم رسوله أتبعه بقصّة موسى ليتّأسى به في تّحمل أعباء النّبوة و تكاليف الرّسالة و الصَّبر على مقاساة الشّدائد:

قال اللّه تعالىٰ: **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ**(٤).

و هل هذا إستفهام تقرير يحثّ على الإصغاء لما يلقى إليه و على التّأسي و قيل هل، بمعنى قد، أي قد أتاك حديث موسى و القول الأوّل هو الحقّ **إِذْ رَءَا نَارًا** أي حين رأى ناراً **فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا** أي ألبثوا مكانكم (**إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا** أي رأيتُ ناراً والإيناس وجدان الشّيئ **لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ** القبس الشّعلة و هو نار في ظرف عود أو قصبة و المعنى لعلّي أتيكم بنارٍ تصطلون به **أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى** أي أجد من يدّلني على الطّريق الّذي أضللناه أو ما إستدّل به عليه.

قال القرطبي إستأذن موسى شعيباً في الرّجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله و غنمه و ولد له في الطّريق غلام في ليلةٍ شاتيةٍ باردةٍ مثلّجة و قد عاد عن

١- الإسراء = ١١٠
٢- الحشر = ٢٤
٣- هُود = ١٢٠
٤- الأحقاف = ٣٥

الطّريق و تفَرّقت ماشيته فقدح موسى النّار فلم توّر المقدحة شيئاً إذ بصر بنارٍ من بعيد على يسار الطّريق فقال لأهله آمكثوا، أي أقيموا بمكانكم، إنّى انست نارًا، أي أبصرت فلمّا تَّجه نحو النّار فإذا النّار في شجرةٍ عناب فوقف متَّعجباً من حسن ذلك الضَّوء و شدّة خضرة تلك الشَّجرة فلا شدّة حرّ النّار تغير حسن خضرة الشَّجرة و لا كثرة ماء الشَّجرة و لا نعمة الخضرة تغيّران حسن ضوء النّار و ذكر المهدوي فرأى النّار في شجرة من العلّيق فقصدها فتّأخرت عنه فرجع و أوجس في نفسه خيفة ثمّ دنت منه و كلّمه اللّه عزّ وجلّ من الشَّجرة إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و قال الطَّبري نقلاً عن إبن إسحاق عن وهب بن منبه اليماني قال قضى موسى الأجل خرج و معه غنمٌ له و معه زند له و عصاه في يده يهش بها على غنمه نهاراً فإذا أمسى إقتدح بزنده ناراً فبات عليها هو و أهله و غنمه فإذا أصبح غداً بأهله و بغنمه فتَّوكأ على عصاه فلمّا كانت اللّيلة التّي أراد اللّه بموسى كرامته و إبتدأه فيها بنّبوته وكلامه أخطأ فيها الطّريق حتّى لا يدري أين يتَّوجه فأخرج زنده ليتّقدح ناراً لأهله ليبيتوا عليها حتّى يصبح ويعلم وجه سبيله فأصلد زنده فلا يوري له ناراً فقدح حتّى أعياه لاحت النّار فرأها فقال لأهله أمكثوا إنّي أنست ناراً لعلّي أتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النّار هدىً و عني بقوله: **اٰنَسْتُ نَارًا**، وجدت إلى أن قال و أنّما أراد موسى بقلده لعلّي أتيكم منها بقبسٍ أتيكم بذلك ليصطلوا به إنتهى هذا ما ذكروه في المقام و حيث إنجّر الكلام إلى هاهنا فلابدّ لنا من ذكر أصل القصّة من حين حمله إلى نبُّوته من طريق أهل البيت الّذين هم أدرى بما في البيت فنقول:

روي المجلسي قدس سره في البحار بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: أنّ موسى لمّا حملت أمّه به لم يظهر حملها إلاّ عند وضعه و كان فرعون قد وكلّ بنساء بنيإسرائيل نساءً من القبط يحفظهنّ و ذلك أنّه لمّا كان بلغه عن بنيإسرائيل أنّهم يقولون أنّه يولد فينا رجل يقال له موسى بن عمران يكون

هلاك فرعون و أصحابه على يديه فقال فرعون عند ذلك لأقتلّن ذكور أولادهم حتّى لا يكون ما يريدون و فرَّق بين الرّجال و النّساء و حبس الرّجال في المجالس فلمّا وضعت أمّ موسى بموسى نظرت و حزنت و إغتّمت و بكت و قالت يذبح السّاعة فعطف اللّه بقلب الموكلّة عليه فقالت لأمّ موسى مالك قد إصفَّر لونك فقالت له أخاف أن يذبح ولدي فقالت لا تخافي و كان موسى لا يراه أحد إلاّ أحبَّه و هو قول اللّه عزّ وجلّ، و ألقيت عليك محبّة منّي، فأحبَّته القبطيّة الموكلّة به و أنزل اللّه على أمّ موسى التّابوت و نوديت أمّه ضعيه في التّابوت فأقذفيه في اليّم و هو البحر و لا تخافي و لا تحزني إنّا رادُّوه إليك و جاعلوه من المرسلين فوضعته في التّابوت و أطبقت عليه و ألقته في النيل و كان لفرعون قصور على شطّ النيل فنظر من قصره و معه آسية إمرأته إلى سوادٍ في النيل ترفعه الأمواج و تضربه الرّياح حتّى جاءت على باب قصر فرعون فأمر فرعون بأخذه فأخذ التّابوت و رفع اليد فلمّا فتحه وجد فيه صبيّاً فقال هذا إسرائيلي فألقى اللّه في قلب فرعون لموسى محبّة شديدة و كذلك في قلب آسية و أراد فرعون أن يقتلَ فقالت آسية لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتَّخذه ولداً و هم لا يشعرون أنّه موسى و لم يكن لفرعون ولد فقالت إلتمسوا له ظئراً تربيه فجاؤا بعدّة نساء قد قتل أولادهنّ فلم يشرب لبن أحدٍ من النّساء و هو قوله اللّه و حرَّمنا عليه المراضع من قبل و بلغ أمّه أنّ فرعون قد أخذه فحزنت و بكت كما قال اللّه فأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً كادت لتبدي به يعني كادت أن تخبرهم بخبره أوأ تموت ثمّ ضبطت نفسها فكانت كما قال لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ثمّ قالت لاخت موسى قصيّه أي إتَّبعيه فجاءت أخته إليه فبصرت به عن جنبٍ أي عن بعدٍ و هم لا يشعرون فلمّا لم يقبل موسى مأخذ ثدي أحد من النّساء إغتَّم فرعون غمّاً شديداً فقالت أخته هل أدّلكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم و هم له ناصحون فقالوا نعم فجاءت بأمّه فلمّا أخذته في حجرها و إلتقمته ثديها إلتقمته و شرب ففرح فرعون و أهله و

أكرموا أمّه فقالوا لها ربيّه لنا فإنّا نفعل بك و نفعل كذا و ذلك قول اللّه فرددناه إلى أمّه كي تقّر عينها و لا تحزن و لتعلم أنّ وعد اللّه حقّ و لكن أكثرهم لا يعلمون فرعون يقتل أولاد بني‌إسرائيل كلّما يلدون و يربّي موسى ويكرمه يعلم أنّ هلاكه على يديه فلّما درج موسى كان يوماً عند فرعون فعطس موسى الحمد للّه ربّ العالمين فأنكر ذلك عليه و لطمه و قال ما هذا الّذي تقول فوثب موسى على لحيته و كان طويل اللّحية فهلبتها أي قلع بعضها فهَّم فرعون بقتله فقالت إمرأته غلامٌ حدث لا يدري ما يقول فقال فرعون بلى يدري فقالت له ضع بين يديك تمراً و جمراً فأن ميّز بينهما فهو الّذي تقول فوضع بين يديه تمراً و جمراً فقال له كل فمّد يده إلى التّمر فجاء جبرئيل فصرفها إلى الجمر فأخذ الجمر في فيه فإحترق لسانه فصاح و بكى فقالت آسية لفرعون ألم أقل لك أنّه لا يعقل فعفى عنه قال الرّاوي فقلت لأبي جعفر عليه السلام فكم مكث موسى غائباً عن أمّه حتّى ردَّه اللّه عليها قال عليه السلام ثلاثة أيّام فقلت فكان هارون أخا موسى لأبيه و أمّه قال عليه السلام نعم أما تسمع اللّه يقول يابن أمّ لا تأخذ بليحيتي برأسي، فقلت فأيّهما أكبر سنّاً قال عليه السلام هارون قلت و كان الوحي ينزل عليهما جميعاً قال عليه السلام كان الوحي ينزل على موسى يوحيه إلى هارون فقلت له أخبرني عن الأحكام و القضاء و الأمر و النّهي أكان ذلك إليهما قال عليه السلام كان موسى الذّي يناجي ربّه و يكتب العلم و يقضي بين بني‌إسرائيل و هارُن يخلفه إذا غاب عن قومه للمناجات قلت فأيّهما مات قبل صاحبه قال عليه السلام مات هارون قبل موسى و ماتا جميعاً في التّيه قلت فكان لموسى ولد قال عليه السلام لا كان الولد لهارون و الذريّة له، فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامةٍ حتّى بلغ مبلغ الرّجال و كان ينكر عليه ما يتكلّم به موسى من التّوحيد حتّى همَّ به فخرج موسى من عنده و دخل المدينة فإذا رجلان يقتتلان أحدهما يقول بقول موسى و الأخر يقول بقول فرعون، فإستغاثه الّذي هو من شيعته، فجاء موسى فوكز صاحبه فقضى عليه و توارى

في المدينة فلمّا كان من الغد جاء أخر فتَّثبت بذلك الرّجل الّذي يقول بقول موسى فإستغاث بموسى فلمّا نظر صاحبه إلى موسى، قال أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس فخَلّى عن صاحبه و هرب وكان خازن فرعون مؤمناً بموسى قد كتم إيمانه ستة مائة سنة و هو الّذي قال اللّه تعالى:

وَ قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللّٰهُ(١).

و بلغ فرعون خبر قتل موسىٰ الرّجل فطلبه ليقتله فبعث المؤمن الى موسى أنّ الملأيأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إنّي لك من النّاصحين فخرج منها كما حكى اللّه خائفاً يترقب، قال عليه السلام يلتفت يمنة و يسرة و يقول ربّ نجّني من القوم الظّالمين و مَّر نحو مدين و كان بينه و بين مدين تسير ثلاثة أيّام فلّما بلغ باب مدين رآىٰ بئراً يستقي النّاس منها لأغنامهم و دوابّهم فقعد ناحية و لم يكن أكل منذ ثلاثة أيّام شيئاً فنظر الى جاريتين في ناحية و معهما غنيمات لا تدنون من البئر فقال لهما مالكما لا تستقيان فقالتا كما حكى اللّه حتّى يصدر الرّعاء و أبونا شيخ كبير، فرحهما موسى و دنى من البئر فقال لمن على البئر إستقي لي دلواً و لكم دلواً و كان الدَّلوا يمُّده عشرة رجال فأستقى وحده دلواً لمن على البئر و دلواً لبنتّي شعيب و سقى أغنامهما ثمّ تولّى الى الظّل فقال ربّ إنّي لما أنزلت إلّي من خيرٍ فقير، و كان شديد الجُوع و قال أميرالمؤمنين أنّ موسى كليم اللّه حيث سقى لهما تولّى الى الظّل فقال ربّ إنّي لما أنزلت إلّي من خيرٍ فقير، و اللّه ما سأل اللّه إلاّ خبزاً يأكل لأنّه كان يأكل بقلة الأرض يرى خضرة البقل من صفاق بطنه من هزاله فلّما رجعتا إبنتا شعيب الى شعيب قال لهما أسرعتما الرّجوع فأخبرناه بقصّة موسىٰ عليه السلام ولم تعرفاه فقال شعيب لواحدةٍ منهما إذهبي إليه فأدعيه لنجزيه أجر ما سقى لنا فجائت إليه كما حكى

١- غافر = ٢٨

اللّـه تـعالىٰ: **تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ** فـمشت أمـامه فـقالت له أنّ أبـي يـدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فقام موسى معها فسفقتها الرّياح فبان عجزها فقال لها موسى تأخّري و دلّيني على الطّريق بحصات تلقيها أمامي أتبعها فإنّا قومٌ لا ينظرون في أدبار النّساء فـلّما دخـل عـلى شـعيب قـصَّ عـليه قـصّته فـقال له شعيب لا تخف نجوت من القوم الظّالمين، قالت إحدى بنات شعيب، يـا أبت إستأجره أنّ خير من إستأجرت القّوي الأمين، فقال لها شـعيب أمّـا قـوتّه فـقد عرفته بسقي الدَّلو وحده فبم عرفت أمانته فقالت أنّـه قـال لي تأخّـري عـنّي و دلّيني على الطّريق فإنّا من قومٍ لا ينظرون في أدبار النّساء عرفت أنّه ليس مـن القوم الّذين ينظرون في أعجاز النّساء فهذه أمـانته فـقال شـعيب إنّـي أريـد أن أنكحك إحدى إبنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حـجج فأن أتـممت عشـراً فمن عندك و ما أريد أن أشّق عليك ستجدني إنشاء اللّه من الصّالحين فقال له موسى ذلك بيني و بينك ايّما الأجلين قيضت فـلا عـدوان عـلّي، أي لا سـبيل علّي أن عملت عشر سنين أو ثماني سـنين فـقال مـوسى اللّـه عـلى مـا نـقول وكيل.

قال الرّاوي قلت له عليه السلام أيّ الأجلين قضى قال عليه السلام أتـّمهما عشـر حجج قلت له فدخل بها قبل أن يمضي الأجل أو بعده قال عليه السلام قبل، قلت فالرّجل يتّزوج المرأة و يشترط لأبيها إجارة بشهرين مـثلاً يجوز ذلك قال عليه السلام أنّ موسى علم أنّه يتّم له شرطه فكيف لهذا أن يعلم أنّه يبقى حتّى يفيً قلت له جعلت فداك أيّتهما زوجة شعيب من بناته قال عليه السلام الّتي ذهبت إليه فدعته و قالت لأبيها يا أبت إستأجره أنّ خير من إستأجرت القّوي الأمين فلّما قضى موسى الأجل قال شعيب لابُّد لي أن أرجع الى وطني و أمّي و أهل بيتي فمالي عندك فقال شعيب ما وضعت أغنامي في هذه السَّنة من غنمٍ بلق فهو لك

فعمد موسى عند ما أراد أن يرسل الفحل على الغنم الى عصاه فقّشر منه بعضه و ترك بعضه و و عزَّره في وسطه مربض الغنم و ألقى عليه كساء أبلق ثمّ أرسل الفحل علىٰ الغنم فلم تضع الغنم في تلك السَّنة إلاّ بلقاً فلّما حال عليه الحول حمل موسى إمرأته و زوّده شعيب من عنده و ساق غنمه فلّما أراد الخروج قال لشعيب أبغي عصا تكون معي و كانت عصّي الأنبياء عنده قد ورثها مجموعة في بيت فقال له شعيب أدخل هذا البيت وخذ عصا من بين تلك العصا فدخل فوثبت إليه عصا نوح و إبراهيم و صارت في كفّه فأخرجها و نظر إليها شعيب فقال ردّها و خذ غيرها فرَّدها ليأخذ غيرها فوثبت إليه تلك بعينها فرَّدها حتّى فعل ذلك ثلاث مرّات فلّما رآى شعيب ذلك قال له إذهب فقد خصَّك اللّه بها فخرج يريد مصر فلّما صار في مفازةٍ و معه أهله أصابهم بردٌ شديد و ريحٌ و ظلمة و قد جفَّهم اللّيل و نظر موسى الى نارٍ و قد ظهرت كما قال اللّه: **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَ سَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَعَلِّىٓ ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**(١). فأقبل نحو النّار يقتبس فإذا شجرة و نار تلتهب عليها فلّما ذهب نحو النّار يقتبس منها أهوت إليه ففزع منها وعدا و رجعت النّار الى الشَّجرة فألتفت إليها ود رجعت الى الشَّجرة فرجع الثّانية ليقتبس فأهوت إليه فعدا و تركها ثمّ إلتفت و قد رجعت الى الشَّجرة فرجع إليها الثّالثة فأهوت فعدا ولم يعقب أي لم يرجع فناداه اللّه أن يا موسى إنّي أنا اللّه ربّ العالمين قال موسى فما الدّليل على ذلك قال اللّه ما في يمينك يا موسى قال هي عصاي قال

١- القصص = ٢٩

ألقيها يا موسى فألقاها فصارت حيَّة ففزع منها موسى وعدا فناداه اللّه خذها و لا تخف أنّك من الآمنين و أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ أي من غير علّةٍ و ذلك أنّ موسى كان شديد السَّمرة فأخرج يده من جيبه فأضائت له الدُّنيا فقال اللّه عزّ وجّل فذانك برهان من ربّك الى فرعون و ملائه أنّهم كانوا قوماً فاسقين فقال موسى كما حكى اللّه: إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ، وَ أَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِاٰيَاتِنَآ أَنْتُمَا وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ(١) انتهى(٢).

أقول و إنّما نقلنا الحديث بطوله لما فيه من الفوائد ما لا يخفى مضافاً الى أنّ اللّه تعالى أشار الى موسى في كثير من الآيات و ذلك لما في قصّته من المواعظ و العبر فذكرنا هذا الحديث عن المعصوم ليكون النّاظر على بصيرةٍ و لنرجع الى تفسير ألفاظ الآيات بعد وضوح المراد منها فيه فنقول:

فَلَمَّآ أَتَيٰهَا نُودِىَ يَا مُوسَىٰٓ

أي لمّا أتى موسى النّار الّتي رآها و آنسها، و نودي، موسى، من جانب الشَّجرة الّتي فيها النّار و النِّداء هو مدّ الصَّوت.

إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى

قرأ إبن كثير و أبو عمرو **إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ** بفتح الهَمزة و الياء و الباقون بكسرها و سكون الياء فعلى قول من فتح الهَمزة فالمعنى نودي بأنّي أنا و لما حذف الباء فتح، و من كسرها فعلى الإستئناف أو على تقدير، قيل له إنّي أنا ربّك الّذي خلقك و قوله: **فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ** قيل السَّبب الّذي لأجله أمر بخلع النَّعلين فيه قولان:

١- القصص = ٣٥ / ٣٤ / ٣٣ ٢- بحار الأنوارج ٥ ص ٢٢٢

أحدهما: ليباشر بقدميه بركة الوادي المقّدس.

ثانيهما: أنّها كانت من جلدٍ حمارٍ ميّت.

و حكى التلجي أنّه أمر بذلك على وجه الخضوع و التّواضع و الخلع نزع الملبوس، و قيل كانتا من جلد بقرةٍ ذكّى لكن أمر بخلعها لبيان بركة الوادي المقّدس و تمّس قدماه تربته، و قيل أنّه خلع نعليه و ألقاهما من وراء الوادي، و المقّدس، المطّهر، و طوى إسم علم عليه فتكون بدلاً أو عطف بيانٍ و فيها قرأت، فمنهم من قرأها بكسر الطّاء منّوناً، و منهم من قرأها بضّمها منّوناً، من قرأها بضّمها غير منّونٍ و منهم من قرأها بكسرها غير منّونٍ.

و قال الرّاغب في المفردات في طوىً، قيل هو إسم الوادي الّذي حصل فيه و قيل أنّ ذلك جعل إشارة الى حالةٍ حصلت له على طريق الإجتباء فكأنّه طوىً عليه مسافة لو إحتاج أن ينالها في الإجتهاد لبعد عليه، و قيل هو إسم أرضٍ فمنهم من يعرفه و منهم من لا يعرفه و قيل هو مصدر طويت فينصرف و يفتح أوّله و يكسر نحو مثنى و ثني و معناه ناديته مرَّتين إنتهى هذا كلام المفسّرين حول الآية.

و قد ذكر القرطبي و امثاله في تفسير الآية من الأباطيل و المجعولات ما لا يخفى على المتّأمل البصير بالأخبار.

في كتاب كمال الدّين و تمام النّعمة بأسناده الى سعد بن عبد اللّه القمر عن الحجّة القائم عليه السلام حديث طويلٌ و فيه قلت فأخبرني يابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر اللّه لنبيّه موسى، فأخلع نعليك إنّك بالوادي المقّدس طوىً، فأنّ فقهاء الفريقين يزعمون أنّها كانت من أهاب الميتة قال صلواة اللّه عليه من قال ذلك فقد إفترى على موسى و أستجهله في نبّوته لأنّه ما خلا الأمر فيه من خطيئتين، أمّا أن تكون صلواة موسى فيها جائزة أو غير جائزة فأن كانت صلواته جائزة جاز له لبسها في تلك البقعة إذا لم تكن مقّدسة و أن كانت

مقدّسة مطّهرة فليست بأقدس و أطهر من الصّلوة و أن كانت صلوته غير جائزة فيها فقد أوجب على موسى أنّه لم يعرف الحلال من الحرام و علم ما جاز فيه الصّلوة و ما لم يجز و هذا كفرٌ قلت فأخبرني يا مولاي عن التّأويل فيها قال صلوات اللّه عليه أنّ موسى ناجى ربّه بالوادي المقّدس فقال يا ربّ إنّي قد أخلصت لك المحبّة منّي و غسلت قلبي عمَّن سواك و كان شديد الحُّب لأهله فقال اللّه تعالىٰ: **اخْلَعْ نَعْلَيْكَ** أي إنزع حُّب أهلك من قلبك أن كانت محَّبتك لي خالصة و قلبك من الميل الى من سواي مغسول إنتهى.
و في حديث آخر قال عليه السلام: **فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ** أي خوفيك، خوفك من ضياع أهلك، و خوفك من فرعون إنتهى.

وَ أَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ

الظّاهر أنّ، ما، في، لما، بمعنى أنا إخترتك للنُّبوة من بين النّاس فأستمع للّذي يوحى إليك من ربَّك قيل لمّا سمع موسى هذا الكلام وقف على حجرٍ و أستند الى حجرٍ و وضع يمينه على شماله و ألقى ذقنه على صدره و وقف ليستمع و كان كلّ لباسه صوفاً و من المعلوم أنّ أدب الإستماع سكون الجوارح و غضّ البصر و الإصغاء بالسَّمع و حضور العقل و العزم على العمل و ذلك هو الإستماع لما يحّب اللّه و حذف الفاعل في يوحى للعلم به ثمّ أشار اللّه تعالى الى ما أوحى إليه.

إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ، إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ

هذا الكلام في الحقيقة تفسير **لِمَا يُوحَىٰ** أشار أوّلاً الى التّوحيد لأنّه الأصل في جميع الشّرائع و الأديان كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **قُولُوا لا اِلٰه اِلاّ اللّه**

تُفْلَحُوا فمن لم يعرف اللّه لم يعبده و العبادة فرع على المعرفة و لذلك فسّر قوله تعالىٰ: **مٰا خَلَقْتُ اَلْجِنَّ وَ اَلْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ**(١) بقولهم ليعرفون قال أميرالمؤمنين عليه السلام: **أوّل الدّين مَعرفته** و قال الحسين الشّهيد عليه السلام: **ما خلق اللّه العباد إلاّ ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه** الخ... و لأجل ذلك قدّم المعرفة في جميع الأمور على العامّة و الإنقياد و لذلك يقال أعبد النّاس أعرفه بل الحقّ أنّ المعرفة إذا حصلت حصلت العبادة قطعاً و لأجل ذلك أشار اللّه تعالى أوّلاً إلى معرفة اللّه بالوحدانيّة ثمّ قال فأعبدني أي إذا عرفت أنّه لا إلٰه إلاّ أنا، فأعبدني و الأولى أن يكون، فأعبدني، لفظ يتناول ما كلّفه به من العبادة ثمّ عطف عليه ما هو قد يدخل تحت ذلك المطلق فبدأ بالصّلاة و قال و أقم لذكري، إذ هي أفضل الأعمال و أنفعها في الأخرة أن قبلت قبل ما سواها و أن ردّت ردّ ما سواها و مع ذلك هي أوّل ما يسأل عنه العبد من الأعمال يوم القيامة و إقامة الصّلاة هي إتيانها بجميع شرائطها و آدابها على الوجه المقّرر في الشريعة المقدّسة المأمور بها في جميع الأديان لا مطلق الصّلاة كيف إتّفقت قال اللّه تعالى: **وَ أَقِيمُوا اَلصَّلوٰةَ وَ آتُوا اَلزَّكوٰةَ**(٢) و فى الزّيارة أشهد أنّك قد أقمت الصّلاة و أتيت الزّكوة الخ... .

و لذلك أمر اللّه موسى بإقامتها و قال و أقم الصّلاة ولم يقل و صّل مثلاً و قوله: **لِذِكْرِي** قيل في معناه أي لتّذكرني فيها بالتّسبيح و التّعظيم، و قيل معناه، لان أذكرك بالمدح و الثّناء، و قيل المعنى متى ذكرت أنّ عليك صلوة كنت في وقتها أو فات وقتها، فأقمها، قال بعض المفسرين، لذكري، يحتمل وجوهاً و الأحسن منها ما وافق الحديث و المعنى أقم الصّلوة لذكرها لأنّه إذا ذكرها فقد ذكر اللّه و يمكن أن يقّدر مضاف هنا أي لذكر صلواتي، و يكون قد وقع ضمير، اللّه، موقع ضمير الصّلوة لشرفها، و قرئ أقم الصّلوة للذّكرى، فتكون اللاّم الأولى بدل الإضافة أي أقم الصّلوة وقت ذكرها.

١- الذّاريات = ٥٦ ٢- البقرة = ٤٣

أقول ما ذكروه في المقام لا بأس به و الّذي يختلج بالبال هو أنّ المعنى أقم الصّلوة لذكري، أي على وجه الإخلاص و لا تقصد بها غرضاً آخر لتكون مشركاً بالشّرك الخفّي المعّبر عنه بالريّاء و بعبارةٍ أخرى صلّ مع حضور القلب فأنّ حضور القلب هو الذّكر بعينه و أمّا قوله: **إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ** ألخ... .

فالمراد بالسّاعة القيامة فأنّها آتية لا محالة، قيل لمّا ذكر اللّه تعالى الأمر بالعبادة و إقامة الصّلوة ذكر الحاصل على ذلك و هو البعث و المعاد للجزاء فقال أنّ السّاعة آتية و هى الّتي يظهر عندها ما عمله الإنسان و جزاء ذلك إمّا ثواباً وإمّا عقاباً و قوله أكاد أخفيها، قرأ الحسن و مجاهد أخفيها، بفتح الهمزة بمعنى أظهرها أي أنّها من صحّة وقوعها و تيّقن كونها تكاد تظهر و لكن تأخّرت إلى الأجل المعلوم و تقول العرب خفيت الشّئ أي أظهرته قال الشّاعر:

خفاهنّ من إيقانّهن كأنّما خفاهنّ ودق من عشّي مجلّب

و قال الأخر:

فأن تدفنوا الدّاء لا نخفه و أن توقدوا الحرب لا نعقد

و لام لتجزى على هذه القراءة متعلّقة بأخفيها، أي أظهرها لتجزى كلّ نفسٍ و قرأ الجمهور، أخفيها بضّم الهَمَزة و عليها المصاحف فعلاً و على هذه القراءة فهو مضارع أخفى بمعنى، ستر و الهَمَزة هنا للإزالة أي أزلت الخفاء و هو الظّهور و إذا أزلت الظّهور صار للسّتر كقولك أعجمت الكتاب أزلت عنه العجمة و قال أبو علي هذا من باب السَّلب و معناه أزيل عنها خفاؤها سترها واللاّم على هذه القراءة متعلّقة بأتية كأنّه قال أنّ السّاعة أتية لتجزى، و قيل أخفيها بضّم الهمزة بمعنى أظهرها فتتّحد القراءتان و أخفي من الأضداد بمعنى الإظهار و بمعنى السَّتر.

قال أبو عبيدة خفيت و أخفيت بمعنى واحد و قد حكاه أبو الخطّاب أيضاً و هو من رؤوساء اللّغة، و قوله أكاد، من أفعال المقاربة لكنّها مجاز هنا، بعضهم، أكاد، بمعنى أريد فالمعنى أريد إخفاؤها و قالت فرقة، خبر كاد،

محذوف تقدير الكلام أكاد أتى بها لقربها و صحّة وقوعها كما حذف في قول الشّاعر:

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكي حلائله

أي كدت أفعل و ثمَّ إستأنف الأخبار بأنّه يخفيها، و قوله: **لِتُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا تَسْعٰى** أي تجازى كلّ نفسٍ بحسب عملها من خيرٍ أو شرٍّ فمن عمل الطّاعات أثيب عليها و من عمل المعاصي عوقب عليها **فأنّ كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرٰى** و لذلك سُمّيت القيامة بيَوم الجزاء:

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَجْزِىَ اَللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ إِنَّ اَللّٰهَ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَجْزِىَ اَلَّذِينَ أَسٰٓـٔوا بِمٰا عَمِلُوا وَ يَجْزِىَ اَلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**(٣).

فَلاٰ يَصُدَّنَّكَ عَنْهٰا مَنْ لاٰ يُؤْمِنُ بِهٰا وَ اَتَّبَعَ هَوٰيهُ فَتَرْدٰى

و الظّاهر أنّ الخطاب في **فَلاٰ يَصُدَّنَّكَ** بموسى عليه‌السلام و لا يلزم من النّهي عن الشّئ إمكان وقوعه ممّن سبقت له العصمة فينبغي أن يكون لفظاً.

و قيل أنّه خطاب للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لفظاً و لأمّته معنى و هو كما ترى بعيد عن سياق الأيات و الصّد المنع، و قيل الصَّد، الصَّرف عن الخير يقال صدَّه عن الإيمان و صدَّه عن الحقّ و لا يقال صدَّه عن الشّر و لكن يقال صرفه عن الشّر و منعه منه و المعنى أنّ اللّه تعالى نهى موسى ظاهراً و جميع المكلّفين واقعاً أن يصدّهم عن ذكر السّاعة و المجازاة فيها من لا يصدّق بها من الكفّار و إتّبع هواه أي هوى نفسه و قوله: **فَتَرْدٰى** أي فتهلك يقال ردى يردي إذا هلك أي أن صددت عن السّاعة بترك التّأهب لها هلكت، و تردّى هلك بالسّقوط:

١- إبراهيم = ٥١ ٢- الجاثية = ١٤
٣- النّجم = ٣١

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**(١).
قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجًا**(٢).
قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ**(٣).
قال اللّه تعالىٰ: **رَأَيْتَ اَلْمُنٰافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً**(٤).

و الأيات كثيرة شكّ أنّ الغفلة عن الأخرة أو الإعراض عنها يوجب السّقوط عن مقام الإنسانيّة، و قوله: **فَتَرْدىٰ** يجوز أن يكون منصوباً على جواز النّهي و أن يكون مرفوعاً، أي فأنت تردى، على الخبر.

وَ مٰا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يٰا مُوسىٰ

ما، إستفهام مبتدأ و تلك خبره و يمينك، في موضع الحال كقوله و هذا لعلمي شيخاً، و العامل إسم الإشارة.

و قال الزّمخشري يجوز أن يكون، تلك، إسماً موصولاً صلته بيمينك، إنّما يصحّ على مذهب الكوّفيين، كأنّه قيل و ما التّي بيمينك، و هو في صورة السّؤال لموسى عمّا في يده اليمنى و الغرض تنبيهه له عليها ليقع المعجز بها بعد التّثبت فيها و التّأمل لها، إن قلت، قوله و ما تلْك بيمينك يا موسى، سؤال و هو لا يكون إلاّ لطلب العلم، و هو على اللّه محال لأنّه قد أحاط بكلّ شئٍ علماً و لا يخفى عليه شئ.

قلت أجاب عنه صاحب الكشّاف و قال أنّما سأله ليريه عظيم ما يخترعه عزّ و علا في الخشبة اليابسة من قلبها حيَّة نضناضة و ليقرّر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه و المقلوب إليه و ينّبهه على قدرته الباهرة و نظيره أن يريك الزّراد زبرة من حديدٍ و يقول لك ماهي فتقول زبرة من حديد ثمّ يريك بعد أيّام لبوساً مردّاً فيقول لك هي تلك الزّبرة صيَّرتها إلى ما ترى من عجيب الصَّنعةً و أنيق السّرد إنتهى.

١- الزّخرف = ٦٢
٢- الأعراف = ٤٥
٣- الزّخرف = ٣٧
٤- النسّاء = ٦١

و قال الرّازي نظير ذلك إلاّ أنّه غير الألفاظ فكأنّه أخذه منه و حاصله أنّه تعالى قد نبّه العقول على كمال قدرته و نهاية عظمته من حيث أنّه أظهر هذه الأيات العظيمة من أهون الأشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله: **وَ مٰا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يٰا مُوسىٰ**.

و أجاب ثانياً بما حاصله أنّه لما تخيَّر موسى من الدّهشة و غلب عليه الخوف و الحيرة ممّا رأه من الشَّجرة و إستماع كلام اللّه منها أراد اللّه تعالى إزالة تلك الدَّهشة و الخوف عنه فسأله عن العصا و هو أمرٌ لا يقع الغلط فيه.

ثالثاً: لمّا عرَّف موسى كمال الإلٰهيّة أراد أن يعرّفه نقصان البشريّه فسأله عن منافع العصا فذكر موسى بعضها فعرفّه اللّه تعالى أنّ فيها منافع أعظم ممّا ذكره موسى تنبيهاً على العقول قاصرة عن معرفة صفات الشّيء الحاضر.

رابعاً: أن يقرّر عنده أنّه خشبة إذا قلَّبها ثعباناً لا يخافها، إنتهى ماذكره في الجواب ملخصّاً.

و قال بعض المفسّرين منهم، أنّما إمتحن موسى بهذا السّؤال تنبيهاً له ليعلم أنّ للعصا عند اللّه إسماً أخر و حقيقة أخرى غير ما علَّمه منها فيخيل علمها إلى اللّه تعالى فيقول أنت أعلم بها ياربّ فلمّا إتّكل على علم نفسه و قال هي عصاي فكأنّه قيل له أخطأت في هذا الجواب خطأين أحدهما في التّسمية بالعصا و الثّاني في إضافتها إلى نفسك و هو ثعبان لا عصاك إنتهى.

أقول هذا ما ذكروه في المقام و أنت ترى أنّ هذه الأجوبة كلّها إستحسانات إخترعتها أوهامهم و خيالاتهم و العقل السّليم لا يوافقها و لا سيّما الأخير منها فأنّه أشبه بكلام المجانين و أن نسبه صاحب روح البيان إلى التّأويلات ولم يعلم القائل و النّاقل أنّ موسى لم يخطأ في الجواب أصلاً لا في التسميّة بالعصا و لا في إضافتها إلى نفسه.

و الذّي يقوّي في النّفس في حلّ الإشكال هو أنّه تعالى لمّا أوجد الصَّوت في الشَّجرة و قال أنّي أنا ربّك فأخلع نعليك، الآية دهش موسى منه و تعجَّب

من ذلك و لمّا قال أنا إخترتك فأستمع إلى قوله: **فَتَرَدٰى** علم من ظاهر الكلام أنّه بعث إلى النّبوة فشاء أن يراه اللّه أيةً أخرى ليطمئن قلبه بما سمع من الشَّجرة و أنّه مبعوث من اللّه تعالى إلى الخلق فقال تعالى: **وَ مٰا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يٰا مُوسٰى** و اللّه تعالى كان عالماً بها قبل السّؤال كما كان عالماً بجواب موسى قبل قوله: **هِيَ عَصٰايَ**، و أنّما سأله لأمرين:

أحَدهما: أن يقّر موسى بأنّ ما في يمينه هو عصاه، ثمّ صيَّره ثعباناً ليكون أية أخرى له و أنّ الّذي يقدر على ذلك يقدر على إيجاد الصَّوت في الشَّجرة أيضاً و بذلك زال الشكّ عن قلبه بالكليّة و أيقن بصحّة النّداء من الشَّجرة و أنّ اللّه إختاره للنّبوة و الرّسالة.

ثانيهما: أنّ اللّه تعالى أراد أن يتّخذه كليماً فقال له: **مٰا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يٰا مُوسٰى** فقال موسى هي عصاي الخ و هذا السّؤال و الجواب دليل على أنّ موسى صار كليم اللّه و حيث إنّجر الكلام الى ها هنا فلا بأس بما ذكره الرّازي و غيره من مفسّري العّامة و هو أنّ الخطاب من اللّه تعالى مع موسى كان بلا واسطة و لم يحصل ذلك لمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أجابوا عن الإشكال بوجهين:

أحدَهما: أنّه تعالى كما خاطب موسى خاطب محمّداً صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في قوله: **فَأَوْحىٰ إِلىٰ عَبْدِهِ مٰا أَوْحىٰ** (١).

الثّاني: إن كان موسىٰ تكلّم معه و هو مع موسى فأمّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يخاطبون يخاطبون اللّه في كلّ يوم مرّات على ما قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المصلّي يناجي ربّه و الرَّب يتكلّم أحّاد أمّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم القيامة بالتسليم و التكريم في قوله: **سَلاٰمٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ** (٢) إنتهى ما ذكره الرّازي في الجواب.

و نحن نقول ما ذكره في الجواب لا يمكن المساعدة عليه لأنّ الوحي لو كان أفضل من التكلّم يلزم أن يكون أكثر الأنبياء أفضل من موسى لأنّ اللّه أوحى

١- النّجم = ١٠
٢- يس = ٥٨

اليهم ولم يكن الوحي مختصّاً بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم من بين الأنبياء حتّى يكون دليلاً على أفضليّته.

ثانياً: أنّ اللّه تعالى يقول في كتابه: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا**(١) فلو كان الوحي أفضل لكانت النّحل أفضل من موسى و هو كما ترى لا يقول به عاقل فضلاً من مسلم.

و أمّا قوله: أنّ المصلّي يناجي ربّه فهذا أيضاً لا طائل تحته فأنّ أمّة موسى و عيسى و جميع الأنبياء كانوا يصلّون و يناجون ربّهم و هو ظاهر.

و أمّا قوله و الرَّب يتكلّم مع آحاد أمّة محمّد يوم القيامة الى آخر ما قال.

فيقال له أن كان الرَّب يتكلّم يوم القيامة مع آحاد أمّة محمّد، فهو يتكلّم مع آحاد جميع الأمم و أي دليل دلّ على إختصاص التكلّم بهذه الأمّة هذا مضافاً الى أنّ أصل الدَّعوى من الخرافات الّتي لا ينبغي أن يسمع اليها و أنّما صدر هذا الكلام من أهل السنّة و لا سيّما الأشاعرة منهم و اللّه تعالى أعظم شأناً و أجلَّ من أن يتكلّم مع أحدٍ شافهةٍ بلا واسطة في الدُّنيا و فى الأخرة فكأنّه لم يسمع قوله تعالىٰ: **وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ**(٢) و هذا أصلٌ يعتمد عليه في جميع المقامات و بذلك يظهر فساد قوله أنّ الخطاب كان لموسى بلا واسطة، ولم يحصل ذلك لمحمّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم فأنّ الخطاب لجميع الأنبياء كان مع الواسطة، بإيجاد اللّه تعالى النّداء فيها سواء كانت شجرة أو جبل أو غيرهما.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا**(٣).

فقوله تكليماً يدلّ على أنّ التّكلم معه كان نوعاً خاصّاً أي من طريق الوحي أو من وراء حجابٍ وليس من سنخ التكلّم المتعارف بين النّاس كما زعمه الرّازي و امثاله وللبحث فيه مقام آخر كما أنّ أفضلّية محمّد صلى الله عليه وآله وسلم على جميع

١- النّحل = ٦٨ ٢- الشّورىٰ = ٥١
٣- النسّاء = ١۶۴

الأنبياء ثابتة في محلّه و التكلّم لا يكون دليلاً عليها فأنّ التكلّم على ما فسرناه في الجميع على حدٍّ سواء.

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَ أَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَ لِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى

لما سأل موسى بقوله **مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى**، أجاب بأنّها عصاي أي أنّ الّذي في يدي عصاي ثمّ ذكر موسى ما يتّرتب عليها من المنافع و هو ثلاثة.

أحدها: قوله **أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا**.

ثانيها: قوله **وَ أَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي**.

ثالثها: قوله **وَ لِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**.

أمّا قوله: **أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا** فالتّوكي و الإعتماد واحد و معناه أعتمد عليها إذا عييت فقوله أتوكأ، من توكأ يتّوكأ مثل تصّرف يتّصرف و الضّمير في عليها راجع على عصى و لا شكّ أن الإتّكاء و الإعتماد من أهمّ منافع العصا و لذلك يأخذ بها من ضعف جسمه أو كان به مرض بحيث لا يقدر على المشي بدونها أو يشقّ عليه.

و قوله: **وَ أَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي** أي أخبط بها ورق الشّجر اليابس لترعاه غنمي قال الشّاعر:

أهش بها بالعصا على أغنامي ... من ناعم الأراك و البشام

و قوله: **وَ لِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**، فالمآرب جمع مأربة بفتح الرّاء و ضمّها و هي الحاجة و حكي بكسر الرّاء أيضاً، و الأرب بفتح الرّاء و الأربة بكسر الألف و سكون الرّاء الحاجة، و أنّما قال أخرى لأنّ المآرب في معنى الحاجة فكأنّه قال جماعة من الحاجات أخرى، و فى هذا الكلام إشارة الى أنّ منافع العصا لا تنحصر بالإتّكاء و الهش بل يتّرتب على العصا من المنافع غيرهما أيضاً ممّا لا يكاد يعدّ و هو ظاهر لا يحتاج الى التّوضيح و التّفصيل لكونه من المحسوسات.

قال الرّازي أنّه قال هي عصاي فذكر العصا و من كان قلبه مشغولاً بالعصا و منافعها كيف يكون مستغرقاً في بحر معرفة الحقّ و لكن محمّداً ﷺ عرض عليه الجنّة و النّار فلم يلتفت الى شئ ولما قيل له أمدحنا قال لا أحصي ثناء عليك ثمّ نسي نفسه و نسي ثناءه فقال أنت كما أثنيت على نفسك إنتهى كلامه و لقائلٍ أن يقول للرّازي أيّها الشّيخ لو سأل اللّه تعالى محمّداً ﷺ كما سأل موسى و قال له ما تلك بيمينك يا محمّد، و كان في يده عصاه مثلاً فما كان جوابه لربّه غير أن يقول هي عصاي و قد حكم العقل بأنّ الجواب مطابق للسّؤال و الإستغراق في بحر معرفة اللّه لا ينافي التكلّم بالجواب لأنّه أمرٌ قلبيٌ و الجواب أمرٌ لفظيٌ وأيّ دليلٍ علىٰ أنّ المستغرق في بحر معرفة اللّه لا يتكلّم بالألفاظ و لا يراعي الجواب مطابقاً للسّؤال و من أين ظهر لك أنّ قلبه، أي قلب موسى كان مشغولاً بالعصا فأن كان غرض الرّازي من هذه الكلمات إثبات أفضليّة محمّد ﷺ على موسى كما يظهر من كلامه فهي أي الأفضليّة ثابتة لا كلام لأحدٍ فيه لكن لا بهذه الكلمات التّي لا دليل على صحّتها من العقل و النّقل.

أن قلت لمّا قال موسى هي عصاي فقد تمَّ الجواب و ذلك لأنّ اللّه تعالى لم يسأل عن منافع العصا بل سأل عمّا في يده و قد ثبت أنّ الجواب يكون مطابقاً للسّؤال.

قلت ذكروا في وجه التّفصيل أنّ موسى كان يحبّ المكالمة مع ربّه فجعل تفصيل الكلام محصّلاً للغرض و هذا الجواب إرتضاه الكلّ ولم يخالف فيه أحد من المفسّرين.

و أنا أقول هذا الجواب لا يصحّ عقلاً و لا عرفاً و ذلك لأنّ حبّ المكالمة قد يكون من ناحية المخاطب و قد يكون من جانب المتكلّم و قد يكون من الطّرفين، فأن كان من جانب المخاطب فقط فهو لا يوجب تفصيل الكلام و صحّته إذ من الممكن أن لا يكون المتكلّم ممّن يحبّ المكالمة أكثر من

الجواب، و أن كان الحبّ من جانب المتكلّم فهو محتاج إلى الدّليل و من أين ثبت على موسى أنّ اللّه يحبّ تفصيل الكلام بل الأمر بالعكس لأنّه لو أراد التَّفصيل جعل السّؤال كذلك و حيث لم يجعل السّؤال مفصّلاً و منع بالأقل نكشف أنّه أحبَّ الإختصار، و أن كان مرادهم من حبّ المكالمة حبّها من الطَّرفين فعليهم بالإثبات و محصّل الكلام أنّ قوله: **هِيَ عَصٰايَ** إلى قوله: **وَ لِيَ فِيهٰا مَآرِبُ أُخْرىٰ** سؤالٍ واحدٍ و هو **مٰا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يٰا مُوسىٰ** خارج عن المتعارف في المحاورات و المكالمات فلابدّ له من دليلٍ.

فنقول أنّ ما ذكروه في الجواب متَّفرعٌ على أن تكون ما، في قوله: **مٰا تِلْكَ بِيَمِينِكَ**، ما الحقّيقية التّي بها يسأل عن ماهيّة المسمّى كقولك الإنسان ماهو، أي ما حقيقة و ماهيّته و الجواب حيوان ناطق فقط فلا يقال في جواب هذا السّؤال أكثر من قولنا، حيوان ناطق، إذ به يبيّن مقصود المتكلّم و هو معرفة ماهيّة الإنسان فلو قال المخاطب في الجواب الإنسان حيوان ناطق ضاحك مستقيم القامة يرى و يسمع و يمشي إلى غير ذلك من الأوصاف لا يصحّ لأنّ الغرض من السّؤال قد حصل بقوله حيوان ناطق.

و سائر الأوصاف من عوارض الماهيّة لا منها و على هذا يتّوجه الإشكال يصحّ للمخاطب أن يقول أنّي أردت من التّفصيل كذا و كذا أو كنت أحبّ المكالمة مع المتكلّم.

و أمّا إذا كانت غير حقيقته و هى التّي لا يسأل بها عن حقيقة الشّئ و ماهيّته بل الغرض منها شرح اللّفظ فلابدّ للمخاطب أن يشرح المسئول عنه و يوضحه حتّى يرتفع الابهام مثلاً إذا قال المتكلّم ما هذه الشَّجرة، لا يصحّ للمخاطب أن يقول هذه خشبة مستقيم القامة، لأنّ كونها كذلك معلوم عند المتكلّم بل ينبغي أن يشرح المخاطب منافعها بأن يقول هذه شجرة يتَّرتب عليها من المنافع كذا و كذا إذا عرفت هذا و علمت أنّ السّؤال، بما، قد يكون على سبيل الحقيقة و قد لا يكون و بعبارةٍ أخرى، ما، قد تكون حقيقة و قد تكون شارحة،

ففي قوله تعالىٰ: **مٰا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يٰا مُوسىٰ**، لم يدلّ دليل على أنّ المراد، بما، في قوله، ماتلك، ما الحقيقيّة التّي يسأل بها عن ماهيّة الشّئ و إذا لم تكن حقيقية فهي شارحة و هو المطلوب.

و الدّليل على أنّها ليست حقيقةّ هو أنّ موسى لم يبيّن في الجواب ماهيّة العصا و حقيقتها بل قال هي عصاي فعبَّر عن الخشبة التّي كانت في يده بأنّها عصاه و هو أي الجواب شرح اللّفظ لا بيان ماهيّة الخشبة فأنّ كون الخشبة عصاه من عوارض الخشبة و منافعها لا أنّ العصا حقيقتها و ماهيّتها و من هنا يظهر أنّ موسى عليه‌السلام فهم من الكلام أنّ اللّه تعالى لم يرد بالسّؤال ماهيّة الخشبة التّي كانت بيمينه بل أراد بيان ما يتّرتب عليها من المنافع و الأثار فأجاب موسى بما يقتضيه السّؤال و ذكر من منافعها إجمالاً و تفصيلاً ما أشارت إليه الآية و إذا كان كذلك فلا إشكال و لا جواب بل الجواب مطابق للسّؤال طابق النّعل بالنّعل ولو كان الأمر كما ذكروه من حمل الماء على ما، الحقيقيّة يتّوجه على موسى إشكال أخر و هو أنّ السّؤال عن ماهيّة الخشبة و الجواب عن عوارضها و أوصافها و هو لا يليق بمقام النّبي هذا ما فهمناه من الآية و به يندفع الإشكال من أصله و لا نحتاج إلى التكلّفات الباردة و الأقوال الواهية في الجواب إذ لا إشكال في المقام حتّى يحتاج إلى الجواب و اللّه أعلم بكلامه.

قال فَأَلْقيٰها فَإِذاٰ هِيَ حَيَّةٌ تَسْعٰى

لمّا قال موسى هي عصاي إلى أخر ما قال تعالى له ألقيها أي ألق عصاك فألقاها موسى فإذا هي، أي الخشبة، حيَّةٌ تسعى أي تسرع في الأرض، قوله: إذا، للمفاجاة و الحيَّة تطلق على الصّغيرة و الكبيرة و الذّكر و الاءنثى و الجانّ الرّقيق من الحيّات و الثّعبان العظيم منها و لا تنافي بين تشبيهها بالجانّ في قوله: **فَلَمّٰا رَاٰهٰا تَهْتَزُّ كَأَنَّهٰا جَآنٌّ**[١] و بين كونها ثعباناً لأنّ تشبيهها بالجانّ في

١- النّمل = ١٠

أوّل حالها ثمّ تزيدت حتّى صارت ثعباناً أو شبّهت بالجانّ و هى ثعبان في سرعة حركتها و إهتزازها مع عظم خلقها، قيل لمّا ألقى عصاه صارت ثعباناً كان لها عرف كعرف الفرس و صارت شعبتا العصا لها فماً و بين لحيتها أربعون ذراعاً.

و عن إبن عبّاس إنقلبت ثعباناً تبتلع الصّخر و الشّجر و عيناها تتقدان فلمّا رأى موسى هذا الأمر العجيب الهائل لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال و المخاوف لا سيّما هذا الأمر الّذي يذهل العقول و معنى تسعى تنتقل و تمشي بسرعةٍ و حكمة إنقلابها وقت مناجاته تأنيسه بهذا المعجز الهائل حتّى يلقيها لفرعون فلا يلحقه ذعرٌ منها في ذلك الوقت إذ قد جرت له بذلك عادة و تدريبه في تلّقي تكاليف النّبوة و مشاق الرّسالة ثمّ أمره اللّه تعالىٰ بالإقدام علىٰ أخذها و نهاه أن يخاف منها كما قال تعالىٰ:

قَالَ خُذْهَا وَ لَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ

قال، أي قال اللّه تعالى له، خذها، أي تناولها بيدك تخف، منها (**سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ** أي سنعيدها إلى صورة الخشبة وقيل سنعيد خلقتها الأولى و المعنى واحد، و قيل لمّا قال تعالى له لا تخف بلغ من ذهاب خوفه و طمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها و أخذ بلحيّتها و حين أخذها بيده صارت عصا كما كانت فقوله: **سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ** مفعولٍ ثانٍ سنعيدها على حذف الجارّ مثل قوله و إختار موسى قومه، أي إلى سرتها الأولى أو بدلٌ من مفعول سنعيدها بدل إشتمالٍ فهذه المعجزة أوّل معجزة جرت على يد موسى عليه السلام.

وَ ٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ

الجناح حقيقة في الطّائر و الملك ثمّ توسّع فيه فأطلق على اليد و على العضد و على جنب الرّجل و أصل الجنوح الميل و منه جناح الطّائر لأنّه يميل

به في طيرانه حيث شاء و الجنب فيه جنوح الأضلاع و أصل العضد من جهته تميل حيث شاء صاحبها و قال أبو عبيدة الجناحان النّاحيتان.

و قال بعض المفسّرين يقال لكلّ ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لطذفيه و جناحا الإنسان جنباه و الأصل المستعار منه جناحا الطّائر لأنّه يجنحهما عند الطّيران و معنى ضمّ اليد إلى الجناح في قوله: **وَ ٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ** يعلم من قوله تعالى في أيةٍ أخرى:

قال اللّه تعالى: **وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ**(١).

قال اللّه تعالى: **ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ**(٢).

و القرآن يفسّر بعضه بعضاً فقوله: **وَ ٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ**، معناه أدخل يدك في جيبك فعلى هذا يكون الجناح في الآية كناية عن الجيب **تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ** فالسُّوء الرّداءة و القبح في كلّ شيئٍ فكنّى عنه بالبرص كما كنّى عن العورة بالسّوأة و البرص أبغض شيئٍ إلى العرب فكان جديراً بأن يكنّى عنه و المعنى تخرج بيضاء يدك من غير برصٍ.

إن قلت قال تعالى: **وَ ٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ** و لم يقل إلى جيبك فما معنى الخروج.

قلت قوله: **تَخْرُجْ** دليل على الدّخول إذا لو لم يكن خروج، قيل خرجت يده بيضاء تشف و تضيئ كأنّها شمس و كان آدم اللّون فكان إذا أدخل يده في جيبه و أدخلها تحت إبطه الأيسر و أخرجها كانت تبرق مثل البرق الشّمس من غير برص ثمّ إذا ردّها عادت إلى لونها الأوّل بلا نور، قيل اليد أعظم في الإعجاز من العصا و قيل بالعكس و لا فائدة في هذا البحث لأنّ الأنظار مختلفة و العقول متفاوتة و هو ظاهر على المتأمّل.

لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى

١- النّمل = ١٢ ٢- القصص = ٣٢

قال صاحب الكشّاف أي خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حيَّة **لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا ٱلْكُبْرَى**، أي بهاتين الأيتين نريك بعض أياتنا الكبرى أو لنريك بهما الكبرى من أياتنا إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و أنّما قال **لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا ٱلْكُبْرَى** ولم يقل لنريك أياتنا الكبرى بحذف من، للدّلالة على أنّ ما أراه الّه من الأيات هو بعضها لا جميعها فأنّ الأيات كثيرة لا يحصيها إلاّ هو و لذلك أتى، بكلمة من، التّي للتّبعيض ثمّ أنّهم إختلفوا في تركيب الآية من حيث الإعراب فقال بعضهم أنّ الكبرى مفعول ثانٍ لنرى و مفعول الأوّل كان الخطاب و قيل: **مِنْ ءَايَاتِنَا** في موضع المفعول الثّاني و تكون الكبرى صفة لأياتنا على حدّ الأسماء الحسنى، و قارب أخرى و الّذي نختاره في المقام هو أن يكون، من أياتنا، في موضع المفعول الثّاني، لنريك، و الكبرى، صفة لأياتنا لأنّه يلزم من ذلك أن تكون أياته تعالى كلّها هي الكبر، لأنّ ما كان بعض الأيات الكبر صدق عليه أنّه الكبرى و إذا جعلت الكبرى مفعولاً لم تتّصف الأيات بالكبر لأنّها هي المتّصفة بأفعل التّفضيل و أيضاً إذا جعلت الكبرى مفعولاً ثانياً فلا يمكن أن يكون صفة كالعصا و اليد معاً لأنّهما كان يلزم التّثنية في وصيفهما و الأمر سهلٌ بعد وضوح المعنى.

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ

أمر اللّه تعالى موسى بعد أن أراه الأيتين و هما قلب العصا حيّة، و اليد البيضاء، أن يذهب إلى فرعون و بيَّن العلّة في ذلك بقوله أنّه أي فرعون طغى، أي تجاوز قدره في عصيان اللّه و تجاوز به قدر معاصي النّاس و ذلك أنّه إدّعى الألوهيّة و أجبر النّاس على الإعتراف وا لإقرار بألوهيّته و أيُّ طغيانٍ أشدَّ و أعظم منه قيل أنّه تعالى قال لموسى عليه السلام إسمع كلامي و أحفظ وصيّتي و أنطق برسالاتي فأنّك بعيني و سمعي و أنّ معك يدي و بصري و أنّي ألبستك

جنّةً من سلطاني لتستكمل بها القوّة في أمري أبعثك إلى خلقٍ ضعيف من خلقي بطر نعمتي و أمن مكري و غرَّته الدنيّا حتّى جحد حقّي و أنكر ربوبيّتي و أنّي أقسم بعزّتي لولا الحجّة و العذر الّذي وضعت بيني و بين خلقي لبطشت به بطشة جبّارٍ وكلّ هان عليّ و سقط من عيني فبَلّغه عنّي رسالتي و أدعه إلى عبادتي و حذّره نقمتي و قل له قولاً ليّناً فأنّ ناصيته بيدي لا يطرف و لا يتَّنفس إلاّ بعلمي فسكت موسى سبعة أيّام لا يتكلّم ثمّ جاءه ملك فقال أجب ربّك فيما أمرك بعبده و عند ذلك قال موسى.

رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْلِيَ أَمْرِي وَ ٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَ ٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هٰرُونَ أَخِي، ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي، وَ أَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا، قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسٰى

لمّا أمر اللّه تعالى موسى بالذّهاب إلى فرعون وهوهو في سطوته و قدرته، سأل ربّه أموراً ثمانية ثمّ ذكر في أخرها ما يجري مجرى العلّة للسّؤال:

الأوّل: طلب منه تعالى شرح الصّدر و إلى ذلك أشار بقوله: **رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي** و المراد بشرح الصّدر وسعته و قيل بيّنه و قيل معناه شجّعني لأجترئ به على مخاطبة فرعون و أنّما قدّمه على سائر الأمور لتّقدمه عقلاً على جميع الأمور و لا سيّما في حقّ النّبي ألا ترى أنّ اللّه تعالى قال لنبيّه في مقام الإمتنان **اَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**(١).

قال بعض المفسّرين أنّ اللّه تعالى خاطب موسى بالأشياء السّتة:

أحدها: معرفة التّوحيد فقال إنّني أنا اللّه لا إله إلاّ أنا.

ثانيها: أمره بالعبادة و الصّلاة فقال فأعبدني و أقم الصّلوة لذكري.

١- الانشراح = ١

ثالثها: معرفة الأخرة حيث قال أنّ السّاعة أتية.

رابعها: حكمة أفعاله في الدنيّا في قوله: **و مٰا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يٰا مُوسىٰ.**

خامسها: عرض المعجزات الباهرة عليه في قوله: **لِنُرِيَكَ مِنْ اٰيٰاتِنَا ٱلْكُبْرَى.**

سادسها: إرساله الىٰ أعظم النّاس كفراً و عتوّاً في قوله: **إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**، فكانت هذه التّكاليف الشّاقة سبباً للقهر فأراد موسىٰ عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجزة فعرَّفه أنّ كلّ من سأله قرب منه حيث قال تعالىٰ: **وَ إِذٰا سَأَلَكَ عِبٰادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدّٰاعِ إِذٰا دَعٰانِ**(۱) و موسىٰ كان مخصوصاً بالقرب لقوله تعالىٰ: **وَ قَرَّبْنٰاهُ نَجِيًّا**(۲) ولذلك قال **رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي** أو يقال أنّه خاف شياطين الإنس و الجنّ فدعا ربّه و طلب منه شرح الصّدر ليكون مأموناً من غوائلهم إنتهى.

أقول لا نحتاج الى هذه التّكلفات في الباب بعد وضوح المعنى و أنّ العبد محتاج الى ربّه في جميع شؤنه و لا سيّما مقام النبوة حيث أنّ النّبي كان مكلّفاً بما إحتاج معه الى إحتمال ما لا يحتمله إلاّ ذو جأشٍ رابطٍ و صدرٍ فسيح، و لذلك سأل ربّه أن يشرح صدره ليحتمل ما يرد عليه من الشّدائد الّتي يضيق لها الصّدر و هذا واضح.

الثّاني: قوله: **وَ يَسِّرْلِيٓ أَمْرِي**، أي سهِّل علَّي أمر النبّوة الّتي هي خلاقة اللّه في أرضه و ما يصحبها من مزاولة جلائل الخطوب و قد علم موسىٰ ما عليه فرعون من الجبروت و التّمرد و التّسلط و الطُّغيان و الإنكار للحقّ.

الثّالث: قوله: **وَ ٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسٰانِي**، و ذلك لأنّ طلاقة اللّسان من أهمّ شرائط التّبليغ لأنّ المبلّغ إذا لم يقدر على بيان مراده بأحسن الوجوه لا يتّرتب على تبليغه أثر إذ المفروض أنّ المخاطب لم يفهم مراده و لذلك قال رسول

۱- البقرة = ۱۸۶ ۲- مريم = ۵۲

اللّه ﷺ أنا أفصَّح العرب بيد أنّي من قريشٍ، و الحلّ نفي العقد بالفرق و ضدّ الحلّ العقد، و يقال أنّه كان في لسان موسى رثة و هى الّتي لا يفصح منها بالحروف و قيل أنّ سبب العقدة في لسانه أنّه طرح جمرة في فيه لمّا أراد فرعون قتله لأنّه أخذ لحيته و قد مرَّ بيان ذلك مفصّلاً، و قيل أنّ فرعون لطمه، و قيل ضربه بقضيبٍ كان في يده وكيف كان لا خلاف في أنّ العقدة كانت من العوارض لا بحسب الطَّبيعة و الخلقة كما زعمه بعض المفسّرين و غيرهم.

الرّابع: قوله: **يَفْقَهُوا قَوْلِي** طلب موسى من حلّ العقدة قدر ما يفقه قوله قيل و بقى بعضها لقوله و أخي هارون هو أفصح منّي لساناً، و لذلك لم يقل و أحلل العقدة من لساني، فقوله و أحلل عقدةً أيّة عقدةٍ كانت و لذلك نكرها فالتَّنكير يفيد النَّوعية و البَّعضية، و قيل زالت بالكلّية لقوله تعالى: **قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ** و هو ضعيفٌ لأنّه أي موسى لم يقل و أحلل العقدة من لساني بل قال عقدةً فإذا حلَّ عقدةً فقد أتاه اللّه سؤاله.

و قال الزّمخشري و فى تنكير العقدة و أن لم يقل و أحلل عقدة لساني، أنّه طلب حلّ بعضها، فقوله من لساني صفة للعقدة كأنّه قيل و أحلل عقدة من عقد لساني.

أقول و على هذا قوله من لساني، متعلّق بأحلل.

الخامس: قوله: **وَ ٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي** **الوَزِير** بفتح الواو المعين القائم بوزر الأمور أي بثقلها فوزير الملك يتحمّل عنه أوزاره و مؤنه و قيل من الوزر و هو الملجأ يلتجأ اليه الإنسان.

قال الشّاعر:

من السّباع الضّواري دونه وزرٌ و النّاس شرَّهم ما دونه وزرُ
كم معشرٍ سلموا لم يزدهم سبعٌ وما نرى بشراً لم يوذهم بشرُ
فالملك يعتصم برأيه ويلتجأ اليه في أموره

و قال الأصمعي هو من الموازرة و هى المعاونة و المساعدة و القياس أزير.

و كذا قال الزّمخشري فقلبت الهمزة الىٰ الواو و وجه قلبها أنّ فعيلاً جاء في معنى فاعل و قال بعضهم لا حاجة إلى إدّعاء قلب الهَمَزة واواً لأنّ لنا إشتقاقاً واضحاً و هو الوزر و جوَّزوا أن كون لي وزيراً مفعولين لأجعل، و هارون بدل أو عطف بيانٍ، و أن يكون وزيراً و هارون مفعوليه و قدَّم الثّاني إعتناءً بأمر الوزارة، و أخي بدل من هارون في هذين الوجهين، و فى قوله: **مِنْ أَهْلِي** إشارة إلىٰ أن يكون الوزير من أهل بيت موسى و لذلك قال بعد هذا الكلام هارون أخى.

السّادس: قوله: **هٰرُونَ أَخِي** قيل كان هارون أكبر من موسى بأربعة أعوام و هو أخوه من أمّه و أبيه و مات قبل موسى في التِّيه.

السّابع: قوله: **اُشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي الأزر** بفتح الهَمَزة الظَّهر يقال أزرني فلان على أمري أي كان لي ظهراً و منه المئزر لأنّه يشّد على الظَّهر و قيل يجوز أن يكون أزر، لغة في وزر و هو ضعيف و فى هذا الكلام إشارة إلىٰ أنّ الأخ يشّد به الظَّهر لا غيره من الأقرباء و لذلك قيل في موت الأخ الآن إنكسر ظهري و قلَّت حيلتي و لا يقال هذا الكلام في موت غيره من الأقرباء حتّى الأولاد.

الثّامن: قوله: **وَ أَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي** بالأمر النّبوة أي أشركه في نبوّتي و كان هارون كذلك لو بقي بعد موسى إلاّ أنّه مات قبله و لمّا طلب موسى من ربّه ما سأل قال كما حكى اللّه عنه **كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا** فهذا الكلام منه بمنزلة العلّة كأنّه قيل لم سألت من ربّك ما سألت فقال كي نسبّحك كثيراً و نذكرك كثيراً، أي أنّما سألت ربّي ذلك لأجل التّسبيح و الذِّكر، فالتّسبيح هو التَّنزيه للّه عمّا لا يجوز عليه من وصفه بما لا يليق به فكلّ شئٍ عظم به اللّه بنفي ما لا يجوز عليه فهو تسبيح مثل قوله سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلاّ اللّه و اللّه أكبر، و قوله **وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا** معناه نذكرك بحمدك و الثّناء عليك لما أوليتنا من نعمك و مننت به علينا من يحتمل رسالتك قاله في التّبيان.

أقول قدَّم التّسبيح لأنّه تنزيهه تعالىٰ في ذاته و صفاته عمّالا يـليق بـجنابه و براءته عن النّقائص و محلّ ذلك القلب و أمّا الذِّكر و الثّناء علىٰ اللّـه بـصفات الكمال و محلّه اللِّسان فلذلك قدَّم ما محلّه القلب على ما محلّه اللّسان كثيراً، قوله: **كَثِيرًا** نعتٌ لمصدر محذوفٌ أو منصوبٌ على الحال أي نسبّحك التّسبيح في حال كثرتهم على ما ذهب إليه سيبويه و قوله: **إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا** أي أنّك عالم بأحوالنا و أمورنا و لا يخفى عليك شئ منها إذا عرفت هذا فنقول:

روىٰ الحافظ الحسكاني في الشّواهد التّنزيل بأسناده عن حذيفة إبن أسيد قال، أخذ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بيد علّي بن أبي طالب فقال، أبشر أبشر أنّ موسى دعا ربّه أن يجعل له وزيراً من أهله هارون و أنّي أدعو ربّي أن يجعل لي وزيراً من أهلي علّيُ أخي أشدد به ظهري و أشركه في أمري إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن أسماء بنت عميس تقول سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول اللّهم أنّي أقول كما قال أخي موسى اللّهم وَ **ٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي** علّياً أخي أشدد به أزري و أشركه في أمري إلى قوله: **كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا** إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن أسماء بنت عميس قالت: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أقول كما قال أخي موسى **رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْلِيَ أَمْرِي وَ ٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي** علّياً أخي إنتهىٰ.

و بأسناده عنها قالت سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول: اللّهم أنّي أقول كما قال موسى بن عمران اللّهم وَ **ٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي** علّي بن أبي طالب أشدد به أزري يعني ظهري و أشركه في أمري و يكون لي صهراً و ختناً إنتهى.

أقول و روى أبي المغازلي الشّافعي بأسناده عن عكرمة عن إبن عبّاس قال فأخذ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بيد علّي فصّلى أربع ركعات ثمّ رفع يده إلى السّماء فقال اللّهم سألك موسى بن عمران و أنا محمّد أسألك أن تشرح لي صدري و تيّسر لي أمري و تحلّل عقدةٍ من لساني يفقهوا قولي وَ ٱجْعَلْ لي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي علّياً أشدد به أزري و أشركه في أمري فقال إبن عبّاس سمعت منادٍ ينادي ياأحمد قد أوتيت ما سألت فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يا أبا الحسن أرفع يدك إلى السّماء و أدع ربّك و إسأله يعطيك فرفع علّيٌ يده إلى السّماء و هو يقول اللّهم إجعل لي عندك ودّاً فأنزل اللّه على نبيّه، أنّ ٱلّذينَ ءامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ سيجعل لهم الرّحمن ودّاً فتلاها النّبي صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ أصحابه فعجبوا من ذلك عجباً شديداً فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ممّ تعجبون أنّ القرآن أربعة أرباع فربعٌ فينا أهل البيت خاصّة و ربعٌ حلال و حرامٌ، و ربعٌ فرائض و أحكامٌ، و اللّه أنزل في علّيٌ كرائم القرآن إنتهى.

و روى في الدّر المنثور و هو من أحسن التّفاسير عند العامّة بأسناده عن أبي جعفر بن علّي عليه السلام قال: لمّا نزلت وَ ٱجْعَلْ لي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هارون أخي أشدد به أزري، كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم على جبلٍ ثمّ دعا ربّه و قال اللّهم أشدد أزري بأخي علّيٍ فأجابه إلى ذلك إنتهى[١].

و الأحاديث من طرق العامّة في الباب كثيرة و أمّا الخاصّة أعني بها الشّيعة فالمؤاخات عندهم من المسلّمات فلا نحتاج إلى ذكر أحاديثهم في المقام

روى في المناقب عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري أنّه قال سمعت علّياً ينشد و رسول اللّه يسمع:

١– ج ٤ ص ٢٩٥

أنا أخو المصطفیٰ لا شّك في نسبی معه ربيت و سبطاه هما ولدي
جدّي و جدّ رسول اللّه منفردُ وفاطم زوجتي لا قول ذي فندٍ
والحمد للّه شكراً لا شريك له البّر بالعبد و الباقي بلا أحدٍ

قال جابر فتبَّسم رسول اللّه ﷺ و قال صدقت إنتهی.

و لنعم ما قيل:

علّيٌ أخوه المصطفی قد رويتم و شيخاً كما قد قلتما أخوانُ

■

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرٰىٓ ﴿۳۶﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلٰىٓ
أُمِّكَ مَا يُوحٰىٓ ﴿۳۷﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ
فَاقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ
عَدُوٌّلِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى وَ
لِتُصْنَعَ عَلٰى عَيْنِىٓ ﴿۳۸﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ
هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلٰى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلٰىٓ أُمِّكَ
كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ
مِنَ ٱلْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ
مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلٰى قَدَرٍ يَا مُوسٰى ﴿۳۹﴾ وَ
ٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿۴۰﴾ ٱذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ
بِاٰيَاتِى وَ لَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿۴۱﴾ إِذْهَبَآ إِلٰى
فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغٰى ﴿۴۲﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشٰى ﴿۴۳﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ
يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَنْ يَطْغٰى ﴿۴۴﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ
إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَ أَرٰى ﴿۴۵﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا
رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ وَ لَا
تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِاٰيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ ٱلسَّلَامُ عَلٰى
مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدٰىٓ ﴿۴۶﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ
ٱلْعَذَابَ عَلٰى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلّٰى ﴿۴۷﴾ قَالَ فَمَنْ
رَبُّكُمَا يَا مُوسٰى ﴿۴۸﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطٰى كُلَّ
شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدٰى ﴿۴۹﴾

◀ اللّغة

ٱقْذِفِيهِ: القذف الطَّرح.
فِى ٱلْيَمِّ: اليَّم بفتح الياء و سكون الميم المشدّدة البحر، و المراد به هنا النيل.
لِتُصْنَعَ: أي يتغذى.
فَتَنَّاكَ فُتُونًا: أي إختبرناك إختباراً.
فَلَبِثْتَ: أي أقمت يقال لبث في قومه مدّة أي أقام فيهم.
وَ ٱصْطَنَعْتُكَ: أي إصطفيتك.
وَ لَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى: أي لا تغتر، يقال ونىٰ في الأمر يني إذا فتر فيه.

◀ الإعراب

إِذْ أَوْحَيْنَآ هو ظرف، لمنّنا ٱقْذِفِيهِ أن مصدريّة بدلاً من، ما يوحىٰ و يجوز أن تكون بمعنى، أي، فَلْيُلْقِهِ أمر للغائب و مِنِّى تتعلّق، بألقيت و يجوز أن تكون نعتاً لمحبّة أي لتحبّ و لتصنع إِذْ تَمْشِىٓ بدل من، إذ الأولى و التّقدير أذكر إذ تمشى فُتُونًا مصدر مثل القعود و يجوز أن يكون جمعاً تقديره بفتونٍ كثيرةٍ عَلَىٰ قَدَرٍ حال أي موافقاً لما قدر لك خَلْقَهُ مفعول أوّل كُلَّ شَىْءٍ ثانٍ أي أعطى مخلوقه كلّ شئٍ و قيل هو على وجهه و المعنىٰ أعطى كلّ شئٍ مخلوق خلقه أي هو الّذي إبتدعه، و يقرأ، خلقه، على الفعل و المفعول الثّاني محذوف للعلم به.

◀ التّفسير

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ

لمّا أخبر اللّه تعالى موسى بأنّه قد أتاه ما طلبه و أعطاه سؤله في قوله: **قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰا مُوسىٰ**[١] أشار إلى ما تقدّم من نعمه عليه و مننه لديه فقال ولقد مننّا عليك مرّةً أخرى و هى حفظه عن القتل حين الولادة.

١- طه = ٣٦

و قال بعضهم المعنى أعطيت طلبتك و ما سألته من شرح الصّدر و تيسير الأمر و حلّ العقدة و جعل أخيك وزيراً و ذلك من المنّة عليه ثمّ ذكر اللّه تعالى تقديم منّةٍ أخرى عليه علىٰ سبيل التّوقيف ليعظم إجتهاده و تقوّي بصيرته و قوله: **مَرَّةً** معناه، منّة، كأنّه قال منّةً أخرى، و أخرى، تأنيث أخر بمعنى، غير، أي منّةٍ غير هذه المنّة وليست أخرى، بمعنى، أخرة فتكون مقابلة للأولى و تخيل ذلك بعضهم فقال سمّاها أخرى و هى أولى، لأنّها أخرى في الذِّكر، و الأخرى لفظٌ مشترك يكون تأنيث الأخر بفتح الخاء و تأنيث الأخر بمعنى الأخرة (أخرة) فهذه يلحظ فيها معنى التّأخر و المعنى إنّي قد حفظتك و أنت طفلٌ رضيعٌ فكيف لا أحفظك و قد أهلّتك للرّسالة ففي قوله: **مَرَّةً أُخْرَىٰ** إجمالٌ يفسّره قوله: **إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ**.

أقول لا يحتاج الكلام إلى هذا التّفصيل و ذلك لأنّ اللّه تعالى قد منَّ على موسى مرَّتين، مرَّة في حال الطفوليّة على ما سبق شرحه و مرَّة بعد النّبوة فقوله و لقد منَّنا عليك مرَّةً أخرى، أي في حال الطُّفوليّة كما قال تعالى: **إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ** قال الجمهور الوحي هنا وحي إلهام كقوله: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ**[١] و قيل وحي إعلامٍ إمّا بإراءة ذلك في منامٍ و إمّا ببعث ملك إليها لا على جهة النّبوة كما بعث إلى مريم و هذا هو الظّاهر، لظاهر قوله يأخذه عدوٌّ لي و عدوٌّ له و لظاهر قوله في سورة القصص: **إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ**[٢] و حيث أنّ في قوله ما يوحى إبهام و إجمال فسّره بقوله:

أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّلِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى وَ لِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِىٓ

أي أوحينا إلى أمّك أن أقذفيه في التّابوت و القذف الطّرح.

قال الزّمخشري (أن) هي المفسّرة لأنّ الوحي بمعنى القول، و قال إبن

١- النحل = ٦٧ ٢- القصص = ٧

عطيّة هي أي أن، بدل من، ما، يعني أنّها مصدريّة فلذلك كان لها موضع من الإعراب و الوجهان سائغان و الظّاهر أنّ التّابوت كان من خشب و قيل من برديٰ شجر مؤمن آل فرعون سدّت خروقه و فرشت فيه نطعاً و قيل قطناً محلوجاً و سدّت فمه و جصّصته و قيّرته و ألقته في اليّم و هو إسمٌ للبحر العذب و المراد به في المقام النيل و أمّا القول بأنّه إسمٌ للنيل خاصّة فلا دليل عليه و لا ساعدته اللّغة و الضّمير في قوله أقذفيه في اليّم عائد على موسى أي أوحينا إلى أمّك أن أقذفيه أي أقذفي و أطرحي موسى في النيل و كذلك الضّميران بعده و ذلك لأنّ موسى هو المحدّث عنه لا التّابوت و أنّما ذكر التّبوت على سبيل الوعاء.

قال الزّمخشري و الضّمائر كلّها راجعة إلى موسى و رجوع بعضها إليه و بعضها إلى التّابوت فيه خجنة لما يؤدّي من تنافر النّظم و قال بعض المفسّرين الضّمير الأوّل فى أقذفيه، عائد على موسى و فى الثّاني عائدٌ على التّابوت.

أقول هذا بحثٌ لا فائدة فيه إذ لا فرق بين عود الضّمير على موسى و عوده على التّابوت إذ المراد بالتّابوت هو التّابوت الّذي فيه موسى لا نطلق التّابوت فالمحدَّث عنه هو موسى لا التّابوت فأنّه فضلة في المقام.

و قوله: **فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِالسَّاحِلِ** هو جزاء و خبر أخرج مخرج الأمر و التّقدير فأطرحيه في اليّم فليلقه اليّم بالسّاحل روي أنّ فرعون كان يشرب في موضع من النّيل إذ رأى التّابوت فأمر به رفيق إليه و إمرأته معه فرأوه فرحمته آسية إمرأة فرعون و طلبته لتتّخذه إبناً فأباح لها ذلك و روي أنّ التّابوت جاء في الماء إلى المشرعة التّي كانت جواري إمرأة فرعون تستعين منها الماء فأخذت التّابوت و جلبته إليها و أعلمته فرعون و العدّو الّذي للّه و لموسى هو فرعون كما قال تعالى: **يأخذه عَدّوٌ لي وعَدّوٌ له** أمّا أنّه كان عدّواً للّه فهو ظاهر لأنّه كان يدّعي الألوهيّة في قوله أنّا ربّكم الأعلى، و بعبارةٍ أخرى أنّه أنكر الألوهيّة للّه تعالى و لا نعني بالعدّو إلاّ هذا و أمّا كونه عدّوٌ لموسى أي سيكون له عدّواً في

المستقبل و قد ثبت أنّ المستقبل إذا كان محقّق الوقوع فهو في حكم الماضي فصّح أن يقال أنّ فرعون عدوٌّ له حتّى قبل ولادة موسى و بعبارةٍ أخرى أنّه عدّوٌ له في العاقبة فكذا في الحال إلاّ أنّه لا علم به قال اللّه تعالى: **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا**[١] و قد أجمع المفسّرون على أنّ اللاّم في، ليكون، لام العاقبة أي إلتقطه آل فرعون من الماء ليكون لهم عدّواً في المستقبل و فرعون و من تبعه لم يعلموا به إذ لو علموا به لقتلوه فهو عدّوٌ لموسى واقعاً و موسى عدّوٌ له لكفره و عناده و سيأتي تفصيل الكلام في سورة القصص.

و قوله: **وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنّى وَ لِتُصْنَعَ عَلٰى عَيْنِيٓ** أي جعلتك محبوباً عند فرعون و آسية قيل كان فرعون قد أحبَّه حبّاً شديداً حتّى لا يتمالك أن يصبر عنه و قال إبن عبّاس أحبَّه اللّه و حبّبه إلى خلقه.

و قال قتادة كان في عينيه ملاحة ما رأه أحد إلاّ أحبَّه.

و قال الزّمخشري، منّي، لا يخلوا إمّا أن يتَّعلق بألقيت فيكون المعنى أحببتك و من أحَّبه اللّه أحَّبته القلوب و إمّا أن يتَّعلق بمحذوف هو صفة لمحَّبته أي محَّبةً خالصةً أو واقعةً منّي قد ركزّتها أنا فيها في القلوب و زرعتُها فيها فلذلك أحَّبك فرعون وكلّ من أبصرك.

أقول و نظير ذلك قول رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم في الحسين الشّهيد عليه السلام أنّ للحسين محّبةً في القلوب مكنونة و السِّر في ذلك أنّ القلوب بيد اللّه فهو الّذي يقلِّبها كيف يشاء كما يقال يا مقَّلب القلوب و الأبصار، و لا فرق في ذلك بين قلب فرعون و غير فرعون فأنّ الكُّل مخلوق له فقلوبهم بيده و قوله: **لِتُصْنَعَ** قرأ الجمهور بكسر اللاّم كي، و ضّم التّاء و نصب الفعل أي و لتربى، و يحسن إليك و قوله: **عَلٰى عَيْنِي** أي أنا أراعيك و أراقبك كما يراعي الرّجل الشّئ بعينيه إذا إعتنى به فالمعنى إنّي ألقيت في قلب فرعون محّبةً بالنّسبة إليك لتصنع أي

١- القصص = ٨

لكي تصنع على عيني أي تغّذي على محّبتي و إرادتي تقديره و أنا أراك يقال صنعت الفرس إذا أحسنت إليه و قرئ و لتصنع بإسكان اللاّم و العَين و ضّم التّاء فعل أمرٍ، و قوله: **عَلٰى عَيْنِيٓ** أي على مرئى و منظري و هو كناية عن مراقبة اللّه إيّاه ثمّ أنّ وجه المنّة في هذه الآية من جهات:

الأولىٰ: إلقاء محّبة موسى في قلب القابلة حين ولادته.

والثّانى: إلهامه تعالى الى قلب أمّه في جعلها الطِّفل في التّابوت و طرحه في الماء.

الثّالث: إلقائه اليّم بالسّاحل و حفظه من الغرق.

الرّابع: إلقاء المحّبة في قلب فرعون و آسية ليصنعا به ما صنعا من التَّغذية و إظهار و غير ذلك و لا شكّ أنّ هذه الأمور من أحلى مصاديق النِّعم في حقّه.

إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلٰى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنٰاكَ إِلَىٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهٰا وَ لاٰ تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنٰاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَ فَتَنّٰاكَ فُتُونًا

إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ، قيل إسمها مريم و سبب ذلك أنّ آسية عرضته للرُّضاع فلم يقبل موسى إمرأة فجعلت تنادي في المدينة و يطاف به و يعرض للمراضع فيأبى و بقيت أمّه بعد قذفه في اليّم مغمومة فأمرت أخته بالتَّفتيش في المدينة لعَّلها تقع على خبره فبصرت به في طوافها فقالت أنا أدلّكم على من يكفله و له ناصحون فتّعلقوا بها و قالوا أنت تعرفين هذا الصَّبي فقالت لا ولكن أعلم من أهل هذا البيت الحرص على التَّقرب الى الملكة و الجِّد في خدمتها و رضاها فتركوها و سالوها الدّلالة فجائت بأمّ موسى فلّما قرّبته شرب ثديها فسّرت آسية و قالت لها كوني معي في القصر فقالت ما كنت لأدع بيتي و ولدي و لكّنه يكون عندي قالت نعم فأحسنت آسية الى أهل ذلك البيت غاية الإحسان و الى هذا أشار اللّه تعالى بقوله: **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلٰى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنٰاكَ إِلَىٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهٰا** برؤيتك، و لا تحزن، بفراقها إيّاك قيل أنّ

بني‌إسرائيل إعتزّوا بهذا الرّضاع و النّسب من الملكة و لمّا كمل رضاعه أرسلت آسية الى أمّ موسى أن جيئيني بولدي ليوم كذا و أمرت خدمها و من لها أن يلقينه بالتّحف و الهدايا و اللّباس فوصل اليها على ذلك و هو بخير حالٍ و أجمل شبابٍ فسّرت آسية به و دخلت به على فرعون ليراه و ليهبه فأعجبه و قرّبه فأخذ موسى بلحية فرعون يوماً من الأيّام و قد تقدّم الكلام فيه عند ذكر العقدة، و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنٰاكَ** فقد مرّ الكلام فيه أيضاً و قلنا أنّه قتل رجلاً من القبط و سيأتي الكلام فيه عند قوله تعالىٰ:

وَ دَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلٰى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهٰا فَوَجَدَ فِيهٰا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاٰنِ هٰذٰا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هٰذٰا مِنْ عَدُوِّهِ[١].

و قوله: **وَ فَتَنّٰاكَ فُتُونًا** قيل معناه إختبرناك إختباراً، فأنّ الفتنة الإختبار و قيل الفتنة المحنة و ما يشّق على الانسان و عن إبن عبّاس أنّه قال أي خلّصناك من محنةٍ بعد محنةٍ و أمّا الغم في قوله: **فَنَجَّيْنٰاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ** فقيل أي من القَتل فأنّ الغّم بلغة قريش القتل و قيل من غّم التّابوت و قيل من غّم البحر و الظّاهر أنّ المراد به غّم القتل حين قتل القبطي فخرج من المدينة خائفاًظاهر.

فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلٰى قَدَرٍ يٰا مُوسٰى لمّا قتل موسى قبطياً في المدينة و أخبر فرعون به همَّ بقتل موسى فخرج منها خائفاً يتّرقب حتّى دخل على شعيب النّبي على ما مرَّ بيانه و أجر نفسه عشر سنين و هذا هو المراد بقوله: **فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ** و قال وهب ثمان و عشرون سنة منها مهر إبنته و بين مصر و مدين ثمان مراحل قيل في الكلام حذفٌ و التّقدير و فتّناك فتوناً، فخرجت خائفاً إلى أهل مدين فلبثت سنين قيل و كان عمره حين ذهب إلى مدين أثنى عشر عاماً و أقام عشرة أعوام في رعي غنم شعيب ثمّ ثمانية عشر عاماً بعد بناءه بإمرأة بنت شعيب و ولد فيها فكمل له أربعون سنة و هى المدّة التّي عادة اللّه إرسال الأنبياء علىٰ رأسها.

١- القَصَص = ١٥

ثُمَّ جِئْتَ عَلٰى قَدَرٍ يَا مُوسٰى أي جئت إلى المكان الّذي ناجيتك فيه و كلّمتك و إستنبأتك و قوله: **عَلٰى قَدَرٍ** قيل أي وقت معيّن قدّرته لم تتقّدمه و لم تتأّخر عنه و قيل على مقدارٍ من الزّمان بوحيٍ إلى الأنبياء فيه و هو الأربعون قال الشّاعر:

نال الخلافة أو جائت على قدر   كما أتى ربّه موسى على قدرٍ

قال الجبائي معنى قوله: **وَ فَتَنَّاكَ فُتُونًا** أي شدَّدنا عليك التَّعب في أمر المعاش حتّىٰ رعيت لشعيب عشر سنين، و يؤكّده قوله: **فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ** و هى مدينة شعيب، و قال إبن عبّاس معناه إختبرناك بأشياء:

أوّلها: حملته أمّه في السَّنة الّتي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثمّ إلقائه في اليّم، ثمّ منعه من الرّضاع إلاّ من ثدي أمّه، ثمّ جرّه بلحية فرعون، ثمّ تناوله الجمرة بدل الدُّرة فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثمّ قتله القبطي و خروجه خائفاً يترّقب، ثمّ رعايته الغنم ليتّدرب بها على رعاية الخلق فيقال أنّه ندٌّ له من الغنم، جدي، فأتبعه أكثر النّهار و أتعبه ثمّ أخذه فقبّله و ضمّه إلى صدره و قال له أتعبتني و أتعبت نفسك ولم يغضب عليه و لهذا إتّخذه اللّه كليماً فهذه هذ الفتون التّي أشارت الآية بها و قوله: **فَلَبِثْتَ سِنِينَ** يريد عشر سنين أتّم الأجلين (**ثُمَّ جِئْتَ عَلٰى قَدَرٍ يَا مُوسٰى**) يريد موافقاً للنبوة و الرّسالة.

و قال الرّازي في المقام فلابدّ من حذف الكلام لأنّه على قدر أمرٍ من الأمور و ذكروا في ذلك المحذوف وجوهاً:

أحدها: أنّه سبق في قضائي و قدري أن أجعلك رسولاً لي في وقتٍ معيّنٍ عنّيته لذلك فما جئت إلاّ على ذلك القدر لا قبله و لا بعده و منه قوله: **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**[١].

ثانيها: على مقدارٍ من الزّمان يوحى فيه إلى الأنبياء و هو رأس أربعين سنة.

١- القمر = ٤٩

ثالثها: القدر هو الموعد فأن أثبت أنّه تقدّم هذا الموعد صحّ حمله عليه و لا يمتنع ذلك الإحتمال أنّ شعيباً عليه السلام أو غيره من الأنبياء كانوا قد عيّنوا ذلك الموعد إنتهى.

أقول القَدَر بفتح القاف و الدّال مصدر مبلغ الشّيء الطّاقة و القوّة ما يقدّره اللّه من القضاء و يحكم منه، تعلّق الإرادة بالأشياء في أوقاتها أقدار قاله بعض أهل اللّغة و قال بعضهم القدر ما صدر مقدوراً عن فعل القادر **والقدر** بفتح القاف و سكون الدّال ما يقدّره اللّه من القضاء.

و قال في المنجد **القَدر** بسكون الدّال مصدر مبلغ الشّيء مساوياً لغيره بلا زيادةٍ و لا نقصانٍ يقال هذا قدر ذلك، أي مماثله و مساوٍ له إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ القدر و القدر معناهما واحد و الفرق بالإعتبار فإذا إعتبرت شيئاً بالقياس إلى شيء أخر كما تقول هذا مساوٍ لذاك في الوزن مثلاً أو في المساحة أو في القيمة و إذا إعتبرت بالقياس إلى ما قدّر له بقضاء اللّه فتقول هذا على قدرٍ أي مطابقٍ لما قدّره الّه و توضيحه إجمالاً أنّ للّه تعالى قضاءٌ و قدر فالقضاء نفس الحكم و 'القدر حدّ الحكم و أن شئت قلت ظرف الحكم و إختلفوا في تقديم أحدهما على الأخر.

فقال بعض الفلاسفة القضاء مقدّمٌ على القدر و قال الأخرون بالعكس الحقّ لأنّ الحكم ينبغي أن يكون ناظراً إلى المحكوم عليه و هذا هو مقتضى العقل و العدل فلا يجوز عقلاً أن يحكم على شيءٍ بأيّ نحوٍ كان ألا ترى أنّ اللّه تعالى يقول في كتابه: **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**(١) فقوله: **إِلَّا وُسْعَهَا** يُعبّر عنه بالقَدَر و على هذا فالحقّ أنّ القدر مقدّمٌ على الحكم أي أنّ اللّه تعالى يحكم على العبد على قدر سعته و قدرته و من المعلوم أنّ تعيين الوسع مقدّم على الحكم:

قال اللّه تعالىٰ: **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**(٢).

١- البقرة = ٢٨٦
٢- البقرة = ١٨٣

فهذا حكمٌ منه تعالى أمر اللّه عباده بالصيّام:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ**(٢).

و غيرها من الواجبات و المستّحبات ثمّ وضع اللّه عنهم الصَّوم في السّفر و فی حالة المرض مثلاً و هذا الحكم مطابق للقدر أي أنّ اللّه تعالى علم قبل الحكم أنّ المريض لا يقدر على الصَّوم و الفقير لا يقدر على الحجّ بمعنى أنّه يقع في مشّقةٍ فخصّ الحكم بمن لا يكون كذلك و هذا أي تخصيص الحكم بمن يقدر عليه يسمّى بالقدر ثمّ أنّ العبد قد يكون حمله موافقاً للقدر مطابقاً له و قد لا يكون و ذلك لأنّه مختارٌ في فعله إن شاء فعل و إن شاء ترك فأن فعل ما أمر به وقع الفعل على ما قدّر له و أن شئت قلت وقع على قدرٍ و إلاّ فلا و الأصل فيما ذكرناه أنّ القضاء و القدر في الأحكام التّشريعية غيرهما في التّكوينيات معنى و ذلك لأنّ القضاء و القدر في التّكوينيات لا إختيار للعبد فيها بخلاف الشتّريعيات فهما في التّكوين على أساس الجبر و القهرالتّشريع على أساس إختيار العبد و عدم إختياره ألا ترى أنّ العبد يخلق و يوجد في الدنيّا بغير إختياره و إرادته و لا يصلّي و لا يصوم بغير إختياره و لذلك نقول أنّ التّكوينيات مطابقة للقضاء و القدر و لا تخلّف فيها و أمّا التّشريعيات فليست كذلك لأنّ إختيار العبد واسطة بين الأمر و الفعل و لو كان الأمر في التّشريعيات و التّكوينيات على حدًّ سواء لزم الجبر و ملخّص الكلام هو أنّ القضاء و القدر في التّكوينيات على أساس الجبر و القهر و فی التّشريعيات على أساس الإختيار الثّابت للعبد فالعبد غير مجبور في فعله و على هذا فالعبد المأمور أن كان عمله مطابقاً لما قضى اللّه عليه و قدَّر أي حكم به فهو جاء على قدر و إلاّ فلا إذا عرفت هذا و تأمَّلت فيه حقّ التّأمل فلنرجع إلى تفسير قوله: **ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ**.

١- البقرة = ٤٣ ٢- آل عمران = ٩٧

و نقول أنّ اللّه تعالى قدّر لموسى النّبوة و الرّسالة في الأزل لأنّه علم أنّ موسى يقدر على أداء وظيفته و ليست النّبوة من الأمور الشّاقة الخارجة عن قدرة البشر ثمّ قضى على هذا التّقدير تشريعاً لا تكويناً فهذا من جانب اللّه و أمّا موسى فأن كان أعماله التّي تصدر منه بإختياره و إرادته تنطبق على ما يليق بشأن الرّسول فقد جاء بما قدّر له و قضي به و حيث أنّ موسى كان كذلك فلا جرم جاء بأعماله على قدرٍ فهو نبيٌ بلا كلام و أنّما قلنا جاء بأعماله على قدرٍ لأنّ اللّه تعالى إختبره و إمتحنه كما قال: **وَ فَتَنَّاكَ فُتُونًا**، هذا ما خطر ببالي في تفسير كلام اللّه و لم أر في كلمات المفسّرين ما يكشف القناع عن كلام اللّه فأفهم و إغتنم.

و إلى ما ذكرناه أشار اللّه بقوله: **وَ اَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى** أي إصطفيتك و إخترتك من بين عبادي و من المعلوم أنّ الإصطفاء و الإختيار بعد الإختبار و الإمتحان.

قال بعض المفسّرين أي إخترتك لكلامي، و الحقّ أنّ تقييد الكلام لا وجد له فأنّ كونه كليماً للّه تعالى من مصاديق الإصطفاء و هو ظاهر و قال بعضهم معناه أخلصتك بالألطاف التّي فعلتها بك إخترت عندها الإخلاص لعبادتي و المعنى واضح لا خفاء فيه فأنّ من وصل إلى مقام القرب كما قال تعالى: **وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا** واجدٌ لجميع مراتب الكمال فأنّ كلّ الصّيد في جوف الفرا.

قال الرّاغب في المفردات الإصطناع المبالغة في إصلاح الشّئ وقوله **وَ اَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى** إشارة إلى نحو ما قال بعض الحكماء، أنّ اللّه تعالى إذا أحبَّ عبداً تفَّقده مكا يتَّفقد الصّديق صديقه.

و قال بعض المفسّرين، و إصطنعتك لنفسي، أي جعلتك موضع الصَّنيعة و مقّر الإكمال و الإحسان و أخلصتك بالألطاف و إخترتك لمحبّتي يقال إصطنع فلان فلاناً إتَّخذه صنيعة و هو إنتقال من الصُّنع و هو الإحسان إلى الشّخص حتّى يضاف إليه فيقال هذا صنيع فلان إنتهى.

و قال في معنى **لِنَفْسِي**، أي لأوامري و إقامة حججي و تبليغ رسالتي فحركاتك و سكناتك لي لا لنفسك و لا لأحدٍ غيرك.

و قال الزّمخشري هذا تمثيل لما خوَّله من منزلة التّقريب و التّكريم و التّكليم مثل حاله بحال من يراه الملوك بجميع خصال فيه و خصائص أهلاً لأن يكون أقرب منزلة إليه و ألطف محلاً فيصطنعه بالكرامة و الإثرة و يستخلصه لنفسه إنتهى كلامه.

اِذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِاٰيَاتِي وَ لَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي

الوني الفتور يقال ونى في الأمر بني إذا أفتر فيه، و هو فعل لازم و إذا عدّي فبعن و بفي و زعم بعض الأدباء أنّه يأتي فعلاً ناقصاً من أخوات ما زال و بمعناها و هو ضعيفٌ فقوله: **وَ لَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي** أي لا تفتريا، أمر اللّه تعالى موسى و هارون بالذّهاب إلى فرعون و أنّما أشرك هارون معه في الذّهاب إلى فرعون لأنّه أي موسى دعا ربّه و طلب منه أشياء كان فيها أن يشرك أخاه هارون في قوله: **وَ أَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي**(١) فذكر اللّه أنّه أتاه سؤله في قوله: **قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ**(٢) و كان عند إشراك أخيه فأمره هنا و أخاه بالذّهاب و أخوك، معطوفٌ على الضّمير المستّكن في، إذهب، قيل أنّ اللّه أوحى إلى هارون و هو بمصر أن يتّلقى موسى و قيل سمع بمقدمه و قيل لهم ذلك و قوله بأياتي، ظاهره الجمع فقيل هي العصا و اليد و عقدة لسانه، و قيل اليد و العصا و قد يطلق الجميع على المثّنى و هما اللّتان تقدَّم ذكرهما و قيل العصا مشتملة على الأيات، لأنّها إنقلبت حيواناً صغيراً في أوّل الأمر ثمّ عظم حتّى صار ثعباناً ثمّ إدخال موسى يده في فمها فلا يضُّره و قيل ما أعطي من معجزةٍ و وحي و قوله: **وَ لَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي** أي لا تضعفا و لا تقصرا و المراد بالذّكر تبليغ

١- طه = ٣٢
٢- طه = ٣٦

الرّسالة فأنّ الذّكر يقع على سائر العبادات و تبليغ الرّسالة من أجلّها و أعظّمها فكان جديراً أن يطلق عليه إسم الذّكر.

إِذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ

أي عتا و خرج عن الحدّ في المعاصي و فى رأسها إدّعاء الألّوهية في قوله: **أَنا رِبّكُم الْأَعلىٰ**.

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ

أمر اللّه تعالى موسى و هارون بالذّهاب الى فرعون و أن يقولا له **قَوْلًا لَّيِّنًا**، اللّين ضدّ الخشونة و يستعمل ذلك في الأجسام ثمّ يستعار للخلق و غيره من المعاني فيقال فلانٌ ليّن و فلانٌ خشنٌ أمرهما اللّه بذلك لأنّ الدّعوة الى الحقّ إذا كانت بخشونةٍ لا تنفع و لا تؤثّر في قلب المخاطب بل توجب تنفّر الطّبع ولو كان الكلام حقّاً و هذا أمرٌ أمرٌ محسوسٌ:

قال اللّه تعالىٰ: **أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**[1].

و قيل القول اللّين، لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له ولينها خفتّها على اللّسان و قال الحسن هو قولهما أنّ لك ربّاً و أنّ لك معاداً و أنّ بين يدك جنّة و ناراً فآمن باللّه يدخلك الجنّة و يقك عذاب النّار.

و قيل أمرهما تعالى أن يعدّ المواعيد على الوعيد كما قال الشّاعر:

أقدّم بالوعد قبل الوعيد لينهي القبائل جهالها

قيل حين عرض عليه موسى و هارون عليهما السّلام ما عرضا شوار فرعون آسية فقالت ما ينبغي لأحدٍ أن يرُّد هذا فشاور هامان فقال له كنت أعتقد أنّك ذو عقلٍ تكون مالكاً فتصير مملوكاً و ربّاً فتصير مربوباً فأمتنع من قبول ما عرض

١- النّحل = ١٢٥

عليه موسى، و قوله: **لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** قيل التَّرجي بالنِّسبة لهما إذ هو مستحيل وقوعه من اللّه تعالى، و قيل التَّرجي في القرآن ليس على معناه بل معناه، كي، أي كي يتَّذكر أو يخشى، و فائدة إرسالهما اليه مع علمه تعالى بأنّه لا يؤمن، إقامة الحجّة عليه و إزالة المعذرة و قال بعضهم القول اللّين ما حكاه اللّه هنا و هو **فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ** الى قوله: **وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ**.

و قال الفرّاء لعلّ هنا بمعنى، كي، أي كي يتذّكر أو يخشى كما تقول إعمل لعلَّك تأخذ أجرك أي كَي، تأخذ أجرك و أمّا قوله: **يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** فقال صاحب الكشّاف أي يتَّذكر و يتأمّل فيبذل النّصفة من نفسه و الإذعان للحّق أو يخشى أن يكون الأمر كما يصفان فيجُره إنكاره الى الهلكة، و قيل المراد بقوله: **يَتَذَكَّرُ** هو حال فرعون حين إحتبس النيّل فسار الى شاطئه و أبعد و فرَّ ساجداً للّه راغباً أن لا يخجله ثمّ ركب فأخذ النيّل يتبع حافر فرسه فرضاً أن يتَّذكر علم اللّه وكرمه و أن يحذر من عذاب اللّه.

و قيل المعنى إذهبا اليه على رجاءكما و طمعكما و باشرا الأمر مباشرة من يرجو أو يطمع أن يثمر عمله و لا يخيب سعيه و لعلَّ، لتَّرجي المخاطب تارةً و لترجي المخاطب أخرى.

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ

أي لمّا أمرهما بالذّهاب الى فرعون قالا ربّنا أنّنا نخاف أن يفرط علينا فرعون، و الفرط بفتح الفاء السَّبق و التَّقدم و منه الفارط الّذي يتّقدم الواردة و فرس فرط تسبق الخيل قال الشّاعر:

و أستعجلونا و كانوا من صحابتنا ... كما تقدّم فارط الوارد

و في الحديث عن رسول اللّه ﷺ أنا فرطكم على الحوض أي متقدّمكم و سابقكم.

قال الرّاغب في المفردات، فرط إذا تقدَّم تقدّماً بالقصد يفرط و منه الفارط الى الماء أي المتّقدم لإصلاح الدَّلو إنتهى.

فقوله تعالىٰ: **أن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ** معناه أن يتّقدم علينا أو أن يطغى، أي أنّنا نخاف أن يعجّل علينا بالعقوبة و يبادرنا بها قبل دعوتنا أيّاه أو أن يطغى في التّخطي الى أن يقول فيك ما لا ينبغي تجرئةً عليك لإستكباره و إدّعاءه الربّوبية أو من حبّه الرّئاسة أو من قومه القبط المتّمردين و ما قالاه حقّ لا مرية فيه فأنّ المتّكبر الجبّار لا يقبل الحقّ غالباً.

قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَ أَرَىٰ

أي قال اللّه في جواب موسى و هارون، لا تخافا منه، أنّني معكما أي أنصركما فأنّ المعيّة هنا بالنّصرة و العون، أسمع أقوالكما و أرىٰ أفعالكما، و قال إبن عبّاس أسمع جوابه لكما و أرى ما يفعل بكما و هما كناية عن العلم فأنّ اللّه تعالى لا يسمع و لا يبصر بالجارحة لتنزهه عن الجسميّة و الجارحة من شؤن الجسم فقولنا أنّه سميعٌ بصيرٌ معناه أنّه عالم بالمسموعات و المبصرات و من المعلوم أنّ المنصور من اللّه لا يكون مغلوباً أبداً و من كان للّه كان اللّه معه و من كان اللّه معه فهو الغالب بلا كلام بل الحقّ أنّ النّصر الواقعي لا يكون إلاّ منه تعالىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللّٰهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ**(٤).

١- آل عمران = ١٢٦ ٢- الأنفال = ١٠
٣- الرّوم = ٤٧ ٤- يُونس = ١٠٣

قال اللّه تعالىٰ: **كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ**[1].

فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓئِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ

قوله: **فَأْتِيَاهُ** كرّر القول بالإتيان، فقولا، لفرعون **إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ** أي ما جئناك من عند أنفسنا و لكن ربّك أمرنا، و فى قوله ربّك، تحقير له، وإعلام بأنّه مربوب مملوك لا الرَّب كما يدعيه في قوله: **أَنَا رَبُّكُمُ الأعلىٰ** ثمّ بيّنا له ما أرسلا بقولهما **فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓئِيلَ و لا تُعَذِّبْهُمْ** و أنّما قالا ذلك لأنّ فرعون تبعه من القبط كانوا يعذّبون بني‌إسرائيل بأنواع التّكاليف و الأعمال الشّاقة من الحضر و البناء و نقل الأحجار و الصّخرة في كلّ شيءٍ مع قتل الولدان و إستخدام النّساء و غير ذلك ثمّ ذكر ما يدلّ على صدقهما في إرسالهما اليه فقالا: **قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ** و في تكرار الرَّب ما لا يخفى من اللُّطف حيث أنّ التّكرار يؤكّد مربُّوبيته و مقهوريته و أنّه ينبغي أن يتّذكر أو يخشى إذ لا يمكن له الفرار من حكومة اللّه و النّجاة من عذابه إلاّ بالإلتجاء اليه، و المراد بالآية في قوله: **قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ** قيل هي العصا و اليد و لما كانا أي موسى و هارون مشتركين في الرّسالة صحَّ نسبة المجيئ بالآية اليهما و أن كانت صادرة من أحدهما.

أن قلت لم وحِّد، بآية ولم يثّن، و معه آيتان، العصا و اليد.

قلت لأنّ المراد في هذا الموضع تثبيت الدّعوى ببيّنته و برهان فكأنّه قال قد جئناك بمعجزة و برهان و حجّة على ما إدّعيناه من الرّسالة و يحتمل أن يكون المراد جنس الآية و هو قريبٌ ممّا ذكرناه و الحاصل أنّ الآية تشهد بإنّا رسولا ربّك.

1- المجادلة = ٢١

و أمّا قوله: وَ ٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ فالظّاهر أنّه فصلٌ من الكلام فسَّلما على متَّبعي الهدى و فى هذا توبيخٌ له فلم يرد به التَّحية بل معناه من إتَّبع الهدى سلم من عذاب اللّه

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّىٰ

أنّما قال أوحي إلينا ولم يذكر الموحي و هو اللّه تعالى لأنّ فرعون كانت له بادرة فربّما صدر منه في حقّ الموحي ما لا يليق به هكذا قيل و المعنى أوحي إلينا من ربّنا أنّ العذاب في الدُّنيا و الأخرة على من كذَّب الأنبياء و تولّى أي أعرض عن الإيمان.

قال إبن عبّاس هذه أرجى آية في القرآن لأنّ المؤمن ما كذَّب.و تولّى فلا يناله شئ من العذاب:

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ**(٣) والأيات كثيرة.

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ، قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ

قال فرعون، **فَمَنْ رَبُّكُمَا**، الخطاب لموسى و هارون، يا موسى لم يقل يا موسى و هارون لدلالة الكلام عليه فأنّ الخطاب في قوله ربّكما لهما، فأجابه موسى بقوله الّذي حكى عنه، قال، أي قال موسى في جواب فرعون **مَنْ رَبُّكُمَا** ربّنا الّذي أعطى كلّ شيءٍ خلقه، قيل أي صورته الّتي قدّر له، ثمّ هدى،

١- الفرقان = ١١
٢- ص = ١٤
٣- ق = ١٤

أي ثمّ هداه الى شربه و مطعمه و سكنته و منكحه الى غير ذلك من ضروب هدايته قاله مجاهد و قيل معناه أعطى كلّ شيءٍ مثل خلقه من زوجةٍ ثمّ هداه لمنكحه من غير أن رأى ذكراً أتى أنثى قبلٌ ذلك و حذف المضاف و أقام المضاف اليه مقامه و غير ذلك من هدايته هذا على قراءة المشهور و هي فتح الخاء و سكون اللاّم على أن يكون مصدراً و قرأ بعضهم بفتح اللاّم و الخاء على أنّه فعل ماضٍ فقوله: **خَلْقَهُ** على قراءة المشهور مفعول به و على القراءة الأخرى فعل ماضٍ و الضّمير فيه عائد على الشيء و المعنى أنّه تعالى خلق كلّ شيءٍ على الهيئة التّي بها ينتفع و التّي هي أصلح الخلق له ثمّ هداه لمعيشته و منافعه لدينه و دنياه قاله الشّيخ في التّبيان.

أقول الظّاهر أنّ المراد بالهداية في قوله: **ثُمَّ هَدٰى**، الهداية التّكوينية بدليل قوله: **خَلْقَهُ** و المعنى أنّه تعالى هداه تكوينياً إلى ما ينتفع به و يستّضر به من غير تعليم الغير إيّاه و هذا من العجائب التّي تدهش العقول فأنّك إذا تأمّلت في أنواع الموجودات و أصناف المخلوقات ترى الهداية التّكوينية فيها على سبيل الإرتكاز و لنعم ما قال صاحب الكشّاف حيث قال وللّه فى هذا الجواب ما أخصره و ما أبينه لمن ألقى الذّهن و نظر بعين الإنصاف و كان طالباً للحقّ إنتهى.

و قال بعض المفسّرين المعنى أعطى كلّ ما خلق خلقته و صورته على ما يناسبه من الإتقان لم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم و لا خلق البهائم في خلق الإنسان و لكن خلق كلّ شيءٍ فقدّره تقديراً قال الشّاعر:

و له في كلّ شيءٍ خلقةٌ و كذلك اللّه ما شاء فعل

و قال الضّحاك خلقه من المنفعة المنوطة به المطابقة له ثمّ هدى أي يسّر كلّ شيءٍ لمنافعه و مرافقه فأعطى العين الهيئة التّي تطابق الإبصار و الأذن الشّكل الّذي يوافق الإستماع و كذلك الأنف و اليد و الرّجل و اللّسان كلّ واحدٍ منها

قٰالَ فَمٰا بٰالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولىٰ ﴿٥٠﴾ قٰالَ عِلْمُهٰا
عِنْدَ رَبِّي فِي كِتٰابٍ لاٰ يَضِلُّ رَبِّي وَ لاٰ يَنْسَى
﴿٥١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَ سَلَكَ لَكُمْ
فِيهٰا سُبُلاً وَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ
أَزْوٰاجًا مِنْ نَبٰاتٍ شَتّىٰ ﴿٥٢﴾ كُلُوا وَ ٱرْعَوْا
أَنْعٰامَكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِأُولِي ٱلنُّهىٰ ﴿٥٣﴾
مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فِيهٰا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ
تٰارَةً أُخْرىٰ ﴿٥٤﴾ وَ لَقَدْ أَرَيْنٰاهُ آيٰاتِنٰا كُلَّهٰا
فَكَذَّبَ وَ أَبىٰ ﴿٥٥﴾ قٰالَ أَجِئْتَنٰا لِتُخْرِجَنٰا مِنْ
أَرْضِنٰا بِسِحْرِكَ يٰا مُوسىٰ ﴿٥٦﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ
مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لاٰ نُخْلِفُهُ نَحْنُ
وَ لاٰ أَنْتَ مَكٰانًا سُوًى ﴿٥٧﴾ قٰالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ
ٱلزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ ٱلنّٰاسُ ضُحًى ﴿٥٨﴾ فَتَوَلّٰى
فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتىٰ ﴿٥٩﴾ قٰالَ لَهُمْ
مُوسىٰ وَيْلَكُمْ لاٰ تَفْتَرُوا عَلَى ٱللّٰهِ كَذِبًا
فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذٰابٍ وَ قَدْ خٰابَ مَنِ ٱفْتَرىٰ ﴿٦٠﴾
فَتَنٰازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا ٱلنَّجْوىٰ ﴿٦١﴾
قٰالُوا إِنْ هٰذٰانِ لَسٰاحِرٰانِ يُرِيدٰانِ أَنْ يُخْرِجٰاكُمْ
مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمٰا وَ يَذْهَبٰا بِطَرِيقَتِكُمُ
ٱلْمُثْلىٰ ﴿٦٢﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا وَ قَدْ
أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلىٰ ﴿٦٣﴾ قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِمّٰا
أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمّٰا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقىٰ ﴿٦٤﴾ قٰالَ

بَلْ أَلْقُوا فَإِذاٰ حِباٰلُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ
سِحْرِهِمْ أَنَّهاٰ تَسْعٰى ﴿٦٥﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ
خِيفَةً مُوسٰى ﴿٦٦﴾ قُلْنٰا لاٰ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ
ٱلْأَعْلٰى ﴿٦٧﴾ وَ أَلْقِ مٰا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مٰا
صَنَعُوٓا إِنَّمٰا صَنَعُوا كَيْدُ سٰاحِرٍ وَ لاٰ يُفْلِحُ ٱلسّٰاحِرُ
حَيْثُ أَتٰى ﴿٦٨﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قٰالُوٓا اٰمَنّٰا
بِرَبِّ هٰرُونَ وَ مُوسٰى ﴿٦٩﴾ قٰالَ اٰمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ
اٰذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ
فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاٰفٍ وَ
لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنٰآ أَشَدُّ
عَذٰابًا وَ أَبْقٰى ﴿٧٠﴾

◀ اللّغة

ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولٰى: هي الأمم الماضية.

لاٰ يَضِلُّ: بفتح الياء أي لا يذهب.

مَهْدًا: أي مستّقراً.

شَتّٰى: أي متّفرقات.

ٱلنُّهٰى: بضّم النّون جمع نهيّة نحو كسيّة و كسىٰ و النّهية العقل.

أَبٰى: أي إمتنع.

سُوًى: أي عدلاً و قيل أي مستوياً.

فَتَوَلّٰى: أي أعرض.

فَيُسْحِتَكُمْ: السُّحت إستقصاء الشّعر في الحلق معناه يستّأصلكم.

خٰابَ: إنقطع رجاءه.

ٱفْتَرَىٰ: الإفتراء الكذب.

أَسَرُّوا: أي أخفوا.

بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ: أي يذهبا بطريقةٍ أولى العقل و الأشراف و الأنساب.

تَلْقَفْ: أي تبتلع.

◀ الإعراب

عِلْمُهَا مبتدأ عِنْدَ رَبِّى خبره و فِي كِتَٰبٍ معمول الخبر أو خبر ثانٍ أو حال من الضّمير في، عند، لَا يَضِلُّ في موضع جرٍّ صفة لكتابٍ مَهْدًا هو مصدر وصف به شَتَّىٰ جمع شتيت مثل مرضى و مريض و هو صفة لأزواج أو لبنات ٱلنُّهَىٰ جمع نهية و قيل هو مفرد بِسِحْرٍ مِثْلِهِ يجوز أن يتَّعلق، بلنأتينك، و أن يكون حالاً من الفاعلين مَوْعِدًا هاهنا مصدر سُوًى بالكسر صفة شاذّة و يقرأ بالضّم و هو أكثر في الصّفات مَوْعِدُكُمْ مبتدأ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ الخبر إِنْ هَٰذَٰنِ فيه وجوه:

أحدها: أنّها بمعنى نعم، أي نعم هذان لساحران و على هذا فقوله هذان مبتدأ و لساحران الخبر.

الثّانى: أنّ فيها ضمير الشّأن محذوف أي أنّه هذان لساحران، بعدهما مبتدأ و خبر كما مضى القول فيه.

الثّالث: قال الزّجاج التّقدير لهما ساحران فحذف المبتدأ و بقى الخبر.

الرّابع: أنّ الألف علامة التّثنية في كلّ حالٍ و هى لغة لبني الحرث لكنانة و يقرأ، إن، بالتّخفيف و قيل هي مخفّفة من الثّقيلة، و قرأ أبو عمرو، إنَّ هذين، بتشديد، إنّ و نصب هذين وَ يَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ أي يذهبا طريقكم فالباء معديّة كما أنّ الهمزة معديّة صَفًّا حال أي مصطفّين و قيل مفعول به أي أقصد وصّف أعدائكم فَإِذَا هي للمفاجاة حِبَالُهُمْ مبتدأ يُخَيَّلُ حال و قيل هو الخبر أَنَّهَا تَسْعَىٰ بدل منه بدل الإشتمال و يجوز أن تكون في موضع نصب على الحال

(تلقف بالجزم على الجواب و الفاعل ضمير ما، و أنّث لأنّه أراد العصا و يقرأ بضّم الفاء على أنّه حال من العصا أو من موسى و هى حال مقدّرة و تشديد القاف و تخفيفها قراءتان:

◀ التّفسير

قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ

قيل لمّا أجابه موسى بجوابٍ فسكت ولم يقدر فرعون على معارضته فيه إنتقل إلى سؤالٍ أخر و هو ما حال من هلك من القرون الأولى أي الأمم الماضية و كان هذا السّؤال منه معاياة لموسى، و يحتمل أن يكون قصده من هذا السّؤال هو إختبارها أي أنّه سأل موسى عن أخبار الأمم و أحاديثها ليختبر أهما نبيّان أو هما من جملة القصاص الّذين دارسوا قصص الأمم السّالفة و ذلك لأنّ موسى لم يكن له علمٌ بالتّوراة لأنّها أنزلت عليه بعد هلاك فرعون فقال موسى **عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى** و قيل مراده بالسّؤال عنها أنّه أن كان الحقّ ما وصفت فلم عبدوا الأصنام ولم تعبدوا اللّه في الأعصار الماضية، و قيل مراده، مالها لا تبعث و لا تحاسب و لا تجازى فقال موسى علمها عند ربّي أي أنّ هذا سؤالٌ عن الغيب و قد إستأثر اللّه به لا يعلمه إلاّ هو، و قيل لمّا قال موسى أنّا قد أوحي إلينا أنّ العذاب على من كذّب و توّلى، قال فرعون فما بال القرون الأولى فأنّها كذّبت ثمّ أنهم ما عذّبوا و الإحتمالات كثيرة و الحقّ أنّ موسى لمّا قرّر لفرعون أو المبدأ و أنّه الّذي أعطى كلّ شيءٍ ثمّ هدى قال فرعون أن كان ما ذكرت في غاية الظّهور فما بال القرون الأولى نسوه و تركوه و عبدوا الأصنام فلو كانت الدّلالة واضحة كما ذكرت وجب على القرون الماضية أن لا يكونوا غافلين عنها، فقال موسى علمها عند ربّي في كتابٍ لا يضّل ربّي و لا ينسى أي في كتابٍ لا يذهب عليه شيءٍ و العرب تقول لكلّ ما ذهب على الإنسان ممّا ليس بحيوانٍ ضلّه كقولهم فلان ضلَّ منزله أو لباسه إذا أخطأ، فإذا ضلَّ منه

حيوان فيقولون، أضلَّ، بألف يقال أضَّل بعيره أو ناقته أو فرسه بالألف و حاصل المعنى أنّ العلم بالأمم الماضية و حالاتهم و بالجملة العلم بكلّ الكائنات ما مضى و ما يأتي عند ربّي و هو مثبت في كتابٍ و لا يجوز عليه الخطأ و النسّيان كما يجوز عليك أيّها العبد الذّليل فهو لا يضّل كما تضّل أنت و لا ينسىٰ كما تنسىٰ أنت يا مدّعي الرّبوبية، بالجهل و الوقاحة و لعلّ المراد بالكتاب اللّوح المحفوظ و الضّمير في **عِلْمُهٰا** يعود على القرون الأولى أي أنّه مكتوب عند ربّي في اللّوح المحفوظ لا يجوز عليه أن يخطئ شيئاً أو ينساه.

و قال بعض المفسّرين المراد بالكتاب هو الكتاب الذّي كتبه الملائكة من أحوال البشر.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية إختلفوا في فقالوا علمها عند ربّي في كتابٍ، فأنّ العلم الّذي عند الرّب كيف يكون في الكتاب و تحقيقه هو أنّ علم اللّه صفة و صفة الشّئ قائمة به فأمّا أن تكون صفة الشّئ حاصلة في كتابٍ فذاك غير معقولٍ فذكروا فيه وجهين:

الأوّل: معناه أنّه سبحانه أثبت تلك الأحكام في كتاب عنده لكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم في الإستدلال على أنّه تعالى عالمٌ بكلّ المعلومات منّزهٌ عن السّهو و الغفلة و لقائلٍ أن يقول قوله في كتابٍ يوهم إحتياجه سبحانه في ذلك العلم إلى ذلك الكتاب.

الوجه الثّانى: أنّ تفسير ذلك بأنّ بقاء تلك المعلومات في علمه كبقاء المكتوب في الكتاب فيكون الغرض منه تأكيد القول بأن أسرارها معلومة للّه تعالى بحيث لا يزول شئ منها عن علمه و هذا التّفسير مؤكّدٌ بقوله بعد ذلك **لٰا يَضِلُّ رَبِّى وَ لٰا يَنْسَى** إنتهى كلامه.

أقول تحقيقه ليس بتحقيقٍ و ذلك لأنّ علم اللّه هو عين ذاته كما ثبت في محلّه و ليس العلم صفة قائمة بذاته فأنّ هذا خلاف التّحقيق نعم العلم فينا

صفة قائمة بذواتنا لأنّه لم يكن ثمّ كان فلا ذات غير العلم و العلم غير الذّات كما أنّ الصّفة غير الموصوف و الموصوف غير الصّفة قال أميرالمؤمنين عليه السلام و كمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه لشهادة كلّ صفةٍ أنّها غير الموصوف وكلّ موصوفٍ أنّه غير الصّفة فمن وصفه فقد قرنه و من قرنه فقد ثنّاه إلى أخر كلامه و قد تكلّمنا في شرح هذه الكلمات مفصّلاً في شرحنا على النّهج بما لا مزيد عليه فقول الرّازي صفة الشّيء لا تكون في كتابٍ عجيبٌ منه هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول لو كان العلم صفة قائمة بذاته تعالى أيضاً لا إشكال في الآية و دل لأنّ المقصود من كون العلم في كتابٍ ليس حصول الصّفة فيه بأن نقول صفة العلم في كتابٍ، بل المقصود أنّ ما في الكتاب من علمه أي من أثاره المعلوم أنّ ما في الكتاب معلومه لا علمه و بعبارةٍ أخرى ما في الكتاب كاشفٌ عن علم الكاتب لا أنّه علمه بعينه و للبحث فيه مقام أخر.

ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ

لمّا ذكر موسىٰ عليه السلام ما دلّ على ربوبيّة اللّه و تمّ كلامه عند قوله: **وَ لَا يَنْسَى**، ذكر اللّه تعالى ما نبّه به على قدرته تعالى و وحدانيّته فأخبر عن نفسه بأنّه هو الّذي صنع كيت و كيت و أنّما ذهبنا إلىٰ أنّ هذا هو من كلام اللّه لقوله تعالىٰ: **فَأَخْرَجْنَا** و قوله: **كُلُوا وَ ٱرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ** و قوله: **وَلَقَد أَرَيْنَاهُ** فيكون قوله **فَأَخْرَجْنَاوَأَرَيْنَاهُ**، التفاتاً، من الضّمير الغائب في، جعل و سلك، إلى الضّمير المتكلّم المعظم نفسه يكون الإلتفات من قائلين و أبعد من ذهب إلى أنّ الّذي، نعتٌ لقوله: **رَبِّى** فيكون في موضع رفع أو نصب على المدح هذا ما قاله بعض المفسّرين في تفسيره **ٱلَّذِى جَعَلَ** مرفوع صفة لربّي أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوبٌ على المدح و هذا من مظّانه و محازّه إنتهى.

أقول و به قال القرطبي أيضاً إلاّ أنّه قال في نصبه، أنّه بإضمار أعني في التّبيان موضع الّذي، رفع بدل من قوله، ربّي، ولم يذكر الوجهين الأخرين.

و قال الطّبرسي قدس سره **ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ** يجوز أن يكون في موضع جرٍّ بأنّه صفة ربّي، و يجوز أن يكون في موضع رفع بأن يكون خبرٌ مبتدأ، محذوف إنتهى.

و قال إبن عطيّة يحتمل أن يكون **فَأَخْرَجْنَا** من كلام موسى حكاية عن اللّه تعالى على تقدير، يقول عزّ وجلّ: **فَأَخْرَجْنَا** و يحتمل أن يكون كلام موسى تمّ عند قوله: **وَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ** ثمّ وصل اللّه كلام موسى بأخباره لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم و المراد به الخطاب إلى الخلق أجمع في قوله لكم، نبّههم على هذه الأيات إنتهى.

و قال الرّازي أمّا قوله: فأخرجنا بهِ أزواجًا شتّى ففيه مسائل:

الأولى: قوله: **فَأَخْرَجْنَا** فيه وجوهٌ:

أحدها: أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنّه يقول ربّي **ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ** كذا و كذا فأخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة أزواجاً من نباتٍ شتّى.

ثانيها: أنّ عند قوله: **وَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ** ماءً ثمّ كلام موسىٰ عليه السلام ثمّ بعد ذلك أخبر اللّه تعالى عن صفة نفسه متّصلاً بالكلام الأوّل بقوله: **فَأَخْرَجْنَا بِهِ** ثمّ يدّل علىٰ هذا الإحتمال قوله: **كُلُوا وَ ٱرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ**.

ثالثها: قال صاحب الكشّاف إنتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلّم المطاع للإيذان بأنّه سبحانه و تعالى مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره قوله تعالى: **وَ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ**(١) إلىٰ أخر الأيات الّتي ذكرها تأييداً لما حقّقه إنتهى.

١- الانعام = ٩٨

كلام الرّازي في المقام ثمّ قال الرّازى.

و إعلم أنّ قوله: **فَأَخْرَجْنَا** إنّا أن يكون من كلام موسيٰ عليه السلام أو من كلام اللّه.

والأوّل: باطل لأنّ قوله بعد ذلك **كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ** الخ لا يليق بموسى و ساق الكلام إلى أن قال فثبت أنّ هذا كلام اللّه و لا يجوز أن يكون كلام اللّه إبتداؤه من قوله: **فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا شَتَّىٰ**، لأنّ الفاء يتّعلق بما قبله فلا يجوز جعل هذا كلام اللّه و جعل ما قبله كلام موسى فلم يبق إلاّ أن يقال أنّ كلام موسى ثمّ عند قوله: **لَا يَضِلُّ رَبِّى وَ لَا يَنْسَى** ثمّ إبتدأ كلام اللّه من قوله الّذي جعل لكم الأرض مهداً و يكون التّقدير هو **اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اَلْأَرْضَ مَهْدًا** فيكون، الّذي، خبر مبتدأ محذوف و يكون الإنتقال من الغيبة الى الخطاب إلتفاتاً إنتهى.

أقول ما ذكره الرّازي و حققّه لا بأس به بل هو أحسن الأقوال في المقام و نحن أيضاً نقول به و اللّه أعلم بكلامه و لنرجع الى تفسير الآية فقوله: **اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اَلْأَرْضَ مَهْدًا** أي هو الّذي جعل لكم الأرض مهداً أي مستّقراً يستقرّون عليه و قد أشار اللّه تعالى الى كون الأرض مهداً في مقام آخر أيضاً:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اَلْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا**(١).

قال في المفردات المهد ما تهّيأ للصّبى:

قال اللّه تعالىٰ: **كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى اَلْمَهْدِ صَبِيًّا**(٢).

و المهد و المهاد المكان الممّهد الموطّأ قال تعالىٰ: **اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اَلْأَرْضَ مَهْدًا**.

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ نَجْعَلِ اَلْأَرْضَ مِهَادًا**(٣).

و ذلك مثل قوله الأرض فراشاً، و مهّدت لك كذا هيّأته و سوّيته:

١- الزّخرف = ١٠ ٢- مريم = ٢٩

٣- النّبأ = ٦

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا**[1].

إذا عرفت هذا فأعلم أنّ التّعبير عن الأرض بالمهد يدّل على أنّ الأرض ليست بساكنة بل هي متَّحركة خلافاً للقدماء من علماء الهَيئة فأنّهم كانوا يقولون أنّ الأرض ساكنة و أمّا في زماننا هذا فقد ثبت بالأدلّة العقليّة و الحسيّة أنّ الأرض تدور حول الشَّمس بحركةٍ سريعةٍ و إنّما قلنا ذلك لأنّ المهد إنّما وضع لأن يحرّك الصّبي ليستريح فيه و فى قوله: **جَعَلَ** أشار الى أنّ اللّه تعالى جعل الأرض مهداً فكما أن المهد يحتاج الى محرّكٍ يحرّكه كذلك الأرض تحتاج الى محّركٍ يحرّكها كما هو يقتضي القاعدة العقليّة و هى أنّ المتحرّك يحتاج الى المحرّك لأنّ الحركة في الجسم ليست من لوازم ماهيّته و إلاّ يلزم أن يكون كلّ جسمٍ متحرّك بل هي من عوارض الجّسم و كلّ عارضٍ محتاج الى غيره في عروضه فعروض الحركة على الأرض يحتاج الى محرّكٍ و هو اللّه تعالى هذا على مذاق الشّهور و أمّا على ما أخترناه في الباب فالأمر أوسع من ذلك و هو أنّ لازم الماهيّة أيضاً مجعول بتبع ماهيّته و القول بأنّ الماهيّات غير مجعولة كلام لا نفهم معناه إلاّ أن يقال أنّ الماهيّة حَّد الوجود و ليست بشيءٍ مستقلاً فلا يتعلّق بها الجعل إلاّ بتبع الوجود و على هذا تكون الحركة في الحقيقة من عوارض الوجود أو الموجود في الخارج و الإحتياج ثابت فيه بلا كلام فثبت المطلوب و محصلّ الكلام في المقام هو أنّ الأرض جعلها اللّه مهداً لنا ولم توجد الأرض كذلك بغير خالقٍ و موجد فثبت الخالق لها و هو المطلوب في المقام و أمّا قوله: **وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا**.

قال الرّاغب السُّلوك النّفاذ في الطّريق يقال سلكت الطّريق و سلكت كذا في طبقه.

١- المدّثر = ١٤

فَمن الأوّل:

قال اللّه تعالىٰ: **لِتَسْلُكُوا مِنْهٰا سُبُلًا فِجٰاجًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا**[٢].

و ما نحن فيه من هذا القبيل.

الثّاني:

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ**[٤].

والسُّبُل بضّم السّين و الباء جمع سبيل و هو الطّريق، و المعنى جعل لكم في الأرض سبلاً تسلكوا فيها في حوائجكم من موضعٍ الى موضع حتّى لا تتصّدر عليكم مصالحكم، و هو أيضاً من الألطاف الربانيّة و في كلامه هذا إشارة الى أنّ اللّه تعالى هو الّذي خلق الأرض و جعل فيها السُّبل لتنتفوا بها في معاشكم فهو أي جعل السُّبل فيها من أحسن النِّعم بعد نعمة الإيجاد و لمّا كانت الأرض من الجمادات الّتي لا حياة لها قال تعالى: **وَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِۦٓ أَزْوٰاجًا مِنْ نَبٰاتٍ شَتّىٰ** الضّمير في، به، عائد على الماء و الباء للسَّبب أي و أنزل اللّه من السّماء ماءٍ، و هو ماء المطر فأخرجنا بسبب الماء أزواجاً أي أصنافاً شتّى أي مختلفة متّشتة، ففي قوله فأخرجنا، إلتفاتٌ و في هذا الإلتفات تخصيصٌ أيضاً بإنّا نحن نقدر على مثل هذا و لا يدخل تحت قدرة أحدٍ و الأجود أن يكون شتّىً في موضع نصب نعتاً لقوله أزواجاً لأنّها المحّدث عنها.

و قال الزّمخشري يجوز أن يكون، شتّىً، صفة للنَّبات و النَّبات مصدر سمّي به النّابت كما سمّي بالنَّبت فأستوى فيه الواحد و الجمع يعني أنّها شتّىٰ مختلفة النَّفع و الطَّعم و اللّون و الرّائحة و الشّكل بعضها يصلح للنّاس و بعضها

١- نُوح = ٢٠
٢- النّحل = ٦٩
٣- المُدّثر = ٤١
٤- الحَجَر = ١٢

للبهائم ثمّ قالوا من نعمته عزّ وجّل أنّ أرزاق العباد إنّما تحصل بعمل الأنعام و قد جعل اللّه علفها ممّا يفضل عن حاجتهم و لا يقدرون على أكله.

أقول أمّا أنّ حياة الأرض بالماء و هى مع قطع النّظر عنه ميتة عنه فهو محسوسٌ لا كلام فيه، و قد أشار اللّه تعالى الى ذكر ذلك في كثيرٍ من الآيات: قال اللّه تعالىٰ: **حَتّٰى إِذٰآ أَقَلَّتْ سَحٰابًا ثِقٰالًا سُقْنٰاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَسُقْنٰاهُ إِلىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنٰا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **لِنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَ نُسْقِيَهُ مِمّٰا خَلَقْنٰآ أَنْعٰامًا وَ أَنٰاسِىَّ كَثِيرًا**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مِنْ مٰآءٍ فَأَحْيٰا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**(۵).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰاءً فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**(۶).

و أمّا قوله تعالىٰ: **فَأَخْرَجْنٰا بِهِۦٓ مِنْ نَبٰاتٍ شَتّٰى** ففيه إشارة إلى أنّ إخراج النّبات من الأرض أنما هو بسبب الماء إلاّ أنّ المخرج هو اللّه تعالى و ذلك لأنّ الأرض مخلوقه له تعالى و الماء الّذي هو سببٌ لإخراج النّبات فيها أيضاً مخلوق له تعالى فينتج أنّ الإخراج بقدرته قال الشّاعر:

تفكّر في نبات الأرض و أنظر — إلى أثار ما صنع المليك
ففي رأس الزّبرجد شاهداتٌ — بأنّ اللّه ليس له شريكُ

و حيث أنّ النّبات منه ما يصلح للنّاس و منه ما يصلح للبهائم و الأنعام.

كُلُوا وَ ٱرْعَوْا أَنْعٰامَكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِأُولِي ٱلنُّهٰى

١- الأعراف = ۵٧
٢- الرّوم = ١٩
٣- فاطر = ٩
۴- الفرقان = ۴٩
۵- البقرة = ١۶۴
۶- الرّوم = ٢۴

قوله: **كُلُوا وَ ٱرْعَوْا** لفظه لفظ الأمر و المراد الإباحة أي كلوا ممّا يـؤكل و أرعوا أنعامكم فيما لا يؤكل أنّ في ذلك لأياتٍ أي عـلامات، لأولي النُّـهى أي لذوي العقول السَّليمة و النُّهى بضّم النّون جمع نهية و هى العقل و أنّـما خصّ ذلك بأولي النُّهى لأنّ الجاهل بمعزلٍ عن التَّدبر و التَّفكر لجهله و كذا العاقل، و قيل أنّ النُّهى مفرد وليس بجمع و هو العقل:

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُوا وَ ٱشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ ٱللّٰهِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلاٰلاً طَيِّبًا**(٢).

و الأيات كثيرة و حيث قد ثبت أنّ شكر المنعم واجب عـقلاً فـيجب عـلى العاقل أن يشكر اللّه على نعمه و رأس الشّكر معرفته تعالى و لأجل ذلك ذكر هذه الأيات لفرعون لعلّه يتّذكر أو يخشى.

مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فيهٰا نُعيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرٰى

لمّا قال تعالى أنّ في ذلك من جعل الأرض مـهداً و سـلك سـبلها و إنـزال الماء عليها من السّماء و إخراج النّبات مـنها، لأيـاتٍ لأولي النُّـهى أي لمـن له عقلٌ أشار إلى خلقه الإنسان و قال: **مِنْهٰا** أي من الأرض، خلقناكم أوّل مـرّةٍ و فيها نعيدكم، بعد الموت و منها نخرجكم حين البعث مرّةً أخرى و المراد بهذه الخلقة هو خلقة الجسم و البدن أي منها خلقنا أبدانكم و أجسادكم كما أنّ منها أخرجنا نباتاً شتّى فكما أنّ النّبات يخرج من الأرض كذلك أبدانكم تخرج منها و أمّا الرُّوح فهو من عالم المجرّدات و قد سبق القول فيه غير مرّةٍ و فـى هـذه الآية إشارة إلى أنّ الّذي خلقكم من الأرض قـادرٌ عـلى أن يـبعثكم مـنها تـارةً أخرى فلا تغفل أيّها الإنسان عن نفسك و إعلم أنّ لك خالقاً و أنّك تبعث بعد الموت و تسأل عـن أعـمالك قـال اللّـه تـعالى: **وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**(٣) و

١- البقرة = ۶۰ ٢- البقرة = ۱۶۸
٣- الصّافات = ۲۴

تفضيل الكلام في مسئلة المعاد موكولٌ إلى محلّه إنشاء اللّٰه تعالى:

وَ لَقَدْ أَرَيْنٰاهُ اٰيٰاتِنٰا كُلَّهٰا فَكَذَّبَ وَ أَبٰى

هذا إخبار من اللّٰه تعالى إلى محمّدٍ صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم قيل و هذا يدلّ على أنّ قوله: **فأخرجنا** الخ... أنّما هو خطاب له صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم والضّمير في أريناه عائدٌ على فرعون و الرّؤية من رؤية البصر لا رؤية القلب هكذا قيل و الحقّ أنّ المراد بها معناها العامّ الشّامل للبصر و القلبو ذلك لأنّ فرعون كما رأى الأيات بالبصر أعني بالمشاهدة كذلك رأها بالقلب إلاّ أنّ عناده للحقّ و حبّه للرّئاسة و السّلطنة صار باعثاً لإنكاره لا أنّه لم يعقلها فقوله تعالىٰ: **وَ لَقَدْ أَرَيْنٰاهُ اٰيٰاتِنٰا** إشارة إلى الرّؤيتين و بذلك تمّت الحجّة عليه ولو كان المراد بها الرّؤية بالبصر فقط فالحجّة ناقصة لأنّ المجنون و هو الذّي لا عقل له يرى الأيات بالبصر و من المعلوم أنّه غير مكلّف فلا يتّوجه الذّم عليه، و حيث أنّ فرعون لم يكن من المجانين و كان عاقلاً ظاهراً و أراه اللّٰه تعالى الأيات الباهرة التّي أتى بها موسىٰ فهو رأها و عقلها و علم بحقانيّتها إلاّ أنّ العناد منعه عن قبولها و الإقرار بصدقها ظاهراً كما هو شأن المعاند و إلى هذه الدقيقة أشار اللّٰه بقوله، فكّذب و أبى، فالتّكذيب راجع إلى اللّسان و الإباء راجع إلى القبول قلباً أي كذّب بلسانه و إمتنع عن القبول بقلبه وكيف كان ففي الآية إشارة بل دلالة على أنّ اللّٰه تعالى أتّم الحجّة عليه و بذلك صار مستحقّاً للعقاب و العذاب.

قٰالَ أَجِئْتَنٰا لِتُخْرِجَنٰا مِنْ أَرْضِنٰا بِسِحْرِكَ يٰا مُوسٰى

و أنّما قال فرعون ذلك بعد أن رأى الأيات قال لموسى **أَجِئْتَنٰا لِتُخْرِجَنٰا مِنْ أَرْضِنٰا**، أي من أرض مصر بسحرك ياموسى، الباء للسّبب أي بسبب سحرك، و المراد بالخروج من أرض مصر هو الخروج عن السّلطنة عليها تحت عنوان الرّبوبية وليس المراد به الخروج المتعارف لأنّ الإيمان باللّٰه لا يستلزم

الخروج منها و هو معلومٌ و أنّما قال من أرضنا ولم يقل من أرض مصر أو من الأرض مثلاً لأنّه كان يدّعي أنّ أرض مصر له لقوله أليس لي ملك مصر كما حكى اللّه عنه بقوله:

وَ نادى فِرْعَوْنُ في قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لي مُلْكُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ الْأَنْهارُ تَجْري مِنْ تَحْتي أَفَلا تُبْصِرُونَ[١].

فقوله **أَلَيْسَ لي مُلْكُ مِصْرَ**، يدلّ على ما ذكرناه لأنّه لم يقل أليس لي حكومة مصر مثلاً، و قال ملك مصر بضّم الميم و أمّا قوله: **بِسِحْرِكَ** حيث حمل المعجزة على السّحر فالوجه فيه هو أنّه لو قال بإعجازك مثلاً، كان هذا إقرارٌ منه بنّبوة موسى لأنّ المعجزة لا يأتي بها إلاّ نبّي أو وصّي و الإقرار بالنّبوة مستلزم للإقرار بالتّوحيد و الألوهيّة لأنّ النّبي مبعوث من قبل اللّه و هذا الإقرار منه ينافي ما كان عليه في حكومته على النّاس من إدّعاء الرّبوبية و لأجل ذلك عبّر عن المعجزة بالسّحر و قد قيل في المثل أنّ الغريق يتّشبث بكلّ حشيشٍ، و هذا أي إنكار الحقّ عناداً و لجاجاً لأجل الرّئاسة و الحطام الدنيويّة من الأمور المتداولة الشّائعة بين أهل الدنيّا في كلّ عصرٍ و زمانٍ و لا يختصّ بفرعون فأنّ الفراعنة لا يذعنون للحقّ بإختيارهم لتّكبرهم و تجّبرهم و هذا داءٌ لا دواء له إلاّ الإيمان باللّه و الخضوع في جنب عظمته.

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لآ أَنْتَ مَكانًا سُوًى

قوله: **فَلَنَأْتِيَنَّكَ**، جواب لقسمٍ محذوف أوهم النّاس أنّ ما جاء به موسى أنّما هو من باب السّحر و أنّ عنده من يقاومه في ذلك فطلب فرعون من موسى ضرب موعد للمناظرة بالسّحر و الظّاهر أنّ موعداً، هنا هو الزّمان أي

١- الزّخرف = ٥١

فعَّين ياموسى لنا زماناً لذلك لا نخلفه نحن و لا أنت في الإجتماع فيه و قوله: **مَكَانًا سُوًى** أي مكاناً عدلاً بيننا و بينك و قيل معناه مكاناً مستوياً يتَّبين النّاس فيه، و قيل مكاناً يستوي حالنا في الرّضا به و فى (سوى) إذا قصر لغتان كسر السّين و ضمّها و إذا فتحت السّين مددته نحو قوله: **إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ**(۱).

و قال أبو عبيدة، سوى، الضِّعف و الوسط قال الشّاعر:

و أن أبانا كان حلَّ ببلدةٍ سوى بين قيسٍ قيس غيلان والفزر

فقوله: **مَوْعِدًا**، ليتعين الزّمان، و قوله: **مَكَانًا سُوًى**، ليتعين المكان فأنّ المناظرة وكلّ حادثةٍ من الحوادث لا تخلو منهما أي من الزّمان و المكان لا يحتاج إلى الطَّلب و الّذي يحتاج إليه هو تعيين الزّمان و المكان و قد طلبهما فرعون منه أي من موسى فأجاب موسى كما حكى اللّه تعالى عنه.

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى

قيل يوم الزّينة هو يوم عيد كان لهم، و قيل يوم شرفٍ كانوا يتَّزينون بها فهذا جواب عن قول فرعون **مَوْعِدًا** و قوله: **وَ أَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى**، قيل هو في موضع رفع و تقديره موعدكم حشر النّاس و قيل موضعه جرّ تقديره يوم يحشر النّاس، أن قلت طلب فرعون من موسى زماناً و مكاناً، فأجاب موسى عن الزّمان بقوله، و أمّا **مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ** عن المكان فلم يجيبه.

قلت قوله: **وَ أَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى** جوابٌ عن المكان معنىً و أن لم يطابقه لفظاً و ذلك لأنّه لابدّ لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكانٍ بعينه مشتهراً بإجتماعهم فيه في ذلك اليوم فبذكر الزّمان علم المكان من باب الملازمة العقليّة لأنّ الحشر يلازم المكان بل لا يتَّحقق الحشر إلاّ فيه.

إن قلت فبم ينتصب مكاناً.

۱- آل عمران = ۶۴

قلت بالمصدر أو بفعلٍ يدلّ عليه المصدر، و المراد بقوله: ضحًى ضحى ذلك اليوم بعينه فقوله **ضُحًى** خبره أي خبر المبتدأ و هو موعدكم بمعنى الوقت على قراءة الحسن على نيّة التّعريف فيه لما ذكرناه من أنّه ضحى ذلك اليوم بعينه.

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ

أي فأعرض فرعون عن قبول الحقّ أوم توّلى ذلك الأمر بنفسه أو فرجع إلى أهله لإستعداد مكائده أو أدبر على عادة المتّواعدين أن يوّلي كلّ واحدٍ منهما صاحبه ظهره إذا إفترقا **فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ**، أي جمع ذوي كيده و هم السَّحرة وكانوا عصابة لم يخلق اللّه أسحر منها، ثمّ أتى، أي ثمّ أتى فرعون للموعد الذّي كان مقّرر عنده مع جميع السَّحرة و أتى موسى أيضاً بمن معه من بنيإسرائيل فلمّا إجتمعوا.

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ

قَالَ لَهُم أي قال موسى للسَّحرة ويلكم، قال الأصمعي، ويل قبح، و قد يستعمل على التَّحسر و من قال، ويل، وادٍ في جهنّم، لم يرد أنّ ويلاً في اللّغة هو موضوعٌ لهذا قاله في المفردات و قوله: **لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا** أي لا تدعوا أياته و معجزاته سحراً على قول الزّمخشري.

و قال في التّبيان أي لا تكذبوا عليه تعالى كذباً بتكذيبي و تقولوا أنّ ما جئت به السِّحر، و الإفتراء إقتطاع الخبر الباطل بإدخاله في جملة الحقّ و أصله القطع من فراه يفريه فرياً، و الإفتراء و الإفتعال و الإختلاق واحدٌ و أمّا الكذب فهو الخبر الّذي لا يطابق الواقع وليس فيه خلطٌ و بهذا يفترقان، **فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ**، أي فيستأصلكم بعذابٍ و السّحت إستقصاء الشّعر في الحلق فمن قرأ بضّم الياء أخذه من أسحت رباعيّاً و من قرأ بفتح الياء فهو من سحت ثلاثيّاً.

و قوله: **وَ قَدْ خٰابَ مَنِ ٱفْتَرىٰ**، فالخيبة الإنقطاع أي إنقطع رجاء من إفترى الكذب يقال رجع بخيبته أي رجع بغير قضاء حاجته و المعنى أنّ موسى قال للسَّحرة لا تفتروا على اللّه كذباً فيسحتكم أي فيستأصلكم اللّه بعذابٍ إفترى على اللّه فقد إنقطع رجاءه فيرجع خائباً.

فَتَنٰازَعُوٓا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا ٱلنَّجْوىٰ

لا شكّ أنّ الضّمائر ترجع على السَّحرة أي أنّهم تنازعوا أمرهم بينهم و إختلفوا فيه لكنّهم أخفوا النّجوى و إختلف المفسّرون فيما أخفوه بينهم على أقوالٍ:

قال قتادة أنّهم قالوا أن كان هذا ساحراًفسنغلبه و أن كان من السّماء فله أمره.

و قال وهب، لمّا قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على اللّه كذباً، قالوا ما هذا بقول ساحرٍ، و قيل إسرارهم كان أنّهم قالوا إن غلبنا موسى إتَّبعناه.

و قيل أسَّروا النّجوى دون موسى و هارون بقوله أنّ هذين لساحران ذكر هذه الوجوه في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين إسرارهم النّجوى خيفةً من فرعون أن يتَّبين فيهم ضعفاً لأنّهم لم يكونوا مصَّممين على غلبة موسى بل كان ظنّاً من بعضهم صاحب الكشّاف الظّاهر أنّهم تشاوروا في السِّر و تجاذبوا أهداب القول ثمّ قالوا إن هذان لساحران فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام و تزويره خوفاً من غلبتها و تثبيطاً للنّاس من إتّباعها إنتهىٰ.

قٰالُوٓا إِنْ هٰذٰانِ لَسٰاحِرٰانِ يُرِيدٰانِ أَنْ يُخْرِجٰاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمٰا وَ يَذْهَبٰا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلىٰ

قالوا أي السَّحرة، إن هذان، أي موسى و هارون، لساحران، و إختلف في تخريج هذه القراءة فقال القدماء من النّحاة أنّه على حذف ضمير الشّأن و التّقدير أنّه هذان لساحران و علىٰ هذه القراءة فقوله: **هٰذٰانِ** مبتدأ و لساحران،

خبره و الجملة خبر، إنّ، في إنّه، و الهاء إسمها، واللاّم في **لَسٰاحِرٰانِ** داخلة على خبر المبتدأ، و أورد على هذا القول أنّ حذف ضمير الشّأن لا يجئ إلاّ في ضرورة الشِّعر و دخول اللاّم في الخبر شاذٌ.

و قال الفرّاء (الزّجاج) اللاّم لم تدخل على الخبر بل التّقدير لهما ساحران فدخلت على المبتدأ المحذوف و قيل إنّ بمعنى نعم، و ثبت ذلك في اللّغة فتحمل الآية عليه و هذان لساحران، مبتدأ و خبر و اللاّم في، لساحران، على ذينك التّقديرين في هذا التّخريج و التَّخريج الذّي قبله، و الذّي يقوّي في النّفس هو أنّ، إن هي المخفّفة عن الثّقيلة، و هذان مبتدأ و لساحران، الخبر و اللاّم للفرق بين، إن، النّافية و، إن، المخفّفة عن الثّقيلة على رأي البّصريين و الكوفيّين يزعمون أنّ إن، نافية و اللاّم بمعنى، إلاّ، و قرأت فرقة، إن ذان لساحران، و تخريجهما كتخريج التّي قبلها و ذلك لأنّ إسم الإشارة هو، ذا، و الهاء للتّنبيه، و قرأ بعضهم أنّ هذين بتشديد نون إنّ، و بالياء في هذين بدل الألف و إعراب هذا واضح إذ جاء على النَّمط المعروف في التّثنية لقوله، فذانك برهانان إحدى إبنتي هاتين بالألف رفعاً و الياء نصباً و جرّاً، و لكن هذه القراءة خلاف المصحف و الأقوال فيه كثيرة.

و قولهم: **يُرِيدٰانِ أَنْ يُخْرِجٰاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمٰا** تبعوا فيه مقالة فرعون حيث قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك و نسبوا السِّحر أيضاً لهارون لما كان مشتركاً معه في الرّسالة و سالكاً طريقته و علّقوا الحكم على الإرادة بقولهم: يريدان و هم لا إطّلاع لهم عليها تنقيصاً لهما و حطّاً من قدرهما و قد كان ظهر لهم من أمر اليد و العصا ما يدلّ على صدقهما و علموا أنّه ليس في قدرة السّاحر أن يأتي بمثل ذلك و قولهم بطريقتكم المثلى، فالطّريقة السِّيرة و المملكة و الحال التّي هم عليها، و المثلى بضّم الميم تأنيث الأمثل أي الفضلى الحسنى، و قيل عبَّر عن السّيرة بالطّريقة و أنّه يراد بها أهل العقل و السِّن و الحجى و حكوا أنّ العرب تقول فلان طريقة قومه أي سيّدهم، و قيل

هو على حذف مضاف أي و يذهبا بأهل طريقتكم و هم بنو إسرائيل لقول موسى أرسل معنا بني إسرائيل.

أقول يحتمل أن يكون مرادهم بطريقة المثلى، هو دينهم الذّي كانوا عليه فأنّ كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون، و المعنى أنّ موسى و هارون يريدان أن يغيّروا دينكم، و فسَّره بعضهم بالجاه والمنصب و الرّئاسة و إلى هذا ينظر قول من قال الأمثل الأفضل أي أنّ طريقتكم و مذهبكم أفضل ممّا يدعوكم إليه موسى يريد أن يخرجكم منه و قال بعضهم الأمثل الأشبه بالحقّ و قيل الأمثل الأوضح و الأظهر و الأقوال و الإحتمالات كثيرة و المعنى واضحٌ لا خفاء فيه.

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلٰى

الظّاهر أنّه من كلام فرعون للسَّحرة أمرهم بأن يجمعوا كيدهم، و قيل هو من كلام السَّحرة بعضهم لبعضٍ، قرأ الجمهور فأجمعوا، بقطع الهمزة وكسر الميم من أجمع، رباعيّاً يأ أعزموا و أجعلوه مجمعاً عليه حتّى لا تختلفوا و لا يتّخلف واحد منكم كالمسألة المجمع عليها، و قرأ الزُّهري و أبوعمرو و يعقوب و أبوحاتم بوصل الألف و فتح الميم موافقاً لقوله: **فَتَوَلّٰى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ** و قيل، جمع و أجمع لغتان في العزم على الشّيئ يقال جمعت الأمر و أجمعت عليه و على هذا فالقرائتان بمعنى واحد.

و الظّاهر أنّ المراد بالكيد، السِّحر، و قوله: **ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا**، معناه مصفطّين، و أنّما تناعوا الى الإتيان صفّاً لأنّه أهيب في عيون النّاظرين و أظهر في التَّمويه و أنتصب صفّاً على الحال أي مصطّفين، أو مفعولاً به إذ هو المكان الّذي يجتمعون فيه لعيدهم.

و قد أفلح و فاز ببغية من طلب العلّو في أمره و سعى سعيه و إختلفوا في عدد السَّحرة فأقلّ ما قيل أنّهم كانوا إثنين و سبعين ساحراً مع كلّ ساحرٍ عصى و حبالٍ و أكثر ما قيل تسع مأة ألف.

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّآ أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّآ أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ

لمّا جاؤوا أي السَّحرة مصطّفين الى مكان الموعد في يوم الزّينة و بيد كلّ واحدٍ منهم عصا و حبل و جاء موسى و أخوه أيضاً كذلك فوقفوا فقالوا: **يَا مُوسَىٰ إِمَّآ أَنْ تُلْقِيَ** أوّلاً و إنّما ذكر الإلقاء لأنّهم علموا أنّ آية موسى في إلقاء العصا و قيل خيّروه ثقةً منهم بالغلب لموسى و كانوا يعتقدون أنّ أحداً لا يقاومهم في السِّحر.

و قال الزّمخشري و هذا التّسخير منهم إستعمال أدبٍ حسن معه و تواضع له و خفض جناح و تنبيه على إعطاءهم النَّصفة من أنفسهم و كان اللّه عزّ وجلّ ألهمهم ذلك و علّم موسى إختيار إلقاءهم أوّلاً مع ما فيه من مقابلة الأدب بأدبٍ حتّىٰ يبرزوا ما معهم من مكائد السِّحر و يستنفذوا أقصى طرقهم و مجهودهم فإذا فعلوا أظهر اللّه سلطانه و قذف بالحقّ على الباطل و سلطّ المعجزة على السِّحر فمحقته وكانت آيةً بيّنةً للنّاظرين بيّنةً للمعتبرين إنتهى.

قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ

حِبال بكسر الحاء جمع حبل و **عصيهم** بكسر العين جمع عصا و المعنى أنّهم لمّا خيّروا موسىٰ قال لهم بل ألقوا أنتم ما معكم، فإذا حبالهم و عصيُّهم يخيَّل اليه من سحرهم أنّها تسعى، و أنّما قيل يخيّل لأنّها لم تكن تسعى حقيقةً و أنّما تحرّكت ظاهراً و ذلك لما قيل أنّه كان جعل داخلها زئبق فلمّا حميت بالشَّمس طلب الزّئبق الصعود فتّحركت الحبال و العصى فظّن موسى أنّها تسعى و قوله يخيّل اليه، قيل يخيّل الى فرعون أنّها تسعى و قيل الى موسى أي أنّ موسى يخيّل أنّها تسعى و إختاره في التبّيان لقوله بعد هذه الآية فأوجس في نفسه خيفة موسى.

و بعض المفسّرين إختاروا الأوّل، و قوله: **فَإِذَا** الفاء جواب ما حذف و تقديره فألقوا، و إذا، في هذا ظرف مكان و العامل فيه، ألقوا، قاله أبو البقاء.

و الحقّ أنّ الفاء ليست فاء جواب لأنّ فألقوا لا تجاب و أنّما هي للعطف عطفت جملة الماجاة على ذلك المحذوف، و قوله و العامل فيه ألقوا ليس بشيءٍ لأنّ الفاء تمنع من العمل و لأنّ، إذا، هذه أنّما هي معمولة لخبر المبتدأ و الّذي هو حبالهم و عصيّهم، و قوله يخيّل، في موضع الحال و هذا نظير قولك خرجت فإذا الأسد رابضٌ، و رابضاً و قد أطالوا الكلام في الباب بما لا فائدة فيه و الّذي حصل لنا من الآية هو أنّ موسى أمر السَّحرة بالإلقاء أوّلاً فلمّا ألقوَا ما ألقوا فإذا حبالهم و عصيّهم أعني بهما الآت سحرهم يخيّل أنّها تسعى لا أنّها واقعاً بل كانت الحركة فيها بحسب الخيال و الوهم فأنّ القوّة المخيّلة و الواهمة تقدران على إيجاد الأشياء في وعاء الخيال و الوهم و لذلك قيل أنّها لم تتَّحرك واقعاً و كان ذلك من سحر العيون و قد صرَّح تعالى بهذا حيث قال: **سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَ ٱسْتَرْهَبُوهُمْ**[١].

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ

قيل في معناه أنّ موسى خاف بطبع البشَّرية لما رأى من كثرة ما تَّخيل من الحيّات العظام، و قيل كان خوف موسى علٰ النّاس أن يفتنوا لهول ما رأوه قبل أن يلقى عصاه، و إلا يحاس هو من الهاجس الّذي يخطر بالبال و ليس يتَّمكن، و **خِيفَةً** بكسر الخاء أصله خوفة قلبت الواو ياءً لكسرة ما قبلها و قال إبن عطيّة يحتمل أن تكون أصلها **خَوفة** بفتح الخاء قُلبت الواو ياءً ثمّ كسرت الخاء للتناسب فلمّا خاف موسى قال اللّه تعالىٰ: **لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْأَعْلَىٰ** هذا تقرير لغلبته و قهره وتوكيد بالإستئناف و بكلمة التّوكيد و تكرير الضّمير و لام التّعريف و بالأعلّوية الدالّة على التّفضيل.

وَ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَ لَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ

١- الأعراف = ١١٦

أمر اللّه موسى بإلقاء ما في يمينه لما في لفظ اليمين من معنى اليمن و البركة و المعنى ألق ما في يمينك من العصا، تلقف ما صنعوا، قرأ إبن عامر، **تَلَقَّفُ** بتشديد القاف و رفع الفاء و قرأ حفص عن عاصم ساكنة الفاء مجزومة خفيفة القاف و قرأ الباقون مشدّدة القاف مجزومة لفاء و قرأ الكسائي، كيد سحرٍ، و الباقون، ساحر، على فاعل، و المعنى ألق ما في يمينك و هو العصا و هي تأخذها بفيها إبتلاعاً، ما صنعوا، ما، بمعنى، الّذي، و تقديره تلقف و تبتلع الّذي صنعوا فيه و ذلك **إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ** لا أصل له.

وَ لَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ أي لا يفوز السّاحر بفلاح أي بنجاةٍ.

قال الزّمخشري و قوله: **فِي يَمِينِكَ** و لم يقل عصاك جائز أن يكون تصغيراً لها أي لا تبال بكثرة حبالهم و عصيّهم و ألق العويد الفرد الصّغير الجرم الّذي في يمينك فأنّه بقدرة اللّه يتّلقفها على حدتّه و كثرتها و صغره و عظمها، و جائزٌ أن يكون تعظيماً لها أي لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة فأنّ في يمينك شيء أعظم منها كلّها و هذه على كثيرتها أقّل شيءٍ و أنزره عندها فألقه تتلّقفها بإذن اللّه و تمحقها إنتهى.

أقول هذا الّذي ذكره أشبه بشيءٍ بالخطابة و لا يستفاد من ظاهر الآية ذلك و مع ذلك لا بأس به و فى قوله: **وَ لَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ** إشارة الىٰ نقطةٍ و هى أنّ السّحر باطل في نفسه إذ لا حقيقة له و الباطل لا يدوم و الحّق يدوم قال رسول اللّه: **للحّق دَولةٌ وللباطل جَولةٌ** فمن أتى بالحّق فهو مقرونٌ بالفلاح و من أتى بالباطل فلا فلاح له و هذا أصلٌ يعتمد عليه في جميع الأفعال و الأقوال و لا إختصاص له بالسّحر فقط فأنّ السّحر أحد مصاديق الباطل و لذلك لا يفلح فاعله و هذا هو السّر في بقاء الأديان السّماوية لأنّها كانت مطابقة للواقع بخلاف المالك و المذاهب المخترعة الّتي لا حقيقة لها فأنّها تزول

بموت صاحبها وكيف يفلح من أغفل النّاس و أظهر الباطل بلباس الحّق و أضّل النّاس به **فهوكَسَرابٍ بِقيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْاٰنُ مٰآء**[1].

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَ مُوسَىٰ

أي لمّا رأوا ما فعله اللّه على يد موسى من قلب العصا ثعباناً و إبطال سحرهم بتّلقف الثّعبان ما صنعوا من السّحر علموا أنّه ليس من سنخ السّحر و أنّه معجزة أتى بها موسى من قبل اللّه فألقوا نفوسهم ساجدين للّه مقّرنين بنبوّة موسى مصدّقين له و قالوا آمنّا، أي صدَّقنا بربّ هارون و موسى أو آمنّا بالرّب الّذي يدعوا اليه هارون و موسى قال بعض المفسّرين لمّا زال إيجاس الخيفة من موسى و ألقى ما في يمينه و تلّقفت حبالهم و عصيّهم ثمّ إنقلبت عصا، و فقدوا الحبال و العصّي و علموا أنّ ذلك معجز ليس في طوق البشر فألقي السَّحرة سجّداً و أنّما قال سجّداً ولم يقل فسجدوا لأنّهم أي السَّحرة لمّا رأوا ما رأوا من قلب العصا ثعباناً إلى أخر القصّة لم يتّمالكوا أنفسهم من سرعة ما تأثّروا لذلك الخارق العظيم و لذلك خرّوا ساجدين كأنّهم خرجوا عن حدّ الإعتدال و دهشت عقولهم، و أنّما قالوا ذلك لأنّهم علموا أنّ فعل موسى ليس من سنخ السِّحر إذ لو كان كذلك لقدروا على إبطاله فلمّا لم يقدروا أذعنوا بأنّه أي ما فعله موسى من سنخ الإعجاز فصاروا خاضعين في جنب عظمة اللّه فقالوا: **آمنّا بربّ هارُون ومُوسىٰ**، قيل قدّم هارون لأنّه كان أكبر من موسى، و قيل أنّ فرعون كان ربّى موسى فبدوا بهارون ليزول تمويه فرعون أنّه ربّىٰ موسى فيقول أنا ربَّيته، و قالوا ربّ هارون و موسى ولم يكتفوا بقولهم بربّ العالمين للنّص على أنّهم أمنوا بربّ هذين فرعون فيما قيل يزعم أنّه ربّ العالمين.

١- النُّور = ٣٩

أقول يحتمل أن يكون تقديم هارون على موسى في الآية لأجل الفواصل و هو الأظهر و لذلك ترى قدّم موسى في الأعراف و أخّر هارون أيضاً لذلك

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ

لمّا ألقي السَّحرة سجّداً للّه و أمنوا بربّ هارون و موسى قال فرعون لهم **ءَامَنتُمْ لَهُۥ** أي صدَّقتموه و إتَّبعتموه **قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ** الإذن في الشّئ إعلام بإجازته و الرُّخصة فيه أي بإرادته و أمره، و هذا القول ضعيف للفرق بين الإذن و الأمر لأنّ في الأمر دلالة على إرادة الفعل المأمورة وليس في الإذن دلالة على إرادة المأذون فيه، ثمّ منهم من قرأ، **ءَامَنتُمْ** على الخبر و منهم من قرأ على لفظ الإستفهام فعلى الأوّل كان فرعون أخبر بإيمانهم قبل الإذن و على الثّاني كأنّه إستفهم عن إيمانهم على وجه التَّقريع **إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ** أي أنّ إيمانكم بربّ هارون و موسى قبل أن آذن لكم ممّا علّمكم كبيركم و رئيسكم الّذي تعلّمتم السِّحر منه ثمّ هدَّدهم و قال: **فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ** يعني قطع اليد اليمنى و الرِّجل اليسرى و قطع اليد اليسرى و الرِّجل اليمنى.

قيل أوّل من فعل ذلك فرعون **وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ** قيل، في، بمعنى، على، أي على جذوع النَّخل و قيل نقر فرعون الخشب و صلبهم في داخله فصار ظرفاً لهم حقيقياً حتّى يموتوا فيه جوعاً و عطشاً و من تعديه صلب، بفى. قول الشّاعر:

وهم صلبوا العبدي في جذع نخلةٍ		فلا عطست شيبان إلاّ بأجدعا

و قيل هو أوّل من صلب على جذوع النَّخل أيضاً أراد فرعون بالتَّقطيع و

التَّصليب في الجذوع التَّمثيل بهم و لمّا كان الجذع مقّراً للمصلوب و إشتمل عليه إشتمال الظّرف على المظروف عدّي الفعل، بفي، الّتي للوعاء **وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَىٰ** الخطاب للشجرة و أيّنا أشدّ جملة إستفهامية من مبتدإٍ و خبر في موضع نصب لقوله، و لتَّعلمن، سدَّت مسَّد المفعولين، و يجوز أن يكون، **أَيُّنَآ**، موصولة و الجملة بعدها صلة و التّقدير و لتَّعلمن من هو أشَّد عذاباً و أبقى، و التّقدير من هو أشَّد عذاباً من الأخرة أنا أو أنتم و من يكون أبقى في الدُّنيا من الأخر أنا أو أنتم.

و من المعلوم أنّ المظلوم أشَّد عذاباً في الدُّنيا من الظّالم كما أنّ الظّالم أبقىٰ منه فيها.

قال في المفردات الجذع بكسر الجيم جمعه جذوع جذعته، قطّعته قطع الجذع و الجذع بفتح الجيم من الإبل ما أتت لها خمس سنين و من الشّاة ما تمّت له سنة إنتهى.

أن قلت ما ذنب السَّحرة و بأيّ شيٍ إستَّحقوا ذلك العذاب.

قلت ذنبهم إيمانهم باللّه و قولهم الحقّ وليس جزاء المؤمن الّذي يقول بالحقّ عند الظّالم العنود إلاّ القتل و حيث أنّ فرعون كان ظالماً ففعل ما فعل بالمؤمنين و تبعه على هذا النّوع من العذاب أشياعه و أتباعه بعده كما فعل هشام بن عبد الملك لعنهما اللّه ذلك بزيد بن علّي بن الحسين كثيرة.

■

قٰالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلىٰ مٰا جٰاءَنٰا مِنَ ٱلْبَيِّنٰاتِ وَ
ٱلَّذى فَطَرَنٰا فَاقْضِ مٰآ أَنْتَ قٰاضٍ إِنَّمٰا تَقْضى
هٰذِهِ ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيٰآ «۷۱» إِنّٰآ اٰمَنّٰا بِرَبِّنٰا لِيَغْفِرَ لَنٰا
خَطٰايٰانٰا وَ مٰآ أَكْرَهْتَنٰا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَ ٱللّٰهُ
خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ «۷۲» إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ
جَهَنَّمَ لٰا يَمُوتُ فيهٰا وَ لٰا يَحْيىٰ «۷۳» وَ مَنْ يَأْتِهِ
مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصّٰالِحٰاتِ فَأُولٰئِكَ لَهُمُ
ٱلدَّرَجٰاتُ ٱلْعُلىٰ «۷۴» جَنّٰاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ خٰالِدينَ فيهٰا وَ ذٰلِكَ جَزٰآءُ مَنْ
تَزَكّٰى «۷۵» وَ لَقَدْ أَوْحَيْنٰآ إِلىٰ مُوسىٰ أَنْ أَسْرِ
بِعِبٰادي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَريقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لٰا
تَخٰافُ دَرَكًا وَ لٰا تَخْشىٰ «۷۶» فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ ٱلْيَمِّ مٰا غَشِيَهُمْ «۷۷» وَ
أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مٰا هَدىٰ «۷۸» يٰا بَني
إِسْرٰآئيلَ قَدْ أَنْجَيْنٰاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وٰاعَدْنٰاكُمْ
جٰانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنٰا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَ
ٱلسَّلْوىٰ «۷۹» كُلُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاكُمْ وَ
لٰا تَطْغَوْا فيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبي وَ مَنْ يَحْلِلْ
عَلَيْهِ غَضَبي فَقَدْ هَوىٰ «۸۰» وَ إِنّي لَغَفّٰارٌ لِمَنْ
تٰابَ وَ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدىٰ «۸۱» وَ مٰآ
أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يٰا مُوسىٰ «۸۲» قٰالَ هُمْ
أُولٰآءِ عَلىٰ أَثَري وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضىٰ

﴿٨٣﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٤﴾

◀ اللّغة

نُؤْثِرَكَ: الإيثار الإختيار تفَّضلاً.

فَاقْضِ: أمرٌ من قضى أي أحكم.

خَطَٰيَٰنَا: الخطايا جمع خطيئة و هى الذَّنب.

يَبَسًا: اليبس اليابس و جمعه، أيباس، و جمع اليبس بسكون الباء، يبوس، و قال أبو عبيدة، اليبس بفتح الباء المكان الجافّ.

دَرَكًا: الدَّرك بفتح الدّال و الرّاء مايلحق الإنسان من تبعةٍ كالدَّرك في البيع.

غَشِيَهُمْ: أي سترهم.

ٱلْمَنَّ وَ ٱلسَّلْوَىٰ: المَّن هو الّذي يقع على بعض الأشجار، و السَّلوى طائرٌ أكبر من السّمان.

هَوَىٰ: أي سقط.

أَثَرِي: أثر الشّيئ حصول ما يدلّ على وجوده.

فُتُونًا: الفتنة الإختبار.

◀ الإعراب

مَآ أَنْتَ قَاضٍ ما، بمعنى الّذي و قيل هي زمانيّة أي أقض أمرك مدّة ما أنت قاض هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ منصوب بتقضي، وما، كافّة أي تقضي أمور الحياة الدنيّا، و يجوز أن يكون ظرفاً و المفعول محذوف مَآ أَكْرَهْتَنَا قيل، ما، بمعنى، الذّي، معطوفة على الخطايا و قيل في موضع رفع على الإبتداء و الخبر محذوف أي و ما أكرهتنا عليه مسقطٌ مِنَ ٱلسِّحْرِ حال من، ما، أو من الهاء و قيل هي، ما، نافية و فى الكلام تقديم تقديره ليغفر لنا خطايانا من السِّحر و لم

تكرهنا عليه إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ الضّمير هو الشّأن و القصّة جَنَّاتُ عَدْنٍ هي بدل من الدّرجات و لا يجوز أن يكون التّقدير هي نبات لأنّ خَالِدِينَ فِيهَا حال و لا يكون في الكلام ما يعمل في الحال طَرِيقًا مفعول به يَبَسًا بفتح الباء مصدر أي ذات يبس، لَا تَخَافُ قيل هو مستأنف و قيل هو حال من الضّمير في إضرب، و قيل هو صفة للطّريق و العائد محذوف أي و لا تخاف فيه و يقرأ بالجزم على النّهي أو على جواب الأمر بِجُنُودِهِ هو في موضع الحال و المفعول الثّاني محذوف أي فأتبعهم فرعون عقابه و معه جنوده جَانِبَ ٱلطُّورِ هو مفعول به فَيَحِلَّ جواب النّهي مَآ أَعْجَلَكَ ما، إستفهاميّة مبتدأ و أعجلك الخبر هُمْ مبتدأ و أُولَآءِ بمعنى الّذي عَلَىٰٓ أَثَرِي صلته.

التّفسير

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَآ أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ

لمّا هدّدهم فرعون بالقتل قالوا في جوابه لَنْ نُؤْثِرَكَ، أي لن نختار إتّباعك و كوننا من حزبك و سلامتنا من عذابك على ما جاءنا من البيّنات و هي المعجزات التّي أتتنا و علمنا صحّتها، وكلمة لن، لنفي الأبد أي لا نختارك على ما جاءنا من الحقّ أبداً، قوله هذا لفرعون توهينٌ له و إستصغار لما هدّدهم به و عدم إكتراثٍ بقوله و فى نسبة المجيئ إليهم و أن كانت البيّنات جاءت لهم و لغيرهم، إشعارٌ بأنّهم كانوا أعرف بالسّحر و الفرق بينه و بين المعجزة من غيرهم و قد علموا أنّ ما جاء به موسى ليس بسحرٍ فكانوا على جليّةٍ من العلم بالمعجز و غيرهم يقلّدهم في ذلك و أيضاً فكانوا هم الذّين حصل لهم النّفع بها فكانت بيّنات واضحة في حقّهم والواو في وَٱلَّذِي فَطَرَنَا واو عطف على ما جاءنا أي و على الّذي فطرنا.

قيل لمّا لاحت حجّة اللّه في المعجزة بدأوا بـها ثـمّ تـرَّقوا إلى القـادر عـلى خرق العادة و هو اللّه تعالى و ذكروا وصـف الإختـراع و هـو قـولهم، **ٱلَّـذِي فَطَرَنَا**، تبيناً لعجز فرعون و تكذيبه في إدّعاء ربوبيّته و الإلهيّة و هو عاجزٌ عن صرف ذبابة فضلاً عن إختراعها إنتهى و أمّا قوله: **فَاقْضِ مَآ أَنْتَ قَاضٍ** إلى أخر الأية.

أقول في الآية مسائل:

الأولىٰ: قوله **قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ**.

الثّانية: قوله **وَ ٱلَّذِي فَطَرَنَا**.

الثّالثة: قوله **فَاقْضِ مَآ أَنْتَ قَاض**.

الرّابعة: قوله **إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَٰوةَ ٱلدُّنْيَآ** و نحن نتكلّم فيها علىٰ سبيل الإختصار.

أمّا المسئلة الأُولىٰ: فحاصلها أنّه لا شكّ لنا أنّ ما جاءنا به موسى ليس مـن سنخ السِّحر و أنّما هو معجزة يعجز البشر عن الإتيان بها و إذا كان كـذلك فـلا يجوز لنا العدول عنها عقلاً فأمرنا يدور بين أمَرَين:

أحدهما: متابعة العقل.

الثّاني: متابعتك و الجمع بينهما محال لأنّ الحقّ و الباطل لا يجتمعان معاً و نحن نؤثر الحقّ على الباطل كما هو مقتضى العقل السليم ولن نؤثر الباطل على الحقّ أبداً و فى هذا الكلام إشارة إلى أنّهم أي السَّحرة كانوا في طلب الحقّ ولم يكونوا معاندين له و أنّ فرعون أجبرهم على تلك المناظرة أو أغفلهم عليه أو كانوا جاهلين و أنّما قلنا ذلك لأنّ المعاند و هو الّذي ينكر الحقّ و يريد إطفاؤه مع العلم بكونه حقّاً مثل كفّار قريش لا يقول آمنت باللّه و لا ينقاد للحقّ أصلاً و حيث أنّهم أي السَّحرة صاروا سجدّاً للّه تعالى و إختاروا المـوت عـلى الحياة مع الظّالمين علمنا أنّهم كانوا طـالبين للـحقّ واقـعاً و هـو كـاشف عـن حسـن سريرتهم.

المسألة الثانية: قوله وَ ٱلَّذِي فَطَرَنَا، أي خلقنا و أوجدنا و فيه إشارة الى أنّ الخالق الموجد يستّحق أن يعبد لا غيره و أنّ التّوحيد راجع الى الفطرة قال اللّه تعالىٰ: **فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**(١) فمن أنكر الفاطر أنكر الفطرة و من كان كذلك فهو خارج عن ذوي العقول و لا كلام لنا معه.

المسألة الثّالثة: قوله فَاقْضِ مَآ أَنْتَ قَاضٍ و فيه إشارة الى أنّ الحاكم الظّالم يحكم بما يشاء و العادل لا يحكم إلاّ بالحقّ.

المسألة الرّابعة: قوله إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ و هي الحياة الّتي لا بقاء لها و أمّا الحياة الّتي لا موت فيها و لا زوال فهي الحياة الأخرة و العاقل لا يؤثّر الفاني على الباقي.

إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَ مَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَ ٱللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰٓ

و أنّه قيل لهم لم آمنتم بربّ هارون و موسى، فقالوا إنّا آمّنا بربّنا لأمرين

أحدهما: أن يغفر لنا ذنوبنا و ما أكرهتنا عليه من السِّحر، قال إبن عبّاس أنّ فرعون رفع غلماناً الى السَّحرة يعلمونّهم الّحر بالعزائم.

و قيل أنّ فرعون حملهم على معارضة موسى، و عليه فقوله ما أكرهتنا عليه من السِّحر معناه أكرهتنا عليه من أعمال السِّحر، و قيل كان فرعون يأخذ ولدان النّاس و يجّربهم على ذلك فأشارت السَّحرة على ذلك و لا شكّ أنّ إعمال السِّحر من أشدّ الذُّنوب إذا كان في تقوية الباطل.

والوجه الثّاني: قوله وَ ٱللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰٓ، أي إنّا آمنّا بربّنا لأنّه خيرٌ و أبقى من كلّ شئٍ بحيث لا فناء له وإختيار الخير على الشّر و الباقي على الفاني ممّا يحكم به العقل.

١- الرّوم = ٣٠

و قال بعض المفسّرين معناه و اللّه خيرٌ لنا منكم و أبقى لنا ثواباً من ثوابك و على هذا فهو في الحقيقة ردٌّ على قول فرعون **أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذابًا وَ أَبْقٰى**[1] رَويَ أنّهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائماً فوجدوه يحرسه عصاه فقالوا ما هذا بسحرِ السّاحر إذا قام بطل سحره فأبى فرعون إلاّ أن يعارضوه و يظهر من قولهم، أئن لنا لأجراً عدم الإكراه.

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاٰ يَمُوتُ فيهٰا وَ لاٰ يَحْيٰى.

في هذا الكلام إشارة إلى أنّ المذنب العاصي ينبغي أن يتوب و يرجع إلى اللّه قبل موته ليدخل على ربّه تائباً منقاداً، فمن عصى ربّه و مات على العصيان بغير توبةٍ فأنّ له جهنَّم و ذلك لأنّ الأخرة ليست بدار التّكليف فلا توبة فيها، و لأجل ذلك رجع السَّحرة عمّا كانوا عليه من المعصية و قوله: **لاٰ يَمُوتُ فيهٰا وَ لاٰ يَحْيٰى**، إشارة إلى الموت و الحياة من خواصّ الدنيّا الفانية و أمّا الأخرة فهي دار الحياة ثمّ أنّ قوله: **لاٰ يَمُوتُ فيهٰا** لا خفاء فيه و أمّا قوله: **وَ لاٰ يَحْيٰى** فقيل في معناه أي لا حياة فيها راحة بل هو معاقب بأنواع العقاب، و قيل و لا يحيا، أي يعذّب عذاباً ينتهي به إلى الموت ثمّ لا يجهز عليه فيستريح بل يعاد جلده و يجدَّد عذابه و لا يحيا حياةً طيّبةً.

و قال الرّازي الجسم لابدّ و أن يبقى أمّا حيّاً أو يصير ميتاً فخُلوه عن الوصفين محال فمعناه في الآية أنّه أي المجرم يكون في جهنّم بأسوء حالٍ لا يموت موتةً مريحة و لا يحيا حياةً ممتعة إنتهى.

أقول نفى اللّه تعالى الموت و الحياة في الأخرة على الإطلاق فتقييد الموت بالمريحة و الحياة بالممتعة لا دليل عليه فالإشكال باقٍ بحاله، و الذّي يختلج بالبال هو أنّ الموت لا يصدق إلاّ بعد الحياة بل هو عدم الحياة، كما إنّ الحياة أيضاً لا تصدق إلاّ بعد الموت بل هي عدم الموت إذا عرفت هذا فنقول:

١- طه = ٧١

أمّا أنّه لا يموت في الأخرة فلا خلاف فيه لأنّها أي الأخرة دار البقاء و من لا يموت فهو لا يحيا قطعاً فأنّ السّالبة تنتقي بإنتفاع الموضوع موضوع الحياة الموت فإنتفاء الموت يستلزم إنتفاء الحياة و أنّما قلنا ذلك لأنّه لم يقل لا موت فيها و لا حياة حتّى يحتاج الكلام إلى التّقييد و التّأويل بل قال لا يموت و لا يحيا أي لا يتّصف بهما لأنّ الإتّصاف من شئون الحادث.

هذا و يحتمل أن يكون المعنىٰ في قوله: **لٰا يَمُوتُ فِيهٰا وَ لٰا يَحْيٰى**، إشارة أو كناية عن بقاء العذاب و عدم زواله و اللّه أعلم بما أراد منه فأنّ عقولنا قاصرة عن درك كلامه و البلوغ إلى غاية مرامه.

وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصّٰالِحٰاتِ فَأُولٰئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجٰاتُ ٱلْعُلٰى

الواو للعطف و الضّمير في، يأته، عائد على الرَّب في الآية السّابقة في قوله: **إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا** و المعنى و من يأت ربّه مؤمناً معتقداً باللّه و رسوله و جميع ما جاء به الرّسول و مع ذلك قد عمل الصّالحات في دار الدنيّا فأولئك الذّين كانوا كذلك لهم الدَّرجات العلى في الأخرة و قوله قد عمل الصّالحات بعد قوله: **مُؤْمِنًا** يدلّ على أنّ مجرّد الإعتقاد القلبي لا يكفي في تحقّق الإيمان بل لابدّ له من العمل الصّالح على أساس الإعتقاد و هو صريحٌ في أنّ الإيمان عبارة عن الإعتقاد و العمل النّاشئ منه كما نقول به و قد وردت الأخبار بذلك عن المعصومين خلافاً لأكثر العامّة حيث ذهبوا إلى أنّ الإيمان مجرّد الإعتقاد، و في قوله: **لَهُمُ ٱلدَّرَجٰاتُ ٱلْعُلٰى** إشارة إلى أنّ مراتب الإيمان متفاوتة و لكلّ مرتبةٍ منها درجة عالية في الأخرة فلو كان الإيمان لا يزيد و لا ينقص كما زعم بغضهم كان حقّ العبارة أن يقال لهم درجةٌ عالية على حدٍّ سواءٍ فالدَّرجات من جهة الثّواب كاشفة عن درجات الأسباب و إختلافها فأنّ لكلّ مرتبةٍ من مراتب الإيمان درجة من حيث الثّواب و بعبارةٍ أخرى معنى الكلام أنّ للمؤمنين درجات عالية متفاوتة بحسب مراتب إيمانهم.

إن قلت أنّ اللّه يقول لهم الدَّرجات العلى، و أمّا أنّ الدَّرجات متفاوتة مختلفة فلا تدلّ الآية عليها حتّى تكون كاشفة عن تفاوت مراتب الإيمان.

قلت لفظ الجمع يدلّ على ذلك إذ لو لم يكن بينها تفاوتٌ و إختلاف فلا تصدق الدَّرجات بصيغة الجمع بل يقال لهم درجة عالية و هذا ظاهر أنّ الإيمان هو الأساس في الدّين و لا شئ أفضل منه في باب العبوديّة و مع ذلك له مراتب متفاوتة بحسب تفاوت الإستعدادات و الإعتقادات فلا بأس بالإشارة الى شطرٍ ممّا ورد فيه من الأخبار الواردة في الباب فالكلام يقع في مقامين:

أحدهما: أنّ الإيمان مشروط بالعمل.

الثّاني: أنّ المراتب فيه متفاوتة من حيث الزيادة و النّقيصة.

فنقول أمّا المقام الأوّل و هو أنّ الإيمان مشروط بالعمل، و أنّه أخصّ من الإسلام.

فقد روي في الكافي بأسناده عن سماعة قال: قلت لأبي عبد اللّه أخبرني عن الإسلام و الإيمان أهما مختلفان فقال عليه السلام: أخبرني أنّ الإيمان يشارك الإسلام و الإسلام لا يشارك الإيمان فقلت فصفهما لي فقال عليه السلام الإسلام شهادة أن لا إله إلاّ اللّه و التّصديق برسول اللّه به حقنت الدّماء و عليه جرت المناكح و المواريث و على ظاهره جماعة النّاس، و الإيمان الهدى و ما يثبت في القلوب من صفة الإسلام و ما ظهر من العمل به و الإيمان أرفع من الإسلام بدرجة أنّ الإيمان يشارك الإسلام في الظّاهر و الإسلام لا يشارك الإيمان في الباطن و أن إجتمعا في القول و الصّفة إنتهى.

و بأسناده عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول الإيمان ما إستَّقر في القلب و أفضى به إلى اللّه و صدَّقه العمل بالطّاعة و التّسليم لأمر اللّه و الإسلام ما ظهر من قولٍ أو فعلٍ و هو الّذي عليه جماعة من النّاس الحديث بطوله.

و بأسناده عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد اللّه أنّ الإيمان يشارك الإسلام و ساق الحديث إلى أن قال أنّ الإيمان ما وقر في القلوب الحديث.

و بأسناده عن أحدهما قال الإيمان إقرار و حمل و الإسلام إقرار بلا حمل إنتهى.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: دين اللّه إسمه الإسلام و هو دين اللّه قبل أن تكونوا حيث كنتم و بعد أن تكونوا فمن أقرَّ بدين اللّه فهو مسلم ومن عمل بما أمر اللّه تعالى به فهو مؤمن إنتهى.

و بأسناده عن جميل بن دراج قال: سألت أبا عبد اللّه عن الإيمان فقال عليه السلام: شهادة أن لا إله إلاّ اللّه و أنّ محمّد رسول اللّه قال قلت أليس هذا عمل قال بلى قلت فالعمل من الإيمان قال لا يثبت له الإيمان إلاّ بالعمل و العمل منه إنتهى.

و الأحاديث كثيرة و لا نحتاج إلى إطالة الكلام في الباب لأنّه من المسلّمات الّتي لا خلاف فيه في مذهبنا، و أمّا المقام الثّاني و هو أنّ الإيمان درجات و مراتب.

فقد روي في الكافي عن عمّار بن أبي الأحوص عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: أنّ اللّه تعالى وضع الإيمان على سبعة أسهم على البرّ و الصِّدق و اليقين و الرّضا و الوفاء و العلم و الحلم ثمّ قسّم ذلك بين النّاس فمن جعل فيه هذه السَّبعة الأسهم فهو كاملٌ محتملٌ و قسَّم بعض النّاس السَّهم ولبعضٍ السَّهمين ولبعضٍ الثّلاثة حتّى إنتهوا إلى سبعة ثمّ قال عليه السلام لا تحملوا على صاحب السَّهم سهمين وعليى صاحب السَّهمين ثلاثة فتبهضوهم ثمّ قال عليه السلام كذلك حتّى ينتهي إلى سبعة إنتهى.

و بأسناده عن عبد العزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبد اللّه عليه السلام يا عبدالعزيز أنّ الإيمان عشرة درجات بمنزلة السُّلم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة الحديث.

و بأسناده عن سدير قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام أنّ المؤمنين على منازل منهم على واحدة و منهم على أثنتين و منهم على ثلاث و منهم على أربع و منهم على ستّ و منهم على سبع الحديث و الأحاديث نقلناها عن الوافي، الجزء الثّاني أبواب تفسير الإيمان و الإسلام[١].

إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ الدَّرجات العلى في الثّواب ناظرة إلى الدَّرجات في الايمان و هو المطلوب.

جَنّٰاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ ذٰلِكَ جَزٰآءُ مَنْ تَزَكّٰى

لمّا أخبر اللّه تعالى أنّ لمن أمن باللّه و عمل الصّالحات الدَّرجات العلى قال و لهم جنّات عدنٍ أي بساتين إقامة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، أبداً ثمّ قال و ذلك جزاء من تزّكى، و التّزكي طلب الزّكا بإرادة الطّاعة و العمل بها و الزّكا النّماء في الخير وقيل معنىٰ (تزَ كّٰى) نطهر من الذّنوب بالطّاعة بدلاً من تدنيسها بالمعصية و الخلود المكث في المشي إلى غير غاية، قاله الشّيخ في التّبيان.

أقول أصل الزّكاة النّمو الحاصل عن بركة اللّه و يعتبر ذلك بالأمور الدنيويّة و الأخرويّة يقال زكى الزَّرع يزكوا إذا حصل منه نموٌ و بركة، و قوله تعالى أيّها أزكى طعاماً، إشارة إلى ما يكون حلالاً لا يستوخم عتباه و منه الزّكاة لما يخرج الإنسان من حقّ اللّه إلى الفقراء و تسميته بذلك من رجاء البركة و لتزكية النَّفس

١- ص ١٨ إلىٰ ص ٣٠

أي تنميها بالخيرات و البركات أو لهما جميعاً، و بزكاء النَّفس و طهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدّنيا الأوصاف المحمودة و فى الأخرة الأجر و المثوبة و هو أن يتّحرى الإنسان ما فيه تطهيره و ذلك تارةً إلى العبد لكونه مكتسباً لذلك نحو قوله تعالىٰ: **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّيٰها**(١) و تارةً ينسب إلى اللّه تعالى لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة نحو: **اَللّٰهُ يُزَكّى مَنْ يَشٰآءُ** و تارةً إلى النّبي لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم نحو: **تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكّيهِمْ بِهٰا**(٢) و قوله: **يَتْلُوا عَلَيْكُمْ اٰياتِنٰا وَ يُزَكّيكُمْ**(٣) و تارةً إلى العباد التّي هي ألة في ذلك نحو: **وَ حَنٰانًا مِنْ لَدُنّٰا وَ زَكٰوةً**(٤) ثمّ أنّ تزكية الإنسان نفسه ضربان:

أحدهما: بالفعل و هو محمود و إليه قصد بقوله: **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّيٰها**(٥).

الثّاني: بالقول كتزكية العدل غيره و ذلك مذمومٌ أن يفعل الإنسان بنفسه و قد نهى اللّه عنه فقال: **فَلا تُزَكُّوٓا أَنْفُسَكُمْ** و نهيه عن ذلك تأديبٌ بقبح مدح الإنسان نفسه عقلاً و شرعاً و لهذا قيل لحكيم، مالّذي لا يحسن و أن كان حقّاً فقال مدح الرّجل نفسه إذا عرفت ماتلوناه عليك فإعلم أنّ قوله ذلك جزاء من تزّكى، معناه من تزّكى نفسه بسبب العمل لا بالقول فقط و ذلك مثل السّحرة فأنّهم بفعلهم تزّكوا أنفسهم حيث أذعنوا للحقّ و صاروا سجّداً له و خالفوا فرعون، و بالقول أيضاً حيث قالوا أمنّا بربّ هارون و موسى، بل الحقّ أنّ قولهم هذا كان إقراراً منهم لا تزكية لنفوسهم كما هو ظاهرٌ على المتّأمل فدخلوا في المؤمنين حقّاً.

وَ لَقَدْ أَوْحَيْنآ إِلىٰ مُوسىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبٰادي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخٰافُ دَرَكًا وَ لا تَخْشىٰ

١- الشّمس = ٩
٢- التّوبة = ١٠٣
٣- البقرة = ١٥١
٤- مريم = ١٣
٥- الشّمس = ٩

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أوحى إلى موسى عليه السلام أن أسر بعبادي أي ببني‌إسرائيل و الإسراء السّير باللّيل أي أسر بهم ليلاً.

فأضرب لهم طريقاً في البحر يبساً، أي فأضرب بعصاك البحر تجعل طريقاً لهم في البحر و هو النّيل على ما قيل، يبساً.

قال في المفردات اليبس المكان فيه ماء فيذهب و فى النَّبات ماكان فيه رطوبة فذهبت، قال بعض المفسّرين لمّا إنقضى أمر السَّحرة و غلب موسى و قوى أمره وعده فرعون أن يرسل معه بني‌إسرائيل فأقام موسى على وعده حتّى غدره فرعون و نكث و أعلمه أنّه لا يرسلهم معه فبعث اللّه حينئذٍ الأيات المذكورة في غير هذه الأيات الجراد و القمّل إلى أخرها كلّما جاءت أية وعد فرعون أن يرسل بني‌إسرائيل عند إنكشاف العذاب فإذا إنكشف نكث حتّى تأتي أخرى فلّما أكملت الأيات أوحى اللّه إلى موسى عليه السلام أن يخرج بني‌إسرائيل في اللّيل سارياً و السرّي مسير اللّيل فقوله: **أَنْ أَسْرِ** يحتمل أن تكون، أن، مفسّرة و أن تكون ناصبة و قوله لعبادي، إضافة تشريف لقوله: **نَفَختُ فيه من رُوحى** و إختلفوا في وقت الإيحاء هل كان متّقدماً على وقت إتّباع فرعون موسى و قومه بجنوده أو حين قارب فرعون لحاقه و قوى فزع بني‌إسرائيل و الظّاهر هو الثّاني وكيف كان يروىٰ أنّ موسى نهض ببني‌إسرائيل و هم ستة مائة ألف على ما قيل فسار بهم من مصر يريد بحر القلزم و إتّصل الخبر فرعون فجمع جنوده و حشرهم ونهض وراءه فأوحى اللّه إلى موسى أن يقصد البحر فجزع بنو إسرائيل و رأوا أنّ العدّو من وراءهم و البحر من أمامهم و موسى يثق بصنع اللّه فلمّا رأهم فرعون قد نهضوا نحو البحر طمع فيهم و كان مقصدهم إلى موضع ينقطع فيه الفحوص و الطُّرق الواسعة قيل و كان في خيل فرعون سبعون ألف أدهم و نسبته ذلك من سائر الألوان و قيل أكثر من هذا فضرب موسى بعصاه البحر فإنفرق أثنتي عشرة فرقة طرقاً واسعة بينها حيطان

الماء واقفة و يدلّ عليه قوله فكان كلّ فرقٍ كالطّود العظيم و قيل بل هو طريق واحد لقوله: **فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا** في البحر يبساً و قد يراد بقوله طريقاً الجنس فدخل موسى عليه السلام بعد أن بعث اللّه ريح الصّبا فجّففت تلك الطُّرق حتّىٰ يبست و دخل بنو إسرائيل و وصل فرعون إلى المدخل و بنو إسرائيل كلّهم في البحر فرأى الماء على تلك الحال فجزع قومه و إستعظموا الأمر فقال لهم فرعون أنّما إنفلق الماء من هيبتي حتّى أدرك أعدائي و عبيدي ولم تكن في خيل فرعون أنثى فجاء جبرئيل على فرس أنثى و عليه عمامة سوداء و تقدَّمهم و خاض البحر و ظَّن أصحاب فرعون أنّه منهم فلمّا سمعت الخيول ريحها إقتحمت البحر و أثرها و جاء ميكائيل على فرس خلف القوم يشحذهم و يقول لهم ألحقوا بأصحابكم فلمّا أراد فرعون أن يسلك طريق البحر نهاه وزيره هامان و قال إنّي قد أتيت بهذا الموضع مراراً و مالي عهدٌ بهذه الطُّرق و إنّي لا أمن أن يكون هذا مكراً من الرّجل يكون فيه هلاكنا و هلاك أصحابنا فلم يطيعه فرعون و ذهب حاملاً على حصانه أن يدخل البحر فإقتنع و نفر حتّى جبرئيل على رمكة بيضاء فخاض البحر فتبعها حصان فرعون فلمّا توافوا في البحر و هم أوّلهم بالخروج فإلتطم عليهم فغرقهم جميعاً بمرأى من بنيإسرائيل قالوا فلمّا سمعت بنو إسرائيل صوت إلتطام البحر قالوا لموسى ما هذه الوجبة فقال موسى لهم أنّ اللّه سبحانه قد أهلك فرعون و كلّ من كان معه فقالوا أنّ فرعون لا يموت ألم تر أنّه كان يلبث كذا و كذا يوماً لا يحتاج إلى شيءٍ ممّا يحتاج إليه الإنسان فأمر اللّه سبحانه البحر فألقاه على نجوةٍ من الأرض و عليه درعه حتّى نظر إليه بنو إسرائيل و يقال لو لم يخرجه اللّه تعالى ببدنه لشكّ فيه بعض النّاس فبعث موسى جندين عظيمين من بنيإسرائيل كلّ جندٍ أثنى عشر ألفاً إلى مدائن فرعون وية يومئذٍ خالية من أهلها لم يبق منهم إلاّ النّساء و الصّبيان و الزّمني و المرضى و أقرَّ على الجندين يوشع بن نون و كالب

بن يوفنا فدخلوا بلاد فرعون فغنموا ما كان فيها من أموالهم و كنوزهم و حملوا من ذلك بقدر الطّاقة و ما لم يطيقوا حملها باعوه من قوم أخرين فذلك قوله تعالى: **كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ**[1] الأيات و إلى ما ذكرناه أشار اللّه بقوله:

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ ٱلْيَمِّ مٰا غَشِيَهُمْ

فأنّ الغشاء السَّتر و هو كناية عن غرقهم في الماء على ما مرّ بيانه.

وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مٰا هَدٰى

أي أنّه دعاهم إلى الضّلال و أغواهم و لذلك نسب إليه الضَّلال و قوله و ما هدى، أي ما هدى فرعون إلى الحقّ بسوء سريرته و خبث ذاته مع أنّه رأى من المعجزات ما رأى فقد تمَّت الحجّة بذلك عليه فلم يمهله اللّه و أهلكه و أراح النّاس من شرّه.

يٰا بَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ قَدْ أَنْجَيْنٰاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وٰاعَدْنٰاكُمْ جٰانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنٰا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَ ٱلسَّلْوٰى

لمّا أهلك اللّه فرعون و جنوده و غرقهم في البحر عدَّد في هذه الآية نعمه على بنيإسرائيل و بدأ بإزالة ما كانوا فيه من الضَّرر من الإذلال و الخراج و الذَّبح و هى آكد أن تكون مقدّمة على المنافع الدنيويّة لأنّ إزالة الضَّرر أعظم في النِّعمة من إيصال تلك المنفعة و لذلك قالوا دفع الضَّرر مقدّم على جلب المنفعة و الى هذا المعنى أشار بقوله: **قَدْ أَنْجَيْنٰاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ** ثمّ أعقب ذلك بذكر المنفعة الدِّينية الّتي توجب الإرتقاء الى مقام الإنسانيّة و الخروج عن الشئون الحيوانيّة و اليه الإشارة بقوله: **وَ وٰاعَدْنٰاكُمْ جٰانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ** إذ أنزل على نبيّهم موسى التّوراة و فيها بيان أحكام دينهم و شرح

١- الدّخان = ٢٥

شريعتهم، ثمّ أعقب ذلك بذكر المنفعة الدُّنيوية و هو قوله: **وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَ ٱلسَّلْوَىٰ** فالمَنّ بفتح الميم هو الّذي يقع على بعض الأشجار و السَّلوى طائر أكبر من السُّمان و الظّاهر أنّ الخطاب كان لمن نجا مع موسى.

من بني‌إسرائيل بعد إغراقهم فرعون فخاطب الجميع بقوله واعدناكم و أن كان الموعودون هم السَّبعين الّذين إختارهم موسى و لسماع كلام اللّه كما قال تعالى: **وَ ٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا**[١] و ذلك لأنّ سماع أولئك السَّبعين تعود منفعته على جميعهم فكأنّهم خوطبوا بذلك جميعاً مضى الكلام في الطُّور الأيمن و المَّن و السَّلوى في سورة البقرة و مريم.

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ

و الطَّيبات قيل المراد بها هنا الحلال اللَّذيذ كلوا، صورته صورة الأمر و المراد به الإباحة أي أباح اللّه لكم الطّيبات من الرزّق ثمّ نهاهم عن الطُّغيان فيما رزقهم اللّه و الطُّغيان هو التَّعدي عن حدود اللّه في الطيبات بأن يكفروها و يشغلهم اللَّهو و النِّعم عن القيام بشكرها و أن ينفقوها في المعاصي و يمنعوا الحقوق الواجبة فيها.

و قال إبن عبّاس في قوله: **وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ** أي لا يكلم بعضكم بعضاً فيأخذه من صاحبه بغير حقٍّ و قال الضّحاك معناه لا تجاوزوا حدّ الإباحة و قيل معناه لا تسرفوا فيها.

أقول ما ذكروه في معنى الكلام لا بأس به لأنّه من مصاديق الطُّغيان إلاّ أنّه خروجٌ عن ظاهر اللّفظ و ذلك لأنّ قوله: **وَ لَا تَطْغَوْا** خطاب لبني‌إسرائيل بأن لا يطغوا فيما رزقهم اللّه من النِّعم و ذلك لأنّ كثيراً ما يصير الإنسان طاغياً

١- الاعراف = ١٥٥

بسبب إقبال الدُّنيا عليه و يصرف نعم اللّه في غير رضىٰ اللّه فيخرج بذلك عن حدّ الإعتدال و ذلك هو الطُّغيان ألا ترى أنّ أكثر الأنبياء و الأمراء يكونون كذلك و حيث أنّ الطُّغيان يوجب سخط اللّه و غضبه قال تعالى: **فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي** فأنّ الّطاغي مبغوضٌ للّه تعالى و من المعلوم أنّ من يحلل عليه غضب اللّه فقد هلك و سقط و اليه الإشارة بقوله: **وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوٰى** و أنّما أشار اللّه تعالى الى ذلك في هذا المقام لأنّ فرعون الّذي يكون مدار البحث عليه من أكبر مصاديق الطّاغين و أظهر المتَّمردين العاصين و منشأ طغيانه لم يكن إلاّ ما ذكره في الآية من أنّه إستعان بنعمة اللّه على مخالفة اللّه ثمّ أنّ قراءة الجمهور، **فَيَحِلَّ** بكسر الحاء و من يحلل بكسر اللاّم من حلَّ يحلُّ، أي فيجب و يلحق و قرأ الكسائي، بضمّ الحاء و ضمّ اللاّم في، يحللّ، من حلَّ يحلّ، أي ينزل، و هى قراءة قتادة أيضاً و قرأ بعضهم بضمّ الياء و كسر الحاء من أحلَّ و مصدره الإحلال و عليه فهو متعدٍّ بنفسه و الفاعل فيه مقدّر ترك لشهرته و تقديره فيحلّ به طغيانكم غضبي عليكم، و دلَّ على ذلك و لا تطغوا، فيصير غضبي في موضع نصب مفعول به و لمّا حذّر تعالى من الطُّغيان و توّعد عليه بحلول غضبه على الطّاغي فتح باب الرّجاء للتّائبين النّادمين و أتى بصيغة المبالغة فقال:

وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اَهْتَدٰى

الغفر في اللُّغة السَّتر و فيه قيل لجنّة الرأس مغفر، ثمّ أنّ الألفاظ المشتّقة من المغفرة في حقّ اللّه تعالى ثلاثة:

أحدها الغافر:

قال اللّه تعالى: **غَافِرِ اَلذَّنْبِ وَ قَابِلِ اَلتَّوْبِ**(۱).

۱- غافر = ۳

ثانيها الغفور:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ رَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **نَبِّئْ عِبادِيَ أَنِّيَ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**(٣) و هكذا غيرها من الأيات.

ثالثها الغفّار:

قال اللّه تعالىٰ **ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّارًا**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفّارِ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **رَبُّ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفّارُ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّارًا**(٧).

و هكذا فقد ثبت أنّ هذه الأسماء بنّص الكتاب ثلاثة قال بعضهم أنّ العبد أيضاً له أسماء ثلاثة مشتّقة من المعصية.

أحدها الظّالم:

قال اللّه تعالىٰ: **فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ**(٨).

ثانيها الظّلوم:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ كانَ ظَلُومًا جَهُولاً**(٩).

ثالثها: الظّلام:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ يا عِبادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ**(١٠).

و من أسرف في المعصية كان ظلّاماً فكأنّ اللّه تعالى قال عبدي لك ثلاثة أسماء في الظّلم بالمعصية ولي ثلاثة أسماء في الرّحمة بالمغفرة فأن كنت

١- الكهف = ٥٨
٢- البرُوج = ١٤
٣- الحجر = ٤٩
٤- نُوح = ١٠
٥- غافر = ٤٢
٦- ص = ٦٦
٧- نوح = ١٠
٨- فاطر = ٣٢
٩- الأحزاب = ٧٢
١٠- الزّمر = ٥٣

ظالماً فأنا غافر، و أن كنت ظلوماً فأنا غفورٌ و إن كنت ظلّاماً فأنا غفّار أنّ صفاتك متناهية و صفاتي غير متناهية كما يليق بي و غير المتناهي يغلب المتناهي فلا تكن من القانطين **وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ**(١) إنتهىٰ كلامه.

و إعلم أنّ الغفور أبلغ من الغافر لأنّ هذا البناء للمبالغة و الغفّار أبلغ من الغفور لأنّه للتّكثير و معناه أنّه يغفر الذّنب بعد الذّنب أبداً و لنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية فنقول:

قوله: **وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ** قال إبن عبّاس من الشّرك، و أمن، أي وحّد اللّه، و عمل صالحاً، أي أدّىٰ الفرائض، ثمّ إهتدى، أي لزم الهداية و أدامها إلىٰ الموافاة على الإسلام، و قيل معناه لم يشكّ في إيمانه، و قيل ثمّ إستقام معناه ثمّ حفظ معتقداته من أن يخالف الحقّ في شيءٍ من الأشياء فأنّ الإهتداء على هذا الوجه غير الإيمان و غير العمل.

و قال صاحب الكشّاف الإهتداء الإستقامة و الثّبات على الهدى المذكور و هو التّوبة و الإيمان و العمل الصّالح و نحوه: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللّٰهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا**(٢) و كلمة التّأخي دلّت على تباين المنزلتين أعني منزلة الإستقامة على الخبر بيانية لمنزلة الخبر نفسه لأنّها أعلى منه و أفضل إنتهى.

أقول معنى الآية لا خفاء فيه من حيث الألفاظ فأنّ التّوبة و الإيمان و العمل الصّالح قد مرَّ الكلام في كلّ واحدٍ منها غير مرّةٍ و قلنا سابقاً أنّ ذكر العمل الصّالح بعد الإيمان دليل على أنّ الإيمان في تحققه مشروطٌ به فمن لا عمل له لا إيمان له و هو ظاهر أنّما الكلام في قوله: **ثُمَّ ٱهْتَدٰى** بعد التّوبة و الإيمان و أنّه تعالى لم يقل و إهتدى أو فإهتدى بل قال: **ثُمَّ ٱهْتَدٰى** المعلوم أنّ كلمة، ثمّ، تفيد التّراخي و لذلك تراهم حيارى في فهم الكلام وكلّ واحدٍ منهم يقول في معنى المراد منه من عند نفسه على أساس تخيّله و توّهمه و لا سيّما رئيس المفسّرين و علّامتهم أعني به صاحب الكشّاف فأنّ مفسري العامّة يأخذون

١- الحجر = ٥٦ ٢- فصّلت = ٣٠

الألفاظ بعضهم من بعضٍ من غير تعَّمقٍ و تدَّبرٍ فيها و ليت شعري ما الّذي دعا الزّمخشري على أن يفّسر الإهتداء بالإستقامة و الثَّبات على الهدى مع عدم مساعدة اللُّغة عليه ولو كان المراد بالإهتداء ما قال الزّمخشري لقال ثمّ إستقام على الهدى و حيث لم يقل ذلك علمنا أنّ الإهتداء غير الإستقامة و الثّبات على الهدى إذا عرفت هذا فنقول:

معنى قوله: **ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ**، أي إهتدى بعد التّوبة و الإيمان إلى ولاية أولياء اللّه الّذين أوجب اللّه طاعتهم و الإنقياد لأمرهم ففيه إشارة إلى أنّ الإيمان و العمل الصّالح لا يكفي إلاّ بالولاية أي ولاية أهل بيت النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كما ورد في الأخبار الواردة من طريق العامّة و الخاصّة.

أمّا العامّة:

فقد روى الحافظ الحسكاني في كتابه المسّمى بشواهد التّنزيل في هذه الآية بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالىٰ: ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ قال عليه السلام: إلى و لايتنا أهل البيت إنتهى.

و بأسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ ءَامَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ قال عليه السلام: إلىٰ ولايتنا أهل البيت إنتهىٰ.

و بأسناده عن عمر بن شاكر البصري عن ثابت البناني في قوله: وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ ءَامَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰقال: إلىٰ ولاية أهل البيت إنتهىٰ.

و بأسناده عن أبي جعفر الباقر عن أبيه عن جدّه قال: خرج رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ذات يومٍ فقال أنّ اللّه تعالىٰ يقول: وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ ءَامَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ثمّ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: لعلّيٍ بن أبي طالب إلىٰ ولايتك إنتهىٰ.

و بأسناده عن زيد بن أسلم عن أبيه عن جدّه عن أبي ذرّ في قول اللّه تعالىٰ: وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ قال: لمن أمن بما جاء به محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و أدّى الفرائض ثمّ إهتدى قال إهتدى إلى حبّ آل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم إنتهىٰ[1].

و أمّا الخّاصة:

و أمّا الأخبار من طريق الخّاصة فكثيرة جدّاً مضافاً الى أنّ الموضوع عندهم من المسلّمات و أنّه لا يقبل اللّه عمل العبد إلاّ بولاية أميرالمؤمنين والأئمة المعصومين و مع ذلك نشر الى شطرٍ منها تيّمناً و تبركاً.

فنقول في أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: أنّ اللّه تبارك و تعالى لا يقبل إلاّ العمل الصّالح و لا يقبل اللّه إلاّ الوفاء بالشُّروط و العهود فمن وفى للّه عزّ وجلّ بشرطه و إستعمل ما وصف في عهده نال ما عنده و إستكمل و عدّه أنّ اللّه تبارك و تعالى أخبر العباد بطرق الهدى و شرع لهم فيها المنار و أخبرهم كيف يسلكون فقال: وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ ءَامَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ و قال إنّما يتّقبل اللّه من المتّقين فمن إتّقى اللّه فيما أمره لقى اللّه مؤمناً بما جاء به محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم إنتهىٰ.

علّي إبن إبراهيم بأسناده عن سَدير قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام و هو داخلٌ و أنا خارجٌ و أخذ بيدي ثمّ إستقبل البيت فقال يا سدير أنّما أمر النّاس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها ثمّ يأتونا فيعلمونا ولايتهم لنا و هو قوله تعالىٰ: وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ ءَامَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ثمّ بيده الى صدّره، الى ولايتنا و الحديث طويل.

١- شواهد التّنزيل ص ٣٧٥ إلى ص ٣٧٧

و في تفسير علّي بن إبراهيم في قوله: لَغَفّٰارٌ لِمَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحًا ثُمَّ اهْتَدىٰ قال عليه السلام: الى الولاية إنتهى.
و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: وَ إِنِّي لَغَفّٰارٌ لِمَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحًا ثُمَّ اهْتَدىٰ قال عليه السلام: ألا ترى كيف إشترط و لم ينفع التّوبة و الإيمان و العمل الصّالح حتّى إهتدى و اللّه لو جهد أن يعمل ما قبل منه حتّى يهتدي، قل قلت الى من، قال عليه السلام الينا إنتهى.
و في أمالي الصدّوق بأسناده الى النّبي، الحديث طويل، وفيه يقول لعلّي عليه السلام و لقد ضلَّ من ضلَّ عنك و لن يهتدي الى اللّه من لم يهتد اليكً و الى ولايتك و هو قول ربّي وَ إِنِّي لَغَفّٰارٌ لِمَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحًا ثُمَّ اهْتَدىٰ يعني إلى ولايته إنتهى.
و فى كتاب المناقب لابن شهر آشوب باسناده عن ابى الصّباح الكنانى عن الصّادق و عن أبي حمزة عن السّجاد عليه السلام في قوله: ثُمَّ اهْتَدىٰ إلينا أهل البيت إنتهى.[١] فقد إتَّضح الأمر بحمد اللّه.

وَ مٰا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يٰا مُوسىٰ

قيل كانت المواعدة أن يوافىّ هو و قومه فلمّا نهض موسى ببنيإسرائيل إلى جانب الطّور الأيمن حيث كان الموعد أن يكلّم اللّه موسى بما فيه شرف العاجل و الآجل رأى على وجه الإجتهاد أن يقدم وعده مبادراً إلى أمر اللّه و حرصاً على القرب منه و شوقاً إلىمناجاته فإستخلف هارون على بنيإسرائيل و قال لهم موسى تسيرون إلى جانب الطُّور فلمّا إنتهى موسى إلى الطّور و ناجى ربّه زاده في الأجل عشراً وحينئذٍ وقفه على إستعجاله دون القوم ليخبره موسى أنّهم على الأثر فيقع الإعلام له بما صنعوا و، ما، في قوله ما أعجلك إستفهاميّة أي أيّ شيءٍ عجّل بك عنهم فقال موسى في الجواب كما حكى اللّه عنه.

١- نور الثّقلين ج ٣ ص ٣٨٦

قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ

قرأ الجمهور على أثري بفتح الهَمَزة و الثّاء و عليها المصاحف و حكى الكسائي، أثري، بضّم الهَمَزَة و سكون الثّاء و قرأ عيسى و يعقوب و زيد بن علّي أَثَرِي بكسر الهَمَزة و الثّاء و أولاء، بالمَّد و الهَمَزة بالإتّفاق، أي قال موسى هم أولاء، أتى بإسم الإشارة لقربهم منه أجاب مشيراً إليهم أنّهم على أثره جاءوا للموعد و ذلك على ما كان عهد إليهم أن يجيئوا للموعد ثمّ ذكر السَّبب الذّي حمله على العجلة و هو طلبه رضا اللّه تعالى في السَّبق إلى ما وعده ربّه و معنى، إليك، أي إلى مكان وعدك و لِتَرْضَىٰ أي ليدوم رضاك و يستّمر لأنّه تعالى كان عنه راضياً.

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ

أصل الفتن إدخال الذّهب النّار لتطهر جودته من رداءته و أستعمل في إدخال الإنسان النّار أيضاً قال اللّه تعالى: **يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ**(١) و تارةً يُستعمل في الإختبار كقوله تعالىٰ: **وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً**(٢) و ما نحن فيه من هذا القبيل و المعنى أنّا إختبرنا قومك من بعدك و أضّلهم السّامري، و قوله: **مِنْ بَعْدِكَ** أي من بعد فراقك لهم.

قال الزّمخشري أراد اللّه بالقوم المفتونين الّذين خلفهم موسى مع هارون و كانوا ست مائة ألف ما نجى من عبادة العجل إلاّ أثنى عشر ألفاً.

فأن قلت في القصّة أنّهم أقاموا بعد مفارقة موسى عشرين ليلة و حسبوا أربعين مع أيّامها و قالوا قد أكملنا العدّة ثمّ كان أمر العجل بعد ذلك فكيف التّوفيق بين هذا و بين قوله لموسى عند مقدمه أنّا **قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ**:

قلت قد أخبر اللّه تعالى عن الفتنة المتّرقبة بلفظ الموجودة الكائنة على

١- الذّاريات = ١٣ ٢- طه = ٤٠

عادته و إفترض السّامري غيبته فعزم على إضلالهم غبّ إنطلاقه و أخذ في تدبير ذلك فكان بدأ الفتنة موجوداً إنتهى.

و قرأ الجمهور، و أضلَّهم فعلاً ماضياً، و قرأ أبو معاذ و فرقة أخرى، **وَ أَضَلَّهُمُ** بضّم اللاّم مبتدأ و السّامري خبره و على هذا فمعنى الآية أنّا قد إختبرنا قومك بعدك و أضَّلهم، أي أضَّل القوم السّامري، و ذلك لأنّ السّامري كان داخلاً في المفتونين و حاصل الكلام كان السّامري أشدّهم ضلالاً، لأنّه كان ضّالاً في نفسه مضّلاً لغيره.

و أمّا على قراءة المشهور فالمعنى أنّا إختبرنا قومك فأضَّلهم السّامري فأسند الضّلال إلى السّامري لأنّه كان السّبب فيه، و السّامري قيل إسمه موسى بن ظفر و قيل منجا و هو إبن خالة موسى أو إبن عمّه أو كان من أعاظم بني‌إسرائيل على إختلاف الأقوال فيه ولو كان من قبيلةٍ تعرف بالسّامرة أو علج من كرمان أو من باجرما أو من اليهود أو من القبط هكذا قيل قالوا أنّه أمن بموسى و خرج معه و كان جاره وقع في مصر فدخل في بني‌إسرائيل بظاهره و كان من عبّاد البقر و لذلك كان في قلبه عبادة البقر و أنّما أمن بموسى ظاهراً و كان سبب ذلك أنّ موسى لمّا وعده اللّه تعالى أن ينزل عليه التّوراة و الألواح الى ثلاثين يوماً، كما قال تعالىٰ: **وَ وٰاعَدْنٰا مُوسىٰ ثَلاٰثِينَ لَيْلَةً**[۱] أخبر موسى بني‌إسرائيل بذلك و ذهب إلى الميقات و خلَّف أخاه هارون على قومه فلمّا جاء الثّلاثون يوماً و لم يرجع موسى إليهم عصوا و أرادوا أن يقتلوا هارون قالوا أنّ موسى كذب و هرب منّا فجاءهم إبليس في صورة رجل فقال لهم أنّ موسى قد هرب منكم و لا يرجع إليكم أبداً فأجمعوا لي حليّكم حتّى أتَّخذ لكم إلهاً تعبدونه و كان السّامري على مقدّمة قوم موسى يوم أغرق اللّه فرعون و أصحابه فنظر إلى جبرئيل و كان على حيوانٍ في صورة رمكة، (الرَّمكة) الفرس تتَّخذ للنسل، و كانت كلّما وضعت حافرها على موضع من الأرض تَّحرك ذلك

۱- الاعراف = ۱۴۲

الموضع فنظر إليه السّامري و كان من خيار أصحاب موسى فأخذ التُّراب من حافر رمكة جبرئيل و كان يتّحرك فصَّره في صرّةٍ و كان عند يفتخر به على بنيإسرائيل فلمّا جاءهم إبليس و إتَّخذوا العجل قال للسّامري هات التّراب الّذي معك فجاء به السّامري فألقاه في جوف العجل فلمّا وقع التُّراب في جوفه تحرَّك و خار و نبت عليه الوبر و الشَّعر فسجد له بنو إسرائيل عدد الّذين سجدوا له سبعين ألفاً منهم فقال لهم هارون كما حكى اللّه عنه: **يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوٓا أَمْرِي**[١].

و سيأتي الكلام فيها فهموا بهارون فهرب منهم و بقوا في ذلك حتّى تمَّ ميقات موسى أربعين ليلة فلمّا كان يوم عشرة من ذي الحجَّة أنزل اللّه علم الألواح فيها التَّوراة و ما يحتاج اليه من أحكام السِّير و القصص فأوحى اللّه الى موسى أنّا قد فتَّنا قومك من بعدك و أضّلهم السّامري، و عبدوا العجل وله خوار، فقال عليه‌السلام يا ربّ العجل من السّامري، فالخوار ممَّن، فقال منّي إنّي لما رأيتهم قد ولّوا عني الى العجل أحببت أن أزيدهم فتنةً.

■

١- طه = ٩٠

فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰا
قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ
عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ
مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى «٨٥» قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا
مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَ لَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ
ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ «٨٦»
فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَآ
إِلَٰهُكُمْ وَ إِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ «٨٧» أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا
يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا
«٨٨» وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰا قَوْمِ إِنَّمَا
فُتِنتُم بِهِۦ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَ
أَطِيعُوٓا أَمْرِى «٨٩» قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ
حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ «٩٠» قَالَ يَٰا هَٰرُونُ مَا
مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا «٩١» أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ
أَمْرِى «٩٢» قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَ لَا
بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى «٩٣» قَالَ فَمَا خَطْبُكَ
يَٰا سَٰمِرِىُّ «٩٤» قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ
سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى «٩٥» قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن
تُخْلَفَهُۥ وَ ٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا

لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٦﴾ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ
عِلْمًا ﴿٩٧﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ
سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٨﴾ مَّنْ أَعْرَضَ
عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿٩٩﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١٠٠﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى
ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا حِمْلًا
﴿١٠١﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٢﴾
نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً
إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٣﴾

◀ اللّغة

غَضْبَٰنَ أَسِفًا: الغضب ضدّ الرّضا و الأسف شدّة الغضب و قد يكون بمعنى الحزن.

بِمَلْكِنَا: أي بطاقتنا.

أَوْزَارًا: الأوزار الأثقال.

فَقَذَفْنَٰهَا: القذف الطَّرح.

خُوَارٌ: الخور الصَّوت الشّديد كصوت البقرة.

فُتِنتُمْ: أي إختبرتم.

نَبْرَحَ: أي لن نذهب.

عَٰكِفِينَ: و العكوف اللُّزوم.

وَلَمْ تَرْقُبْ: أي لم تحفظ.

خَطْبُكَ: أي شأنك و أصل الخطب الجليل من الأمر.

لَنَنْسِفَنَّهُ: يقال نسف فلان الطّعام بالمنسف إذا رآه يشطر عنه قشوره.

وِزْرًا: الوزر بكسر الواو الإثم.

زُرْقًا: أي عمياً، و قيل أزرقت عيونهم من العطش.

◀ الإعراب

بِـمَلْكِنَا بكسر الميم و فتحها و ضمّها و الجميع مصدر بمعنى القدرة فَكَذٰلِكَ صفة لمصدرٍ محذوف أي إلقاء مثل ذلك أَلَّا يَرْجِعُ أن مخفّفة عن الثّقيلة و (لا) كالعوض عن إسمها المحذوف أَلَّا تَتَّبِعَنِ، قيل، لا زائدة، مثل قوله ما منعك أن لا تسجد فَقَبَضْتُ بالضّاد بملا الكفّ و بالصّاد بأطراف الأصابع و قد قرئ به قَبْضَةً فصدر بالضّاد و الصّاد لا مساس يقرأ بكسر الميم و فتح السّين و هو مصدر، ماسة و يقرأ بفتح الميم و كسر السّين و هو للفعل أي لا تمسني ظَلْتَ بفتح الظّاء و كسرها و هما.

لغتان و الأصل ظلت بكسر اللاّم الأولى فحذفت و نقلت كسرتها الى الظّاء و من فتح لم ينتقل لَنَنْسِفَنَّهُ بكسر السّين و ضمّها و هما لغتان قد قرأ بهما عِلْمًا تمييز كَذٰلِكَ صفة لمصدر محذوف أي قصصنا كذلك خَالِدِينَ حال من الضّمير في يحمل زُرْقًا حال يَتَخَافَتُونَ حال أخرى بدل من الأولى أو حالٌ من الضّمير في زرقاً إِنْ لَبِثْتُمْ إن نافية

◀ التّفسير

فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا

و ذلك بعد ما إستوفى الأربعين أي رجع موسى من الطُّور بعد سماعه قوله تعالى: **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**[1] غضبان أي حال كونه غضبان على قومه ممّا فعلوا من عبادتهم العجل و قوله آسفاً، صفة

١- طه = ٨٥

لغضبان و هو أي الأسف أشدّ الغضب و إنتصب غضبان آسفاً على الحال و قيل الأسف الحزن قيل كان غضبه من حيث له قدرة على تغيير منكرهم و أسفه و حزنه من حيث علم أنّه موضع عقوبة.

قال إبن عطيّة الأسف في كلام العرب متّى كان من ذي قدرةٍ على من دونه فهو غضب و متّى كان من الأضعف على الأقوى فهو حزن وكيف كان لمّا رجع موسى الى قومه كان يوبخهم على إضلالهم و لذلك قال لهم **يٰا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا** و الوعد الحسن ما وعدهم من الوُصول الى جانب الطُّور الأيمن و ما بعد ذلك من الفتوح في الأرض و المغفرة لمن تاب و امن و غير ذلك ممّا وعد اللّه أهل طاعته.

و قال الزّمخشري وعدهم اللّه بعد ما إستوفى الأربعين أن يعطيهم التّوراة الّتي فيها هدىً و نور و لا وعد أحسن من ذلك و أجمل، و قال الحسن الوعد الحسن الجنَّة و قيل أن يسمعهم كلامه و العهد الزّمان يريد مفارقته لهم يقال طال عهدي بكذا أي حال زماني بسبب مفارقتك و عدوه أن يقيموا على أمره و ما تركهم عليه من الإيمان فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل و إنتصب وعداً على المصدر و المفعول الثّاني ليعدكم محذوف أو أطلق الوعد و يراد به الموعود فيكون هو المفعول الثّاني، و الحقّ أنّ المراد بالوعد الحسن هو أنّ اللّه تعالى كان وعد موسى بالنّجاة من عدّوهم و مجيئهم إلى جانب الطُّور الأيمن و أنّه تعالى غفّارٌ لمن تاب و أمن و عمل صالحاً ثمّ إهتدى.

أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوعِدِي

قيل في قوله: **أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ** إلىٰ أخره توقيف علىٰ أعذار لم تكن و لا تصحّ لهم و هو طول العهد حتّى يتّبين لهم خلفٌ في الموعد و إرادة حلول غضب اللّه و ذلك كلّه لم يكن، إذ لم يطل العهد ولم يريدوا غضب اللّه قطعاً و

على هذا لا وجه لخلف الموعد و لا عذر لهم في ذلك إلاّ متابعة الشّيطان و قيل المعنى، أفطال عليكم العهد ولقائي فنسيتموه أم أردتم أن يحلّ عليكم أي يجب عليكم، غضبٌ، أي عقاب من ربّكم فأخلفتم موعدي أي أخلفتم ما وعدتموني من المقام على الطّاعات.

و قال الحسن ألم يعدكم ربّكم وعداً حسناً، في الأخرة على التّمسك بدينه في الدّنيا و قيل الّذي وعدهم اللّه به التّوراة و فيها النّور و الهدى ليعلموا بما فيها و يستّحقوا عليه الثّواب و كانوا و عدوه أن يقيموا على أمرهم فأخلفوا ثمّ أنّهم أجابوا فقالوا.

قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَ لَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ

أي أنّهم قالوا في جواب موسى ما أخلفنا موعدك بملكنا أي بطاعتنا.

قال بعض المفسّرين أي قال المؤمنون أن نرّد عن ذلك السّفهاء و قال إبن زيد معناه لم نملك أنفسنا للبليّة التّي وقعت بنا، فمن فتح الميم أراد المصدر و من كسرها أراد ما يتّملك و من ضمّ أراد السّلطان و القُّوة به و قد قريئ بالوجوه الثّلاثة و الظّاهر أنّها لغات فيه و المعنى واحد و قال الزّمخشري أي ما خلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا أي لو ملكنا أمرنا و ضلّينا و رأينا لما أخلفناه و لكن غلّبنا من جبهة السّامري وكيده إنتهى.

و نقل القرطبي في تفسيره عن إبن كثير و أبي عمرو و إبن عامر، بملكنا، بكسر الميم قال و إختاره أبو عبيد و أبو حاتم لأنّها اللّغة العالية و هو مصدر ملكت الشّيئ أملكه ملكاً و المصدر مضاف إلى الفاعل و المفعول محذوف كأنّه قال بملكنا الصّواب بل أخطأنا فهو إعتراف منهم بالخطأ إنتهى كلامه.

أقول قوله: **قالُوا** عامّ يراد به الخاصّ أي قال الذّين تبّقوا على طاعة اللّه إلىٰ أن يرجع إليهم من الطُّور، ما أخلفنا موعدك، و كانوا أثنى عشر ألفاً جميع

بني‌إسرائيل ست مائة ألف و قوله: وَ لَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ ٱلْقَوْمِ، بضّم الحاء و تشديد الميم مكسورة و قرأ نافع و إبن كثير و إبن عامر و حفص بفتح الحرفين خفيفةً و إختار أبو عبيد و أبو حاتم لأنّهم حملوا على القوم معهم حملوها كرهاً، أوزاراً، أي أثقالاً من زينة القوم أي من حلّيهم وكانوا إستعاروه حين أرادوا الخروج مع موسىٰ عليه‌السلام و قيل هو ما أخذوه من آل فرعون لمّا قذفهم البحر إلى السّاحل و سمّيت أوزاراً بسبب أنّها كانت أثاماً أي لم يحلّ لهم أخذها و لم تحلّ لهم الغنائم و أيضاً فالأوزار هي الأثقال في اللّغة

و قال بعض المفسّرين المراد بالصّوم هنا القبط و أنّهم كانوا إستعاروها في القبط برسم التّزين و قيل أمرهم بالإستعارة موسى عليه‌السلام و قيل أمر اللّه موسى به و قيل الأوزار التّي هي الأثام من جهة أنّهم لم يردُّوها إلى أصحابها و معنى أنّهم حمّلوا الأثام و قذفوها على ظهورهم كما جاؤهم يحملون أوزارهم على ظهورهم و قوله فقذفناها فكذلك ألقى السّامري، فالقذف الرّمي، أي ثقل علينا حمل معنا من الحلّي فقذفناها في النّار ليذوب أي طرحناه فيها و قيل طرحناه إلى السّامري لترجع فترى فيها رأيك، و قيل أي قذفناها على أنفسنا و أولادنا، و الحقّ أنّهم قذفوا الحلّي في النّار و كان أشار عليهم بذلك السّامري فحفرت حفرة و سجرت فيها النّار و قذف كلّ من معه شيءٍ ما عنده من ذلك في النّار و قذف السّامري أيضاً ما معه فيها، فقوله: فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ أي مثل قذفنا إيّاها ألقى السّامري ما كان معه و ظاهر هذه الألفاظ أن العجل لم يصنعه السّامري، و قال الزّمخشري في قوله: فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ، أنّه أراهم أنّه يلقي حلّياً في يده مثل ما ألقوا و أنّما ألقى التّربة التّي أخذها من موطئ حيزوم فرس جبرئيل عليه‌السلام أوحى إليه وليّه الشّيطان أنّها إذا خالطت مواتاً صار حيواناً فأخرج لهم السّامري من الحفرة عجلاً خلقه اللّه من الحلّي التّي سبكتها النّار تخور كخور العجاجيل و المراد بقوله أنّا قد فتّنا قومك هو خلق العجل

للإمتحان أي إمتحنّاهم بخلق العجل و حملهم السّامري على الضّلال و أوقعهم فيه حين قال لهم هذا إلهكم و إله مُوسى إنتهى.

و قال الأخرون أنّ السّامري قال لهم حين إستبطأ القوم موسى أنّما إحتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلّي فجمعوه و دفعوه إلى السّامري فرمى به في النّار و صاغ لهم منه عجلاً ثمّ ألقى عليه قبضةً من أثر فرس الرّسول جبرئيل و قال معمر الفرس الذّي كان عليه جبرئيل هو الحياة فلمّا ألقى عليه القبضة صار عجلاً حسداً له خوار و الخوار صوت البقر.

و قال إبن عبّاس لمّا إنسبک الحلّي في النّار جاء السّامري و قال لهارون يانبّي اللّه ألقي ما في يدي و هو يظُن أنّه كبعض ما جاء به غيره من الحلّي فقذف التّراب فيه و قال كن عجلاً جسداً له خوار فكان كما قال للبلاء و الفتنة فخار خورةً واحدة لم يتبعها مثلها و قيل خواره و صوته كان بالرّيح لأنّه كان عمل فيه خروقاً فإذا دخلت الرّيح في جوفه خار و لم تكن فيه حياة و هذا قول مجاهد.

و علىٰ القول الأوّل كان عجلاً من لحمٍ و دمٍ و هو قول الحسن و قتادة و السُّدي.

و روي عن إبن عبّاس أنّه قال، مرَّ هارون بالسّامري و هو يصنع العجل فقال ما هذا قال ينفع و لا يضر فقال لهمّ أعطه ما سألك على ما في نفسه فقال اللّهم أنّي أسالك أن يخور و كان إذا خار سجدوا و كان الخوار من أجل دعوة هارون قال إبن عبّاس خار كما يخور الحيّ من العجول.

روي أنّ موسى قال ياربّ هذا السّامري أخرج لهم عجلاً جسداً له خوار من حلّيهم فمن جعل الجسد و الخوار قال اللّه تبارك وتعالى، أنا، قال موسى و عزّتك و جلالك وإرتفاعك و علّوك و سلطانك ما أضَّلهم غيرك قال صدقت يا حكيم الحكماء.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ

أي لمّا أخرج السّامري عجلاً جسداً له خوار على ما مرّ بيانه قال هو و أتباعه الّذين كانوا قائلين بالتّشبيه، إذ قالوا إجعل لنا إلهاً كما لهم ألهة، و قيل الضّمير في، فقالوا، عائد على بني‌إسرائيل أي ضّلوا حين قال كبارهم لصغارهم، و الضّمير في قوله: **فَنَسِيَ** قيل أنّه عائد على السّامري أي فنسى إسلامه أو فترك ما كان عليه من الدّين.

و قيل عائد على موسى أي فنسي موسى أن يذكر لكم أنّ هذا إلٰهكم أو فنسي الطّريق إلى ربّه، أو فنسي موسى إلهه عندكم و خالفه في طريقٍ أخر و على هذه الأقوال يكون قوله: **فَنَسِيَ** من كلام السّامرى.

أقول قال علّي بن إبراهيم في تفسيره و كان سبب ذلك أنّ موسى لمّا وعده اللّه أن ينزل عليه التّوراة و الألواح إلىٰ ثلاثين يوماً أخبر بني‌إسرائيل بذلك و ذهب إلى الميقات و خلف هارون على قومه فلمّا جاءت الثّلاثون يوماً ولم يرجع موسى إليهم غضبوا و أرادوا أن يقتلوا هارون قالوا أنّ موسى كذّبنا و هرب منّا فجاءهم إبليس في صورة رجل فقال لهم أنّ موسى قد هرب منكم و لا يرجع إليكم أبداً فأجمعوا لي حلّيكم حتّى أتوذ لكم إلٰهاً تعبدونه السّامري على مقدّمة موسى يوم أغرق اللّه فرعون و أصحابه فنظر إلى جبرئيل على حيوانٍ في صورة رمكة فكانت كلّما وضعت حافرها على موضع من الأرض تحّرك ذلك الموضع فنظر إليه السّامري و كان من خيار أصحاب موسىٰ فأخذ التُّراب من تحت حافر رمكة جبرئيل و كان يتَّحرك فصَّره في صرّةٍ و كان عنده يفتخر به على بني‌إسرائيل فلّما جائهم إبليس و أتَّخذوا العجل قال للسّامري هات التّراب الّذي معك فجاء به السّامري فألقاه إبليس في جوف العجل فلّما وقع التّراب في جوفه تحّرك وفار و بنت عليه الوبر و الشَّعر فسجد له بنو إسرائيل و كان عدد الّذين سجدوا سبعين ألفاً من بني‌إسرائيل إنتهى موضع الحّاجة من كلامه.

ثمّ بيّن اللّه تعالى فساد إعتقادهم و قال:

أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعًا

قيل أنّ المراد بالرؤية رؤية البصر رؤية القلب فعلى الأوّل يكون الإستفهام للإنكار و على الثّاني للتّوبيخ، و المعنى أفلا يرون إتّباع السّامري أنّ العجل لا يكلّمهم و لا يملك لهم نفعاً و لا ضرّاً و إذا كان كذلك فكيف يعبدونه و هذا كقول إبراهيم عليه السلام حيث قال لأبيه لم تعبد ما لا يسمع و لا يبصر و الحقّ أنّ الرُّؤية هنا بمعنى العلم و لذلك جاء بعدها المخّففة من الثّقيلة كما جاء ألم يروا أنّه لا يكلّمهم و قرأ أبو حياة، أن لا يرجع بنصب العين، و المقصود أنّ الإله هو الّذي يضّر و ينفع و يعطي و يمنع كالّذي يعبده موسى و قوله: **أَلَّا يَرْجِعُ** تقديره فلذلك إرتفع الفعل فخّففت أن، و حذف، الضّمير و هو المختار في الرّؤية و العلم و الظّن.

قال الشّاعر:

في فتنةٍ من سيوف الهند قد علموا — أن هالكُ كلّ من يحفى و ينتعل

و قد يحذف مع التّشديد أيضاً كقوله:

فلو كنت جنّياً عرفت قرابتى — و لكن زنجّيُ عظيم المشافر

أي ولكّنك.

وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هٰرُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُوني وَ أَطِيعُوٓا أَمْري

أخبر اللّه عزّ وجّل أنّ هارون قد كان قال لهم في أوّل حال العِّجل إنّما هي فتنة و بلاء و تمويهٌ من السّامري و إنّما ربّكم الرّحمن الّذي له القدرة و العلم و الخلق و الإختراع فأتّبعوني الى الطُّور الّذي واعدكم اللّه إليه و أطيعوا أمري فيما ذكرته لكم و ما على الرّسول إلاّ البلاغ لكنّهم لم يسمعوا قوله ولم.

يطيعوه بل خالفوه، و الضّمير في (به) عائد على العجل زجرهم هارون عن الباطل أوّلاً بقوله: **إِنَّمَا فُتِنتُم** به ثمّ نبّههم على معرفة ربّهم بقوله: **إِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ** ألخ و إنّما ذكر وصف الرّحمة حيث قال: **إِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ**، ولم يقل و أنّ ربّكم اللّه مثلاً تنبيهاً على أنّهم متى تابوا و رجعوا عمّا كانوا عليه من عبادة العجل شملتهم الرّحمة الإلهيّة لأنّ رحمته وسعت كلّ شيءٍ و مع ذلك هي سبقت غضبه، و فيه أيضاً تذكيرٌ من تخليصهم و نجاتهم من فرعون قبل أن يوجد العجل ثمّ أمرهم بإتّباعهم تنبيهاً على أنّه مفترض الطّاعة في زمان غيبة موسى بأمرٍ من اللّه و رسوله و قرأت فرقة، إنّما و أنّ ربّكم، بفتح الهمزتين و تخريج هذه القراءة على لغة سليم حيث يفتحون، أن، بعد القول مطلقاً، و الجمهور على كسر الهمزة فيهما ولّما وعظهم هارون و نبّههم على ما فيه رشدهم إتّبعوا سبيل الغّي كما حكى اللّه عنهم بقوله:

قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ

أي قالوا في جواب هارون حين نهاهم عن عبادة العجل لن نزال لازمين لهذا العجل مقيمين على عبادته حتّى يرجع إلينا موسى من الطّور فننظر ما يقول، و**العُكُوف** بضّم العين و الكاف لزوم الشّيء مع القصد إليه على مرور الوقت و منه الإعتكاف في المسجد و غيّوا ذلك برجوع موسى للدّلالة على أنّ، لن، لا تقتضي التّأبيد خلافاً للزّمخشري إذ لو كان من موضوعها التّأبيد لما جازت التّقية، يجتّبئ، لأنّ التّغية لا تكون إلاّ حيث يكون الشّيء محتملاً فيزيل ذلك الإحتمال بالتّغيية و محصلّ الكلام أنّهم عكفوا على عبادة العجل ولم يطيعوا هارون الى أن رجع موسى من التيات فلمّا جاء موسى و رأى من قومه ما رأى من عبادة العجل قال لأخيه هارون ما حكى اللّه عنه بقوله:

قَالَ يَا هَرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي

قيل في الكلام حذف و تقديره فرجع موسى و وجدهم عاكفين على عبادة العجل فقال يا هارون، و كان ظهور العجل في سادس و ثلاثين يوماً و عبدوه و جاءهم موسى بعد إستكمال الأربعين فغضب موسى على عدم إتباعه لمّا رآهم قد ضّلوا و، لا، في أن لا، زائدة كما في قوله: **مَا مَنَعَكَ** أن لا تسجد، و قال بن عيسى، دخلت، (لا) هنا لأنّ المعنى ما دعاك الى أن لا تتّبعني و ما حملك على أن لا تتّبعني بمن معك من المؤمنين أفعصيت أمري، يريد قوله أخلفني الآية إنتهى.

و عليه فليست بزائدة و قال صاحب الكشّاف معناه، ما منعك أن تتّبعني في الغضب للّه و شدّة الزّجر عن الكفر و المعاصي هلاّ ما قلت من كفر بمن آمن و مالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً أو مالك فلحقتني إنتهى.

أقول ما ذكره الزّمخشري لا يستفاد من ألفاظ الآية و أنّما قال ما قال من عند نفسه و لا سيّما قوله هلاّ قاتلت من كفر بمن آمن، ألم يعلم موسى أنّ من بقى على الإيمان كان قليلاً بالنّسبة الى من كفر و عبد العجل فكيف أمكن لهم القتال مع عبدة العجل.

و الحقّ في المعنى أنّ قوله: **أَلَّا تَتَّبِعَنى** حيث لم يذكر متعلّقه كان الظّاهر أن لا تتّبعني الى جبل الطّور ببني إسرائيل ألا ترى أنّ هارون إعتذر بقوله: **إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ**. و ذلك لأنّ هارون لو إتّبع موسى مع المؤمنين فرّق بينهم لا محالة إذ كان لا يتبعه إلاّ المؤمنون و يبقى عبّاد العجل عاكفين عليه كما قالوا لن نبرح عليه عاكفين، و يحتمل أن يكون المعنى في تتّبعني، أي تسير بسيري في الإصلاح و التّسديد و على هذا فيجئ إعتذاره أنّ الأمر تفاقم فلو تقوّيت عليه تقاتلوا و إختلفوا فكان تفريقاً بينهم و

أنّما لأبيت جهدي. و أمّا قوله: **أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي.** فصورته صورة الإستفهام و المراد به التّقرير لأنّ موسى كان يعلم أنّ هارون لم يعصيه في أمره.

قَالَ يَابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي

قيل كان موسى شديد الغضب للّهِ و لدينه فلمّا رجع عن الطُّور و رأى قومه عبدوا عجلاً من دون اللّه بعد ما شاهدوا من الأيات العظام لم يتمالك أن أقبل على أخيه قابضاً على شعر رأسه و كان هارون كثيرالشَّعر و على شعر وجهه يجرّه اليه، و قيل أخذ موسى بلحيته و رأسه و ذكر في التّبيان في وجه ذلك قولين:

أحدهما: أنّ عادة ذلك الوقت أنّ الواحد إذا خاطب غيره قبض على لحيته كما يقبض على يده في عادتنا و العادات تختلف فلم يكن كذلك على وجه الإستخفاف.

الثّاني: أنّه أجراه مجرى نفسه إذا غضب، في القبض على لحيته لأنّه لم يكن يهتّم عليه كما لا يهتّم على نفسه إنتهى.

قال أي قال هارون لموسى لمّا أخذ بلحيته و رأسه، يا بن أمَّ بفتح الميمعلى قراءة إبن كثير و أبي عمرو و عاصم في رواية حفص و كسر الميم على قراءة غيرهم فمن فتح الميم جعل إبن أمّ، إسماً واحداً و بناهما على الفتح مثل خمسة عشر، إلاّ أنّها تضّمن معنى الواو و تقديره خمسة و عشرة، و إبن أمّ، بمعنى اللاّم و تقديره لأمّي و كلاهما على تقدير الإتّصال بالحرف على جهة الحذف، و يجوز يابن أمّ، على الأضافة و لم يجئ هذا البناء إلاّ في يابن أمّ و يابن عمّ، و يحتمل أن يكون أراد يابن أمّاه، فرّخم، و من كسر الميم أراد يابن أمّي، لأنّ العرب تقول يابن أمّا بمعنى يابن أمّي، و يا ربّا بمعنى يا ربّي و على هذا فمن كسر أراد يابن أمِّي، فحذف الياء و أبقى الكسرة تدلّ عليها إنتهى.

ما قاله في التّبيان و المعنى قال هارون لموسىٰ لا تأخذ بلحيتي و لا برأسي، و اللَّحية بفتح اللاّم لغة أهل الحجاز و بكسرها لغة غيرهم و المشهور على كسر اللاّم و عليه المصاحف و لو قلنا أنّ القرآن أنزل بلغة أهل الحجاز فالفتح أولى.

ثمّ قال هارون له إنّي خشيت أن تقول فرَّقت بين بنيإسرائيل، و ذلك لأنّ هارون لو فعل ذلك على وجه العنف و الإكراه إختلفت كلمتهم و تفَّرقت أحزابهم فكان بعضهم يلحقون بموسى مع هارون و بعضٍ أخر يقيمون مع السّامري، و بعضٌ أخر يقيمون على الشكّ في أمره و لا نعني بالإختلاف إلاّ هذا و قوله: **وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي**، من كلام هارون أي إنّي خفت أن تقول لم ترقب قولي، أي لم تحفظ قولي و ذلك لأنّ موسى نهاه عن الإختلاف حين إستخلفه ولمّا إعتذر له أخوه رجع موسى إلى مخاطبة السّامري الذّي أوقع القوم في الضّلال كما حكى اللّه عنه بقوله: **فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ** أي ما شأنك و ما دعاك إلى ما صنعت من إضلال القوم و أصل الخطب الجليل من الأمر فكأنّه قيل ما هذا الأمر العظيم الذّي دعاك إلى ما صنعت.

قال إبن عطيّة لفظة الخطيب تقتضي إنتهاراً لأنّ الخطب يستعمل في المكاره فكأنّه قال ما نحسك و ما شؤمك و ما هذا الخطب الّذي جاء من قبلك.

أقول ما ذكره ليس بشيءٍ فأنّ الخطب يستعمل في المكاره و غيرهما قال اللّه تعالى فما خطبكم أيّها المرسلون، و هو قول إبراهيم لملائكة اللّه فليس هذا إنتهاراً و لا شيئاً ممّا ذكره و قال الزّمخشري، خطب مصدر خطب الأمر إذا طلبه فإذا قيل لمن يفعل شيئاً ما خطبك فمعناه ما طلبك له إنتهى.

و منه خطبة النّكاح و هو طلبه و قيل هو مشتقٌّ من الخطاب كأنّه قال له ما حملك على أن خاطبت بنيإسرائيل بما خاطبت و فعلت معهم ما فعلت و كيف كان لا شكّ أنّ إضلال القوم أمرٌ عظيمٌ فصحّ أن يقال له ما خطبك يا سامرّي، قيل أنّه كان من خيار أصحاب موسى و كان عظيماً في بنيإسرائيل من قبيلةٍ يقال لها سامرة و لكن نافق بعد ما قطع البحر مع موسى فلمّا مرّت بنو

إسرائيل بالعمالقة و هم يعكفون على أصنامٍ لهم قالوا يـاموسى إجـعل لنـا إلهـاً كما لهم ألهة، فإغتنمها السّامري و علم أنّهم يميلون إلى عـبادة العـجل فـإتّخذ العجل على ما مرَّ بيانه فلمّا قال له موسى ما قال السّامري مجيباً له كـما حكـى اللّه تعالى عنه بقوله:

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَ كَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي

المراد بالرّسول هو جبرئيل عليه السلام و المعنى قال السّامري في جـواب مـوسى لمّا قال له ما خطبك يا سامرّي، بصرت بما لم يبصروا، أي رأيت مـا لم يـروه، رأيت جبرئيل على فرس الحياة فألقى في نفسي أن أقبض من أثره قبضة فـما ألقيته على شيٍ إلاّ صار له روحٌ و لحـمٌ و دمٌ فـلمّا سألوك أن تـجعل لهـم إلٰـهاً زيّنت لي نفسي ذلك، و قيل قال السّامري رأيت جبرئيل عـلى الفـرس و هـى تلقي خطوها مدَّ البصر فألقي في نفسي أن أقبض من أثرها ممّا ألقيته على شيٍ إلاّ صار له روحٌ و دمٌ.

و قيل رأى جبرئيل نزل على رمكةٍ وديقٍ (وهي الفرس الّتي تشتهي الفحل) فتّقدم خيل فرعون في ورود البحر و يقال أنّ أمّ السّامري جعلته حين وضـعته في غارٍ خوفاً من أن يقتله فرعون فجاء جبرئيل فجعل كف السّـامري فـي فـم السّامري فرضع العسل و اللّبن فإختلف إليه فعرفه من حينئذٍ.

أقول أنظر إلى هذه الأباطيل الّتي ذكروها في تفاسيرهم و حملوا كـلام اللّـه عليها، ثمّ أنّهم إختلفوا في قراءة هذين الحرفين أعني بهما قـوله: **بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا** فأهل المدينة و البصرة قرأوا بالياء و قرأ قرّاء الكوفة بالتّاء علىٰ وجه المخاطبة لموسى فعلى القراءة الأولى معنى الكلام **بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُر** به بنو إسرائيل و على الثّانية معناه بصرت بـما لم تـبصروا، أنت و أصـحابك قـال الطّبري بعد نقله ما نقلناه عنه ما لفظه.

و القول في ذلك عندي أنّهما قراءتان معروفتان قد قرأ بكل واحدةٍ منها علماء من القرّاء مع صحّة معنى كلّ واحدةٍ منها و ذلك أنّه جائز أن يكون السّامري رأى جبرئيل فكان عنده ما كان بأن حدَّثته نفسه بذلك أو بغير ذلك من الأسباب أنّ تراب حافر فرسه الذّي كان عليه يصلح لما حدث عنه حين نبذه في جوف العجل ولم يكن علم ذلك عند موسى و لا عند أصحابه من بنيإسرائيل فلذلك قال لموسى بصرت بما لم تبصروا به أي علمت بما لم تعلموا به و أمّا إذا قرئ بصرت بما لم بصروا به بالياء فلا معونة فيه لأنّه معلوم أنّ بنيإسرائيل لم يعلموا ما الّذي يصلح له ذلك التّراب إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره في توجيه القراءة بالتّاء لا وجه له بل نقول أنّه باطلٌ عاطلٌ و ذلك لأنّ موسى كان من أعاظم الأنبياء فكيف يعقل أن يكون السّامري أعلم منه ولو كان كذلك فينبغي أن يكون السّامري نبيّنا لا موسى بقبح تقديم المفعول على الفاعل عقلاً نعم ما ذكره الطّبري صحيحٌ على مسلك القوم حيث جوَّزوا تقديم المفضول على الفاضل و لذلك قدَّموا أبا بكر و بعده عمر و بعده عثمان و حتّى معاوية على علّي بن أبي طالب إذ لا قبح عندهم في هذا التّقديم، و على هذا فقرائة التّاء لا وجه لها و قرائة اليّاء هي الأصحّ المصاحف أيضاً فالمخاطب بهذا الكلام في الحقيقة بنو إسرائيل و أمّا موسى فهو خارجٌ عن المراد و المعنى بصرت أي رأيت ما لم يبصروا أي ما لم يروه و هذا ممّا لا إشكال فيه.

و أمّا قوله: **فَقَبَضْتُ قَبْضَةً** فالمشهور على قرائته بالضّاد من القبض الأخذ أي فأخذت بكفّي كلّها تراباً من تراب أثر فرس الرّسول و عن الحسن أنّه قرأها بالصّاد، قالوا القبضة عند العرب الأخذ بالكّف كلّها، و القبصة بالصّاد الأخذ بأطراف الأصابع و أنت ترى أنّ المعنى واحدٌ إذ لا فرق بين الأخذ بالكّف و الأخذ بأطراف الأصابع إلاّ بالإعتبار، و قوله: **فَنَبَذْتُهَا**، أي طرحتها و قد مرَّ بيانه و قوله: **وَكَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي**، أي حدَّثتني نفسي و قيل زيَّنت لي نفسي.

قال الرّاغب التّسويل تزيين النّفس لما تحرص عليه و تصوير القبيح منه بصورة الحسن:

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْ سَوَّلَتْلَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ**(۲).

و قد إتّفق أهل اللُّغة على أنّ التّسويل هو تزيين النّفس لما تحرص عليه.

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيٰوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَ ٱنْظُرْ إِلَىٰٓ إِلٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا

قال موسى عند ذلك، **فَاذْهَبْ**، يا سامري، فأنّ لك في الحياة أن تقول لا مساس، و إختلفوا في معناه فقال قومٌ معناه تقول لا أمس و لا أمس و كان موسى أمر بنيإسرائيل أن لا يواكلوه و لا يخالطوه يبايعوه.

و قال الجبائي معناه لا مساس لأحدٍ من النّاس لأنّه جعل يهيم في البّرية مع الوحش و السّباع و قوله لا مساس بالكسر و الفتح فأن كسرت فمثل لا رجال فتحت بنيت على الكسر مثل نزال، قال الشّاعر:

تميمٌ كرهط السّامري و قوله   ألا لا يريد السّامري مساساً

و كلّه بمعنى المماسة و المخالطة إنتهى ما ذكره في التّبيان.

و قيل كان موسى لا يقتل بنيإسرائيل إلاّ في حدٍّ أو وحيٍ فعاقبه بإجتهاد نفسه بأن أبعده و نحّاه عن النّاس و أر بنيإسرائيل بإجتنابه و إجتناب قبيلته و أن لا يؤاكلوا و لا يناكحوا و جعل له أن يقول مدّة حياته لا مساس أي لا مماسة مخالطة.

و قال الزّمخشري، عوقب في الدُّنيا بقوبةٍ لا شيئ أعلّم منها و أوحش أنّه منع من مخالطة النّاس منعاً كليّاً و حرّم عليهم ملاماته و مكالمته و مبايعته و

۱- يوسف = ۱۸   ۲- يوسف = ۸۳

مواجهته و كلّ ما يعايش به النّاس بعضهم بعضاً و إذا إتّفق أن يمّاس أحداً رجلاً أو إمرأةً حمَّ المماس و الممسوس فتحامى في النّاس و تحافوه و كان يصيح لا مساس و يقال أنّ قومه باق فيهم ذلك الى اليوم إنتهى.

ثمّ أنّ الفاء دخلت للتّعقيب أثر المحاورة و طرده بلامهلةٍ زمانيّة و أنّما عبّر بالمماسّة عن المخالطة لأنّها أدنى أسباب المخالطة فنسبّه بالأدنى على الأعلى و على هذا فالمعنى لا مخالفة بينك و بين النّاس ما دمت حيّاً فنفر السّامري من النّاس و لزم البّرية و بقى مع الوحوش الى أن إستوحش و صار إذا رأى أحداً يقول لا مساس أي لا تمسّني و لا أمسك و قيل إبتلى بعذاب قيل له لا مساس بالواسواس و هو الّذي عناه الشّاعر بقوله:

فأصبح ذلك السّمرى إذ قال له موسى لا مساساً

و قيل أنّ موسى أراد قتله فمنعه اللّه عنه لأنّه كان شيخاً.

و أعلم أنّ الجمهور قرأوا لا مساس بفتح السّين و كسر الميم و مساس مصدر ماس كقتال من، قاتل، و هو منّفي بلا الّتي لنفي الجنس و هو نفيٌ أريد به النّهي أي لا تمسني و لا أمسك وقرأ بعضهم بفتح الميم و كسر السّين على صورة، نزال، و نظار، من أسماء الأفعال بمعنى أنزل و أنظر، و قوله: **وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ** قيل المراد بالموعد القيامة وقرأ الجمهور، تخلفه، بالتّاء المضمومة و فتح اللاّم على معنى لن يقع فيه خلف بل ينجزه لك اللّه في الأخرة على الشّرك و الفساد بعد ما عاقبك في الدُّنيا.

و قرأ أبي كثير و الأعمش و أبو عمر و بضّم التّاء و كسر اللاّم أي لن تستطيع الروغان عنه و الحيدة فتزول عن موعد العذاب، و قرأ إبن مسعود و الحسن نحلفه بالنُّون و كسر اللاّم أي لا ننقص ممّا وعدناك من الزّمان شيئاً **وَ ٱنْظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا** ثمّ قال موسى للسّامري و أمظر الى إلهك الّذي ظلت عليه عاكفاً، قيل أصله ظللّت، فحذف اللاّم المكسورة للتّخفيف و كراهيّته التّضعيف و للعرب فيها مذهبان، و

فتح الظّاء و كسرها فمن فتح تركها على حالها و من كسرها نقل حركة اللاّم اليها للإشعار بأصلها مثله و مست و مِست في مَسَت و أنمّا خاطبه وحده و قال: **وَ ٱنْظُرْ**، ولم يقل و أنظروا إذ لو كان هو رأس الضّلال و هو ينظر لقولهم لن نبرح عليه عاكفين و اللاّم في قوله: **لَنُحَرِّقَنَّهُ** و قوله: **لَنَنْسِفَنَّهُ**، قيل لام القسم فأقسم موسى لنحرَّقنه و هو أعظم فساد الصُّورة ثمّ للنسَّفنه في اليَّم و هو البحر حتّى تتَّفرق أجزاءه فلا يجتمع.

قيل أنّه حرَّقه ثمّ ذرأه في البحر، قيل لمّا كان قد أخذ السّامري القبضة من أثر فرس جبرئيل و هو داخل البحر حاله تقدّم فرعون و تبعه فرعون في الدُّخول ناسب أن ينسف ذلك العجل الّذي صاغه السّامري من الحلّي الّذي كان أصله للقبط و ألقى فيه القبضة في البحر ليكون ذلك تنبيهاً على أنّ ما كان به قيام الحياة آل الى العدم و ألقي في محلّ ما قامت به الحياة و أنّ أموال القبط قذفها اللّه في البحر بحيث لا ينتفع بها كما قذف اللّه أشخاص مالكها في البحر و غرقهم فيه إنتهى.

و فتح الظّاء و سكون اللاّم هو المشهور في قراءة الجمهور و عليه المصاحف و قرأ بعضهم بكسر الظّاء و ضمّها كما قرأ بعضهم ظللت بلامين على الأصل و حاصل معنى الكلام أنّ موسى قال للسّامري الّذي صنع العجل و جعله معبوداً لهم أنّ هذا المعبود الّذي إتّخذته معبوداً و عكفت أنت و من تبعك عليه لنحرَّقنه بالنّار ثمّ لننسَّفنه في البحر حتّىٰ تتفرّق أجزاءه و فيه إشعار بعدم كونه إلهاً معبوداً إذ لو كان إلهاً لما قدرنا على إحراقه و إعدامه، ثمّ أنّ في قوله: **لَنُحَرِّقَنَّهُ** ثلاث قرآت.

الأولىٰ: لنحرّقنّه مشدداً مضارع، حرَّق مشدّداً و على هذا القراءة تكون الحاء في، لنحرَّقنه، مكسورة.

الثّانية: قرأ قتادة و أبو جعفر و الحسن مخفّفاً، من أحرق رباعيّاً، و على هذه بقراءة تكون الحاء ساكنة.

الثّالثة: فتح النّون من حرق يحرق مخفّفاً و عليها تكون الحاء أيضاً ساكنة و الرّاء في المضارع مضمومة و الظّاهر أنّ حرّق و أحرق هو بالنّار.

و أمّا القراءة الثّالثة فمعناها لنبردنّه بالمبرد يقال حرق يحرق بضمّ راء المضارع وكسرها و ذكر أبو علّي أنّ التّشديد قد يكون مبالغة في، حرق، إذا برد بالمبّرد.

قال السّدي أمر موسى بذبح البقرة فذبحت و سال منه الدّم ثمّ أحرقت و نسفت رمادها إنتهى.

و هو بعيد قال الجمهور أنّ موسى تعجل وحده فوقع أمر العجل ثمّ جاء موسى و صنع به ما صنع ثمّ خرج بعد ذلك بالسّبعين على معنى الشّفاعة في ذنب بني‌إسرائيل و أن يطلعهم أيضاً على أمر المناجاة فكان لموسى عليه‌السلام نهضتان و قيل أنّ موسى عليه‌السلام كان مع السّبعين في المناجاة و حينئذٍ وقع أمر العجل و أنّ اللّه أعلم موسى بذلك فكتمه و جاء بهم حتّى سمعوا لغط بني‌إسرائيل حول العجل فحينئذٍ أعلمهم موسى إنتهى.

و كيف كان لمّا أحرق العجل و فرغ من إبطال ما عمله السّامري عاد إلى بيان دين الحقّ كما حكى اللّه تعالى عنه بقوله:

إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا

كلمة، أنّما تفيد الحصر و المعنى أنّ إلهكم منحصرٌ في اللّه الّذي **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**، و هو الواجب الوجود المستجمع لجميع الكمالات إذ قد ثبت أن كلمة، اللّه، علمٌ على الأصحّ للذّات الواجب الوجود و لا يطلق على غيره و هذا أي قوله: **لا إله إلاّ اللّه** يعبّر عنه بكلمة التّوحيد و عليها كان شعار الأنبياء في جميع الأديان فأنّ أوّل الدّين معرفته تعالىٰ: **وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** قرأ الجمهور وسع، مخفّفاً و قرأ مجاهد و قتادة بفتح السّين مشدّدةً.

قال الزّمخشري وجهه أنّ، وسع، متّعدٍ إلى مفعول واحد و هو كلّ شيءٍ، و

أمّا علماً فإنتصابه على التّميز و هو في المعنى فاعل فلمّا ثقل نقل إلىٰ التّعدية إلى مفعولين فنصبهما معاً على المفعوليّة لأنّ المميز فاعل في المعنىٰ.

و قال إبن عطيّة، وسَّع، بمعنى خلق الأشياء و كثّرها باالإختراع فوسّعها موجودات إنتهى.

أقول أنّما قال موسى هذا الكلام في هذا المقام لوجهين:

أحدهما: أنّ المعبود الّذي يستحقّ أن يعبد هو الّذي لا يوجد في الوجود مثله فلا شبه له و لا نظير في ذاته و صفاته، و أمّا العجل الّذي صنعه السّامري فليس كذلك فهو لا يكون إلهاً.

ثانياً: أنّه مخلوق لغيره وكلّ مخلوقٍ لا يكون مُنحصراً لأنّه يمكن أن يخلق مثله فهو كغيره من المصنوعات و لا فرق بينه و بينها فكيف يكون إلهاً، و في قوله: **وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** إشارة إلى أنّ المعبود لا يكون جاعلاً و العجل حيوان لا علم له فكيف يكون معبوداً للإنسان العالم و من المعلوم أنّ من عبد الجاهل فهو أجهل منه و هو ظاهر.

كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبآءِ مٰا قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ أٰتَيْنٰاكَ مِنْ لَدُنّٰا ذِكْرًا

ذلك إشارة إلى نبأ موسى و بنيإسرائيل و فى فرعون أي كقَّصنا هذا النّبأ الغريب نقصّ عليك من أنباء الأمم السّابقة و هذا فيه ذكر نعمةٍ عظيمة الإعلام بأخبار الأمم السّالفة ليتَّسلى بذلك و يعلم أنّ ما صدر من الأمم لرسلهم و ما قاست الرُّسل منهم ليس بقليلٍ و الظّاهر أنّ الذّكر هنا هو القرآن أتّين اللّه تعالىٰ به عليه و ذكر فيه الأخبار و القصص المشتملة على معجزات الأنبياء المراد بالذّكر هو العلم، أي أعطيناك يامحمّد من عندنا علماً بإخبار الماضيين.

أقول يمكن مجمع بين القولين فأنّ العلم بأخبار الماضيين قد حصل له بسبب القرآن فأن قلنا أنّ المراد بالذّكر هو القرآن فهو من ذكر السَّبب و أن قلنا

به العلم فهو من ذكر المسَّبب و إرادة السَّبب فمرجع القولين إلى شئٍ واحد أطلق الذّكر على القرآن في كثير من الأيات فحمل الذّكر على القرآن أولى:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْاٰنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **قَالُوا يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**(٤).

و الأيات كثيرة و أمّا إرادة العلم من الذّكر فلا تكون إلاّ على ما ذكرناه من ذكر السَّبب و أرادوا المسَّبب.

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وِزْرًا

أي من أعرض عن القرآن بكونه لم يؤمن به و لم يتّبع ما فيه فأنّه يحمل يوم القيامة أي عذاباً ثقيلاً فأنّ الوزر، بكسر الواو و هو ثقل العذاب.

و قال مجاهد أي إثماً، و قال الثُّوري شركاً، و الظّاهر أنّه عبّر عن العقوبة بالوزر لأنّه سببها.

إن قلت كيف يكون المعرض عن القرآن حاملاً للوزر يوم القيامة و أيّة ملازمةٍ بينهما.

قلت لأنّ المعرض عن القرآن هو في الحقيقة معرضٌ عن اللّه تعالى ضرورة أنّ الإعراض عن الكلام هو الإعراض عن المتكلّم و من أعرض عن اللّه فقد أقبل على الشّيطان من حيث لا يحتسب إذ لا واسطة بين الحقّ و الباطل و الإقبال إلى الشّيطان متابعته و أيُّ إثمٍ أو وزرٍ أشنع و أفظع من متابعته ظاهر.

خَالِدِينَ فِيهِ وَ سَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ حِمْلًا

١- الزّخرف = ٤٤ ٢- القمر = ١٧
٣- الحجر = ٩ ٤- الحجر = ٦

أي خالدين في العذاب و العقوبة، و أنّما جمع، خالدين و الضّمير في، لهم، حملاً على معنى من، بعد الحمل على لفظها في، أعرض، و في، فأنّه، و المخصوص بالذّم محذوفٌ أي وزرهم، و قوله: **خَٰلِدِينَ**، نصب على الحال و العامل فيه العذاب الّذي تقدّم ذكره من الوزر و المعنى خالدين في عذاب الإثم و قوله: **حِمْلًا**، نصب على التّميز و فاعل ساء، مضمر و تقديره ساء الحمل حملاً و المعنى ساء لهم يوم القيامة حملاً الوزر فقوله: **لَهُمْ** للبيان كهي في، هيت لك، لا متعلّقة، بساء، وساء بمعنى بئس لا بمعنى أحزن و أهمَّ، لفساد المعنى.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَ نَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا

قوله **يَوْمَ يُنْفَخُ فِى ٱلصُّورِ** بدلٌ من يوم القيامة، كأنّه قيل ما يوم القيامة قال تعالى يوم ينفخ في الصُّور و النَّفخ إخراج الرّيح من الجوف بالدَّفع من الغم فهذا أصله و قد يطلق على إحداث الرّيح من الزّق أو البوق للمشابهة لأنّه كالنَّفخ المعروف و فى الصُّور قولان:

أحدهما: أنّه جميع صورة كلّ حيوانٍ تنفخ فيه الرُّوح فتجري في جسمه و يقوم حيّاً بإذن اللّه.

والثّانى: أنّه قرنٌ ينفخ فيه النّفخة الثّانية ليقوم النّاس من قبورهم عند تلك النَّفخة، و المراد به في المقام هو صور إسرافيل لإحياء الأموات.

قال الرّاغب في المفردات قيل هو مثل قرنٍ ينفخ فيه فيجعل اللّه سبحانه ذلك سبباً لعود الصُّور و الأرواح إلى أجسامها.

و روي في الخبر أنّ الصُّور فيه صورة النّاس كلّهم و أمّا قوله: **وَ نَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا**، قيل المراد بالزُّرق زرقة العيون و الزُّرقة أبغَض ألوان العيون إلى العرب و العرب تتَشأم بالزُّرقة قال الشّاعر:

لقد زرقت عيناك يابن مكعبرٍ   كما كلَّ ضَبِّيٍ من اللُّؤم زرقُ

و لذلك قيل أن المراد بالزّرقة شخوص البصر من شدة الخوف و يوم القيامة كذلك بالنّسبة إلى الكفّار و المعرضين عن الحقّ.

يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا

أصل الخفت السّكون ثمّ قيل لمن خفض صوته خفتة و معنى، يتخافتون، يتّسادون لهول المطلع و شدّة ذهاب أذهانهم فقد عزب عنهم قدر المدّة التّي لبثوا فيها و قوله إن لبثتم إلاّ عشراً، أي ما أقمتم في قبوركم إلاّ عشرة أيّام لأنّ المذّكر إذا حذف و أبقي عدده قد لا يأتي بالتاء و قد يأتي بها.

و قد حكى الكسائي عن أبي الجراح صمنا من الشّهر خمساً، و منه ما جاء في الحديث، ثمّ أتبعه بسّت من شوالٍ، يريد ستّة أيّام و حسن الحذف هنا لتناسب الآية قبلها و بعدها.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا

أي و ذكر أعدلهم و أصلحهم طريقةً و أوفرهم عقلاً أقلّ العدد و هو اليوم الواحد و قال ما لبثتم إلاّ يوماً واحداً و نحن أعلم بما يقولون و أنّما يقولون ذلك لشّدة ما يرونه يوم القيامة من الهول و الخوف فكأنّهم نسوا ما لبثوا في الدّنيا أعاذنا اللّه من هول المطلة بمحمّدٍ و أله.

■

وَ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبّى نَسْفًا
﴿١٠٤﴾ فَيَذَرُها قاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٥﴾ لا تَرى فيها
عِوَجًا وَ لآ أَمْتًا ﴿١٠٦﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدّاعِيَ لا
عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ ٱلْأَصْواتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلا
تَسْمَعُ إِلّا هَمْسًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ ٱلشَّفاعَةُ
إِلّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٨﴾
يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْديهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحيطُونَ
بِهِ عِلْماً ﴿١٠٩﴾ وَ عَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَ
قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١٠﴾ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ
ٱلصّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْمًا وَ لا
هَضْمًا ﴿١١١﴾ وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
وَصَرَّفْنا فيهِ مِنَ ٱلْوَعيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ
لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٢﴾ فَتَعالَى ٱللّٰهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَ لا
تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ
قُلْ رَبِّ زِدْني عِلْمًا ﴿١١٣﴾ وَ لَقَدْ عَهِدْنآ إِلىٰ آدَمَ
مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٤﴾ وَ إِذْ قُلْنا
لِلْمَلآئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوآ إِلّآ إِبْليسَ أَبىٰ
﴿١١٥﴾ فَقُلْنا يآ آدَمُ إِنَّ هٰذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ
فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقىٰ ﴿١١٦﴾ إِنَّ لَكَ
أَلّا تَجُوعَ فيها وَ لا تَعْرىٰ ﴿١١٧﴾ وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا
فيها وَ لا تَضْحىٰ ﴿١١٨﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطانُ
قالَ يآ آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَ مُلْكٍ

لٰا يَبْلٰى ﴿١١٩﴾ فَأَكَلٰا مِنْهٰا فَبَدَتْ لَهُمٰا سَوْآتُهُمٰا
وَ طَفِقٰا يَخْصِفٰانِ عَلَيْهِمٰا مِنْ وَرَقِ اَلْجَنَّةِ وَ
عَصىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ اِجْتَبٰاهُ رَبُّهُ فَتٰابَ
عَلَيْهِ وَ هَدىٰ ﴿١٢١﴾ قٰالَ اِهْبِطٰا مِنْهٰا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّٰا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اِتَّبَعَ
هُدٰايَ فَلاٰ يَضِلُّ وَ لاٰ يَشْقىٰ ﴿١٢٢﴾ وَ مَنْ أَعْرَضَ
عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ
اَلْقِيٰامَةِ أَعْمىٰ ﴿١٢٣﴾ قٰالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمىٰ
وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴿١٢٤﴾ قٰالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيٰاتُنٰا
فَنَسِيتَهٰا وَ كَذٰلِكَ اَلْيَوْمَ تُنْسىٰ ﴿١٢٥﴾ وَ كَذٰلِكَ
نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآيٰاتِ رَبِّهِ وَ
لَعَذٰابُ اَلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقىٰ ﴿١٢٦﴾

اللّغة

يَنْسِفُهٰا: النَّسف الإقتلاع و الإزالة يقال نسفت الرّيح الشّئ أي إقتلعته و أزالته و النُّسافة ما تثور من غبار الأرض.

قٰاعاً صَفْصَفاً: القاع قيل هو الأرض الملساء و قيل مستنقع الماء و جمعه أقواع و الصَّفصف الموضع المستوي الّذي لا نبات فيه و قيل ما لا تراب فيه.

عِوَجاً: أي صدعاً.

وَ لاٰ أَمْتاً: أي أثراً و قيل أكمةً و قيل العوج الميل و هو مصدر ما أعوج من المجاري و المسايل و الأودية و الإرتفاع يميناً و شمالاً.

خَشَعَتِ: الخشوع الخضوع.

هَمْساً: الهَمس صَوت الأقدام و قيل هو إخفاء الكلام.

وَ عَنَتِ ٱلْوُجُوهُ: أي خضعت و ذلّت خضوع الأسير في يد القاهر و العاني الأسير.

وَ قَدْ خَابَ: أي خسر.

هَضْمًا: المهضم النّقص العزم.

عَزْمًا: الإرادة المتقدّمة لتوطين النّفس على الفعل.

تَظْمَؤُا: أي لا تعطش فأنّ الظّماء العطش و الظّمآن العطشان.

وَ لَا تَضْحَىٰ: ضحى الرّجل يضحى إذا برز للشّمس.

لَا يَبْلَىٰ: أي لا يهلك.

ضَنْكًا: الضّنك الضّيق،

◀ الإعراب

قَاعًا حال و صَفْصَفًا صفة للحال لَا تَرَىٰ مستأنف و يجوز أن يكون حالاً أيضاً أو صفة للحال لَا عِوَجَ لَهُ حال من الدّاعي أو هو مستأنف على ما قيل إِلَّا مَنْ أَذِنَ من في موضع نصب بتنفع، و قيل في موضع رفع أي إلاّ شفاعة من أذن فهو بدل وَ قَدْ خَابَ يجوز أن يكون حالاً و أن يكون مستأنفاً فَلَا يَخَافُ هو جواب الشّرط فمن رفع إستأنف و من جزم فعل النّهي وَ كَذَٰلِكَ الكاف نعتٌ لمصدر محذوف أي إنزالاً مثل ذلك يُقْضَىٰ على ما لم يسّم فاعله وَحْيُهُ مرفوعٌ به عَزْمًا هو مفعول، نجد بمعنى نعلم وَ أَنَّكَ بفتح الهمزة معطوف على موضع، ألاّ تجوع، فَوَسْوَسَ عدّىٰ بالي لأنّه بمعنى أشّر.

◀ التّفسير

وَ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا

ضمير الغائب في و يسئلونك، عائد على قريش منكري البعث أو على المؤمنين الّذين سألوا عن ذلك أو على رجلٍ من ثقيف و جماعة من قومه أقوال ثلاثة و الكاف خطاب للرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و الظّاهر وجود السّؤال و قيل لم

يكن سؤالٌ بل المعنى إن يسألوك عن الجبال فقل كذا فضمن معنى الشّرط فلذلك أجيب بالفاء و روعي أنّ اللّه يرسل ريحاً على الجّبال فيدكها كالعهن المنفوش ثمّ يتوالى عليها حتّى يعيدها كالهباء المنبث فذلك هو النَّسف و الظّاهر عود الضّمير في، فيذرها، على الجبال في قوله:

فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا

أي فيذر الجبال بعد النَّسف تبقى **قَاعًا**، أي مستوياً من الأرض معتدلاً و قيل، فيذر مقّرها و مراكزها الضّمير يعود على الأرض و أن لم يجر لها ذكر لدلالة الجّبال عليها و قوله صفصفاً، أي ما لا تراب فيه أو ما لا نبات فيه.

لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَ لَآ أَمْتًا

أي لا ترى في الجبال أو في الأرض ميلاً و لا أمتاً أي و لا أثراً و قال إبن عبّاس معناه لا ترى فيها وادياً و لا أمتاً رابية و عنه أيضاً الأمت الإرتفاع، و قيل الأمت الشّقوق في الأرض و قال قتادة لا عوجاً أي صدعاً و لا أمتاً أي أكمةً.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا

أي يوم إذ ينسف اللّه الجّبال، يتّبعون، الخلائق **ٱلدَّاعِيَ** أي داعي اللّه الى المحشر و هو إسرافيل الّذي ينفخ في الصُّور قيل يقوم على صخرة بيت المقّدس يدعوا النّاس فيقبلون من كلّ جهةٍ يضع الصُّور في فيه و يقول أيّتها العظام البالية و الجلود المتّمزقة و اللّحوم المتّفرقة هلُّم إلى العرض على الرّحمن.

و قال محمّد بن كعب يجمعون في ظلمة قد طويت السّماء و إنتشرت النّجوم فينادي منادٍ فيموتون موتةً، و قيل الدّاعي هنا الرّسول ﷺ كان

يدعوهم إلى اللّه فيعوجون على الصّراط يـميناً و شـمالاً و يـميلون عـنه مـيلاً عظيماً فيومئذٍ لا ينفعهم إتّباعه و قوله: **لَا عِوَجَ لَهُ** لا عـوج لدعـاء الدّاعـي يسمع جميعهم فلا يميل إلى ناسٍ دون ناسٍ و قيل هو على القلب أي لا عوج لهم عنه بل يأتون مقبلين إليه متّبعين لصوته من غير إنحرافٍ و قال الزّمخشري أي لا يعوج له مدّعوّ بل يستوون إليه، و قيل معناه لا مـعدل لهـم عـنه أي عـن دعاءه لا يزيغون و لا ينحرفون بل يسرعون إليه و لا يحيدون.

و قيل يتّبعون الدّاعي إتّباعاً لا عوج له فالمصدر مـضمّر و المـعنى يـتّبعون صوت الدّاعي للـحشر و الأقـوال مـتقاربة المـعنى **وَ خَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ** أي ذلّت و سكنت و خضعت قال الشّاعر:

لمّا أتىٰ خبر الزُّبير تواضعت سور المدينة و الجبال الخشّع

و الخشوع في الأصل التّطامن و التّواضع و هو في الأصوات إستعارة بمعنى الخفاء الأشرار للرّحمن أي لهيبته و سطوته و قيل هو على حذف المضاف أي و خشع أهل الأصوات، و الهمس الصّوت الخفّي و يحتمل أن يـريد بـالهمس المسموع، تخافتهم بينهم وكلامهم السّر و يحتمل أن يريد صوت الأقدام و أنّ أصوات النّطق ساكنة.

و قال الزّمخشري هو الرّكن الخفّي و منه الحـروف المـهموسة و عـن إبـن عبّاس و إبن جبير الهمس وطئ الأقدام و العـلّة فـي كـلّ ذلك هـي الخـوف و الهول في المحشر.

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا جزء ١٦

أخبر اللّه تعالى أنّ ذلك اليوم لا تنفع شفاعة أحدٍ في غيره مـن أذن اللّـه له أن يشفع و رضي قوله فيها من الأنبياء و الأولياء و الصُّلحاء و المؤمنين فالمَّنفي في الآية هو الشّفاعة بغير إذن اللّه لا مطلق الشّفاعة لأنّها ثابتة في الشّـريعة فـي حقّ من أذن له.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: أنّ من أمّتي سيدخل اللّه الجنّة بشفاعتي أكثر من مضر إنتهىٰ.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: لكلّ نبّي دعوةٍ قد دعا بها و قد سأل سؤلاًأخبأت دعوتي لشفاعتي لأمّتي يوم القيامة إنتهى.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: ثلاثة يشفعون إلى اللّه عزّ وجلّ فيشفعون، الأنبياء ثمّ العلماء ثمّ الشّهداء إنتهىٰ.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: من لم يؤمن بحوضي فلا أورده اللّه حوضي، و من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله اللّه شفاعتي ثمّ قال عليه السلام أنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي و أمّا المحسنون فما عليهم من سبيل.

إنتهى و الأحاديث في الباب كثيرة.

و في تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة جمع اللّه النّاس في صعيدٍ واحدٍ و هم حفاة عراة فيوقفون في المحشر حتّى يعرقوا عرقاً شديداً و تشتّد أنفاسهم فيمكثون في ذلك خمسين عاماًقول اللّه و خشعت الأصوات الأية.

قال عليه السلام: ثمّ ينادي منادٍ من تلقاء العرش أين النّبي الأمّي فيقول النّاس قد سمعت فسّم بإسمه فينادي أين نبّي الرّحمة أين محمّد بن عبد اللّه الأمّي فيقدم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أمام النّاس كلّهم حتّى ينتهي إلى حوض طوله ما بين إيلة و صنعاء فيقف عليه فينادي بصاحبكم فيقدم علّيٌ عليه السلام أمام النّاس فيقف معه ثمّ يؤذّن للنّاس فيمرُّون فبين وارد الحوض يومئذٍ و بين مصروفٍ عنه فإذا رأى رسول اللّه من يصرف من محبّينا يبكي و يقول ياربّ شيعة علّيٍ

قال عليه السلام: فيبعث اللّه ملكاً فيقول له ما يبكيك يامحمّد فيقول أبكي لأناس من شيعة علّيٍ أراهم قد صرفوا تلقاء أصحاب النّار و منعوا

ورود حوضي قال عليه السلام فيقول الملك أنّ اللّه يقول قد وهبتهم لك يامحمّد و صفحت لهم عن ذنوبهم بحبّهم لك و لعترتك و ألحقتهم بك وبمن كانوا يتّولون به و جعلنا هم في زمرتك فأوردهم حوضك فقال أبو جعفر فكم من باكٍ يومئذٍ و باكية ينادون يا محمّداه إذا رأوا ذلك و لا يبقى أحدٌ يومئذٍ يتّولانا و يحبّنا و يتّبرأ من عدّونا و يبغضهم إلاّ كانوا في حزبنا و معنا و يردون حوضنا إنتهى.

يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ لاٰ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً

أي يعلم ما بين أيدي الخلائق من أمور القيامة و أحوالهم و يعلم ما سبقهم فيما تقدّمهم و قيل يعود الضّمير على الملائكة و قيل على النّاس لا بقيد الحشر و الأتباع و الأظهر هو أوّل الأقوال و أمّا الضّمير في، به، فهو عائد على، ما، أي‌يحيطون بعلوماته علماً، و هو كذلك لأنّ معلوماته غير متناهية و علم المخلوق متناهٍ و المتناهي لا يحيط بغير المتناهي.

وَ عَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَ قَدْ خٰابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا

الظّاهر عموم الوجوه أي خضعت وجوه الخلائق في جنب عظمته قيل و خصّ الوجوه من بين سائر الأعضاء لأنّ أثار الذُّل أنّما تظهر في أوّل الوجوه.

و قال صاحب الكشّاف المراد بالوجوه وجوه العصاة و أنّهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة و الشّقوة و سوء الحساب صارت وجوههم عانية أي ذليلة خاضعة مثل وجوه العناة و هم الأسارى و نحوه قوله: **فَلَمّٰا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓئَتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**(١) و قوله: **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نٰاضِرَةٌ**(٢) إنتهى.

١- الملك = ٢٧
٢- القيامة = ٢٢

أقول لا دليل لتخصيص الوجوه بالعصاة فحمل الكلام على العموم أولى كما هو ظاهر الآية و مقتضى العقل فأنّ المخلوق خاضع في جنب الخالق قهراً و أمّا القيّوم فلا يطلق على غير اللّه تعالى لأنّه عبارة عن الموجود الّذي يكون قائماً بذاته و ما سواه كائناً ما كان قائماً به و اللّه تعالى كذلك فلا يتّصف بالقيّومة غيره تعالى و قيل القيّوم الموجود الّذي لا فناء له و على هذا التّغير أيضاً لا يطلق على غيره تعالى.

و أمّا قوله: **وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**، فمعناه لم ينجح أي لا ظفر بمطلوبه و الظّلم يعمّ الشّرك و المعاصي و خيبة كلّ حاملٍ بقدر ما حمل من الظّلم فخيبة المشرك تكون دائماً و خيبة المؤمن مقيّدة بوقتٍ من الأوقات في العقوبة إن عوقب و لمّا خصّ الزّمخشري الوجوه بوجوه العصاة كما مرّ.

قال في المقام أنّه إعتراض كقولك خابوا و خسروا حتّى تكون الجملة دخلت بين العصاة و بين من يعمل من الصّالحات فهذا عنده قسمٌ لقوله: **وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ**، و الحقّ أنّ الواو في قوله: **وَ قَدْ خَابَ**، للإستئناف و على هذا فالكلام مستأنف و أن شئت قلت أنّه حكمٌ كلّيٌ يشمل كلّ من حمل ظلماً سواء كان الظّالم كافراً أم مسلماً إلاّ أنّ مراتب الظُّلم متفاوتة مختلفة و هذا ظاهر لا يحتاج إلىٰ مزيد بيانٍ و الأيات الواردة في ذمّ الظُّلم كثيرة و الأخبار فيه متواترة.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: من إقتطع حقّ إمرؤٍ مسلمٍ أوجب اللّه له النّار و حرَّم عليه الجنَّة فقال له رجل يا رسول اللّه ولو كان شيئاً يسيراً قال صلى الله عليه وآله وسلم ولو كان قضيباً من أراك إنتهى.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: أوحى اللّه تعالى إلَّي يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتاً من بيوتي و لأحدٍ من عبادي عند أحدٍ منهم مظلمة فأنّي ألعنه مادام قائماً يصلّي بين يدّي حتّى

يردّ تلك الظّلامة إلى أهلها فأكون سمعه الّذي يسمع و بصره الّذي يبصر به و يكون من أوليائي و أصفيائي و يكون جاري مع النّبين و الصّديقين و الشّهداء و الصّالحين في الجنّة إنتهى.

و لنعم ما قيل:

و حقّ اللّه أنّ الظّلم لؤمٌ　　و أنّ الظّلم مرتعه وخيمُ
إلى دّيان يوم الدّين نمضي　　و عند اللّه تجتمع الخصوم

و قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم: ألا أنّ الظُّلم ثلاثة، فظلمٌ لا يغفر، و ظلمٌ لا يترك، و ظلمٌ غفورٌ لا يطلب فأمّا الظّلم الّذي لا يغفر فالشّرك باللّه قال اللّـه تـعالىٰ: إِنَّ اَللّٰهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰآءُ[1].

و أمّا الظّلم الّذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً.

و أمّا الظّلم المغفور الّذي لا يطلب فظلم العبد نفسه إنتهى.

و الأخبار في ذمّ الظّلم كثيرة فقوله: **وَ قَدْ خٰابَ مَنْ** حمل ظلماً يشمل جميع أنواعه و يدلّ عليه تنكير الظّلم في قوله ظلماً أي أيُّ نوعٍ كان منه و محصلّ الكلام أنّ اللّه تعالى قد حكم على الظّالم بالخيبة على حسب مراتب الظّلم و لا إستثناء فيه و لا تخصيص و هو المطلوب.

وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ اَلصّٰالِحٰاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلاٰ يَخٰافُ ظُلْمًا وَ لاٰ هَضْمًا.

قال إبن عبّاس الظّلم مجاوزة الحدّ في عظيم سيّئاته و الهضم نقص من حسناته.

و قال قتادة الظّلم أن يزاد من ذنب غيره و قال إبن زيد الظُّلم أن لا يجزى بعمله و قيل الظُّلم أن يأخذ من صاحبه فوق حقّه و الهضم أن يكسر من حقّ

١- انساء = ٤٧

أخيه فلا يوفيه له كصفة المطَّففين يسترجعون لأنفسهم إذا إكتالوا و يخسرون إذا كالوا، و الظُّلم و الهضم متقاربان، و قال الماوردي و الفرق أنّ الظُّلم منع الحقّ كلّه و الهضم منع بعضه.

و قرأ الجمهور على الخبر أي فهو لا يخاف، و قرأ إبن كثير و حميد فلا يخف على النّهي قال الرّازي يعني و من يعمل شيئاً من الصّالحات و المراد به الفرائض فكان عمله مقروناً بالإيمان و هو كقوله و من يأته مؤمناً قد عمل الصّالحات فقوله: **فَلَا يَخَافُ** في موضع جزمٍ لكونه في موضع جواب الشّرط و التّقدير فهو لا يخاف و نظيره و من عاد فينتقم اللّه منه فمن يؤمن بربّه فلا يخاف بخساً و لا رهقاً.

و قرأ إبن كثير فلا يخف على النّهي و هو حسن لأنّ المعنى فليأمن و النّهي عن الخوف أمرٌ بالأمن، و الظُّلم هو أن يعاقب لا على جريمةٍ أو يمنع من الثّواب على الطّاعة و الهضم أن ينقص من ثوابه و الهضيمة النّقيصة و منه هضيم الكشح إنتهى كلامه.

و قال أبو مسلم الظُّلم أن ينقص من الثّواب و الهضم أن لا و فى حقّه من الأعظام لأنّ الثّواب مع كونه من اللّغات لا يكون ثواباً إلاّ إذا قارنه التّعظيم يدخل النّقص في بعض الثّواب و يدخل فيما يقارنه من التّعظيم فنفىٰ اللّه تعالى كلا الأمرين عن المؤمنين إنتهى.

هذا ما قالوه في تفسير الكلام و الذّي يختلج بالبال في معنىٰ الكلام هو أنّ المؤمن الّذي عمل الصّالحات لا يخاف ظلماً أي مجاوزةً عن الحدّ الذّي هو سبب العقاب و لا هضماً أي و لا تقصيراً في العمل و أن كان القصور ثابتاً في حقّه فأنّ القصور لا يوجب العقاب و بعبارةٍ أخرى أنّه عمل بوظيفته فلا خوف عليه من هول القيامة و أنّما قلنا ذلك لأنّ عدم الخوف من الظُّلم يوم القيامة ثابتٌ في حقّ الكافر و المؤمن فأنّ الكافر أيضاً لا يخاف ظلماً و لا هضماً و هذا

لا إختصاص له بالمؤمن و ذلك لأنّ اللّه تعالى عادل و لا يظلم على أحدٍ و أمّا العذاب الثّابت للكافر فهو عين العدل لكونه مستحّقاً به و ما ربّك بظلّامٍ للعبيد نعم لو قلنا معنى الكلام أنّ المؤمن لا يخاف ظلماً على نفسه و لا هضماً فله وجهٌ و أمّا على ما فسَّره القوم من أنّ المؤمن لا يخاف ظلماً أي من أن يظلم عليه و لا هضماً أي ينتقص من حقّه دون الكافر فلا نفهم معناه و اللّه أعلم.

وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا

و كذلك أنزلناه عطف على قوله: **كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ**(١) أي و مثل ذلك الإنزال أو كما أنزلنا عليك هذه الأيات المتّضمنة الوعيد أنزلنا القرآن كلّه على هذه الوتيرة مكرّرين فيه أيات الوعيد ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي أو فعل الخير و الطّاعة، و الذّكر يطلق على الطّاعة و العبادة، و قيل كما قدَّرنا هذه الأمور و جعلناها حقيقة بالمرصاد للعباد كذلك حذَّرنا هؤلاء أمرها و أنزلناه قرآناً عربيّاً و توَّعدنا فيه بأنواع من الوعيد لعلّهم بحسب توّقع الشّر و ترَّجيهم يتّقون اللّه و يخشون عقابه فيؤمنون و يتّذكرون نعمه عندهم و ما حذَّرهم من أليم عقابه هذا تأويل فرقةٍ في قوله: **أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا**.

و قال الرّازي أمّا قوله: **أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** ففيه وجهان:

الأوّل: أن يكون المعنى أنّما أنزلنا القرآن لأجل أن يصيروا متّقين أي محترزين عمّا لا ينبغي أو يحدث القرآن لهم ذكراً يدعوهم إلى الطّاعات و فعل ما ينبغي.

الوجه الثّاني: أن يقال: **أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ليتّقوا فإن لم يحتمل ذلك فلا

١- طه = ٩٩

أقلّ من أن يحدث القرآن لهم ذكراً و شرفاً وصيتاً حسناً فعلى هذين التّقديرين يكون إنزاله تقوى إنتهى.

أقول الآية لا تحتاج إلى هذه التّكلفات التّي هي بمنزلة الأكل من القفا، و ذلك لأنّ اللّه تعالى يقول: **إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا** بلسان قومك ليقرأوه و يتلوه و يتّفكروا في أياته و صرّفنا فيه من أيات الوعيد كالطّوفان و الصّيحة و الرّجفة و المنح لعلّهم يتّقون أن ينزل بهم ما نزل بمن تّقدّمهم من العذاب أو يحدث القرآن لهم ذكراً أي عظةٍ و فكراً و إعتباراً.

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَ لَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَ قُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا

قيل أي ذو الحقّ، و لمّا كان فيما سبق ذكر تعظيم القرآن في قوله: **وَ قَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا** و قوله **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا** ذكر عَظمة منزلته تعالى ثمّ ذكر هاتين الصّفتين و هما صنعتا الملك التّي تضّمنت القهر و السّلطنة و صفة سلطانه يوم القيامة و عظم قدرته فالصّفة الأولى دلّت على بطلان كلّ إلهٍ غيره تعالى و أنّ كلّ ما يدعى به غيره باطلٌ لا سيّما الإله الذّي صاغوه من الحلّي و الصّفة الثّانية دلّت على قدرته و ذلّة عبيده و حسن تلّطفه بهم فناسب تعاليه و وصفه بالصّفتين المذكورتين و لمّا ذكر القرآن و إنزاله قال على سبيل الإستطراد طالباً منه التّأني في تحّفظه فقال لا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه فهو كقوله: **لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ**(١).

و قيل معناه لا تبلّغ ما كان منه مجملاً حتّى يأتيك البيان و قيل في سبب نزولها أنّ إمرأة شكت إلى النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّ زوجها لطمها فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم بينكما القصاص ثمّ نزلت: **ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ**(٢) و نزلت هذه بمنزلة الأمر

١- القيامة = ١٦
٢- النّساء = ٣٤

بالتّثبت في الحكم بالقرآن، و قيل كان إذا نزل عليه الوحي أمر بكتبه للحين فأمر أن يتّأنى حتّى يفسّر له المعاني و يتّقرر عنده.

و قال الماوردي معناه و لا تسأل قبل أن يأتيك الوحي أنّ أهل مكّة و أسقف نجران قالوا يامحمّد أخبرنا عن كذا و قد ضربنا لك أجلاً ثلاثة أيّام فأبطأ الوحي عليه و فشت المقالة بين اليهود و قد غلب محمّد فنزلت و لا تعجل بالقرآن أي بنزوله.

و قال أبو مسلم أي و لا تعجل بقراءته في نفسك أو في تأديته إلى غيرك من قبل أن يقضى إليك وحيه أي تمامه أو بيانه و قوله: **قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** قيل أي قرآناً، و قيل أي فهماً و قيل حفظاً قال بعضهم ما أمر اللّه رسوله بطلب الزّيادة في شيءٍ إلاّ في طلب العلم إنتهى.

و المراد بهذا العلم هو النّور الذّي يقذفه في قلب من يشاء و هو العلم الحضوري الأناصي من مبدأ الفيّاض لا العلم الحصولي الكتبي الّذي يحصل بسبب التعليم و التّعلم من الغير و ذلك لأنّ علوم الأنبياء و الأوصياء من نسخ العلم الحضوري كعلم النّفس بذاتها.

و قد روى في أصول الكافي بأسناده عن أبي يحيى الصّنعاني عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال لي أبو عبد اللّه يا أبا يحيى أنّ لنا في ليالي الجمعة لشأناً من الشّأن قال قلت جعلت فداك و ما ذاك قال عليه السلام يؤذن لأرواح الأنبياء الموتى و أرواح الأوصياء الموتى و روح الوصّي الّذي بين أظهركم يعرج بها إلى السّماء حتّى توافي عرش ربّها فتطوف به إسبوعاً و تصلّي عند كلّ قائمةٍ من قوائم العرش ركعتين ثمّ ترّد إلى الأبدان الّتي كانت فيها فتصبح الأنبياء و الأوصياء قد ملئوا سروراً و يصبح الوصّي الّذي بين ظهرانيكم و قد زيد في علمه مثل جمّ الغفير إنتهىٰ.

و بأسناده إلى الفضل قال: قال أبو عبد اللّه ذات يوم و كان لا يُكَّفيني قبل ذلك، يا أبا عبد اللّه قلت لبّيك قال عليه السلام: أنّ لنا في كلّ جمعةٍ سروراً قال قلت زادك اللّه و ما ذاك قال عليه السلام إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم العرش و وافى الأئمّة عليهم السّلام و وافينا معهم فلا تّرد أرواحنا بأبداننا إلاّ بعلمٍ مستفاد ولولا ذلك لأنفدنا إنتهى.

و بأسناده إلى صفوان بن يحيى قال: سمعت أبا الحسن يقول كان جعفر بن محمّد عليه السلام يقول لولا أنّا نزداد لأنفدنا إنتهى.

و بأسناده عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لولا أنّا نزداد لأنفدنا، قلت تزدادون شيئاً لا يعلمه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال عليه السلام أما أنّه إذا كان عرض على رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ على الأئمّة ثمّ إنتهىٰ الأمر إلينا إنتهىٰ(١).

أقول الأيات و الأخبار الواردة في فضيلة العلم كثيرة قال الصّادق عليه السلام منهومان لا يشبعان منهوم علم و منهوم مالٍ، و كفى في فضيلة العلم أنّ اللّه تعالى يقول: **قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ**(٢) ولتفصيل الكلام في هذا الباب مقام أخر.

وَ لَقَدْ عَهِدْنآ إِلىٰٓ ءادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِىَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا

قال إبن عبّاس و مجاهد معناه عهد إليه بأن أمر به و وصّاه به، فنسي أي ترك، و قيل أنّما أخذ الإنسان من أنّه عهد إليه فنسي، و قوله: **لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** أي عقداً ثابتاً.

و قال قتادة، صبراً، و قال عطيّة، حفظاً، و العزم الإرادة المتقدمة لتوطين النّفس على الفعل، هذا ما ذكره الشّيخ قدس سره في التّبيان.

١- نُور الثّقلين ج ٣ ص ٣٩٧
٢- الزّمر = ٩

و قال الطّبري المعنى إن يعرض يا محمّد هؤلاء الكفرة عن أياتي و يخالفوا رسلي و يطيعوا إبليس فقدماً فعل ذلك أبوهم آدم.

قال إبن عطيّة و هذا ضعيف و ذلك أنّ كون آدم مثالاً للكفّار الجاحدين باللّه ليس بشئ و آدم عليه السلام أنّما عصى بتأويل ففي هذا فضاضة عليه و أنّما الظّاهر في هذه الآية أمّا أن يكون إبتداء قصص لا تعلّق له بما قبله و أمّا أن يجعل تعلّقه أنّما هو لما عهد إلى محمّد صلى الله عليه و آله و سلم أن لا يعجل بالقرآن مثل له بنّبي قبله عهد إليه فنسي ليكون أشدّ في التّحذير و أبلغ في العهد إلى محمّد صلى الله عليه و آله و سلم إنتهى.

و قال صاحب الكشّاف يقال في أوامر الملوك و وصايهم تقدّم الملك إلى فلان و أوعز عليه و عزم عليه و عهد إليه، عطف اللّه سبحانه قصّة آدم على قوله: **وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** و المعنىٰ و أقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم و وصّينا أن لا يقرب الشّجرة و توّعدناه بالدّخول في جملة الظّالمين أن قربها و ذلك من قبل وجودهم و من قبل أن نتّوحدهم فخالف إلى ما نهي عنه و توّعد في إرتكابه مخالفتهم و لم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون كأنّه يقول أنّ أساس أمر بني آدم على ذلك و عرفهم راسخٌ فيه إنتهى.

قال الطّبرسي قدس سره في وجه اتّصال قوله: **وَ لَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ**، الآية بما قبله أنّه لمّا ذكر تصريف الأيات و القرآن و أنّ بها يتّذكر أمره سبحانه بالتّذكر و أن لا يكون مثل آدم في نسيان العهد و قيل أنّه إتصلّ بقوله و لا تعجل خوف النسيان للفظه و لكن توّكل على اللّه وسله التّوفيق لحفظه فأنّ أباك آدم نسي ما عهد إليه إنتهى.

أقول معنى الآية لا خفاء فيه و هو أنّا أمرناه و أوصينا إليه أن لا يقرب الشّجرة و لا يأكل منها فترك الأمر فالمراد بالعهد في الآية هو ما عهد اللّه إليه أن لا يقرب الشّجرة و العهد حفظ الشّئ و مراعاته حالاً بعد حالٍ و سمّي الموثق

الذّي يلزم مراعاته عهداً و هذا ممّا لا كلام فيه عند الجميع و أنّما الكلام في قوله (فَنَسِيَ) حيث أنّ النسّيان ينافي العصمة و قد ثبتت عصمة الأنبياء عقلاً و شرعاً، فقال قوم أنّ المراد بالنّسيان في الآية التَّرك أي ترك آدم ما عهد إليه، و بذلك أجابوا عن الإشكال ولم يعلموا أنّ الإشكال باقٍ بحاله فأنّ ترك المأمور به أو فعل المنّهي عنه أيضاً ينافي العصمة.

أمّا العامّة فقد إستراحوا عن الجواب لعدم وجوب العصمة عندهم على الأنبياء فضلاً عن الأوصياء و لا كلام لنا معهم في المقام.

و أمّا الشّيعة فلا خلاف عندهم في وجوب العصمة على الأنبياء و الأوصياء و على هذا فنقول:

يظهر من بعض الأخبار أنّ العصمة لازمة لهم في الدنيّا و أمّا في الجنَّة فلا.

ففي عيون الأخبار بأسناده إلى أبي الصَّلت الهروي قال لمّا جمع المأمون لعلّي بن موسى الرّضا عليه السلام أهل المقالات من أهل الإسلام و الديّانات من اليهود و النّصارى و المجوس و الصّابئين و سائر المقالات فلم يقم أحدٌ إلاّ ألزمه حجّته كأنّه ألقم حجراً قلم اليه علّي بن جهم فقال له يا بن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أتقول بعصمة الأنبياء فقال عليه السلام نعم، قال فما تعمل في قول اللّه عزّ وجلّ: **وَ عَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ** فقال عليه السلام أنّ اللّه عزّ وجلّ خلق آدم حجّته في أرضه و خليفته في بلاده ولم يخلقه للجنّة، و كانت المعصية من آدم في الجنّة لا في الأرض لتتّم مقادير اللّه عزّ وجلّ فلمّا أهبط الىٰ الأرض و جعل حجّة و خليفة عصم بقوله عزّ وجلّ: **إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ**[1] إنتهى و يظهر من بعض الأخبار أنّ النّهر لم يكن نهي تحريم و أنّما هو نهي تنزيهٍ و على هذا يحمل العصيان على ترك الأولى و قد مرَّ الكلام في هذا الباب سابقاً بما لا مزيد عليه.

۱- آل عمران = ۳۳

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ

قد مرَّ الكلام في كيفيّة سجدة الملائكة و قلنا أنّها لم تكن للعبادة بل كانت للخضوع و التّعظيم عند قوله:

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَ ٱسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ[1].

و قال اللّه تعالى: **إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ**[2].

فلا نعيد الكلام حذراً من الإطالة و الّذي نقول في المقام هو أنّ قوله: **أَبَىٰ** متعلّقة محذوف و أنّه يقدّر هنا ما صرَّح به في الآية الأخرى بقوله: **أَبَىٰٓ أَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ** و بذلك يعلم أنّ الكلام قد تمَّ على قوله إلاّ إبليس، و قوله: **أَبَىٰ** جملة مستأنفة بنيّته أنّ إمتناعه من السُّجود أنّما كان عن إباء منه و إمتناع

و به قال الزّمخشري حيث قال، أبى، جملة مستأنفة كأنّه جواب قائلٍ قال لِمَ لَم يسجد الخ.

و قد قلنا أنّ أمر اللّه للملائكة بالسّجود لآدم يدل على تفضيله عليهم و أن كان السُّجود في الحقيقة للّه تعالى لا لآدم لأنّ السُّجود عبادة و المخلوق لا يستحقّ شيئاً منها بحالٍ قالوا لأنّ العبادة تستحقّ بأصول النِّعم و قيل أنّ سجودهم لآدم كان كما يسجد الى جهة الكعبة يعني أنّ آدم كان في قبلتهم مثل الكعبة بالنّسبة الينا، و الحقّ الحقيق بالإتباع هو القول الأول لأنّ التّعظيم الّذي هو في أعلى المراتب حاصل للّه تعالى لا لآدم بإسجاد الملائكة له ولو لم يكن الأمر على ما قلناه من أنّ في ذلك تفضيلاً لآدم عليهم لما كان لإمتناع إبليس من السُّجود له وجهٌ ولما كان لقوله: **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**[3] وجهٌ فلمّا إحتَجّ إبليس بأنّه أفضل من آدم علمنا أنّ موضوع الأمر بالسّجود لآدم على جهة التّفضيل.

١- البقرة = ٣٤   ٢- الحجر = ٣١
٣- الأعراف = ١١

أقول الأمر أوضح من أن يخفى على المتأمل في كلام اللّه و لا نحتاج الى الإستدلال و ذلك أنّ إبليس أبى من السّجود لآدم لا من السّجود للّه تعالى ظاهر.

فَقُلْنَا يَآ ادَمُ إِنَّ هٰذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ

المشار اليه بقوله (هذا) هو إبليس أي قلنا لآدم أنّ إبليس عدوٌّ لك و لزوجك و هو، حوّاء، فلا يخرجنّكما بإغواءه و وسوسته من الجنّة فتشقى بذلك أي بسبب متابعتك أيّاه و أنّما قال فتشقى ولم يقل فتشقيّا مراعاة للسّمع في الأيات.

لا شكّ في عداوة إبليس لآدم و لأولاده بعده الى يوم القيامة و كان سبب عداوته لآدم أنّ اللّه طرده و لعنه و رجمه بعد إمتناعه من السّجود و العدّو يطلق على الواحد و المثّنى و المجموع عرف تعالى آدم عداوة إبليس له و لزوجه ليحذراه فلم يغن الحذر عن القدر.

و قيل أنّ إبليس كان حسوداً فلمّا رأى آثار نعم اللّه على آدم حسده و عاداه، و قيل العداوة حصلت من تنافي أصليهما إذ إبليس من النّار و آدم من الماء و التّراب و النّهي في قوله: **فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا** و أن كان متوّجهاً اليهما في الظّاهر إلاّ أنّه متوّجه الى أولاده أيضاً.

فالنّهي له و المراد غيره و أنّما أسند الإخراج اليه أي الى إبليس مع أنّ المخرج هو اللّه تعالى لأنّ إبليس كان سبباً له فكأنّه المخرج واقعاً فتشقى، يحتمل أن يكون منصوباً بإضمار أن في جواب النّهي و أن يكون مرفوعاً على تقدير فأنت تشقى قيل و أسند الشّقاء اليه وحده بعد إشتراكه مع زوجه في الإخراج من حيث كان هو المخاطب أوّلاً و المقصود بالكلام و لأنّ في ضمن شقاء الرّجل شقاء أهله فإختصر الكلام بإسناده اليه مع المحافظة على

الفاصلة، و قيل أراد بالشّقاء التّعب في طلب الرّزق و القوت و ذلك راجع الى الرّجل لأنّ الرّجل يكدُّ علىء زوجته.

قال بعضهم قد يوضع الشّقاء موضع التّعب نحو شقيت في كذا و كلّ شقاوةٍ تعب و ليس كلّ تعبٍ شقاوة فالتّعب أعمّ من الشّقاوة.

إِنَّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فيهٰا وَ لاٰ تَعْرٰى، وَ أَنَّكَ لاٰ تَظْمَؤُا فيهٰاوَ لاٰ تَضْحٰى

هذه الأوصاف للجنّة و المعنى ما دمت على طاعتك لي و الإمتثال لأمري لا تجوع فيها أي في الجنّة و لا تعرى، فيها من الكسوة و أنّك لا تظمأ، فيها، أي لا تعطش و **لاٰ تَضْحٰى** أي لا يصيبك حرَّ الشّمس.

قيل لمّا كان الشّبع و الرّي و الكسوة و الكنّ هي الأمور الّتي هي ضروريّة للإنسان إقتصر عليها لكونها كافية له و إلاّ ففي الجنّة ضروبٌ، من النِّعم ما هذه بالنّسبة اليها إلاّ كالعدم، فمنها الأمن من الموت الّذي هو مكدِّرٌ لكلّ لذّةٍ، ومنها رضى اللّه تعالى عن أهلها و أن لا سقم و لا حزن و لا ألم و لا كبر و لا هرم غلّ و لا غضب و لا حدث و لا مقادير و لا تكليف و هكذا، و ذكرت هذه الأربعة بلفظ النّفي و هو الجوع و العري و الظّمأ و الضحو ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشّقوة الّتي حذّره منها حتّى يتحامى السّبب الموقع فيها كراهةً لها إنتهى.

و أعلم أنّه ليس في الجنّة شمس و لا قمر و أنّما فيها نورٌ و ضياء و الشّمس و القمر و الكواكب في سماء الدُّنيا خاصّة فقوله: **و لاٰ تَضْحٰى**، أي لا تبرز للشّمس هناك يقال ضحى الرّجل يضحى إذا برز للشّمس و لا يبعد أن تكون هذه الأمور كالتّفسير لقوله فتشقى، كأنّه قال فتتعب بعد الخروج عن الجنّة و الهبوط الى الأرض بتحصيل هذه الأمور في الدُّنيا و من المعلوم أنّ في تحصيلها تعبٌ و مشقّة كما هو محسوسٌ عندنا.

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ

قال الرّاغب، الوسوسة الخطرة الرّديئة و أصله من الوسواس و هو صوت الحلي و الهمس الخّفي و يقال لهمس الصّائد وسواس إنتهى.

قال بعض المحققين في قوله تعالىٰ: **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ**، أي ألقى الى قلبه المعنى بصوتٍ خفّيٍ لكنّ العرب توصل بهذه الحروف كلّها الفعل يقال لما يقع في النّفس من عمل الخير إلهامٌ و ما لا خير فيه وسواس ولما يقع من الخوف إيجاس و لما يقع من تقدير الخير، أملٌ، و لما يقع ممّا لا يكون للإنسان و لا عليه، خاطر، إنتهى.

و في الدّعاء أعوذ بك من وساوس الشّيطان و قال بعض الأعلام وساوس الشيطان غير متناهية فمهما عارضة فيما يوسوس بحجّةٍ أتاه من بابٍ آخر بوسوسةٍ و لا تدبير في إبطال ما يأتي به من الفساد أقوى و أحسن من اللّجأ الى اللّه و الإعتصام بحوله و قوّته إنتهى.

قيل لمّا وسوس الشيطان اليه ناداه بإسمه ليكون أقبل عليه و أمكن للإجتماع ثمّ عرض عليه ما يلقى بقوله: **هَلْ أَدُلُّكَ** على سبيل الإستفهام الّذي يشعر بالنُّصح و يؤثّر قبول من يخاطبه كقول موسى هل لك الى أن تزّكى، عرض فيه مناصحة و كان آدم قد رغبه اللّه في دوام الرّاحة و إنتظام المعيشة بقوله: **فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا** و رغّبه إبليس في دوام الرّاحة بقوله: **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ** فجاءه إبليس من الجهة الّتي رغبّه اللّه فيها و معنى شجرة الخلد أي الشّجرة الّتي من أكل منها خلد و حصل له ملكٌ لا يخلق، الشّجرة الّتي نهاه اللّه عن تناولها و قد تقّدم الكلام في ماهيّة تلك الشّجرة و إختلافهم فيها فلا وجهٍ لإعادته.

فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْاٰتُهُماوَ طَفِقا يَخْصِفٰانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ اَلْجَنَّةِ وَ عَصىٰ اٰدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ

أي فأكل آدم و زوجه حوّاء منها أي من الشَّجرة المنهيّة عنها، فبدت، أي ظهرت لهما أي لآدم و حوّاء، سوأتهما، أي عوراتهما لأنّ ما كان عليهما من لباس الجَّنة نزع عنهما، و إنّما جمع سوأتهما و هو الإثنين، لأنّ كلّ شيئين من شيئين فهو من موضع التّثنية جمع لأنّ الإضافة تثنية و قوله: **طَفِقا**، يعني ظلاًّ و جعلا يفعلان و قوله: **يَخْصِفٰانِ** فالخصف خيط الشّئ بقطعةٍ من غيره إنّهما كانا يطبقان ورق الجَّنة بعضه على بعضٍ و يخيطان بعضه الى بعضٍ ليسترا به **سَوْاٰتُهُما**، و قوله: **وَ عَصىٰ اٰدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ** العصيان هنا ترك الأولى و قوله: **فَغَوىٰ**، أي خاب و خسر يقال غوى يغوي غوايةٍ و غيّاً إذا خاب قال الشّاعر:

فمن يلق خيراً يحمد النّاس أمره و من يغو لا يلوم على الغّي لائماً

أي من يخب، و أمّا البحث في ماهيّة الشَّجرة و الجَّنة و المعصية ذلك فقد مرَّ في البقرة مفّصلاً.

ثُمَّ اَجْتَبٰيهُ رَبُّهُ فَتٰابَ عَلَيْهِ وَ هَدىٰ

الإجتباء الإصطفاء أي أنّ اللّه تعالى إصطفاه على غيره بعد ذلك و قبل توبته و هداه الى معرفته و الى الثّواب الّذي عرضه له و قيل هداه الى نبوّته أو الى كيفيّة التوبة أو هداه رشده حتّى رجع الى النَّدم و يدلّ على ذلك قوله: **إِنَّ اَللّٰهَ اَصْطَفىٰ اٰدَمَ وَ نُوحًا وَ اٰلَ إِبْراٰهِيمَ وَ اٰلَ عِمْراٰنَ عَلَى اَلْعٰالَمِينَ**[١].

قٰالَ اَهْبِطٰا مِنْهٰا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّٰا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اَتَّبَعَ هُداٰىَ فَلاٰ يَضِلُّ وَ لاٰ يَشْقىٰ

١- آل عمران = ٣٣

لا شكّ أنّ الضّمير في، إهبطا، ضمير تثنية و هو أمرٌ لآدم و حَّواء، جعل هبوطهما عقوبتهما، و جميعاً حال منهما، و الضّمير في بعضكم و يأتيّنكم ضمير جمع فكيف التَّوفيق بينهما، قلت ذكروا في جوابه وجهين:

أحدهما: ما ذهب إليه أبو مسلم و هو أنّ الخطاب في قوله: **ٱهْبِطَا** لآدم و معه ذرَّيته و لإبليس و معه ذريّته فلكونها جنسين صحّ قوله: **ٱهْبِطَا** و لأجل إشتمال كلّ واحدٍ من الجنسين على الكثرة صحّ قوله فإمّا يأتَّينكم.

ثانيهما: ما ذهب إليه صاحب الكشّاف و هو أنّه لمّا كان آدم و حواء أصلا للبشر و السّبب اللّذين منهما تفرَّعوا جعلا كأنّهما، البشر أنفسهم فخوطبا مخاطبتهم فقال فإمّا يأتَّينكم على لفظ الجماعة إنتهى.

و أمّا قوله: **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** فيقل يكفي في توفيقه هذا الظّاهر حقّه أن يكون إبليس و الشّياطين أعداء للنّاس و النّاس أعداء لهم فإذا إنضاف الى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعضٍ لم يمتنع دخوله في الكلام إنتهى.

فهذا ما قالوه في حلّ الإشكال ولنا في المقام جواب آخر و هو أن قوله: **ٱهْبِطَا** دليل على أنّ أقلّ الجمع هو إثنان و على هذا فالمراد بقوله: **ٱهْبِطَا** هو الجميع بدليل قوله: **جَمِيعًا**، بعد ذلك و قوله: **بَعْضُكُمْ** و قوله: **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ** كلّ ذلك يدلّ على أنّ أقلّ الجمع ما ذكرناه أعني الإثنين و ما زاد عليهما هذا مضافاً الى قوله:

قال اللّه تعالى: **قُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**[١].

قال اللّه تعالى: **قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**[٢].

و قد ثبت أنّ القرآن تفسيره بعضه بعضاً، و اللّه أعلم.

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَىٰ

١- البقرة = ٣٦ ٢- الأعراف = ٢٤

و قوله: **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ** قيل والأصل وأن يأتيّنكم، و، ما، فريدة للتّأكيد أي معنى الشّرط و، ما، هذه مثل لام القسم في دخول النُّون المؤكّدة معها، قالوا و إنّما جئ بكلمة الشّك إيذاناً بأنّ إتيان الهدى بطريق الكتاب و الرّسول ليس بقطعّي الوقوع و أنّه تعالى أن شاء هدى و أن شاء ترك لا يجب عليه شئ ولك أن تقول إتيان الكتاب و الرّسول لمّا لم يكن لازم التَّحقق و الوقوع أبرز في معرض الشكّ و أكّد صرف الشّرط و الفعل بالنُّون للدّلالة على رجحان جهة الوقوع و التَّحقق إنتهى.

و قال بعض المفسّرين معناه أن أتاكم هدىً منّي بأن أكلّفكم و أنصب لكم الأدلّة على ما آمركم به من معرفتي و توحيدي و العمل بطاعتي فمن إتَّبع أدلّتي و عمل بما آمره به فأنّه لا يضلّ في الدنيّا و لا يشقى في الآخرة.

و نقل عن إبن عبّاس أنّه قال، فمن اللّه تعالى لمن قرأ القرآن و عمل به ألاّ يضلّ في الدنيّا و لا يشقى في الآخرة إنتهى.

أقول دلّ الكلام على من إتَّبع هدى اللّه فلا يضلّ و لا يشقى، و هذا ممّا لا كلام فيه لأحدٍ و إنّما الكلام في كيفيّة المتابعة فأنّ الهدى يحتاج الى الهادي و الهادي هو الإمام في كلّ عصرٍ و زمان قال اللّه تعالى مخاطباً لرسوله: **إِنَّمَآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**(١) أثبت الإنذار له صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و الهداية لمن بعده من الأوصياء و لذلك لم يقل إنّما أنت منذرٌ و هادٍ والواو في قوله ولكلّ قومٍ للإستئناف لا للعطف و إلاّ يلزم أن يكون الرّسول حيّاً الى يوم القيامة.

أن قلت يمكن أن يكون المراد بالهادي سنَّة الرّسول و هى باقية بعده.

قلت تفسير السُّنة و تبيّنها يحتاج الى مبيِّن و مفَّسر و لا نعني بالهادي بعد الرّسول إلاّ هذا فثبت و تحقَّق أنّ متابعة هدى اللّه أي دينه لا يمكن بدون الهادي أعني به الوحّي.

١– الرّعد = ٧

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة الجاهليّة.

و لنعم ما قال العطّار بالفارسيّة:

به عقل أين راه مسپر كاندرين ره جهاني عقل چون خر در خلال است

و لذلك إتَّفقت الشيعة على أنّ الهداية لا تحصل إلاّ بواسطة الإمام المعصوم و قد خاب من إفترى.

وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ أَعْمٰى

قيل المراد بالذّكر هو القرآن و الأدلّة المصوبة على الحَق و المعنى من لم ينظر في ذكري الّذي هو القرآن و الأدلّة المنصوبة على الحَق و صدف عنها فأنّ له عيشةً ضنكاً و الظّنك الضّيق الصّعب يقال منزل ضنكٍ أي ضيّق و عيشٍ ضنك و هو لا يثنى و لا يجمع و لا يؤنّث لأنّ أصله المصدر ثمّ وصف به قال الشّاعر:

أن يلحقوا أكدر و أن تستلحموا أشدد و أن يلفوا بضنكٍ أنزل

و قال الآخر:

أنّ المنيّة لو تمثّل مثّليت مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل

و قال الحسن و إبن زيد المعيشة الضّنك هو الضّريع و الزّقوم في النّار، الضّريع شوك من النّار و قال عكرمة و الضّحاك هو الحرام في الدنيّا الّذي يؤدّي الى النّار، و قيل أنّه عذاب القبر رواه أبو هريرة عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلم و به قال أبو سعيد و إبن مسعود و السّدي و عن إبن عبّاس نزلت هذه الآية في الأسود بن عبد الأسد المخزومي و المراد ضغطة القبر تختلف فيه أضلاعه و قال عطاء، المعيشة الضّنك معيشة الكافر لأنّه غير مؤمنٍ بالثّواب و العقاب، و قال إبن جبير يسلب القناعة حتّى لا يشبع، و الأقوال كثيرة و قوله: **وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ**

ٱلْقِيٰمَةِ أَعْمٰى، قيل أعمى البصر و قيل أعمى الحجّة و قيل أعمى عن جهات الخير لا يهتدي إليها و القول الأوّل أظهر و أنسب بإطلاق الكلام، و قيل المراد به هو عمى البصيرة، و على هذا حملوا الكلام و هو الحّق بدليل قوله تعالى: **وَ مَنْ كٰانَ في هٰذِهِ أَعْمٰى فَهُوَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ أَعْمٰى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا**(١).

و من المعلوم المسلّم عند الكلّ أنّ المراد به ليس هو عدم البصر فالمراد عدم البصيرة، و هو المطلوب و إنّما قلنا ليس المراد به عدم البصر إذ لا دليل لنا عقلاً و لا نقلاً على إثبات ذلك بل الدلّيل ثابت على خلافه فأنّ النّيل الى مقدّمات الآخرة متّرتبٌ على الإيمان و العمل الصالّح و أمّا البصر و السّمع فلا دخل لهما و لا لغيرهما من الأعضاء في الوصول إليها و هذا واضح و إطلاق الأعمى على عمى القلب و هو عدم البصيرة كثير في القرآن بل هو أكثر على إطلاقه على فاقد البصر:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمّٰا ثَمُودُ فَهَدَيْنٰاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا ٱلْعَمٰى عَلَى ٱلْهُدٰى**(٢).

أي فإستّحبوا الضّلالة و الكفر على الهداية و السّعادة:

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنَّهٰا لا تَعْمَى ٱلْأَبْصٰارُ وَ لٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتي فِى ٱلصُّدُورِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهٰا**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمٰى وَ ٱلْبَصِيرُ أَفَلاٰ تَتَفَكَّرُونَ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمٰى وَ ٱلْبَصِيرُ وَ لَا ٱلظُّلُمٰاتُ وَ لَا ٱلنُّورُ**(٦).

و الأيات كثيرة بل نقول أيّ ذنبٍ للأعمى الذّي خلقه اللّه كذلك حتّى يقال أنّه أعمى في الأخرة أيضاً و الحاصل أنّ العقل و النّقل لا يساعدان على إرادة

١- الإسراء = ٧٢ ٢- فصّلت = ١٧
٣- الحجّ = ٤٦ ٤- الأنعام = ١٠٤
٥- الأنعام = ٥٠ ٦- فاطر = ١٩

الظّاهر من الآية هذا، و قد دلّت الأخبار أيضاً أنّ المراد ما ذكرناه من عمى البصيرة من العامّة و الخاصّة فمن العامّة ما رواه الحافظ الحسكاني و هو من أعيان العامّة في شواهد التّنزيل.

بأسناده عن علّي إبن الحسين عن أبيه عن علّي قال: قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم للمهاجرين والأنصار أحبُّوا علّياً لحبّي إيّاه و أكرموه لكرامتي و اللّه ما قلت لكم هذا من قبلي و لكنّ اللّه أمرني بذلك و يا معشر العرب من أبغض علياً من بعدي حشره اللّه يوم القيامة أعمى أليس له حجّة إنتهى.

و بأسناده عن جابر بن عبد اللّه فاخطبنا رسول اللّه فسمعته يقول من أبغضنا أهل البيت حشره اللّه يوم القيامة يهودياً إنتهى.

و من الخاصّة مارواه علّي بن إبراهيم بأسناده عن معاوية بن عمّار قال قلت لأبي عبد اللّه قول اللّه: **إِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**، قال هي واللّه للنّصاب قال قلت جعلت فداك قد نراهم دهرهم الأطول في كفاية حتّى ماتوا قال عليه السلام ذاك و اللّه في الرّجعة يأكلون الغدرة إنتهى.

و عن أصول الكافي بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه في قول اللّه عزّ وجلّ: و **مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**، قال عليه السلام: نعني ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام قلت و نحشره يوم القيامة أعمى، قال عليه السلام: يعني أعمى البصر في الأخرة أعمى القلب في الدُّنيا عن ولاية أميرالمؤمنين قال و هو متّحيرٌ في القيامة يقول لم حشرتني أعمى و قد كنت بصيراً قال: **كَذٰلِكَ أَتَتْكَ اٰيَاتُنَا**، يعني الأئمّة، و كذلك اليوم تنسى الحديث.

و عن الفقيه باسناده عن معاوية بن عمار قال سالت ابا عبداللّه عن رجل لم يحجّ قطّ وله مالٌ فقال: هو ممّن قال اللّه عزّ وجلّ: **وَ نَحْشُرُهُ**

يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أعمىٰ فقلت سبحان اللّه أعمى فقال عليه السلام أعماه اللّه عن طريق الخير إنتهى.

و في حديثٍ أخر رواه في الكافي، أعماه اللّه عن طريق الحقّ، و فى حديث أخر عن طريق الجنّة و يحتمل أن يكون المراد بقوله و نحشره يوم القيامة معناه الظّاهر جزاءً بما أعرض عن ذكر اللّه في الدُّنيا ولكنّه بعيداً عن مساق الأيان المذكورة و اللّه أعلم بما أراد.

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنْسَىٰ

قال مجاهد معنى قول لم حشرتني أعمى، أي لا حجّة لي كنت عالماً بحجّتي بصيراً بها أحاجّ عن نفسي في الدنيا إنتهى.

و قيل سأل العبد ربّه عن السّبب الّذي إستحق به أن يحشر أعمى لأنّه جهله و ظنّ أنّه لا ذنب له فقال له جلّ ذكره كذلك أتتك أياتنا فنسيتها، أو أعرضت عنها و كذلك اليوم تنسى، أي تترك في العذاب و المقصود أنّ أياتنا أتتك واضحة مستيسرة فلم تنظر إليها بعين المعتبر و لم تتّبصر و عميت عنها فكذلك اليوم نتركك على عماك و لا نزيل غطاؤه عن عينيك قاله الزّمخشري

و يظهر من كلامه أنّه حمل الأعمى على فاقد البصر يوم القيامة لا على فاقد البصيرة بدليل قوله (عن عينيك) و لا مشاحة فيه و أمّا الأيات في قوله: **أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا**، فالجمهور على أنّ المراد بها الأدلّة و الحجج الّتي أتى بها النّبي من القرآن و المعجزات و الكرامات و بالجملة جميع الدّلائل الواضحة المرشدة إلى طريق الحقّ من التّشريعيات و التّكوينيات و قوله: **فَنَسِيتَهَا** فالنسيان هو ترك الإنسان ضبط ما إستودع، أمّا لضعف قلبه، و أمّا عن غفلةٍ، و أمّا عن قصدٍ حتّى ينحذف عن القلب ذكره و على هذا فالمعنى تركتها أي تركت الأيات ولم تتّبصر فيها فكذلك اليوم تترك و يستفاد من هذا الكلام أنّ الإنسان مأمورٌ عقلاً

بالتّفكر و التّدبر في الأيات ليحصل له التّبصر في دينه و هذا هو الفرق بين الإنسان و الحيوان لا الرّؤية بالبصر لأنّها موجودة في الحيوان أيضاً إذا عرفت هذا فنقول:

المراد بالأيات في قوله: **اٰيٰاتُنٰا** و أن كان على قول الجمهور معناها العامّ الشّامل للتّشريعيات و التّكوينيات إلاّ أنّه يظهر من الأخبار أنّ في رأس الأيات أوصياء النّبي و هم الأئمّة الأثني عشر بل هم المرادون في الحقيقة منها فمن ترك ولايتهم و متابعتهم في الدنيا ينسى و يترك في الأخرة و أن لم يترك ينسى سائر الأيات في الدُّنيا.

روي في الكافي بأسناده عن داوود الرّقي قال: سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه تعالىٰ: وَ مٰا تُغْنِى اَلْاٰيٰاتُ وَ اَلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ[١] قال عليه السلام: الأيات الأئمّة و النُّذُر الأنبياء صلوات اللّه عليهم أجمعين إنتهى.

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول اللّه تعالىٰ: كَذَّبُوا بِاٰيٰاتِنٰا كلّها يعني الأوصياء كلّهم إنتهىٰ.

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له جعلت فداك أنّ الشّيعة يسألونك عن تفسير هذه الأية: عَمَّ يَتَسٰآءَلُونَ، عَنِ اَلنَّبَإِ اَلْعَظِيمِ[٢] قال عليه السلام: ذلك إلّي إن شئت أخبرتهم و إن شئت لم أخبرهم قال عليه السلام لكنّي أخبرك بتفسيرها قلت عمَّ يتَسائلون قال فقال هي في أميرالمؤمنين يقول ما للّه تعالى أية هي أكبر منّي و لا للّه من نبأٍ أعظم منّي إنتهى.

أقول و السِّر في ذلك هو أنّ جميع الأيات في صدورهم فمن لم يعرفهم لم يعرفها.

١- يونس = ١٠١
٢- النّباء = ١/٢

فقد روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام عن تفسير قوله تعالى: بَلْ هُوَ اٰيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ في صُدُورِ اَلَّذينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ[1] قال عليه السلام أما والله يا أبا محمّد ما قال بين دفّتي المصحف قلت من هم جعلت فداك قال عليه السلام من عسى أن يكونوا غيرنا إنتهى و الأحاديث نقلناها عن الكافي أبواب الحجج.

أقول و لذلك لا تقبل الأعمال إلاّ بولايتهم و هذا الّذي ذكرناه هو تأويل الآية فإفهم.

وَكَذٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِاٰيٰاتِ رَبِّهِ وَ لَعَذٰابُ اَلْاٰخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقىٰ

عدَّ اللّه تعالى من لم يؤمن بالأيات من المسرفين على أنفسهم و هدَّدهم بقوله ولعذاب الأخرة أشدَّ، أنواع العذاب، و أبقى، لأنّه لا زوال له هذا تفسير ألفاظ الآية و أمّا تأويلها فقد ظهر ممّا ذكرناه في معنى الأيات و قلنا أنّ المراد بها الأوصياء و أنّما قلنا ذلك لأنّ الايمان و الإعتقاد بظواهر الأيات كان ثابتاً في صدر الإسلام لأكثر المسلمين و من أظهر مصاديقهم الخوارج، و لتفصيل الكلام فيه موضع أخر فأنّا لا نشكّ في أنّ الإيمان لا يتّحقق إلاّ بالولاية.

■

١- العنكبوت = ٤٩

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ
يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٧﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ
لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ
وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ
ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٢٩﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ
إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ
﴿١٣٠﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا
نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ
﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ
تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَلَوْ
أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن
نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٣﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ
ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٤﴾

◄ اللّغة

مِنَ ٱلْقُرُونِ: هي جمع قرن و القرن القوم المقترنون في زمنٍ واحد و جمعه قرون.

ٱلنُّهَىٰ: بضّم النُّون واحدها نهية بضّم النّون أيضاً و هى العقل النّاهي عن القبائح.

ءَانَآءِ ٱلَّيۡلِ: ساعاته واحدها إنيٰ.

زَهۡرَةَ: بفتح الهاء و سكونها الأنوار الّتي تروق عند الرُّؤية و من ذلك قيل الكوكب يزهر و الباقي واضح.

◀ الإعراب

أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ في فاعله وجهان:

أحدهما: ضمير إسم اللّه أي أفلم يبيّن اللّه لهم.

الثّانى: أن يكون الفاعل ما دلّ عليه.

أَهۡلَكۡنَا، أي إهلاكنا و كَمۡ في موضع نصب بأهلكنا أي كم قرناً أهلكنا يَمۡشُونَ حال من الضّمير المجرور في لهم، أو حال من المفعول في، أهلكنا، أي أهلكنا في حال غفلتهم وَ أَجَلٌ مُسَمًّى هو معطوف على كلمة و اللّزام مصدر في موضع إسم الفاعل و يجوز أن يكون جمع لازم مثل قائمٌ و قيام و مِن ءَانَآءِ ٱلَّيۡلِ هو في موضع نصب بسبّح الثّانية زَهۡرَةَ في نصبه أوجه:

أحدها: أن يكون بفعلٍ محذوف دلَّ عليه، متَّعنا، أي جعلنا لهم زهرة.

الثّانى: أن يكون بدلاً من موضع، به.

الثّالث: أن يكون بدلاً من أزواجٍ و التّقدير ذوي زهرة محذوف المضاف مَنۡ أَصۡحَٰبُ من مبتدأ و خبر و الجملة في موضع نصب و لا تكون بمعنى الّذي، إذ لا عائد عليها.

◀ التّفسير

أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ

قرأ الجمهور، يهد، بالياء و قرأ فرقة منهم إبن عبّاس بالنّون و بخّهم اللّه تعالىٰ و ذكّرهم العبر بما تقدّم من القرون و الأمم السّالفة قيل أنّ قريشاً كانت تتّبحر إلى الشّام فتّمر بمساكن عاد و ثمود فترى أثار إهلاك اللّه إيّاهم فنبّههم اللّه بذلك على معرفته و توحيده و أعلمهم أنّ إهلاكهم لم يكن إلاّ بتكذيبهم الرّسل و تركهم الإيمان باللّه و إتّباع رسله، فقوله: **كَمْ** أهلكنا، قد دلّ على هلاك القرون فالتّقدير أفلم نبّين لهم هلاك من أهلكنا من القرون و محو أثارهم فيتّعظوا بذلك، يمشون في مساكنهم، و الضّمير في يمشون عائد على الكفّار الّذين و بّخهم اللّه في الآية فأنّهم كانوا يمشون في مساكنهم أي في مساكن الّذين أهلكهم اللّه لأنّ في ذلك لأياتٍ و علاماتٍ لذوي العقول السّليمة و ذلك لأنّ اللّه تعالى لم يهلكهم إلاّ لتكذيبهم الرّسل و ترك الإيمان و فعل المعاصي و حكم الأمثال واحد.

وَ لَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماًوَ أَجَلٌ مُسَمًّى

قيل في الكلام تقديم وتأخير و تقديره ولولا كلمةٌ سبقت من ربّك و أجلٌ مسمّىً لكان لزاماً، معناه لولا ما سبق من وعد اللّه بأنّ السّاعة تقوم في وقتٍ بعينه و أنّ المكلّف له أجل مقدّرٌ معيّنٌ لكان هلاكهم لزاماً أي لازماً أبداً و قيل معناه فيصلاً يلزم كلّ إنسانٍ طائره أن خيراً فخيراً و أن شرّاً فشرّاً و قال قوم عذاب اللّزام كان يوم بدر قتل اللّه في الكفّار ولولا ما قدّر اللّه من آجال الباقيم و وعدهم من عذاب الأخرة لكان لازماً لهم أبداً في سائر الأزمان.

أقول بيّن اللّه تعالى الوجه الّذي لأجله أخّر العذاب عن هذه الأمة و الكلمة السّابقة هي المعدّة بتأخير جزائهم قال تعالىٰ: **بَلِ ٱلسّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ** هكذا قيل، و الذّي يقوّي في النّفس أنّ المراد بالكلمة هو قوله تعالى: **وَ ما كانَ ٱللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ ٱللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**[١].

١– الأنفال = ٣٣

و أمّا قولهم أنّ المراد بالكلمة التّي سبقت هو قوله: **بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ** فهو إشارة إلى عذاب الأخرة و هو يشمل جميع النّاس و لا إختصاص له بمن خالف النّبي في الدنيّا فأنّ المسلم الفاسق أيضاً يعذّب في الأخرة، و الظّاهر أنّ الآية بصدد العذاب في الدنيّا ألا ترى أنّ اللّه يقول و كم أهلكنا من القرون يعني في الدنيّا ثمّ يقول ولولا كلمة سبقت من ربّك و أجلّ مسمّىً لكان ذلك الإهلاك لازماً لهم أي لكفّار قريش أيضاً، فتقدير الكلام أنّ الكلمة التّي سبقت منّا هي المانعة من نزول العذاب عليهم في الدنيا و هى قوله و ما كان اللّه ليعذّبهم و أنت فيهم و لأجل هذا لم ينزل عليهم العذاب في حياة النّبي مع أنّهم كانوا أخبث و أفسق من قوم عاد و ثمود ثمّ أمر اللّه نبيّه بالصّبر على ما يقول مشركوا قريش و هم الّذين عاد الضّمير في قلوه أفلم يهد لهم، عليهم و كانوا يقولون أشياء قبيحة ممّا حكى اللّه عنهم في كتابه فأمر اللّه تعالى نبيّه بالصّبر على أذاهم و الإحتمال لما يصدر من سوء أخلاقهم فقال.

فَاصْبِرْ عَلٰى مٰا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهٰا و من آنٰآءِ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرٰافَ ٱلنَّهٰارِ لَعَلَّكَ تَرْضٰى

أمره بالصّبر على ما يقولون من كفرهم بتوحيد اللّه و جحدهم لنبوّته و أذاهم إيّاه بأقوالهم و أفعالهم ثمّ أمره بتسبيح ربّه قبل طلوع الشّمس، يعني صلاة الفجر و قبل غروبها يعني صلاة العصر و من أناء اللّيل، يعني المغرب و العشاء و أطراف النّهار يعني صلاة الظُّهر و قد أجمع المفسّرون على أنّ المراد من الآية إقامة الصّلوات الخمس و هى الصُّبح و الظُّهر و العصر و المغرب و العشاء و أنت ترى أنّ الآية تدلّ على سعة الوقت و عدم الإختصاص بأول الوقت أو أخره إلاّ أنّ الرّوايات و الشُّهرة خصصَّت الظّهر من أوّله و العصر من آخره و كذا العشائين بمقدار إدائها و على أنّ آخر وقت صلوة الفجر طلوع

الشّمس و تفصيل الكلام في الفقه، و أمّا قوله: **و مِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ**، من، ظرفيّة بمعنى، في، أو إبتدائيّة و قدّم الجّار هنا لزيادة التّحريص و التّرغيب لإختصاصه بمزيد الفضل فأنّ القلب فيه أجمع لتّفرغه من هموم المعاش أو أنّ النَّفس أميل الى طلب الإستراحة من تعب الكَّد في النّهار فكانت العبادة فيه أحمز و أصعب و لذلك.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَ أَقْوَمُ قِيلًا**[۱].

و نقل عن إبن عبّاس أنّه قال المراد من آناء اللّيل صلوة اللّيل كلّه، و أمّا قوله و أطراف النّهار، قيل المراد صلوة الفجر و المغرب على التّكرار في الفجر لشدّة الإهتمام فيها، و جعل المغرب طرف النّهار على ضربٍ من المجاز لشدّة قربها منه لأنّ مبدأ وقتها إستتار القرص كما قيل أو لأنّ ما قبل ذهاب الشَّفق داخل في النّهار و ذكر بعضهم أنّ المراد بأطراف النّهار صلوة الظُّهر و ذلك لأنّ وقتها عند الزّوال طرف النِّصف الأوّل نهايةً و طرف الثّاني بداية و قيل صلوة العصر لأنّها الوسطى و إنّما قال أطراف النّهار بصيغة الجمع لأنّه يصدق على كلّ ساعةٍ من النَّصف الأخير أنّها طرف، و قيل فالنّهار في معنى الجَّمع، و قيل أنّه أراد طرف أوّل النّصف الأوّل و آخر النَّصف الأوّل أوّل النَّصف الأخير و آخر النّصف الأخير جمع، و قوله: **لَعَلَّكَ تَرْضٰى** معناه سبّح في هذه الأوقات يعطيك ربّك ما ترضى به نفسك و قيل معناه إفعل يا محّمد ما أمرتك به لكي ترضى بما يعطيك اللّه من الثّواب على ذلك.

وَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلٰى مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوٰجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقٰى

۱- المزّمل = ۶

لمّا أمر اللّه تعالى نبيّه بالصّبر على ما يقولون و بالتّسبيح نهاه عن مدّ البصر الى ما متّع به الكفرة، يقال مدّ نظره إليه إذا أدام النّظر إليه، المعنى لا تعجب يا محّمد ممّا متّعناهم به من مالٍ و بنينٍ و منازل و مراكب و ملابس و مطاعم فإنّما ذلك كلّه كالزهرة الّتي لا بقاء لها و لا دوام و أنّها عمّا قليل تفنى وتزول و الخطاب و أن كان ظاهراً للرّسول إلاّ أنّ المراد به الأمّة لأنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان أبعد النّاس عن النّظر في زينة الدنيّا و زخارفها بل نقول أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم ينظر إليها بعين الحسرة أبداً و هو القائل الدنيّا ملعونة ملعونٌ ما فيها إلاّ ما أريد به وجه اللّه و كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شديد النّهي عن الإغترار بها و النّظر الى زخرفها و قوله: **وَ لَا تَمُدَّنَّ**، أبلغ من، لا تنظر، لأنّ مّد البصر يقتضي الإدامة و الإستحسان بخلاف النّظر فأنّه قد لا يكون ذلك معه و من المعلوم أنّ العين لا تمّد، فهو على حذف مضافٍ أي لا تمّدن بنظر عينيك و النّظر غير الممّدد معفوٌ عنه و ذلك مثل من فاجأ الشّيئ ثمّ غضّ بصره و قوله: **أَزْوَاجًا مِنْهُمْ** أي أشكالاً من المزاوجة بين الأشياء و هى المشاكلة و ذلك أنّهم أشكال في الذّهاب عن الصّواب **زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** الجمهور على سكون الهاء و أجاز الزّمخشري في الهاء الفتح بناءً على أن تكون جمع زاهر نحو كفرة و كافر وصفهم بأنّهم زاهر و هذه الدنيّا لصفاء ألوانهم ممّا يلهون و يتّنعمون و تهلّل وجوههم و بهاء زيّهم بخلاف ما عليه المؤمنون و الصّلحاء من شحوب الألوان و التّقشف في الثّياب و معنى (**لِنَفْتِنَهُمْ**) أي لنبلوهم و نختبرهم حتّى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم أو لنعذّبهم في الآخرة بسببه **وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰ** يعني الّذي وعدك به في الآخرة من الثّواب خيرٌ و أبقى ممّا متّعنا به هؤلاء في الدنيّا.

و قال بعض المفسّرين معناه **رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰ** لهؤلاء الكفّار لو كانوا يعلمون أي ما ذخّر لهم من المواهب في الآخرة خير ممّا متّع هؤلاء في الدّنيا و أبقى و أدوم لو كانوا مؤمنين، و قيل معناه ما رزقهم اللّه و أن كان قليلاً خيرٌ

ممّا جمعوا و إن كان كثيراً لحليّة ذلك و حرمة هذا و أوّل الأقوال أحسنها و يدلّ عليه سياق الكلام كما لا يخفى على المتأمل.

وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلٰوةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْهٰا لاٰ نَسْئَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَ الْعٰاقِبَةُ لِلتَّقْوٰى

قيل المراد به أهل بيتك و أهل دينك فدخلوا كلّهم في الجملة، (و أصطبر عليها) بالإستعانة بها على الصَّبر عن محارم اللّه **لاٰ نَسْئَلُكَ رِزْقًا** الخطاب للنّبي و المراد به جميع الخلق فأنّ اللّه تعالى يرزق خلقه و لا يسترزقهم فيكون أبلغ في المنّة، و العاقبة للتّقوى، يعني العاقبة المحمودة لمن إتّقى معاصي اللّه و أجتنب محارمه قاله الشّيخ في التّبيان.

أقول ظاهر الآية وجوب أهله خاصّة بالصّلوة و لا يبعد أن يفهم من الآية وجوبها على الأمر فيها أيضاً و لكن ترك التّصريح بذلك إعتماداً على ظهور كونه مأموراً بالإصطبار عليها أي أقبل أنت و أهلك على الصّلاة و عبادة اللّه و إستعينوا بها على قضاء حوائجكم كما قال تعالى: **وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلٰوةِ**[١] و لا تهتّم بالرّزق و المعيشة فأنّه يأتيك من عندنا و نحن نسوقه إليك ففّرغ بالك لأمر الأخرة.

و يدلّ علىٰ ذلك ماروٰاه في غوالي اللّئالئ عن الباقر عليه السلام أنّه قال: أمر اللّه أن يخصّ أهله دون النّاس ليعلم النّاس أنّ لأهله منزلة ليست للنّاس فأمرهم مع النّاس عامّة ثمّ أمرهم خاصّة إنتهى.

و في تفسير علّي بن إبراهيم في هذه الأية، فأنّ اللّه أمره أن يخصّ أهله دون النّاس ليعلم النّاس أنّ لأهل محمّد صلى الله عليه و آله و سلم عند اللّه منزلة خاصّة ليست للنّاس إذ أمرهم مع النّاس ثمّ أمرهم خاصّة، فلمّا

١- البقرة = ۴۵

أنزل هذه الآية كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يجئ كلّ يومٍ عند صلاة الفجر حتّى يأتي باب عليٍ و فاطمة فيقول السّلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته فيقول عليٌ و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام و عليك السّلام يا رسول اللّه و رحمة اللّه و بركاته ثمّ يأخذ بعضادتي الباب فيقول الصّلاة الصّلاة يرحمكم اللّه أنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت و يطّهركم تطهيراً فلم يزل يفعل ذلك كلّ يومٍ إذا شهد المدينة حتّى فارق الدُّنيا و قال أبو حمراء خادم النّبي أنا شهدته يفعل ذلك إنتهى.

و فيه أيضاً و أمر أهلك بالصّلاة أي أمتّك و إصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك و العاقبة للتّقوى، قال للمتّقين إنتهى.

و في عيون الأخبار مثل ذلك و لكن فيه و كان يجئ إلى بابهم بعد نزول الآية تسعة أشهر كلّ يومٍ عند حضور كلّ صلاة خمس مرّات إنتهى و الأخبار في الباب كثيرة و فضيلة الصّلاة معلومة.

قال بعض العلماء، إعلم أنّه يحتمل أن يكون المقصود ترك التّكسب بالكليّة و التّوجه إلى الأمر بالمعروف و التّصبر على مشاقّة الصّلاة و الأمر بها و عدم تكليفه برزق نفسه و عياله و يكون ذلك من خصائصه صلى الله عليه و آله و سلم لأنّه قد جعل له في الأموال سهماً.

و يحتمل على بعدٍ أن يكون هذا عامّ لكلّ من توّجه إلى اللّه و أقبل إلى عبادة ربّه و يرشد إليه قوله تعالى: **وَ مَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(٢)وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**[١].

و روي عنه صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: من طلب العلم تكّفل اللّه برزقه و أمثال ذلك من الأحاديث إنتهى.

١- الطّلاق = ٢/٣

أقول هذه الأخبار لا يمكن المساعدة عليها على إطلاقها لأن ترك طلب الرِّزق مرجوحٌ سيّما بالنّسبة إلى من ليس له وجه معيشة بالكليّة بل يوشك أن يكون حراماً.

و قد ورد عنهم عليهم السّلام أنّه تعالى لا يستجيب دعاء الرّجل يجلس في بيته و يقول ربّ أرزقني و لا يخرج و لا يطلب الرِّزق رواه في الكافي.

و روي الشّيخ قدس سره عن علّي بن عبد العزيز قال قال ما فعل عمر بن مسلم قلت جعلت فداك قد أقبل على العبادة و ترك فقال ويحه أما علم أنّ تارك الطَّلب لا يستجاب له أنّ قوماً من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا نزلت و من يتّق اللّه يجعل له مخرجاً و يرزقه من حيث لا يحتسب أغلقوا الأبواب و أقبلوا على العبادة و قالوا قد يكفينا فبلغ ذلك النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليهم ما حملكم على ما صنعتم فقالوا يارسول اللّه تكّفل اللّه لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة فقال صلى الله عليه وآله وسلم أنّه من فعل ذلك لم يستجيب له عليكم بالطَّلب إنتهى.

و الأخبار الواردة في الحثّ على الطَّلب وتحصيل المعيشة بالتَّكسب أكثر من أن تحصى مضافاً إلى أن الطَّلب من سنن الأنبياء عليهم السّلام.

و قد روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: كان أميرالمؤمنين يضرب بالمّر و يستخرج الأرضين و أعتق عليه السلام ألف مملوك من ماله و الأيات و الأخبار المتّضمنة لكون الرّزق من اللّه و أنّه هو المقدّر له لا تنافي الرُّجحان الطلب كما لا يخفى.

نعم الحرص في طلب الرِّزق مدمومٌ لأنّ الرّزق مقسوم قسّمه عادلٌ بين الخلق و ضمنه فالحرص لماذا، و الأظهر في معنىٰ الآية أنّ

المراد بها ليس ترك الطّلب و التّكسب بالكليّة لأنّه مرجوحٌ في الجملة قطعاً فالمعنى لا تهتّم لطلب الرّزق بل يكفيك أدنى طلبٍ و اللّه تعالى هو الّذي يسوق الرّزق إليك و لا تطلب الفضول كما يفعله من أقبل على الدّنيا حرصاً عليها و لكن إهتّم لطلب الأخرة سيّما الأمور الواهية قال عليه السلام ليس منّا من ترك دنياه لأخرته و لا أخرته لدنياه. و روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: وليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيّع و دون طلب الحريص الرّاضي بدنياه المطّمئن إليها و لكن أنزل نفسك بمنزلة المنصف المتّعفف ترّفع عن منزلة الواهن الضعيف و تكتسب ما لابدّ منه إنتهى.

أقول و بهذا الحديث و امثاله يجمع بين الأخبار الواردة من الطّرفين فأنّ اللّه تعالى قد جعل هذه الآية وسطاً في جميع الأمور المتعلّقة بالنشأتين.

وَ قَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى.

قالوا، أي قال الكفّار قيل المراد بهم كفرا مكّة، لولا يأتينا بأيةٍ من ربّه، أي لولا يأتينا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بأيةٍ و علامةٍ توجب العلم الضّروري بنبوّته أو بأيةٍ ظاهرة كالنّاقة و العصا، أو هلّا يأتينا بالأيات التّي نقترحها كما أتى الأنبياء من قبله فقال تعالى في جوابهم.

أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى يريد التّوراة و الإنجيل و الكتب المتقدّمة و الإستفهام للإنكار أي بلى أتتهم بيّنة ما في الكتب السماويه الدالّة على نبوّته و لكنّهم أخفوها و أنكروها بألسنتهم كما هو شأن المنافق معناه، أولم يأتهم إهلاكنا الأمم الّذين كفروا و إقترحوا الأيات فما يؤمنّهم أن أتتهم الأيات إن يكون حالهم حال أولئك، و الأوّل أنسب بقوله: **مَا فِي**

ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ، لأنّ فيها البشارة بنبوّة محمّد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و هم كانوا عالمين بها إلاّ أنّهم لعنادهم أنكروها لساناً مع علمهم بها قطعاً كما هو شأن المعاند و أيّة أيةٍ أظهر و أجلى ممّا فيها من البشارة صريحاً هذا مضافاً إلى المعجزات الّتي أتى بها النّبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ظاهراً لهم.

وَ لَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزَىٰ

أي ولو أهلكنا الكفّار بعذابٍ كعذاب عاد و ثمود و قوم نوح و غيرهم، من قبله، أي من قبل نزول القرآن، أو من قبل أن نبعث الرّسول إليهم، لقالوا، غداً يوم القيامة ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً، يدعونا إلى اللّه و يأمرنا بتوعيده، فنتّبع، أولئك و أياتك من قبل أن نذّل و نخزى، في الدّنيا و الأخرة.

قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوِيِّ وَ مَنِ ٱهْتَدَىٰ

التّربص الإنتظار و الصّراط السّوي هو الدّين المستقيم الّذي لا عوج فيه خاطب اللّه نبيّه ظاهراً و المراد به الأمّة باطناً أمره اللّه أن يقول لهؤلاء الكفّار المعاندين الذّين أنكروا التّوحيد و النبوّة، كلٌّ متّربصٌ، أي كلّ واحدٍ منّا ومنكم متّربصٌ دوائر الزّمان ولمن يكون النّصر و الغلبة **فَتَرَبَّصُوا** أنتم أي فإنتظروا فستعلمون من أصحاب الصّراط السّوي و من إهتدى، أي فستعلمون بالنّصر من إهتدى إلى دين الحقّ، و قيل فستعلمون يوم القيامة من إهتدى إلى طريق الجنّة و فى هذا ضربٌ من الوعيد و التّهديد و التّخويف، و كلمة من، هاهنا إستفهام في موضع رفع بالإبتداء و المعنى فستعلمون أصحاب الصّراط السّوي أم أنتم.

و قال الفرّاء أنّ معنى، من أصحاب الصّراط السّوي، من لم يضلّ و أنّ معنى وَ مَنِ ٱهْتَدٰى من ضَّل ثمّ إهتدى إنتهى وكيف كان فالمقصود من الآية نحن نتّربص بكمم وعد اللّه لنا فيكم و أنتم تتّربصون بنا أن نموت فتستريحوا،

وقد روي الحافظ الحسكاني بأسناده عن أبي صالح عن إبن عبّاس أنّه قال عليه السلام: أصحاب الصّراط السّوي، هو واللّه محمّد وأهل بيته، و الصّراط الطّريق الواضح الّذي لا عوج فيه، و من إهتدى فهم أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إنتهى.

و في كتاب كشف المحجّة لإبن طاووس رضي الله عنه حديث طويل، عن أميرالمؤمنين وفيه قيل و من الولي يارسول اللّه قال وليّكم في هذا الزّمان أنابعدي وصيّتي و من وصّي لكلّ زمانٍ حجج اللّه لكيلا يقولون كما قال الضُّلال من قبلكم فارقهم نبيّهم، رَبَّنَا لَوْلآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً و أنّما كان تمام ضلالتهم جهالتهم بالأيات و هم الأوصياء فأجابهم اللّه بقوله: قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا إنتهى.

و في تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: و اللّه نحن السّبيل الّذي أمركم اللّه بإتباعه و نحن و اللّه الصّراط المستقيم ونحن و اللّه الّذين أمر اللّه بطاعتهم فمن شاء فليأخذ هنا و من شاء فليأخذ هنا لا تجدون و اللّه عنّا محيصاً إنتهى.

أقول ختامه مسك و فى ذلك فليتنافس المتنافسون هذا أخر الكلام في تفسير الجزء السّادس عشر من هذا السّفر الجليل.

■

سُورَةُ ٱلْأَنْبِياءِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اِقْتَرَبَ لِلنّٰاسِ حِسٰابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ
مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ
مُحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لٰاهِيَةً
قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هٰذٰا
إِلّٰا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ
﴿٣﴾ قٰالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمٰاءِ وَ ٱلْأَرْضِ
وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قٰالُوا أَضْغٰاثُ أَحْلامٍ
بَلِ ٱفْتَرٰيهُ بَلْ هُوَ شٰاعِرٌ فَلْيَأْتِنٰا بِاٰيَةٍ كَمٰآ أُرْسِلَ
ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مٰآ اٰمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰآ
أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَ مٰآ أَرْسَلْنٰا قَبْلَكَ إِلّٰا رِجٰالًا
نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَاسْئَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لٰا
تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَ مٰا جَعَلْنٰاهُمْ جَسَدًا لٰا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعٰامَ
وَ مٰا كٰانُوا خٰالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنٰاهُمُ ٱلْوَعْدَ
فَأَنْجَيْنٰاهُمْ وَ مَنْ نَشٰاءُ وَ أَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾
لَقَدْ أَنْزَلْنٰآ إِلَيْكُمْ كِتٰابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلٰا تَعْقِلُونَ
﴿١٠﴾ وَ كَمْ قَصَمْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ كٰانَتْ ظٰالِمَةً وَ

أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْمًا آخَرِينَ «۱۱» فَلَمّآ أَحَسُّوا
بَأْسَنآ إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ «۱۲» لا تَرْكُضُوا وَ
ٱرْجِعُوٓا إِلى مآ أُتْرِفْتُمْ فيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْئَلُونَ «۱۳» قالُوا يا وَيْلَنآ إِنّا كُنّا ظالِمِينَ «۱۴»
فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْويٰهُمْ حَتّىٰ جَعَلْناهُمْ حَصِيدًا
خامِدِينَ «۱۵» وَ ما خَلَقْنَا ٱلسَّمآءَ وَ ٱلْأَرْضَ وَ
ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ «۱۶» لَوْ أَرَدْنآ أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا
لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّآ إِنْ كُنّا فاعِلِينَ «۱۷» بَلْ نَقْذِفُ
بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَ
لَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمّا تَصِفُونَ «۱۸» وَ لَهُ مَنْ فِى
ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ «۱۹» يُسَبِّحُونَ
ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ «۲۰»

◀ اللّغة

اِقْتَرَبَ: الإقتراب قصر مدّة الشيء بالإضافة الى ما مضى زمانه و حقيقة القرب قلّة ما بين الشيّئين يقال قرّب ما بينهما تقريباً إذا قلّل ما بينهما من مدّةٍ أو مسافةٍ أو أيّ فاصلة و القرب قد يكون في الزّمان، و فى المكان، و فى الحال، و قد قيل كلّ آتٍ قريب.

فى غَفْلَةٍ: الغفلة ذهاب المعنى عن النّفس و نقيضها اليقظة.

مُحْدَثٍ: بتنزيل القرآن سورة بعد سورةٍ و آية بعد آيةٍ و الذّكر القرآن.

لاٰهِيَةً: اللّهو الهزل الممّتع أي طالبة للّهو.

أَسَرُّوا: أي أخفوا.

أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ: أي تخاليط رؤيا رآها في المنام.
ٱفْتَرَىٰهُ: يقال إفترى أي تخرّصه و إفتعله.
فَقَصَمْنَا: القصم كسر الشّئ الصّلب.
بَأْسَنَآ: البأس الشّدة و العذاب.
يَرْكُضُونَ: الرَّكض ضرب الدّابة بالرّجل.
خَٰمِدِينَ: خمدت النّار طفئت.
فَيَدْمَغُهُ: دمغه أصاب دماغه نحو كبده و رأسه.
زَاهِقٌ: يقال ذهق أي هلك.

◄ الإعراب

وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ هم، مبتدأ و مُعْرِضُونَ الخبر و فى غفلة حال في، معرضون و يجوز أن يكون خبراً ثانياً مُحْدَثٍ محمول على لفظ، ذكر، ولو رفع على موضع من ذكر، جاز، مِنْ رَبِّهِمْ صفة لذكر أو حال من الضّمير في محدث لَاهِيَةً حال من الضّمير في، يلعبون، وقيل حال من الواو في إستمعوه ٱلَّذِينَ ظَلَمُواموضعه الرَّفع لأنّه بدل من الواو في، وَ أَسَرُّوا، أو هو مبتدأ و الخبر، هل هذا، أو هو خبر مبتدأ محذوف أي هم الّذين ظلموا، أو منصوب على إضمار، أعني، أو مجرور على أنّه صفة للنّاس فِي ٱلسَّمَآءِ حال من القول أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ أي هذا أضغاث أحلام أَهْلَكْنَاهَآ صفة لقربة إمّا على اللّفظ أو على الموضع جَسَدًا هو مفرد في موضع الجمع و المضاف محذوف أي ذوي أجساد فِيهِ ذِكْرُكُمْ الجملة صفة لكتاب و ذكركم، مضاف الى المفعول أي ذكرنا أيّاكم إِذَا هُمْ مبتدأ و يَرْكُضُونَ الخبر، و إذا، ظرف للخبر، تِلْكَ دَعْوَىٰهُمْ تلك في موضع رفع إسم زالت و دعواهم الخبر و يجوز العكس حَصِيدًا مفعول ثان خَٰمِدِينَ صفة لحصيد لَٰعِبِينَ حال من الفاعل في، خلقنا، و، ما، في مِمَّا تَصِفُونَ بمعنى الّذي و نكرة موصوفة موصوفة أو مصدريّة يُسَبِّحُونَ

يجوز أن يكون مستأنفاً و أن يكون حالاً من ضمير الفاعل قبلها **وَلَا يَفْتُرُونَ** حال من ضمير الفاعل في، يسحبّون.

◀ التّفسير

اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ

قيل أنّه لمّا ذكر **قُل كُلٌّ مُتَربص فَتَرَبصُوا**[١] قال مشركوا قريش أنّ محمّداً يهددنا بالمعاد و الجزاء على الأعمال وليس بصحيح و أن صحَّ ففيه بعدٌ فأنزل اللّه تعالى: **اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ** الآية و إقترب إفتعل بمعنى الفعل المجرّد و هو، قرب، كما تقول إرتقب و رقب، و قيل هو أي إفتعل أبلغ من قرب للزّيادة في البناء، و المراد بالنّاس مشركوا مكّة، و قيل عامٌّ في منكري البعث و إقتراب الحساب إقتراب وقته والحساب في اللّغة إخراج الكميّة من مبلغ العدد و قد يطلق على المحسوب و جعل ذلك إقتراباً لأنّ كلّ ما هو آتٍ و أن طال وقت إنتظاره فهو قريب لتّحقق وقوعه ولذلك قيل أنّ المستقبل المحقّق الوقوع في حكم الماضي و أنّما البعيد هو الّذي إنقرض أو هو مقتربٌ عند اللّه كقوله: **وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**[٢] أو بإعتبار ما بقىٰ من الدُّنيا فأنّه أقصر و أقلّ ممّا مضى و فى الحديث قال رسول اللّه ﷺ بعثت أنا و السّاعة كهاتين، قال الشّاعر:

فما زال من يهواه أقرب من غدٍ و زال من يخشاه أبعد من أمس

و قوله: **لِلنَّاسِ**، متعلّق بإقترب و هذه اللاّم إمّا أن تكون صلة لإقتراب أو تأكيداً لإضافة الحساب اليهم كما تقول أزف للحيّ رحيلهم و الأصل أزف رحيل الحقّ، والواو في **وَ هُمْ** واو الحال أخبر اللّه تعالى عنهم بخبرين ظاهرهما التّنافي لأنّ الغفلة عن الشّيء و الإعراض عنه متنافيان لكن يجمع بينهما بإختلاف حالين أخبر عنهم أوّلاً أنّهم لا يتّفكرون في عاقبته بل هم غافلون

١- طه = ١٣٥ ٢- الحجّ = ٤٧

عمّا يؤل اليه أمرهم ثمّ أخبر عنهم ثانياً أنّهم إذا نبّهوا من سنة الغفلة و ذكروا بما يؤل إليه أمر المحسن و المسيئ أعرضوا عنه و لم يبالوا بذلك قال الطّبرسي قدّس سرّه إقترب للنّاس حسابهم، إقترب أفتعل من القرب و المعنى إقترب للنّاس وقت حسابهم يعني القيامة كما قال: إقتربت السّاعة، أي دنا وقت محاسبة العباد و مسائلتهم عن نعمه هل قابلوها بالشّكر، و عن أوامره هلى إمتثلوها و عن نواهيه هل إجتنبوها و أنّما وصف ذلك القرب لأنّه أتٍ و كلّ ما هو أتٍ قريب و لأنّ أحد أشراط السّاعة مبعث رسول اللّه، وهم في غفلةٍ من دنُوها و كونها معرضون عن التّفكر فيها و التّأهب لها و قيل عن الإيمان بها و تضّمنت الآية الحثّ على الإستعداد ليوم القيامة إنتهى.

أقول: ألفاظ الآية ظاهرة لا خفاء فيها من حيث المعنى و هى أي الآية تدلّ على ثبوت الحساب يوم القيامة لجميع النّاس لأنّ قوله: **لِنّاسِ**، يشمل الكلّ فيدخل تحت ذلك الأنبياء و الأوصياء أيضاً و الأيات في الباب كثيرة كما لا يخفى:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ تُبْدُوا مٰا فيِ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحٰاسِبْكُمْ بِهِ ٱللّٰهُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلاٰ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ ٱلْحٰاسِبِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنَا ٱغْفِرْ لىِ وَ لِوٰالِدَىَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسٰابُ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسٰابِ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسٰابِ**(٥) و غيرها.

١- البقرة = ٢٨٤
٢- الأنعام = ٦٢
٣- إبراهيم = ٤١
٤- ص = ٢٦
٥- ص = ٥٣

بالأسانيد عن الرّضا عن أباءه قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّ اللّه عزّ وجلّ يحاسب كلّ خلقٍ إلاّ من أشرك باللّه عزّ وجلّ فأنّه لا يحاسب و يؤمر به إلى النّار إنتهى.

بأسناد التّميمي عن الرّضا عن أباءه عن عليٍّ عليه السلام قال: النّبي أوَّل ما يُسأَل عنه العبد حُبّنا أهل البيت إنتهىٰ.

المفيد قدس سره بأسناده في أماليه عن إبن عينية قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول ما من عبدٍ إلاّ وللّه عليه حجّة إمّا في ذنبٍ إقترفه و إمّا من نعمةٍ قصر عن شكرها إنتهى.

و بالأسناد عن أبي بردة قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لا تزل قدم عبدٍ حتّى يسأل عن حبّنا أهل البيت قيل يا رسول اللّه ما علامة حبّكم، قال فضرب بيده على منكب علّي إنتهى.

و بالأسناد عن أبي جعفر عليه السلام قال: أنّما يلاق اللّه العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما أتاهم من العقول في الدنيّا إنتهىٰ(١).

و لا شكّ أنّ الحساب حقٌّ نطقت به الأيات و الأخبار فيجب الإعتقاد به لكلّ مسلمٍ.

مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اَسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ

قيل المراد بالذّكر هنا ما ينزل من القرآن شيئاً بعد شيٍ و قيل المراد به أقوال النّبي في أمر الشّريعة و وعظه و تذكيره و وصفه بالحدوث لنزول القرآن بعد وقت و قيل سورة بعد سورة و أية بعد أية و الحدوث وجود الشّئ بعد أن لم يكن و هو دليل على أنّ القرآن مخلوقٌ كما هو شأن الحادث و لا قديم سوى اللّه تعالى و للبحث فيه مقام آخر و سئل عن بعض الصحابة عن الآية فقال

١- بحار الأنوار ج ٣ باب مُحاسبة العباد ص ٢٦٤

فحدث النّزول فحدث المقول، ثمّ أنّ الجمهور على أنّ محدثٍ بالجَّر صفة، لذكر على اللّفظ، و قرأ بعضهم بالرَّفع صفة، لذكر، على الموضع.

و قرأ زيد بن علّي بالنَّصب على الحال من ذكر، إذ قد وصف بقوله: **مِنْ رَبِّهِمْ** و قوله: **إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ** جملة حاليّة و ذوا الحال المفعول في، ما يأتيهم، و هم يلعبون جملة حاليّة من ضمير إستمعوه، و المعنى ما يأتيهم أي ليس يأتيهم من ذكر، أي آية أو سورةٍ من ربِّهم بعد أن لم يكن إلاّ إستمعوه و الحال أنّهم يلعبون و يستهزؤن بها و حاصل الكلام أنّهم يستمعون الآيات ثمّ يلعبون بها ويَنكرُونها وبِعبارةٍ أُخرىٰ كلّ ما جَدَّد لهم الذكرإستَّمرُّوا علىٰ الجَهل وأنت تَرىٰ أنّ هذا لا يختَّص بِقومٍ دُون قومٍ بل هو سارٍ في كثيرٍ من النّاس أو أكثَرهُم و هذا دليل علىٰ أنّ المراد بالنَّاس في قوله: **ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ**، العمُوم فَمن إستَمع الىٰ آية الزّنا ثمّ يَزني أو آية السّرقة ثمّ يَسرق أو آية الظّلم ثمّ يَظلم و هكذا سائر الآيات الواردة في باب الأوامر والنّاوهي فهو يَلعب بها فأنّ الفاعل إذا كان غير قاصدٍ بِفَعله مُقصداً صحيحاً فهو لاعب.

قال في المُفردات لَعَب فُلان إذا كان فِعله غير قاصدٍ به مَقصداً صَحيحاً.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا وَ غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ**(٢).

و حاصل الكلام أنّ مَن إستَمع الىٰ كلام اللّه ثمّ تَرَك العَمَل به من غير عُذرٍ إستخفافاً به فَهو من اللاّعبين بِكلام اللّه كائناً من كان بل لا يَبعُد أن تكون الآية مُختَّصة بالمُسلمين وذلك لأنّ الكافر مُنكرٌ لها والمُسلم مُقتصِدٌ بها و لا يَعمَل بها فَترك الكافر العَمَل بها لا يُعّد لَعِباً بِخَلاف تَرك المُسلم فاللاّعبُون بالآيات هُم المُسلمون لا غيرهم.

١- سورة الأنعام آية ٧٠ ٢- العَنكبوت = ٦٤

لٰاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ

لاهيةً، بالنَّصب علىٰ الحالية و قرئ بـالرّفع عـلى أنّـه خبر لقـوله (وهـم) و النَّجوى من التّناجي و لا يكون إلاّ خفية فمعنى، **وَ أَسَرُّوا**، بالغوا في إخـفائها أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم و لا يعلم أنّهم متناجون.

و قال أبو عبيدة أسَّروا، هنا من الأضداد يحتمل أن يكون أخفوا كـلامهم و يحتمل أن يكون أظهروه و منه قول الفرزدق:

فلّما رآىٰ الحجّاج جّرد سيفه   أسَّروا الحرّوري الّذي كان أضمرا

و قال التَّبريزي لا يستعمل في الغالب إلاّ في الإخفاء و إنّما أسَّروا الحديث لأنّه كـان ذلك عـلى طـريق التَّشـاور و عـادة المـتشاورين كـتمان سـرّهم عـن أعدائهم و أسَّـروها ليـقولوا للـرّسول ﷺ و للـمؤمنين أنّ مـا نـدعونه حـقّاً فأخبرونا بما أسررناه فموضع، الّذين ظلموا، مـن الإعـراب يـحتمل أن يكـون رفعاً على البدل من الضّمير في قوله: **وَ أَسَرُّوا** كما قال تعالى: **ثمّ عَمُوا وصَمُّوا كثيرٌ مِنهُم**[١] و يجوز أن يكون رفعاً عـلى الإسـتئناف و تـقديره و هـم الّـذين ظلموا، و يجوز خفضاً بدلاً من النّاس. و قـوله: **هَلْ هٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِـثْلُكُمْ**، إستفهام معناه التَّعجب أي كـيف خـصَّ بـالنّبوة دونكـم مـع مـماثلته لكـم فـي البشّرية وإنكارهم و تعجُّبهم من حيث كانوا يرون أنّ اللّه لا يـرسل إلاّ مـلكاً، وقوله: **أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ**، إستفهام معناه التَّوبيخ و عنوا بالسِّحر ما ظـهر عـلىٰ يدي الرّسول من المعجزات الّتي أعـظمها القـرآن و الذّكـر المـتلو عـليهم أي أفتحضرون السّحر و أنتم تبصرون أنّه سحر و أن من أتى به هـو بشـرٌ مـثلكم فكيف تقبلون ما أتى به و هو سحر و كانوا يعتقدون أنّ الرّسول من عند اللّه لا يكون إلاّ ملكاً و أنّ كلّ من إدّعى الرّسالة من البشر و جاء بمعجزةٍ فهو ساحر و

١- المائدة = ٧٤

معجزته سحرٌ، و معنى الآية أنّ قلوبهم ذاهلة غافلة عن الحَق ولذلك أسَّروا النَّجوى و زعموا أنّ اللّه تعالى لا يعلم ما أضمروه في قلوبهم.

قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

قرأ حمزة والكسائي و حفص و الأحمش و أيّوب و خلف وا بن جرير و غيرهم، قال ربّي، على معنى الخبر عن نبيّه صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقرأ باقي السَّبعة، قل ربّي، على الأمر لنبيّه، و كيف كان قال النّبي لهؤلاء الكفّار و غيرهم من المنافقين و المنكرين لعلم اللّه بالخَفيات، ربّي يعلم القول في السّماء و الأرض، و لا يخفى عليه شيئ من القول ظاهراً و خفيةً لأنّه لولم يعلم لزم الجهل بالنّسبة إليه تعالى و الجهل نقصٌ و هو منّزه عن النّقائص.

و ثانياً: أنّه عالمٌ بذاته و ذاته علّة لوجود الممكنات و العلم بالعلّة يستلزم العلم بالمعلول تفصيلاً و قوله هو و السّميع العليم، معناه أنّه تعالى عالم بالمسموعات مطلقاً، و السَّميع مبالغة في السَّمع و العليم مبالغة في العلم، قال بعض المحقّقين، القول عامّ يشمل السّر و الجهر فكان في الأخبار بعلمه القول علم السِّر و زيادة و كان أكدّ في الإطّلاع على نجواهم من أن يقول يعلم سرَّهم ثمّ بيَّن ذلك بقوله: **وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**، معناه السَّميع لإقوالكم العليم بما إنطوت عليه ضمائركم.

بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ

لمّا ذكر اللّه تعالى عنهم أنّهم قالوا أنّ ما أتى به النّبي سحرٌ ذكر إضطرابهم في مقالاتهم فذكر أنّهم أضربوا عن نسبة السَّحرة و قالوا ما يأتي به أنّما هو أضغاث أحلامٍ، ثمّ أضربوا عن هذا فقالوا بل إفتراه أي إختلقه من عند نفسه و نسبه الى اللّه و ليس من اللّه ثمّ أضربوا عن هذا فقالوا بل هو شاعر و هكذا و

فيه إشارة الى أنّ المبطل الكاذب لا يثبت على قولٍ واحدٍ بل يبقى متحيّراً لا يعلم ما يقول فأنّ الغريق يتّثبت بكلّ حشيشٍ و الآية تدلّ على أنّهم قالوا هذه الأقوال المختلّفة أمّا أنّها صدرت من قائلين متّفقين إنتقلوا من قولٍ الى قولٍ أو مختلفين قال كلٌّ منهم مقالةً فالآية ساكتة عنه.

قال الزّمخشري و يجوز أن يكون تنزيلاً من اللّه لأقوالهم في درج الفساد و أنّ قولهم الثّاني أفسد من الاوّل و الثّالث أفسد من الثّاني، و كذلك الرّابع من الثّالث إنتهى.

أقول: إضطرابهم في الأقوال يدلّ على إضطرابهم في المقولات و أنّهم لا كانوا كاذبيّن في دعاويهم و أيّ ربطٍ بين قولهم **أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ** و قولهم **بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ** و قولهم **بَلْ هُوَ شَاعِرٌ** و أمّا قوله: **فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ** فالكاف في أرسل يجز أن يكون في موضع النّعت لأية، و ما أرسل في تقدير المصدر و المعنىٰ بآيةٍ مثل آية إرسال الأوّلين، و يجوز أن يكون في النّعت لمصدرٍ محذوف أي إتياناً مثل إرسال الأوّلين أي مثل إتيانهم بالأيات و هذه الآية الّتي طلبوها هي على سبيل إقتراحهم و لم يأت اللّه بآيةٍ مقترحة إلاّ أتى بالعذاب بعدها و أراد تعالى تأخير هؤلاء و في قولهم هذا دليل على معرفتهم بإتيان الرُّسل، و قولهم: **بِـَٔايَةٍ** على سبيل التّنكير أي آيّةٍ آيةٍ كانت ولم يبيّنوا المراد منها فلا يبعد أن يكون إقتراحهم منها من قبيل قولهم: **لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا**[١] و أمثال ذلك ثمّ أجاب اللّه تعالىٰ عن قولهم: **فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ** بقوله:

مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ

ما، في قوله: **مَآ ءَامَنَتْ** نافية و قوله: **مِّن قَرْيَةٍ** بتقدير مضاف أي من أهل قريةٍ، والهَمزَة في قوله: **أَفَهُمْ** للإنكار و معنى الآية و المعنى إنّا أظهرنا الأيات

١- الاسراء = ٩٠

الّتي إقترحوها على الأمم الماضية فلم يؤمنوا عندها فأهلكناهم بتكذيبهم و إنكارهم، فهؤلاء أيضاً لا يؤمنون أو أنزلنا ما أرادوه فأنّ حكم الأمثال واحد ولم يعلموا هؤلاء الكفّار أنّه لو أظهرنا عليهم ما إقترحوه من الأيات ثمّ لم يؤمنوا بها بعد نزولها لوجب عليهم العذاب كما وجب على من قبلهم بعد نزول الأيات إذ لا إمهال بعد الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا مَنَعَنَآ أَنْ نُرْسِلَ بِالْاٰيَاتِ إِلَّآ أَنْ كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَ اٰتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً**[١].

و قال بعض المفسّرين أراد اللّه بهذا الإجتماع عليهم أن يبيّن أن سبب مجيء الأيات ليس لأنّه سببٌ يؤدّي الى إيمان هؤلاء و أنّما مجيئها على أساس اللُّطف و المصلحة بدلالة أنّها لو كانت سبباً لإيمان هؤلاء لكانت سبباً لإيمان أولئك قبلهم فلمّا بطل كونها سبباً لإيمان أولئك بطل أن تكون سبباً لإيمان هؤلاء على هذا الوجه.

أقول: و الّذي يقوّي في النَّظر هو أنّ سنّة اللّه جرت على نزول العذاب و الهلاك بعد تماميّة الحجّة كما في قوم نوح و قوم عاد و قوم ثمود و غيرهم و هؤلاء الكفّار الّذين يقترحون الآية كأنّهم لم يعلموا بذلك و أنّ عدم نزول الآية الّتي إقترحوها لطفٌ في حقّهم و عنايةٌ من ربّهم لأنّه يمنع العذاب عنهم في الدُّنيا.

وَ مَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

لمّا تقدّم من قول الكفّار، هل هذا إلاّ بشرٌ مثلكم، أجاب اللّه تعالىٰ في هذه الآية فقال ما أرسلنا قبلك يامحمّد إلاّ رجالاً أي بشراً ولم نرسل ملكاً إلى النّاس

١- الإسراء = ٥٩

قطّ أعلمهم بذلك و قل لهم فأسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون و إختلفوا في المراد بأهل الذّكر، فقال قوم هم أحبار أهل الكتابين أعني بهما التّوراة و الإنجيل فأنّ شهادتهم تقوم بها الحجّة في إرسال اللّه البشر.

و قال عبد اللّه بن سلام أنا أهل الذّكر، و قيل المراد به أهل القرآن، أهل التّوراة، و قيل أهل العلم بالسّير و قصص الأمم البائدة و القرون السّالفة فأنّهم كانوا يفصحون عن هذه الأشياء و إذا كان أهل الذّكر اريد بهم اليهود و النّصارى فأنّهم لمّا بلغ خبرهم حدَّ التّواتر جاز أن يسألوا و لا يقدح في ذلك كونهم كفّاراً.

وَ مٰا جَعَلْنٰاهُمْ جَسَدًا لاٰ يَأْكُلُونَ اَلطَّعٰامَ وَ مٰا كٰانُوا خٰالِدِينَ

الجسد يقع على ما لا يتّغذى من الجماد و قيل يقع على المتّغذيفعلى الأوّل يكون النّفي قد وقع على الجسد و على الثّاني مثبتاً و النّفي أنّما وقع على صفته و وحّد الجسد لإرادة الجنس كأنّه قال ذوي ضرب من الأجساد و هذا ردٌّ لقولهم، مالهذا الرّسول يأكل الطّعام، و هذه الجملة من تمام الجواب للمشركين الّذين قالوا هل هذا إلاّ بشر مثلكم.

لأنّ البشّرية تقتضي الجسميّة الحيوانيّة و هذه لابدّ لها من مادّةٍ تقوم بها خرجوا بذلك في قولهم: **هَلْ هٰذٰآ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**، يأكل ممّا تأكلون منه و يشرب ممّا تشربون ولمّا أثبت أنّهم كانوا أجساداً يأكلون الطّعام بيَّن أنّهم مألهم إلى الفناء و النّفاد و نفى عنهم الخلود و هو البقاء السّرمدي و الحاصل أنّ هؤلاء الرُّسُل يموتون كغيرهم من البشر و يجري عليهم ما يجري عليهم من الأكل و الشُّرب و الحياة و البقاء و الفناء و غير ذلك ممّا هو ثابت للبشر و الذّي صاروا به رسلاً هو ظهور المعجزة على أيديهم و عصمتهم من الصّفات القادحة في التّبليغ و غيره و فى قوله: **وَ مٰا كٰانُوا خٰالِدِينَ** أي ما كانوا خالدين في الدنيّا إشارة إلى أنّ الخلود فيها لا يمكن لأحدٍ من المخلوق كائناً من كان مصيره إلى الفناء.

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ، وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلالِ وَ ٱلْإِكْرامِ**(١).

ثُمَّ صَدَقْناهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ وَ أَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ

ذكر اللّه تعالى سيرته مع أنبيائه فقال ثمّ صدقناهم الوعد من النّصر و النّجاة و الظُّهور على الأعداء، و يحتمل أن يكون المراد بالوعد ما وعدهم اللّه تعالى من نزول العذاب على الكفّار المعاندين و قول الكفّار لأنبيائهم متى هذا الوعد إن كنتم صادقين و فى الآية إشارة إلى أنّ اللّه تعالى لا يخلف الميعاد و قد صرَّح بذلك في قوله: **يآ أَيُّهَا ٱلنّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيا**(٢).

و قوله: **فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشآءُ** معناه فأنجينا الأنبياء و من نشاء من المؤمنين الّذين إتَّبعوهم من العذاب و الهلاك كما في قصّة نوح و عاد و ثمود و غيرهم ممَّن نزل عليهم العذاب و أنجى اللّه الأنبياء و من معهم منه و فى قوله: **وَ أَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ** إشارة إلى أنّ العذاب حقٌّ لمن أسرف في العصيان و بعبارةٍ أخرى مجّرد العصيان لا يوجب نزول العذاب و أنّما يوجبه الإسراف فيه و لعلّه لهذه النّقطة لم يقل و أهلكنا الكافرين و الإسراف هو التّجاوز عن الحدَّ و هو مذمومٌ في العقل و الشّرع أينما وجد و إذا كان الإسراف في المعصية و الطّغيان سبباً لنزول العذاب ففي الحقيقة يكون المسرف سبباً و باعثاً للعذاب فهو الّذي أهلك نفسه من حيث لم يشعر به كما:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلّآ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ**(٤).

و قال قتادة المسرفون هم المشركون، و الحقّ ما ذكرناه فأنّ مجّرد الشّرك لا يعدّ مسرفاً و هو ظاهرٌ.

١- الرّحمن = ٢٦/٢٧ ٢- فاطر = ٥

٣- الأنعام = ٢٦ ٤- الدّخان = ٣٧

لَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتٰابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ

قال المفسّرون المراد بالكتاب هو القرآن و إختلفوا في معنى الذّكر فقال الحسن معناه فيه ما تحتاجون إليه من أمر دينكم، و قيل فيه شرفكم أن تمسّكتم به و عملتم بما فيه، و قيل ذكرٌ، لما فيه من مكارم الأخلاق و محاسن الأفعال و قيل فيه ذكركم، أي فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحلّ و ترغبوا فيما يجب.

و قال صاحب التّحرير الّذي يقتضيه سياق الأيات أنّ المعنىٰ فيه ذكر مشائنكم و ما عاملتم به أنبياء اللّه من التّكذيب و العناد فعلى هذا تكون الآية ذمّاً لهم و ليست من تعداد النِّعم عليهم و يكون الكلام على سياقه إنتهى.

و الحقّ أنّ الذّكر في الآية بمعنى الشَّرف و المعنى أنّ القرآن الّذي أنزله اللّه على نبيّه فيه شرفكم و فضيلتكم و خيركم في الدنيّا و الأخرة أفلا تعقلون ذلك.

وَ كَمْ قَصَمْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ كٰانَتْ ظٰالِمَةً وَ أَنْشَأْنٰا بَعْدَهٰا قَوْمًا اٰخَرِينَ

كلمة، ما، تستعمل للكثرة، و هى ضدّ ربّ فأنّها تستعمل للتّعليل أي، كم، في موضع نصب، **قَصَمْنٰا**و القَّصم بفتح القاف و سكون الميم كسر الصلب قهراً يقال قصمه يقصمه قصماً فهو قاصم الجبابرة فمعنى قوله: **وَ كَمْ قَصَمْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ**، أي كثيراً و المراد بالقرية أهلها إذ لا توصف القرية بالظُّلم و هذا كقوله من هذه القرية الظّالم أهلها، فحذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه و التّقدير من أهل قريةٍ و هم ساكنوها من البشر و قوله: **وَ أَنْشَأْنٰا بَعْدَهٰا** أي أوجدنا بعد هلاك أهل القرية قوماً أخرين و أنّما قال و أنشأنا ولم يقل و أوجدنا أو خلقنا، لأنّ الإنشاء إحداث الشّيئ و تربيته و فيه نشأ السّحاب لحدوثه في الهواء و تربيته شيئاً فشيئاً فالإنشاء إيجاد الشّيئ و تربيته لا مجرّد الإيجاد و أكثر ما يقال ذلك في الحيوان:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنْشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصَارَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**(٢).

و قال بعضهم أكثر ما يقال ذلك في الحيوان ومعنىٰ الآية أنّ كثيراً من أهل القرى أهلكناهم إهلاكاً شديداً و أوجدنا بعدهم قوماً أخرين.

نقل عن إبن عبّاس أنّه قال المراد بالقرية حضوراء قرية باليمن و عن إبن وهب أنّهما قريتان باليمن بطرا أهلهما، و الحقّ أنّ ما ذكراه على سبيل التّمثيل لا على التّعيين في القرية لأنّ كم، تقتضي التّكثير.

قال القرطبي في تفسير الآية يريد مدائن كانت باليمن و قال أهل التّفسير و الأخبار أنّه أراد أهل حضوراء و كان بعث إليهم نبيٌّ إسمه شعيب بن ذي مهدم و قبر شعيب هذا باليمن بجبلٍ يقال له، كثير الثّلج و ليس بشعيب صاحب مدين لأنّ قصّة حضوراء قبل مدّة عيسىٰ عليه السلام و بعد مئتين من السّنين من مدّة سليمان عليه السلام و أنّهم قتلوا نبيّهم و قتل أصحاب الرّس في ذلك التّاريخ نبيّاً إسمه حنظلة بن صفوان و كانت حضوراء بأرض الحجاز من ناحية الشّام فأوحى اللّه إلى إرميا أن أئت بخت النّصر فأعلمه أنّي سلّطته على أرض العرب و أنّي منتقمٌ بك منهم و أوحى اللّه إلى إرميا أن أحمل معّد بن عنان (عدنان) على البراق إلى أرض العراق كي لا تصيبه النّقمة و البلاء معهم فأنّي مستخرج من صلبه نبيّاً في أخر الزّمان إسمه محمّد فحمل معَّد و هو إبن أثنتي عشرة سنة فكان مع بنيإسرائيل إلى أن كبر و تزّوج إمرأة إسمها معانة ثمّ أنّ بخت نصر نهض و كمن للعرب في مكانٍ و هو أوّل من إتّخذ المكامن فيما ذكروا ثمّ شَنَّ الغارات على حضور فقتل و سبىٰ و خرَّب العامر و لم يترك بحضوراء أثر ثمّ إنصرف راجعاً إلى السّواد إنتهى و العلم عند اللّه.

١- المؤمنون = ٧٨ ٢- هُود = ٦١

فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ

و الضّمير في، و أحسّوا، عائد على أهل المحذوف من قوله وكم قصمنا من قريةٍ و لا يعود، على قوله قوماً أخرين، لأنّه لم يذكر لهم ذنب يركضون من أجله و الضّمير في، منها، عائد على القرية و يحتمل أن يعود على، بأسنا، لأنّه في معنى الشِّدة فأنَّث على المعنى، و الرّكض، العدو بشّدة الوطئ يقال ركض فرسه إذا حثَّه على المرّ السّريع فمعنى يركضون، يهربون من العذاب سراعاً كالمنهزم من عدّوٍ، قيل أن بخت نصر بعث إليهم جيشاً فهزموه ثمّ بعث أخر فهزموه أيضاً ثمّ خرج إليهم بنفسه فهزمهم في الثّالثة فلمّا أخذ القتل منهم ركضوا، هاربين فيقول اللّه تعالىٰ:

لَا تَرْكُضُوا وَ ٱرْجِعُوٓا إِلَى مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ

أي لا تهربوا من الهلاك و أرجعوا إلى ما كنتم فيه من منازلكم لعلّكم تفيقوا بالمسألة، المترف المنعم و التَّرف التَّنعم.

قال إبن عطيّة يحتمل أن يكون هذا من قول رجال بخت نصر على الرّواية المتّقدمة فالمعنى على هذا أنّهم خدعوهم و إستهزؤا بهم بأن قالوا للهاربين منهم لا تفّروا و أرجعوا إلى منازلكم لعلّكم تسائلون صلحاً أو جزية أو أمراً يتّفق عليه فلمّا إنصرفوا أمر بخت نصر أن ينادي فيهم يا لثارات النّبي المقتول فقتلوا بالسّيف من أخرهم.

و قال قومٌ يحتمل أن يكون قوله: **لَا تَرْكُضُوا** إلى أخر الآية من كلام ملائكة العذاب.

و قال الزّمخشري يحتمل أن يكون القائل بعض الملائكة، و الأقوال كثيرة لا فائدة في نقلها إذ لا فائدة في تعيين القائل و أنّما الكلام في المعنى و هو حاصل في المقام و هو أنّ الفرار و الهزيمة لا ينفعكم و أنّما النّافع هو التّوجه في سبب الحادثة و أنّه كيف وقعتم فيما وقعتم فيه من القتل و الذِّلة.

قالُوا يا وَيْلَنا إِنّا كُنّا ظالِمِينَ، فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْوٰيهُمْ حَتّىٰ جَعَلْناهُمْ حَصِيدًا خامِدِينَ

الويل الوقوع في الهلكة و المعنى أنّهم قالوا ليس لنا إلاّ الهلاك و ذلك لأنّا ظلمنا أنفسنا بترك معرفة اللّه و تصديق أنبيائه و ركوب معاصيه و في ذلك إعترافٌ منهم على نفوسهم بالخطأ ولم يعلموا أنّ الإقرار بعد الإنكار لا فائدة فيه فأنّهم لمّا أنكروا معرفة اللّه و كذّبوا أنبيائه بعد ظهور الأيات و المعجزات منهم قضى اللّه عليهم بالهلاك و الفناء و لا رادّ لقضاءه و إلى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله: **فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْوٰيهُمْ** اي ما زالوا يقولون ذلك حتّى جعلناهم حصيداً خامدين الحصيد قتل الإستئصال كما يحصد الزّرع بالمنجل و الخمود كخمود النّار إذا طفيت و قيل أي موتى دون أرواح مشبّهين بالنّار إذا أطفأت، هذا.

أقول: يستفاد من الآية أنّ سبب القصيم و العذاب هو الظُّلم و الظّاهر أنّ المراد من الظُّلم هو جميع أقسام الظُّلم أعني بها الظُّلم على النّفس و الظُّلم على الغير و الظُّلم على اللّه تعالى فالظُّلم على النّفس كترك الواجبات و فعل المحرّمات و الظُّلم على الغير كقتل النّفس بغير حقٍّ و غصب أموال الغير و أمثال ذلك و الظُّلم علىٰ اللّه هو الشّرك به قال لقمان لإبنه و هو يعظه **يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**(١) و قد صرّح اللّه بذلك في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَنْزَلْنا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ ٱلسَّماءِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما ظَلَمَهُمُ ٱللّٰهُ وَ لٰكِنْ كانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(٣) و الأيات كثيرة.

و أمّا قوله: **فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْوٰيهُمْ** الخ فالمعنى كانوا يكرّرون تلك الكلمة فلم تنفعهم و فيه إشارة إلى أنّ النّدم بعد وقوع الحادثة لا فائدة فيه يسمّى بتوبةٍ فأنّ التّوبة هي الرّجوع عمّا كان عليه قبل وقوع العذاب:

١- لقمان = ١٣ ٢- البقرة = ٥٩
٣- النّحل = ٣٣

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ ايمٰانُهُمْ لَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا سُنَّتَ اَللّٰهِ اَلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبٰادِهِ وَ خَسِرَ هُنٰالِكَ اَلْكٰافِرُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ اَلْقَوْمِ اَلْمُجْرِمِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَمٰا كٰانَ دَعْوٰيهُمْ إِذْ جٰاءَهُمْ بَأْسُنٰآ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوٰا إِنّٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ**(٣).

وَ مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاءَ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ، لَوْ أَرَدْنٰآ أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًالاَتَّخَذْنٰاهُ مِنْ لَدُنّٰآ إِنْ كُنّٰا فٰاعِلِينَ

لمّا ذكر اللّه تعالى قصم تلك القرى الظّالمة أهلها أتبع ذلك بما يدلّ على أنّه فعل ذلك عدلاً منه و مجازاةً على ما فعلوا و أنّه تعالى أنّما أنشأ هذا العالم العلوي المحتوي على عجائب صنعه و غرائب فعله و هذا العالم السّفلي و ما أودع فيه من عجائب الحيوانات و النباتان و الجمادات و المعادن و ما بينهما من الهواء و السّحاب و الرّياح على سبيل اللّعب بل لفوائد دينيّة تقضي بسعادة الأبد أو بشقاوته و قد أشار بذلك في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ اَلسَّمٰواتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰآ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاءَ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا باطِلًا**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ خَلَقْنٰا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرٰآئِقَ وَ مٰا كُنّٰا عَنِ اَلْخَلْقِ غٰافِلِينَ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ خَلَقَ اَلسَّمٰواتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ**(٧) و الأيات كثيرة.

١- غافر = ٨٥
٢- الأنعام = ١٤٧
٣- الأعراف = ٥
٤- الرّوم = ٨
٥- ص = ٢٧
٦- المؤمنون = ١٧
٧- إبراهيم = ١٩

قال الكرماني في، اللّعب، فعل يعدو إليه الجهل يروق أوّله و لا ثبات له، فالمعنى أنّما خلقنا هما لنجازي المحسين و المسئ و ليستدّل بهما على الوحدانيّة و القدرة، و قوله: **لَوْ أَرَدْنَآ أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا**، أصل اللّهو ما تسرع إليه الشّهوة و يدعو إليه الهوى فعن إبن عبّاس و السُّدي هو الولد.

و قال الزّجاج هو الولد بلغة حضر موت و على هذا فهو ردٌّ على من قال إتّخذ اللّه ولداً و قيل اللّهو هنا اللّعب و قيل هو المرأة

قال قتادة هذا في لغة أهل اليمن و تكون ردّاً على من إدَّعى أنّ للّه زوجة و معنى، من لدّنا، من عندنا بحيث لا يطلع عليه أحد لأنّه نقص فستره أولى.

قال الزّمخشري بيّن أنّ السَّبب في ترك إتّخاذ اللّهو و اللَّعب و إنتفاءه عن أفعالي أنّ الحكمة صارفة عنه و إلاّ فأنّا قادر على إتّخاذه أن كنت فاعلاً لأنّي على كلّ شئٍ قدير إنتهى.

أقول: ما ذكره الزّمخشري لا بأس به على قول من قال اللّهو هو اللّعب، و أمّا من فسَّره بالولد و المرأة فذلك مستحيل في حقّه تعالى إذ لا تتعلّق به القدرة و الظّاهر أنّ، إن، هنا شرطيّة و جواب الشّرط محذوف يدلّ عليه جواب، لو، أي أن كنّا فاعلين إتّخذناه أن كنّا ممَّن يفعل ذلك ولسنا ممَّن يفعله.

و قال الحسن و قتادة، إن، نافية أي ما كنّا فاعلين.

و قال بعض المفسّرين الإنكار على من أضاف ذلك إلى اللّه و محاجته بأنّه لو كان جائزاً في صفته لم يتَّخذه بحيث يظهر لكم أو لغيركم من العباد لما في ذلك من خلاف صفة الحكيم الّذي يقدر أن يستر النّقص فيظهره و أنّما إستحال اللَّهو على اللّه لأنّه غنّي بنفسه عن كلّ شئٍ سواه يستحيل عليه المرح، في قوله: **مِنْ لَدُنَّآ**، معناه في السّماء من الملائكة و قيل معناه ممّا نخلقه إنتهى.

و قال القرطبي معناه أي من عندنا لا من عندكم، و قال إبن جريح أي من أهل السّماء لا من أهل الأرض، و قيل أراد الرَّد على من قال أنّ الأصنام بنات اللّه أي كيف يكون منجوتكم ولداً لنا و قال إبن قتيبة الآية ردٌّ على النّصارى.

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذاٰ هُوَ زاٰهِقٌ وَ لَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمّاٰ تَصِفُونَ

القذف الرَّمي وكلمة، بل، للإضراب أي بل نرمي بسرعةٍ بالحقّ و هو القرآن على الباطل و هو شبههم و وصفهم اللّه بغير صفاته من الولد و غيره و قيل الحقّ عامّ في القرآن و الرّسالة و الشّرع و الباطل أيضاً عامّ كذلك و المعنى أنّه تعالى يدحض الباطل بالحقّ و إستعار لذلك القذف و الدَّفع تصويراً لإبطاله و إهداره و محقه فجعله كأنّه جرم صلب كالصَّخرة مثلاً قذف به على جرم رخوٍ أجوف فدمغه أي أصاب دماغه و ذلك مهلكٌ في البشر فكذلك الحقّ يهلك الباطل، يقال دفع الرّجل إذا شجّ شجَّة تبلغ أمّ الدّماغ فلا يحيا صاحبها بعدها، و قوله: **فَإِذاٰ هُوَ زاٰهِقٌ**، أي هالكٌ مضمحلّ يقال زهق زهوقاً أي هلك، ولكم الويل، يعني الوقوع في العقاب جزاءً على ما تصفون اللّه به من إتّخاذ الولد.

وَ لَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰواٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِباٰدَتِهِ وَ لاٰ يَسْتَحْسِرُونَ، يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهاٰرَ لاٰ يَفْتُرُونَ

اللاّم في قوله: **لَهُ**، للملك أو للإختصاص أي هو تعالى مالك من في السّموات و الأرض من أصناف المخلوقات و أنّما قال من ولم يقل، ما، تغليباً لذوي العقول على غيرهم و هذا ممّا لا كلام فيه لأنّه تعالى خلقهم و أوجدهم و الخالق مالكٌ لمخلوقه قهراً و أمّا قوله: **وَ مَنْ عِنْدَهُ** فالمراد بهم الملائكة أي يملكهم بالتّصرف فيه أيضاً، لا يستكبرون، هؤلاء عن عبادة اللّه، و لا يستحسرون، قال قتادة معناه لا يعيون، و قيل لا يملّون هكذا قيل في تفسير

الكلام فأنّهم عطفوا قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ على قوله: مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ، أي له من في السّموات و الأرض و من عنده، من الملائكة و كلّهم لا يستكبرون عن عبادته، و الّذي يختلج بالبال هو أنّ الواو في قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ، ليست للعطف بل هي للإستئناف و الدّليل هو أنّ قوله: وَ لَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ يشمل الكلّ من الملائكة و غيرهم و ذلك لأنّ الملائكة داخلون في قوله: مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ، فلا يحتاج إلى قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ، و هو واضح لا خفاء فيه عند التّأمل، فالحقّ أنّ الكلام تمّ عند قوله و الأرض ثمّ إستأنف الكلام لإفادة معنى أخر و هو أنّ من عنده، من الملائكة لا يتسكبرون عن عبادته و لا يستحسرون بخلاف من في الأرض من عباده فأنّ منهم من لا يعبد ثمّ وصف اللّه تعالى الملائكة بأنّهم يسبّحون اللّيل و النّهار، أي ينزّهونه عمّا أضافه هؤلاء الكفّار إليه من إتّخاذ الصّاحبة و الولد و غير ذلك من القبائح لا يفترون، أي لا يملّون بل هم دائمون على التّسبيح و التّنزيه و فى هذا الكلام إشارة بل تنبيهٌ على عصمة الملائكة و أنّهم لا يعصون اللّه بخلاف الإنسان فأنّه قد يطيع و قد يعصي و ليس في هذا الكلام ما يدلّ على أفضليّة الملائكة على الإنسان بقولٍ مطلقٍ و ذلك لأنّهم أي الملائكة خلقوا كذلك بخلاف الإنسان فأنّ دواعي المعصية من الشّهوة و الغضب و حبّ الأولاد و غيرها فيهم موجودة و هذا بخلاف الملائكة فأنّها منتفية فيهم نعم أفضليّة الملائكة ثابتة على كثيرٍ من النّاس بل على أكثرهم بل أفضليّة الحيوان أيضاً ثابتة عليهم فضلاً عن الملائكة و قد مرّ الكلام فيه سابقاً بما لا مزيد عليه و الحاصل أنّ الإنسان أفضل من الملائكة إذا وجد و أمّا البشر فلا.

أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾
لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا
يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَ ذِكْرُ
مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن
رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ
﴿٢٥﴾ وَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ
عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَ هُم
بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا
خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَ هُم مِّنْ
خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَ مَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ
مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَ
جَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾
وَ جَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَ
جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَ
جَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا
مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ
وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

وَ مَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ ٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

◀ اللّغة

آلِهَةً: واحدها، إله، و هو المعبود مطلقاً يقال آله إذا تحيَّر و أنّما سمّي اللّه تعالى به لتحيُّر العقول في كنه ذاته و قيل سمّيس به لالتجاء الخلق اليه.

و قيل، آله، بمعنى عبد يقال آله فلان يأله، عبد، و قيل أصله، ولاه، فأبدل الهمزة من الواو تسميته به لكون كلّ مخلوقٍ و الهاً نحوه.

يُنْشِرُونَ: أي يحيون يقال أنشر اللّه الموتى فنشروا أي أحياهم فحيّوا.

رَتْقًا: أي ملتّصقين و قيل مسنّدتين لا فرج فيهما.

فَفَتَقْنَاهُمَا: الفتق ضدّ الرّتق.

رَوَاسِيَ: واحدها راسية و هى الجبل.

تَمِيدَ: الميد الإضطراب بالذّهاب في الجهات.

فِجَاجًا: الفَّج الطّريق الواسع و جمعه الفجاج.

يَسْبَحُونَ: أي يجرون.

نَبْلُوكُمْ: البلاء الإختبار.

◀ الإعراب

مِنَ ٱلْأَرْضِ صفة لألِهة إِلَّا ٱللَّهُ بالّرفع علىٰ أنّ، إلاّ، صفة بمعنىٰ، غير، فَذٰلِكَ الجمهور على النّصب بالفعل قبله و قرأ بالرّفع على تقدير حذف مبتدأ ٱلْحَقَّ في رفع بالإبتداء و قيل في موضع نصب بفعلٍ دَلَّ عليه نَجْزِيهِ و الجملة جواب الشّرط فِجَاجًا حال من، سبل، و قيل، سبلاً، بدل، فِتْنَةً مصدر مفعول له أو في موضع الحال أي على المصدر بمعنى نبلوكم أي نفتنكم بها فتنة.

◄ التّفسير

أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ

لمّا ذكر اللّه تعالىٰ الدّلائل على وحدانيّته و أنّ من في السّموات و الأرض كلّهم ملك له و أنّ الملائكة المكرمين هم في خدمته لا يفترون عن تسبيحه و عبادته عاد الى ما كان عليه من توبيخ المشركين و ذمّهم و تسفيه أحلامهم، و أم، هنا منقطعة تتّقدر بل و الهَمزة ففيها إضرابٌ و إنتقال من خبرٍ الى خبرٍ، و إستفهامٍ معناه التّعجب و الإنكار أي إتّخذوا آلهةً من الأرض يتّصفون بالأحياء و يقدرون عليها و على الإماتة أي لم يتّخذوا آلهة بهذا الوصف بل إتّخذوا آلهةً جماداً لا تتّصف بالقدرة على شيءٍ فهي عين آلهة لأنّ من صفة الآلهة القدرة على الإحياء و الإماتة.

و قال بعض المفسّرين في معناه، أنّ هؤلاء إذا كانوا لا يقدرون علىٰ الإحياء الّذي من قدر عليه قدر على أن ينعم بالنِّعم الّتي يستحقّ بها العبادة فكيف يستحّقون العبادة، و حكى عن الزّجاج أنّه قرأ، ينشرون بفتح الشّين و عليه فالمعنى هل إتّخذوا آلهةً لا يموتون أبداً و يبقون أحياء أبداً أي لا يكون ذلك إنتهى.

أقول: فمعنى الآية واضح و هو أنّ الإله من يقدر على الإحياء و الإماتة لا يقدر على الإحياء كيف يكون إلهاً، و أم، إستفهام إنكاري أي لم يتّخذوا آلهة تقدر على الإحياء أو بمعنى، هل، أي هل إتّخذوا هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى.

ثمّ قال تعالىٰ: **لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**

الضّمير في، فيهما، عائد على السّموات و الأرض أي لو كان، في السّموات و الأرض آلهة كما زعمه المشركون لفسدتا أي لفسدت السّموات و الأرض فاللّه تعالى منزّهٌ عمّا يقولون في حقّه من إثبات الشّريك له.

و أعلم أنّ المتكلّمين قد أطالوا الكلام في تفسير هذه الآية و لا بدّ لنا أيضاً من البحث حول الآية لأنّها من أعظم الأدلّة على توحيده و حاصل ما ذكروه في المقام هو أنّ القول بوجود إلهين يفضي الى المحال و ما يفضى الى المحال محال فالقول بوجود إلهين محال و هو المطلوب تقريره إنّا لو فرضنا وجود إلهين فلا يخلو حالهما، إمّا أن يكونا قادرين على كلّ المقدورات بمعنى أن يكون كلّ واحدٍ منهما قادراً على كلّ ما يقدر عليه الأخر، و أمّا أن يكونا غير قادرين كذلك بأن يكونا عاجزين ضعفين عن إعمال القدرة معاً، و فى المقام إحتمال ثالث و هو أن يكون أحدهما قادراً على كلّ مقدورٍ و الأخر غير قادرٍ عليه فالشّقوق العقلّية في المقام ثلاثة.

قدرتهما مطلقاً، و عدم قدرتهما مطلقاً، و وجود القدرة الكاملة لأحدهما دون الأخر فهذه هي الشّقوق المحتملة عقلاً في المقام و لا رابع لها إذا عرفت هذا.

فنقول أمّا كونهما عاجزين عن القدرة فهو خارج عن البحث لأنّ العاجز لا يكون إلهاً لأنّ العجز نقص و النّقص من شئون الإمكان و الواجب منزّهٌ عنه سواء كان واحداً أو أكثر، و بهذا البيان خرج أيضاً كون أحدهما عاجزاً عن البحث و هو ظاهر فأنّ العاجز مضافاً الى أنّه ناقص و النّقص لا يليق بالواجب كما ذكرناه، مقهورٌ مغلوبٌ لشريكه قهراً فأنّ الإله القادر غالبٌ على العاجز فكيف يصدر الفعل عن العاجز مع وجود القادر، بقى في المقام كونهما قادرين أو أحدهما قادرٌ و الآخر غير قادر، فنقول لو كان أحدهما قادراً و الآخر غير قادرٍ فالقادر هو الإله و هو المطلوب فثبت أنّ الإله واحدٌ قادرٌ و ما فرضناه شريكاً له خارج عن الألوهيّة و لا نعني بالتوحيد إلاّ هذا.

و أمّا كونهما، قادرين على كلّ مقدورٍ بحيث كان قدرتهما على حدّ سواءٍ فهذا هو محلّ البحث و الآية ناظرة اليه لأنّه يلزم منه فساد السّموات و الأرض و تقريره من وجوهٍ:

أحدها: أنّه لو كان كلّ واحدٍ منهما قادراً على تحريك الفلك و تدبيره مثلاً فلو فرضنا أنّ أحدهما أراد تحريكه و الآخر تسكينه و المفروض أنّ كالّ واحدٍ منهما قادر على إنفاذ قدرته يلزم حركة الفلك و سكونه في آنٍ واحدٍ و هو محال و لا نعني بالفساد إلاّ هذا.

إن قلت: يمكن إتّفاقهما على التَّحريك أو التَّسكين فلا يلزم الفساد.

قلت: ليس البحث في تحريك الفلك أو تسكينه فقط بل البحث في كلّ المقدورات و أنّما ذكرنا الفلك بعنوان المثل لأنّ قوله لفسدتا أي فسدت السّموات و الأرض جميعاً فيدخل في البحث جميع ما بينهما من المقدورات مثل أن أراد أحدهما حياة زيد و الآخر موته أو أراد أحدهما نزول المطر والآخر عدمه أو أحدهما أراد وقوع العذاب و الآخر عدمه و هكذا في جميع المقدورات و هذا ظاهر.

إن قلت: يمكن إتّفاقهما في جميع المقدورات بحيث لا يكون بينهما إختلاف من جهة الإرادة و بعبارةٍ أخرى نفرض فيهما أو في جميع الآلهة وحدة الإرادة و بذلك يرتفع الإشكال.

قلت: وحدة الإرادة في إلهين أو الآلهة لا يعقل بل هو مجرّد فرضٍ لا يمكن القول به إذا تكثّر المريد يوجب تكثّر الإرادة فأنّ لكلّ موجودٍ إرادةٌ مخصوصةٌ به هذا، مضافاً الى أنّ الإرادة لو كانت واحدة في جميع الآلهة فلا نحتاج الى القول بكثرة الآلهة إذ المفروض أنّ الإرادة في الجميع واحدة بمعنى أنّ ما أراد أحدهم أراده الجميع ففي هذه الصُّورة أيّ إحتياج بتعدد الآلهة و المفروض أنّ الفرض يحصل بوجود واحدٍ منهم فالواحد هو الإله و هو المطلوب.

و قد يقرّر هذا الدّليل بوجهٍ آخر و هو أنّ الإلهين أو أكثر إذا إختلفت الإرادة فيهما فأمّا أن يقع مراد كلّ واحدٍ منهما و هو محال لإستحالة الجمع بين الضدّين، أو لا يقع واحدٍ منهما و هو أيضاً محال لإستحالة ارتفاع المرادين و المفروض أنّهما قادرين على كلّ شيءٍ مضافاً الى أنّ المانع من وجود أحد

المرادين هو مراد الآخر كما هو المفروض فلا يمتنع مراد هذا إلاّ عند وجود مراد ذلك و بالعكس فلو إمتنعا معاً و ذلك محال، و أمّا أن يقع مراد أحدهما دون الآخر فهو أيضاً محال لأنّ المفروض تساوي قدرتهما فوقوع المراد من أحدهما دون الآخر يحتاج الى مرجّح و كلّ محتاجٍ الى مرجحٍ ناقص في ذاته من حيث القدرة و قد فرضناه قادراً علًى كلّ مقدورٍ هف.

هذا مضافاً الىٰ أنّ الّذي لم يقع مراده عاجزٌ ضعيفٌ و العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً و هو ظاهر.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه فأن قيل الفساد أنّما يلزم عند إختلافهما في الإرادة و أنتم لا تدَّعون وجوب الإختلاف فيها بل أقصى ما تدَّعونه أنّ إختلافهما فيها ممكنٌ فإذا كان الفساد مبنيّاً على الإختلاف في الإرادة و هذا الإختلاف ممكنٌ و المبنّي على الممكن ممكنٌ، فكان الفساد ممكناً لا واقعاً فكيف جزم اللّه تعالى بوقوع الفساد.

قلنا لعلَّه سبحانه أجرى الممكن مجرى الواقع بناءً على الظّاهر من حيث أنّ الرَّعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التّغالب.

والثّاني: و هو الأقوى أن يبيّن لزوم الفساد لا من الوجه الّذي ذكرناه بل من وجهٍ آخر.

فنقول: لو فرضنا آلهين لكان كلّ واحدٍ منهما قادراً على جميع المقدورات فيفضي الى وقوع مقدورٍ من قادرين مستقلّين من وجهٍ واحدٍ و هو محال لأنّ إستناد الفعل الى الفاعل لإمكانه فإذا كان كلّ واحدٍ منهما مستقّلاً بالإيجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل إسناده الى هذا لكونه حاصلاً منهما جميعاً فيلزم إستغناءه عنهما معاً و إحتياجه اليهما معاً محال و هذه حجّة تامّة في مسألة التّوحيد فنقول القول بوجود الإلهين يفضي الى إمتناع وقوع المقدور لواحدٍ منهما و إذا كان كذلك وجب أن لا يقع ألبتة و حينئذٍ يلزم الفساد قطعاً.

أو نقول لو قدّرنا إلهين فأمّا أن يتّفقا أو يختلفا فأن إتّفقا على الشّئ الواحد مقدورٌ لهما و مرادٌ لهما فيلزم وقوعه بهما و هو محال و إن إختلفا فأمّا أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الآخر و الكلّ محال فثبت أنّ الفساد لازمٌ على كلّ التّقديرات إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول: ما ذكره لا بأس به إلاّ أنّه يتّم على مذهب من يقول بإستحالة توارد العلّتين على معلولٍ واحدٍ و هو مذهب كثير من الفلاسفة لولا أكثرهم لذهابهم الى أنّ الواحد لا يصدر إلاّ من الواحد كما أنّ الواحد لا يصدر منه إلاّ الواحد فمن ذهب الى صحّة هذه القاعدة وتماميتها يقول بإستحالة صدور معلولٍ واحدٍ من عليّتين مستّقلتين و من أنكر القاعدة لا يقول بالإستحالة و قد رأيت في بعض تأليفات الرّازي على ما يبالي إنكاره لصحّة القاعدة فكيف إستدلّ بها في المقام و لنا أيضاً في صحّة القاعدة و تماميّتها كلام في محلّه و لذلك لم نحتجّ بما إحتجّ به الرّازي في المقام و محصّل الكلام أنّ النّظم الكلّي في نظام عالم الوجود ممّا في السّموات و الأرض يقتضي عقلاً أن يكون خالق العالم و مدبّره واحدٌ إذا لشرّكه في الخالقيّة و تدبير أمور الخلق توجب إختلال النّظام و فساد الأركان مضافاً الى أنّ تعدّد الآلهة أمرٌ غير معقول في نفسه مع قطع النّظر عن فساد العالم علىٰ ما مرّ بيانه و ذلك لأنّ الإلٰهين أو الإلٰه أمّا أن يكونا موجودين أو معدومين لا سبيل الى الثّاني لأنّ المعدوم لا يكون آلهاً فلا يكون خالقاً.

و هو معلوم و إذا كانا موحودين كما هو المفروض فلا بدّ و أن يشتركا في الوجود و يمتاز كلّ واحدٍ منهما عن الآخر بنفسه.

و من المعلوم أنّ ما به الإشتراك غير ما به الإمتياز إذ لولا ذلك لأنتفت الأثنيّة، و إذا كان ما به الإشتراك غير ما به الإمتياز يلزم أن يكون كلّ واحدٍ منهما مركّباً ممّا به يشارك الآخر و ممّا به إمتاز عنه و كلّ مركّبٍ فهو مفتقر الى أجزاءه و كلّ مفتقرٍ ممكن الوجود لذاته فيلزم أن يكون الواجب لذاته ممكن الوجود لذاته هف.

فـإذاً واجب الوجـود لايكـون إلاّ واحـداً و مـا عـداه مـمكن مفتقرٌ اليـه المطلوب.

ثانياً: نقول أنّ أحد الإلٰهين أو الإلٰه أمّا أن يكـون كـافياً فـي خـلق العـالم و تدبيره أو لا يكون إلاّ بمشاركة الغير فعلىٰ الأوّل هو الإله و ما سواه عبث ضائع غير محتاج اليه.

و على الثّاني فالكلّ متّصف بالضّعف و العجز و ما كان عاجزاً ضـعيفاً فـهو مخلوق و المخلوق لا يكون واجب الوجود و هو أيضاً ظاهر و الدّلائل العقليّة في المقام كثيرة و فيما أشرنا إليه كفاية لأولى الدّرايـة و الى هـذا المـعنى أشـار اللّه بقوله: **فَسُبْحٰانَ ٱللّٰهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمّٰا يَصِفُونَ** أي أنّ اللّه تعالىٰ منَزّهٌ عن الشّريك فأنّ الشّرك باللّه من أعظم الظُّلم كما حكى اللّه تعالى عـن لقـمان حيث قال: **يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**(١).

لٰا يُسْـئَلُ عَمّٰا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْـئَلُونَ

إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء و ليس لغيره من المخلوق أن يفعل ما يشاء فهو تعالى لا يسئل عمّا يفعل لأنّه فعل ما فعل في مـلكه و غـيره مسئولٌ عـن فعله لأنّه فعل ما فعل في ملك غيره أي في ملك اللّه فهو عاص متجاوزٍ عـن حدَّه فلا جرم يسئل المالك الحقيقي عنه و قد أطـال الرّازي البـحث فـي هـذا الكلام و نحن نذكر شطراً ممّا ذكره.

قال المسئلة الثّانية: في الدّلالة على أنّه سبحانه لا يسـئل عـمّا يـفعل إمّـا أهل السُّنة فأنّهم إستدّلوا عليه بوجوهٍ.

أحدها: أنّه لو كان كلّ شيءٍ معتّلاً بعلّةٍ لكانت علّية تـلك العـلّة مـعللّة بـعلّةٍ أخرى و يلزم التّسلسل فلابّد في قطعه من الإنتهاء الى ما يكون غنيّاً عن العلّة و أولى الأشياء بذلك ذات اللّه و صفاته و كـما أنّ ذاتـه مـنَزّهة عـن الإفـتقار الىٰ

١- القمان = ١٣

المؤثّر و العلّة و صفاته مبرّأة عن الإفتقار الى المبدع و المخصّص فكذا فاعليّته يجب أن تكون مقدّسة عن الإستناد الى الموجب و المؤثّر إنتهى.

أقول: أمّا أنّ كلّ شئ معلّل بعلّةٍ فهو قاعدة عقليّة كليّة لا تقبل التّخصيص إذ لا تخصيص في العقليّاتٍ و إلاّ يلزم وجود المعلول بدون العلّة و هو غير معقول بل من المحالات و أمّا قوله لكانت علية تلك العلّة معللّة بعلّة أخرى، فهو كلامٌ عابر عن التّحصيل كيف و العليّة من الأمور الإنتزاعيّة الّتي تنتزع عن ذات العلّة و الأمر الإنتزاعي يدور مدار منشأ الإنتزاع يوجد بوجوده و يعدم بعدمه وليست العليّة من الأمور المتحصلّة الموجودة في الخارج حتّى يقال فيها ما يقال في غيرها فهي تقطع بقطع الإنتزاع.

فقوله لابّد في قطعه من الإنتهاء الى ما يكون غنيّاً عن العلّة، لا نفهم معناه و كيف يعقل أن يكون المعلول غنيّاً عن العلّة و أعجب من ذلك كلّه قوله و كما أنّ ذاته منزّهة عن الإفتقار الى المؤثّر و العلّة و صفاته كذلك، فكذا فاعليّته يجب أن تكون مقدّسة عن الإستناد الى الموجب و المؤثّر، وجه التّعجب أنّه لم يفرّق بين الذّات و الفعل الصّادر عنه فقاس أحدهما بالآخر ولم يعلم أنّ الفعل يحتاج الى الفاعل و هو المؤثّر في إيجاده لأنّه أثر الفاعل و الأثر مفتقرٌ الى الموثّر قطعاً و هذا بخلاف الذّات الواجبي فأنّه ليس أثراً لشئ آخر حتّى يحتاج إلى المؤثّر.

قال الرّازي وثانيها: أنّ فاعليّته، لو كانت معلّلة بعلّةٍ لكانت تلك العلّة أمّا أن تكون واجبة أو ممكنة فأن كانت واجبة لزم من وجوبها كونه فاعلاً وحينئذٍ يكون موجباً بالذّات لا فاعلاً بالإختيار و أن كانت ممكنة كانت تلك العلّة فعلاً للّه تعالى أيضاً فتفتقر فاعليّة لتلك العلّة إلى علّةٍ أخرى و لزم التّسلسل محال إنتهى.

و الجواب أنّ فاعليّته معلّلة بعلّةٍ هي ذاته تعالى قوله أنّ العلّة أمّا أن تكون واجبة أو ممكنة، نقول أنّها واجبة، و قوله لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلاً فيكون موجباً بالذّات لا فاعلاً بالإختيار.

نقول في جوابة لا ملازمة بين وجوب العلّة و وجوب كونه فاعلاً بل هي أي العلّة و هى الذّات المقدّسة فاعل بالإختيار أن شاء فعل و أن لم يشاء لم يفعل و ليس فاعلاً بالإيجاب كما هو ثابت في محلّه.

قال الرّازي و ثالثها: أنّ علّة فاعليّة اللّه تعالى للعالم أن كانت قديمة لزم أن تكون فاعليّة للعالم قديمة فيلزم قدم العالم و أن كانت محدثة إفتقرت إلى علّةٍ و لزم التّسلسل إنتهى.

و الجواب أنّ الفاعليّة غير الفعل لأنّها منتزعةٌ عن الفعل فوجودها يدور مدار وجود الفعل فما لم يوجد الفعل لا يقال لموجده أنّه فاعلٌ فقوله أنّ علّة فاعليّة اللّه أن كانت قديمة لزم أن تكون فاعليّة قديمة فيلزم قدم العالم أن كان مراده بالفاعليّة القدرة على الفعل فهي قديمة و لا يلزم منه قدم العالم كما زعم الرّازي لأنّ العالم لم يوجد بعد و أن كان مراده منها مفهومه المنتزع عن الفعل فهو حادث و لا إشكال فيه و هكذا الكلام في سائر أدلّته التّي ذكرها في المقام فأنّك بعد إمعان النّظر فيها تقدر على الجواب عنها هذا كلّه مع أنّ البحث في الآية أجنبيٌّ عن هذه الأمور فأنّ اللّه تعالى يقول لا يسأل اللّه عمّا يفعل، و أيّ ربطٍ بينه و بين ما ذكره الرّازي من كون الشّيئ معلًّ أو غير معلَّلٍ إلى أخر ما ذكره، فمعنى الكلام أنّ اللّه تعالى خالق لجميع الموجودات فكلّ ما سواه مخلوقٌ له و ليس للمخلوق أن يسأل خالقه عن خلقه إيّاه و غيره فيقول لخالقه لم خلقتني أو لم خلقت العالم فأنّ هذا السّؤال قبيح عقلاً و هذا لا يحتاج إلى الإستدلال و لا سيّما عن الخالق العالم بجميع الأمور و هذا ظاهر.

و أمّا قوله: **وَ هُمْ يُسْـَٔلُونَ**، فأنّه حقٌّ لا مرية فيه لأنّه تعالى خلقهم و أعطاهم النّعم الكثيرة التّي لا تعدّ و لا تحصى كما قال تعالى: **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لا تُحْصُوهَآ** فله أن يسألهم عن كيفية مصرفها في الدنيّا ثمّ كلّفهم بالتّكاليف الشرعية من الواجبات و المحرّمات و هو تعالى سائلهم عنها أيضاً و حقٌّ له أن يسأل عقلاً.

نعم ورد في الأخبار الواردة عن الأئمّة أنّ اللّه يسألهم عمّا عهد إليهم يسألهم عمّا قضى عليهم و سيأتي الكلام في هذا الباب عند قوله تعالى: **وقفوهُم أنّهم مَسئُلُون** فإنتظره فأنّ اللّه تعالى لم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم سدى:

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثًا وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ**[1].

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ هٰذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ

ثمّ كرَّر تعالى عليهم الإنكار و التَّوبيخ فقال أم **أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ** أي من دون اللّه، ألهة إستفظاعاً لشأنهم و إستعظاماً لكفرهم و زاد في هذا التَّوبيخ قوله: **مِنْ دُونِهِ**، فكأنّه و بَّخهم على قصد الكفر باللّه عزّ وجلّ ثمّ دعاهم إلىٰ الإتيان بالحجّة و البرهان على ما إتَّخذوا فقال: **هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ**، و من المعلوم أنّه لا حجّة تقوم على أنّ للّه تعالى شريكاً لا من جهة العقل و لا من جهة النّقل بل كتب اللّه السّابقة شاهدة بتنزيهه تعالى عن الشّركاء و الأنداد كما في الوحي الّذي جئتكم به، ثمّ قال هذا ذكر من معي، أي عظّة للّذين معي و هم أمّته، و ذكر للّذين من قبلي و هم أمم الأنبياء، فالذّكر في الآية يراد به الكتب الإلٰهيّة و يجوز أن يكون، هذا، إشارة إلى القرآن و المعنى فيه ذكر الأوّلين و الأخرين فذكر الأخرين بالدّعوة و بيان الشّرع لهم و ذكر الأوّلين بقصص أخبارهم و ذكر الغيوب في أمورهم و المعنى على هذا عرض القرآن في معرض البرهان أي هاتوا برهانكم فهذا برهاني في ذلك ظاهر، و قيل معنى، معي، هنا، عندي، و المعنى هذا ذكر من عندي و من قبلي أي أذكركم بهذا القرآن الّذي عندي كما ذكر الأنبياء من قبلي أقمهم و قرأت فرقة، ذكر من بالإضافة، و ذكرٌ منّوناً من

١- المؤمنون = ١١٥

قبلي بكسر الميم، من، و عليه فالمعنى هذا القرآن ذكر من معي من أمّتي و هو أي القرآن ذكرٌ من قبلي من الأنبياء أيضاً ثمّ قال تعالىٰ بل أكثرهم لا يعلمون الحقّ، أي أصل شرّهم و فسادهم هو الجهل و عدم التّمييز بين الحقّ و الباطل و من ثمّ جاء الإعراض عنه و على هذا فالحقّ نصب على المفعول به و قال إبن عطيّة حكم اللّه تعالى عليهم بأنّ أكثرهم لا يعلمون الحقّ لإعراضهم عنه و ليس المعنى فهم معرضون لأنّهم لا يعلمون بل المعنى فهم معرضون و لذلك لا يعلمون الحقّ إنتهى.

أقول: ما ذكره هذا القائل من قبيل الأكل من القفا و ذلك لأنّ الإعراض عن الشّيء عن الجهل به لا أنّ الجهل مسبّبٌ عن الإعراض ولو كان كذلك لقال بل أكثرهم أعرضوا عن الحقّ لعدم علمهم به و الحقّ أنّ الفاء للتّفريع و المعنى أنّهم لا يعلمون فهم معرضون عنه فعلّة الإعراض هي الجهل، ثمّ أنّ في الآية إشعار بل دلالة على أنّ العاقل لا يسلك مسلكاً لا دليل على صحّته في جميع أموره و لا سيّما في دينه و عبادته فكيف إتّخذوا الأصنام و الأخشاب و غيرها من الجمادات ألهة و لا برهان لهم على صحّة ذلك قل يامحمّد لهم عاتوا برهانكم، و حيث لا برهان لهم فهم خارجون عن العقلاء و هو ظاهر.

وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحَىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدُونِ

لمّا ذكر اللّه تعالى علمهم بالحقّ و إعراضهم عنه أخبر في هذه الآية أنّه ما أرسل من رسولٍ إلاّ جاء مقرّراً لتوحيد اللّه و إفراده بالإلهيّة و الأمر بالعبادة و لمّا كان قوله: **مِنْ رَسُولٍ** عامّاً لفظاً و معنىً أفرد على اللّفظ في قوله: **إِلَّا نُوحَىٓ إِلَيْهِ**، ولم يقل نوحي إليهم، ثمّ جمع على المعنى في قوله: **فَاعْبُدُونِ** بكسر النّون أي فأعبدوني، حذفت الياء و بقيت الكسرة للدّلالة عليه و يحتمل أن يكون الأمر له صلّى الله عليه وآله وسلّم و لأمّته و هذه العقيدة من توحيد اللّه لم تختلف فيها

بالنّبوات و أنّما و مع الإختلاف في أشياء من الأحكام، ثمّ أنّ القراءة المشهورة في الآية **نُوحِيٓ** بالنّون و قرأ بعضهم بالياء و فتح الحاء بصيغة المجهول.

قال الرُّماني: إلاّ، في قوله: **لاٰ إِلٰهَ إِلاّ اللّٰهِ**، صفة وليست بإستثناء لأنّك لا تقول لو كان معنا إلاّ زيد لهلكنا على الإستثناء لأنّ ذلك محال من حيث أنّك لم تذكر ما تستثنى منه كما لم تذكر في قولك كان معنا إلاّ زيد فهلكنا، قال الشّاعر:

و كلّ أخٍ مفارقة أخوه ... لعمر أبيك إلاّ الفرقدان

أراد و كلّ أخ يفارقه أخوه غير الفرقدين، إنتهىٰ.

أقول: و على هذا فمعنى قوله: **لاٰ إِلٰهَ إِلاّ اللّٰهِ**، لا إله غير اللّه ثمّ أنّ اللّه تعالى نزَّه نفسه عمّا نسبوا إليه من الولد فقال:

وَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحٰانَهُ بَلْ عِبٰادٌ مُكْرَمُونَ

قيل نزلت الآية في خزاعة حيث قالوا أنّ الملائكة بنات اللّه و قالت النّصارى نحو هذا في عيسى و قالت اليهود في عزير أو المسيح و القائل بنزول الآية في خزاعة صاحب الكشّاف و تبعه على ذلك القرطبي و الرّازي ممَّن تأخّر عنه و المشهور بين القدماء من المفسّرين أنّها نزلت في جميع الكفّار القائلين بهذه المقالة السَّخيفة وكيف كان فالأمر سهل فأنّ اللّه حكى عن هؤلاء الكفّار الّذين تقدّم ذكرهم أنّهم قالوا إتّخذ الرّحمن ولداً من ملائكتة أو من غيرهم فقال جلّ ثناؤه إستعظاماً ممّا قالوا و تبّرياً ممّا وصفوه به، سبحانه، أي أنّه تعالى منّزهٌ عن ذلك **بَلْ عِبٰادٌ مُكْرَمُونَ** أي هؤلاء الذّين جعلوهم أولاد اللّه هم عبيدٌ له مكرمون لديه.

نقل الطّبري عن قتادة في هذه الآية أنّه قال قالت اليهود أنّ اللّه تعالى صاهر الجنّ فكانت منهم الملائكة و أنّما نزَّه اللّه نفسه من ذلك لأنّه لا يجوز عليه التّبني لأنّ التّبني إقامة المتّخذ لولد غيره مقام ولده لو كان له فإذا إستحال أن يكون له تعالى ولد على الحقيقة إستحال أن يقوم ولد غيره مقام ولده و لذلك

لا يجوز أن يشبه بخلقه على وجه المجاز لما لم يكن مشبهاً على الحقيقة قاله الشّيخ في التّبيان.

و قال الرّازي ثمّ أنّه تعالى نزَّه نفسه عن ذلك بقوله: **سُبْحَانَهُ** لأنّ الولد لابدّ و أن يكون شبيهاً بالوالد فلو كان للّه ولد لأشبهه من بعض الوجوه ثمّ لابدّ و أن يخالفه من وجهٍ أخر و ما به المشاركة غير ما به الممايزة فيقع التَّركيب في ذات اللّه و كلّ مرّكب ممكن فإتّخاذه للولد يدلّ على كونه ممكناً غير واجب يخرجه عن حدّ الإلهيّة و يدخله في حدّ العبوديّة و لذلك نزَّه نفسه عنه إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول: ما ذكره الرّازي لا بأس به في الأصل إلاّ أنّه خارج عن مورد البحث في المقام لأنّ الآية ليست بصدد بيان نفي الولد عن اللّه تعالى و أنّه يمكن أن يكون له ولد أو لا بل الآية ناظرة إلىٰ نفي إتّخاذ الولد لنفسه بمعنى أنّه تعالىٰ إتَّخذ ولد غيره ولداً لنفسه مثل عيسى عليه السلام و عزير و بعبارةٍ أخرى أنّهم قالوا إتَّخذ الرّحمٰن ولدا لنفسه ولم يقولوا أنّ للّه ولد و الفرق واضح نعم لو قالوا للرّحمن ولد لتّم ما ذكره الرّازي فكأنّه غفل عن هذه الدّقيقة وكيف كان أنّه تعالى نفي ذلك بقوله: **سُبْحَانَهُ**، أي أنّه منَزهٌ و مبّرأ عمّا يقولون من إتّخاذ الولد سواء كان الولد من الملائكة أم من البشر فما قاله الزّمخشري من أنّه مخصوصٌ بالملائكة لا دليل عليه بل هو عامّ يشمل الملائكة و غيرهم ثمّ قال تعالى بل عبادٌ مكرمون، الجمهور على التّخفيف و قرأ عكرمة بالتّشديد، و كلمة (بل) للإضراب أي أنّ الّذين زعمتم أنّهم أولاد للّه تعالى عباد له و من المقّربين فضّلوا على غيرهم لمكان عبوديّتهم و كيف يكون العبد ولداً ثمّ وصفهم.

بقوله: **لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**

أي لا يقولون شيئاً حتّى يقوله فلا يسبق قولهم قوله: **وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** فكما أنّ قولهم تابع لقوله كذلك فعلهم مبنّيٌ على أمره لا يعملون عملاً ما لم

يؤمروا به و هذه عبارة عن توّغلهم في طاعته و الإمتثال لأمره فأنّ من كان قوله تابعاً لقول اللّه و فعله و عمله تابعاً لأمره و نهيه فهو في كمال الطّاعة، إذ لا نعني بالمطيع إلاّ هذا قال الإمام الهادي عليه السلام في الزّيارة المشهورة بالجامعة الكبيرة: «السّلام على الدُّعاة إلى اللّه و الأدّلاء على مرضاة اللّه و المستّقرين في أمر اللّه و التّامين في محبّة اللّه و المخلصين في توحيد اللّه و المظهرين لأمر اللّه و نهيه و عباده المكرمين الّذين لا يسبقونه بالقول **وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**.

و هذا الكلام منه عليه السلام دليل على أنّ المراد بالعباد المكرمين في الآية ليس الملائكة أو لا يختّص بهم كما ذهب إليه بعض المفسّرين بل لو قلنا أنّ العباد ظاهرٌ في الإنسان و لا تطلق على الملائكة إلا بضربٍ من المجاز لا إشكال فيه و أنّما وصفهم اللّه تعالى بالمكرمين لأنّ التَّقرب إلى اللّه تعالى لا يحصل إلاّ بالطّاعة و الإنقياد على وجه الأتّم الأكمل و الطّاعة كذلك لا تحصل إلاّ بالقول و العمل معاً لا بواحدٍ منهما لأنّ الطّاعة بالقول فقط دون العمل نفاق، و العمل دون القول جهل، و الجاهل و المنافق مطرودان مردودان عن ساحة القرب و المتَّصف بهما معاً هو المطيع المقّرب عند اللّه و هذا ظاهر لا خفاء فيه.

يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ اِرْتَضىٰ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ

قال إبن عبّاس معناه، يعلم ما قدَّموا و ما أخّروا من أعمالهم و قال الكلبي ما بين أيديهم، يعني القيامة و أحوالها و ما خلفهم، يعني من أمر الدُّنيا.

أقول: ما ذكره إبن عبّاس في تفسير الكلام أقرب بسياق الكلام و ظاهر اللّفظ ممّا ذكره الكلبي و غيره، و قيل معناه يعلم ما كان قبل أن خلقهم و ما كان بعد خلقهم و لمّا كانوا مقهورين تحت أمره و ملكوته و هو محيطٌ بهم لم يجسروا على أن يشفعوا إلاّ لمن إرتضاه اللّه ثمّ هم مع ذلك من خشيته أي من خشية ربّهم مشفقون أي خائفون حذرون لا يأمنون.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره ما هذا لفظه:

فقوله: **يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ**، إستئناف في مقام التّعليل لما تقدَّمه من قوله، لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون، كأنّه قيل أنّما لم يقدموا على قولٍ أو عملٍ بغير أمره تعالى لأنّه يعلم ما قدَّموا من قولٍ و عملٍ و ما أخرُّوا فلا يزالون يراقبون أحوالهم حيث أنّهم يعلمون ذلك و هو معنى جيّد في نفسه لكنّه إنّما يصلح لتعليل عدم إقدامهم على المعصية لا لتعليل قصر عملهم على مورد الأمر و هو المطلوب.

على أنّ لفظ الآية لا دلالة فيه على أنّهم يعلمون ذلك و لو لا ذلك لم يتَّم البيان إنتهى كلامه.

و قال في قوله: **وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ٱرْتَضىٰ**، تعَّرض لشفاعتهم لغيرهم و هو الّذي تعلَّق به الوَّثنيون في عبادتهم الملائكة كما يبنى عنه قولهم، هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه و أنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى اللّه زلفى، فرَّد اللّه تعالىٰ عليهم بأنّ الملائكة أنّما يشفعون لمن إرتضاه اللّه و المراد به إرتضاء دينه لقوله: **إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ**[1] فالإيمان باللّه من غير شركٍ هو الإرتضاء و الوثنيون مشركون، و قال في قوله: **وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** هي الخشية من سخطه و عذابه مع الأمن منه بسبب عدم المعصية و ذلك لأنّ جعله تعالى إيّاهم في أمنٍ من العذاب بما أفاض عليهم من العصمة لا يحدّد قدرته تعالى و لا ينتزع الملك من يده فهو يملك بعد الأمن كما كان يملكه من قبله و هو على كلّ شيءٍ قدير و بذلك يستقيم معنى الآية التالّية إنتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: يظهر ممّا ذكره قدس سره في تفسير الآية أنّها نزلت في قوم إتّخذوا الملائكة معبودين لأنفسهم و جعلوهم شفعاء عند اللّه و ليس في الآية من الملائكة عينٌ و لا أثر فأنّ.

١- النّساء = ٤٨

قوله: **قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا** لا دليل فيه على أنّهم إتّخذوا الملائكة للرّحمٰن ولداً فحمل الآية على العموم أولى مضافاً الى أنّهم لم يثبتوا الولد للّه تعالى بل أثبتوا له أنّه إتّخذ الولد أي أنّه تعالى إتّخذ عيسى مثلاً أو عزيراً ولداً لنفسه و هو واضح فمعنى الآية أنّه تعالى يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهمكان محاطاً بعلمه تعالى لا يكون إلهاً و لا يشفعون يوم القيامة إلاّ لمن إرتضاه و هو أيضاً دليل على ضعفهم و إحتياجهم الى إذن اللّه في الشّفاعة و من كان كذلك لا يكون إلهاً و هم من خشية اللّه مشفقون خائفون و الإلٰه لا يكون خائفاً فقد ثبت بهذه الدّلائل أنّ ما جعلوه ولداً له تعالى أو بمنزلة الولد ثمّ عبدوه مخلوق له و كلّ مخلوق، لا ينبغي أن يعبد بل المعبود الّذي ينبغي أن يعبد هو الّذي خلق الأشياء و ما سواه مفتقرٌ إليه لم يتّخذ صاحبةً و لا ولداً ولم يكن له شريك في الملك و هو الواحد القهّار.

وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِۦ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِى الظّٰالِمِينَ

أي و من يقل من هؤلاء المعبودين لهؤلاء الكفّار إنّي إلٰهٌ من دونه أي من دون اللّه فنجزيه جهّنم لكونه ظالماً و يستفاد من قوله: **وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِۦ** أنّه إن لم يقل بذلك أي لم يقرّ ولم يعترف بألوهيّة نفسه فلا حرج عليه و لا نجزيه جهّنم لأنّه ليس ظالماً، و هو كذلك و بعبارةٍ أخرى يثبت الظّلم لمن إدّعى الرّبوبية و رضى بها و أمّا من لم يدّعيه فلا ذنبٌ له و إنّما الذّنب ثابتٌ لمن إتّخذه ربّاً، من الجهّال الّذين وضعوا الشّئ في غير موضعه و أداة الشّرط تدخل على الممكن و الممتنع نحو قوله: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**(١).

١– الزّمر = ٦٥

أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنٰهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ

الهَمزة، في قوله: **أَوَ لَمْ يَرَ** إستفهام للتّوبيخ لمن إدعّى مع اللّه إله من الكفّار و فيه دلالة على تنزيهه عن الشِّرك و مع ذلك توكيد لما تقدّم من أدّلة التّوحيد و رّدٌ على عبدة الأوثان و الأصنام وكلّ من إتَّخذ لنفسه إلٰهاً من غير اللّه الواحد الأحد من حيث أنّ الإلٰه القادر على خلق هذه المخلوقات المتَّصرف فيها كيف يشاء كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته الى عبادة حجرٍ أو صنمٍ أو كلّ مخلوق لا يضّر و لا ينفع.

و الرُّؤية، في قوله: **أَوَ لَمْ يَرَ** قيل هي رؤية القلب و قيل رؤية البصر على الإختلاف في الرَّتق و الفتق و قوله: **أَنَّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ** قال الزّجاج السّموات جمعٌ لفظاً و لكن أريد به الواحد و لهذا قال كانتا رتقاً، لأنّه أراد السّماء و الأرض، و منه **إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا**(١) جعَل السّموات نَوعاً و الأرضين نوعاً فأخبر عن النّوعين كما أخبر عن إثنين كما تقول أصبحت بين القوم و مرَّ بنا غنمان أسودان لقطيعي غنم إنتهى.

و قال: الحوفي قال كانتا رتقاً، و السّموات جمع لأنّه أراد الصِّنفين و منه قول الشّاعر:

أن المنّية و الحتوف كلاهما　　　يوفي المحارم يرقبان سوادي

لأنّه أراد النَّوعين و قال أبو البقاء الضّمير يعود على الجنسين.

و قال الزّمخشري و أنّما قال كانتا دون، كنَّ، لأنّ المراد جماعة السّموات و جماعة الأرض ونحوه قولهم لقاعان سواد او ان، أراد جماعتان، فعل في المضمر ما فعل في المظهر إنتهى.

١- فاطر = ٤١

و قال إبن عطيّة و قال كانتا من حيث هما نوعان و نحوه قول الشّاعر:

ألم يحزنك أنّ جبال قيسٍ و تغلب قد تباينت إنقطاعاً

و قال إبن عبّاس و الحسن و قتادة و غيرهم كانتا شيئاً واحداً ففصّل اللّه بينهما بالهواء و قال كعب، خلق اللّه السّموات و الأرض بعضها على بعضٍ ثمّ خلق ريحاً بوسطها ففتحها بها و جعل السّموات سبعاً و الأرضين سبعاً.

و قال مجاهد و السُّدي و أبو صالح، كانت السّموات و الأرض مؤتلفة طبقةً واحدة ففتقها سبع سموات وكذلك الأرضون كانت مرتقة طبقةً واحدة ففتقها و جعلها سبعاً.

و قالت فرقة، السّموات و الأرض رتق بالظّلمة و فتقها اللّه بالضّوء و قالت فرقة أخرى، السّماء قبل المطر رتق و الأرض قبل النّبات رتق ففتقهما بالمطر و النّبات كما قال: **وَ ٱلسَّمَآءِ ذاتِ ٱلرَّجْعِ، وَ ٱلْأَرْضِ ذاتِ ٱلصَّدْعِ**(١).

قال إبن عطيّة هذا قولٌ حسن بجمع العبرة و تعديد النّعمة و الحجّة للمحسوس بيّن و يناسب قوله: **وَ جَعَلْنا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ** أي من الماء الّذي أوجده الفتق إنتهى.

و على هذين القولين تكون الرّؤية من البصر و على ما قبلها من رؤية القلب و جاء تقريرهم بذلك لأنّه وارد في القران الّذي هو معجزة في نفسه فقام مقام المرئي المشاهد و لأنّ تلاصق الأرض و السّماء و تباينهما كلاهما جائز في العقل فلابدّ للتّباين دون التّلاصق من مخصّصٍ و هو اللّه سبحانه.

و إعلم أنّ الجمهور قرأوا رتقاً بسكون التّاء و هو مصدر يوصف به كروز عدل فوقع خبراً للمثنى.

و قرأ الحسن و زيد و أبو حياة و عيسى **رَتَقاً** بفتح التّاء و هو إسم المرتوق كالقبض و النّفض فكان قياسه أن يبني ليطابق الخبر الإسم.

١- الطّارق = ١١/١٢

و قال الزّمخشري هو على تقدير موصوفٍ أي كانتا شيئاً رتقاً، و أمّا قوله و جعلنا من الماء كلّ شئٍ حيّ، قال المفسّرون جعلنا أن تعدَّت لواحدٍ كانت بمعنى و خلقنا من الماء كل حيوانٍ أي مادّته النُّطفة قاله قطرب و جماعة أو لما كان قوامه الماء المشروب وكان محتاجاً إليه لا يصبر عنه جعل مخلوقاً كقوله خلق الإنسان من عجلٍ، قاله الكلبي و غيره و تكون الحياة على هذا حقيقة و يكون كلّ شئٍ عامّاً مخصوصاً إذ خرج منه الملائكة و الجنّ إذ ليسوا مخلوقين من نطفة و لا محتاجين للماء.

و قال قتادة أي خلقنا كلّ نامٍ من الماء فيدخل فيه النّبات و المعدن و تكون الحياة فيهما مجازاً و عبّر بالحياة عن القدر المشترك بينهما و بين الحيوان النمُّو و يكون أيضاً على هذا عامّاً مخصوصاً هذا إن قلنا أن، جعلنا، تعدّت لواحدٍ و أمّا أن قلنا تعدّت لأثنين فالمعنى صيّرنا كلّ شئٍ حيّ بسبب من الماء لابدّ له منه.

و قرأ الجمهور حيّ، بالخفض و عليه المصاحف و هو على هذا صفة لشئٍ، و قرأ حميد، حيّاً بالنّصب مفعولاً ثانياً لجعلنا، و الجارّ و المجرور لغو أي ليس مفعولاً ثانياً لجعلنا قوله، أفلا يؤمنون إستفهام إنكارٍ و فيه معنى التَّعجب من ضعف عقولهم و المعنى أفلا يتَّدبرون هذه الأدلّة فيعلموا بمقتضاها و يتركوا طريقة الشّرك و أطلق الإيمان على سببه و قد إنتظمت هذه الآية دليلين من دلائل التّوحيد و هى من الأدلّة السماوية و الأرضيّة، هذا ما ذكروه في تفسير الآية ملخّصاً و حيث أنّ الآية الشّريفة حاوية لأسرارٍ يجب التّنبيه عليها لابدّ لنا من البحث فيها بوجهٍ أبسط.

فنقول قال الرّاغب في المفردات، الرّتق الضَّم و الإلتحام خلقةً كان أم صفةً قال تعالى كانتا رتقاً ففتقناهما، أي منضّمتين و الرَّتقاء الجارية المنضّمه الشَّفرتين، و فلانٌ راتقٌ و فاتقٌ في كذا أي هو عاقدٌ و حالٌ إنتهى.

و قال في لسان العرب، الرَّتق ضدّ الفتق و قال إبن سيده، الرَّتق إلحام الفتق و إصلاحه رتقه رتقاً فإرتتق أي إلتأم إذا عرفت هذا فالبحث حول الآية يقع في فصول:

أحدها: في قوله: **أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا** إلىٰ قوله: **فَفَتَقْنَاهُمَا**.

الثّاني: في تفسير قوله: **وَ جَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ**.

الثّالث: في قوله: **أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**.

الفصل الأوّل: فيه أبحاث:

أحَدها: أنّ الهمزة في **أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا**، للتّوبيخ و التّقرير و يحتمل أن تكون للإنكار فعلى الأوّل و بّخ اللّه الكفّار على عدم رؤيتهم ما ذكره في الآية أو قرّر لهم ذلك.

علىٰ الثّاني: أنكر عليهم عدم الرّؤية.

ثانيها: أنّ الرّؤية في المقام قيل هي الرّؤية بالبصر و قيل الرّؤية بالقلب بمعنى العلم.

و الثّاني أولى لأنّ الرَّتق و الفتق في السّماوات و الأرض ممّا يتعلّق به العلم دون النَّظر إذ لم ير أحد من البشر بعينه رتق السّموات و الأرض و ذلك لأنّ الرّؤية بالبصر فرع وجود المبصر و من المعلوم عدم وجود البشر حين الرّتق و أمّا الرّؤية بالقلب المعبّر عنه بالرّؤية العلميّة فأنّها تحصل للإنسان من طريق الأثار و على هذا فقوله: **أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا**، معناه أولم يعلموا.

ثالثها: قوله: **رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا**، قد مضىٰ الكلام في معنى الرَّتق و أنّه ضدّ الفتق و معنى الكلام أنّ أطباق السمّوات كانت رتقاً يتَّصل بعضها ببعضٍ بنحو الإلتصاق ففتقها سبعاً و هى السّموات قال أميرالمؤمنين عليه السلام و كان من إقتدار جبروته و بديع لطائف صنعه أن جعل من ماء البحر الزّاخر المتراكم المتقاصف يبساً جامداً ثمّ فطر منه أطباقاً ففتقها سبع سموات بعد إرتقاقها

فـإستمسكت بأمـر أو قـامت عـلى حدّه و أرسـى أرضـاً يـحملها الأخـضر المُشعَنجر و القمام المسخّر قد ذلَّ لأمره و أذعن لهيبته و وقف الجـاري عـلى أخر كلامه(١).

و قال عليه السلام في(٢) وَ فَتَقَ بَعْدَ الارْتِتاقِ صَوامِتَ أبْوابِها، وَ أقامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّواقِبِ عَلى نِقابِها الخ.

و قال عليه السلام في وصف الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم: اَرسَلَهُ بِالضِّياءِ وَقَدَّمَهُ فِى الْاِصْطِفاءِ فَرَتَقَ بِهِ الْمَفاتِقَ الخ(٣).

و قال في(٤) فَلَمَّ اللّهُ بِهِ الصَّدْعُ وَرَتَقَ بِهِ الْفَتْقَ الخ.

إذا عرفت معنىٰ الرّتق و الفتق فنقول يظهر من كـلام أمـيرالمـؤمنين عليه السلام أنّ السّموات و الأرض كانتا قبل الفتق يبساً جـامداً ثـمّ خـلق اللّـه مـنه أطـباقاً أي جعله أطباقاً و أمّا كيفيّة خلق السّموات و الأرض فقد قـال أمـيرالمـؤمنين عليه السلام في الخطبة الأولى في فصل خلق العالم ما هذا لفظه:

ثُمَّ أَنْشاءَ سُبْحانَهُ فَتْقَ الْأَجْواءِ، وَشَقَّ الْأَرْجَاء، وَسَكائكَ الْهَوٰىِ، فَأَجْرٰى فِيها ماءً مُتَلاطِماً تَيّارُهُ، مُتَراكِماً زَخّارُهُ، حَمَلَهُ عَـلٰى مَـتْنِ الـرِّيحِ الْـعاصِفَةِ، وَالزَّعْـزَعِ الْقاصِفَةِ، فَأَمَرَها بِرَدِّهِ و ساق الكلام إلىٰ أن قال عليه السلام حَتّٰى عَبَّ عُبابُهُ، وَرَمٰى بالزَّبَدِ رُكامُهُ، فَرَفَعَهُ فِى هَواءٍ مُنْفَتِقٍ، وَّجَوّ مُنْفَهِقٍ فَسَوّىٰ مِنْهُ سَبْعَ سَمٰواتٍ الى آخر ما قال عليه السلام.

و قد أشبعنا الكلام في هذا الباب في شرحنا على النّهج بـما لا مـزيد عـليه أن شئت فراجعه.

١- خ ٢٧
٢- خ ٩١
٣- خ ٢١٣
٤- خ ٢٣١

رابعها: قوله: **وَ جَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**، قلنا أنّ في الحيّ قراءتان، قراءة الخفض و قراءة النَّصب فمن قرأه بالخفض جعله صفة، و من قرأ بالنَّصب (حيّاً) جعله مفعولاً ثانياً لجعلنا و الجار و المجرور لغو أي ليس مفعولاً ثانياً لجعلنا، و أمّا على القراءة الأولى فهو أي الجارّ و المجرور يكون مفعولاً ثانياً له و التّقدير و جعلنا كلّ شئٍ حيّاً من الماء، ثمّ أنّ جعلنا إن تعدّت لواحدٍ كانت بمعنى، و خلقنا أي و خلقنا من الماء كلّ حيوانٍ أي مادّته النُّطفة قاله قطرب أو لمّا كان قوامه الماء المشروب و كان محتاجاً إليه لا يصبر عنه جعل مخلوقاً منه كقوله خلق الإنسان من عجلٍ و على هذا فتكون الحياة حقيقية و يكون كلّ شئٍ، عامّا مخصوصاً إذ خرج منه الملائكة و الجنّ و كلّ ما ليس مخلوقاً من نطفة محتاجين إلى الماء.

و قال قتادة أي خلقنا كلّ نامٍ من الماء فيدخل فيه النّبات و المعدن على التَّبع وتكون الحياة فيهما مجازاً.

و أن تعدَّت لأثنين فهو أي جعلنا بمعنى صيَّرنا أي صيَّرنا كلّ شئٍ حيّ بسبب من الماء لابدّ له منه، و إختار الجمهور الخفض و عليه المصاحفُ فعلاً و إختار حميد النَّصب و هو شاذّ، و على مذهب الجمهور فالمعنى جعلنا من الماء كلّ شئٍ أي كلّ موجودٍ متصّفٍ بالحياة أو صيَّرنا من الماء كلّ موجودٍ كذلك و هذا ممّا لا كلام فيه.

و أنّما الكلام في معنى الحياة هل المراد بها الحياة حقيقةً أو مجازاً فالإحتمالات في المقام ثلاثة:

الحياة حقيقةٌ في الكلّ.

الحياة مجازٌ في الكلّ.

الحياة حقيقةٌ بالنّسبة الى بعضٍ و مجاز بالنّسبة الى آخر.

و لتوضيح المقام لابدّ لنا من معنى الحياة فنقول الحياة نقيض الممات هي الوجود فإذا قلنا أنّ الشّئ موجود معناه له حياةٍ و هذا بحسب اللّغة و العقل

واضح لا خفاء فيه و إذا كان الحّق نقيض الميت فمعناه أنّه موجود إذا عرفت هذا.

فأعلم أنّ الحياة تستعمل على أوجه.

الأوّل: للقوّة النّامية الموجودة في النبّات و الحيوان و منه قيل نباتٌ حيٌّ أو حيوان حيٌّ.

قال اللّه تعالىٰ: **اِعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**(١).

الثّانية: للقوّة الحاّسة وبه سمّي الحيوان حيواناً.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَ لَا ٱلْأَمْوٰتُ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**(٣).

الثّالثة: للقوّة العاملة العاقلة.

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ**(٤).

قال الشّاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ... ولكن لا حياة لمن تنادي

الرّابعة: الحياة عبارة عن إرتفاع الغّم.

قال الشّاعر:

ليس من مات و إستراح بميتٍ ... أنّما الميت ميت الأحياء

و علىٰ هذا قوله تعالىٰ: **وَ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللّٰهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**(٥) أي هم متلذّذون.

الخامسة: الحياة الأخرّوية الأبديّة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْاٰخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**(٦).

١- الحديد = ١٧
٢- فاطر = ٢٢
٣- فصلت = ٣٩
٤- الأنعام = ١٢٢
٥- آل عمران = ١٦٩
٦- العنكبوت = ٦٤

السّادسة: الحياة التّي يوصف بها الباريْ تعالى فأنّه إذا قيل أنّه تعالى، **حَيٌّ**، معناه لا يصّح عليه الموت وليس ذلك إلاّ للّه عزّ وجلّ و الحياة بإعتبار الدنيا و الأخرة ضربان، الحياة الدُّنيا و الحياة الأخرة و قد أشار اللّه تعالى إليها في القرآن في موارد كثيرة كما لا يخفى إذا عرفت معاني الحياة و موارد إستعمالاتها.

فإعلم أنّ قوله: **وَ جَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**، يمكن أن يراد بالحياة في الآية جميع أقسامها المذكورة إلاّ السّادس منها و هو حياة اللّه تعالىٰ التّي هي عين ذاته و ذلك لأنّ الحياة بالمعنى الأوّل و هو القوّة النّباتية الموجودة في النّبات لاشكّ أنّ حياتها بسبب الماء فأنّ حياة النّبات بدون الماء غير ممكنٍ و هكذا المعنى الثّاني فأنّ القوّة الحسّاسة التّي بها سمّي الحيوان حيواناً لا توجد إلاّ بالماء أعني به النُّطفة و لا يمكن لها إستمرار الحياة إلاّ بالماء أيضاً.

و أمّا المعنى الثّالث و هو القوّة العاملة العاقلة فهو أيضاً يوجد بالماء أعني بها النُّطفة و هو الإنسان فإحتياجه إلى الماء واضح.

و المعنى الرّابع: و هو إرتفاع الغّم فهو أيضاً مخصوص بالإنسان و قد ثبت أنّه محتاج إلى الماء في حدوثه.

و هكذا الخامس فأنّ الحياة الأبديّة الأخرويّة لا تكون إلاّ للإنسان فهذه المعاني الخمسة كلّها حياتها بالماء أعني بها النّباتات و الحيوانات و الإنسان بقي منها الجماد و حياته أيضاً بالماء كالأرض فأنّ حياة كلّ شئٍ بحسبه و علىٰ هذا فمعنى جعلنا أي خلقنا أو صيَّرنا كلّ شئٍ متّصفٍ بالحياة بسبب الماء بمعنى أنّ الما سببٌ لوجودها و حياتها حدوثاً و بقاءً إذ لا بقاء للحياة بدون الماء ثمّ أنّ الحياة على قسمين:

ذاتّية و عرَّضية، فالذاتيّة منها لا تحتاج إلى سببٍ لأنّها عين ذات الموجود و ذلك كحياة اللّه تعالى.

و العرَّضية تحتاج إلى السَّبب لأنّها لم تكن ثمّ كانت فلا محالة تحتاج إلى سببٍ من الأسباب و أن شئت قلت أنّ العرَّضية داخلة في سلسلة الممكنات لأنّها قد تعرض و قد لا تعرض و نسبة الممكن في حدّ ذاته إلى الموجود و العدم على حدٍّ سواء و لذلك يحتاج إلى مخرجٍ و المخرج لا يكون ممكناً و إلاّ يلزم التَّسلسل و لا ممتنعاً لأنّ ممتنع الوجود كيف يكون مخرجاً و قد ثبت أنّ معطي الشّئ لا يكون فاقدًا له فإذاً هو الواجب لإنحصار المفهوم في هذه الثّلاثة فثبت أنّ المخرج هو اللّه تعالى سبب الماء إذ أبى اللّه أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها و هذا معنىٰ قوله: **وَ جَعَلْنَا**، فالحياة العارضة على الأحياء من اللّه تعالى و هو المطلوب.

و قد ظهر لك ممّا ذكرناه أنّ الحياة إذا كانت عارضة على الشّئ بعد أن لم تكن فهي محتاجة إلى المؤثّر و السّبب و أمّا إذا لم تكن عارضة بل كانت عين ذات الشّئ فلا تحتاج إلى مؤثّرٍ و حيث أنّ الحياة في اللّه تعالى كذلك فلا تحتاج إلى المؤثّر و لأجل هذا قلنا أنّ حياته تعالى ليست من مصاديق الآية فأنّ الآية ناظرة إلى الحياة العارضة على الشّئ بعد أن لم تكن كذلك لا الحياة الّتي هي عين ذات الشّئ من غير عروضٍ فلا يتعلّق بها الجعل والخلق أصلاً فليس لقائلٍ أن يقول أنّ اللّه تعالى أيضاً حيّ وكلّ حيٍّ حياته من الماء أو بالماء فحياته تعالى بالماء إذ يقال له أنّ الحياة فيه تعالى غيرها في غيره فأنّها فيه ذاتيّة و فى غيرها عرضيّة و المجعول هو الثّاني دون الأوّل فثبت المطلوب.

الفصل الثّالث: في تفسير قوله: **أَفَلَا يُؤْمِنُونَ** الهَمَزة للإستفهام الإنكاري و فيه معنى التَّعجب من ضعف عقولهم و المعنىٰ أفلا يتَّدبرون في هذه الأدلّة الدّالة على وجود الصّانع القدير فيعملوا بمقتضاها و يتركوا طريقة الشّرك و الإنكار و على هذا فأطلق الإيمان على سببه، و قيل معنى الكلام، أفلا يصدَّقون بما أخبرتهم أو أفلا يصدّقون بما يشاهدونه من أفعال اللّه الدالّة على

أنّه المستّحق للعبادة المختصّ بها لا غير و أنّه لا يجوز عليه إتّخاذ الصاحبة و الولد و لنعم ما قال الشّاعر:

تفكّر في نبات الأرض و أنظر إلى أثار ما صنع المليك
ففي رأس الزّبرجد شاهدات بأنّ اللّه ليس له شريكُ

ثمّ ذكر اللّه تعالى دليلاً أخر من الدّلائل الأرضيّة الدّالة على قدرته و حكمته فقال.

وَ جَعَلْنا فِي ٱلْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

الرّواسي هي الجبال واحدها راسية و هى الثّابتة كما ترسو السّفينة إذا وقفت متّمكنة في وقوفها و الميَد، بفتح الميم الإضطراب بالذّهاب في الجهات يقال ماد يميد ميداً فهو مائد، وقوله: **أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ**، أي ألاّ تميد بهم، كما في قوله: **يُبَيِّنُ ٱللّٰهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا**[١] والمعنىٰ ألاّ تَضلّوا، و قوله: **فِجاجًا**، الفَج الطّريق الواسع بين الجبلين و الفجاج جمعه و معنى الآية و جعلنا أي خلقنا في الأرض رواسي أي جبالاً ثابتات، أن تميد بهم، أي منع الأرض أن تميد أي لهذا خلقت الجبال و بعبارةٍ أخرى جعلنا في الأرض رواسي لأجل أن لا تميد بكم الأرض و تضطرب و قيل أنّ الأرض كانت تميد و ترجف فثّقلها اللّه بالجبال الرّواسي لتمتنع من رجوفها و الوجه في تثقيل الأرض بالرّواسي مع قدرته على إمساك الأرض بدون الجبال، هو ما فيه من المصلحة و الإعتبار و قوله: **وَ جَعَلْنا فِيها** أي في الأرض و قيل في الجبال فجاجاً أي طرقاً واسعة بين الجبال أو في الأرض لعلّهم يهتدون أي لكي يهتدون بها إلى البلاد أو إلى وحدانيّة اللّه تعالى بالإستدلال و قيل لعلّكم تهتدون، أي لكي تهتدوا فيها إلى

١- النّساء = ١٧٥

حوائجكم و مواطنكم و بلوغ أغراضكم و يحتمل أن يكون المراد لتهتدوا فتستدّلوا بذلك إلى توحيد اللّه و حكمته، و قيل معناه ليظهر شكركم فيما تحبّون و صبركم فيما تكرهون.

أقول الظّاهر أنّ قوله: **لَعَلَّهم يَهتَدُون** المراد به الإهتداء تكوينياً و تشريعياً، فأنّ الهداية تارة تكون تكوينيّة و هى ظاهرة لا خفاء فيها و تارةً تكون تشريعيّة و هي التّي تنتهي إلى معرفة اللّه و معرفة رسوله أن أردنا بها الإيصال إلى المطلوب و أمّا إذا أردنا بها إراءة الطّريق فقد تنتهي و قد لا تنتهى:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ**(١).

و من المعلوم أنّ اللّه تعالى هو الّذي يهدي إلى الحقّ فمن إهتدى فأنّما يهتدي إلى نفسه و من ضلّ فعليها:

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**(٣).

و الحاصل أنّ الإهتداء إلى الحقّ مطلوب عقلاً و شرعاً لأنّ سعادة الدّارين فيه و حلاوة النّشأتين لا تحصل إلاّ به و المغفرة تتّوقف عليه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ**(٤).

فهذه الأيات تشير إلى هذه الدّقيقة التّي هي الأصل في الباب.

وَ جَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ

١- فصّلت = ١٧
٢- يُونس = ١٠٨
٣- الإسراء = ١٥
٤- طه = ٨٢

إعلم أنّ جعل، لفظٌ عامّ في الأفعال كلّها و هو أعمّ من فعل و صنع و سائر أخواتها و يتّصرف على خمسة أوجه:

الأوّل: يجري مجرى صار و طفق فلا يتّعدى نحو جعل زيدٌ يقول كذا، قال الشّاعر:

فقد جعلت قلوص بني سهيل من الأكوار مرتعها قريبُ

الثّاني: يجري مجرى أوجد فيتّعدى إلى مفعولٍ واحدٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ ٱلظُّلُمٰاتِ وَ ٱلنُّورَ**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ**[١].

الثّالث: يجري في إيجاد الشّيء من شيءٍ وتكوينه منه و يسمّى بالجعل المرّكب على قول الفلاسفة نحو قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْجِبٰالِ أَكْنٰانًا**[٣].

و هكذا أي أوجدنا الأزواج من أنفسكم و أوجدنا الأكنان من الجبال.

الرّابع: في تصيير الشّيء على حالةٍ دون حالةٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرٰاشًا**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**[۵].

الخامس: الحكم بالشّيء على الشّيء حقّاً كان أو باطلاً فأمّا الحقّ:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا رٰادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جٰاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلينَ**[۶].

و أمّا الباطل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَ ٱلْأَنْعٰامِ نَصيبًا**[٧].

١- النّحل = ٧٨
٢- النّحل = ٧٢
٣- النّحل = ٨١
۴- البقرة = ٢٢
۵- الزّخرف = ٣
۶- القصص = ٧
٧- الانعام = ١٣۶

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ**[٢].

ذكر هذه الوجوه في المفردات و أنت ترى أنّ الّذي يناسب ما نحن فيه هو الوجه الرّابع أعني به تصيير الشّيْ على حالةٍ دون حالةٍ و على هذا فالمعنى صيَّرنا السّماء على هذه الحالة دون غيرها، ثمّ أنّ السّماء من أسماء الجنس الّذي يذّكر و يؤنّث و يخبر عنه بلفظ الواحد و الجمع و ذلك كالنَّخل في الشَّجر.

قال في المفردات سماء كلّ شيٍ أعلاه و قال بعضهم كلّ سماء بالإضافة إلى ما دونها فسماءٌ و بالإضافة إلى ما فوقها فأرضٌ إلاّ السّماء العليا فأنّها سماء بلا أرضٍ و على هذا حمل قوله: **ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ**[٣] ذكره في المفردات أيضاً إذا عرفت هذا.

فنقول معنى الآية إنّا جعلنا السّماء أي صيرّناه سقفاً محفوضاً و إنّما ذكرها لأنّه أراد السّقف ولو أنت و قيل محفوظة كان جائزاً أيضاً و معنى قوله **مَحۡفُوظٗا** قيل أي حفظها اللّه من السّقوط على الأرض، و قيل حفظها من أن يطمع أحدٌ أن يتّعرض لها بنقضٍ و من أن يلحقها ما يلحق غيرها من الهدم أو الشَّعث على طول الدَّهر، و قيل هي محفوظة من الشّياطين بالشَّهب الّتي يرجمون بها، و الحَق أن يقال أنّها محفوظة بقدرة اللّه من الآفات كلّها ثمّ قال تعالى: **وَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ** أي أنّ الكفّار و المنكرين لتوحيد اللّه عن آياتها أي عن الإستدلال بأدلّتها على توحيده معرضون و الضّمير في آياتها عائد على السّماء و فيه إشارة الى أنّ في السّماء آياتٌ و علاماتٌ دالّة على توحيده و قدرته و حكمته لمن كان له قلب.

١- النّحل = ٥٧ ٢- الحجر = ٩١

٣- الطّلاق = ١٢

و قال بعض المفسّرين في قوله: **وَ هُمْ عَنْ اٰيٰاتِهٰا مُعْرِضُونَ** أي عن ما وضع اللّه فيها من الأدلّة و العبر بالشّمس و القمر و سائر النّيرات و مسايرها و طلوعها و غروبها على الحساب القديم و التّرتيب العجيب الدّال على الحكمة البالغة و القدرة الباهرة.

و قال الزّمخشري: هم يتفطنون لما يرد عليهم من السّماء من المنافع الدنيويّة كالإستضائة بقمريها و الإهتداء بكواكبها و حياة الأرض و الحيوان بأمطارها و هم عن كونها آية مبنيّة على الخالق معرضون و التّنوين في كلّ عوض عن المضاف إليه، ثمّ أنّ الجمهور قرأوا عن آياتها بالجمع و عليها المصاحف و قرأ مجاهد و حميد عن آياتها بالأفراد، و عليه فالمراد بالآية هي السّماء الّتي تحوي الآيات كلّها و يجوز أنّه أراد بها أي بالآية الجمع فجعلها إسم الجّنس و دلّ على ذلك كثرة ما في السّماء من الآيات و هم عن الإعتبار بها معرضون، و المراد بإعراضهم عنها عدم التّفكر فيها و التّدبر في كيفيّة خلقتها و قد أشار اللّه تعالى بذلك في كثيرٍ من الآيات الواردة في الكتاب.

قال اللّه تعالى: **أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ**(١).

قال اللّه تعالى: **قُلِ اُنْظُرُوا مٰاذٰا فِي اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ مِنْ اٰيٰاتِهِ خَلْقُ اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اِخْتِلاٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ**(٣).

قال اللّه تعالى: **كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اَللّٰهُ لَكُمُ اَلْآيٰاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**(٤).

و في مدح المؤمنين الموحّدين:

قال اللّه تعالى: **اَلَّذِينَ يَذْكُرُونَ اَللّٰهَ قِيٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ**(٥).

١- الأعراف = ١٨٥
٢- يُونس = ١٠١
٣- الرُّوم = ٢٢
٤- البقرة = ٢١٩
٥- آل عُمران = ١٩١

قال اللّه تعالى: **وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**[١] و الآيات في البحّث على التّفكر في الآيات كثيرة جدّاً بل نقول:

و في كلّ شيءٍ له آيةٌ　　تدُل على أنّه واحدُ

و قد مرَّ الكلام في هذا الباب وسيأتي البحث فيه بوجهٍ أبسط.

وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

قيل الفلك هو المجرى الّذي تجري فيه الشّمس و القمر بدورانها عليه و قيل برجٌ مكفوف تجريان فيه و قيل هو طاحونة كهيئة فلك المغزل و الفلك في اللّغة كلّشيءٍ دائرٍ و جمعه أفلاك قال الشّاعر:

باتت تناصي الفلك الدّوارا　　حتّى الصّباح تعمل الأقتارا

و معنى يسبحون، يجرون في قول إبن جريح و قال إبن عبّاس يسبحون، بالخير و الشّر و الشِّدة و الرّخاء و إنّما قال يسبحون، على فعل ما يعقل لأنّه أضاف إليها الفعل الّذي يقع من العقلاء كما قال: **وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**[٢] و قال بعضهم الفلك الجسم الدّائر دورة اليوم و اللّيلة و عن إبن عبّاس الفلك السّماء و قال قتادة الفلك إستدارة بين السّماء و الأرض يدور بالنّجوم مع ثبوت السّماء، و قيل الفلك القطب الّذي تدور عليه النجُوم قطب الشّمال، و قيل لكلّ واحدٍ من السيّارات فلك و فلك الأفلاك يحرّكها حركةً واحدة من المشرق الى المغرب.

و قال الزّمخشري الضّمير للشّمس و القمر و المراد بهما جنس الطّوالع كلّ يوم و ليلة جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها و هو السّبب في جمعها بالشّموس و الأقمار و إلاّ فالشّمس واحدة و القمر واحدٌ إنتهى.

١- الحَشر = ٢١　　٢- يُوسف = ٤

و قال الرّاغب في المفردات الفلك مجرى الكواكب و تسميته بذلك لكونه كالفلك قال تعالى: **وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** و فلكة المغزل و منه و منه إشتّق فلك ثدي المرأة إنتهى.

و قالوا في تفسير قوله: **كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** بصيغة الجمع، أراد الشّمس و القمر و النّجوم لأنّ قوله، اللّيل، دلّ علىٰ النُّجوم فمعنى الآية أنّ اللّه تعالى هو الّذي خلق اللّيل و النّهار و الشّمس و القمر، **كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**، أي كلّ واحدٍ من الشّمس و القمر و النُّجوم في فلكٍ يسبحون، أي يجرون فالتّنوين في، كلّ، فرضٌ من المضاف اليه هذا ما ذكروه في تفسير الآية و نحن نقول في الآية أبحاث.

الأوّل: أنّ الفلك ما هو فقال السّدي و إبن عبّاس أنّ الفلك السّماء.

و قال أكثر المفسّرين الفلك موجٌ مكفوف تحت السّماء تجري فيه الشَّمس و القمر.

و قال قتادة الفلك إستدارةٌ بين السّماء و الأرض يدور بالنّجوم مع ثبوت السّماء.

و قيل الفلك القطب الّذي تدور عليه النَّجوم و هو قطب الشّمال لكلّ واحدٍ من السيّارات فلك و فلك الأفلاك يحرّكها حركةً واحدة من المشرق و المغرب.

و قال الضّحاك الفلك ليس بجسمٍ وإنّما هو مدار هذه النّجوم، ثمّ أنّهم إختلفوا فقال بعضهم أنّ كّلاً يسّبح فيٍ فلكٍ واحدٍ و قال الآخرون لكلّ واحدٍ فلكٌ يختّصه فهو كقولهم كساهم الأمير حلَّة أي كسىٰ كلّ واحدٍ حلّة.

أقول: الحّق في معنى الفلك في الآية أنّه عبارة عن مدار هذه النّجوم فلا وجود له في الخارج مستّقلاً و أنّما هو ينتزع من حركات النّجوم و هذا هو الّذي أثبته العلم في زماننا هذا و أمّا الفلك بمعنى أنّه جسمٌ يغر قابل للخرق و الإلتئام ما زعمه أتباع بطليموس فلا دليل عليه بل الدّليل ثابت على خلافه و يظهر أنّ في الآية أنّ لكلّ واحدٍ منها فلك يخصّه بدليل قوله تعالى: **كُلٌّ فِي**

فَلَكٍ يَسْبَحُونَ أي كلّ واحدٍ منها فالتّنوين في كلّ عوض من المضاف إليه المحذوف و أمّا عدد النّجوم فلا يعلمه إلاّ اللّه و يكفي في إثبات المدّعي أنّ عدد النّجوم كان عند القدماء (١٠٢١) و قد ثبت في زماننا هذا منها أكثر من ١٦٠٠٠/٠٠٠) مليون و يزيد علىٰ هذا العدد و كلّ يوم و تفصيل الكلام في هذا الباب خارج عن موضوع الكتاب.

الثّاني: قوله: **يَسْبَحُونَ**، بواو الجمع العاقل، أمّا الجمع فقيل ثمّ معطوف محذوف و هو و النّجوم، و لذلك عاد الضّمير مجموعاً ولو لم يكن ثمّ معطوف محذوف لكان، يسبّحان، مثّنى.

و قال بعض المفسّرين الضّمير للشّمس و القمر و المراد بهما جنس الطّوالع كلّ يوم و ليلة جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها و هو السّبب في جمعها بالشّموس و الأقمار و إلاّ فالشّمس واحدة و القمر واحد قاله الزّمخشري في تفسيره ثمّ قال و أنّما جعل الضّمير واو العقلاء للوصف بفعلهم و هو السّباحة إنتهى.

أقول: قوله فالشّمس واحدة و القمر واحدٌ ليس شيءٍ يعتمد عليه فأنّ الشّموس و الأقمار كثيرة كما ثبت في الهيّئة و قد ورد في الأخبار أيضاً ما يؤيّده قال عليه السلام أنّ من وراء شمسكم هذه أربعين شمساً و أنّ من وراء قمركم هذا أربعين قمراً و قد ذكر في معنى الحديث أنّ عدد الأربعين جئ به للدّلالة على الكثرة لا أنّ العدد منحصرٌ بالأربعين فأنّ الشّموس و الأقمار أكثر من هذا العدد أضعافاً، و علىٰ هذا فالحقّ أنّ اللاّم في الشّمس و القمر للجنس و هو يطلق على القليل و الكثير فقوله: **يَسْبَحُونَ** أي يسبح جميع الشّموس و الأقمار في أفلاكهم فالتّكاثر ليس بحسب مطالعها كما زعمه الزّمخشري بل بحسب أنفسها و ذواتها فالمعنى أنّ جميع الشّموس و الأق مار كلّ واحدٍ منها في فلكٍ تخصّ به يدور و يسبح و أنّما قال: **يَسْبَحُونَ** بواو الجمع الثّابت للعقلاء لأنّ هذا الوصف أعني به السّباحة وصفٌ لهم لا لها كما قال اللّه تعالى حكايةً عن

يوسف الصّديق **رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**[۱] و ذلك لأنّ السَّجدة من أفعال الأدَّميين و لذلك قال رأيتهم ولم يقل رأيتها هذا كلّه على مسلك المشهور من أنّ النّجوم و الأفلاك لا شعور لها و أمّا على مسلك من أثبت لها الشّعور بزعمه الفاسد فالكلام على حقيقته و هو ظاهر.

الثّالث: قوله تعالى: **وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ** بتقديم اللّيل فيه إشارةٌ إلى تقدّم اللّيل و هو كذلك لأنّ اللّيل عدَّميّ و النّهار وجوديّ و العدم مقَّدمٌ على الموجود و أنّما قلنا أنّ اللّيل عدَّميّ لأنّه عبارة عن عدم النّهار وليس عدماً محضاً ولذلك صار مخلوقاً و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ العدم تارةً يكون محضاً أي خالصاً لا حظّ له للوجود و قد يعبّر عنه بالممتنع أيضاً كشريك الباريْ و إجتماع النّقيضين و إجتماع الضّدين و أخرى لا يكون محضاً بل له حظٌّ من الوجود و هذا هو الّذي قد يعبّر عنه بالعدم و الملكة، أي له شأنيّة الوجود و بعبارةٍ أخرى أنّه يكون قابلاً للوجود و بهذا الإعتبار يقال، له حظٌّ من الوجود فيتعلّق به الجعل و الخلق، إذا عرفت فقد علمت أنّ اللّيل ليس عدماً مطلقاً بل هو عدم النّهار عمّا من شأنه أن يكون نهاراً و بإعتبار هذه الشأنيّة و القابليّة صار مخلوقاً أي تعلَّق به الخلق و أنّما قلنا بتقديمه على النّهار لأنّ العدم مقدّمٌ على الموجود فاللّيل مقدّمٌ على النّهار ذاتاً و لذلك قدّمه عليه في الآية و أتّن بها على عباده بأنّه تعالى هو الّذي أخرجهم من ظلمة العدم إلىٰ نور الوجود في أصل الخلقة و من ظلمة اللّيل إلى النّهار في هذا العالم بسبب الشّمس و القمر و غيرهما من النّجوم و بذلك ظهر لك أنّ إسناد الخلق إلى اللّيل و النّهار أنّما هو على سبيل المجاز دون الحقيقة لأنّهما ليسا من الأمور المتأصلة بل هما من الأوصاف المترتبة على وجود الشّمس و القمر إن لم تقل بإنتزاعيتّهما بل على وجود الشّمس فقط لأنّ القمر لا نور له ذاتاً و أنّما يستنير

۱- يوسف = ۴

بالشّمس فقوله تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهٰارَ** معناه و هو الّذي خلق أسبابهما و هو ظاهرٌ.

وَ مٰا جَعَلْنٰا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَائِنْ مِتَّ فَهُمُ ٱلْخٰالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ ٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنٰا تُرْجَعُونَ

قيل أنّ بعض المسلمين قال أنّ محمّداً لن يموت و أنّما هو مخلّد فأنكر ذلك الرّسول صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فنزلت الآية و قيل طعن كفّار مكّة عليه بأنّه بشر يأكل الطّعام و يموت فكيف يصّح إرساله.

و قال الزّمخشري كانوا يقدرون أنّه سيموت، فيشمتون بموته فنفى اللّه عنه الشّماتة بهذا أي قضى اللّه أن لا يخلد في الدّنيا بشراً، فلا أنت و لا هم إلاّ عرضة للموت فأن متَّ أيبقى هؤلاء.

أقول: قال الرّاغب في المفردات الخلود هو تبّري الشّئ من إعتراض الفساد و بقاءه على الحالة الّتي هو عليها و كلّ ما يتّباطئ عنه التّغير و الفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافي خوالدِ و ذلك لطول مكثها لا لدوام بقاءها إلى أن قال واصل المخلّد الّذي يبقى مدّةً طويلة و منه قيل رجلٌ مخلّدٌ لمن أبطأ عنه الشَّيب إنتهى.

أقول: الفرق بين الدَّوام و الخلود هو أنّ الدّائم يقال للموجود الأزلي في الماضي و المستقبل فالدّوام عبارة عن شمول الأزمنة بخلاف الخلود و لذلك يطلق الدّائم على اللّه و يقال يا دائم الفضل على البَّرية و لا يطلق الخالد عليه تعالى و يمكن الفرق بينهما بأنّ الدّائم أزلّيٌ في الماضي بمعنى أنّه لا أوّل له بخلاف الخالد وكيف كان فقد نفى اللّه تعالى عن البشر الخلود في الدنيا فقال و ما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد و قد ثبت أنّ حكم الأمثال واحد عقلاً فإذا كان الحكم ثابتاً لكلّ البشر كما هو المفروض بحسب الآية و قد ثبت أنّ الرّسول بشر فنقول الرّسول بشر و كلّ بشرٍ لا مخلّد فالرّسول لا يخلّد أمّا الصُّغرى فثابتةٌ لقوله: **قُلْ إِنَّمٰآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**.

و أمّا الكبرى فهي أيضاً ثابتة بحكم الآية فالنّتيجة ثابتة قطعاً و إذا ثبت أنّ الرّسول مخلّدٍ في الدّنيا ثبت هذا الحكم في حقّ غيره أيضاً بطريق أولى و إلى هذا المعنى أشار بقوله أفإن متَّ فهم الخالدون ثمّ قال تعالى: **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ** الموت هنا عبارة عن زوال القوّة الحيوانيّة و إبانة الرُّوح عن الجسد و ذلك لأنّ الموت له أنواع كثيرة بحسب أنواع الحياة و بعبارةٍ أخرى حياة كلّ شئٍ بحسبه فكذلك موته و قد تقدَّم الكلام في هذا المعنى غير مرّةٍ و كيف كان لا شكّ أنّ الموجود الحادث مصيره إلى الموت اناً فآناً و هذا لا يختّص بالإنسان فقط بل كلّ مخلوقٍ كذلك.

روي أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام سمع إنساناً يقول، إنّا للّه و إنّا إليه راجعون، فقال عليه السلام قولنا إنّا للّه إقرارٌ منّا له بالملك و قولنا إنّا إليه راجعون إقرار على أنفسنا بالهلك و لنعم ما قيل:

وإذا المنيّة أنشبت أظافرها ... ألفيت كلّ تميمةٍ لا تنفع

و قال الأخر:

ننافس في الدّنيا ونحن نعيبها ... و قد حذّرتناها لعمري خطوبها
وما نحسب السّاعات نقطع مدّةً ... على أنّها فينا سريعٌ ربيبها
كأنّي برهطي يحملون جنازتي ... إلى حفرةٍ يحشى علّي كثيبها
و باكيةٍ حرّى تنوح و إنّني ... على غفلةٍ من صوتها لا أجيبها
أيا هادم اللّذات ما منك مهربٌ ... يحاذر نفسي منك ما سيصيبها
رأيت المنايا قسّمت بين أنفسٍ ... و نفسي سيأتي بعد ذاك نصيبها

و قال الأخر:

وكم من صحيحٍ بأت للموت أمناً ... أتته المنايا رقدةً بعد ما هجع
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتتةً ... فراراً و لا منه بحيلةٍ أنتفع
فأصبح يبكيه النّساء مكّفناً ... ولا يسمع الدّاعي إذا صوته رفع
و قرّب من لحدٍ فصار مقيمهمقيله ... و فارق ما قد كان بالأمس قد جمع

قال اللّه تعالىٰ: **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ ٱلْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**(١).

قال اللّـه تـعالىٰ: **قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلىٰ عالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهادَةِ**(٢).

قـال اللّـه تـعالىٰ: **وَ جاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ**(٣) و الأيات كثيرة.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ ٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ** ففيه إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أنّ الدّنيا دار بلاء و إختبار.

ثانيهما: الحساب بعد الموت فقوله: **نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ ٱلْخَيْرِ فِتْنَةً** إشارة إلى الأوّل و قوله و إلينا ترجعون إشارة إلى الثّاني فالبحث يقع في مقامين:

المقام الأوّل: قوله: **نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ ٱلْخَيْرِ فِتْنَةً**، أي نختبركم بها و قدّم الشّر على الخير لأنّ الإبتلاء به أكثر و لأنّ العرب تقدّم الأقل والأردء و منه لا يغادر صغيرة و لا كبيرة فمنهم ظالم لنفسه و منهم مقتصد و منهم سابق بالخيرات و هكذا قيل في وجه تقديم الشّر على الخير.

و عن إبن عبّاس الخير و الشّر عامّ في الغنى و الفقر و الصحّة و المرض و الطّاعة و المعصية و الهدى و الضّلال.

و قال إبن عطيّة أنّ المراد من الخير و الشّر هنا كلّ ما صحّ أن يكون فتنة و إبتلاء.

و عن إبن عبّاس أيضاً بالشّدة و الرّخاء أي أتصبرون على الشّدة و تشكرون على الرّخاء أم لا.

و قال إبن زيد المراد بهما المحبوب و المكروه و إنتصب فتنة على أنّه مفعول له أو مصدر في موضع الحال أو مصدر من معنى، **نَبْلُوكُمْ**.

١- النّساء = ٧٨ ٢- الجمعة = ٨

٣- ق = ١٩

أقول: الشّر الّذي يرغب عنه الكلّ كما أنّ الخير هو الّذي يرغب فيه الكلّ قولاً و عملاً و هو أي الخير على ضربين، خيرٌ مطلق و هو أن يكون مرغوباً فيه بكلّ حالٍ و عند كلّ أحدٍ كما وصف عليه السّلام به الجنّة.

فقال عليه السلام لا خير بخيرٍ بعده النّار و لا شرّ بشّرٍ بعده الجنّة، و قد يكون الخير مقيّداً و هو أن يكون خيراً لواحدٍ و شرّاً لأخر كالمال الذّي ربّما يكون خيراً لزيد و شرّاً لعمرو، هذا التّقسيم بالنّسبة إلى الخير لا كلام فيه و أمّا الشّر فلا يكون إلاّ مقيّداً لأنّ الشّر المطلق لم يوجد ولن يوجد أبداً كشريك الباريء و من المعلوم أنّ أعمال الإنسان و أقواله لا تخلو منهما فأنّ ما يصدر منه أن كان ممّا يرغب فيه الكلّ فهو خير و الاّ فهو شرٌّ و حيث أنّ الإنسان مختار في فعله بمعنى أنّه قادرٌ على فعل الخير و الشّر فصّح إختباره فيهما فالمعنى أنّا نبلو الإنسان بهما لأجل الإختبار و الإمتحان و قوله: **نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ ٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: **إنّا للّه وإنّا إليه راجعُون** فأنّ كلّ شيءٍ يرجع إلىٰ أصله فيسأل عمّا يفعل في دار الدنيّا و يجزى عليه و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد.

■

وَ إِذا رَاٰكَ ٱلَّذينَ كَفَرُوآ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهٰذَا ٱلَّذي يَذْكُرُ اٰلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ هُمْ
كٰافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوريكُمْ
اٰياتي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا
ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذينَ
كَفَرُوا حينَ لٰا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ ٱلنّٰارَ وَ لٰا
عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لٰا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتيهِمْ
بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطيعُونَ رَدَّهٰا وَ لٰا هُمْ
يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَ لَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ
فَحٰاقَ بِالَّذينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهٰارِ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ
بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ اٰلِهَةٌ
تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنٰا لٰا يَسْتَطيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ
لٰا هُمْ مِنّٰا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنٰا هٰؤُلٰآءِ وَ
اٰبٰآءَهُمْ حَتّٰى طٰالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنّٰا
نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنْقُصُهٰا مِنْ أَطْرٰافِهٰآ أَفَهُمُ ٱلْغٰالِبُونَ
﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمآ أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لٰا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ
ٱلدُّعٰآءَ إِذٰا مٰا يُنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ
مِنْ عَذٰابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يٰا وَيْلَنٰآ إِنّٰا كُنّٰا ظٰالِمينَ
﴿٤٦﴾ وَ نَضَعُ ٱلْمَوٰازينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ فَلا
تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ إِنْ كٰانَ مِثْقٰالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ
أَتَيْنٰا بِهٰا وَ كَفىٰ بِنٰا حٰاسِبينَ ﴿٤٧﴾

◄ اللّغة

هُزُوًا: أي سخريّةً و إستهزاءً.
يَكُفُّونَ: الكَّف المنع أي لا يمنعون.
بَغْتَةً: البغتة الغفلة.
فَتَبْهَتُهُمْ: أي تحيرَّهم و المبهوت المتَّحير.
فَحَاقَ: أي حلَّ، حاق يحقّ حيقاً.
يَكْلَؤُكُمْ: يقال كلأه أي حفظه.
نَفْحَةٌ: النَّفحة الدَّفعة اليسيرة يقال نفخ ينفخ نفخاً فهو نافخ.
وَيْلَنَا: الويل الهلاك.

◄ الإعراب

إلاّ هُزُوًا أي مهزوّاً به و هو مفعول ثانٍ مِنْ عَجَلٍ في موضع نصب بخلق على المجاز كما تقول خلق من طينٍ و قيل هو حال أي عجلاً و جواب، لو، محذوف و حِينَ مفعول به لا ظرف، و بَغْتَةً مصدر في موضع الحال مِنَ الرَّحْمٰنِ أي من أمر الرَّحمن فهو في موضع نصب، بيكلؤكم، إِذَا مَا يُنْذَرُونَ إذا، منصوبة بيسمع أو بالدُّعاء مِنْ عَذَابِ صفة لنفحة أو في موضع نصب بمسَّتهم الْقِسْطَ أنّما أفرد و هو صفة لجمع لأنّه مصدر وصف به و قيل التّقدير ذوات القبط شَيْئًا بمعنى المصدر ومِثْقَالَ بالنّصب على أنّه خبر كان و يقرأ بالرّفع على أن تكون، كان، تامّة مِنْ خَرْدَلٍ صفة لحبّة أو لمثقال.

◄ التّفسير

وَ إِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا

قيل مرَّ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بأبي جهل و أبي سفيان فقال أبو جهل هذا بني عبد مناف فقال أبوسفيان و ما تنكرون أن يكون نبيّاً في بني عبد مناف

فسمعهما الرّسول فقال لأبي جهل ما تنتهي حتّى ينزل بك ما نزل بعمّك الوليد بن المغيرة و أمّا أنت يا أباسفيان فأنّما قلت ما قلت حميّة فنزلت الآية و لمّا كان الكفّار يغمّهم ذكر آلهتهم بسوء شرعوا في الإستهزاء و تنقيص من يذكرهم على سبيل المقابلة و (إن) نافية بمعنى، ما، أي ليس يتّخذونك إلاّ هزواً.

أَهٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ اٰلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ هُمْ كٰافِرُونَ هذا إشارة الى رسول اللّه أي أنّ الكفّار يقولون هكذا و الحال أنّهم بذكر الرّحمٰن هُم كافرون، أي بتوحيد الرّحمن كافرون و من هذه حاله لا ينبغي أن ينكر على من يعيب آلهتهم.

و قال الزّمخشري و الجملة في موضع الحال أي يتّخذونك هزواً و هم على حالٍ هي أصل الهزو و السُّخرية و هى الكفر باللّه إنتهى.

و قد إتّفقوا على أنّ تكرار **هُمْ** في الآية للتّوكيد، و قيل أنّها نزلت حين أنكروا لفظة الرّحمن و قالوا ما نعرف الرّحمن إلاّ في اليمامة، وكيف كان ففي الآية تسلية لكلّ محقّقٍ يلحقه أذى من جاهلٍ مبطلٍ.

خُلِقَ ٱلْإِنْسٰانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ اٰيٰاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ

لمّا كانوا هؤلاء الكفّار يستعجلون عذاب اللّه و آياته الملجئة الى الإقرار و العلم نهاهم اللّه تعالى عن الإستعجال و قدَّم أوّلاً ذمّ الإنسان على إفراط العجلة و أنّه مطبوعٌ عليها و الظّاهر أنّه يراد بالإنسان هنا إسم الجنس و كونه خلق من عجلٍ و هو على سبيل المبالغة لما كان يصدر منه كثيراً كما يقال لمكثر اللّعب أنت من لعب و قوله سأوريكم آياتي أي آيات الوعيد فلا تستعجلون في رؤيتكم العذاب الّذي تستعجلون به و إدّعى أبو عمرو القلب في الكلام و أنّ التّقدير خلق العجل من الإنسان و كذا قراءة عبد اللّه على معنى أنّه جعل طبيعة من طبائعه و جزءً من أخلاقه.

أقول: هذا الكلام منه مطرودٌ ممنوع لأنّ القلب الصّحيح فيه أن لا يكون في الكلام الفصيح و أنّ بابه الشِّعر ثمّ أنّ الكلبي و مقاتل و الضّحاك و السُّدي و غيرهم قالوا المراد بالإنسان هنا آدم أبو البشر.

قال مجاهد لمّا دخل الرُّوح رأسه و عينيه رأى الشّمس قاربت الغروب فقال يا ربّ عجّل تمام خلقي قبل أن تغيب الشّمس.

و قال سعيد لمّا بلغت الرُّوح ركبتيه كان يقوم، فقال اللّه خلق الإنسان من عجلٍ.

و قال إبن زيد خلقه اللّه يوم الجمعة على عجلةٍ في خلقه.

و قال الأخفش في قوله: **مِنْ عَجَلٍ**، لأنّ اللّه قال له كم فيكون.

و قال الحسن من عجلٍ أي ضعيف يعني النُّطفة، و قيل خلق بسرعةٍ و تعجيلٍ على غير ترتيب الآدميّين من النُّطفة و العلقة و المضغة، و قيل من عجلٍ، أي من طينٍ فأنّ العجل الحمير الطّين قال الشّاعر:

النَّبع في الصّخرة الصَّماء منبة و النَّخل منبته في الماء و العجل

و قيل الأيات هنا الهلاك المعجّل في الدُّنيا و العذاب في الأخرة و لمعنى يأتيكم العذاب في وقته و قيل أدلّة التّوحيد و صدق الرّسول و قيل آثار القرون الماضية بالشّام و اليمن، و القول الأوّل أليق بسياق الكلام أي سيأتي ما يسؤوكم إذا دمتم على كفركم.

قال الزّمخشري، فأن قلت لم نهاهم عن الإستعجال مع قوله: **خُلِقَ ٱلْإِنْسٰانُ مِنْ عَجَلٍ**، وقوله: **وَكٰانَ الْإِنْسٰانَ عَجُولاً** أليس هذا من تكاليف ما لا يطاق.

قلت هذا كما ركَّب فيه من الشَّهوة و أمره أن يغلبها لأنّه أعطاه القدرة الّتي يستطيع بها قمع الشَّهوة و ترك العجلة إنتهى.

أقول: الإستعجال طلب الشّئ قبل وقته الّذي حقّه أن يكون فيه دوُن غيره، و العجلة تقديم الشّئ قبل وقته و هو مذموم و لذلك يقال العجلة من الشّيطان، و معنى الآية لا تطلبوا نزول الأيات قبل وقته و أنّما قال ذلك لأنّهم كانوا يطلبونه و قد أراهم اللّه العذاب في الدُّنيا يوم بدر بالقتل و الأسر و فى الأخرة بالخلود في النّار و فى الآية إشارة إلى أنّ لكلّ شيٍ أجلٌ و كتابٌ و هو ممّا لا يخفى على أحدٍ من العقلاء.

وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ

و هذا الكلام الذّي حكاه اللّه عنهم دليلٌ على إستعجالهم فأنّ المراد بالوعد هنا العذاب الّذي وعدهم اللّه على لسان رسوله في صورة بقاءهم على الكفر و العناد فالمعنى **إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ** و محقّين فيما تقولون من نزول العذاب متي يكون ما وعدتموه فقوله: **مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ**، إستفهام على جهة الهزء و كان الرّسول و المسلمون يتّوحدونهم على لسان الشّرع و **مَتَىٰ**، في موضع الجرّ، لهذا، فموضعه رفع.

و نقل عن بعض الكوّفيين أنّ موضعه النَّصب على الظَّرف و تقديره يكون يجئ و العامل فيه مقدّر و جواب، لو، محذوف لدلالة الكلام عليه أي، يعلموا صدق ما وعدوا به من السّاعة و أنّما حذف الجواب لأنّه أبلغ و أهيب من النّص عليه.

و قال بعضهم تقدير الكلام، **لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** الخ، لما إستعجلوا، و قدّره الزّمخشري، لما كانوا بتلك الصّفة من الكفر و الإستهزاء و الإستعجال، و قيل التّقدير، لعلموا صحّة البعث، أو صحّة الموعود.

لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَ لَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ

معناه لو علم الكفّار الوقت الّذي يستعجلون عنه بقولهم: **مَتىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ** و هو وقتٌ صعبٌ شديد تحيط بهم النّار من وراء و قدّام و ليس لهم ناصرٌ و لا معين لما إستعجلوه وكلن جهلهم به هو الّذي هوَّنه عندهم و على هذا، حين، منصوب بمضمر أي حين لا يكفُّون و لا يمنعون عن وجوههم النّار و كذا عن ظهورهم، يعلمون أنّهم كانوا على الباطل و ينتفي عنهم هذا الجهل العظيم و الّذي يظهر من الكلام هو أنّ مفعول، يعلم، محذوف لدلالة ما قبله عليه أي لو يعلم الّذين كفروا مجيئ الموعود الّذي سألوا عنه و إستنبطوه و حين منصوب بالمفعول الّذي هو مجيئ ثمّ أشار اللّه تعالى أنّ الموعود يأتيهم بغتةً.

فقال: **بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ**

أي بل تأتيهم السّاعة و القيامة بغتةً و فجأةً فتبهتهم، أي تحيَّرهم و المبهوت المتَّحير فلا يستطيعون ردّها أي ردَّ السّاعة و معناه لا يقدرون على دفعها، **وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ**، أي و لا هم يؤخّرون إلى وقتٍ أخر.

و قال بعض المفسّرين أنّما ذكر الوجوه من بين الأعضاء لأنّها أشرف ما في الإنسان و محلّ حواسّه و الإنسان أحرص على الدّفاع عنه من غيره من أعضائه ثمّ عطف عليه الظّهور و المراد عموم النّار لجميع أبدانهم و لا أحد يمنعهم من العذاب بل تأتيهم السّاعة بغتةً أي تفجؤهم، و قيل أنّ الضّمير في تأتيهم عائدٌ على النّار في قوله عن وجوههم النّار، و قيل إلى العقوبة و ما ذكرناه من رجوعه إلى السّاعة أو القيامة أولى و قرأ الأعمش بل يأتيهم بالياء بَغَتَةً بفتح الغين، فيَبهتَهم بالياء و الضّمير عائد إلى الوعد أو الحسين ولنعم ما قيل:

ليت شعري إذ القيامة قامت　　　و دعي بالحساب أين المصيرا

و حيث أنّ الإستهزاء بالرُّسل كان ديدن الكفّار في جميع الأزمنة و لم يكن مختّصاً برسولٍ دون رسول قال اللّه تعالى لرسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم.

وَ لَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ

فهذا الكلام في الحقيقة تسلية للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في إستهزاء الكفّار إيّاه و الأخبار بأنّ أتباع الباطل لا يزالون كذلك و قد أخبر اللّه تعالى بذلك في كثيرٍ من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**.

و الأيات كثيرة و يستفاد من جميع الأيات أنّ العذاب ثابت للمستهزئ واقع عليه في الدّنيا و الأخرة و ذلك لأنّ الإستهزاء بالرّسول يرجع إلى إستهزاء الدّين و هو إلى إستهزاء اللّه تعالى و المستهزئ باللّه حاله معلوم.

أقول و هذا الإستهزاء الّذي أشار اللّه تعالى إليه في كتابه بالنّسبة إلى رسله هو الّذي نراه في زماننا هذا بالنّسبة إلى العلماء الّذين هم ورثة الأنبياء ولم يعلموا أنّ العلماء لا ذنب لهم و أنّما هم دعاة إلى اللّه و هكذا الأنبياء و الأوصياء فأنّ جميعهم يدعون النّاس إلى دين اللّه الّذي إرتضاه لهم و حيث أنّ الإستهزاء ضربٌ من الإنكار بل أقبح منه عقلاً فلا جرم حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن.

١- الحجر = ١١
٢- الزّمر = ٤٨
٣- الزّخرف = ٧
- الأنعام = ١٠

و إعلم أنّ الإستهزاء داخل في اللّعب و اللّهو و لذلك لا يصحّ من اللّه تعالى في الحقيقة لتّنزهه عنهما فقوله تعالىٰ: **اَللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ**(١) معناه يجازيهم جزاء الهزؤ أي أمهلهم مدّة ثمّ أخذهم مغافصة فسّمى له أيّاهم إستهزاءً من حيث أنّهم إغترّوا به إغترارهم بالهزؤ فيكون ذلك كالإستدراج من حيث لا يعلمون، أو لأنّهم إستهزؤا فعرف اللّه ذلك منهم فصار كأنّه يهزأ بهم كما قيل من خدعك و فطنت له ولم تعرّفه فإحترزت منه فقد خدعته.

و قد روي أنّ المستهزئين في الدّنيا، يفتح لهم باب الجنّة فيسرعون نحوه فإذا إنتهوا اليه سدّ عليهم و على هذه الوجوه:

قال اللّه تعالىٰ: **سَخِرَ اَللّٰهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَالْيَوْمَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ اَلْكُفّٰارِ يَضْحَكُونَ**(٣).

و بما ذكرناه يُعلم معنىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اَللّٰهُ وَ اَللّٰهُ خَيْرُ اَلْمٰاكِرِينَ**(٤).

أي يجازيهم علىٰ مَكرهم و قد مرّ الكلام فيه فيما مضىٰ

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ اَلنَّهٰارِ مِنَ اَلرَّحْمٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ

ثمّ أمر اللّه نبيّه أن يسألهم من الّذي يحفظكم في أوقاتكم من بأس اللّه و هو إستفهام تقريع و توبيخ و فى آخر الكلام تقدير محذوف كأنّه ليس لهم مانع و لا كالئ و على هذا النّفي تركيب، بل، في قوله: **بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ**.

١- البقرة = ١٥
٢- التّوبة = ٧٩
٣- المطففين = ٣٤
٤- آل عمران = ٥٤

و قال الزّمخشري بل هم معرضون عن ذكره لا يخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه حتّى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالئ و صلحوا للسؤال عنه و المراد أنّه تعالى أمر رسوله بسؤالهم عن الكالئ و الحافظ ثمّ بيّن لهم أنّهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم إنتهى.

أقول معنىٰ الآية ظاهر لا خفاء فيه و هو أنّ اللّه تعالى أمر نبيّه أن يسألهم من يحفظكم باللّيل و النّهار أي في اللّيل و النّهار من الرّحمن أي من عذاب الرّحمن.

و أمّا قوله: **بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ** فكأنّه قال ما يلتفتون الى شئ من المواعظ بل هم عن ذكر ربّهم معرضون، أو أنّهم لا يلتفتون الى أنّ اللّه هو الّذي يحفظهم عن الآفات والبليّات و ذلك لأنّهم أعرضوا عن ذكر ربّهم و قيل معنى الكلام، من يحفظكم ممّايريد اللّه إحلاله بكم من عقوبات الدُّنيا و الأخرة ثم قال اللّه تعالى على وجه التَّوبيخ لهم و التَّقريع:

أَمْ لَهُمْ اٰلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنٰا لاٰ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لاٰ هُمْ مِنّٰا يُصْحَبُونَ

و المعنىٰ، أم لهم آلةٌ تمنعهم، من عذابنا و عقوباتنا، من دوننا، ثمّ أخبر أنّهم، أي آلهتم، لا يقدرون على نصر أنفسهم فكيف يقدرون على نصر غيرهم، و قيل أنّ الكفّار لا يستطيعون نصر أنفسهم، أي لا يقدرون على دفع ما ينزل بهم عن نفوسهم و لا هم منّا يصحبون، معناه لا يصحبهم صاحب يمنعهم منّا، و قيل و لا هم منّا يصحبون، بأن يجيرهم مجيرٌ علينا.

و قال قتادة معناه، و لا هم منّا يصحبون، بخيرٍ هكذا قيل في تفسير الآية.

و الظّاهر أنّ، أم، بمعنى، بَ، و الهَمزة كأنّه قيل، بل ألهشم آلهة فاضرب ثمّ إستفهم تمنعهم من العذاب فالمعنى، ألهم آلهةٌ تجعلهم في منعةٍ و عزٍّ من ان

ينالهم مكروهٌ من جهتنا، و قال إبن عبّاس في الكلام تقديم و تأخير تقديره أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم ثمّ إستأنف الإخبار عن آلهتهم فبيَّن أنّ ما ليس بقادرٍ على نفسه و منعها و لا بمصحوب من اللّه بالنَّصر وا لتّأييد كيف يمنع غيره و ينصره ثمّ قال يصحبون أي يمنعون و قال مجاهد ينصرون إنتهى.

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَآءِ وَ ءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ

هؤلاء، إشارة الى المخاطبين قيل و هم كفّار قريش و من إتّخذ آلهة من دون اللّه أخبر اللّه تعالى في الآية أنّه متّع هؤلاء الكفّار و آباءهم من قبلهم بما رزقهم من حطام الدُّنيا حتّى طالت أعمارهم في رخاءٍ و نعمةٍ و تدّعوا في الضّلالة بإمهالهم و تأخيرهم الى الوقت الّذي يأخذهم فيه فحسبوا أن لا يزالوا علىٰ ذلك لا يغلبون و لا ينزع عنهم ثوب آفتهم و إستماعهم و إقتدّت بهم أيّام الرّوح و الطمّأنينة ولم يعلموا أنّ ذلك طمعٌ فارغ و أملٌ كاذب ثمّ قال تعالىٰ: **أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ**.

قال الزّمخشري أي ننقص أرض الكفر و دار الحرب و نحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها و إظهارهم على أهلها و ردّها دار إسلامٍ.

فأن قلت أيّ فائدةٍ في قوله: **نَأْتِى ٱلْأَرْضَ**.

قُلت الفائدة فيه تصوير ما كان اللّه يجريه على أيدي المسلمين و أنّ عساكرهم و سراياهم تغزوا أرض المشركين و تأتيها غالبةٌ عليها ناقصةٌ من أطرافها إنتهى كلامه.

و قال بعض المفسّرين في معنى الكلام، أي ننقصها بسبب خرابها، بموت أهلها، و قيل بموت العلماء، و قوله: **أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ** فهو إستفهام فيه تقريع و توبيخ حيث لم يعتبروا بما يجري عليهم.

و قال الرّازي في تفسير النّقصان وجوه:

أحدها: قال إبن عبّاس و مقاتل والكلبي ننقصها بفتح البلدان.

و قال إبن عبّاس في روايةٍ أخرى يريد نقصان أهلها و بركتها.

ثالثها: قال عكرمة تخريب القرى عند موت أهلها.

رابعها: بموت العُماء الى أن قال فالأظهر من الأقاويل ما يتعلّق بالغلبة فلذلك فال **أَفَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ** و الّذي يليق بذلك أنّه ينقصها عنهم و يزيدها في بلاد الإسلام قال القفال نزلت هذه الآية في كفّار مكّة فكيف يدخل فيها العلماء و الفقهاء فبيَّن تعالى أنّ كلّ ذلك من العبر الّتي لو إستعملوا عقلهم فيها لأعرضوا عن جهلهم إنتهى.

أقول قال اللّه تعالى في سورة الرَّعد:

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنْقُصُهٰا مِنْ أَطْرٰافِهٰا وَ ٱللّٰهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسٰابِ[1].

و قد تكلّمنا حول الآية هناك بقدر فهمنا و إستطاعتنا و نزيدك ها هنا أنّه لا يبعد أن يكون المراد بنقص الأرض نقص بركاتها و ثمارها أو نقصها بجور ولاتها، و ذلك لأنّ المعاصي و الظّلم و الشّرك باللّه توجب زوال البركات قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا** و زوال البركات من الأرض هو نقصها بلا كلام و اللّه أعلم بما أراد منه و قوله: **أَفَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ** فيه إشارة الى ضعف الإنسان و أنّه مغلوبٌ في جنب الحقّ و هو ظاهر.

جزء ١٧

قُلْ إِنَّمآ أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعٰآءَ إِذٰا ما يُنْذَرُونَ

ثمّ أخبر اللّه تعالى أنّهم أي الكفّار مع إنذارهم بواسطة النّبي معرضون عمّا أنذروا به فالإنذار لا يجديهم فقال مخاطباً لنبيّه قل لهم يا محمّد أنّما أنذركم

١- الرّعد = ٤١

بسبب الوحي من اللّه تعالى لا من قبل نفسي و مع ذلك لا ينفعكم النُّصح كما لا ينفع النّداء الصُّم و هو الّذي لا يسمع الصَّوت شبَّههم اللّه تعالى بالصُّم الّذين لا يسمعون النّداء إذا نودوا مجازاً و توّسعاً مع أنّهم لم يكونوا كذلك واقعاً بل كانوا يقدرون على السَّماع و الإستماع و وجه الشُّبه ظاهرٌ فأنّ السّامع إذا لم ينتفع بسماعه فهو كمن لا يسمع و قد عبَّر اللّه تعالى عن هؤلاء بالصَّم في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِنَا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَاتِ**(۳).

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**(۵).

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتىٰ وَ لا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**(۶).

و الأيات كثيرة و حاصل الكلام هو أنّ من يسمع و لا ينتفع بسماعه بمعنى عدم ترتيب الآثار عليه فهو خارج عن طور الإنسانية و داخل في صنف الحيوانات بل الجمادات و منشأ ذلك قد يكون الجهل كما في أكثر العوام يكون العناد و اللّجاج كما في أكثر الخَّواص و من زعم أنّ السَّبب في ذلك هو الجَّهل في جميع الموارد فقد أخطأ فأنّ العالم أيضاً قد يكون كذلك فأنّ أكثر النّاس عبيد الدّنيا، و الدّين شقٌّ على ألسنتهم فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الدَّيانون و لنعم ما قيل:

۱- البقرة = ۱۸
۲- البقرة = ۱۷۱
۳- الأنعام = ۳۹
۴- يونس = ۴۲
۵- الأنفال = ۲۲
۶- الرّوم = ۵۲، النّمل = ۸۰

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي

و قد حكى اللّه تعالى ذلك في جميع الأنبياء في كتابه بألفاظٍ مختلفة متفاوتة تصريحاً أو كنايةً و الحاصل أنّ اللّجاج و العناد و عدم قبول الحّق لم يكن مختّصاً بكُفّار مكّة بل كان عامّاً شاملاً لجميع الكفّار في جميع الأزمنة و الآن أيضاً كذلك و السِّر فيه ما ذكرناه من أنّ النّاس عبيد الدّنيا فكُّل كلامٍ من أيّ شخصٍ صدر إذا كان على خلاف أميالهم و شهواتهم النّفسانية مانعاً عن وصولهم الى ما يشتهون لا يقبلونه و قد حكى اللّه تعالى عن صالح النّبي عليه السلام فقال:

فَتَوَلّٰى عَنْهُمْ وَ قٰالَ يٰا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسٰالَةَ رَبِّى وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لٰكِنْ لاٰ تُحِبُّونَ ٱلنّٰاصِحِينَ(١).

و فى حكاية عن شعيب النّبى:

قال اللّه تعالى: **فَتَوَلّٰى عَنْهُمْ وَ قٰالَ يٰا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسىٰ عَلىٰ قَوْمٍ كٰافِرِينَ**(٢).

و فى حكاية عن نُوح النّبى:

قال اللّه تعالى: **أُبَلِّغُكُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّى وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ ٱللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ**(٣).

قال اللّه تعالى: **وَ لاٰ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ**(٤).

و فى حقّ الجميع:

قال اللّه تعالى: **تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنٰآ إِلىٰٓ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ**(٥).

١- الأعراف = ٧٩
٢- الأعراف = ٩٣
٣- الأعراف = ٦٢
٤- هُود = ٣٤
٥- النّحل = ٦٣

قال اللّـه تـعالىٰ: **فَلَمّا جآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**(١) والآيات في الباب كثيرة جدّاً.

وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنآ إِنّا كُنّا ظالِمينَ

المسّ بفتح الميم و سكون السّين مصدر كاللمَّس لكّن للمَّس قد يقال لطلب الشّئ و أن لم يوجد كما قال الشّاعر: و المس فـلا أجـده، و المَّس يـقال فـيما يكون معه إدراك حاسَّة اللَّمس و كنّي به عن النَّكاح فقيل مسَّها و ما مسَّها:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **أَنّى يَكُونُ لي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْني بَشَرٌ**(٣).

والمراد بالمَّس في الآية هو معناه اللّغوي و من قبيل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَليمٌ**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ إِلّآ أَيّامًا مَعْدُوداتٍ**(۵).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّارُ**(۶).

و أمّا **النَّفحَة** بفتح النّون و سكون الفاء و فتح الحاء فقيل هي الدّفعة اليسيرة يقال نفح ينفح نفحاً فهو نافح و المعنى لو لحقهم و أصابهم دفـعة يسيرة مـن عذاب ربّك، ليقولّن هؤلاء الكفّار يا ويلنا، أي الهـلاك عـلينا، أنّـا كـنّا ظـالمين لنفوسنا بإرتكاب المعاصي إعترافاً منهم بذلك و الحاصل أنّ اللّـه تـعالى أخبر في هذه الآية بأنّ هؤلاء الذّين صمّوا عن سماع ما أنذروا به إذا نالهم شئ ممّا أنذروا به ولو كان يسيراً نادوا بالهلاك و أقرُّوا بأنّهم كانوا ظالمين ففي الحقيقة نبّهوا على العلّة التّي أو سبب لهم العذاب و هو ظلم الكفر ففي قـوله: **وَ لَـئِنْ**

١- غافر = ٨٣
٢- البقرة = ٢٣٧
٣- آل عُمران = ۴٧
۴- الأعراف = ٧٣
۵- آل عمران = ٢۴
۶- هُود = ١١٣

مَسَّتْهُمْ ثلاث مبالغات، لفظ المَّس، و ما في مدلول النَّفح من القلّة إذ هو الرّيح اليسير أو ما يرضح من العطيّة، و بناء المَّرة منه ولم يأت نفح فالمعنى أنّهم بأدنى من أقلّ العذاب أذعنوا و خضعوا و أقرُّوا بأنّ سبب ذلك ظلمهم السّابق و لمّا ذكر حالهم السّابق في الدُّنيا و أنّهم كانوا ظالمين فيها بإعراضهم عن الحقّ أشار إلى عدله و أسند ذلك إلى نفسه بنُون العظمة.

وَ نَضَعُ ٱلْمَوازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى بِنا حاسِبِينَ

الوزن معرفة قدر الشّئ و زينة وزناً و المتعارف في الوزن عند العامّة ما يقدّر بالقسط و القبّان:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزانَ**(٢).

والمِيزان بكسر الميم ألة الوزن فهو إسمٌ ألة و أصله الموازن بالواو فأبدلت الواو ياء لكسرة ما قبلها و لذلك يجمع على الموازين ثمّ أنّ الميزان كما يكون في المحسوسات كذلك يكون في المعقولات فأنّ الميزان في كلّ شيءٍ بحسبه فكما يوزن الشّعير و الحنطة و غيرهما من الأجناس بالميزان المحسوس كذلك توزن الأفعال و الأقوال بالميزان المعقول.

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ ٱلْكِتابَ وَ ٱلْمِيزانَ لِيَقُومَ ٱلنّاسُ بِالْقِسْطِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنْ ثَقُلَتْ موازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**(۴).

١- الإسراء = ٣۵
٢- الرّحمٰن = ٩
٣- الحديد = ٢۵
۴- الأعراف = ٨

قال اللّه تعالیٰ: **وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ**[1].

فالمراد بالميزان في هذه الأيات ونظائرها هو الميزان العقلي و قد ورد في زيارة أميرالمؤمنين (السّلام على ميزان الأعمال) و ذلك لأنّ قبول الأعمال و عدمه يدور مدار ولاية علّي عليه‌السلام و عدمها كما وردت به الأخبار و كيف كان فالميزان يوم القيامة إشارة إلى العدل في محاسبة النّاس.

قال بعضهم و ذكر في مواضع من الكتاب الميزان بلفظ الواحد إعتباراً بالمحاسب، و فى مواضع بلفظ الجمع إعتباراً بالمحاسبين، و قوله: **لِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ**، معناه لأهل يوم القيامة و قيل معناه في يوم القيامة، و قوله: **وَ إِنْ كٰانَ مِثْقٰالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ** إلیٰ قوله: **حٰاسِبِينَ**، ففيه إشارة إلى أنّه لا يضيع لديه قليل الأعمال و المجازاة عليه طاعةً كانت أو معصية و كفى المطيع أو العاصي بمجازاة اللّه و حسبه ذلك و فى ذلك غاية التّهديد كما لا يخفى و الضّمير في قوله: **بِهٰا** يرجع إلى المثقال أي أتينا بالمثقال و أنّما قال، بها، بلفظ التّأنيث مع أنّ المثقال مذّكر، لأنّ مثقال الحبَّة وزنها و مثله قراءة الحسن (تلتقطه بعض السّيارة) لأنّ بعض السّيارة سيّارة.

و قال الزّمخشري و أنّث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبَّة كقولهم ذهبت بعض أصابعه و إعلم أنّهم إختلفوا في المراد بالميزان فقال الطّبرسي قدس‌سره فيه أقوال:

أحدها: أنّ الوزن عبارة عن العدل في الأخرة و أنّه لا ظلم فيها على أحدٍ.

ثانيها: أنّ اللّه ينصب ميزاناً له لسان و كفّتان يوم القيامة فتوزن به أعمال العباد الحسنات و السّيئات عن إبن عبّاس و الحسن و به قال الجبائي و إختلفوا في كيفيّة الوزن لأنّ الأعمال أعراض لا تجوز عليها الإعادة و لا يكون لها وزن و لا تقوم بأنفسها فقيل توزن صحائف الأعمال عن إبن عمر و جماعة.

۱- الاعراف = ۹

و قيل تظهر علامات للحسنات و علامات للسّيئات في الكفّتان فتراها النّاس عن الجبائي.

و قيل تظهر للحسنات صورة حسنة و للسّيئات صورة سيّئة عن إبن عبّاس.

و قيل توزن نفس المؤمن و الكافر عن عبيد بن عمير.

قال يؤتى بالرّجل العظيم الجثّة فلا يزن جناح بعوضة.

ثالثها: أنّ المراد بالوزن ظهور مقدار المؤمن في العظيم و مقدار الكافر في الذّلة كما قال سبحانه: **فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا**(١) فمن أتى بالعمل الصّالح الذّي يثقل وزنه أي لعظيم قدره فقد أفلح و من أتى بالعمل السّيئ الذّي لا وزن له و لا قيمة فقد خسر فمن ثقلت موازينه أنّما جمع الموازين لأنّه يجوز أن يكون الكلّ نوع من أنواع الطّاعات يوم القيامة ميزان و يجوز أن يكون كلّ ميزان صنفاً من أصناف أعماله و يؤيّد هذا ما جاء في الخبر أنّ الصّلاة ميزان فمن و فى إستوفى هذا.

و قال بعضهم أنّ المراد من الميزان العدل و القضاء وكثير من المتأخرين ذهبوا إلى هذا القول أمّا بيان أنّ حمل لفظ الوزن على هذا المعنى جائز في اللّغة، فلأنّ العدل في الأخذ و الإعطاء لا يظهر إلاّ بالكيل و الوزن في الدنيا فَلَم يبعد جعل الوزن كناية عن العدل ألا ترى أنّ الرّجل إذا لم يكن له قدر و لا قيمة عند غيره فقال أنّ فلاناً لا يقيم لفلان وزناً قال تعالى فلا نقيم له يوم القيامة وزناً، قال الشّاعر:

قد كنت قبل لقاءكم ذا قوّةٍ عندي لكلّ مخاصمٍ ميزانه

أراد عندي لكلّ مخاصمٍ كلام يعادل كلامه فجعل الوزن مثلاً للعدل قالوا و على هذا يجب أن يكون المراد من الآية هذا المعنى فقط و الدّليل عليه أنّ الميزان أنّما يراد ليتّوصل به إلى معرفة مقدار الشّيئ و مقادير الثّواب و العقاب

١- الكهف = ١٠٥

لا يمكن إظهارها بالميزان لأنّ أعمال العباد أعراض و قد فنيت و عدمت و وزن المعدوم محال و أيضاً فتقدير بقاءها كان وزنها محالاً.

أقول قد أطالوا الكلام في المقام في معنى الميزان و كيفيّة وزن الأعمال بما لا فائدة في نقلها و من أراد الإطّلاع عليها فعليه بمراجعة التّفاسير و الذّي يظهر من الأخبار هو أنّ الميزان كناية عن العدل.

روي هشام بن الحكم أنه سأل الزّنديق أبا عبد اللّه فقال أو ليس توزن الأعمال قال عليه السلام لا، لأنّ الأعمال ليست بأجسامٍ و أنما هي صفة ما عملوا و أنّما يحتاج إلىٰ وزن الشّيء من جهل عدد الأشياء و لا يعرف ثقلها و خفّتها و أنّ اللّه لا يخفى عليه شيء قال فما معنى الميزان قال عليه السلام العدل قال فما معناه في كتابه، **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ**، قال عليه السلام فمن رجَّح عمله الخبر.

و عن كتاب التّوحيد عن عليٍ عليه السلام و قد سأله رجل عمّا إشتبه عليه من الأيات و أمّا قوله تعالى و نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً فهو ميزان العدل يؤخذ به الخلائق يوم القيامة يدين اللّه تعالى الخلق بعضهم من بعض بالموازين إنتهى.

و في بعض الأخبار أنّ المراد بالموازين هم الأنبياء و الأوصياء.

فعن أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله تعالىٰ: وَ نَضَعُ ٱلْمَوٰازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ قال عليه السلام الأنبياء والأوصياء عليهم السّلام إنتهىٰ.

و قد ورد في زيارة أميرالمؤمنين عليه السلام (السّلام على ميزان الأعمال) أنّ الأعمال توزن يوم القيامة بميزان الولاية.

و ليعلم أنّ أهل الشّرك لا تنصب لهم الموازين و لا تنشر لهم الدّواوين لأهل الإسلام و قد صرَّحت الأخبار به.

قال الشّيخ المفيد﷫: الحساب هو المقابلة بين الأعمال و الجزاء عليها و الموافقة للعبد على ما فرط منه و التّوبيخ على سيّئاته و الحمد على حسناته و معاملته في ذلك بإستحقاقه وليس كما هو ذهب العّامة اليه من مقابلة الحسنات بالسيّئات و الموازنة بينهما على حسب إستحقاق الثّواب و العقاب عليها إذ كان التّحابط بين الأعمال غير صحيح و مذهب المعتزلة فيه باطلٌ غير ثابت و ما يعتمد الحشّوية في معناه غير معقول و الموازين هي التّعديل بين الأعمال و الجزاء عليها و وضع كلّ جزاءٍ في موضعه و إيصال كلّ ذي حقٍّ الىٰ حقه فليس الأمر في معنى ذلك على ما ذهب اليه أهل الحشو من أنّ في القيامة موازين كموازين الدُّنيا لكلّ ميزان كفتّان توضع الأعمال فيها إذ الأعمال أعراض و الأعراض لا يصحظ وزنها و أنّما توصف بالثّقل و الخفّة على وجه المجاز و المراد بذلك أنّ ما ثقل منها هو ما كثر و إستَّحق عليه عظيم الثّواب خفَّ منها ما قلّ قدره ولم يستَّحق عليه جزيل الثّواب و الخبر الوارد أنّ أميرالمؤمنين والأئمة من ذريّته عليهم السّلام الموازين فالمراد أنّهم المعدِّلون بين الأعمال فيما يستّحق عليها و الحاكمون فيها بالواجب و العدل.

و يقال فلان عندي في ميزان فلان و يراد به نظيره و قال كلام فلان لو وزن من كلام فلان و المراد به أنّ كلامه أعظم و أفضل قدراً و الّذي ذكره اللّه تعالى في الحساب و الخوف منه أنّما هو الموافقة على الأعمال لأنّ من وقف على أعماله لم يتَّخلص من تبعاتها و من عفي اللّه تعالى عنه في ذلك فاز بالنّجاة و من ثقلت موازينه بكثرة إستّحقاقه الثّواب فأولئك هم المفلحون و من خفّت موارينه بقلّة أعمال الطّاعات فأولئك الّذين خسروا أنفسهم في جهنّم خالدون و القرآن أنّما أنزل بلغّة العرب و حقيقة كلامها و مجازه ولم ينزل على ألفاظ العاّمة و ما سبق الى قلوبها من الأباطيل إنتهى كلامه رفع مقامه.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ إِنْ كٰانَ مِثْقٰالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنٰا بِهٰا وَ كَفىٰ بِنٰا حٰاسِبِينَ** فهو إشارة الى أنّ اللّه تعالى لا يضيع عمل عاملٍ و إن كان قليلاً كما هو مقتضى العدل و إذا كان كذلك فهو تعالى يكفي في الحساب و لا يحتاج الى غيره كما لا يحتاج الى غيره في الخلق و الإيجاد فكما أنّ اللّه تعالى خلقهم يحاسبهم و هذا ممّا لا كلام فيه مضافاً الى أنّه واجب الوجود و الإحتياج مساوق للإمكان فلو إحتاج الى غيره كان ممكناً و كلّ ممكنٍ مخلوق لغيره و هذا كما يرى ينافي الوجوب كما ثبت في محلّه.

■

وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰا مُوسٰى وَ هٰرُونَ ٱلْفُرْقٰانَ وَ ضِيٰآءً وَ
ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ
وَ هُمْ مِنَ ٱلسّٰاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَ هٰذٰا ذِكْرٌ
مُبٰارَكٌ أَنْزَلْنٰاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٥٠﴾ وَ لَقَدْ
اٰتَيْنٰآ إِبْرٰاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنّٰا بِهِ عٰالِمِينَ
﴿٥١﴾ إِذْ قٰالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مٰا هٰذِهِ ٱلتَّمٰاثِيلُ ٱلَّتِيٓ
أَنْتُمْ لَهٰا عٰاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قٰالُوا وَجَدْنٰآ اٰبٰآءَنٰا لَهٰا
عٰابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قٰالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ اٰبٰآؤُكُمْ فِي
ضَلٰالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قٰالُوٓا أَجِئْتَنٰا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ
ٱللّٰاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قٰالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ
ٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلٰى ذٰلِكُمْ مِنَ
ٱلشّٰاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَ تَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنٰامَكُمْ بَعْدَ
أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذٰاذًا إِلّٰا كَبِيرًا
لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قٰالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذٰا
بِاٰلِهَتِنٰآ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلظّٰالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قٰالُوا سَمِعْنٰا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقٰالُ لَهُ إِبْرٰاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قٰالُوا فَأْتُوا بِهِ
عَلٰىٓ أَعْيُنِ ٱلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قٰالُوٓا
ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذٰا بِاٰلِهَتِنٰا يٰآ إِبْرٰاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قٰالَ بَلْ
فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذٰا فَاسْئَلُوهُمْ إِنْ كٰانُوا يَنْطِقُونَ
﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا إِلٰىٓ أَنْفُسِهِمْ فَقٰالُوٓا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ
ٱلظّٰالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلٰى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ
عَلِمْتَ مٰا هٰٓؤُلٰآءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قٰالَ أَفَتَعْبُدُونَ

مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَ لاٰ يَضُرُّكُمْ
﴿۶۶﴾ أُفٍّ لَكُمْ وَ لِمٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَفَلاٰ
تَعْقِلُونَ ﴿۶۷﴾ قٰالُوا حَرِّقُوهُ وَ ٱنْصُرُوٓا اٰلِهَتَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ ﴿۶۸﴾ قُلْنٰا يٰا نٰارُكُونِي بَرْدًا وَ سَلاٰمًا
عَلٰىٓ إِبْرٰاهِيمَ ﴿۶۹﴾ وَ أَرٰادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنٰاهُمُ
ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿۷۰﴾

◀ اللّغة

ٱلْفُرْقٰانَ: بضّم الفاء مصدر، كلّ ما فرّق به بين الحقّ و الباطل و فى الحديث الفرقان المحكم الواجب العمل به و القرآن جملة الكتاب.

ضِيٰآءً: الضّياء الضّوء و الفرق بين الضّياء و النّور هو أنّ الضّياء ما كان من ذات الشّئ كالشّمس، و النّور ما كان مكتسباً من غيره كإشتنارة الجردان بالشّمس.

مُشْفِقُونَ: أي خائفون.

عٰاكِفُونَ: العكوف اللّزوم لأمر من الأمور.

ٱللاّٰعِبِينَ: اللّعب المزاح جُذٰاذًا بضّم الجيم و فتحها و كسرها، المكّسر، ما تكّسر من الشّئ يقال عندي، جذاذات من الفضّة أي قراضات منها.

نُكِسُوا: يقال نكس رأسه طأطأه من ذلٍّ.

أُفٍّ: بضّم الألف إسم فعلٍ بمعنى أتّجر و أتّكره.

◀ الإعراب

وَ ضِيٰآءً قيل دخلت الواو علىٰ الصّفة كما تقول مررت بزيد الكريم و العالم فعلى هذا يكون حالاً أي الفرقان مضيئاً و قيل هي عاطفة أي أتيناه ثلاثة

أشياء، الفرقان، و الضّياء، و الذّكر ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ في موضع جرّ على الصّفة أو نصب بإضمارٍ أعني، أو رفع على إضمارهم وبِـالْغَيْبِ حال إِذْ قَالَ ظرف، لعالمين، أو لرشده، أو لأتينا و يجوز أن يكون بدلاً من موضع، من قبل، و أن ينتصب بإضمار، أعني، أو بإضمار، أذكر، لَهَا عَاكِفُونَ، قيل اللاّم بمعنى على، و قيل أفادت معنى الإختصاص جُذَاذًا يقرأ بالفتح و الضَّم و الكسر و هى لغات و قيل الضَّم على أنّ واحدة جذاذة والكس على أنّ واحده جذاذة بالكسر و الفتح على المصدر كالحصاد و التّقدير ذوي جذاذ و يقرأ بضّم الجيم من غير ألف و واحده جذّه كقبّة و قبب مَنْ فَعَلَ هَـٰذَا يجوز أن يكون، من، إستفهاماً و عليه فيكون إِنَّهُ إستئنافاً و يجوز أن يكون بمعنى، الذّي، فيكون إِنَّهُ و ما بعده الخبر يَذْكُرُهُمْ مفعول ثانٍ، لسمعنا، و لا يكون ذلك إلاّ مسموعاً كقولك سمعت زيداً يقول كذا و المعنى سمعت قول زيد ويُقَالُ صفة و يجوز أن يكون حالاًإرتفاع إِبْرَاهِيمُ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه خبر مبتدأ محذوف أي هذا و هذا، و قيل هو مبتدأ و الخبر محذوف أي إبراهيم فاعل ذلك و الجملة محكيّة مَحْكِيَّة.

الثّاني: هو منادىٰ مفرد فضّمته بناء أي أنّه مبنّيٌ على الضَّم.

الثّالث: هو مفعول ويُقَالُ لأنّ المعنى يذكر إبراهيم في تسمّيته فالمراد الإسم لا المسّمىٰ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ في موضع الحال أية على رؤيتهم أي ظاهراً لهم بَلْ فَعَلَهُ الفاعل كَبِيرُهُمْ هذا، وصفٌ أو بدل و قيل الوقف على فَعَله و الفاعل محذوف أي فعله من فعله و هذا بعيد لأنّ حذف الفاعل لا يسوغ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ متَّعلقٌ بنكسوا و يجوز أن يكون حالاً فيتعلّق.

بمحذُوف مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ الجملة تسّد مسّد مفعولي علمت كقوله و ظنُّوا ما لهم من محيصٍ، و شَيْئًا في موضع مصدر أي نفعاً أُفٍّ لَكُمْ أي أتَّضجر و أتّكره لكم من فعلكم هذا بَرْدًاأى ذات بردٍ و (علىٰ) يتعلّق بسلامٍ أو على صفة له و الباقي واضح لا خفاء فيه.

◀ التّفسير

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى‏ وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ.

قال مجاهد و قتادة هو التّوراة الّتي تفّرق بين الحقّ و الباطل و به قال أكثر المفسّرين و قال إبن زيد هو البرهان الذّي فرق به حقّه و باطل فرعون كما قال تعالى: **وَ ما أَنْزَلْنا عَلى‏ عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ**[1] قوله وضياءً اى و أتيناه ضياءً يعني أدلّة يهتدون بها كما يهتدون بالضّياء **وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ** أي و أتيناه ذكراً أي مذّكراً لهم يذكرون اللّه به و من جعل الضّياء و الذّكر حالاً للفرقان، قال دخلته واو العطف لإختلاف الأحوال كقولك جائني زيد الجواد و الحليم و العالم و إضفة إلى المتّقين لأنّـهم المشفقون بـه دون غيرهم و قال بعضهم الفرقان التّوراة و هو الضّياء و الذّكر أي كتاباً هو فرقانٌ و ضياءٌ و ذكرٌ يدلّ على هذا المعنى قراءة إبن عبّاس و عكرمة و الضّحاك ضياء و ذكر بغير واو في ضياءً.

و قال قوم الضّياء التّوراة و الذّكر التّذكر و الموعظة أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم و مصالحهم و العطف بالواو يؤذن بالتّغاير.

و عن إبن عبّاس الفرقان الفتح لقوله يوم الفرقان، و عن الضّحاك هو فلق البحر و عن إبن كعب المخرج من الشُّبهات و قال إبن زيد الفرقان هنا هو النّصر على الأعداء و دليله قوله تعالى: **وَ ما أَنْزَلْنا عَلى‏ عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ** يعني يوم بدر.

قال الثّعلبي هذا القول أشبه بظاهر الآية لدخول الواو في ضياء فيكون معنى الآية و لقد أتينا موسى و هارون النّصر و التّوراة التّي هي الضّياء و الذّكر

أقول ما ذكروه لا بأس به فأنّ المرجع و المأل في جميع الأقوال واحد كون الشّئ فارقاً بين الحقّ و الباطل و من المعلوم أنّ مصاديقه كثيرة متفاوتة واضح.

۱- الانفال = ۴۱

ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ

ثمّ وصف المتّقين بأنّهم يخشون ربّهم بالغيب.

و قال في المفردات الخشية خوف يشوبه تعظيم و أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه و لذلك خصّ العلماء بها في قوله تعالى: **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا**[۱] إنتهى.

و أمّا الغيب فقال الجبائي معناه يؤمنون بالغيب الّذي أخبرهم به و هم من مجازاة يوم القيامة مشفقون أي خائفون إنتهى.

و عليه فالمراد بالسّاعة القيامة و الإشفاق هو الخوف و قال الجمهور من العامّة معناه يخافونه ولم يروه و قال الزّجاج يخافونه من حيث لا يراهم أحد.

و قال بعضهم معناه يخافونه إذا غابوا عن أعين النّاس و الإشفاق شدّة الخوف.

و قال القرطبي في قوله **بِالْغَيْبِ** أي غائبين لأنّهم لم يروا اللّه تعالى بل عرفوه بالنّظر و الإستدلال فعلموا أنّ لهم ربّاً يجازي على الأعمال فهم يخشونه في سرائرهم و خلواتهم التّي يغيبون فيها عن النّاس و هم من السّاعة أي من قيامها قبل التّوبة مشفقون أي خائفون وجلون.

و قال الرّازي في معنى الغيب وجوه:

أحدها: يخشون عذاب ربّهم فيأتمرون بأوامره و ينتهون عن نواهيه و إيمانهم باللّه يسمّىٰ إستدلالّي فالعباد يعملون للّه في الغيب و اللّه لا يغيب عنه شيئ عن إبن عبّاس رضي الله عنه.

ثانيها: يخشون ربّهم و هم غائبون عن الأخرة و أحكامها.

ثالثها: يخشون ربّهم في الخلوات إذا غابوا عن النّاس و هذا الأقرب و المعنى أنّ خشيتهم من عقاب اللّه لازم لقلوبهم إلاّ أنّ ذلك ممّا يظهرونه في

۱- فاطر = ۲۸

الملأ دون الخلأ و هم من عذاب السّاعة و سائر ما يجري فيها من الحساب و السّؤال مشفقون فعدلون بسبب ذلك الإشفاق عن معصية اللّه إنتهى.

أقول: قلنا الخشية خوفٌ يشوبه تعظيم و بهذا يفرق بينهما و بين الخوف و من المعلوم أنّ المتّقين لمّا عرفوا اللّه ملئت من عظمته قلوبهم فلا يخشون بهذا إلاّ اللّه و إذا كان كذلك فهم من السّاعة أيضاً مشفقون ثمّ أنّ اللّه تعالىٰ أخبر عن القرآن.

وَ هٰذٰا ذِكْرٌ مُبٰارَكٌ أَنْزَلْنٰاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ

و المشار إليه هو القرآن أي هذا القرآن و ذكرٌ مبارك أمّا أنّه ذكرٌ فلا خفاء منه سواء أريد من الذِّكر ذكر اللّساني أم ذكر القلبي و أمّا كونه مباركاً فلأنّ منافعه كثيرة جدّاً لمن كان أهلاًله و الهمزة في قوله، إمّا **أَفَأَنْتُمْ** للإستفهام الإنكاري أي لا ينبغي إنكاره و إمّا للتّوبيخ أي كيف ينكرون هذا و قد علمتم واقعاً أنّا أنزلناه على محمّدٍ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما أنزلنا التّوراة و الإنجيل على موسى و عيسى و كيف كان فيه تسليةٌ للرّسول إذ أنكر ذلك المشركون كما أنكر أسلاف اليهود ما أنزل اللّه على موسى و عيسى و فيه أشار إلى أنّ هذا ليس أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام فأنّ كثيراً من النّاس ينكرون بألسنتهم ما هو ثابتٌ في قلوبهم كما أنّهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وَ لَقَدْ آتَيْنٰا إِبْرٰاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنّٰا بِهِ عٰالِمِينَ

الرُّشد هو الحقّ الّذي يؤدّي إلى نفع يدعو إليه و نقيضه الغّي.

قال قتادة و مجاهد معنى **آتَيْنٰا إِبْرٰاهِيمَ رُشْدَهُ** هديناه صغيراً و قال قومٌ المراد به النُّبوة و قوله من قبل يعني من قبل موسى و هارون و قوله: **كُنّٰا بِهِ عٰالِمِينَ** أي كنّا به عالمين بأنّه موضعٌ لإيتاء الرُّشد و قيل معناه كنّا نعلم أنّه يصلح للنّبوة.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ

قد مرَّ الكلام سابقاً عند قوله تعالىٰ: **وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً**[1] أنّ أزر كان عمّ إبراهيم و قد يطلق الأب على العمّ و قد مرَّ الكلام فيه تفصيلاً هناك و عليه فقوله تعالى: **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ** أي قال لعمّه فأنّ أباه كان تارخ و لم يكن حيّاً حين بعث إبراهيم للنّبوة فقال إبراهيم له ولقومه أتتَّخذ أصناماً ألهة كما قال في المقام له و لقومه ما هذه التّماثيل التّي أنتم لها عاكفون، و المراد بالتّماثيل الأصنام التّي كانوا يعبدونها و التّعبير بالتّماثيل للتّحقير أي أنّها صور بلا روح من نسخ الجمادات و كلمة ما، للإستفهام، و المعنى أيُّ شيءٍ هذه التّماثيل فهو للتّوبيخ و ليس على سبيل الحقيقة لأنّ إبراهيم عليه السّلام كان عارفاً بحال التّماثيل فكأنّه عليه السّلام أنكر عليهم ذلك فقال لهم ما قال على سبيل التّوبيخ و التّقريع فأنّ الموجود العاقل إذا عبد الجماد فهو يستحقّ للتّوبيخ و المراد بالعكوف اللّزوم لأمرٍ من الأمور.

و قيل معنى، لها، عاكفون، لأجلها ثمّ أنّهم أجابوا بما حكى اللّه عنهم بقوله: **قَالُوا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ** إستدلوا على صحّة عبادتهم الأصنام بعمل أبائهم في عبادتهم الأصنام فقالوا في جواب إبراهيم وجدنا أبائنا لها أي للأصنام عابدين فنحن أيضاً نعبدهم و لم يعلموا أنّ التّقليد في الأصول الإعتقاديّة باطل لا سيّما التّقليد عن مشركٍ أخر و ذلك لأنّ الكلام في الأباء كالكلام في الأبناء من النّعل بالنّعل و لذلك قال إبراهيم في جواب إستدلالهم.

قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَآؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

فأنّ حكم الأمثال واحد أي أنّ الأباء كانوا علىٰ الضّلالة كما أنتم عليها فذّمهم على تقليد الأباء و نسب الجميع إلى الضّلالة و العدول عن الحقّ ثمّ

۱- الأنعام = ۷۴

أنّهم أجابوا ثانياً حيث قالوا أجئتنا بالحقّ أم أنت من اللاّعبين، أي قالوا في جواب إبراهيم عليه‌السلام على سبيل الإستفهام أجئتنا بالحقّ أي أنت محقٌّ فيما تقول في ذمّ عبادة الأصنام أم أنت لاعبٌ بنا و أنّما قالوا ذلك له لأنّ إبراهيم عليه‌السلام كان قد نشأ بينهم فجَّوزوا أنّ ما قاله لهم بترك عبادة الأصنام على سبيل المزاح لا الجدّ فإستفهموه أهذا جدٌّ أم لعب و الضّمير في قوله، قالوا، عائدٌ على أبيه و قومه و بالحقّ، متعلّق بقولهم أجئتنا ولم يريدوا حقيقة المجيء لأنّه لم يكن عنهم غائباً فجائهم ثمّ أنّ الحقّ هنا ضدّ الباطل و هو الجدّ ولذلك قالوا باللّعب و جائت الجملة إسميّة لكونها أثبتت كأنّهم حكموا عليه بأنّه لاعبٌ هازلٌ في مقالته لهم بزعمهم الفاسد و ذلك أنّهم كانوا يستبعدون منه إنكار عبادتها عليه و لذلك أضرب إبراهيم عن قولهم و أخبر عن الجدّ كما حكاه اللّه تعالى بقوله:

قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَىٰ ذٰلِكُمْ مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ

كلمة، بل، للإضراب ومعنى الآية أنّ المالك لهم و المستحقّ للعبادة هو ربّهم و ربّ هذا العالم العلوي و العالم السفّلي المندرج فيه أنتم و معبوداتكم من الأصنام و فيه تنبيهٌ على أنّ المستحقّ للعبادة هو منشئ هذا العالم و مخترعه من العدم الصرف إلى الوجود و الظّاهر أنّ الضّمير في (فطرهنّ) عائدٌ على السّموات و الأرض ولمّا لم تكن السّموات و الأرض تبلغ في العدد الكثير منه جاء الضّمير ضمير القلّة و قيل الضّمير في فطرهنّ عائد إلى التّماثيل التي كانوا يعكفون عليها و يعبدونها.

و قال الزّمخشري عوده على التّماثيل أدخل في تضليلهم و أثبت للإحتجاج عليهم إنتهى.

و قال إبن عطيّة فطرهنّ، عبارة عنها كأنّها تعقل و هذه من حيث لها طاعة و إنقياد و قد وضعت في مواضع بما يوصف به من يعقل.

أقول كأنّ إبن عطيّة و غيره تخيل أنّ ضمير هنّ، من الضّمائر التّي تخصّ من يعقل من المؤنّثات ولم يعلموا أنّه لفظٌ مشترك بين من يعقل و ما لا يعقل من المؤنّث المجموع و من ذلك قوله: **فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ**[1] و الضّمير عائدٌ على الأربعة الحرم و الإشارة بقوله ذلكم، إلى ربوبيّته تعالى و وصفه بالإختراع لهذا العالم و من، للتّبعيض أي الّذين يشهدون بالرُّبوبيّة كثيرون و أنا بعضٌ منهم و على ذلكم، متعلّقٌ بمحذوف تقديره و أنا شاهد على ذلكم من الشّاهدين.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية عني بقوله: **وَ أَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ**، إدّعاء أنّه قادرٌ على إثبات ما ذكره بالحجّة أو أنّي نسبت مثلكم فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجّة كما لا تقدروا على الإحتجاج لمذاهبكم و لم تزيدوا على أنّكم وجدتم عليه أباؤكم إنتهى موضع الحاجة منه.

وَ تَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ

ثمّ أقسم إبراهيم عليه السلام و قال و تاللّه و ذلك قسمٌ و التّاء في القسم لا تدخل إلاّ في إسم اللّه لأنّها بدل من الواو والواو بدلٌ من الباء فهي بدل من بدل فلذلك أختّصت بإسم اللّه.

و قرأ معاذ بن جبل و أحمّد بن حنبل، باللّه، بالباء بواحدة من أسفل.

قال الزّمخشري فأن قلت ما الفرق بين التّاء والباء.

قلت أنّ الباء هي الأصل والتّاء بدل من الواو و أنّ التّاء فيها زيادة معنى التعجّب كأنّه تعجّب من تسّهل الكيد على يده لأنّ ذلك كان أمراً مقنوطاً منه

١- التّوبة = ٣٦

لصعوبته و تعَّذره و لعمري أنّ مثله صعبٌ متَّعذر في كلّ زمانٍ خصوصاً في زمن نمرود مع عتّوه و إستكباره و قوّة سلطانه و تهالكه على نصر دينه ولكن إذ باللّه شئ عقد شئ تيَّسراً إنتهى.

أقول: قيل في وجه إصالة الباء للقسم أنّها أوسع حروف القسم إذ تدخل على الظّاهر و المضمر و يصَّرح بفعل القسم معها و تحذف و أمّا قولهم أنّ التّاء بدل من الواو الّذي أبدل من باء القسم فهو قولٌ لا دليل عليه و قد رواه السُّهيلي و الذّي يقتضيه النّقل أنّه ليس شيئاً منها أصلاً لأخر و أمّا قول الزّمخشري أنّ التّاء فيه زيادة معنى و هو التَّعجب فهو أيضاً غير مسلّم لأنّ التّاء يجوز أن يكون معها التَّعجب و أن لا يكون و اللاّم هي التّي يلزمها التَّعجب في القسم هذا ثمّ أنّ الكيد معناه الإحتيال في وصول الضّرر إلى المكيد و الظّاهر أنّ هذه الجملة خاطب بها عمّه و قومه و قيل قال ذلك سرّاً من قومه و سمعه رجلٌ واحد سمعه قومٌ من ضعفائهم ممّن كان يسير في أخر النّاس يوم خرجوا إلى العيد و كانت الأصنام سبعين و قيل أثنين و سبعين.

روي أنّ أزر خرج به في يوم عيد لهم فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه و سجدوا لها و وضعوا بينها طعاماً خرجوا به معهم و قالوا لن ترجع بركة الألهة على طعامنا فذهبوا فلمّا كان في الطّريق ثنى عزمه عن المسير معهم فقعدوا قال: **إِنِّي سَقِيمٌ**.

و قال الكلبي كان إبراهيم من أهل بيت ينظرون في النّجوم و كانوا إذا خرجوا الى عيدهم لم يتركوا إلاّ مريضاً فأتاهم إبراهيم بالذّي هم فيه فنظر قبل يوم العيد إلى السّماء و قال لأصحابه أنّي أشتكي غداً و أصبح معصوب الرّأس فخرجوا و لم يتّخلف أحد غيره و قال تاللّه لأكيدنّ إلى أخره فسمعه رجل فحفظه ثمّ أخبر به فإنتشر إنتهى.

قيل و فى الكلام حذفٌ تقديره فتَّولوا إلى عيدهم فأتى إبراهيم الأصنام فجعلهم جذاذاً.

قال إبن عبّاس و حطاماً و قال الضّحاك أخذ من كلّ عضو من عضواًكانت الأصنام مصطَّفة و صنمٌ منها عظيم مستقبل الباب من ذهب و فى عينه درّتان مضيئتان فكسرها بفاسٍ إلاّ ذلك الصَّنم و علَّق الفاس في عنقه و قيل في يده و قرأ الجمهور، جذاذاً بضّم الجيم و الكسائي و إبن محيص و إبن مقسم بكسرها و إبن عبّاس و أبوالسّماك و أبو نهيك بفتحها و هى لغات أجودها الضّم كالحطام و الرُّفات قال اليزيدي، جذاذ بالضّم جمع جذاذة كزجاج و زجاجة و بالكسر جمع جذيذ مثل كريمٌ و كرام و بالفتح مصدر كالحصاد بمعنى المحصود فالمعنى مجذوذين.

و قال قطرب في لغاته الثّلاث هو مصدر لا يثنّى و لا يجمع و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ

و أنّما قال، فجعلهم ولم يقل فجعلها لأنّها كانت تعبد و محصلّ الكلام أنّ إبراهيمعليه‌السلام و جعل الأصنام جذاذاً و قوله: **إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ** إستثناء من الضّمير في، فجعلهم، أي فلم يكسر الكبير من الأصنام فالضّمير في، لهم، يحتمل أن يعود على الأصنام و أن يعود على عباده أي لم يكسر الكبير من أصنامهم و المراد بالكبير هنا العظيم الجثّة و قيل كبير في المنزلة عندهم لكونهم صاغوه من ذهبٍ و جعلوا في عينيه جوهرتين تضيئان بالليل و الضّمير في إليه، عائدٌ على إبراهيم أي فعل ذلك إبراهيم بأصنامهم ترّجياً منه أن يرجعوا إليه و إلى شرعه.

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ

قيل في الكلام محذوف تقديره فلّما رجعوا من عيدهم إلى ألهتهم و رأوا ما فعل بها إستفهموا على سبيل البحث و الإنكار فقالوا: **مَنْ فَعَلَ هٰذا بِاٰلِهَتِنآ** أي من كسَّرها و جذذَّها أنّه لظالمٌ في إجترائه على الألهة المستّحقة للتّعظيم و التَّوقير و الظّاهر أنّهم إستفهموا من أنفسهم إذ لم يكن هناك من يستّفهموه قيل لهم ما حكاه اللّه تعالى عنهم.

بقوله: **قٰالُوا سَمِعْنٰا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقٰالُ لَهُ إِبْرٰاهِيمُ.**

أي قال الّذين سمعوا قول إبراهيم لمّا قال: **وَ تَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنٰامَكُمْ** و قوله: **يَذْكُرُهُمْ** أي يذكرهم بسوء و قد مرَّ أنّ بعض الضُّعفاء من القوم سمعوا من إبراهيم هذا فقوله يقال له إبراهيم يحتمل أن يكون جواباً لسؤال مقدّرٍ لما قالوا سمعنا فتىً يذكرهم و أتوا به منكراً قيل من يقال له فقيل يقال له إبراهيم و إرتفاع إبراهيم على أنّه خبر مبتدأ محذوف أي هو إبراهيم له و على أنّه مفرد مفعولي لما لم يسمّ فاعله و عليه فيكون من الأسناد للّفظ لا مدلوله أي يطلق عليه هذا اللّفظ.

قٰالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلىٰ أَعْيُنِ ٱلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ

لمّا قال بعضهم أنّه سمع إبراهيم يعيب ألهتهم و يذكرها بسوءٍ قالوا جيئوا به أي أحضروه على أعين النّاس و أنّما قالوا ذلك لأنّهم كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنةٍ و لذلك قالوا جيئوا به بحيث يراه النّاس و يكون بمراءٍ منهم لعلّهم يشهدون، بما قال أنّي أكيد أصنامهم شهادة يكون حجةً عليه، و قيل معناه يشهدون عقابه، يشهدون حجّته و ما يقال له من الجواب و على هذا فقوله: **عَلىٰ أَعْيُنِ ٱلنّٰاسِ** و في موضع الحال و على، معناها الإستعداد المجازي قيل المراد بالنّاس هنا خواصّ المللك و أولياءه و فى الكلام حذف تقديره فأتوا به على تلك الحالة من نظر النّاس إليه.

قَالُوٓا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَآ إِبْرَاهِيمُ

لمّا أحضروا إبراهيم قالوا أي قال القوم له ءأنت فعلت هذا بألهتنا أي ءأنت كسَّرت الألهة و جعلتها جذاذاً يا إبراهيم قال في جوابهم.

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَاسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ

قال بعض المفسّرين و أنّما جاز أن يقول بل فعله كبيرهم هذا و المفروض أنّه ما فعل شيئاً لأحد أمرين:

أحدهما: أنّه قيّده بقوله، إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم و قالوا فإسألوهم إعتراض بين الكلامين كما يقول القائل عليه الدّرهم فإسأله أن أقترن.

الثّاني: أنّه خرج مخرج الخبر و ليس بخبرٍ و أنّما هذا إلزامٌ دلّ على تلك الحال كأنّه قال بل ما تكرون فعله كبيرهم هذا فالإلزام تارة يأتي بلفظ السّؤال و تارّةً بلفظ الآخر كقوله تعالى: **فَأتُوا بِسُورةٍمِثْلِه** و تارّةً بلفظ الخبر و المعنى فيه أنّه من إعتقد كذا لزمنه كذا و قد قرئ في الشّعراء **فَعَلَّهُ كَبِيرُهُمْ** بتشديد اللاّم يعني فلَّعل كبيرهم فعلى هذا لا يكون كذباً خبيراً فلا يلزم أن يكون كذباً و الكذب قبيح لكونه كذباً فلا يحسن على وجه سواءٌ كان فيه نفع أو دفع ضرر و على كلّ حالٍ فلا يجوز على الأنبياء و القبائح و لا يجوز عليهم التّعمية في الأخبار و لا التّقييد في أخبارهم لأنّه يؤدّي الى التّشكيك في أخبارهم فلا يجوز ذلك عليهم على وجهٍ فأمّا ما روي عن النّبي بأن قال، لم يكذب إبراهيم إلاّ بثلاث كذبات كلّها في اللّه، فأنّه خبرٌ لا أصل له و لو حسن الكذب على وجهٍ كما يتّوهم بعض الجهّال لجاز عن القديم تعالى ذلك و زعموا أنّ الثّلاث كذبات هي قوله: **فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا** و ما كان فعله و قوله: **إِنّى سَقِيمٌ** و لم يكن كذلك و قوله في سارة لمّا أراد الجّبار أخذها أنّها أختي و كانت زوجته حتّى قال بعضهم كان اللّه أذن له في ذلك و هذا باطلٌ لأنّه لو أذن اللّه فيه لكان

الكذب حسناً، قد بيّنا أنّه قبيحٌ على كلّ حالٍ و قيل معنى قوله: **إنّي سَقيمٌ** إنّي سأسقم، لأنّه لمّا نظر الى بعض الكواكب علم أنّه وقت نوبة حمى كانت تجيئه فقال إنّي سقيم و قيل معناه إنّي سقيمٌ، أي غمّاً بضلالكم، قيل معناه إنّي سقيم عندكم فيما أدعوكم إليه من الدّين و قيل أنّ من كانت عاقبته الموت جاز أن يقال فيه سقيمٌ مثل المريض المشرف على الموت و أمّا قوله في سارة أنّها أختي فأنّه أراد في الدّين و أمّا قول يوسف لإخوته **إِنَّكُم لَسارِقُون** فقد قال قومٌ هو من قول موذن يوسف على ظنّه فيما يقتضيه الحال من الظّن الّذي يعمل عليه و قيل معناه أنّكم لسارقون، يوسف إنتهى ما ذكره الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان في تفسيره لهذه الآية و إنّما نقلنا كلامه لما فيه من الفائدة الّتي ينبغي التّوجه إليها.

و أنا أقول: أصل الإشكال هو أنّ قول إبراهيم عليه السلام **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** من الكذب و الكذب قبيحٌ ذاتاً و هو لا يصدر عن النّبي لمكان عصمته فلو قلنا بجواز الكذب عليه نفينا عنه الصّحة و لا شكّ أنّ إبراهيم عليه السّلام من أعاظم الأنبياء فكيف يجوز عليه الكذب و هذا الإشكال هو الّذي صار سبباً و باعثاً على إحالة الكلام في المقام و حيث إنجّر الكلام الى هنا فلابّد لنا من التّكلم فيه من أصول الإعتقادات في حقّ الأنبياء و الأوصياء على مذهب الحقّ و قبل الخوض في البحث نشير الى بعض الأقوال من المفسّرين قال الزّمخشري في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه.

هذا من معاريض الكلام و لطائف هذا النّوع لا يتغلغل فيها إلاّ أذهان الرّاضة من علماء المعاني و القول فيه أنّ قصد إبراهيم، لم يكن الى أن ينسب الفعل الصّادر عنه الى الصّنم و إنّما قصد تقريره لنفسه و إثباته لها على أسلوب تعريضي يعني يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجّة و تبكيتهم و هذا كما لو قال لك صاحبك و قد كتبت كتاباً بخطٍ رشيق و أنت مشهور بحسن الخّط أنت

كتبت هذا و صاحبك أمّي لا يحسن الخَّط و لا يقدر إلاّ على خرمشةٍ فاسدة فقلت، بل كتبت أنت كان قصدك بهذا الجواب تقديره لك مع الإستهزاء به لا نفسه عنك و إثباته للأمّي أو المخرمش لأنّ إثباته و الأمر دائرٌ بينكما للعاجز عنكما إستهزاءٌ به و إثباتٌ للقادر و القائل أن يقول غاضته تلك الأصنام حين أبصرها مصطّفة مرتّبة و كان غيظه كبيرها أكبر و أشّد لما رآى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه لأنّه هو الّذي تسَّبب لإستهانته بها و حطمه لهما و الفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه و يجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم كأنّه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فأنّ من حقّ من يعبد و يدعى إليه بأنّه إلهٌ أن يقدر على هذا و أشدًّ منه إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية لمّا لم يكن السّماع عامّاً و لا تثبت الشّهادة إستفهموه هل فعل أم لا و فى الكلام محذف فجاء إبراهيم حين أتى به فقالوا ءأنت فعلت هذا بألهة فقال لهم إبراهيم على جهة الإحتجاج عليهم **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا** أي أنّه غار و غضب من أن يعبد هو و يعبد الصّغار معه ففعل هذا بها لذلك أن كانوا ينطقون فإسألوهم فعلّق فعل الكبير بنطق الأخرين تنبيهاً لهم على فساد إعتقادهم كأنأه قال بل هو الفاعل أن نطق هؤلاء.

و قيل بيَّن أنّ من لا يتكلّم و لا يعلم لا يستحقّ أن يعبد و كان قوله من المصاريفي مندوحة من الكذب أي سلوهم إن نطقوا فأنّهم ليصدقون و أن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل و فى ضمن الكلام إعترافٌ بأنّه هو الفاعل و هذا هو الصّحيح لأنّه عدَّده على نفسه فدلّ أنّه خرج مخرج التّعريض إنتهى.

و قال الرّازي فأن قيل، قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** كذبٌ.

و الجواب للنّاس فيه قولان، ثمّ ذكر أقوالاً كثيرة في القول الأوّل و نحن نقلناها عنهم فلا نعيدها ثمّ قال القول الثّاني و هو قول طائفة من أهل

الحكايات أنّ ذلك كذب و إحتجّوا بما روي عن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاث كذبات في ذات اللّه تعالى، قوله: **إِنّي سَقِيمٌ** و قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** و قوله لسارة هي أختي و فى خبر أخر أنّ أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشّفاعة قال إنّي كذبت ثلاث كذبات ثمّ قرّروا قولهم من جهة العقل و قالوا أنّ الكذب ليس قبيحاً لذاته فأنّ النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم إذا ضرب من ظالمٍ و إختفى في دار إنسانٍ و جاء الظّالم و سأل عن حاله فأنّه يجب الكذب فيه و إذا كان كذلك فأيّ بعدٍ في أن يأذن اللّه تعالى في ذلك لمصلحةٍ لا يعرفها إلاّ هو ثمّ قال الرّازي و يعلم أنّ هذا القول مرغوب عنه أمّا الخبر الأوّل و هو الّذي رووه فلأن يضاف الكذب إلى رواية أولى من أن يضاف إلى الأنبياء عليهم السّلام و الدّليل القاطع عليه أنّه لو جاز أن يكذبوا لمصلحةٍ و بأذن اللّه فيه فلنجّوز هذا الإحتمال في كلّ ما أخبروا عنه و فى كلّ ما أخبر اللّه تعالى عنه و ما ذلك يبطل الموثوق بالشّرائع و الطّرق التُّهمة إلى كلّها ثمّ أنّ ذلك الخبر لو صحَّ فهو محمولٌ على المعاريض على ما قال عليه السّلام أنّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب و أمّا قوله تعالى: **إِنّي سَقِيمٍ** فلعلّه كان به سقمٌ قليل و إستقصاء الكلام فيه يجئ في موضعه و أمّا قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** فحق ظهر الجواب عنه.

و أمّا قوله لسارة أنّها أختي فالمراد بها أخته في الدّين و إذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء فلا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلاّ زنديق إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره حقّ لا مرية فيه و يظهر من كلامه أنّ الحديث الّذي رووه عن رسول اللّه أنّه قال لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاث كذبات بأن لا أجعل له بل هو من المجعولات و قد صرَّح بذلك من العصيان كما مرَّ و هو أي الشّيخ قدّس سرّه أعرف بالأنبياء من غيره و العجب من الطّبري و هو من أعاظم أهل السُّنة أنّه حكم بصحّة الخبر في تفسيره لهذه الآية قال ما هذا لفظه:

و قد زعم بعض من لا يصدّق بالأثار و لا يقبل من الأخبار إلاّ ما إستعاص به النّقل من العوام أنّ معنى قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا** أنّما هو، بل فعله كبيرهم هذا أن كانوا ينطقون فإسألوهم أي أن كانت الألهة المكسورة تنطق فأنّ كبيرهم هو الّذي كسرهم و هذا قول خلاف ما تظاهرت به الأخبار عن رسول اللّه صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنّ إبراهيم لم يكذب إلاّ ثلاث كذبات كلّها في اللّه، قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا**، و قوله: **إِنِّى سَقِيمٌ** و قوله لسارة هي أختي و غير مستحيل أن يكون اللّه تعالى أذن لخليله في ذلك ليقرع قومه به و يحتجّ به عليهم و يعرفهم موضع خطأهم و سوء نظرهم لأنفسهم كما قال مؤذّن يوسف أيّتها العير أنّك لسارقون ولم يكونوا سرقوا شيئاً إنتهى كلامه.

بألفاظه و عباراته إذا عرفت هذا فنقول:

الحقّ أنّ النّبي لا يكذب لكان عصمته و عدم وجوب التّقية عليه و أنّ جواز الكذب فيه يوجب سلب الإعتماد بقوله و إحتمال المصلحة في كذبه يجري في جميع أقواله و أمّا وجود المصلحة في الكذب في غير النّبي فهو ممّا لا إشكال فيه بل قد يجب الكذب و يحرم الصّدق في بعض الموارد كما إذا تردّدت على الصّدق مفسدة عظيمة و السّر في ذلك أنّ النّبي يخبر عن اللّه تعالى بالوحي و الإلهام و يجب على الأمّة قبول قوله في جميع الأمور فلو فرضنا جواز الكذب عليه بأيّ نحوٍ كان يلزم نقض الفرض و إمّا غير النّبي فليس كذلك و لأجل ذلك لم يجوّزوا التّقية عليه و هذا ثابت في حقّه إجماعاً عقلاً و نقلاً ولم يخالف فيه أحداً إلاّ شرذمة قليلة فمن لا يعتنى بقولهم و لا تضر مخالفتهم في المقام.

و العجب من الطّبري حيث أنكر ذلك و تمّسك بما لا أصل له من الأخبار الموضوعة و ليس هذا أوّل قارورةٍ تكسر في الإسلام.

إن قلت: فما معنى الآية.

قلت: معنى الآية لا خفاء فيه و لا يحتاج إلى ما ذكروه و ذلك لأنّ إبراهيم لم يقل ما فعلت صريحاً حتّى يلزم الكذب بل قال: **فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** ثمّ علّق الفعل على نطق الأصنام فقال فإسألوهم إن كانوا ينطقون و من المعلوم المسلّم عند الكلّ أنّ المشروط ينتفي بإنتفاء شرطه و حيث أنّ السّؤال علّق على النّطق فإذا إنتفى النّطق إنتفى السّؤال و لا شكّ أنّ الجماد لا يصدق على النّطق فلا يسأل منه فلم يفعل الفعل فالكلام يدلّ على أنّ الفعل لم يصدر من الكبير و هو حقٌّ لا مرية فيه واقعاً و أمّا أنّ الفعل صدر من إبراهيم أو لم يصدر منه فالكلام ساكتٌ عنه فأين الكذب في كلامه هذا حتّى نبحث فيه و الّذي أوقفهم في الإشكال هو قوله عليه السلام: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذا** و من المعلوم أنّه لم يفعل ولم يعلموا أنّ إسناد الفعل إلى الكبير ليس على إطلاقه حتّى يلزم الكذب بل مشروطٌ بالنّطق المستحيل و ما علّق على المحال فهو محالٌ فبأسناد الفعل إليه بقولٍ كان محال و لعمري هذا واضح لمن تدّبر في الكلام و أنصف من نفسه، نعم لو كانت الآية هكذا قال لم أفعله بل فعله كبيرهم يلزم الكذب حيث نفى الفعل عن نفسه و المفروض أنّه فعله و لمّا لم يقل لم أفعله فلم يكذب و هذا ظاهرٌ.

فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ

أي عادوا إلى نفوسهم يعني بعضهم إلى بعضٍ و قال بعضهم لبعضٍ أنّكم أنتم الظّالمون في سؤاله لأنّها لو كانت ألهة لم يصل إبراهيم إلى كسرها، و قيل معنى الكلام أنتم الظّالمون بعبادة من لا ينطق بلفظة و لا يملك لنفسه لحظة و كيف ينفع عابديه و يدفع عنهم البأس من لا يردّ عن رأسه الفأس.

و قال بعض المفسّرين في معنى الكلام أي أنتم الظّالمون في سؤالكم إبراهيم حين سألتموه و لم يسألوها أو حين عبدتم ما لا ينطق و قال إبن عبّاس أنتم الظّالمون حين لم تحفظوا ألهتكم، أو في عبادة الأصاغر مع هذا الكبير، و قيل أنتم الظّالمون حقيقة حيث نسبتم إبراهيم إلى الظّلم في قولكم أنّه لمن الظّالمين إذ هذه الأصنام مستحقّة لما فعل بها.

ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ

النّكس هو جعل الشّيْ أسفله أعلاه و منه النّكس في العلّة إذا رجع إلى أوّل حاله و المعنى أدركتهم حيرة سوء فنكسوا لأجلها رؤوسهم ثمّ أقرُّوا بما هو حجّة عليهم فقالوا لإبراهيم **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ** فأقرّوا بالحيرة التّي لحقتهم فكلّ ذلك دلالة على خطأهم لكنّهم أصرُّوا على العناد قاله الشّيخ في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين نكسوا على رؤوسهم أي إرتبكوا في ضلالهم و علموا أنّ الأصنام لا تنطق فساءهم ذلك حين نبّه على قيام الحجّة عليهم إستعارة للّذي يرتطم في غيّه كأنّه منكوسٌ على رأسه و هى أقبح هيئة للإنسان فكأنّ فعله منكوس أي مغلوب لإنقلاب شكله وجعل أعلاه أسفله فرجوعهم إلى أنفسهم كناية عن إستقامة فكرهم و نكسهم كناية عن مجادلتهم و مكابرتهم و يحتمل أن يكون نكس الرّؤوس كناية عن تنكيسها إلى الأرض على سبيل الخجل و الإنكار من إقامة الحجّة عليهم بحيث لم يطيقوا جواباً و أمّا قولهم و لقد علمت أي **لَقَدْ عَلِمْتَ** يا إبراهيم أنّ الأصنام لا يقدرون على النّطق فكيف تقول لنا فاسألوهم أنّما قصدت بذلك توبيخاً.

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ وَ لَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

لمّا قال القوم له: **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ** قال لهم إبراهيم عليه السلام أفتعبدون من دون اللّه ما ينفعكم شيئاً، ولا تدفع عنكم ضرّاً لأنّها لو قدرت على نفعكم و ضرّكم لدفعت عن نفسها حتّى لا تكسر، هكذا فسّر الكلام في التّبيان و لقائلٍ أن يقول.

قوله: **وَ لَا يَضُرُّكُمْ** ليس معناه لا تدفع عنكم ضرٌّ و بعبارةٍ أخرى نفى عنها النّفع و الضرّ أي لا نفع في عبادتها و لا ضرّر فهما في عبادتهما و عدمها سيّان.

و من المعلوم أنّ الضرّ في عبادتها موجود و أيّ ضرٍّ أقبح و أعظم من عبادة الصّنم و فيه خسران الدُّنيا و الأخرة فكيف قال و لا يضرّكم.

و أمّا تفسير الشّيخ فلا يساعده ظاهر الكلام إذ فرّق بين عدم الضرّ و عدم دفع الضرّ و المنّفي في الآية هو الأوّل دون الثّاني فالإشكال باقٍ على حاله لوجود الضرّ في عبادة الأوثان في الدّارين و بعبارةٍ أخرى لا نفع في عبادة الأصنام و لكن الضرّ فيها موجود فكيف قال و لا يضرّكم و العجب أنّ أكثر المفسّرين لم يفطنوا لهذه الملاحظة و فسّروا الكلام على خلاف ظاهره و أنّي بعد الرّجوع الى تفاسيرهم الموجودة عندي لم أر ما يرفع الإشكال إلاّ الطّبرسيقدس‌سره في المجمع حيث قال و لا يضرّكم أن تركتموها أي إن تركتم العبادة.

و بهذا يندفع الإشكال و عليه ففي الكلام حذفٌ و هو أن تركتموها و ما كان كذلك فعبادته لغوٌ و وجوده كعدمه.

و امّا قوله تعالى: **أُفٍّ لَكُمْ وَ لِمٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ.**

ثمّ أبدى لهم الضّجر منهم و من معبوداتهم فأنّ هذه الكلمة ف الحقيقة صوت المتّضجر و معناه قبحاً، و اللاّم لبيان المتأفف له أي أُفّ لكم و لآلهتكم و بعبارةٍ أخرى هذا المتأفّف لكم و لإلهتكم ثمّ قال أفلا تعقلون تنبيهٌ على إرشادهم الى العقل الّذي يدرك الأشياء به أي قبح ما أنتم عليه من عبادة الأصنام و أنتم من ذوي العقول و عليه فالإستفهام في قوله: **أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ** توبيخٌ وإنكار و ما أقبح لمن يدّعي العقل و هو يعبد الجماد.

و قال بعض المفسّرين أفلا تعقلون، أفلا تتّفكرون بعقولكم، في أنّ هذه الأصنام لا تستَّحق العبادة إذ لا تقدر على جلب النَّفع و دفع الضرّ فلمّا سمعوا من إبراهيم هذه المقالة قال بعضهم لبعضٍ حرّقوه كما قال تعالىٰ عنهم:

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَ ٱنْصُرُوٓا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ

أي قال بعضهم لبعضٍ آخر حرِّقوه بالنّار فأنّ الإحراق ليس إلاّ بها **وَ ٱنْصُرُوٓا آلِهَتَكُمْ**، أي عظِّموها و أدفعوا عنها و من عبادتها، **إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** أي أن كنتم ناصريها ولم تريدوا ترك عبادتها، قيل أنّ الّذي أشار بتحريق إبراهيم رجلٌ من أكراد فارس قيلالكلام حذفٌ و التّقدير أوثقوا إبراهيم و أطرحوه في النّار و قيل أشار بإحراقه نمرود.

روي أنّهم حين همّوا بإحراقه حبسوه ثمّ بنو ابتياِ الحظيرة و أختلفوا في مدّة حبسه و فى عرض الحظيرة و طولها و مدّة جمع الحطب و مدّة الإيقاد و مدّة سنّة إذ ذاك و مدّة إقامته في النّار و كيفيّة ما صارت أماكن النّار و نحن عرّضنا عن نقل أقوالهم لعدم الفائدة فيه مضافاً الى أنّه لا دليل على صحةِ للأقاويل و الّذي صرَّح به القرآن و إتّفق الكلّ عليه هو الإلقاء في النّار و كيف كان.

روي أنّهم إتّخذوا منجنيقاً بتعليم إبليس إذ كان لم يصنع قبل فشّد إبراهيم رباطاً و وضع في كفّه المنجنيق و رمى به فرفع في النّار، روى أنّ إبراهيم لمّا إحتجّ عليهم في عبادتهم الأصنام فلم ينتهوا حضر صيدٌ لهم و خرج نمرود و جمع أهل مملكته الى صيدٍ لهم وكره أن يخرج إبراهيم معه فوكله بيت الأصنام فلمّا ذهبوا عمد إبراهيم الى طعامٍ و أدخله بيت الأصنام فكان يدنوا من صنم الى صنم و يقول كل و تكلّم فإذا لم يجبه أخذ القدوم فكسر يده و رجله حتّى فعل ذلك بجميع الأصنام ثمّ علّق القدوم في عنق الكبير منهم الّذي كان في الصّدر فلمّا رجع الملك و من معه من الصيد نظروا الى الأصنام مكسرة فقالوا من فعل هذا بآلهتنا أنّه لمن الظّالمين فقالوا ها هنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم و هو إبن آزر فجاؤوا به الى نمرود فقال نمرود آزر خنتني كتمت هذا الولد عنّي فقال أيّها الملك هذا عمل أمّه و ذكرت أيّها تقوم بحجّته فدعا

نمرود أمّ إبراهيم فقال لها احملك على ان امر هذا الغلام حتّى فعل بآلهتنا ما فعل أيُّها الملك نظراً منّي لرعيّتك قال وكيف ذلك فرأيتك تقتل أولاد رعيّتك فكان يذهب النَّسل فقلت أن كان هذا الّذي يطلبه دفعته اليه ليقتله و يكُفّ عن قتل أولاده و إن لم يكن ذلك فيبقى لنا ولدنا و قد ظفرت به فشأنك فكفّ عن أولاد النّاس فصوّب رأيها ثمّ قال لإبراهيم من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال إبراهيم فعله كبيرهم هذا فأسألوهم إن كانوا ينطقون.

قال الصّادق عليه‌السلام و اللّه ما فعل كبيرهم و ما كذب إبراهيم فقيل له كيف ذلك فقال عليه‌السلام أنّما قال فعله كبيرهم هذا إن نطق و إن لم ينطق فهو أي كبيرهم لم يفعل شيئاً فاستشار نمرود و قومه في إبراهيم فقالوا حرِّقوه و أنصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قال الصّادق عليه‌السلام كان فرعون ابراهيم لغير رشدة فأنّهم قالوا لنمرود حرّقوه و أنصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين و ان فرعون موسى و أصحابه و شدّة فأنّه لمّا إستشار أصحابه في موسىٰ قالوا أرجه و أخاه و أرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكلّ سحّارٍ عليم فحبس إبراهيم و جمع له الحطب حتّى إذا كان اليوم الّذي ألقى فيه نمرود إبراهيم في النّار برز نمرود و جنوده و قد كان بنىٰ لنمرود بناءً ينظر منه الى إبراهيم كيف تأخذه النّار فجاء إبليس و إتّخذ لهم المنجنيق لأنّه لم يقدر أحد أن يتّقارب من النّار و كان الطّائر إذا مرَّ في الهواء يحترق فوضع إبراهيم في المنجنيق و جاء آزر و لطمه لطمة و قال له إرجع عمّا أنت عليه ولم يبق شيئ إلاّ طلب الى ربّه و قالت الأرض يا ربّ ليس على ظهري أحد يعبدك غيره فيحرق و قالت الملائكة يا ربّ خليلك إبراهيم يحرق بالنّار فقال أسكت أنّما نقول أهذا عبدٌ مثلك يخاف الموت هو عبدي آخذه إذا شئت فأن دعاني أجبته فدعا إبراهيم ربّه بسورة الإخلاص يا اللّه يا واحد يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحَد نجّني من النّار برّحمتك قال فألتقى معه جبرائيل في الهواء و قد وضع في المنجنيق فقال

يا إبراهيم هل لك إلّي من حاجةٍ فقال إبراهيم أمّا اليك فلا و أمّا الى ربّ العالمين فنعم فدفع اليه خاتماً عليه مكتوبٌ لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه ألجأت ظهري الى اللّه و إستندت أمري الى اللّه و فوضت أمري الى اللّه فأوحى اللّه الى النّار كوني برداً فإضطربت أسنان إبراهيم من البرد حتّى قال و سلاماً على إبراهيم و إنحط جبرائيل و جلس معه يحدثه في النّار و هم في روضةٍ خضرة و نظر اليه نمرود فقال من إتّخذ إلهاً فليتّخذ مثل إلٰه إبراهيم فقال عظيمٌ من عظماء أصحاب نمرود أنّي عزمت على النّار أن لا تحرقه فخرج عمودٌ من النّار نحو الرّجل فأحرقته و نظر نمرود الى إبراهيم في روضةٍ خضراء في النّار مع شيخٍ يحدّثه فقال لآزر ما أكرم إبنك على ربّه إنتهى موضع الحاجة من الخبر(١).

أقول الى هذا أشار اللّه تعالى بقوله:

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

و عن إبن عبّاس لو لم يقل و سلاماً على إبراهيم لهلك إبراهيم من البرد ولو لم يقل على إبراهيم لما أحرقت نار بعدها و لا إنقدت.

قال بعضهم لمّا كانت النّار تنفعل لما أراد اللّه منها كما ينفعل من يعقل عبّر عن ذلك بالقول لها و النّداء و الأمر.

قال الزّمخشري إن قلت كيف بردت النّار و هى نار.

قلت نزع اللّه عنها طبعها الّذي طبّعها اللّه عليه من الحرّ و الإحراق و أكفاها على الإضاءة و الإشراق و الإشتعال كما كانت و اللّه على كلّ شئٍ قدير و يجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم أدنى حرّها و يذيقه فيها عكس ذلك كما يفعل بخزنة جهنّم و يدلّ عليه قوله على إبراهيم إنتهى.

١- بحار الأنوار ج ٥ ط كمباني

وَ أَرادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْناهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ

قيل هو العائد في النّار فجعلناهم الأخسرين أي المبالغة في الخسران و هو ابطال ما رائوه و قيل سلَّط عليهم ما هو من أهون خلقه و أضعفه و هو البعوض يأكل من لحومهم و يشرب من دماءهم و سلَّط اللّه على نمرود بعوضة و اختلف في كيفيّة اذايتها له و فى مدّة إقامتها تؤذيه الى أن مات منها.

و الحاصل أنّ نمرود و أشياعه أرادوا بإبراهيم كيداً و هى إحراقهم أيّاه فلم يقدروا عليه و هذا واضح.

وَ نَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ
نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَ
إِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَ إِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ
﴿٧٣﴾ وَ لُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ
ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ ٱلْخَبَآئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَآ
إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَ نُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ
فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ
﴿٧٦﴾ وَ نَصَرْنَاهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَآ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَ
دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ
﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَ كُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَ عِلْمًا
وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ ٱلطَّيْرَ وَ
كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَ عَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ
لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾
وَ لِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى
ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ
عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَ مِنَ ٱلشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُۥ
وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

◀ اللّغة

وَ لُوطًا: هو إسمٌ علمٌ و إستقامة من لاط الشّيءلوط لَوطاً وليطاً و فى الحديث الولد أي العنق بالكبد.

نَافِلَةً: النَّفل الزّيادة أي فضلاً و زيادة.

ٱلْخَبَآئِثَ: جمع خبيثة و هى المنكرة من كلّ شيْ.

سَوْءٍ: فتح السّين الفساد.

وَ نُوحًا: نوح إسم نبّي و هو مصدر من ناحَ يَنُوح أي مناح بعويلٍ.

ٱلْكَرْبِ: بفتح الكاف و سكون الرّاء و الباء الضّم.

فِى ٱلْحَرْثِ: الحرث الزّرع و هو مصدر يقال حرث حرثاً.

نَفَشَتْ: يقال نفث نفثاً الأبل أو الغنم رعت ليلاً بلا راع.

لَبُوسٍ: بفتح اللاّم و ضمّ الباء الدِّرع و قيل هو السّلاح كلّه درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رميً.

لِتُحْصِنَكُمْ: الإحصان الإحراز و البأس شدّة القتال.

◀ الإعراب

نَافِلَةً حال عن يعقوب و قيل هو مصدر كالعاقبة و العافية و العامل فيه، يعني وهبنا كُلًّا المفعول الأوّل لقوله، جعلنا إِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ و الأصل فيه إقامة عوض من حذف إحدى الألفين و جعل المضاف اليه بدلاً من الهاء وَ لُوطًا أي و أتيناه لوطاً و ءَاتَيْنَٰهُ مفسّر للحذوف و مثله داوود و نوح و سليمان و أيوب بعده من أسماء الأنبياء و قيل التّقدير و أذكر لوطاً الخ.

و قيل التّقدير و أذكر خبر لوط و الخبر محذوف و هو العامل في، إذا، والله أعلم.

إِذْ نَفَشَتْ ظرفٌ ليحكمان مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ العامل في، مع، يُسَبِّحْنَ و هو حال من الجبال ٱلرِّيحَ نصب على تقدير و سخّرنا لسليمان و دلّ عليه و

سخّرنا الأولى عٰاصِفَةً حال وتَجْرِي حال أخرى أمّا بدلاً من عاصفة أو من الضّمير فيها مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ من، في موضع نصب عطفاً على الرّياح أو رفع على الإستئناف و هى نكرة موصوفة دُونَ ذٰلِكَ صفة لعمل.

◀ التّفسير

وَ نَجَّيْنٰاهُ وَ لُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بٰارَكْنا فِيهٰا لِلْعٰالَمِينَ

يقول اللّه تعالى إنّا نجيّنا إبراهيم و لوطاً من الكفّار و حملناهما الى الأرض الّتي باركنا فيها للعالمين إختلف المفسّرون في المراد بالأرض فقال قوم هي أرض الشّام أرض مكّة، و قيل أرض بيت المقدس، و قيل من العراق الى أرض الشّام و المراد بالبركة الّتي فيها للعالمين هي كثرة الأشجار و الخيرات الّتي ينتفع جميع الخلق بها إذا خلّو بها و قيل في وجه كونها مباركة أنّ أكثر الأنبياء يعيشوا منها فلذلك كانت مباركة و على هذا فالمراد بالبركة و البركات المعنويّة فيها.

روي أنّ إبراهيم خرج منها مهاجراً الى ربّه و معه لوط و كان إبن أخيه فآمنت به سارة و هى إبنة عمّه فأخرجها معه فارّاً بدينه و فى هذه الخرجة لقى الجبّار الّذي رام أخذ هامته فنزل حران و مكث زماناً بها، و قيل سارة إبنة ملك حرّان تزّوجها إبراهيم و شرط عليه أبوها أن لا يغيّرها وا لقول الأوّل أصحّ و كيف كان ثمّ قدم مصر ثمّ خرج منها الى الشّام فنزل السبع من أرض فلسطين و نزل لوط بالمؤتفكة على مسيرة يومٍ و ليلةٍ من السّبع أو أقرب فبعثه اللّه نبيّاً هذا ما قاله المفسّرون من العامّة.

أقول: رَوىٰ في البحار نقلاً عن الكافي بأسناده عن إبراهيم إبن أبي زياد الكرخي قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول أنّ إبراهيم كان مولده بكوثاريا و كان أبوه من أهلها و كانت أمّ إبراهيم و أمّ لوط سارة و ورقة و فى نسخةٍ، رقبة أختين و هما بنتان للحج نبيّاً منذراً

ولم يكن رسولاً و كان إبراهيم عليه السلام في شيبته على الفطرة الّتي فطر اللّه عزّ وجلّ الخلق عليها حتّى هداه اللّه الى دينه و إجتباه و أنّه تزّوج سارة إبنة لاحج وهي إبنة خالته و كانت سارة صاحب ماشية كثيرة و أرضٌ واسعة و حالٍ حسنة وكانت قد ملكت إبراهيم جميع ما كانت تملكه فقام فيه و أصلحه و كثرت الماشية و الزَّرع حتّى لم يكن بأرض كوثاريا رجلٌ أحسن مالاً منه و أنّ إبراهيم لمّا كسر أصنام نمرود و أمر به و أمر به نمرود فأوثق و جمع له حيراً (أي حظيرة) و جمع له من الحطب و ألهب فيه النّار ثمّ قذف إبراهيم في النّار لتحرقه ثمّ إعتزلوها حتّى خمدت النّار ثمّ أشرفوا على الحيرة فإذا هم بإبراهيم سليماً مطلقاً من وثاقه فأخبروا نمرود و خبره فأمرهم أن ينفوا إبراهيم من بلاده و أن يمنعوه من الخروج بماشيته و ماله فجاءهم إبراهيم عن ذلك فقال إن أخذتم ماشيتي و مالي فأنّ حقّى عليكم أن تردّوا علّي ما ذهب من عمري في بلادكم و إختصموا الى قاض نمرود فيقضى على إبراهيم أن يسلّم اليهم جميع ما أصاب في بلادهم و قضى على أصحاب نمرود أن يردّوا على إبراهيم ما ذهب من عمره في بلادهم و أخبر بذلك نمرود فأمرهم أن يخلو سبيله و سبيل ماشيّته و ماله و أن يخرجوه و قال أنّه أن بقى في بلادكم أفسد دينكم و أضرَّ بآلهتكم فأخرجوا إبراهيم و لوطاً معه من بلادهم الى الشّام فخرج إبراهيم و معه لوط لا يفارقه و سارة وقال لهم **(أنّي ذاهبٌ الىٰ ربّي سيهدين)** يعني الى بيت المقدّس فيحمل إبراهيم ماشيته و ماله و عمل تابوتاً و جعل فيه سارة و شدَّ عليه الأغلاق غيرة منه عليها و مضى حتّىٰخرج من سلطان نمرود و سار الى سلطان رجلٍ من القبط يقال له غرارة فسَّر بعاشر له عنه العاشر ليعشروا معه فلّما

إنتهى الى العاشر و معه التّابوت فقال له العاشر إفتح هذا التّابوت حتّى نبعثر ما فيه على ما فيه من ذهب أو فضّةٍ حتّى نعطي عشره و لا نفتحه فأبى العاشر إلاّ فتحه قال و غضب إبراهيم على فتحه فلما بدت له سارة و كانت موصوفة بالجمال قال له العاشر ما هذه المرأة منك قال له إبراهيم هذه حرمتي و إبنة خالتي فقال له العاشر فما دعاك الى أن خبيتها في هذا التّابوت فقال إبراهيم الغيرة عليها أن يراها أحد فقال له العاشر لست أدعك تبرح حتّى أعلم الملك بحالها أو حالك فبعث رسولاً الى الملك فأعلمه فبعث الملك رسولاً من قبله ليأتوه بالتّابوت قالوا ليذهبوا به فقال لهم إبراهيم إنّي لست أفارق التّابوت حتّى يفارق روحي جسدي فأخبروا الملك بذلك فأرسل الملك أن أحملوه و التّابوت معه فحملوا إبراهيم و التّابوت و جميع ما كان معه حتّى أدخل على الملك فقال له الملك إفتح التّابوت فقال له إبراهيم أيُّها الملك أنّ فيه حرمتي و بنت خالتي و أنا معترف بجميع ما معي فغضب الملك علّي فتحه فلّما رآى سارة لم يملك نفسه أن مدَّ يده إليها فأعرض إبراهيم وجهه عنها و عنه غيرتاً منه و قال اللّهم أحبس يده عن حرمتي و إبنة خالتي فلم تصل يده إليها ولم ترجع إليه فقال له الملك أنّ إلهك هو الّذي فعل بي هذا فقال له نعم أنّ إلهي غيورٌ و يكره الحرام و هو الّذي حال بينك و بين ما أردت من الحرام فقال له الملك فأدع إلهك يرُّد علّي يدي فإن أجابك فلم أعرض لها فقال إبراهيم إلهي رُّد إليه يده و ليّكف عن حرمتي فرَّد اللّه عزّ وجّل إليه يده فأقبل الملك نحوها ببصره ثمّ عاد بيده نحوها فأعرض إبراهيم عنه بوجهه غيرةً منه و قال اللّهم إحبس يده عنها فيبست يده ولم تصل إليها فقال الملك لإبراهيم أنّ

إلٰهك لغيورٌ و أنّك لغيورٌ فأدع إلٰهك يرّد علّي يدي فأنّه أن فعل لم أعد فقال له إبراهيم و سئله ذلك على أنّك أن عدت لم تسألني أن أسأله فقال له الملك نعم فقال إبراهيم اللّهم إن كان صادقاً فرَّد يده عليه فرجعت يده إليه فلّما رآى ذلك الملك من الغيرة ما رآى و رآىٰ الآية في يده عظم إبراهيم ذهابه و أكرمه و أتقاه و قال إليه قد أمنت من أن أعرض لها أو بشيءٍ ممّا معك فأنطلق حيث شئت و لكن لي إليك حاجة فقال إبراهيم و ما هي فقال له العينات تأذن لي أن أخدمها قبطيّة عندي جميلة عاقلة تكون لها خادماً فأذن له إبراهيم فدعا بها فوهبها لسارة و هي هاجر أمّ إسماعيل فسار إبراهيم بجميع ما معه و خرج الملك معه يمشي خلف إبراهيم إعظاماً لإبراهيم و هيبةً له فأوحى اللّه تعالى الى إبراهيم أن قف و لا تمشي قدّام الجّبار المتسلّط و يمشي و هو خلفك و لكن إجعله أمامك و أمش خلفه و عظّمه فأنّه مسلّط و لابُّد من أمرأةٍ في الأرض برَّةً أو فاجرةً فوقف إبراهيم و قال للملك أمض فأنّ إلهي أوحى إلّي السّاعة أن أعظّمك و أهابك و أن أقّدمك أمامي و أمش خلفك إجلالاً لك فقال له الملك أوحى إليك بهذا فقال إبراهيم نعم فقال الملك أشهد أنّ إلهك لرفيقٌ حليمٌ كريمٌ و أنّك ترغبني في دينك و ودَّعه الملك فسار إبراهيم حتّى نزل بأعلى الشّامات و خلّف لوطاً في أدنى الشّامات ثمّ أنّ إبراهيم لمّا أبطأ عليه الولد قال لسارة لو شئت لبعتني هاجر لعَّل اللّه أن يرزقنا منها ولداً فيكون لنا خلفاً فأتباع إبراهيم هاجر من سارة فوقع عليها فولدت إسماعيل عليه السلام إنتهى[1].

۱- بحار الأنوار ج ۵ ط كمباني

وَ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ

الهبة، بكسر الهاء و فتح الباء أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض يقال وهبته و موهبةً و موهباً، قاله في المفردات فقوله: **وَ وَهَبْنَا لَهُۥٓ**، معناه جعلنا ملكنا لغيرنا بغير عوض و فيه إشارة الى أنّ الولد في الحقيقة مملوك للّه تعالى فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه و هو مملوكٌ لأبيه أو لسَّيده مجازاً لا حقيقةً فإذا قلنا أنّ الأب مالكٌ لولده أو أنّ السَّيد مالكٌ لعبده ليس معانه إنّهما يملكونه واقعاً بل المالك الحقيقي هو اللّه تعالى و محصلّ الكلام أنّ المالك الحقيقي لجميع ما سوى اللّه هو اللّه تعالى و السِّر فيه أنّ مالكيّة الخالق لمخلوقه ذاتيّ و هى لغيره عرضّي و كلّ ما هو ذاتيّ للموجود فهو له حقيقة و كلّ ما هو عرضي له بمعنى أنّه موعوبٌ من غيره فهو ليس له واقعاً و أنّما عرض له في مدّةٍ معيّنةٍ محدودة و هذا هو السِّر في قول الفلاسفة العرض ماهيّة إذا وجدت وُجدت في الموضوع و الجوهر بخلافه فأنّه لا في الموضوع و حيث أنّ العطايا من الواهب المعطي أعني به اللّه فهي من الأعراض فلا بقاء لها و لا قوام لها بذاتها و هذا من المسلّم المقطوع الّذي لا كلام فيه و لأجل ذلك جميع ما سوى اللّه محكومٌ بالفناء و الدّثور كما هو شأن العرض فإفهم.

قال المفسّرون أنّ إبراهيم لمّا سأل اللّه تعالى ولداً و قال ربّ هب لي من الصّالحين، فأجاب اللّه دعاءه و وهب له إسحاق من سارة إجابةً لدعاءه و وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاءه ولذلك قال تعالى، **نَافِلَةً**، لأنّ النّافلة في اللّغة الزّيادة كالصّلاة النّافلة التّي هي زيادة على الفرض و على هذا فالمراد بالنّافلة، يعقوب خاصّة و المعنى و وهبنا لإبراهيم أي أعطيناه ولداً بدعاءه و هو إسحاق ثمّ زدنا عليه و وهبنا لإسحاق يعقوب زيادةً على الطَّلب فضلاً منّا.

و قال بعض المفسّرين أنّ النّافلة تتّعلق بهما و ذلك لعدم الفرق بين قوله: **وَ وَهَبْنَا** على سبيل العطيّة و الفضل من غير إستحقاقٍ و أن شئت قلت لا فرق

بين قوله و وهبنا له هبةً عطيّةً و فضلاً أو إستحقاقاً و على هذا فمعنى الآية **وَ وَهَبْنا** أي أعطيناه إسحاق و بعده يعقوب على سبيل العطيّة و الفضل قالوا هذا الوجه أقرب بسياق الكلام لأنّه تعالى جمع بينهما ثمّ ذكر قوله، نافلة، فإذا صلح أن يكون وصفاً لهما فهو أولى ثمّ قال تعالى و كلاًّ جعلنا صالحين أي و كلاًّ من إبراهيم و إسحاق و يعقوب جعلنا أنبياء مرسلين، و قيل المراد أنّهم جميعاً من الصّالحين أي عاملين بطاعة اللّه محتسبين عن محارمه.

أقول: لفظ الصّلاح يتناول الكلّ و أعلى مراتبه النّبوة و هى متفرقة على طاعة اللّه و الإجتناب عن محارمه و المراد بالجعل التّوفيق لا الخلق و الإيجاد و بعبارةٍ أخرى جعلنا صالحين أي وفّقناهم كذلك كما زعمه بعض المجبّرة و من المعلوم أنّ الإنسان قادرٌ على الصّلاح كما أنّه قادرٌ على الفساد في حدّ نفسه و هو ظاهرٌ لا خفاء فيه و قد مرّ الكلام فيه.

وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْراتِ وَ إِقامَ ٱلصَّلٰوةِ وَ ايتاءَ ٱلزَّكٰوةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ

في هذه الآية أبحاث نشير إليها حسبما يقتضيه المقام:

البَحث الأوّل: في تفسير قوله: **وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً** وأنّه ما المراد بهذا الجَعل و الأئمّة فنقول قد صرّح اللّه تعالى في هذه الآية أنّه جعل إبراهيم و إسحاق و يعقوب أئمة للنّاس أي كلّ واحدٍ منهم كان إماماً في زمانه للنّاس و الإمام هو الإنسان الذّي يقتدى به في أمر الدّين و الدُّنيا و يظهر من الآية الشّريفة أنّ هذا المنصب إلهيّ بمعنى أنّه مجعولٌ من قبل اللّه تعالى و يدلّ عليه قوله: **وَ جَعَلْناهُمْ**، حيث نسب الجعل إلى نفسه ولم يقل، جعلوا أئمّة للنّاس و إذا كان كذلك فالإمام منصوبٌ من اللّه و من لم يجعله إماماً فليس بإمامٍ قطعاً و ليس المراد بالإمام أوصياء الأنبياء فقط بل الإمام يطلق على النّبي و الوّصي ففي الآية دلالة على أنّ المجعول من قبل النّاس للإمامة فليس بإمامٍ و هو المطلوب.

الثّاني: أنّ الإمام وظيفته هداية النّاس إلى أمر اللّه تعالى و حكمه في عباده و إلى هذا المعنى أشار بقوله: **يَهْدُونَ بِأَمْرِنا** و الهداية هي إراءة الطّريق إلى معرفة اللّه و معرفة أنبيائه و رسله و أحكامه الشرعيّة التّي يجب على المكلّف الإتيان بها و يعبّر عنها بالدّين فمن لم يكن كذلك ليس بإمام.

الثّالث: أنّ قلب الإمام موضع الوحي و الإلهام أي أنّ اللّه تعالى يوحي إليه أو يلهم في قلبه الخيرات من الأقوال و الأفعال فالإمام لا يقول إلاّ حقّاً و لا يعمل إلاّ خيراً فهو مبّرءٌ عن الشّرور و الأفات قولاً و فعلاً و السّر فيه أنّ الإمام مقتدى الخلق و يجب على الخلق التّأسي به في جميع شئونه:

قال اللّه تعالىٰ: **لَكُمْ في رَسُولِ ٱللّٰهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ اٰتٰيكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **أَطيعُوا ٱللّٰهَ وَ أَطيعُوا ٱلرَّسُولَ وَ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ**(۳).

أعني به وصّي الرّسول، و من كان كذلك فينبغي له أن لا يقول إلاّ حقّاً و لا يفعل إلاّ خيراً أي عملاً صالحاً و إلاّ يلزم إغواء النّاس و إضلالهم و هو خلاف المقصود و هذا ظاهر و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله **وَ أَوْحَيْنآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْراٰتِ** و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ أَقيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتُوا ٱلزَّكٰوةَ** فهما داخلان في فعل الخيرات لأنّ الصّلاة و الزّكاة من الأفعال و أنّما خصّهما بالذّكر لعظم شأنهما و أنّهما من أركان الدّين فهو في الحقيقة من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ.

الرّابع: أنّ الإمام منّزهٌ عن الشّرك جليّاً كان أو خفيّاً فتكون عبادته خالصاً لوجه اللّه فلا يشرك بعبادة ربّه أحداً و إذا كانت العبادة للّه تعالى على وجه الإخلاص فهو في جميع شئونه كذلك فلا يعمل إلاّ للّه و لا يقول إلاّ له فيكون جميع أفعاله و أقواله و عبادته لخالقه و إلى هذا المعنى أشار اللّه بقوله: وَ

۱- الاحزاب = ۲۱ ۲- الحشر = ۷
۳- النّساء = ۵۹

كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ فتحصّل من جميع ما ذكرناه و إستنبطناه من الآية الشريفة أنّ من لم يكن متّصفاً بالأوصاف المذكورة في الآية فهو خارج عن مدار الإمامة قانون كلّي في جميع الأزمنة إذ حكم الأمثال واحد فإفهم و إغتنم.

وَ لُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ

قلنا عند شرح اللّغات و الإعراب لوطاً نصب بأتينا و التّقدير و أتينا لوطاً أتيناه، و المراد بالحكم الحكمة و بالعلم علم النّبوة و فيه إشارة إلى أنّ علوم الأنبياء من اللّه تعالى و لذلك يقال أنّ العلم فيهم حضوريّ، أعطاه اللّه من منبع الفيض و ليس من العلوم الكسبيّة البشريّة ولذلك كانت الحقائق عندهم منكشفة.

و لم يكن في علومهم غطاء و لا سهو و لا نسيان و هذا بخلاف العلوم البشري فأنّها ليست كذلك و قيل المراد بالحكم النّبوة و قيل حسن الفصل بين الخصوم في القضاء و قيل حفظ صحف إبراهيم.

و أمّا القرية الّتي أشير إليها في الآية فقيل أنّها سدوم، و كانت قراهم سبعاً و عبّر عنها بالواحدة لإتّفاق أهلها على الفاحشة و كانت من كورة فلسطين إلى حدّ السّراة إلى حدّ نجد بالحجاز قلّب منها تعالى ستّاً و أبقى منها واحدة و هي، زعر، لأنّها كانت محلّ لوط و أهله و من أمن به و تقدير الكلام و نجيناه من أهل القرية أية خلّصناه منهم أو من العذاب الّذي حلّ بهم و نسب عمل الخبائث إلى القرية مجازاً و هو لأهلها و المراد بالخبائث في الآية هو أنّهم كانوا يأتون الذكران في أدبارهم و قد مرَّ الكلام في قصّة لوط و نزول العذاب على قومه في سورة الأعراف و غيرها و لذلك ذمّهم اللّه تعالى في كثير من الأيات و عبَّر عنهم في المقام بأنّهم كانوا قوم سوءٍ فاسقين، و أيُّ فسقٍ أشنع من اللّواط.

وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ

أي أدخلنا لوطاً بعد أن نجّيناه من القرية في رحمتنا الواسعة و ذلك لأنّه كان من الصّالحين، ويظهر من التّعليل أنّ الصّالح يدخل في رحمة اللّه و هو كذلك.

وَ نُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ

أي أذكر يا محمّد، نوحاً، إذ نادى من قبل أي من قبل إبراهيم و النّداء هنا الدُّعاء و المعنى إذ دعا ربّه و لعلّه إشارة إلى قوله: **رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ**[١] مفصّلاً بقوله: **رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا**[٢] فإستجبنا له، أي أجبنا دعوته فنّجيناه و أهله من الكرب العظيم، و الكرب أقصى الغّم و الأخذ بالنّفس و هو هنا الفرق عبّر عنه بأوّل أحوال ما يأخذه الغريق و كيف كان في الآية إشارة إلىٰ قصّة الطّوفان على ما مرَّ شرحه تفصيلاً فيما مضىٰ.

وَ نَصَرْنَاهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ

قيل المراد منعناه منهم أن يصلوا إليه بسوءٍ قال أبو عبيدة، من، بمعنى، على، أي و نصرناه على القوم الّذين كذّبوا، فأغرقناهم، أي أهلكناهم بالغرق و أجمعين تأكيدٌ للضّمير المنصوب.

وَ دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ

أي و أذكر يامحمّد داود و سليمان، و قال إبن عطيّة و داود و سليمان معطوفين على قوله: **وَ نُوحًا**، و هو معطوف على قوله: **وَ لُوطًا** فيكون ذلك مشتركاً في العامل الّذي هو أتينا، المقدّرة النّاصبة للوط المفسّرة بأتينا، و عليه فالتّقدير، و أتينا لوطاً و نوحاً، و داود و سليمان كذا وكذا و لا يبعد ذلك و تقدير، أذكر قاله

١- القمر = ١٠
٢- نوح = ٢٦

جماعة الزّرعوَ **دَاوُۥدَ وَ سُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ** و داود عليه السّلام كان ملكاً نبيّاً يحكم بين النّاس فوقعت هذه الواقعة وكان إبنه سليمان إذ ذاك قد كبر و كان يجلس على الباب الّذي يخرج منه الخصوم و كانوا يدخلون على داود من بابٍ أخر فتخاصم إليه رجلٌ له زرعٌ و قيل كرم، و الحرث يقال فيهما و هو في الزّرع أكثر و أبعد عن الإستعارة دخلت حرثه غنم رجلٌ فأفسدت عليه فرأياً داوود دفعها إلى صاحب الحرث فخرجا على سليمان فشكى صاحب الغنم فجاء سليمان فقال يا نبّي اللّه أنّي أرى ما هو أرفق بالجميع أن يأخذ صاحب الغنم الحرث يقوم عليه و يصلحه حتّى يعود كما كان و يأخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدّة ينتفع بمرافقها من لبنٍ و صوفٍ و نسل و إذا أعاد الحرث إلى حاله صرف كلّ مال صاحبه إليه فرجعت الغنم إلى ربّها فقال داود وفَّقت يابنّي و قضى بينهما بذلك.

قال بعض المفسّرين من العامّة الظّاهر أنّ كلاًّ من داود و سليمان حكم بما ظهر له و هو متوجّهٌ عنده فحكمها بإجتهادٍ و هو قول الجمهور و أستدّل بهذه الآية على جواز الإجتهاد و قيل حكم كلّ واحدٍ منهما بوحي من اللّه و نسخ حكم داود بحكم سليمان و أنّ معنى ففَهّمناها سليمان أي فهّمناه القضاء الفاصل النّاسخ الّذي أراد اللّه أن يستقّر في النّازلة و قرأ، لحكمهما إبن عبّاس فالضَّمير لداود و سليمان إنتهى ما ذكره ملّخصاً، أقول ما ذكره في تفسير الآية لا بأس به إلاّ أنّ قوله و أستدّل بهذه الآية على جواز الإجتهاد و أن حكمهما كان بإجتهادٍ منهما، ليس في موضعه و ذلك لأنّ أحكام الأنبياء كانت مستندة إلى الوحي و الإلهام لا إلى الإجتهاد و كأنّ هذا القائل لم يعرف معنى الإجتهاد و أنّه لا يفيد إلاّ الظّن دون القطع فيقول هذا ما أدّى إليه ظنّي وكلّ ما أدّى إليه ظنّي فهو حكم اللّه في حقّي مقلّدي فهذا حكم اللّه في حقّي مقلّدي و لا يقول هذا ما أدّى إليه قطعي و يقيني و أين هذا من أحكام الأنبياء التّي صدرت منهم على سبيل القطع و ذلك لأنّ النّبي و هكذا الوّصي معصوم عن الخطأ و

النّسيان فقول النّبي قول اللّه و حكمه حكمه و لذلك أمرنا بمتابعة الأنـبياء و لا يجوز لنا مخالفتهم قطعاً و إذا كان كذلك فكيف يحمل حكمهم على الإجـتهاد الذّي لا يفيد إلاّ الظّن و للبحث فيه مقام أخر.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلّٰا وَحْيٌ يُوحىٰ**(١) وإذا ثَبَت هذا في قول نبيّنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثبت في حقّ غيره من الأنبياء أيضاً لعدم القول بالفصل، و أعجب منه قوله أستّدل بهذه الآية على جـواز الإجـتهاد، ولم يـعلم أنّ الآيـة لا دلالة لها عليه أصلاً و كأنّه تخيّل أنّ سليمان إجتهد بخلاف مـا إجـتهد بـه داود ولم يتّفطن أنّ سليمان لم يجتهد كما أنّ داود لم يجتهد بـل هـما كـانا نـبيّان و علمهما من علم اللّه لا من عند أنفسهما أو إجتهادهما و اللّه تعالى فهّم و عـلّم سليمان في هذا الحكم ما لم يعلّم داود و هذا مـمّا لا إشكـال فـيه فأنّ مـراتب العلم متفاوتة حتّى في حقّ الأنبياء فيمكن أن يعلّم اللّه تعالى عبداً أو نبيّاً غـير ما علّم الأخر كما أنّ نبّي الإسلام كان أعلم من جميع الأنبياء و لعلّه لأجل هذا قال اللّه تـعالىٰ: **تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ**(٢) و حـاصل الكـلام لا إشكال في كون نبّيٍ أعلم من نبّيٍ أخر كلاًّ أو بعضاً و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله بعد حكمهما.

فَفَهَّمْنٰاهٰا سُلَيْمٰانَ وَكُلًّا آتَيْنٰا حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ سَخَّرْنٰا مَعَ دٰاوُدَ ٱلْجِبٰالَ يُسَبِّحْنَ وَ ٱلطَّيْرَ وَ كُنّٰا فٰاعِلِينَ

فأنّ قوله: **فَفَهَّمْنٰاهٰا سُلَيْمٰانَ**، يدلّ على أنّ هذا الحكم من سليمان كان بتفهيم اللّه إيّاه لا بإجتهاده و هو المطلوب.

قال صاحب الكشّاف ما هذا لفظه:

فأن قلت: ما وجه كلّ واحدٍ من الحكومتين.

قلت: أمّا وجه حكومة داود فلأنّ الضّرر لمّا وقع بالغنم سلمت بجنايتها إلى

١- النّجم = ٣/۴ ٢- البقرة = ٢۵٣

المجنّیٰ عليه كما قال أبو حنيفة في العبد إذا جنى على النّفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه و عند الشّافعي يبيعه في ذلك أو يفديه و لعلَّ قيمة الغنم كانت على قدر النّقصان في الحرث، و وجه حكومة سليمان أنّه جعل الإنتفاع بالغنم بأزاء ما فات من الإنتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم و أوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتّى يزول الضّرر و النُّقصان مثاله ما قال أصحاب الشّافعي فيمن غصب عبداً فأبق من يده أنّه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بأزاء ما فوّته الغاصب من منافع العبد فإذا ظهر ترادّا.

فأن قلت فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها.

قلت: أبو حنيفة و أصحابه لا يرون فيه ضماناً باللّيل أو بالنّهار إلاّ أن يكون مع البهيمة سائقٌ أو قائدٌ و الشّافعي يوجب الضّمان باللّيل و فی قوله ففَهّمناها سليمان دليلٌ على أنّ الأصوب كان مع سليمان عليه السلام و فی قوله: **وَ كُلًّا اٰتَيْنٰا حُكْمًا وَ عِلْمًا** دليل على أنّهما جميعاً كانا على الصّواب إنتهى كلامه.

أقول: و قد أطال المفسّرون من العامّة الكلام بما لا فائدة فيه و نحن أعرضنا عن نقل كلماتهم و من أراد الإطّلاع عليها فعليه بالمراجعة إلى تفاسيرهم فأنّهم قالوا فيها ما شاؤوا و أرادوا في بيان المراد من الأيات من عند أنفسهم و أمّا نحن فلا نقول في تفسير كلام اللّه إلاّ ما ورد من أهل البيت لأنّهم أدرى بما في البيت.

فنقول: في الكافي بأسناده عن أبي بَصير قال: سَألتُ أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ وَ دٰاوُودَ وَ سُلَيْمٰانَ إِذْ يَحْكُمٰانِ فِي اَلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ اَلْقَوْمِ فقال عليه السلام: لا يكون النَّفش إلاّ باللّيل أنّ على صاحب الحرث أن يحفظ الحرث بالنّهار وليس على صاحب الماشية حفظها بالنّهار أنّما رعاها بالنّهار و إرزاقها فما أفسدت فليس عليها و على صاحب الماشية حفظ الماشية باللّيل عن حرث النّاس فما أفسدت باللّيل فقد ضمنوا و هو النَّفش و أنّ

داود حكم للّذي أصاب زرعه رقاب الغنم و حكم سليمان الرّسل و الثّلاثة و هو اللّبن و الصّوف في ذلك العام إنتهى.

و عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قلت له قول اللّه عزّ وجلّ وَ داوُودَ وَ سُلَيْمٰانَ إِذْ يَحْكُمٰانِ فِي ٱلْحَرْثِ قلت حين حكما في الحرث كان قضّية واحدة فقال عليه السلام أنّه كان أوحى اللّه عزّ وجلّ إلى النّبيين قبل داود إلى أن بعث اللّه داود أيُّ غنمٍ نفشت في الحرث فلصاحب الحرث رقاب الغنم و لا يكون النّفش إلاّ باللّيل فأنّ علىٰ صاحب الزّرع أن يحفظ بالنّهار و على صاحب الغنم حفظ الغنم باللّيل فحكم داود بما حكم به الأنبياء عليهم السّلام من قبله و أوحى اللّه عزّ وجلّ إلى سليمان عليه السلام و أيُّ غنمٍ نفشت في زرعٍ فليس لصاحب الزّرع إلاّ ما خرج من بطونها و كذلك جرت السُّنة بعد سليمان و هو قول اللّه عزّ وجلّ و كلاًّ أتيناه حكماً و علماً فحكم كلّ واحدٍ منهما بحكم اللّه عزّ وجلّ إنتهى.

أقول: يظهر من هذا الحديث أنّ داود حكم بالصّواب على سيرة الأنبياء و لم يعلم أنّ الحكم صار منسوخاً و سليمان أيضاً حكم بالحقّ على ما فهّمه اللّه تعالى و صار هذا الحكم ناسخاً لما كان قبل ذلك و بهذا يرتفع الإشكال و يصدق على كلّ واحدٍ منهما أنّه حكم بحكم اللّه فلا تناقض في المقام إجتهاد و هذا هو الحقّ الحقيق بالإتّباع في تفسير الآية هذا.

إن قلت: ما وجه تخصيص التّفهيم بأحدهما دون الأخر و بعبارةٍ أخرى لم قال تعالى فهّمناها سليمان ولم يقل ففهّمناها داود.

قلت: يظهر من الأخبار أنّ التّخصيص كان لمصلحةٍ و هي.

مارواه في الكافي بأسناده عن معاوية إبن عمّار عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: أنّ الإمامة عهدٌ من اللّه عزّ وجلّ معهود لرجالٍ مسمّين ليس للإمام أن يزويها عن الّذي يكون من بعده أنّ اللّه تبارك و

تعالى أوحى إلى داود أن إتَّخذوا وصيّاً من أهلك فأنّه قد سبق في علمي أن لا أبعث نبيّاً إلاّ و له وصّيٌ من أهله و كان لداود عليه السّلام أولاد عدّة و فيهم غلامٌ كانت أمّه عند داود وكان لها محبّاً فدخل داود حين أتاه الوحي فقال لها أنّ اللّه عزّ وجلّ أوحى إلَّي يأمرني أن أتَّخذ وصيّاً من أهلي فقالت له إمرأته فليكن إبني قال ذاك أريد و كان السّابق في علم اللّه المحتوم عنده أنّه سليمان فأوحىاللّه تعالى إلى داود أن لا تجعل دون أن يأتيك أمري فلم يلبث داود أن ورد عليه رجلان يختصمان في الغنم و الكرم فأوحى اللّه عزّ وجلّ إلى داود أن أجمع ولدك فمن قضى بهذه القضيّة فأصاب فهو وصيّك من بعدك فجمع داود ولده فلمّا أن قصَّ الخصمان قال سليمان ياصاحب الكرم متى دخلت غنم هذا الرّجل كرمك قال دخلته ليلاً قال قد قضيت عليك ياصاحب الغنم بأولاد غنمك و أصوافها في عامك هذا ثمّ قال له داود فكيف لم تقض برقاب الغنم وقد قوم ذلك علماء بنيإسرائيل فكان ثمن الكرم قيمة الغنم فقال سليمان أنّ الكرم لم تجتث من أصله و أنّما أكل حمله و هو عائد في قابل فأوحى اللّه عزّ وجلّ إلى داود أنّ القضاء في هذه القضيّة ما قضى سليمان به يا داود أردت أمراً و أردت أمراً غيره فدخل داود على إمرأته فقال أردنا أمراً و أراد اللّه أمراً غيره ولم يكن إلاّ ما أراد اللّه عزّ وجلّ فقد رضينا بأمر اللّه و سلّمنا و كذلك الأوصياء ليس لهم أن يتّعدوا بهذا الأمر فيجاوزن صاحبه إلىٰ غيره إنتهى.

و عن تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: كان في بنيإسرائيل رجل وكان له كرم ونفشت فيه الغنم باللّيل و قضّمته و أفسدته فجاء صاحب الكرم إلى داود

فإستعدى على صاحب الغنم فقال داود إذهبا إلى سليمان ليحكم بينكما فذهبا إليه فقال سليمان عليه السلام: أن كان الغنم أكلت الأصل و الفرع فعلى صاحب الغنم أن يدفع إلى صاحب الكرم الغنم وما في بطنها و أن كانت ذهبت بالفرع و لم تذهب بالأصل فأنّه يدفع ولدها إلى صاحب الكرم وكان هذا حكم داود و إنّما أراد أن يعرف بني إسرائيل أنّ سليمان وصيّه بعده ولم يختلفا في الحكم ولو إختلف حكمهما يقال كنّا لحكمهما شاهدين إنتهى[1].

و أنت إذا تأمّلت في هذه الأخبار الواردة عن طريق أهل البيت لعلمت المراد من الآية الشّريفة و أمّا قوله: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُودَ ٱلْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ ٱلطَّيْرَ وَ كُنَّا فاعِلِينَ.

قال الشّيخ في التّبيان معناه سير اللّه تعالى الجبال مع داوود حيث سار فعّبر عن ذلك بالتّسبيح لما فيها من الآية العظيمة الّتي تدعو له بتعظيم اللّه و تنزيهه عن كلّ ما لا يليق له و لا يجوز وصفه به و كذلك سخّر له الطّير و عبَّر عن ذلك التّسخير بأنّه تسبيح من الطّير لدلالته على من سخَّرها قادرٌ لا يجوز عليه العجز كما يجوز على العبادة وقوله: وَ كُنَّا فاعِلِينَ أي وكنّا قادرين على ما نريده ثمّ نقل عن الجبائي أنّه قال أكمل اللّه تعالى عقول الطّير حتّى فهمت ما كان سليمان يأمرها به و ينهاها عنه إنتهى.

و قال الزّمخشري في الكتاب روي أنّه كان يمُّر بالجبال مسَّبحاً وهي تجاوبه و قيل كانت معه حيث سار فأن قلت كيف تنطق الجبال و تسُّبح، قلت بأن يخلق اللّه فيها الكلام كما خلقه في الشَّجرة حين كلَّم موسى إنتهى.

١- تفسير نور الثّقلين ج ٣ص ٤٤١ إلى ٤٤٣

و أمّا غير هذين العلمين أعني بهما الشّيخ قدس سره في التّبيان و الزّمخشري في الكشّاف فقد أخذوا ما أخذوا منهما ولم يأتوا بشئٍ جديد و أنت ترى أنّه يظهر من كلامهما أنّ الجبال و الطّير كنتا تحت تسخير داوود و الآية الشّريفة تدلّ على أمرٍ آخر غير ما ذكروه ضرورة وجود الفرق بين قوله تعالىٰ: **وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ** و قولهم في الآية إذ لو كان الأمر كما ذكروه لقال و سخّرنا لداود الجبال ولم يقل ذلك بل قال مع داود اللّهم إلاّ أن يقال بعدم الفرق بين قوله لداود، و قوله: **مَعَ داوُدَ** و هو كما ترى هذا كلّه مضافاً الى أنّ تسخير الجّبال و غيرها من الجمادات و النّباتات ثابت لغير داوود أيضاً في كثير من الآيات مع أنّ الآية في مقام الإمتنان، ولّذي يقتضيه النّظر بعد التّمل في الآية هو أنّ اللّه تعالى بصدد إثبات شئٍ آخر غير ما ذكره المفسّرون و هو أنّ التّسبيح لا يختّص بداوود من أفراد الإنسان بل هو ثابت عقلاً و شرعاً و نقلاً في حقّ جميع المخلوق.

قال اللّه تعالىٰ: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **يُسَبِّحُ لِلّٰهِ ما فِي السَّمٰواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ**(٢).

و من المعلوم أنّ تسبيح كلّ موجودٍ بحسبه فالآيات تدلّ على ثبوت التّسبيح في الكلّ حتّى الجماد و النبات و هذا لا خلاف فيه إلاّ أنّ تسبيح الموجود من حيث مخلوق لخالقه شئٌ و تسبيحه بتسبيح الإنسان شئ آخر يدلّ على شرف الإنسان و فضله و الآية ناظرة الى هذا المعنى فالمراد بالتّسخير في الآية ليس معناه اللّغوي بل المراد به متابعة الجّبال أو الطّير أو غيرها لداوود و هذا له فضل عظيم و مع ذلك يدلّ على شرف بني آدم و أنّه أفضل المخلوق و لا سيّما الإنسان الكامل الّذي له مظهريّة الأتّم لخالقه و

١- الاسراء = ٤٤ ٢- الجمعة = ١

حيث أنّ داوود عليه السّلام كان كذلك خص بالذّكر في الآية و هذا معنى قوله: وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ هذا ما فهمناه من الآية و اللّه تعالى أعلم.

وَ عَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ

قرأ بالنّون أبوبكر عن عاصم و قرأ إبن عامر و حفص عن عاصم بالتّاء، و الباقون بالياء، الضّمير في قوله: وَ عَلَّمْنَاهُ، راجع الى داوود أي علّمنا داوود النّبي صنعة لبوس قيل اللّبوس الملبوس فعول بمعنى مفعول كالرّكوب بمعنى المركوب و هو الدّرع هنا و قيل اللّبوس كلّ آلةِ السّلاح من سيفٍ و رمحٍ و درعٍ و بيضةٍ و ما يجري مجرى ذلك و داود أوّل من صنع الدروع قيل نزل ملكان من السّماء فمّرا بداوود فقال أحدهما للآخر نعم الرّجل إلاّ أنّه يأكل من بيت المال فسأل اللّه أن يرزقه من كسبه فألان له الحديد فصنع منه الدّروع و روي عن الصّادق عليه السلام أنّه قال أميرالمؤمنين عليه السلام أوحى اللّه عزّ وجّل الى داوود أنّك لنعم العبد لولا أنّك تأكل من بيت المال و لا تعمل بيدك شيئاً قال عليه السلام فبكى داوود أربعين صباحاً فأوحى اللّه عزّ وجّل الى الحديد أن، لن، لعبدي داود فألان له الحديد فكان يعمل في كلّ يوم درعاً فيبيعها بألف درهم فعمل ثلث مئة و ستّين درعاًفباعها بثلث مائة و ستّين ألفٍ وأستغنى عن بيت المال إنتهى.

و كيف كان فقد إمتّن اللّه عليه بإيتائه حكماً و علماً و تسخير الجبال و الطّير معه و تعليم صنعة اللّبوس و فى ذلك فضل هذه الصّنعة إذا سند تعليمها إيّاه إليه تعالى ثمّ إمتّن علينا بها بقوله: لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ أي ليكون وقاية لكم في حربكم و سبب نجاةٍ من عدّوكم و إلى هذا المعنى أشار بقوله: فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ.

وَ لِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ

و التّقدير و سخّرنا لسليمان الرّيح لمّا ذكر اللّه تعالى ما خصّ به نبيّه داوود عليه السلام ذكر ما خّص سليمان عليه السلام فقال لسليمان الرّيح قال بعض المفسّرين ذكر تسخير الرّيح لسليمان با اللاّم فقال و لسليمان الرّيح و ذكر تسخير الجبال لداود بلفظ، مع، فقال و سخّرنا مع داود الجبال في موضع أخر، يا جبال أوّبي معه، و في سليمان فسّخرنا له الرّيح تجري بأمره و ذلك أنّه لمّا إشتركا في التّسبيح ناسب ذكر، مع، الدّالة على الإصطحاب و لمّا كانت الرّيح مستخذمة لسليمان أضيفت إليه بلام التّمليك لأنّها في طاعته و تحت أمره إنتهى.

أقول: ما ذكره لا يسمن و لا يغني ثمّ أنّ اللّه تعالى وصف الرّيح بالعصف و هو الشّدة و المراد بالأرض قيل أرض الشّام و قيل أرض فلسطين و قيل بيت المقدّس قيل وصفت الأرض بالبركة لأنّه إذا حلَّ أرضاً أصلحها بقتل كفّارها و إثبات الإيمان فيها و بثّ العدل و لا بركة أعظم من هذا قيل في الآية تقديم و تأخير يعني أنّ أصل التّركيب ولسليمان الرّيح التّي باركنا فيها عاصفة تجري بأمره إلى الأرض فعلى هذا تكون، عاصفة صفة الرّيح و قوله باركنا فيها صفة بعد صفة و أنت ترى أنّ الآية لا تحتاج إلى هذه التّكلفات التّي لا يقبلها العقل السّليم.

وَ مِنَ ٱلشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ

أي و سخّرنا لسليمان قوماً من الشّياطين يغوصون له في البحر و يعملون عملاً دون ذلك أي سوى ذلك، وكنّا لهم حافظين، من الإفساد لما عملوه.

أقول: و سيجئ الكلام في قصّة داود و سليمان في سورة، سبأ إن شاء اللّه تعالى و نذكر هناك ما وصل إلينا من الأخبار في حقّهما.

■

وَ أَيُّوبَ إِذْ نادىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَ أَنْتَ
أَرْحَمُ ٱلرّاحِمِينَ ﴿۸۳﴾ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ
مِنْ ضُرٍّ وَ اٰتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ
عِنْدِنا وَ ذِكْرىٰ لِلْعابِدِينَ ﴿۸۴﴾ وَ إِسْماعِيلَ وَ
إِدْرِيسَ وَ ذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ ٱلصّابِرِينَ ﴿۸۵﴾ وَ
أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنآ إِنَّهُمْ مِنَ ٱلصّالِحِينَ ﴿۸۶﴾
وَ ذَا ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ
عَلَيْهِ فَنادىٰ فِى ٱلظُّلُماتِ أَنْ لآ إِلٰهَ إِلآّ أَنْتَ
سُبْحانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ ٱلظّالِمِينَ ﴿۸۷﴾ فَاسْتَجَبْنا
لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَ كَذٰلِكَ نُنْجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿۸۸﴾ وَ زَكَرِيّآ إِذْ نادىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا
وَ أَنْتَ خَيْرُ ٱلْوارِثِينَ ﴿۸۹﴾ فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا
لَهُ يَحْيىٰ وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كانُوا
يُسارِعُونَ فِى ٱلْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَبًا وَ
رَهَبًا وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ ﴿۹۰﴾ وَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ
فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ٱبْنَهآ
اٰيَةً لِلْعالَمِينَ ﴿۹۱﴾

◀ اللّغة

ٱلضُّرُّ: بالضّم الضّرر في النّفس من مرضٍ و هزالٍ وبالفتح الضّرر في كلّ شيءٍ.
وَ ذَا ٱلنُّونِ: النُّون الحوت و ذو بمعنى صاحب، أي صاحب الحوت يونس النّبي.

نَقْدِرَ: أي نضيق.
لَا تَذَرْني: أي لا تتركني أو لا تبقيني.
أَحْصَنَتْ: الإحصان إحراز الشّيئ من الفساد و الباقي واضح.

◀ الإعراب

رَحْمَةً وَ ذِكْرَى مفعول له وقوله مُغَاضِبًا حال رَغَبًا وَ رَهَبًا مفعول له أو مصدر في موضع الحال أو على المعنى وَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ في موضع رفع وَءَايَةً مفعول ثانٍ.

◀ التّفسير

وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ.

قيل كان أيُّوب روميّاً من ولد إسحاق بن يعقوب وكان من الأنبياء و قد بسط اللّه عليه الدّنيا و كثر أهله و ماله وكان له سبع بنين و سبع بنات وله أصناف البهائم و خمس مائة فدان يتبعها خمس مائة عبيدٍ لكلّ عبدٍ إمرأة و ولد و نخيل فإبتلاه اللّه بذهاب ولده إنهدم عليهم البيت فهلكوا و بذهاب ماله و بالمرض في بدنه ثمان عشرة سنة و قيل دون ذلك فقالت له إمرأته يوماً لو دعوت اللّه فقال لها كم كانت مدّة الرّخاء فقالت ثمانين سنة فقال أنا أستحي من اللّه أن أدعوه بلغت مدّة بلائي مدّة رخائي فلمّا كشف اللّه عنه أحيا ولده و رزقه مثلهم و نوافل منهم.

و روي أنّ إمرأته ولدت بعد سنّة و عشرين إبناً و ذكروا كيفيّة ذهاب ماله و أهله و تسليط إبليس عليه و غير ذلك من الأباطيل و الخرافات و نحن نذكر قصّته من الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام الذّين عصمهم اللّه عن الخطأ و النّسيان فنقول:

لا شكّ في أصل القضيّة و هو أنّ أيُّوب النّبي مسّه الضُّر و إبتلى بالمصائب

و النّوائب و أنّما قلنا لا شكّ فيه لأنّ القرآن صرَّح به و من أصدق من اللّه قيلاً و أمّا كيفيّة القضيّة:

فقد روى المجلسي قدس سره في البحار عن جعفر بن محمّد عليه السلام عن أبيه قال: أنّ أيُّوب إبتلى سبع سنين بغير ذنبٍ و أنّ الأنبياء لا يذنبون لأنّهم معصومون مطهّرون لا يذنبون و لا يزيغون و لا يرتكبون ذنباً صغيراً و لا كبيراً و أنّ أيُّوب من جيمع ما إبتلى به لم تنتن له رائحة قبحت له صورة و لا خرجت منه مدّة من الدَّم و لا قيح و لا إستعذره أحد رأه و لا إستوحش منه أحد شاهده و لا تدَّود شئ من جسده و هكذا يصنع اللّه عزّ وجلّ بجميع من يبتليه من أنبياءه و أولياءه المكرمين عليه و أنّما إجتنبه النّاس لفقره و ضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بما له عند ربّه تعالى ذكره من التّأييد و الفرج و قد قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أعظم النّاس بلاءً الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل و أنّما إبتلاه اللّه عزّ وجلّ بالبلاء العظيم الّذي يهون معه على جميع النّاس يدّعوا له الرّبوبية إذا شاهدوا ما أراد أن يوصله إليه من عظائم نعمه تعالى متى شاهدوه و ليستدلّوا بذلك على أنّ الثّواب من اللّه تعالى على ضربين:

إستحقاق، وإختصاص، ولئّلا يحتقروا ضعيفاً لضعفه و لا فقير لفقره و لا مريضاً لمرضه و ليعلموا أنّه تعالى يسقم من يشاء و يشفي من يشاء متى شاء وكيف شاء بأيّ سببٍ شاء و يجعل ذلك عبرةً لمن شاء و شقاوة لمن شاء و سعادة لمن شاء و هو عزّ و جلّ في جميع ذلك عدل في قضاءه حكيمٌ في أفعاله لا يفعل بعبادة إلاّ الأصلح لهم و لا قوّة لهم إلاّ به إنتهى.

قال المجلسيقدّس سرّه بعد نقل الحديث هذا الخبر أوفق بأصول متكلّمي الإماميّة من كونهم منزّهين عمّا يوجب تنَّفر الطّباع عنهم فتكون الأخبار الأخر محمولة موافقة للعامّة لكن إقامة الدلّيل على نفي ذلك عنهم مطلقاً ولو بعد ثبوت نبوّتهم و حجّتيهم لا يخلو عن الإشكال مع أنّ الأخبار الدّالة على ثبوتها أكثر و أصحَّ و بالجملة للتَّوقف فيه مجال.

قال السّيد المرتضىقدّس سرّه في كتاب تنزيه الأنبياء فأن قيل أفتصحّون ماروي من أنّ الجذام أصابه حتّىٰ تساقطت أعضاءه.

قلنا أمّا العلل المستقذرة التّي تنَّفر من رأها و توّحشه كالبرص و الجذام فلا يجوز شئ فيها على الأنبياء و لما تقدّم ذكره لأنّ النّفور ليس بواقفٍ على الأمور القبيحة بل قد يكون من الحسن و القبح معاً و ليس ينكران أن يكون أمراض أيُّوب و أوجاعه و محنته في جسمه ثمّ في أهله و ماله بلغت مبلغاً عظيماً تزيد في الغّم و الألم على ما ينال المجذوم و ليس ينكر تزايد الألم فيه و أنّما ينكر ما إقتضى التَّنفير إنتهى.

أقول: هذا هو الحقّ الحقيق بالإتّباع في قصّة أيُّوب و أمّا ما ذكرته العامّة فلا دليل على صحّته أمّا أوّلاً فلأنّ العقل السّليم لا يقبله لشناعته و قبحه

ثانياً: أنّهم نقلوا ما نقلوا عن وهب إبن منبه و كعب الأحبار و أمثالهما مثل ما ذكره الثّعلبي في العرائس عنهما و حالهما معلومٌ في عدم الوثوق بنقلهما و كيف كان فمن أراد الإطّلاع على ما ذكروه فعليه بمراجعة كتبهم و تفاسيرهم.

فَاسْتَجَبْنٰا لَهُ فَكَشَفْنٰا مٰا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنٰاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنٰا وَ ذِكْرىٰ لِلْعٰابِدِينَ

دلّت الآية على أنّ الله أجاب دعوة أيُّوب فرفع عنه المرض و غيره ممّا كان فيه و أعاد عليه أهله و ماله و كلّ ما فات منه فقد روى علّي بن إبراهيم في تفسيره لهذه الآية:

بأسناده عن أبي عبد اللّه في قول اللّه عزّ وجلّ، وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ و مثلهم معهم، قال عليه السلام: أحيا اللّه له أهله الّذين كانوا قبل البَّلية و أحيا له الّذين ماتوا و هو في البَّلية إنتهى.

و عن روضة الكافي بأسناده عنه عليه السلام قال: أحيا اللّه له من ولده الّذين كانوا ماتئا قبل ذلك بأجالهم مثل الّذين هلكوا يومئذٍ إنتهى.

و قال الطّبري في تفسيره لهذه الآية أرسل مجاهد رجلاً يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن قول اللّه لأيُّوب و أتيناه أهله و مثلهم معهم، فقال قيل له أنّ أهلك لك في الأخرة فأن شئت عجَّلناهم لك في الدُّنيا و أن شئت كانوا لك في الأخرة و أتيناك مثلهم في الدُّنيا فقال يكونون لي في الأخرة و أوتي مثلهم في الدُّنيا قال فرجع إلى مجاهد فقال أصاب و قال أخرون بل ردَّهم إليه بأعيانهم و أعطاه مثلهم معهم.

و نقل عن إبن عبّاس أنّه قال لمّا دعا أيُّوب إستجاب له و أبدله بكلّ شيءٍ ذهب له ضعفين ردَّ إليه أهله و مثلهم معهم إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و أمّا قوله تعالى: **رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ**، مَعناه ليتّذكروا و يعلموا أنّ اللّه يبتلي أولياءه ثمّ يؤتيهم أجرهم و لا يضيع أجر المحسنين، و قيل في معناه، أي عظةٌ يتّذكر به العابدون للّه تعالى مخلصين.

أقول: و سيجئ الكلام في قصّة أيُّوب في سورة، ص.

وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ

و المراد بإسماعيل على ما قيل هو إسماعيل بن إبراهيم و أنمّا جعله اللّه من الصّابرين لأنّه صبر ببلدٍ لا زرع به و لا ضرع و هو أرض مكّة و مع ذلك قام ببناء الكعبة مع أبيه إبراهيم و أمّا إدريس النّبي فأنّه صبر على الدّعاء الى اللّه و كان أوّل من بعث الى قومه فدعاهم الى الّدين فأبوا فأهلكهم اللّه و رفعه الى السّماء السّادسة و أمّا ذو الكفل فإختلف فيه فقيل أنّه كان رجلاً صالحاً ولم

يكن نبيّاً و لكنّه تكفّل لنبّيٍ بصوم النّهار وقيام اللّيل و قيل أنّه كان نبيّاً و إسمه ذو الكفل و قيل هو الياس و قيل غير ذلك و كيف كان فقد وصفهم اللّه بالصّبر و فيه إشارة بأنّ الصّبر من أحسن الصّفات و لذلك مدح اللّه الصّابرين في كثير من الأيات لأنّه مفتاح الفرج.

و روي المجلسيقدس‌سره في البحار عن إبن طاوسقدس‌سره في سعد السُّعود أنّه قال في وجه تسميته ذي الكفل به، أنّه تكفّل للّه تعالىٰ جلّ جلاله أن لا يغضبه قومه فسمّي ذا الكفل قيل تكفّل لنبّيٍ من الأنبياء أن لا يغضب فإجتهد إبليس أن يغضبه بكلّ طريقٍ فلم يقدر فسمّي ذا الكفل لوفاءه لنبّي زمانه أنّه لا يغضب إنتهى.

وَ أَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُمْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ

أي أدخلنا هؤلاء و هم إسماعيل و إدريس و ذالكفل، في رحمتنا أي في نعمتنا و قيل المعنى، غمرناهم بالرّحمة لكونهم من الصّالحين.

وَ ذَا ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَاتِ أَنْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ

ذو النُّون هو يونس صاحب الحوت سمّي به لذلك فأنّ النُّون الحوت قيل أنّه غضب على قومه فذهب و خرج من قومه مغاضباً فظّن أنّ اللّه لا يضيق عليه فوقع فيما وقع من بطن الحوت فنادى هناك أن لا إله إلاّ أنت الى آخر الآية.

كيفيّة القضية على ما يظهر من الأخبار هو أنّ اللّه تعالى بعث يونس بن متى رسولاً الى أهل نينوى فكان يونس يدعوهم الى الإسلام فيأبوا ذلك فهمَّ أن يدعو عليهم وكان فيهم رجلان عابدٌ و عالمٌ وكان إسم أحدهما مليخا و الأخر إسمه روبيل و كان العابد يشير على يونس بالدُّعاء عليهم وكان العالم ينهاه و يقول لا تدُّعن عليهم فأنّ اللّه يستجيب لك و لا يحب هلاك عباده فتقبل قول

العابد ولم يقبل قول العالم فدعا عليهم فأوحى اللّه اليه يأتيهم العذاب في سنة كذا في شهر كذا في يوم كذا فلمّا قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد و بقى العالم فيها فلمّا كان اليوم الّذي نزل العذاب قال العالم لهم يا قوم إفزعوا الى اللّه فلّعله يرحمكم فيَّرد العذاب عنكم فقالوا كيف نصنع قال إجتمعوا و أخرجوا الى المفازة و فرّقوا بين النّساء و الأولاد و بين الإبل و أولادها و بين البقر و أولادها و بين الغنم و أولادها ثمّ إبكوا و إدعوا فذهبوا و فعلوا ذلك و ضجّوا و بكوا فرحمهم اللّه و صرف عنهم العذاب و فرّق العذاب على الجبال و قد كان نزل و قرب منهم فأقبل يونس كيف أهلكهم اللّه فرأى الزّارعين يزرعون في أرضهم فقال لهم ما فعل قوم يونس قالوا و لم يعرفوه أنّ يونس دعا عليهم فإستجاب اللّه له و نزل العذاب عليهم فإجتمعوا و بكوا فرحمهم اللّه و صرف عنهم و فرّق العذاب على الجبال فهم إذاً يطلبون يونس ليؤمنوا به فغضب و مرَّ على وجهه مغاضباً كما حكى اللّه عنه.

و أمّا قوله: **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** فمعناه ظنَّ أن لا نضيق عليه.

و قيل، ظنَّ، هنا بمعنى إستيقن أي أنّ اللّه لن يضيق عليه رزقه كما قال تعالى و أمّا إذا ما إبتلاه فقدر عليه رزقه أي ضيّق عليه رزقه ولو ظنَّ أحد أنّ اللّه لا يقدر عليه لكان قد كفر باللّه، و قوله: **فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ** فالمراد ظلمات بطن الحوت لمّا وقع فيها فقال: **لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ** على نفسي حيث ذهبت مغاضباً فهذا الظُّلم منه، عليه السلام كالظُّلم من أبيه آدم حيث قال ظلمنا أنفسنا، و يعبّر عنه بترك الأولى فأنّ النّبي لا يذنب لمكان عصمته و قد فرغنا عن البحث في عصمة الأنبياء في قصّة آدم و حوّاء بما لا مزيد عليه و قلنا هناك ما ينبغي أن يقال به **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ**

قال اللّه تعالىٰ: **أَمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ**[١].

و الحاصل على العبد الدُّعاء و على اللّه الإجابة:

قال اللّه تعالىٰ: **ٱدْعُونيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ**.

و هذا ممّا لا شكّ نعم إجابة الدُّعاء مشروطة بوجود المصلحة وللبحث فيه مقام آخر.

وَ زَكَرِيّآ إِذْ نادىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْني فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ ٱلْوارِثِينَ قد مرَّ قصّة زكريّا في سورة أل عمران عند قوله تعالى: **هُنالِكَ دَعا زَكَرِيّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَميعُ ٱلدُّعآءِ**[٢] إلىٰ أخر الأيات فلا نعيد الكلام بذكرها ثانياً.

و أمّا قوله في هذه الآية **رَبِّ لا تَذَرْني فَرْداً**، أي وحيداً بلا وارث سأل ربّه أن يرزقه ولداً يرثه ثمّ ردَّ أمره إلى اللّه فقال و أنت خير الوارثين أي إن لم يرزقني من يرثني فأنت خير وارثٍ.

أقول: في المقام سؤال و هو أنّ الآية صرَّحت بأنّ زكريّا دعا ربّه و طلب منه الولد لأن يكون وارثاً له بدليل قوله تعالى في موضع أخر **فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُني وَ يَرِثُ مِنْ الِ يَعْقُوبَ وَ ٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**[٣] و لا شكّ أنّ زكرّيا كان من الأنبياء فيعلم منها أنّ الأنبياء يورثون كغيرهم من أحاد النّاس و على هذا فما معنى ما نقله أبو بكر عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث، فأن كان أبو بكر صادقاً في قوله ونقله الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم فهو مخالف لما صرَّح به القرآن وكيف حكم الرّسول بخلاف ما حكم به اللّه في كتابه مع أنّ الرّسول مأمورٌ بتبليغ أحكام اللّه بل لا معنى للرّسالة إلاّ هذا و أن كان كاذباً في قوله كما هو كذلك قطعاً فعليه وزره مضافاً إلى أنّ نسبة الكذب إلى الرّسول في

١- النّمل = ٦٢ ٢- آل عمران = ٣٨

٣- مريم = ٦ / ٥

الحقيقة نسبة الكذب إلى اللّه تعالى فيرجع المعنى إلى أنّ اللّه تعالى كذّب قوله في الحكم لأنّه تعالى حكم بثبوت الإرث في حقّ الأنبياء و كذّبه ثانياً في حقّهم و هذا كما ترى.

فأن قلت لعلَّ اللّه تعالى نسخ حكم التّوارث بين الأنبياء في شريعة الإسلام.

قلت الحديث الّذي رواه أبو بكر ينادي بعدم النّسخ لأنّه لم يقل أنا لا أورث بل قال نحن معاشر الأنبياء و عليه فكان حقّ واضع الحديث و جاعله أن يقول قال رسول اللّه ﷺ أنا لا أورث بصيغة المفرد ليصحّ النّسخ بناءً على صحّة نسخ الكتاب بالسُّنة بل بخبرٍ واحدٍ فإعتبروا يا أولي الأبصار و العجل من أشياع أبو بكر و أتباعه أنّهم تلّقوه بالقبول و أن كان مخالفاً لحكم اللّه و هذا معنى و لهم قلوبٌ لا يفقهون بها أولئك كالأنعام بل هم أضّل.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَ أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَ رَهَبًا وَ كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ

إختلفوا في معنى المراد بقوله و أصلحنا له زوجه، على أقوالٍ:

فقال قتادة أنّها كانت عقيماً فجعلها اللّه و لوداً.

و قيل كانت سيّئة الخلق فرزقها اللّه حسن الخلق.

و قيل إصلاحها ردّ شبابها إليها، و الضّمير في قوله، أنّهم عائد على الأنبياء السّابق ذكرهم أي إستجابتنا لهم في طلباتهم كان لمبادرتهم الخير ولدعائهم لنا رغباً و رهباً أي وقت الرَّغبة و وقت الرَّهبة و قيل الضّمير يعود إلى زكريّا و زوجته و إبنهما يحيى و قوله: **لَنَا خَاشِعِينَ** أي متواضعين خاضعين.

قال الرّاغب في المفردات الخشوع الضَّراعة و أكثرها ما يستعمل الخشوع فيما يستعمل على الجوارح و الضّراعة أكثر ما يستعمل فيما يوجد في القلب و لذلك قيل إذا ضرع القلب خشعت الجوارح إنتهى.

أقول: الخشوع من شئون العبوديّة لأنّها لا تتّحقق إلاّ به فمن كان عبداً واقعاً يكون خاشعاً.

وَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَ جَعَلْنَاهَا وَ ٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ

الإحصان إحراز الشّيْ من الفساد و المراد بقوله: **وَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا**، هو مريم بنت عمران، قيل أحصنت فرجها بمنعه عن الفساد و لمّا كانت كذلك أثنى اللّه عليها و رزقها ولداً عظيم الشّأن لا كالأولاد المخلوقين من حيث النّطفة و جعله نبيّاً و هو عيسى بن مريم وقوله: **وَ جَعَلْنَاهَا وَ ٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ**، قيد أنّما أفرد، أية، لأنّه حالهما أي حال مريم و عيسى لمجموعهما أية واحدة و هى ولادتها إيّاه من غير فحلٍ و أن كان في مريم أيات و فى عيسى أيات منه لكنّه هنا لحظ أمر الولادة من غير ذكرٍ و ذلك هو أيةٌ واحدة و قوله: **لِّلْعَالَمِينَ**، أي لمن إعتبر من عالمي زمانها فمن بعدهم.

قال صاحب الكشّاف **أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا** إحصاناً كليّاً من الحلال و الحرام جميعاً كما قال: **وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا**[1].

فأن قلت نفخ الرُّوح في الجسد عبارة عن إحياءه قال اللّه تعالى فإذا سوّيته و نفخت فيه من روحي، أي أحييته و إذا ثبت ذلك كان قوله: **فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا** ظاهر الإشكال لأنّه يدلّ على إحياء مريم.

قلت: معناه نفخنا الرُّوح في عيسى فيها أي أحييناه في جوفها ونحو ذلك أن يقول الزّنار نفخت في بيت فلان أي نفخت في المزمار في بيته و يجوز أن يراد و فعلنا النّفخ في مريم من جهة روحنا و هو جبرئيل عليه السلام لأنّه نفخ في جيب درعها فوصل النّفخ إلى جوفها إنتهى ما ذكره.

١- مريم = ٢٠

و أنا أقول: ليس في الآية إشكال كما زعمه حتّى نحتاج إلى هذه التكلّفات الباردة.

أمّا أوّلاً: فهو أنّ النّفخ ليس معناه الإحياء فقوله أنّ نفخ الرُّوح في الجسد عبارة عن إحياءه، أوّل الكلام و لا دلالة في الآية التّي إستدلّ بها على مدّعاه على أنّ النّفخ بمعنى الإحياء بل قوله تعالى و نفخت فيه من روحي، يدلّ على أصل النؤفخ.

و أمّا أنّه بمعنى الإحياء فلا يستفاد من الآية نعم لا يبعد أن يكون للإحياء و السَّبب لا يكون بمعنى المسّبب بل يكون وسيلةً و ألةً للوصول إلى المسّبب فالقول بأنّ النَّفخ بمعنى الإحياء لا معنى له.

قال الرّاغب في المفردات نفخة الرّبيع حين أعشب و رجلٌ منفوخ أي سمينٌ إنتهى.

ثانياً: على فرض التّسليم و أنّ النّفخ بمعنى الإحياء و هو يدلّ على إحياء مريم، نقول لا إشكال فيه لأنّ الإحياء تارةً يقال و يراد به الإيجاد في الخارة و تارةً يقال و يراد به ترَّتب الأثار على الموجود بل الموجود الخارجي مع قطع النَّظر عن الأثار المترتّبة عليه ليس متصّفاً بالحياة و أن كان متصّفاً بالوجود فكُلّ حيٍّ موجود و لا عكس.

إذا عرفت هذا فنقول على فرض كون النَّفخ بمعنى الإحياء يلزم إحياء مريم بالنَّفخ و أمّا قبله فلا لأنّ الأثر المتّرتب على الأنثى هو الولد فمن لا ولد له لا حياة له واقعاً و ان كان موجوداً فقوله: **فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا**، يعني أحييناها بالولد و هذا ممّا لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً فلا نحتاج الى القول بإنّا أحييناه أي عيسى في جوفها، بل المعنى أحيينا مريم بالنَّفخ هذا أوّلاً.

و ثانياً كيف تعلّق الإحياء بعيسى بسبب النَّفخ و الآية ظاهرة في أنّ النَّفخ كان في مريم و ما ذكره من المزمار في البيت، فهو من المجاز في الكلام و حمل

الآية على المجاز من غير دليلٍ خلاف الأصل فتَّحصل ممّا ذكرناه أنّ الأصل يقتضي حمل الآية على معناها الحقيقي و هو إحياء مريم فتّأمل جيّداً.

و أمّا قوله في وجه إفراد الآية حيث لم يقل، آيات بصيغة الجمع، فالظّاهر أنّ المراد بها في الكلام جنس الآية و هو يشمل المفرد و الجمع و لعلّه لذلك نكرَّها و الأمر واضح على المتأمل النَّفخ في مريم فقد مرَّ الكلام فيها مفصّلاً فلا نعيد الكلام بذكرها ثانياً.

■

إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنّا لَهُ كاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَ حَرامٌ عَلىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتّىٰ إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَ ٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذا بَلْ كُنّا ظالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كانَ هٰؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا ٱلْحُسْنىٰ أُولٰئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَ هُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقّيٰهُمُ ٱلْمَلائِكَةُ هٰذا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

◀ اللّغة

أُمَّتُكُمْ: الأمّة الجماعة التّي على مقصدٍ واحد و قيل معناه جماعة واحدة في إنّها مخلوقة مملوكة للّه.

يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ: هما إسمان أعجميّان و هم قبيلان ولو كانا عرَّبيين لكانا من أجَّ النّار أو الماء الأجاج.

حَدَب: الحدب الأكم و قيل هو الإرتفاع من الأرض بين الإنخفاض.

يَنْسِلُونَ: النّسول الخروج عن الشّئ الملابس يقال نسل ريش الطّائر إذا سقط.

حَصَبُ جَهَنَّمَ: أي وقودها و قيل حطبها و الباقي واضح.

◀ الإعراب

أُمَّتُكُمْ بالرّفع على أنّه خبر، إنّ، و بالنّصب على أنّه عطف بيان، و أمّة، بالنّصب حال و بالرّفع بدل من، أمّتكم، أو خبر مبتدأ محذوف وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ قيل عدّي بنفسه لأنّه بمعنى قطّعوا و قيل هو تمييز أي تقطع أمرهم حَرامٌ مرفوع بالإبتداء و الخبر أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ و لا زائدة أي ممتنعٌ رجوعهم و قيل الخبر محذوف تقديره توبتهم فَإِذا هِيَ إذا للمفاجأة و هي مكان و العامل فيها و هي شاخِصَةٌ ضمير القصّة و أَبْصارُ الَّذِينَ مبتدأ و شاخصة، خبره يا وَيْلَنا في موضع نصب بقالوا المقدّرة لا يَسْمَعُونَ بدل من مُبْعَدُونَ و يجوز أن يكون حالاً من الضّمير في، مبعدون، و أن يكون خبراً ثانياً.

◀ التّفسير

إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ.

قيل، هذه، إشارة إلى ملّة الإسلام أي أنّ ملّة الإسلام هي ملّتكم التّي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها ملّةٌ واحدة غير مختلفة و على هذا فقوله: أُمَّتُكُمْ خطاب لمعاصري الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و قيل، إشارة إلى الطّريقة التّي كان عليها الأنبياء المذكورون من توحيد اللّه تعالى فالمعنى هي طريقتكم و ملّتكم طريقةً واحدة لا إختلاف فيها في أصول العقائد بل ما جاء به الأنبياء من ذلك هو ما جاء به محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم.

و قيل معنى أمّة واحدة مخلوقة له تعالى مملوكة له فالمراد بالأمّة النّاس كلّهم.

و قيل أنّ الكلام متّصلٌ بقصّة مريم و إبنها أي و جعلناها و إبنها أية للعالمين بأن بعث لهم بملّةٍ و كتاب و قيل لهم أنّ هذه أمّتكم أي دعا الجميع إلى الإيمان باللّه و عبادته و قوله: **وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** بكسر النُّون فأنّ الأصل فيه فأعبدوني، حذفت الياء لدلالة الكسرة على حذفها رعايةً للسَّجع في الأيات و المقصود أنّ العبادة لا تكون إلاّ للرَّب أداءً لحقّ الرّبوبية فالمربوب يعبد الرَّب و لا يعبد مربوباً أخر لعدم التّرجيح بين المربوبين من هذه الجهة.

وَ تَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ

أي أنّهم إختلفوا أمرهم بينهم و المراد بالأمر الدِّين أي إختلفوا في الدِّين بما لا يسوغ و لا يجوز و الضّمير في **وَ تَقَطَّعُوٓا** عائد على ضمير الخطاب على سبيل الإلتفات أي و تقَّطعتم و لمّا كان هذا الفعل من أقبح القبائح عدل عن الخطاب إلى الغيبة كأنّ هذا الفعل ما صدر من المخاطب ثمّ قال كلٌّ إلينا راجعون و فيه إشارة إلى قوله إنّا للّه و إنّا إليه راجعون، و قد ثبت أنّ كلّ شيء يرجع إلى أصله و المراد بذكر الرّجوع في المقام ليس مجّرد الأخبار عنه لوضوحه و أنّما المقصود من ذكر الرّجوع إليه تعالى هو الرّجوع إليه للحساب و السّؤال.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ

العمل الصّالح يقال لكلّ عملٍ يؤيّده العقل و الشّرع و يحكمان بحسنه إلاّ أنّه تارةً يصدر من فاعله لأجل التَّقرب إلى اللّه و تارةً يصدر منه رياءً لغرض من الأغراض الدُّنيوية فأن كان العامل مؤمناً باللّه حقيقتاً فلا محالة يعمل للّه و إلاّ فلا و إلى هذا أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ هُوَ مُؤْمِنٌ**.

و الظّاهر أنّ الواو و للحال أي حال كونه مؤمناً و إذا كان كذلك فلا كفران لسعيه في عمله و الكفران لحرمان الثّواب كما أنّ الشّكر مثلٌ في إعطاءه إذا قيل للّه شكور و المعنى أنّ المؤمن لا يحرم عن الثّواب على عمله و قوله: **وَ إِنَّا لَهُ كٰاتِبُونَ،** أي إنّا لعمله و سعيه كاتبون بواسطة الملك الموّكل عليه فقوله لا كفران لسعيه في الحقيقة كناية عن حسن عمله و أنّه مقبول عند اللّه و قوله: **كٰاتِبُونَ،** معناه إثبات عمله الصّالح في صحيفة الأعمال ليثاب عليه يضيع، و الكفران مصدر كالكفر قال الشّاعر:

رأيت أناساً لا تنام جدودهم وجدي و لا كفران للّه نائمُ

وَ حَرٰامٌ عَلٰى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰآ أَنَّهُمْ لاٰ يَرْجِعُونَ

قوله: **وَ حَرٰامٌ** بفتح الحاء و تنوين الميم قراءة الجمهور و عليها المصاحف و قرأ الكسائي و طلحة و الأعمش و غيرهم، حرمٌ، بكسر الحاء و سكون الرّاء و قرأ قتادة بفتح الحاء و سكون الرّاء و قرأ عكرمة، بكسر الرّاء والتّنوين.

و قرأ إبن عبّاس و قتادة أيضاً بكسر الرّاء و فتح الحاء والميم على المضّي، و قرأ زيد بن علّي و من تبعه بضّم الرّاء و فتح الحاء والميم على المضّي أيضاً و فى قراءة أخرى لإبن عبّاس فتح الحاء والرّاء والميم على المضّي أيضاً.

قيل أن الحرام في الآية أستعير للممتنع وجوده و منه قوله: **إِنَّ اَللّٰهَ حَرَّمَهُمٰا عَلَى اَلْكٰافِرِينَ**[1] و معنى، أهلكناها، قدَّرنا إهلاكها على ما هي عليه من الكفر فالإهلاك هنا إهلاكٌ عن كفر، و، لا، في لا يرجعون، صلةٌ كقولك ما منعك أن لا تسجد، أي يرجعون الى الإيمان و المعنى و ممتنعٌ على أهل قريةٍ قدَّرنا عليهم إهلاكهم لكفرهم رجوعهم في الدُّنيا الى الإيمان الى أن تقوم القيامة فحينئذٍ، يرجعون.

١- الاعراف = ٥٠

قال الزّمخشري و معنى أهلكناها عزمنا على إهلاكها أو قدّرنا إهلاكها و معنى الرّجوع من الكفر الى الإسلام و الإنابة و مجاز الآية أنّ قوماً عزم اللّه علىٰ إهلاكهم غير متّصورٍ أن يرجعوا و ينيبوا الى أن تقوم القيامة فحينئذٍ، يرجعون إنتهى موضع الحاجة من كلامه و قال الرازي، في تفسير الكلام ما هذا لفظه.

أمّا قوله: **وَ حَرٰامٌ عَلٰى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰآ أَنَّهُمْ لاٰ يَرْجِعُونَ**.

فأعلم أنّ قوله: **وَ حَرٰامٌ** خبرٌ فلا بدّ له من مبتدأ و هو إمّا قوله: **أَنَّهُمْ لاٰ يَرْجِعُونَ** أو شيء آخر أمّا الأوّل فالتّقدير أنّ عدم رجوعهم حرامٌ، أي ممتنع و إذا كان عدم رجوعهم ممتنعاً كان رجوعهم واجباً فهذا الرّجوع أمّا أن يكون المراد منه الرّجوع الى الأخرة أو الى الدُّنيا.

أمّا الأوّل: فيكون المعنى أنّ رجوعهم الى الحياة في الدّار الأخرة واجباً و يكون الغرض منه إبطال قول من ينكر البعث وتحقيق ما تّقدم أنّه لا كفران لسعي أحد فأنّه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة و هو تأويل أبي مسلم بن بحر.

أمّا الثّاني: فيكون المعنى أنّ رجوعهم الى الدُّنيا واجب لكنّ المعلوم أنّهم لم يرجعوا الى الدُّنيا فعند ذلك ذكر المفسّرون وجهين:

الأوّل: أنّ الحرام قد يجئ بمعنى الواجب و الدّليل عليه الآية و الإستعمال و الشِّعر أمّا الآية فقوله تعالىٰ: **قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاّٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**(١) و ترك التّرك واجب و ليس بمحرّمٍ.

و أمّا الشِّعر فقول الخنساء:

و أنّ حراماً لا أرى الدّهر باكياً   على شجوه إلاّ بكيت على عمروٍ

يعني و أنّ واجباً و أمّا الإستعمال فأنّ تسمية أحد الضدّين بإسم الأخر مجاز مشهور كقوله: **وَ جَزٰآؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا**(٢) إذا ثبت هذا فالمعنىٰ أنّه واجبٌ

١- الانعام = ٥١   ٢- الشّورى = ٤٠

على أهل كلّ قريةٍ أهلكناها أنّهم لا يرجعون، ثمّ ذكروا في تفسير الرّجوع أمرين:

أحدهما: أنّهم لا يرجعون عن الشّرك و لا يتولّون عنه و هو قول مجاهد و الحسن.

ثانيهما: لا يرجعون الى الدُّنيا و هو قول قتادة و مقاتل.

الوجه الثّاني: أن يترك قوله و حرامٌ على ظاهره و يجعل، لا في قوله: **لَا يَرْجِعُونَ** صلة زائدة كما أنّه صلة في قوله: **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ** و المعنى و حرامٌ على قريةٍ أهلكناها رجوعهم الى الدُّنيا إنتهى.

ما أردنا نقله منه و أنمّا نقلناه بطوله لتعلم أنّهم وقعوا في تفسير الآية من الحيرة و مع ذلك لم يأتوا بشئ يعتمد ولسنا بصدد بيان موارد النّقض في كلام هذين العلمين عند أهل السنّة فإذا كانا كذلك فما ظنّك بمقلّديهم ممّن جاؤوا بعدهما فأنّهم كلّ ما ذكروه في تفاسيرهم أخذوه من الطّبري و الكشّاف و تفسير الكبير للرّازي و الطّبري أيضاً لم يأت بشئٍ فى.

و أن شئت فراجع تفسير الطّبري حتّى تعلم صدق ما قلناه، و أنّما وقعوا في الضّلالة و الحيرة و تثبتّوا بكلّ حشيشٍ في فهم المراد منها لأنّهم لم يرجعوا الى تفاسير أهل البيت و ما ورد عنهم في حلّ مشكلات الأيات فلا جرم ضلُّوا و أضلُّوا كثيراً.

إذا عرفت هذا فنقول، الآية من أعظم الدّلائل على إثبات الرَّجعة و العامّة ينكرون الرّجعة أشدّ الإنكار و لذلك صاروا حيارى في قوله: **أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**، ولم يعلموا أنّ المراد أنّه لا رجعة لهم أي لمن أهلكه اللّه و معنى الآية كلّ قريةٍ أهلك اللّه عزّ وجلّ أهلها بالعذاب لا يرجعون في الرّجعة الى الدُّنيا.

و قد روى أبو بصير عن محمّد بن مسلم عن أبي عبد اللّه و أبي جعفر عليه السلام قالا كلّ قريةٍ أهلك اللّه أهلها بالعذاب لا يرجعون في

الرّجعة فهذه الآية من أعظم الدّلالة في الرّجعة لأنّ أحداً من أهل الإسلام لا ينكر أنّ النّاس كلّهم يرجعون الى القيامة من هلك و من لم يهلك إنتهى.

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ

قرأ إبن عامر، فتّحت مشدّدة على التّكثير و الباقون بالتّخفيف و عليه المصاحف، يقول اللّه تعالى أنّه حرامٌ على القرية الّتي أهلكناها أي حرامٌ على أهلها رجوعهم الى الدُّنيا حتّى إذا فتحت يأجوج و مأجوج أي ينفرج السّدان و يظهروا فعلى المشهور من أنّ، حتّى، يدخل ما بعدها في ما قبلها نحو أكلت السَّمكة حتّى رأسها، فالمعنى أنّ رجوعهم أي أهل القرية حرام عليهم حتّى إذا فتحت يأجوج و مأجوج أي بعد الفتح أيضاً لا رجوع لهم هكذا قيل و إختلفوا في المراد بقوله تعالى يأجوج و مأجوج على.

أقوال كثيرة لا دليل عليها.

فقال الطّبري أنّهما أمّتان من الأمم ثمّ روى في تفسيره عن ربعي بن حراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول قال رسول اللّه ﷺ أوّل الأيات الدّجال و نزول عيسى و نارٌ تخرج من قعر عدن و ساق الكلام الى أن قال ثمّ يخرج يأجوج و مأجوج قال حذيفة قلت يا رسول اللّه و ما يأجوج و مأجوج قال ﷺ يأجوج و مأجوج أمم كلّ أمّةٍ أربع مائة ألف لا يموت الرّجل منهم حتّى يرى ألف عينٍ تطرف بين صلبه و هم ولد آدم فيسيرون الى خراب الدُّنيا يكون مقدّمتهم بالشّام و ساقتهم بالعراق فيمرُّون بأنهار الدُّنيا فيشربون الفرات و الدّجلة و بحيرة الطّبرية حتّى يأتوا بيت المقدس فيقولون قد قتلنا أهل الدُّنيا فقاتلوا من في السَّماء فيرمون بالشّاب الى السَّماء فترجع نشابهم مخضّبة بالدَّم فيقولون قد قتلنا

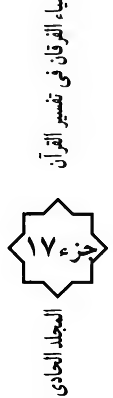

من في السَّماء و عيسى و المسلمون بجبل طور سينين فيوحى اللّه عزّ وجلّ الى عيسى أن أحرز عبادي بالطَّور وما يلي إيله ثمّ أنّ عيسى يرفع رأسه الى السَّماء و يؤمن المسلمون فيبعث اللّه عليهم دابّة يقال لها النَّعفف تدخل من مناخرهم فيصبحون موتى من حاق الشّام الى حاق العراق حتّى تنتن الأرض من جفتهم و يأمر اللّه السَّماء فتمطر كأفواه القرب فتغسل الأرض من جيفتهم و نتنهم فعند ذلك طلوع الشَّمس من مغربها إنتهى.

أقول روي الطّبري في الباب روايات كثيرة من أراد الوقوف بها فعليه بكتابه و أمّا نحن فلم نفهم شيئاً ممّا رواه و العلم عند اللّه.

و قال الرّزي في تفسيره لهذه الآية قوله حتّى فتحت، المعنى فتح سدّ يأجوج و مأجوج فحذف المضاف و أدخلت علامة التأنيث في، لأنّ يأجوج و مأجوج مؤنثان بمنزلة القبلتين و قيل حتّى، فتحت جهة يأجوج ثمّ قال هما قبيلتان من جنس الإنس يقال النّاس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج و مأجوج يخرجون حين يفتح السدّ ثم قال، قيل السدّ يفتحه اللّه تعالى إبتداءً و قيل بل إذا جعل اللّه تعالى الأرض دكّاً زالت الصّلابة عن أجزاء الأرض فحينئذٍ ينفتح السدّ، و قال في قوله تعالى: **وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ** فحشوٌ في أثناء الكلام و المعنى إذا فتحت يأجوج و إقترب الوعد الحقّ شخصت أبصار الّذين كفروا و الحدب النّشر من الأرض و منه حدبة الأرض و منه حدبة الظّهر الى أن قال، قال أكثر المفسّرين أنّه كناية عن يأجوج و مأجوج و قال مجاهد هو كناية عن جميع المكلّفين أي يخرجون من قبورهم من كلّ موضع إنتهى.

و قد صرَّح صاحب الكشّاف قبله بأنّهما قبيلتان من جنس الإنس يقال النّاس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج و مأجوج و قد أخذ الرّازي هذا الكلام منه و قد مرَّ النّقل عن الطّبري أنّه قال هما رجلان إسمهما يأجوج و مأجوج و قد تبعهم المفسّرون على هذه الأقوال و نقلوا في تفاسيرهم ذلك.

و أنا أقول: أنّ السدّ أشاروا في كلماتهم اليه هو الّذي بناه ذو القرنين و قد مرَّ الكلام فيه في سورة الكهف:

قال اللّه تعالىٰ: **قَالُوا يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا**[١].

و هذا ممّا لا كلام فيه إلاّ أنّ البحث في ماهيّة القضية فما قيل أو يقال في تفسير الآية لا يعتمد عليه و بعبارةٍ أخرى القرآن حاكٍ عن وجود القرنين و السدّ و يأجوج و مأجوج ولم يفصّل لنا كيفيّة القضيّة و أنّ من هو ذي القرنين و يأجوج و مأجوج و أين السدّ المعرِّج به القرآن و هل كان يأجوج و مأجوج من جنس البشر أو من الجنّ و هل هما إسمان لرجلان أو لقبيلتان موجودان أو معدومان و غير ذلك ممّا نحتاج اليه في معرفتها و حيث أن القرآن سكت عن هذه الخصوصيّات لمصلحةٍ لا يعلمها إلاّ اللّه و قد ورد في الأثر، أن إسكتوا عمّا سكت اللّه عنه فالعقل السّليم يحكم بعدم الخوض في أمثال هذه الأمور الّتي لا تصل اليها أيدي الأفكار و حاصل الكلام أنّ هذه الآية و أمثالها من متشابهات القرآن و مشكلاته و الّذي يجب علينا عقلاً و شرعاً هو الإقرار بأن ما بين الدّقيقتين كلام اللّه المنزل علىٰ النّبي و الإعتقاد به و نحن لا ننكر ذلك و نعتقد به و أمّا العلم بما في الكتاب تفصيلاً علماً قطعيّاً من غير شكّ فيه فهو لم يتّيسر لأحدٍ إلاّ للرّاسخين الّذين أمرنا بمتابعتهم و الرّجوع إليهم في فهم كتاب اللّه ولم نجد في أثارهم المرّوية عنهم ما نكشف الإبهام عنها و قد ثبت أنّ من فسَّر القرآن برأيه فليتّبوء مقعده من النّار.

وَ ٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ

١- الكهف = ٩٤

قيل المراد بالوعد الحقّ، القيامة و التّقدير حتّى إذا فتحت و إقترب الوعد الحقّ قالوا يا ويلنا قد كنّا في غفلةٍ بل كنّا ظالمين على أنفسنا و الضّمير في **فَإِذا هِيَ شٰاخِصَةٌ** قيل أنّه عائد إلى معلوم بيّنة عليه، أبصار الّذين كفروا وقوله: **يٰا وَيْلَنٰا**، أي يقول الكفّار الّذين شخصت أبصارهم الويل لنا من غفلتنا عن هذا اليوم و هذا المقام بل كنّا ظالمين على نفوسنا بإرتكاب معاصي اللّه فيقول اللّه تعالى:

إِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهٰا وٰارِدُونَ

و المعنى أنتم أيّها الكافرون و الأصنام و الأوثان التّي عبدتموها في النّار ترمون فيها كما ترمى بالحصباء.

و قرأ بعضهم، حطب جهنّم، و قرأ الحسن حضب بالضّاد و المأل في المعنى واحد ثمّ.

لَوْ كٰانَ هٰٓؤُلٰآءِ اٰلِهَةً مٰا وَرَدُوهٰا وَ كُلٌّ فِيهٰا خٰالِدُونَ

أي لو كان هذه الأصنام و الأوثان ألهة لم يردوا جهنّم ولم تخلد فيها و ذلك لأنّ الإله خالق جهنّم فكيف يدخلها و يخلّد فيها فورودها فيها دليل على هجزها و ضعفها و ما كان كذلك ليس بمستّحقٍ للعبوديّة و بعبارةٍ أخرى من لا يقدر على دفع الضّر عن نفسه لا يكون معبوداً ثمّ أخبر اللّه تعالى أنّ لهم في جهنّم زفيراً و هو شدّة التّنفس و قيل هو الشّهيق لهول ما يرد عليهم من النّار و هم فيها لا يسمعون ما ينتفعون به و أن سمعوا ما يسؤهم و قيل أنّهم في توابيت من نارٍ فلا يسمعون لشّدة العذاب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنىٰٓ أُولٰٓئِكَ عَنْهٰا مُبْعَدُونَ

إختلفوا في معنى المراد بالحسنى فقيل يعني الوعد بالجنّة و قيل الحسنى الطّاعة للّه تعالى يجازون عليها في الأخرة بما وعدهم اللّه و قيل غير ذلك من الأقوال التّي لا فائدة في نقلها.

قال بعض المفسّرين أنّ سبب نزولها قول إبن الزّبعري حين سمع قول اللّه تعالى، أنّكم و ما تعبدون من دون اللّه حصب جهنّم قال لرسول اللّه قد خصمتك و ربّ الكعبة أليس اليهود عبدوا و عزيراً و النّصارى عبد و المسيح و بنو مليح عبدوا الملائكة فقال صلى الله عليه وآله وسلم عبدوا الشّياطين التّي أمرتهم بذلك فأنزل اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ** الآية و قيل لمّا إعترض إبن الزّبعري قيل لهم ألستم قوماً عرباً أو ما تعلمون أنّ، من، لمن، يعقل و، ما، لما لا يعقل فعلى القول الأوّل يكون إبن الزّبعري قد فهم من قوله: **مَا تَعْبُدُونَ** ، العموم فلذلك نزل قوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ**، الآية تخصيصاً لذلك العموم و على هذا القول الثّاني يكون إبن الزّبعري رام مغالطة فأجيب بأنّ، من، لمن يعقل، و ما، لما لا يعقل فبطل إعتراضه، ثمّ أنّ الحسنى بضمّ الحاء الخصلة المفضّلة في الحسن تأنيث الأحسن إمّا السّعادة و إمّا البشرى بالثّواب و إمّا التّوفيق للطّاعة، و الضمير في، عنها، يرجع إلى جهنّم و المعنى أنّ الّذين سبقت الآية مبعدون عن جهنّم و الورود فيها.

قال بعض المفسّرين من العامّة، روي أنّ عليّاً كرّم اللّه وجهه قرأ هذه الآية ثمّ قال أنا منهم و أبو بكر و عمر و عثمان و طلحة و الزّبير و سعد و عبد الرّحمن بن عوف ثمّ أقيمت الصّلاة فقام يجّر رداءه و هو يقول لا يسمعون حسيسها إنتهى.

ما ذكره أقول لا عجب منهم في نقل هذا الحديث المجعول عن علّي عليه السلام فأنّ من ينسب الكذب على رسول اللّه في قولهم عنه عليه السلام نحن معاشر الأنبياء لا نورث لا يبال عن نسبته الكذب لغيره وليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام و ذلك لأنّ هؤلاء الأشخاص إن كانوا ممّن سبقت لهم الحسنى و لذلك مبعدون عن جهنّم فلا يدخل فيها إلاّ المشرك باللّه و أمّا من قال بالشّهادتين ظاهراً و أنّ كان منافقاً بل كافراً واقعاً فهو لا يدخل الجنّة و لا يقول به إلاّ الملحد في دينه.

ثمّ نقول هلاّ لم يدخل فيهم معاوية و يزيد و غيرهما مع أنّهما و أمثالهما من الخلفاء كانوا من سيّئات المشار إليهم في الحديث و محصلّ الكلام أن كان أبوبكر و عمر و عثمان و طلحة إلى أخر ما ذكره ممّن سبقت لهم الحسنى فعلى الإسلام السَّلام.

و قال الطّبري في تفسيره لهذه الآية أنّ قوله أولئك عنها مبعدون، يعين عيسى و عزير و الملائكة نقله عن مجاهد ثمّ أطال الكلام في الباب و نقل أقولاً كثيرة إلى أن قال و أولى الأقوال في تأويل ذلك بالصّواب قول من قال، عني بقوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ** ما كان من معبودٍ كان المشركون يعبدونه و المعبود للّه مطيع و عابدوه بعبادتهم إيّاه باللّه كفّار لأنّ قوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ**، الآية إبتداء كلام محقّقٌ لأمرٍ كان ينكره قومٌ على نحو الذّي ذكرناه في الخبر عن إبن عبّاس فكأنّ المشركين قالوا لنّ بي اللّه، إذ قال لهم أنّكم و ما تعبدون من دون اللّه حسب جهنّم ما الأمر كما تقول لأنّا نعبد الملائكة و يعبد أخرون المسيح و عزير فقال عزّ وجلّ ردّاً عليهم قولهم ذلك كذلك و ليس الذّين سبقت لهم منّا الحسنى هم عنها مبعدون، لأنّهم غير معنّيين بقولنا أنّكم و ما تعبدون من دون اللّه حصب جهنّم فأمّا قول الّذين قالوا ذلك إستثناء من قوله: **مَا تَعْبُدُونَ** حصب جهنّم، فقولٌ لا معنى له لأنّ الإستثناء أنّما هو إخراج المستثنى من المستثنى منه و لا شكّ أنّ الّذين سبقت، الآية أنّما هم الملائكة أو إنس أو جانّ و كلّ هؤلاء إذا ذكرتها العرب فأنّ أكثر ما تذكرها، بمن، لا، بما، و ساق الكلام إلى أن قال أنّما أريد به ما كانوا يعبدون من الأصنام و الألهة من الحجارة و الخشب لا من كان من الملائكة و الإنس إنتهى موضع الحاجة منه.

و قد أطال الرّازي أيضاً الكلام بما لا حاجة لنا في نقله فأنّهم فسّروا الكلام على نمطٍ واحدٍ أخذ عن بعضٍ مع تغيير في الألفاظ و العبارات و أنّما نقلنا كلام الطّبري بطوله لأنّ تفسيره أساس تفاسير العامّة و الكلّ أخذوا منه إذا عرفت هذا فنقول:

أنّما نشأ الإشكال بزعمهم في قوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰ** الآية من ربطهم هذه الآية بما قبلها و هو قوله أنّكم و ما تعبدون من دون اللّه حصب جهنّم إلى قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم **لَا يَسْمَعُونَ** و لذلك وقعوا في الحيص و البيص و تشبّثوا بكلّ حشيش لحلّ الإشكال ولم يعلموا أنّ ما زعموه لا دليل عليه إذ لو كانت الآية مرتبطة بما قبلها فحقّ الكلام أن يقال و الذّين سبقت على سبيل العطف، أو يقال و أمّا **ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰ** و لم يقل ذلك بل قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰ** و قد أطبق البلغاء و النُّحاة على أنّ لها أي (إنّ) صدر الكلام و على هذا فالآية لبيان حكم أخر أنّ الّذين سبقت لهم منّا الحسنى، مبعدون عن جهنّم و بعبارةٍ قسّم النّاس على قسمين، مشركٌ، و مؤمنٌ ثمّ حكم على المشرك يكونه مع معبوده في النّار لأنّه لم يسبق له حسن العمل و الإعتقاد، و حكم على القسم الأخر و هو الذّي سبق له من اللّه حسن العمل بأنّه لا يدخل جهنّم و على هذا فمعنى الأية.

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أي سبق في علمنا الأزلي حسن إعتقادهم و أعمالهم فهم عن العذاب مبعدون، و هذا ممّا لا إشكال فيه بل هو الحقّ الحقيقة بالإتّباع لا ما لفّقوه في تفاسيرهم من الإستثناء و غيره هذا ما ظهر لنا في تفسير الآية و اللّه أعلم بما أراد.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَ هُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ

الحسيس الصّوت أي لا يسمعون صوتها الّذي يحسّ من حركة الأجرام و المراد به صوت جهنّم لأنّ فيها زفيرٌ و شهيقٌ أو صوت النّار فيها و قوله: **فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ**، فالشّهوة طلب النّفس للّذة و نقيض الشّهوة تكّره النّفس فالغذاء تشتهي و الدّواء تنكره و المقصود أنّهم في الجنّة و فيها ما تشتهي الأنفس و تلّذ الأعين و فى قوله: **خَالِدُونَ**، إشارة إلى دوام اللّذة و بقائها.

لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّيْهُمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ هٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

في هذه الآية نفى اللّه عنهم الحزن و الخوف و أثبت لهم البشارة بواسطة الملائكة و بهذه الأمور الثّلاثة فقد أكمل اللّه تعالى عليهم النِّعمة و أتمّها لأنّ تماميّة النِّعمة بحصولها أي وجودها أوّلاً، و هو أي وجود النِّعمة حصل لهم في الآية السّابقة و بعدم كونها مشوباً بالخوف و الغَّم ثانياً و بالبشارة ببقائها لصاحب النّعمة ثالثاً و هذا هو العيش الكامل و اللَّذة الحقيقيّة الّتي لا يتَّصور فوقها لذّة و لا عيش و لمثل هذا فليعمل العاملون.

■

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمٰآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمٰا بَدَأْنٰآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنٰآ إِنّٰا كُنّٰا فٰاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَ لَقَدْ كَتَبْنٰا فِى ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهٰا عِبٰادِىَ ٱلصّٰالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هٰذٰا لَبَلاٰغًا لِقَوْمٍ عٰابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمٰا يُوحىٰ إِلَىَّ أَنَّمٰآ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلىٰ سَوٰآءٍ وَ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مٰا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ مٰا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَ إِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قٰالَ رَبِّ ٱحْكُمْ بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا ٱلرَّحْمٰنُ ٱلْمُسْتَعٰانُ عَلىٰ مٰا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

◀ اللّغة

نَطْوِى: طَيّ مصدر مضاف إلى المفعول أي ليكتب فيه و قيل يكتب فيه من المعاني الكثيرة و الأصل كطَيّ الطّاوي السّجل فحذف الفاعل و قدّره الزّمخشري مبنيّاً للمفعول أي كما يطوي السّجل و عن إبن عبّاس و جماعة أنّ السّجل ملك يطوي كتب آدم إذا رفعت إليه.

ٱلسِّجِلِّ: قيل أنّه فارسي معرّب و قيل أصله من المساجلة و هى من السّجل و هو الدّلو ملأماءً و قال الزّجاج هو رجل بلسان الحبش.

فِى ٱلزَّبُورِ: الظّاهر أنّه زبور داود و هو مشتّق من، زبر، بمعنى كتب يقال زبرت الكتاب كتبته كتابةً عظيمة و كلّ كتابٍ غليظ الكتابة يقال له زبور و خصّ

الزَّبور بالكتاب المنَّزل على داود عليه السلام قال تعالى: **وَآتَيْنا داوُد زَبُوراً** قاله الرّاغب في المفردات.

ٱلذِّكْرِ: قيل الذّكر اللّوح المحفوظ.

تَوَلَّوْا: التّولي الإعراض و الباقي واضح.

◀ الإعراب

يَوْمَ نَطْوِى يجوز أن يكون بدلاً من العائد المحذوف من قوله، **يُوعَدون**، أو على إضمار، أعني، أو ظرفاً للا يحزنهم، أو بإضمار أذكر، و نطوي بالنّون على التّعظيم و بالياء على الغيبة و بالتّاء و ترك تسمية الفاعل **ٱلسَّمَآءَ** بالرّفع و التّقدير طيّاً كطَّي و هو مصدر مضاف إلى المفعول أن قلنا السّجل القرطاس و أن قلنا أنّه إسم ملك أو كاتب فيكون مضافاً إلى الفاعل و فيه قراءات، كسر السّين و الجيم و تشديد اللاّم و يقرأ كذلك إلاّ أنّه بتخفيف اللاّم، و يقرأ بفتح السّين و سكون الجيم و تخفيف اللاّم و بضّم السّين و الجيم مخفّفاً و مشدّداً **كَمَا بَدَأْنَآ** الكاف نعتٌ لمصدرٍ محذوف أي نعيده عوداً مثل بدءه و فى نصب **أَوَّلَ** وجهان:

أحدهما: أنّه منصوبٌ ببدأنا.

الثّاني: هو حال من الهاء في نعيده **وَعْدًا** مصدر أي وعدنا ذلك وعداً **مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ** ظرف للزّبور بمعنى المزبور أي المكتوب **إِلَّا رَحْمَةً** هو مفعول له و يجوز أن يكون حالاً أي ذا رحمة **يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ** أنّ مصدريّة و ما الكافّة لا تمنع من ذلك **عَلَىٰ سَوَآءٍ** حال من المفعول و الفاعل و الباقي لا خفاء في إعرابه.

◀ التّفسير

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ

لمّا ذكر اللّه تعالى في الأيات التّي مرَّ ذكرها و تفسيرها ما أعدَّ للمشركين الكافرين من العذاب و للمؤمنين الّذين سبقت منهم الحسنى الخلود في الجنَّة و البعد من النّار ذكر في هذه الآية يوم الوعد و هو يوم القيامة فقال يوم نطوي السّماء كطَّي السَّجل، أي ما أشرنا إليه سابقاً يقع يوم القيامة و هو اليوم الّذي نطوي السّماء كطَّي السّجل أي كطَّي الدَّرج و منه طويت الفلاة و فيه إشارة إلى قوله و السَّموات مطّويات بيمنه أي مهلكات و هو كناية عن فنائها و إضمحلالها كما سيأتي تفسيره في موضعه و قوله: **كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُۥ**، إشارة إلى المعاد و أنّ الإعادة ليست بأصعب من الإيجاد فمن خلق المخلوق أوّلاً قادرٌ على إعادته و قوله: **وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ**، إشارة إلى أنّ اللّه تعالى لا يخلف الميعاد و لذلك قال إنّا كنّا فاعلين، أي فاعلين ما وعدناه من البعث و قيل في معنى الكلام أنّه كما إخترعنا الخلق أوّلاً على غير مثالٍ كذلك ننشأهم تارةً أخرى فنبعثهم من القبور.

و قال بعضهم أنّ كلّ شخصٍ يبعث يوم القيامة على هيّئته التّي خرج بها إلى الدُّنيا و يؤيّده قوله عليه السلام يحشر النّاس يوم القيامة حفاةً عراةً كما بدأنا أوّل خلقٍ نعيده إنتهى.

أقول: و يؤيّد هذا المعنى الأخير ما روي عن إبن عبّاس أنّه قال لمّا نزلت الآية على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وَ حَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا[١] غشي عليه و حمل إلى حجرة أمّ سلمة فإنتظره أصحابه وقت الصّلاة فلم يخرج فإجتمع المسلمون فقالوا ما لنبّي اللّه فقالت أمّ سلمة أنّ نبّي اللّه عنكم مشغول ثمّ خرج بعد ذلك فرقي المنبر فقال، أيّها النّاس أنّكم تحشرون إلى اللّه كما خلقتم حفاة عراة ثمّ قرأ على أصحابه فلم نغادر منهم أحداً ثمّ قرأ كما بدأنا أوّل خلقٍ نعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين إنتهى.

١- الكهف = ۴۷

و في نهج البلاغة قال عليه السلام: اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الأَرْضِ بَطْناءً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً، وَبِالأَهْلِ غُربَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً، فَجَاءُوها كَمَا فَارَقُوها حُفَاةً عُرَاةً، قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلى الْحَيوةِ الدَّائِمَةِ، وَالدَّارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ[1]).

و عن مجمع البيان، و يروى عن النّبي أنّه قال تحشرون يوم القيامة حفاة عراة كما بدأنا أوّل خلقٍ نعيده وعداً علينا أنّا كنّا فاعلين إنتهى.

أقول: هذا ممّا لا بأس به ولكنّ الظّاهر من الآية هو إثبات أصل المعاد و أمّا أنّهم حفاة عراة فهي من أوصافهم و الجمع مهما أمكن أولى من الطّرح و سيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء اللّه.

وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّالِحُونَ

إتّفق المفسّرون على أنّ المراد بالزّبور هو كتاب داود النّبي أنزله اللّه عليه و قيل المراد به كتب الأنبياء و قوله: **مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ**، أي من بعد كتبه في أمّ الكتاب و هو اللّوح المحفوظ و قيل المراد بالذّكر توراة موسى معناه قبل الذّكر الّذي هو القرآن حكاه إبن خالويه، و المراد بالأرض قيل أرض الجنّة الّتي يرثها الصّالحون من عباد اللّه كما قال تعالى: **وَ أَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ**[2].

و قيل هي الأرض في الدّنيا الّتي تصير للمؤمنين في أمّة محمّد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم من بعد إجلاء الكفّار عنها، و قيل أرض الشّام يرثها الصّالحون من بني إسرائيل ذكره الكلبي.

۱- الخطبة = ۱۱۰ ۲- الزّمر = ۷۴

أقول: ما ذكروه في الأرض لا دليل عليه و أنّما قالوا ما قالوا من عند أنفسهم و اللّه تعالى لم يقيّدها بشيءٍ من الجنّة و الشّام و غيرهما و التّقييد يحتاج إلىٰ الدّليل و إذ ليس فليس فالحقّ أنّ المراد بالأرض هو أرض الدنيا كما هو مقتضى الإطلاق في الآية هذا مضافاً إلى أنّ قوله تعالى يرثها لا يساعد أرض الجنَّة إذ لا إرث فيها و بعبارةٍ أخرى أرض الجنَّة لا توارث فيها و الأرض التّي يرثها بعض النّاس عن الأخرين هي أرض الدُّنيا لا أرض الجنَّة فقوله تعالى يرثها عبادي الصّالحون بعد ظهور المهدي و تطهيره الأرض الأرجاس من الكفّار و المنافقين و إذا كان ذلك فلا يبقى فيها غير الصّالح.

و عن مجمع البيان في هذه الآية قال أبو جعفر عليه السلام: هم أصحاب المهدي في أخر الزّمان و يدلّ على ذلك ماروواه الخاصّ و العامّ عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: لو لم يبق من الدُّنيا إلاّ يومٌ واحد لطوّل اللّه ذلك اليوم حتّى يبعث رجلاً من أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً و عدلاً كما ملأت ظلماً و جوراً إنتهى.

و روى الشّيخ في التّبيان عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: إنّ ذلك وعدٌ للمؤمنين بأنّهم يرثون جميع الأرض إنتهى.

إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ

أي أنّ في هذا المعنى الذّي أخبرتكم به ممّا توَّعدنا به الكفّار من النّار و الخلود فيها و ما وعدنا به المؤمنين من الجنَّة و الكون فيها، لبلاغاً، و قيل أنّ في هذا القرآن لبلاغاً، و البلوغ الوصول إلى الحقّ ففي البرهان بلاغ و القرآن دليل و برهان، و قيل معناه أنّه يبلغ رضوان اللّه و محبّته و جزيل ثوابه، لقومٍ عابدين للّه مخلصين له قاله في التّبيان.

و قال صاحب الكشّاف الإشارة إلى المذكور في هذه السُّورة من الأخبار و الوعد و الوعيد و المواعظ البالغة و البلاغ الكفاية و ما تبلغ به البغية إنتهى.

أقول: و الّذي ظهر لي من الآية هو أنّ المشار إليه بقوله: **هٰذا** هو الوعد الأخير في الآية السّابقة أعني قوله أنّ الأرض يرثها عبادي الصّالحون فأن هذا الوعد يكفي لقومٍ عابدين و ذلك لأنّه كالبشارة لهم بالفرج و أنّ الغاية من خلق الأرض و من عليها هي الصّالحون لا غيرهم من حشرات الأرض و أنّ لكلّ عسرٍ يسرٍ و لكلّ ضيقٍ وسعةٍ قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أفضل أعمال أمّتي إنتظار الفرج ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

دور گردون گر دو روزي‌بر مراد مانگشت
دائماًيكسان نماند حال دوران غم مخور

و أنّما قلنا ذلك لأنّ هذا الكلام وقع بعد قوله: **أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهٰا عِبٰادِيَ ٱلصّٰالِحُونَ**، فحمله على ما ذكرناه أولى و اللّه أعلم.

وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ إِلّٰا رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ

قيل في معناه أي ما أرسلناك إلاّ نعمةً عليهم و لأن ترحمهم، و قيل خاصٌّ بمن أمن به و قيل عامٌّ لمن أمن و من لم يؤمن من الكفّار و معنى كونه صلى الله عليه وآله وسلم رحمة لهم أنّه أخّر اللّه عقوبة الكفّار ولم يستأصلهم بالعذاب في الدُّنيا و قال عوفي ممّا أصاب غيرهم من الأمم من مسخٍ و خسفٍ و غرقٍ و قذفٍ و أخّر أمره إلى الأخرة.

و قال الزّمخشري في الكشّاف كونه رحمة للفجّار من حيث أنّ عقوبتهم أخّرت بسببه و أمنوا من عذاب الإستئصال.

أقول: ما ذكروه لا بأس به إلاّ أنّ الآية يستفاد منها شئ أخر و هو أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان مظهراً لرحمته التّي وسعت كلّ شئ لأنَّه الغاية في الإيجاد و التّشريع إمّا الإيجاد فلقوله تعالى في حقّه لولاك لما خلقت الأفلاك و قال صلى الله عليه وآله وسلم أوّل ما خلق اللّه نوري و أمّا في التّشريع فلقوله صلى الله عليه وآله وسلم كنت نبيّاً و آدم بين الماء و الطّين و من المعلوم أنّ

العلّة الغائيّة مقدّمة في الوجود العلمي و مؤخّرة في الوجود الخارجى.

قال أميرالمؤمنين عليه السلام في رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فهو أمينك المأمون و شهيدك يوم الدّين و بعيثك نعمةً و رسولك بالحقّ رحمةً إلى أخر كلامه.

و الحاصل أنّ وجود الرّسول من أعظم النِّعم لقوله تعالىٰ: **لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا**[١] وحيث أنّه صلى الله عليه و آله و سلم كان بنفسه رحمة من عند اللّه قال في حقّ من أذاه من النّاس اللّهم أهد قومي فأنّهم لا يعلمون، بعد ما قال له جبرئيل أدع عليهم.

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

قد مرَّ الكلام في معنى الوحي و أنّه في الأصل الإشارة السّريعة و ذكر أقسام الوحي و كلمة، إنّما، لقصر الحكم على شيءٍ أو لقصر الشّيء على حكم كقولك أنّما زيدٌ قائم و أنّما يقوم زيدٌ و قد إجتمع المثالان في هذه الآية لأنّ قوله: **إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ**، بمنزلة إنّما يقوم زيدٌ و إنّما إلهكم إلهٌ واحد، بمنزلة إنّما زيدٌ قائم و فائدة إجتماعهما الدّلالة على أنّ الوحي إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مقصورٌ على إستئثار اللّه بالوحدانيّة و فى قوله، فهل أنتم مسلمون، أنّ الوحي الوارد على هذا السُّنن موجب أن تخلصوا التّوحيد للّه و أن تخلصوا الأنداد و فيه أنّ صفة الوحدانيّة يصحّ أن تكون طريقها السّمع و يجوز أن يكون المعنى أنّ الّذي يوحى إلّي فتكون ما موصولة إنتهى ما حقّقه صاحب الكشّاف.

أقول: ما ذكره صاحب الكشّاف من الحصر في، إنّما، لا يصحّ إلاّ على مسلكه و أمّا على مسلك غيره من النُّحاة فلا.

١- آل عمران = ١۶۴

قال بعض المحقّقين أنّها لا تكون للحصر و أنّ، ما، مع، إنّ، مثل، ما، مع كأنّ و لعلَّ فكما أنّها لا تفيد الحصر في التّشبيه و لا الحصر في التَّرجي فكذلك لا تفيده مع، إنّ، و إمّا، جعله، إنّما، المفتوحة مثل مسكورتها يدلّ على القصر فلا نعلم الخلاف إلاّ في، إنّما، بالكسر و أمّا بالفتح فحرفٌ مصدّري ينسك منه مع مابعدها مصدرفالجملة بعدهاليست جملةٍمستقلّة و أنت ترى أنّه أي صاحب الكشّاف لم يفرق بين مكسورها و مفتوحها في إفادة الحصر مع أنّ المفتوح لا يفيده قطعاً بلا خلاف و أنّما الإختلاف في المكسور فقط و لو كانت، إنّما، دالّة على الحصر لزم أن يقال أنّه لم يوح إلى النّبي شئ إلاّ التّوحيد مع أنّ الأمر ليس كذلك إذ قد أوحي إليه صلّى الله عليه وآله وسلّم أشياء كثيرة غير التّوحيد ففي الآية دليل على تظافر المنقول للمعقول و أنّ النّقل أحد طريقي التّوحيد و طريقه الأخر العقل.

و أمّا قوله: **فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** فالإستفهام يتَّضمن الأمر بإخلاص التّوحيد و الإنقياد إلى اللّه تعالى و كيف كان فالآية تدلّ على أنّ مسألة التّوحيد أصل الدّين و أساسه و أنّ الأنبياء أنّما بعثوا لدعوة النّاس إليه و أمّا غيره من الأحكام فمتَّفرعٌ عليه قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم **قُولُوا لا إله إلاّ اللّه تُفلِحُوا.**

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ

أذنتكم أي أعلمتكم فأنّ الإيذان الإعلام و كلمة، إن، بالكسر مخفّفةً نافية بمعنى بمعنى ليس أي لا أدري و قوله: **آذَنْتُكُمْ** يتَّضمن معنى التّحذير و النّذارة و التَّولي، الإعراض و معنى الآية قل يا محمّد أنّما يوحى إلّي كذا فأن تولَّوا و أعرضوا عمّا قلت لهم فقل لهم آذنتكم أي أعلمتكم بالتَّوحيد على سواء و لم أخصّ أحداً به دون أحد و هذا الإيذان هو أحلامٌ بما يحلّ بمن تولّى و أعرض عنه من العقاب في الأخرة و غلبة الإسلام على الكفر و لكنّي لا أدري متى يكون ذلك أي ما توعدون، و اللّه أعلم به.

إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ

أي أنّه تعالى لم يعلمني علمه ولم يطّلعني عليه و اللّه هو العالم الّذي لا يخفى عليه شيئ فيعلم ما تعلنون و ما تخفون في ضمائركم و الدّليل عليه من النّقل فكثيرٌ من الأيات من أنّه يعلم السرّ و ما يخفى و أمّا العقل، فلأنّه تعالى لو خفي عليه شيئ من الأشياء يلزم جهله به و الجهل نقصٌ من شؤون الممكن و أمّا الواجب فهو كاملٌ بالذّات و الصّفات و من صفاته العلم و كمال العلم بقولٍ مطلق ينافي الجهل بقولٍ مطلق و قد مرَّ الكلام في علمه تعالى و أنّه بكلّ شيئٍ محيط و سيأتي الكلام فيه بوجهٍ أبسط في موضعه.

وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ

أي لعلَّ تأخير هذا الموعد إمتحان لكم، و قوله: **مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**، أي ليتمتّعون الى الوقت الّذي قدّره اللّه لعقابكم في الأخرة أو هلاككم في الدّنيا و المقصود لا تغتّروا بما أنتم فيه من النّعم إذ من المحتمل أن يكون ذلك إستدراجاً و إمهالاً

قَالَ رَبِّ ٱحْكُمْ بِٱلْحَقِّ وَ رَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ

قيل الضّمير في، قال، للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و الآية حكاية قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن دعوتهم الى الحقّ و ردّهم دعوته و تولّيهم عنه و تقييد الحكم بالحقّ توضيّحي لا إحترازي فأنّ حكمه تعالى لا يكون إلاّ حقّاً فكأنّه قيل ربِّ أحكم بحكمك الحقّ و معنى الآية واضح فأنّه تعالى هو الرّحمن الّذي يستعان به في جميع الأمور و الحمد للّه ربّ العالمين.

■

سُورَةُ الحَجِّ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يٰٓا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسّٰاعَةِ
شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهٰا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ
عَمّٰآ أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاٰتِ حَمْلٍ حَمْلَهٰا وَ
تَرَى ٱلنّٰاسَ سُكٰارٰى وَ مٰا هُمْ بِسُكٰارٰى وَ لٰكِنَّ
عَذاٰبَ ٱللّٰهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَ مِنَ ٱلنّٰاسِ مَنْ يُجٰادِلُ
فِي ٱللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطٰانٍ مَرِيدٍ ﴿٣﴾
كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلّٰاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ
إِلٰى عَذاٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يٰٓا أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ إِنْ كُنْتُمْ
فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ
مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ
غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحٰامِ مٰا
نَشٰآءُ إِلٰىٓ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ
لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّٰى وَ مِنْكُمْ مَنْ
يُرَدُّ إِلٰىٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لٰا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ
شَيْئًا وَ تَرَى ٱلْأَرْضَ هٰامِدَةً فَإِذآٰ أَنْزَلْنٰا عَلَيْهَا
ٱلْمٰآءَ ٱهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ

بَهيج ﴿٥﴾ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَ أَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَ أَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

◀ اللّغة

تَذْهَلُ: ذهل ذهولاً، إشتغل عنه قاله قطرب و قيل معناه غفل و قيل مع دهشةٍ.

مَرِيدٍ: المريد المتَّجرد للفساد يقال صخرةٌ مرداء أي ملساء.

ٱلسَّعِيرِ: النّار الّذي يستعر و يلتهب.

مُضْغَةٍ: المضغة اللَّحمة الصَّغيرة قدر ما يمضغ.

مُخَلَّقَةٍ: المسّواة الملساء لا نقص و لا عيب فيها من قوله صخرةٌ خلقاء أي ملساء.

نُقِرُّ: أي نثبت.

هَامِدَةً: يقال همدت الأرض إذا يبست و درست.

بَهِيجٍ: البهيج الحسن السّار للنّاظر يقال فلان ذو بهجة أي حسنٍ.

عِطْفِهِۦ: العطف بكسر العين الجانب و عطفا الرّجل يمينه و شماله و أصله من العطف و هو اللّين و يسمّى الرّداء العطاف.

◀ الإعراب

زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ الزّلزلة مصدر يجوز أن يكون من الفعل اللاّزم أي تزلزل السّاعة و أن يكون متعدياً أي أنّ زلزال السّاعة النّاس فيكون المصدر مضافاً الى الفاعل في الوجهين و يجوز أن يكون المصدر مضافاً الى الظّرف يَوْمَ تَرَوْنَهَا هو منصوب بتذهل، و يجوز أن يكون بدلاً من السّاعة أو ظرفٌ لعظيم، أو على إضمار، أذكر، فعلى هذه الوجوه يكون تَذْهَلُ حالاً من ضمير المفعول و العائد محذوف أي تذهل فهيا مُرْضِعَةٍ جاء على الفعل من أرضع والتّاء علامة التّأنيث مثل مكرمة ولو كان على النّسب لقال مرضع، و، ما، بمعنى، من، و يجوز أن تكون مصدريّة بِسُكَٰرَىٰ بضمّ السّين حالٌ و الضّم و الفتح فيه لغتان مَنْ يُجَٰدِلُ هي نكرةٌ موصوفة وبِغَيْرِ عِلْمٍ في موضع المفعول أو حال.

◀ التّفسير

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ

قال في المفردات التزلزُّل الإضطراب و تكرير حروف لفظه تنبيهٌ على تكرير معنى الزّلّل فيه و هو من الزلَّة يقال زلَّت رجلٌ تَّزل و الزَّلة المكان الزَّلِق و قيل للذّنب من غير قصدٍ زلّة تشبيهاً بزلّة الرَّجل و المراد بالسّاعة قيل القيامة و قيل عند النَّفخة الأولى و قيل عند الثّانية، قيل في وجه مناسبة أوّل هذه السُّورة لما قبلها أنّه ذكر اللّه تعالى فيما قبلها حال الأشقياء و السُّعداء و ذكر الفزع الأكبر و كان مشركو مكّة قد أنكروا المعاد و كذبّوه بسبب تأخُّر العذاب عنهم نزلت هذه السُّورة تحذيراً لهم و تخويفاً لما إنطوت عليه من ذكر زلزلة السّاعة و شدّة هولها و ذكر ما أعدَّ لمنكرها و تنبيههم على البعث بتطويرهم في خلقهم و وبهمود الأرض و إهتزازها بعد بالنَّبات و الظّاهر أنّ قوله: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عامّ يشمل جميع النّاس و قيل المراد أهل مكّة و نبّه اللّه تعالى على سبب إتّقائه و هو ما يؤل إليه من أهوال السّاعة و هو على حذف مضاف أي

إتّقوا عذاب ربّكم و الزَّلزلة الحركة المزعجة و هى عند النّفخة الأولى و قيل عند الثّانية الجمهور في الدُّنيا أخر الزّمان و يتّبعها طلوع الشّمس من مغربها و أضيفت إلى السّاعة لأنّها من أشراطها و المصدر مضاف للفاعل فالمفعول المحذوف الأرض يدلّ عليه قوله: **إذاٰ زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزاٰلَهاٰ**[1] و نسبة الزّلزلة إلى السّاعة مجاز.

قال الحسن أشدَّ الزّلزال ما يكون مع قيام السّاعة و قيل الزّلزلة إستعارة و المراد شدّة السّاعة و أهوال يوم القيامة.

قال بعضهم أنّ الشّئ هنا يدلّ على إطلاقه على المعدوم لأنّ الزّلزلة لم تقع بعد و من منع إيقاعه على المعدوم جعل الزَّلزلة شيئاً لتيّقن وجودها و وقوعها في وقعة و المعنى إذا وقعت فهي شئ عظيمٌ و سنتّكلم فيها في سورة الزّلزال.

يَوْمَ تَرَوْنَهاٰ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّاۤ أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاٰتِ حَمْلٍ حَمْلَهاٰ وَ تَرَى ٱلنّاٰسَ سُكاٰرىٰ وَ ماٰ هُمْ بِسُكاٰرىٰ وَ لٰكِنَّ عَذاٰبَ ٱللّٰهِ شَدِيدٌ

ذكر اللّه تعالى في هذه الآية أهول الصّفات في قوله ترونها الآية لينظروا إلى تلك الصِّفة ببصائرهم و يتّصوروها بعقولهم ليكون ذلك حاملاً على تقواه تعالى إذ لا نجاة من تلك الشّدائد إلاّ بها.

و روي أنّ هاتين الأيتين نلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق فقرأهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أصحابه فلم يرى أكثر باكياً من تلك اللّيلة، و إختلفوا في مرجع الضّمير المنصوب في، ترونها، فقال قوم أنّه عائد على الزَّلزلة لأنّها المحدث عنها و يدلّ عليه وجود الذّهول للمرضعة و وضع الحمل هذا إذا أريد الحقيقة و هي الأصل فيكون ذلك في الدُّنيا.

١- زلزال = ١

وقال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام و تضع الحامل ما في بطنها لغير تمام.

و قالت فرقةٌ الضّمير يعود على السّاعة فيكون الذّهول و الوضع عبارة أو كناية عن شدّة الهول في ذلك اليوم و لا ذهولٍ و لا وضع هناك كقولهم يوم يشيب فيها الوليد و جاء لفظ مرضعة دون مرضع لأنّه أريد به الفعل لا النّسب بمعنى ذات رضاع، كما قال الشّاعر:

كمرضعةٍ أولاد أخرى وضيَّعت بني بطنها هذا الضّلال عن القصد

و «ما» في قوله: **عَمَّآ أَرْضَعَتْ**، قيل بمعنى، الذّي، أي عن الّذي أرضعت و العائد محذوف أي أرضعته و يقوّيه تعَّدي، وضع، إلى المفعول به في قوله: **حَمْلَهَا**، لا إلى المصدر، و قال بعضهم، ما، مصدريّة أي عن إرضاعها.

و قال صاحب الكشّاف فأن قلت، لم قيل مرضعة دون مرضع.

قلت: المرضعة هي التّي في حال الإرضاع ملقمةٌ ثديها الصَّبي و المرضع التّي شأنها أن ترضع و أن لم تباشر الإرضاع حال وصفها به فقيل مرضعة ليدلّ على أنّ ذلك الهول إذا فوجئت به هذه و قد ألقمت الرّضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدِّهشة، عمّا أرضعت، عن إرضاعها أو عن الّذي أرضعته و هو الطّفل إنتهى.

ثمّ أنّ قوله: **تَذْهَلُ** بفتح التّاء و الهاء و قرأ بعضهم بضّم التّاء و كسر الهاء من أذهل إذهالاً، أي تذهل الزّلزلة أو السّاعة و على هذه القراءة يكون، كلّ منصوباً، أي تذهل السّاعة كلّ مرضعة عمّا أرضعت و الجمهور على فتح التّاء و الهاء و عليه المصاحف فعلاً و أن كانت القراءة الثانيّة أيضاً لا تخلو عن قوّةٍ و قوله: **وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا**، فالحمل بفتح الحاء ما كان في بطنٍ أو على رأس شجرة و قوله: **وَ تَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ**، بضَّم التّاء و فتحها أثبت أنّهم سكارى على سبيل التّشبيه ثمّ نفى عنهم الحقيقة و هى السّكر من الخمر فقال: **وَ مَا هُمْ بِسُكَٰرَىٰ** أي ليسوا بسكارى حقيقة **وَ لَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ**

شَدِيدٌ ذلك لما هم فيه من الحيرة و تخليط العقل من شدّة الهول و إختلفوا في، سكارى، أهو جمعٌ أو إسم جمع، و قرأ أبو نهيك و عيسى بفتح السّين فيهماجمع تكسير واحده سكران.

و قال أبو تميم هي لغة تميم و قال سيبويه قومٌ يقولون، سكرى جعلوه مثل، مرضى، و قال أبو الفتح هو إسمٌ مفرد كالبشرى و بهذا أفتاني أبو علّى.

و قال الزّمخشري و هو غريبٌ، أقول الأمر سهلٌ و المستفاد من الآية هو ذهاب عقولهم من الحزن و الفزع و تحيُّرهم فيه.

وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَٰادِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَرِيدٍ

من، للتّبعيض أي بعض النّاس كذلك، و **الجِدال**، بكسر الجيم المفاوضة على سبيل المنازعة و المغالبة و أصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله الجديل و جدلت البناء أحكمته و قيل الأصل في الجدال الصُّراع و إسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة و هى الأرض الصُّلبة وكيف كان لا شّك أنّ الجدال في حدّ نفسه ليس بمذمومٌ بل هو ممدوحٌ عقلاً ونقلاً قال اللّه تعالى: **وَ جَٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**[١].

و أنّما المذموم منه هو الجدال الباطل كما إذا كان عن غير علم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُجَٰادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَٰاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَٰادِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدًى وَ لا كِتَٰابٍ مُنِيرٍ**[٣].

قيل الآية نزلت في أبي جهل، و قيل نزلت في أُبَّي بن خلف و النّضر بن الحارث كان يقول الملائكة بنات اللّه و القرآن أساطير الأوّلين و لا يقدر اللّه على إحياء من بلى و صار تراباً.

١- النّحل = ١٢٥ ٢- الكَهف = ٥٦
٣- سورة لقمان أية ٢٠

أقول الحقّ أنّ الآية عامّة في كلّ من تعاطى الجدال و لا يرفع إلى علم برهان و لا نصفة و هذا ممّا لا يحتاج إلى الإستدلال لوضوحه و أمّا قوله: **وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ** أي يتّبعه في جداله لجهله قيل المراد به هو شيطان الجنّ و قيل المراد معناه العامّ الشّامل لشيطان الجنّ و الإنس و المريد بفتح الميم المرتفع الأملس يقال صخرةٌ مرداء أي ملساء.

أقول: يظهر من قوله: **كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ**، معنى العامّ لدلالة لفظ الكلّ عليه و هو ظاهر على المتأمّل.

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ

قيل أي كتب في اللّوح المحفوظ أنّ من توّلى الشّيطان و إتّبعه و أطاعه فيما يدعوه إليه فأنّه يضلّه و الظّاهر أنّ الضّمير في، عليه، عائدٌ على، من، لأنّه المحدث عنه و في، لأنّ، و توّلاه، و في، فأنّه، عائدٌ إليه أيضاً و قيل الضّمير في، عليه، عائد على كلّ شيطانٍ مريد قاله قتادة و هذا هو الحقّ و ذلك لأنّ معنى الآية أنّ من توّلى الشّيطان فأنّ الشّيطان يضلّه و يهديه إلى عذاب السّعير مضافاً إلى أنّ عود الضّمير على ما تأخّر عنه لا يجوز إلاّ بضربٍ من التّأويل و فى المقام لا مجّوز له و أمّا عوده على ما تقدّم عليه فهو مطابق للأصل فالحقّ أنّه يرجع إلى قوله كلّ شيطانٍ مريد و المعنى كتب على الشّيطان أنّه يضلّ من إتّبعه و توّلاه و من كان كذلك ينبغي طرده و لعنه.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

في هذه الآية مسائل:

الأُولىٰ: أنّ الخطاب لجميع النّاس من المؤمن و الكافر و الرّجل و المرأة و ذلك لأنّ البعث لا يختّص بقوم دون قوم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ بَعَثْنٰاهُمْ لِيَتَسٰآءَلُوا بَيْنَهُمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلْمَوْتىٰ يَبْعَثُهُمُ اَللّٰهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اَللّٰهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوٓا**(٣).

و غيرها من الأيات و العقل أيضاً يحكم به لوجود الملاك في الكلّ.

الثّانية: قوله: **فَإِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ تُرٰابٍ**، و هذا أيضاً مقطوعٌ به و فيه إشارة إلى أنّ مادّة خلقته الأصليّة هي التّراب و من المعلوم أنّ هذا الحكم ثابتٌ لجسده لا لروحه فأنّ الإنسان مركبٌ من الرُّوح من عالم الملكوت و الجسد من عالم الملك فقوله: **خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ تُرٰابٍ** أي أجسادكم و قد مرَّ الكلام فيه في قصّة آدم و حوّاء مفصّلاً.

الثّالثة: قوله: **مِنْ نُطْفَةٍ**، النطفةِ الماء الصّافي و يعبّر بها عن ماء الرّجل و من المعلوم أنّ النُّطفة تحصل من الغذاء و الغذاء ينبت من التّراب و الماء فكان أصلهم من التّراب و إن شئت قلت المعنى خلقنا آدم من تراب الّذي هو أصلكم و أنتم نسله فصحّ أن يقال إنّا خلقناكم من تراب.

و قال قومٌ أراد بقوله: **فَإِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ تُرٰابٍ** جميع الخلق من الإنسان و الحيوان و النّبات و الجماد و هذا لا ينافي قوله يا أيّها النّاس و ذلك لأنّ ثبوت الشّيء لشيءٍ لا ينافي ثبوته لشيءٍ أخر و أنّما خاطب النّاس لأنّ الشكّ في البعث يحصل لهم لا لغيرهم و بعبارةٍ أخرى مورد البحث في البعث هو الإنسان و أمّا قوله: **فَإِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ تُرٰابٍ** فلا يختصّ بهم بل هو ثابت لهم و لغيرهم و

١- الكهف = ١٩　　٢- الأنعام = ٣٦
٣- المجادلة = ۶

كيف لا شكّ أنّ النّطفة توجد من الغذاءوه من الماء و التّراب فكان أصل جميع الخلق في الأرض من التّراب و الماء أي من التّراب و الماء الّذي يعبّر عنه بالنّطفة.

الرّابعة: قوله: **ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ** و هي القطعة من الدَّم جامدة و أنّما قال ذلك لأنّ النُّطفة تصير علقة فالخلق حصل من التّراب أوّلاً و من النّطفة ثانياً.

الخامسة: قوله: **ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ** قيل و هى شبه قطعةٍ من اللَّحم مضوغة و المضغة مقدار ما يمضغ من اللّحم و فيه إشارة الى أنّ العلقة تصير مضغة و قوله: **مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ** إشارة الى أنّ المضغة قد تكون تاّم الخلقة تكون ناقصاً و هذا مراد من فسَّر المخلَّقة و غيرها بتّامة الخلق و غير تّامة في معناه المصوّرة و غيرها أي أنّ المضغة قد تكون مستّعدة لقبول الصوّرة و قد لا تكون و يعبّر عنه بالسِّقط هكذا قيل في تفسير الكلام و قيل المضغة اللَّحمة الصّغيرة قدر ما يمضغ و المخلَّقة المسّواة الملساء السّالمة من النُّقصان و العيب وهي الّتي تمُت فيه أحوال الخلق و غير المخلَّقة من لم تتّم فكأنّه سبحانه قسَّم المضغة الى قسمين:

أحدهما: تّامة الصُّورة و الحّواس و التَّخاطيط.

وثانيهما: النّاقصة في هذه الأمور فبيَّن أنّ بعد أنّ صيَّره مضغة، منها خلقه إنساناً تامّاً بلا نقص و منها ما ليس كذلك فكأنّ اللّه تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب و منها ما هو على العكس ذلك و لذلك نرى تفاوت الخلق في صورهم و طولهم و قصرهم و تمامهم و نقصانهم، و قيل المخلّقة الولد الّذي يخرج حيّاً و غير حيّاً و غير المخلّقة السّقط.

و عن القفال أنّه قال التّخلّيق مأخوذٌ من الخلق فما تتابع عليه الأطوار و توارد عليه الخلق لعد الخلق فذاك هو المخلّق لتتابع الخلق عليه و الأقوال كثيرة جدّاً.

و عن الكافي بأسناده عن سلام بن المستنير قال سألت أبا جعفر عليه‌السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ مخلّقة و غير مخلّقة، قال عليه‌السلام: المخلّقة هم الذّر الّذين خلقهم اللّه في صلب آدم عليه‌السلام أخذ عليهم الميثاق ثمّ أجراهم في أصلاب الرّجال و أرحام النّساء و هم الّذين يخرجون الى الدُّنيا حتّى يسألوا عن الميثاق.
و أمّا قوله: غَيْرَ مُخَلَّقَةٍ فهم كلّ نسمةٍ لم يخلقهم اللّه تعالى في صلب آدم حين خلق الذّر و أخذ عليهم الميثاق و هم النُّطف من العزل و السِّقط قبل أن ينفخ فيه الرّوح و الحياة و البقاء إنتهى.
و عن قرب الأسناد للحميري بأسناده عن أبي الحسن الرّضا عليه‌السلام، قال: سألته أن يدعوا اللّه عزّ وجلّ لأمرأةٍ من أهلنا لها حملٌ فقال عليه‌السلام قال أبو جعفر عليه‌السلام الدُّعاء ما لم تمض أربعة أشهر فقلت له أنّما لها أقلّ من هذا فدعا لها ثمّ قال أنّ النُّطفة تكون في الرّحم ثلاثين يوماً و يكون علقة ثلاثين يوماً و يكون مضغة ثلاثين يوماً و يكون مخلّقة وغير مخلقّة ثلاثين يوماً فإذا تمّت الأربعة أشهر بعث اللّه تبارك و تعالى اليها ملكين خلاّقين يصوّرانه و يكتبان رزقه و أجله و شقيّاً أو سعيداً إنتهى[1].

أقول: و الّذي يظهر لنا من الأخبار و الأقوال الواردة في الباب مضافاً الى الأدلّة العقليّة هو أنّ التّخليق لا يصدق إلاّ بعد نفخ الرُّوح في المضغة ضرورة أنّها قبله ليست إلاّ قطعة من اللّحم و على هذا فالمخلّقة هي الحيّ المخلّقة هي الّتي لم تلج الرُّوح فيه و بقى على كونه مضغة فهي تسقط لا محالة و أنّما قلنا ذلك لأنّ الخلق عبارة عن الإيجاد و إن شئت توضيح ذلك فنقول الخلق أصله التّقدير المستقيم و هو على ضربين: إبداعيٌّ و غير إبداعيٍّ.

١- تفسير نور الثّقلين ج ٣ ص ٤٧١

فالإبدّاعي عبارة عن إبداع الشيئ من غير أصلٍ و لا إحتذاء كما قال تعالىٰ: **خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرض** أي أبدعهما بدليل قوله: **بَديع السَّمٰوٰات وَالْأَرض**.

والثّاني: يقال لإيجاد الشّيئ من الشّيئ:

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واٰحِدَةٍ**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ اَلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ مِنْ سُلاٰلَةٍ**[۳].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ خَلَقَ اَلْجَآنَّ مِنْ مٰارِجٍ**[۴] و غيرها منها.

ثمّ أنّ الخلق الإبدّاعي ليس إلاّ للّه تعالى و لهذا قال في الفصل بينه تعالى و بين غيره: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاٰ يَخْلُقُ أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ**[۵] أي أفمن يخلق على سبيل الإبداع و هو اللّه تعالى كمن لا يخلق كذلك و لا يقدر عليه إذا غرفت هذا فقد علمت أنّ الخلق معناه الإيجاد سواء كان على سبيل الإبداع أم غيره من إيجاد الشّيئ عن الشّيئ و إذا كان كذلك فالمخلّقة عبارة عن الموجودة و لا تكون موجودة إلاّ بنفخ الرُّوح فيها و غير المخلّقة عبارة عمّا لم يوجد و بقى على ما كان عليه فتفسير المخلّقة بتّام الخلقة و غيرها بناقص لا معنى له فأنّ النّاقص أيضاً مخلّقة أي موجودة و على هذا فيصير معنى الكلام أنّ المضغة تارةً تصير إنساناً موجوداً في عالم الرَّحم و تارةً لا تكون كذلك أي لا تصير موجوداً بل تسقط قبل ذلك.

السّادسة: قوله: **لِنُبَيِّنَ لَكُمْ و نُقِرُّ فِى اَلْأَرْحٰامِ مٰا نَشٰآءُ إِلىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى** قيل في معناه أي لندلّكم على مقدورنابتصريفه في ضروب الخلق و نصرّه الى وقت تمامه، فعلى هذا قوله، لنبيّن لكم، متعلّق بخلقناكم أي خلقناكم كذلك لندلّكم على مقدورنا و هذا هو الّذي إختاره الجمهور من المفسّرين.

۱- النّساء = ۱
۲- النّحل = ۴
۳- المؤمنون = ۱۲
۴- الرّحمن = ۱۵
۵- النّحل = ۱۷

و قيل أنّه متعلّق بالبعث أي لنبيّن لكم أمر البعث، و ردّه إبن عطيّة بأنّه إعتراض بين الكلامين و قال الكربائي معناه، لنبيّن لكم رشدكم و ضلالكم، وقيل لنبيّن لكم أنّ التّخليق هو إختيار من الفاعل المختار و لولاه ما صار بعضه غير مخلّق و غير ذلك من الأقوال و المختار هو القول الأوّل.

و على هذا فقوله: و **نُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى** مستأنف و لذلك رفع فمن قرأه بالنَّصب عطفاً على، لنبيّن، لا معنى له كما لا يخفى على المتأمل فهو أي قوله، و نقرّ في الأرحام أوّل الكلام و معناه و نثبت في الأرحام ما نشاء الى أجلٍ مسمّى أي مدّةٍ مضروبة.

قال صاحب الكشّاف هو وقت الوضع و ما لم يشاء إقراره محبّة الأرحام أو أسقطته و قال بعض المفسّرين أنّ القراءة بالنَّصب تعليلٌ معطوف على تعليلٍ و المعنى خلقناكم مدرجين هذا التَّدريج لغرضين:

أحدهما: أن نبيّن قدرتنا.

الثّاني: أن نقرّ في الأرحام من نقر حتّى يولدوا و ينشؤوا و يبلغوا حدَّ التَّكليف، فأكلّفهم و يعضده هذه القراءة قوله: **ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ** إنتهىٰ.

أقول: هذا أيضاً مردودٌ فأنّه من قبيل الأكل من القفا، و الآية لا تحتاج إلى هذه التّكلفات.

السّابعة: قوله: **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ**، يعني نخرجكم من بطون أمّهاتكم بعد طَّي المراحل المذكور من النُّطفة و العلقة و المضغة و أنتم أطفال، و الطِّفل بكسر الطّاء الصَّغير من النّاس و نصب طفلاً، على المصدر و هو في موضع جمع و قيل نصب على التّمييز وتقديره نخرجكم أطفالاً و قيل الطّفل قبل مقاربة البلوغ و قوله: **لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ**، يعني وقت كمال عقولكم وتمام خلقكم و قيل وقت الإحتلام و البلوغ.

قال الزّمخشري، الأشُّد كمال القوّة و العقل و التّمييز و هو من ألفاظ الجموع التّي لم يستعمل لها واحد.

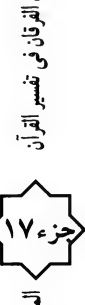

الثّامنة: قوله: **وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّٰى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ اَلْعُمُرِ لِكَيْ لاٰ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً** أي و منكم من يتّوفى قبل بلوغ الأشّد قبل أن يبلغ أرذل العمر و منكم من يرّد إلى أرذل العمر، قيل معناه أهونه و أخسَّه عند أهله، و قيل أحقره و قيل هو حال الخرف، و أنّما قيل أرذل العمر لأنّ الإنسان لا يرجو بعده صحّةً و قوّةً و أنّما يتّرقب الموت و الفناء بخلاف حال الطّفولية و الضَّعف الّذي يرجوا معها الكما و التّمام و القوّة فلذلك كان أرذل العمر قاله في التّبيان.

قال الرّاغب في المفردات الرَّذل و الرّذال المرغوب عنه لردائته قال تعالىٰ: **وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ اَلْعُمُرِ** إنتهىٰ.

فعلى هذا معنى الكلام و انكم من يرّد الىٰ حالةٍ يرغب عنها كإنحناء القامة و قبح المنظر و ثقل السّامعة و عدم القدرة في جميع الأعضاء، و قيل معناه أنّه يصير كما كان أوّل الطفوليّة ضعيف البنيّة سخيف العقل قليل الفهم لا يقدر على القيام و القعود بسهولةٍ و لا زمان لذلك محدود بل ذلك بحسب ما يقع في النّاس و قد ترى من قاربَ المائة سنّاً أو بلغها و هو مع ذلك في غاية جودة الذّهن و الإدراك مع قوّةٍ و نشاط و نرى من هو في سنّ الإكهال و قد ضعفت بنيّته و قوله: **لِكَيْ لاٰ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً** لكيلا يتعلّق بقوله: **يُرَدُّ** أي **يُرَدُّ** الىٰ أرذل العمر لكيلا يعقل من عقله الأوّل شيئاً.

و قيل لكيلا يستفيد علماً و ينسى ما علمه.

و قال الرّازي المراد أنّه يزول عقله فيصير كأنّه لا يعلم شيئاً لأنّ مثل ذلك قد يذكر.

في النّفي لأجل المبالغة إنتهى.

أقول: الّذي يخطر بالبال في معنىٰ الكلام هو أنّ السّهو و النسيان و الخطأ في الكلام، و أمثال ذلك من العوارض تغلب عليه و هذا معنىٰ قوله: **لِكَيْ لاٰ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً** أي يعلم ثمّ ينسى كأنّه لم يعلم فإذا قيل له مثلاً، أنك

قلت كذا وكذا يقول ما قلت ذلك و يحتمل أن يكون المراد أنّه يصير جاهلاً بعد كونه و قد رأينا بعض العلماء في أواخر عمره أنّه إعترف بأنّه لا يعلم شيئاً أعاذنا اللّه منه.

و لكن حمل الآية على هذا المعنى بعيدٌ إذ قلمّا يتّفق ذلك.

و أمّا المعنى الأوّل و هو غلبة النسّيان فليس كذلك.

التّاسعة: قوله: **وَ تَرَى ٱلْأَرْضَ هَٰامِدَةً فَإِذَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** إعلم إنّ هذا أعني قوله: **وَ تَرَى ٱلْأَرْضَ** الخ.

هو الدّليل الثّاني الّذي تضمّنه الآية على صحّة البعث فكأنّه سبحانه و تعالى أثبت البعث بدليلين:

أحدهما: من طريق الحيوان و تطّوراته في الخلقة و قد مرّ الكلام فيه.

ثانيهما: من طريق الأرض و ما ينبت فيها، و لمّا كان الدّليل الأوّل بعض مراتب الخلقة فيه غير مرئيّين قال تعالى: **إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ** كذا وكذا فلم يحل في جميع مراتبه على الرؤيّة.

و أمّا الدّليل الثّاني فلمّا كان مشاهداً للإبصار لأنّ الأرض و ما ينبت فيها من المحسوسات أحال ذلك على الرّؤية، فقال في الأوّل، **خَلَقْنَاكُمْ**، و فى الثّاني و ترى الأرض أي أن لا تقدر على التّعقل في خلقه الحيوان من نشأته و تطوّراته فأنظر الى الأرض فأنّها محسوسة و هى لا تقبل الإنكار إذا عرفت هذا فنقول قوله: **وَ تَرَى ٱلْأَرْضَ هَٰامِدَةً**، أي دراسة داثرة يابسة يقال همد يهمد هُموداً إذا درسه و دثّرته و يعبّر عنها بالأرض الميتة الّتي لا حياة لها، فإذا أنزلنا عليها الماء إهتزّت أي تحرّكت في الجهات بشدّةٍ، و ربت، أي تزيد بما يخرج منها من النّبات، و أنبتت، يعني الأرض، من كلّ زوجٍ بهيج، أي حسن الصُّورة الّذي يمتنع في الرّؤية ولنعم ما قيل.

تفكّر في نبات الأرض و أنظر الى آثار ما صنع المليك
ففي رأس الزّبرجد شاهداتٌ بأنّ اللّه ليس له شريكُ

و لأجل ذلك قال تعالى و ترى الأرض أيّها السّامع أو المجادل في البعث هامدة أي ميتة لا نبات فيها فإذا أنزلنا عليها الماء أي ماء المطر و الأنهار و العيون، إهتزت أي تخلخلت و إضطربت لأجل خروج النّبات و ربت أي زادت و إنتفخت و أنبتت من كلّ زوجٍ بهيج و حاصل الكلام أنّ الّذي ذكرنا من خلق بني آدم و تطوّرهم في تلك المراتب و من إحياء الأرض عبرة لمن إعتبر به و دليلٌ على أنّه تعالى هو القادر على إحياء الموتى و على كلّ مقدورٍ و قد وعد بالبعث و هو قادرٌ عليه لأنّه على كلّ شيءٍ قدير هذا تمام الكلام في الآية.

إن قلت: كيف تكون الآية دالّة على البعثً و هو إحياء الموتى و ليس فيما ذكره في الآية دليلٌ عليه ظاهراً.

قلت: صيرورة الغذاء الحاصل من التُّراب نطفة و النُّطفة علقة و العلقة مضغة هي بعينها الإماتة و الإحياء لأنّ النُّطفة مثلاً ما دام كونها نطفة لا تصير علقة و بعبارةٍ أخرى صيرورة النُّطفة علقة معناها موت النُّطفة و إحياء العلقة فحياة العلقة تتّوقف على فوت النُّطفة كما أنّ حياة المضغة بعد موت العلقة و هكذا و من المعلوم أنّ المحيي و المميت في جميع المراتب هو اللّه تعالى و هكذا الكلام في الأرض و محصلّ الكلام هو أنّ البعث عبارة عن الإحياء بعد الموت و هذا سارٍ في جميع مراتب الإنسان و الأرض فإذا كان كذلك فلا مجال للعاقل إنكار البعث يعني الإحياء بعد الإماتة بعد التّأمل في الآية و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

از جمادی مردم و نامی شدم و از نما مردم ز حیوان سر زدم
مردم از حیوانی و آدم شدم پس چه ترسم کی ز مردن کم شدم
بار دیگر من بمیرم از بشر چون ملایك من در آرم بال و پر
بار دیگر از ملك پران شوم آنچه أندر وهم ناید آن شوم
پس عدم چون ارغنون گویدم انّا الیه راجعون

بل الإنسان في كلّ لحظةٍ يموت و يحيى كما هو شأن الحارث فأنّ الحارث لا يبقى على حالةٍ واحدة في زمانين و للبحث فيه مقام آخر و سيأتي تفصيل الكلام في البعث و المعاد في النستقبل إن شاء اللّه.

ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِ ٱلْمَوْتىٰ وَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

أي أنّ الّذي ذكرناه في الآية السّابقة من تطوّرات الإنسان في عالم الرَّحم و إحياء الأرض بعد موتها بسبب الماء لتعلم أنّ اللّه هو الحقّ الحقيق بالعبادة و أنّه على كلّ شيٍ قدير، أمّا أنّه تعالى هو الحقّ لأنّ الحقّ يقال للموجود الّذي لا سبيل للبطلان اليه.

و قيل الحقّ يقال لموجد الشّئ بسبب ما تقتضيه الحكمة و لا شكّ أنّه تعالى حقٌّ لأنّه مستحقّ للعبادة و حقٌّ لأنّه لا سبيل للبطلان اليه، و حقٌّ لأنّه الموجود الثّابت الّذي لا يتغير، و حقٌّ لأنّه موجد الأشياء بسبب ما تقتضيه الحكمة بل الحقّ المطلق ليس إلاّ هو و ما سواه باطلٌ عاطلٌ.

ألاّ كلّ شيٍ ما خلا اللّه باطلُ و كلّ نعيم لا محالة زائلُ

و لذلك وصف اللّه نفسه به في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **فَذٰلِكُمُ ٱللّٰهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **هُنٰالِكَ ٱلْوَلاٰيَةُ لِلّٰهِ ٱلْحَقِّ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **فَتَعٰالَى ٱللّٰهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَ أَنَّ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ ٱلْبٰاطِلُ**[4].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ**[5] والأيات كثيرة.

١- يُونس = ٣٢
٢- الكهف = ۴۴
٣- طه = ١١۴
۴- الحج = ۶٢
٥- النّور = ٢٥

فإذا كان اللّه تعالى هو الحقّ بقولٍ مطلق فقوله و فعله أيضاً حقّ لأنّ الحقّ لا يقول و لا يفعل إلاّ حقّاً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **مَا خَلَقَ ٱللّٰهُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ**(٣).

و أمّا أنّه يحيي الموتى، فهو مورد البحث و يدلّ عليه عموم قدرته كما قال أنّه على كلّ شيءٍ قدير، فكأنّه تعالى أثبت إحياءه الموتى بعموم قدرته و كيفيّة الإستدلال أنّه أمّا يقدر على إحياء الموتى أو لا يقدر فأن كان قادراً على إحياء الموتى فهو المطلوب و إن لم يقدر فأمّا أن يكون عدم القدرة مسّبباً عن ضعفه و عجزه فالضّعيف و العاجز لا يكون موجداً و خالقاً و مع ذلك هو مخالف لعموم قدرته و قد ثبت عقلاً و نقلاً.

و أمّا أن يكون عدم القدرة مستنداً بوجود المانع و فى هذه الصُّورة أمّا أن يقدر على دفع المانع و رفعه أو لا يقدر فأن لم يقدر فيعود الضّعف و العجز خلاف الفرض فثبت أنّه تعالى قادرٌ على إحياء الموتى كما أنّه قادرٌ على إيجادهم فأنّ الإحياء ليس بأصعب من الإيجاد أوّلاً بل هو أسهل منه لأنّ الإيجاد على سبيل الإبداع أي أنّه أوجد الأشياء لا من مادّةٍ و الإحياء هو الإيجاد ثانياً من مادّةٍ، و ذلك لأنّ المادّة الأصليّة باقيّة في الموتى و لأجل ذلك.

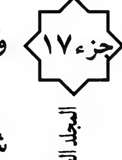

وَ أَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى ٱلْقُبُورِ

المراد بالسّاعة القيامة، بعد ما ثبت عموم القدرة بقوله: **وَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** قال و أنّ السّاعة آتيةٌ، كما هو مقتضى عموم قدرته و أمّا قوله: **لَا**

١- الأحزاب = ٤
٢- سورة القصص = ١٣
٣- الرّوم = ٨

رَيْبَ فِيهٰا فالرَّيب هو أقبح الشكّ أي أنّ الشكّ في السّاعة للعاقل قبيح.

أن قلت كيف نفى الرَّيب عن السّاعة و قد أنكرها أكثر النّاس في كلّ زمانٍ.

قلت نفى الرَّيب عنها في الواقع ونفس الأمر أي لا ريب فيها واقعاً و أن أنكره ظاهراً لأنّ إنكار الشّئ ظاهراً لا ينافي ثبوته واقعاً و ذلك لأنّ الإنكار قد يكون مستنداً الى عدم التّأمل و التّقدير و قد يكون مستنداً الى الجهل يكون مستنداً الى غيرهما من الدَّواعي كالعناد و الكفر و البغي و حبّ الدُّنيا و زخارفها ألا ترى أنّ كثيراً من النّاس يعرفون الحقّ و مع ذلك ينكرونه ظاهراً، قال أميرالمؤمنين عليه‌السلام أما و اللّه لقد تقمَّصها إبن أبي قحافة و أنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرّحى ينحدر عنّي السَّيل و لا يرقى إلّي الطّير الخ.

و قد أشبعنا الكلام فيه في شرحنا على نهج البلاغة بما لا مزيد عليه و هكذا كان عمر و عثمان و معاوية و غيرهم ممّن خالفوه و غصبوا حقَّه و هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام و نظائره كثيرة في كلّ عصر و زمان و لا يحتاج ذلك الإثبات لوضوحه على من أنصف من نفسه و يكفيك في هذا قوله تعالى حيث قال:

اَلَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ اَلْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ(١).

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمُ اَلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اَللّٰهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهٰا وَ أَكْثَرُهُمُ اَلْكٰافِرُونَ**(٣).

و أمّا قوله: **وَ أَنَّ اَللّٰهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي اَلْقُبُورِ** و فهو من تتّمة الكلام و تخصيص البعث بمن في القبور، يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ البعث مختّص

١- البقرة = ١۴۶ ٢- الأنعام = ٢٠
٣- النّحل = ٨٣

بالإنسان لأنّه يجعل بعد الموت في القبر و يدفن فيه و أمّا غيره من الحيوانات فلا يدفن في القبر، و يحتمل أن يكون الوجه فيه هو أنّ البحث في بعث الإنسان في هذا المقام و من المعلوم أنّ إثبات الشّئ لا ينافي إثباته فيما عداه و سنتكلّم في هذا الباب فيما يأتي عند قوله تعالى و إذا الوحوش حشرت.

وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ

إعلم أنّ هذه الآية قد مرَّت سابقاً في أوائل السُّورة إلاّ أنّه تعالى قال هناك و يتّبع كلّ شيطانٍ مريد، و قال هاهنا و لا هدىً و لا كتابٍ منير، و المقصود في كلتيهما هو الذّم للمجادل بغير علم و أمّا الجدال مع العلم فلا ذمٌّ فيه بدلالة المفهوم و أنّ الجدال بالعلم يدعو إلى إعتقاد الحقّ و إليه الإشارة بقوله تعالى: **وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ**[١].

أنّ بعض المفسّرين فرّق بينهما بأنّ الآية الأولى واردة في إتّباع المقلّدين و هذه الآية وردت في المتبوعين المقلّدين فأنّ كلا المجادلين جادل بغير علم و إن كان أحدهما تبعاً و الأخر متبوعاً و بيّن ذلك قوله: **وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ** فأنّ مثل ذلك لا يقال للمقلّد و أنّما يقال فيمن يخاصم بناءً على شبهةٍ إنتهى.

و قال بعضهم في الفرق أنّ الأولى نزلت في النّضر بن الحرث و هذه الآية في أبي جهل، و قيل فائدة التّكرير المبالغة في الذَّم عن الجدال بغير علم، و قوله: **وَ لَا هُدًى،** أي و لا حجّةً، و لا كتابٍ منير، أي و لا حجّة كتابٍ ظاهر هكذا قيل في تفسير الكلام و لا مشاحة فيه فأنّ المعنى واضح لا خفاء فيه.

ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ

١- النّحل = ١٢٥

ثاني عطفه نصب على الحال يعني أنّ المجادل بغير علمٍ يثني عطفه أي يلوي عنقه كبراً.

قيل إنّها نزلت في النّضر بن الحارث بن كلدة وقوله: **لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ** معناه أنّه يجادل لأجل الإضلال عن طريق الحقّ المؤدّي إلى توحيد اللّه ثمّ أشار اللّه تعالى إلى عقابه فقال، له خزيٌ في الدّنيا قيل المراد بالخزي ما لحقه يوم بدر من الأسر و القتل و الهزيمة و قد أسر النَّضر فيه و قوله و نذيقه يوم القيامة عذاب الحريق أي العذاب الّذي يحرق بالنّار و قيل الحريق طبقة من طباق جهنّم، و قد يكون من إضافة الموصوف إلى صفته أي العذاب الحريق أي المحرق كالسَّميع بمعنى المسمع و هو كما ترى.

ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَ أَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ

أي يقول اللّه عند نُزول العذاب به، ذلك، أي ذلك العذاب بسبب ما قدَّمت يداك و أنّ اللّه ليس بظَلّامٍ للعبيد، أي ما ظلمناك و لكنّك ظلمت نفسك و عدوت طورك وحَّدك.

■

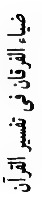

وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللّٰهَ عَلٰى حَرْفٍ فَإِنْ أَصٰابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصٰابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلٰى وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيٰا وَ ٱلْآخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرٰانُ ٱلْمُبِينُ ﴿۱۱﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لٰا يَضُرُّهُ وَ مٰا لٰا يَنْفَعُهُ ذٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلٰالُ ٱلْبَعِيدُ ﴿۱۲﴾ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلٰى وَ لَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿۱۳﴾ إِنَّ ٱللّٰهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ إِنَّ ٱللّٰهَ يَفْعَلُ مٰا يُرِيدُ ﴿۱۴﴾ مَنْ كٰانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ ٱللّٰهُ فِي ٱلدُّنْيٰا وَ ٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمٰاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مٰا يَغِيظُ ﴿۱۵﴾ وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿۱۶﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ ٱلَّذِينَ هٰادُوا وَ ٱلصّٰابِئِينَ وَ ٱلنَّصٰارٰى وَ ٱلْمَجُوسَ وَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ ٱللّٰهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ إِنَّ ٱللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿۱۷﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ وَ ٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ وَ ٱلنُّجُومُ وَ ٱلْجِبٰالُ وَ ٱلشَّجَرُ وَ ٱلدَّوٰابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنّٰاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذٰابُ وَ مَنْ يُهِنِ ٱللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ ٱللّٰهَ يَفْعَلُ مٰا يَشٰاءُ ﴿۱۸﴾ هٰذٰانِ خَصْمٰانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيٰابٌ مِنْ

نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَ ٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَ لَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

◀ اللّغة

ٱلْعَشِيرُ: الصّاحب المخالط و المعاشر و قيل المراد به إبن العمّ.

يَغِيظُ: الغيظ الغضب.

ٱلصَّابِئِينَ: قومٌ كانوا على دين نوح، و قيل لكلّ خارجٍ من الدّين إلى دينٍ أخر صابئ من قولهم من قولهم صبأ ناب البعير إذا طلع.

مَقَامِعُ: جمع مقمعة و هى مدقة الرّأس و باقي اللّغات واضح.

◀ الإعراب

عَلَىٰ حَرْفٍ هو حال أي مضطرباً متزلزلاً خَسِرَ ٱلدُّنْيَا هـو أيضاً حـال أي إنقلب قد خسر و يجوز أن يكون مستأنفاً و يقرأ خاسر الدنيّامَنْ كَانَ هو شرط و الجواب فليمدد يُصَبُّ جملة مستأنفة و يجوز أن تكون خبراً ثانياً و أن تكـون حالاً من الضّمير في، لهم، ويُصْهَرُ بالتّخفيف و قرئ بالتّشديد للتكثير و الجملة حالٌ من الحميم كُلَّمَآ العامل فيها، أعيدوا مِنْ غَمٍّ بدل بـإعادة الخـافض بـدل الإشتمال وَ ذُوقُوا أي و قيل لهم فحذف القول.

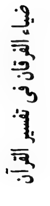

◀ التّفسير

وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْاٰخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ

كلمة، من، للتّبعيض أي بعض النّاس كذلك و قوله من يعبد اللّه على حرفٍ، إختلفوا في معناه فقيل هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه.

و قال إبن عيسى على ضعف يقينٍ، و قال أبو عبيد علىٰ شكّ و قال إبن عطيّة على حرفٍ، أي على إنحرافٍ منه عن العقيدة البيضاء.

و قال الزّمخشري على حرفٍ، أي على طرفٍ من الدّين لا في وسطه و قلبه و هذا مثل لكونهم على قلقٍ و إضطرابٍ في دينهم لا على سكونٍ و طمأنينةٍ كالّذي يكون على طرفٍ من العسكر فأن أحسَّ بظفرٍ و غنيمة، قرّ و إطّمأن و إلاّ فرَّ و طار على وجهه إنتهى.

أقول: ما ذكروه لا بأس به لأنّهم فهموا من الكلام بقدر إستعدادهم و الحقّ أنّه أي كلمة الحرف كناية عن عدم المعرفة أي أنّهم يعبدونه و لا يعرفونه، فأن أصابه خيرٌ إطّمأن به، أي يصير مطمئناً و أن أصابته فتنة أي محنةٌ بضيق المعيشة و تعَّذر المراد من أمور الدّنيا إنقلب على وجهه خسر الدّنيا و الأخرة و ذلك أي خسرانهما معاً هو الخسران المبين الذّي لا خفاء فيه.

إن قلت: كيف يدلّ هذا على أنّه يعبد اللّه على حرفٍ.

قلت: لأنّه لو كان عارفاً باللّه كان راضياً بقضاءه و قدره و إذ ليس فليس كان كذلك فهو يعبد اللّه على حرفٍ أي لا يدري من يعبد واقعاً و لذلك.

يَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ

قيل المراد بقوله من دون اللّه، الأصنام و الأوثان لأنّها جماد لا تضُر و لا تنفع.

إن قلت: كيف يقال لا يضّره و لا ينفعه مع أنّ الضّرر ثابت قطعاً.

قلت: معناه لا يضُّره ترك عبادته و لا ينفعه فعل العبادة أي أنّ الأوثان و الأصنام لا تقدر على الإضرار و النّفع لأنّها جماد و ما كان كذلك فهو لا يستحقّ العبادة.

يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَ لَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ

قال الزّمخشري فأن قلت، الضَّرر و النَّفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الأيتين و هذا تناقض.

قلت: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم و ذلك أنّ اللّه تعالى سفَّه الكافر بأنّه يعبد الجماد و هو لا يملك نفعاً و لا ضَراً و هو يعتقد فيه بجهله و ضلاله أنّه يستنفع به حين يستشفع به ثمّ قال يو ما لقيامة هذا الكافر بدعاء و صراخ حين يرى إستضراره بالأصنام و دخوله النّار بعبادتها و لا يرى أثر الشّفاعة التّي إدّعاها لها، لمن ضرَّه أقرب من نفعه لبئس المولى و لبئس العشير، أو كرَّر يدعو كأنّه قال يدعو من دون اللّه ما لا يضُّره و ما لا ينفعه ثمّ قال لمن ضرَّه، بكونه معبوداً له أقرب من نفعه بكونه شفيعاً لبئس المولى و فى حرف عبد اللّه من ضَّره بغير لام، المولى النّاصر و العشير الصّاحب كقوله فبئس القرين إنتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

أقول: يظهر من كلامه أنّه جعل المدّعو في الأيتين الأصنام و أزال التّعارض بإختلاف القائلين بالجملة الأولى من قول اللّه تعالى إخباراً عن الأصنام و الجملة الثانيّة من كلام عبّاد الأصنام يقولون ذلك في الأخرة و حكى اللّه عنهم ذلك و أنّهم أثبتوا ضَّراً بكونهم عبدوه و أثبتوا نفعاً بكونهم إعتقدوه شفيعاً فالنّافي هناك غير المثبت فزال التّعارض على زعمه، و الّذي نقول أنّ الصَّنم ليس له نفعٌ أصلاً حتّى يقال ضَّره أقرب من نفعه فما ذكره في الجواب لا يرجع إلى محصّلٍ و الحقّ في الجواب.

أنّه لا تعارض في الأيتين أصلاً حتّى نحتاج إلى الجواب و ذلك لتغاير الموضوعين في الأيتين ألم يعلم الزّمخشري أنّ التّناقض لا يتَّحقق إلاّ في موضوعٍ واحدٍ و أمّا إذا كان التّنافي في الحكم في موضوعين فلا يصدق التّناقض كما يقال زيدٌ قائمٌ و عمر و ليس بقائمٍ فالحكمان أعني القيام و عدمه

متناقضان في الواقع إلاّ أنّ في الكلام لا يتّحقق التّناقض لإختلاف الموضوع فأنّ الموضوع في الحكم بالقيام هو زيد و فى عدم القيام هو عمر و فلا تناقض أصلاً نعم يتّحقق التّناقض إذا قلنا زيدٌ قائم و ليس بقائمٍ و إلى هذا المعنى أشار علماء المنطق و الفلسفة في المتناقضين و إتّفقوا عليه و لم يختلف فيه أحد و شروط التّناقض ثمانية منها وحدة الموضوع و هى أصلها و أساسها و بعدها وحدة المحمول و بعدها وحدة المكان و هكذا فإذا قلنا زيدٌ قائم و زيدٌ ليس بنائم ليس من التّناقض لإختلاف المحمول و إن قلنا زيدٌ قائم في الدّار و زيد ليس بقائم في السُّوق ليس من التّناقض لإختلاف المكان و هكذا بقيّة الشّروط و ينبغي للزَّمخشري أن لا يذكر الإشكال حتّى يحتاج إلى الجواب و ذلك لأنّه من علماء الأدب و المعاني و البيان و قوله فيها حجّة و ليس من علماء المنطق و الفلسفة بل هو أجنّبي عن علوم العقليّة بالكليّة و ما أقبح للمرء أن يدخل فيما لا علم له به إذا عرفت هذا فنقول:

لا تناقض أصلاً و ذلك لأنّ الموضوع في إحدايهما غيره في الأخرى فلا يصدق التّناقض و توضيحه أنّ الحكم في الآية و هى قوله: **يَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لٰا يَضُرُّهُ وَ مٰا لٰا يَنْفَعُهُ** ثابت لغير ذوي العقول أعني به الأصنام و الأوثان فحكم اللّه تعالى في الآية بأنّها لا تضُر و لا تنفع بل وجودها كالعدم لأنّها لا تقدر على إيصال النّفع و الضّر إلى من عبدها لكونها جماداً لا قدرة لها و هو واضحٌ و هذا بخلاف الآية الثانيّة و هى قوله، يدعو لمن ضرَّه أقرب من نفعه فأنّ الحكم ثابت لذوي العقول و من المعلوم أنّ المعبود إذا كان من ذوي العقول مثل فرعون و نمرود و غيرهما فقد يتَّصور لعبادتهم و أخذهم من المعبودين نفعٌ ما في الدُّنيا من الدّرهم و الدينار و المقام و أمثالها من الحطام الدنيّوية إلاّ أمّ هذا النَّفع القليل الحقير لا يعبأ به في جنب الضّرر الكثير في الدّارين لأنّ متاع الدّنيا قليل و مع ذلك في معرض الفناء بخلاف الضَّرر

المتّرتب على عبادتهم فأنّه يوجب الخلود في نار جهَّنم و العاقل لا يختار القليل الفاني على الدّائم الباقي و هذا معنى ضرَّه أقرب من نفعه و إنّما قلنا ذلك، لأنّ كلمة (ما) تستعمل لغير ذوي العقول، و كلمة، (مَن) تستعمل لذوي العقول و ملَّخص الكلام أنّ الّذي إتَّخذوه معبوداً لا يخلو من قسمين:

قسمٌ من غير ذوي العقول كالأصنام و الأوثان.

و قسمٌ من ذوي العقول كالإنسان، أمّا الأوّل فلا يضُر و لا ينفع أصلاً واضح، و أمّا الثّاني و أن كان له نفعٌ ما في الدنيّا إلاّ هذا النَّفع في مقابل الضَّرر الكثير ليس بشيٍ لأنّ عبادة المخلوق لمخلوقٍ آخر مثله توجب خسران الدنيّا و الآخرة و ذلك هو الخسران المبين و معنى كونه أقرب أي أقرب إلى الإنحطاط و السّقوط من مقام الإنسانيّة هذا ما فهمناه من الآيتين و اللّه أعلم و لعَّل اللّه تعالى أشار بذلك حيث قال في الآية **لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَ لَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ** أي الصّاحب أي ما أتَّخذوه معبوداً من الإنس و زعموا أنّه مولاهم و صاحبهم ليس كذلك فأنّه بئس المولى و بئس الصّاحب لهم، ولم يذكر ذلك في الآية الأولى إذ لا يصدق على الصَّنم و الوثن و غيرهما من الجمادات المولى و الصّاحب فتأمّل في المقام لعَّلك تفهم من كلام اللّه غير ما ذكرناه و فهمناه.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ

أي أنّ اللّه تعالى يدخل الجنّة من آمن به و عمل صالحاً و فيه إشارة الى أنّ مجّرد الإعتقاد لا يكفي بل لابّد معه من العمل فالإيمان لا يتَّحقق بدون العمل كما هو الحَّق عندنا تبعاً لأهل البيت عليهم السّلام و خلافاً للعّامة القائلين بأنّ الإيمان الّذي يوجب الدّخول الى الجَّنة هو الإعتقاد فقط و الدّليل على صحّة ما ذكرناه و إخترناه هو أنّ الآثار تتَّرتب على الوجود الخارجي لا الذّهني و الإعتقاد بدون العمل لا وجود له في الخارج فلا أثر له أصلاً، هذا و أمّا قوله: **إِنَّ**

ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ معناه أنّه تعالى فعّال لما يشاء و لا يقدر أحد على منعه عمّا أراد و هو كذلك و لا خلاف فيه.

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ

إختلف المفسّرون في مرجع الضّمير من (ينصره اللّه) على أقوالٍ:

أحدها: أنّ مرجعه النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و المعنى من كان يظّن أنّ اللّه لا ينصر نبيّه يعينه على عدّوه و يظهر دينه فليمت غيظاً.

ثانيها: أنّه يرجع الى (مَن) في قوله: **مَن كَانَ يَظُنُّ**، و عليه فالمعنى أنّ من ظّن أن لا ينصره اللّه، أي لا يرزقه اللّه قاله إبن عبّاس.

ثالثها: أنّه عائد على الدّين و الإسلام، و، ما، في ما يغيظ بمعنى الّذي و العائد محذوف، أو مصدريّة فهذه هي الأقوال في الآية و أحسن الأقوال أوسطها و هو أنّه عائد على، من، و ذلك لأنّ النّبي و الدّين و الإسلام لم يذكر فيما تقدَّم حتّى يصحّ عود الضّمير إليه و المذكور هو، من، فعود الضّمير إليه أولى من عوده إلى غير المذكور و علي هذا فالمعنى من كان يظُّن أن لن ينصره اللّه في الدنيا و الأخرة فيغتاظ لإنتفاء نصره فليمدد بسبب إلى السّماء ثمّ ليقطع الحبل فلينظر هل يذهبّن كيده، ما يغيظ، قيل المراد بالسّماء سقف البيت، و السَّبب الحب، و قيل السّماء سماء الدُّنيا و السَّبب الوحي إلى النَّبي، ثمّ ليقطع الوحي عن النّبي و المعنى من ظَّن أن لا يرزقه اللّه على وجه السّخط لما أعطى فليمدد بحبلٍ إلى سماء بيته واصفاً له في حلقه و على طريق كيد نفسه ليذهب غيظه به و هذا مثلٌ ضربه اللّه لهذا الجاهل و المعنى مثله مثل من فعل بنفسه هذا فما كان إلاّ زائداً في بلاءه.

و قال الزّمخشري و المعنى أنّ اللّه ناصر رسوله في الدُّنيا و الأخرة فمن كان يظُّن من حاسديه و أعاديه أنّ اللّه يفعل خلاف ذلك و يطمع فيه و يغيظه أنّه

يظفر بمطلوبه فليتقص وسعه و ليتفرع مجهوده في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كلّ مبلغ حتّى مدَّ حبلاً إلى سماء بيته فإختنق فلينظروا و يصّور في نفسه أنّه أن فعل ذلك هل يذهب نصر اللّه الّذي يغيظه و ساق الكلام إلى أن قال و قيل فليمدد بحبلٍ إلى السّماءالمظّلة و ليصعد عليه فليقطع الوحي أن ينزل عليه إنتهى.

أقول: و قد أكثروا الكلام حول الآية في تفاسيرهم و الّذي نفهم من الآية شيءٌ أخر و هو أنّ اللّه تعالى يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد فقد ينصر و قد لا ينصر فأن إقتضت المصلحة ينصر و إلاّ فلا فليس فعل اللّه موافقاً لميل العبد في جميع الموارد و تابعاً له فمن يغتاظ في صورة عدم نصرة اللّه إيّاه أو يظُن أن لن ينصره اللّه و يغتاظ لذلك فليمدد بسببٍ إلى السّماء ثمّ ليقطع السَّبب أي يختنق فلينظر هل يذهبّن كيده ما يغيظ أي فلينظر أنّ هذا الفعل هل يذهب غيظه و المقصود أنّه باقٍ على غيظه فعل ذلك أو لا يفعل هذا على المختار من أنّ مرجع الضّمير هو المذكور أعني به، من، و أمّا على مسلك القوم من رجوعه إلى النّبي فالمعنى ما ذكروه كما إختاره صاحب الكشّاف.

وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ اٰيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ

الظّاهر أنّ الضّمير في أنزلناه، عائد على القرآن و هذا ممّا لا خلاف فيه فأنّ إنزال الأيات في القرآن و البيّنات الواضحات و قوله و أنّ اللّه يهدي من يريد، معناه واضح فأنّ اللّه تعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً هيّأ له أسبابه لأنّه على كلّ شيٍ قدير.

إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ ٱلَّذِينَ هٰادُوا وَ ٱلصّٰابِئِينَ وَ ٱلنَّصٰارٰى وَ ٱلْمَجُوسَ وَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ ٱللّٰهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ إِنَّ ٱللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

الفصل هو التّمييز بين الحقّ و الباطل و إظهار أحدهما من الأخر و المعنى أنّ اللّه يفصل بين الخصوم في الدّين يوم القيامة و المراد بقوله، هادوا، اليهود، و بالصّابئين، عبدة الكواكب، و قيل المراد بهم من كان على دين نوح، و بالنّصارى أتباع عيسى و بالمجوس قيل عبدة الشّمس أو النّار.

و أمّا الّذين أشركوا فهم جميع المشركين و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** أي أنّه تعالى عالمٌ بما من شأنه أن يشهد فأنّه يعلمه قبل أن يكون لأنّه علاّم الغيوب و أنّما يفصل بينهم يوم القيامة، لأنّ القيامة يوم الفصل:

قال اللّه تعالىٰ: **هٰذا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً**[٣].

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰواتِ وَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ وَ ٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ وَ ٱلنُّجُومُ وَ ٱلْجِبالُ وَ ٱلشَّجَرُ وَ ٱلدَّوٰآبُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذابُ وَ مَنْ يُهِنِ ٱللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشآءُ

السّجود أصله التّطامن و التّذلل و جعل ذلك عبارة عن التّذلل للّه و عبادته و هو عامٌّ في الإنسان و الحيوان و الجماد قاله الرّاغب في المفردات ثمّ أنّ السّجود على ضربين، سجودٌ بإختيار، و سجود بغير إختيار و قد يعبّر عنه بالتّسخير.

أمّا الأوّل: و هو السّجود باختيارٍ فهو ليس إلاّ للإنسان و به يستّحق الثّواب.

الثّاني: و هو السّجود بالتّسخير فلا يختصّ بالإنسان بل يكون للحيوان و النّبات أيضاً و على ذلك:

١- الصّافات = ٢١
٢- الدّخان = ٤٠
٣- النّبأ = ١٧

قـال اللّـه تـعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰواٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا**[۱].

و هو سجود تسخيرٍ و هو الدّلالة الثّاقبة النّاطقة المنّبهة على كونها مخلوقة و أنّها خلق فاعلٍ حكيم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مٰا فِى ٱلسَّمٰواٰتِ وَ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ مِنْ دٰآبَّةٍ وَ ٱلْمَلاٰئِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**[۲].

ينطوي على النّوعين من السّجود بالإختيار و التّسخير و أمّا قوله: **وَ ٱلنَّجْمُ وَ ٱلشَّجَرُ يَسْجُدٰانِ**[۳] فذلك على سبيل التّسخير، إذا عرفت هذا فنقول:

قوله: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰواٰتِ وَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ**

يشمل كلا القسمين من التّسخير و الإختيار و ذلك لأنّ سجود الإنسان بالإختيار و سجود الشّمس و القمر و الجبال و الدّواب سجود تسخيرٍ، المعلوم أنّ سجود كلّ شيءٍ بحسبه و أن شئت قلت سجود الإنسان سجود تشريع و سجود الشّمس و القمر و الجبال و غيرها سجود تكوينٍ، فأنّها تقول بلسان التّكوين.

ما سميعيم و بصيريم و خوشيم   با شما نامحرمان ما ناخوشيم

و حاصل الكلام في الآية أنّ المخلوق كائناً ما كان خاضعٌ متّذلّل لخالقه تكويناً و يدخل فيه الإنسان أيضاً علم به أو لا يعلم لأنّه معلول و المعلول رشحٌ من رشحات وجود العلّة و لا قوام له بذاته و أنّما قائمٌ بغيره فكيف يعقل أن لا يكون خاضعاً لمن يقوم به و هذا بلسان التّكوين ممّا لا كلام و أنّما الكلام في الإنسان الّذي هو أشرف الموجودات و أنّه كيف لا يتّذلل لربّه و خالقه تشريفاً و حيث أنّ الثّواب متّوقف على السّجُود التّشريعي الّذي يصدر عن فاعله

۱- الرعد = ۱۵ ۲- النّحل = ۴۹
۳- الرّحمن = ۶

إختياراً فقال تعالى ما قال في هذه الآية و غيرها مشعراً بأنّ اللّه لا يحتاج إلىٰ هذا السّجود من الإنسان لأنّه غنيٌ بذاته عن كلّ شئ فلا تنفعه طاعة من أطاعه كما لا تضُره معصية من عصاه إلاّ أنّه تعالى أوجبه عليه لأجل أن يثاب عليه فهو لطفٌ منه تعالى في حقّ عباده و من كفر فأنّ اللّه غنيٌ عن العالمين فقوله و كثيرٌ من النّاس، معطوف على من في السّموات و الأرض إلى قوله و الدّواب أي أنّ اللّه يسجد له من في السّموات و من في الأرض و الشّمس و القمر و كثيرٌ من النّاس أية أنّهم يسجدون معها، ثمّ و كثيرٌ حقَّ عليه العذاب، و هو الّذي لا يسجد ولذلك حقَّ عليه العذاب.

قال بعض المفسّرين قوله: **مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ** و أن كان ظاهره العموم فالمراد به الخصوص إذا حملنا السّجود على العبادة و الخضوع لأنّا علمنا أنّ كثيراً من الخلق كافرون به فلذلك قال وكثيرٌ من النّاس حقَّ عليه العذاب، إرتفع كثير بفعلٍ مقدّر كأنّه قال وكثيرٌ أبى السّجود فحقَّ عليه العذاب إنتهى ما ذكره.

و أنا أقول: ما ذكرناه من حمل الآية على العموم أولى إذ لا دليل على حمل السّجود على العبادة و الخضوع فأنّ السّجود و القمر و النّجوم و الدّواب ليس من هذا القبيل بل الحقّ أن يحمل السّجود على معناه العامّ الشّامل للعبادة كما يشعر به صدر الآية و أمّا قوله: **مَنْ يُهِنِ ٱللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ** فقيل في معناه أي من يهنه اللّه بالشّقوة بإدخاله جهنّم فما له من مكرمٍ، بالسّعادة بإدخاله الجنّة لأنّه الذّي يملك العقوبة و المثوبة.

و قال الزّمخشري و من أهانه اللّه كتب عليه الشّقاوة لما سبق في علمه من كفره أو فسقه فقد بقى مهاناً لن يجد به مكرماً أنّه يفعل ما يشاء من الإكرام و الإهانة و لا يشاء من ذلك إلاّ ما يقتضيه عمل العاملين و إعتقاد المعتقدين إنتهى.

و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ**، يعني يكرم من يشاء و يهين من يشاء إذا إستحقّ ذلك فأنّه تعالى لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون فهو كناية عن عموم القدرة و تعليلٌ لما تقدَّم من إثبات العذاب للمستكبرين عن السّجود و إهانتهم إهانةً لا إكرام بعده فالمعنىٰ واللّه أعلم أنّ جميع الموجودات العلويّة و السفليّة يخضعون و يتّذللون له تكويناً و أمّا تشريعاً فالنّاس على صنفين، صنفٌ يسجدون و صنفٌ لا يسجدون و هؤلاء أي من لا يسجد تشريعاً حقَّ عليه العذاب و أهانه اللّه إهانةً لا إكرام بعده و اللّه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ

إختلفوا في المشار إليه بقوله: **هَٰذَانِ** فقال قوم يعني الفريقين من المؤمنين و الكفّار يوم بدر و هم حمزة بن عبد المطَّلب قتل عتبة بن أبي ربيعة و علّي بن أبي طالب عليه السلام قتل الوليد بن عتبة و عبيدة بن الحارث بن عبد المطّلب قتل شيبة بن ربيعة، و قيل هم أهل الكتاب و أهل القرآن، و قيل هم المؤمنون و الكافرون إختصموا في ربّهم لأنّ المؤمنين قالوا بتوحيد اللّه و أنّه لا يستحقّ العبادة و الكفّار أشركوا معه غيره و أنّما قال إختصموا بصيغة الجمع لأنّ الخصم مصدر و أريد به هنا الفريق فلذلك جاء إختصموا مراعاةً للمعنى إذ تحت كلّ خصم أفراد، و قيل أراد بالخصمين القبيلتين و خصومهم ثمّ قال تعالى: **فَالَّذِينَ كَفَرُوا** يعني باللّه.

قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ قيل معناه أنّ النّار تحيط بهم كإحاطة الثّياب التّي يلبسونها و قرأ الزّعفراني في إختياره قطعت بتخفيف الطّاء كأنّه تعالى يقدّر لهم ميزاناً على مقادير جثّتهم تشتمل عليهم كما تقطع الملبوسة، سعيد بن جبير ثياب من نحاسٍ مذاب و ليس شئ إذا حمى أشدّ حرارةً منه فالتّقدير من نحاسٍ محمى بالنّار.

يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ أي الماء المغلىٰ **يُصْهَرُ بِهِ مٰا فِي بُطُونِهِمْ وَ ٱلْجُلُودُ** الصّهر الإذابة و المعنى يذاب بالحميم الّذي يصَّب من فوق رؤوسهم ما في بطونهم كما قال تعالى فقطّع أمعائهم، و قوله: **ٱلْجُلُودُ** فهو معطوف على، ما، في قوله: **يُصْهَرُ بِهِ مٰا فِي بُطُونِهِمْ** و أنّ الجلود تذاب كما تذاب الأحشاءوَ **لَهُمْ مَقٰامِعُ مِنْ حَدِيدٍ** فالمقامع جمع مقمعة مدقة الرّأس يقال قمعه قمعاً إذا ردعه عن الأمر.

كُلَّمٰآ أَرٰادُوٓا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهٰا وَ ذُوقُواعَذٰابَ ٱلْحَرِيقِ

قيل أعيدوا فيها بضرب الزّبانية إيّاهم بالمقامع و ذوقوا أي و يقال لهم و ذوقوا، و قيل كلّ ما أرادوا أن يخرجوا من النّار ضربوا بالمقامع حتّى يهووا فيها و قيل لهم ذوقوا عذاب الحريق و الذّوق طلب إدراك الطّعم فأهل النّار يجدون ألمها وجدان الطّالب لإدراك الشّيء أعاذنا اللّه منه و هذا الّذي ذكره في الآية من العذاب حال أحد الخصمين في القيامة و هم الكفّار، و أمّا الأخرون و هم المؤمنون فكما وصفهم في الآية بعدها.

و قال بعضهم، الحريق في الآية الغليظ من النّار المنتشر العظيم الإهلاك.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَ هُدُوٓا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَ هُدُوٓا إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَ ٱلْبَادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَ ٱلْقَآئِمِينَ وَ ٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَ أَذِّنْ فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ وَ ٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ

ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

◀ اللّغة

أَسَاوِرَ: بفتح الألف وكسر الواو واحدها سوار، مثل كراع و أكارع.

وَ لُؤْلُؤًا: اللّؤلؤ الكبار و المرجان الصّغار و يجوز أن يكون اللّؤلؤ مرّصعاً بالذّهب.

يَصُدُّونَ: الصَّد المنع.

ٱلْعَٰكِفُ: المقيم.

ٱلْبَادِ: الباد الطّارئ.

بِإِلْحَادٍ: الإلحاد الميل عن الحقّ.

بَوَّأْنَا: أي وطأنا.

ضَامِرٍ: الضّامر المهزول.

فَجٍّ عَمِيقٍ: الفّج الطّريق و العميق، البعيد.

بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ: البهيمة كلّ ذات أربع في البّر و البحر و الأنعام هي الإبل و البقر و الضّأن و المعز.

ٱلْبَآئِسَ: الذّي به ضّر الجوع و أصل البؤس الشِّدة.

ٱلْفَقِيرَ: الذّي لا شئ له.

تَفَثَهُمْ: التفث مناسك الحجّ و قيل هو مشف الإحرام.

ٱلْعَتِيقِ: لأنّه أوّل بيتٍ بني سمّي به لأنّه أعتق من أن تملكه الجبابرة.

حُنَفَآءَ: أصل الحنف الإستقامة و قيل أصله الميل و الحنيف المائل إلى العمل بما أمر اللّه و جمعه حنفاء.

سَحِيقٍ: السَّحيق البعيد.

◀ الإعراب

مِنَ ٱلْقَوْلِ حال من الطَّيب أو من الضّمير فيه يَصُدُّونَ حال من الفاعل في، كفروا جَعَلْنَاهُ يتّعدى إلى مفعولين فالضَّمير هو الأوّل و فى الثّاني ثلاثة أوجه:

أحدها: للنّاس.

الثّانى: أن يكون للنّاس حالاً و الجملة بعده في موضع المفعول الثّاني

الثّالث: أن يكون المفعول الثّاني، سواءً، على قراءة النَّصب ٱلْعَاكِفُ فاعل سواء و قرأ بالجرّ على أن يكون بدلاً من النّاس بِإِلْحَادٍ حال أي متلّبسّ بإلحادِ بِظُلْمٍ أيضاً حال أي إلحاداً ظالماً مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ظرف لَا تُشْرِكْ أن مفسّرة للقول المقدَّر تقديره قائلين له لا تشرك و قيل هي مصدريّة أي فعلنا ذلك لئلا تشرك و جعل النّهي صلة لها رِجَالاً حال و هو جمع راجلٍ عَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ في موضع الحال أيضاً أي و ركباناً يَأْتِينَ صفة، لضامر حُنَفَآءَ حال.

◀ التّفسير

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ

لمّا ذكر اللّه تعالى ما أعدَّ لأحد الخصمين من العذاب في الأيات الّتي مرّت ذكرها، ذكر في هذه الآية و ما بعدها ما أعدَّ من الثّواب للخصم الأخر و هو المؤمن فقال: **إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ**، من الأعمال، جنّات تجري من تحتها الأنهار يحلَّون فيها، أي في الجنّات المشهور في القرآت، ضمّ الياء و فتح الحاء و تشديد اللاّم بصيغة المجهول من حلَّ يحلُّ، من التَّحية بالحلِّي، و قرأ إبن عبّاس بفتح الياء و اللاّم و سكون الحاء من قولهم

حلى الرّجل و حليت المرأة إذا صارت حلى و كيف كان فالمعنى إنّهم أي أهل الجنّة يلبسون فيها الحلي، من أساور من ذهب، أي أنّ الحلي من أساور من ذهب، فقوله: **مِنْ ذَهَبٍ**، نعتٌ لأساور وقوله: **لُؤْلُؤًا**، معطوف على أساور لأنّ السّوار لا يكون من لؤلؤ، ثمّ قال و لباسهم فيها حرير، فحرَّم اللّه على الرّجال لبس الحرير في الدُّنيا و شوقهم اليه في الأخرة.

و الظّاهر أنّ، من، في **مِنْ أَسَاوِرَ**، للتبّعيض، و في **مِنْ ذَهَبٍ** لأبتداء الغاية أي أنشئت من ذهب و قيل، من، في أساور لبيان الجنس أي يحلّون فيها من هذا الجنس.

هُدُوٓا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَ هُدُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ

قيل الطَّيب من القول أن كانت الهداية في الدُّنيا فهو قول لا إله إلاّ اللّه و غيره من الأقوال الطيّبة من الأذكار و غيرها و يكون الصّراط طريق الإسلام و أن كان إخباراً عمّا يقع منهم في الأخرة فهو قولهم الحمد للّه الّذي صدقنا وعده و ما أشبه ذلك من محاورة أهل الجنّة و يكون الصّراط الطّريق الى الجنّة، و قيل معنى الكلام هدوا الى البشارات من عند اللّه بالنَّعيم الدّائم و قيل معناه القرآن و قيل الى الإيمان و قيل هو القول الّذي لا مخش فيه، و صراط الحميد، قيل هو الإسلام، و قيل الى الجنّة فالحميد هو اللّه المستحقّ للحمد و قيل غير ذلك من الأقوال، هذا ما قالوا في تفسير الآية.

أقول: الظّاهر أنّ المراد بالهداية في قوله: **هُدُوٓا** ليس هو الهداية الى الإيمان و الإسلام و القرآن و غيرها و ذلك الآية تحكي عن الهداية في الأخرة لا في الدُّنيا و الأخرة ليست بدار التّكليف بل هي دار الثّواب و العقاب نعم ما ذكروه يصحّ لو كانت الآية ناظرة الى الدُّنيا و سياق الكلام يأباه و ذلك لأنّ اللّه تعالى في هذه الآية و قبلها بصدد بيان ما أعدَّه للمؤمنين في الأخرة من النِّعم ظاهرٌ و على هذا فالمراد بالهداية ليس معناها المصطلح في الدُّنيا بل معناها الدّلالة

الى ما هو أحسن في القول و العمل و ذلك لأنّ الجنّة أعدّت للصّالحين من الأنبياء و المرسلين و التّابعين لهم بإحسانٍ و من كان كذلك لا يقول إلاّ طيّباً فقوله: **هُدُوٓا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ**، هدوا الى مكانٍ ليس فيه إلاّ الطّيبين من القول وقوله: **هُدُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ**، أي طريق الحقّ أو طريق المحمود و الحاصل أنّ ما ذكره في الآية هو أوصاف الجنّة و اللّه تعالى يهدي المؤمن الى الجنّة الّتي تكون كذلك.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَ ٱلْبَادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ

المضارع قد لا يلحظ فيه زمانٌ معيّن من حالٍ أو إستقبالٍ فيدُّل إذ ذاك على الإستمرار و منه قوله تعالى: **وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ** وهذا مثل قوله تعالى: **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ ٱللَّهِ** و قيل هو مُضارع أُريد به الماضي عطفاً، على كفروا، و قيل هو على إضمار مبتدأ أي و هم يصدّون و خبر إن، محذوف و هو، خسروا، أو هلكوا، و قدّره الزّمخشري بعد قوله الحرام، نذيقهم من عذابٍ أليمٍ و معنى الآية أنّ الّذين كفروا، باللّه و برسوله، أو بوحدانيّته و إختصاصه بالعبادة، و يصدون، أي يمنعون غيرهم، عن سبيل اللّه، أي من إتباعه و المسجد الحرام، أي يمنعونهم منه أيضاً أن يجيئوا اليه حجّاجاً و عمّاراً، الّذي، أي المسجد الّذي، جعلناه للنّاس، كافّة قبلةً لصلواتهم و منسكاً لحجّهم، سواء العاكف، المقيم به، و الباد الطّاريْ أعني به غير المقيم و من يرد فيه، أي في المسجد الحرام، بإلحادٍ بظلمٍ، أي منعاً بإلحادٍ أي يميل بظلمٍ و عن إبن عبّاس المعنى من يرد إستحلال ما حرَّم اللّه و الإلحاد هو الميل عن الحقّ، نذقه من عذابٍ أليمٍ، يعني مؤلمٍ موجع.

أقول: يستفاد من الآية أنّه لا يجوز لأحدٍ منع النّاس عن المسجد الحرام إذا أرادوا زيارة البيت بالحجّ و العمرة و هو كذلك و الظّاهر من الشّرع أنّ المراد بالنّاس في الآية هو المسلمون لا جميع النّاس حتّى يشمل الكفّار أيضاً فلا يجوز للكافر أن يدخل فيه حال الكفر لأنّه رجسٌ و نجس و هو ممّا لا خلاف بإجماع المسلمين و يؤيّده من قرأ، يرد، بفتح الياء أي من يرد في المسجد بإلحادٍ بظلم نذقه من عذابٍ أليم.

و أنمّا قلنا يؤيّده ولم نقل يدلّ عليه لأنّ الورود في المسجد بظلمٍ و إلحادٍ لا يختصّ بالكافر بل قد يكون المسلم أيضاً من مصاديقه كما أنّ الحجّاج لعنه اللّه دخل فيه بإلحادٍ و ظلمٍ و قتل فيه كثيراً من النّاس في فتنة إبن الزّبير.

وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَ ٱلْقَآئِمِينَ وَ ٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ

قال في المفردات أصل البواء مساواة الأجزاء في المكان خلاف النبوّة الّذي هو منافات الأجزاء يقال مكانٌ بواء إذا لم يكن نابياً بنازله، و بوّأت له مكاناً سويّته فتّبوأ، قال الشّاعر:

لها أمرها حتّى إذا ما تبوّأت   بأخفافها مأوىً تّبوأ مضجعاً

و قال غيره أصل بوأنا من قوله تعالى: **وَ بَآءُو بِغَضَبٍ مِنَ ٱللّٰهِ**[1] أي رجعوا بغضبٍ منه و تقول بوأته منزلاً أي جعلت له منزلاً يرجع اليه و البيت مكان مهيأ بالبناء للبيّتوتة فهذا أصله و جعل البيت الحرام على هذه الصّورة فقوله تعالى: **وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ**، معناه جعلنا له علاقة يرجع إليها.

أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا أي أمرناه أن لا تشرك بي شيئاً في العبادة و الظّاهر أنّ هذا أي قوله: **لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا** خطاب لإبراهيم و قال بعضهم أنّه خطاب

۱- البقرة = ۶۱

لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن مخفّفة من الثّقيلة و هو بعيد و ذلك لأنّ شرطها أن يتّقدمها جملة في معنى القول، و بوّأنا، ليس فيه معنى القول و الأولى أنّها ناصبة للمضارع (وطّهر بيتي) عن عبادة الأوثان، و قيل من الأدناس و قيل من الدِّماء و الفرث و الأقذار التّي كانت ترمى حول البيت و يلطخون به البيت إذا ذبحوا و قوله: **لِلطَّآئِفِينَ**، يعني الطّائفين حول البيت (والقائمين) أي للّذين يقومون هناك للصّلاة (والرُّكَع السّجُود) أي الّذين يركعون و يسجدون للصّلاة.

قال في التّبيان و فى الآية دلالة على جواز الصَّلاة في الكعبة، قال الحسن أمر اللّه رسوله أن يفعل ذلك في حجّة الوداع، و قلنا أنّه بعيدٌ و مع ذلك خلاف المشهور و الجمهور على أنّه خطاب لإبراهيم عليه السّلام و هو الحقّ الموافق لسياق الآية.

قال بعض المفسّرين قوله: **أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا**، أن مفّسروه بفعلٍ دلَّ عليه، بوّأنا، لأنّ التّبوء لأجل العبادة فكأنّه قيل و أمرناه و تعبّدناه و قلنا له لا تشرك بي شيئاً في العبادة و طهّر بيتي من الشِّرك و عبادة الأوثان

و قد روى علّي بن إبراهيم في تفسيره عن الصّادق يعني نحّ عنه المشركين و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: أنّ اللّه يقول في كتابه وَ طَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَ ٱلْقَآئِمِينَ وَ ٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ، فينبغي للعبد أن لا يدخل مكّة، إلاّ، و هو طاهر وقد غسل عرقه و الأذى و تطّهر.

و روى الشّيخ في الصّحيح عن الحلبي عن أبي عبد اللّه عليه السلام نحوه و أراد بالقائمين و الرُّكع السّجود المصلّين، و فى رواية معاوية بن عمّار عن أبي عبد اللّه عليه السلام: أنّ اللّه تبارك وتعالى حوّل الكعبة عشرين و مئة رحمة منها ستّون للطّائفين و أربعون للمصلّين و عشرون للنّاظرين وفيه دلالة على رجحان الطّواف على الصّلاة إنتهى... .

وَ أَذِّنْ فِى ٱلنَّاسِ بِالْحَجِّ أي مرهم بالحجّ رجالاً، و هو جمع راجل مثل صحاب جمع صاحب و المعنى مرهم أن يأتوك رجالاً أي مشاةً على أرجلهم **وَ عَلٰى كُلِّ ضٰامِرٍ** الضّامر من الإبل المهزول من السّير **يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** فالعميق البعيد و الفجّ الطّريق و المعنى يأتين من كلّ طريقٍ بعيدٍ من حيث المسافة فقوله: **يَأْتِينَ**، في معنى الجمع و قيل لأنّ المعنى و على كلّ ناقةٍ ضامرٍ.

و قد روى عمّار بن موسى عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: لمّا أوحى اللّه تعالى إلى إبراهيم أن أذّن في النّاس بالحجّ أخذ الحجر الّذي فيه أثر قدميه و هو المقام فوضعه بحذاء البيت لاصقاً به بحيال الموضع الّذي هو فيه اليوم ثمّ قام عليه فنادى بأعلى صوته بما أمره اللّه عزّ وجلّ فلمّا تكلّم بالكلام لم يحتمله الحجر فغرقت رجلاه فيه فقلع إبراهيم رجله من الحجر قلعاً الحديث.

و عن تفسير علّي بن إبراهيم قال و لمّا فرغ إبراهيم من بناء البيت أمره اللّه أن يؤذّن في النّاس بالحجّ فقال يا ربّ ما يبلغ صوتي فقال اللّه تعالى، أذِّن، عليك الأذان و علّي البلاغ و إرتفع المقام و هو يومئذٍ ملصق بالبيت فإرتفع به المقام حتّى كان أطول من الجبال فنادى و أدخل إصبعه في أذنه و أقبل بوجهه شرقاً و غرباً يقول أيّها النّاس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم فأجابوه من تحت البحور السّبع و من بين المشرق و المغرب إلى منقطع التّراب من أطراف الأرض كلّها و من أصلاب الرّجال و من أرحام النّساء بالتلبيّة لبيّك اللّهم لبيّك أو لا ترونهم يأتون يلّبون فمن حجّ من يومئذٍ إلى يوم القيامة فهم ممّن إستجاب للّه و ذلك قوله تعالى فيه أيات بيّنات مقام إبراهيم يعني نداء إبراهيم على المقام إنتهى.

و روى في المواثق في العلل و فى الكافي و غيرهما عن عبد اللّه سنان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لمّا أمر اللّه إبراهيم و إسماعيل ببناء البيت وتّم بناءه أمره أن يصعد ركناً ثمّ ينادي في النّاس هلُّم الحجّ ملو نادى هلّموا إلى الحجّ لم يحجّ إلاّ من كان يومئذٍ إنسيّاً مخلوقاً ولكن نادى هلُّم الحجّ فلَّبى النّاس في أصلاب الرّجال لبيّك داعي اللّه لبيّك داعي اللّه فمن لبّىٰ عشراً حجّ عشراً ومن لبّىٰ خمساً حجّ خمساً و من لبّىٰ أكثر فبعدد ذلك و من لبّىٰ واحدة حجّ واحدة و من لم يلّب لم يحجّ إنتهى.

أقول: و وجه الفرق بين تعلّم و هلّموا أنّ الواو لمن يعقل، و فى تقديم الرّجال على كلّ ضامرٍ، إشارة، أو إشعار بأنّ الحجّ ماشياً أفضل منه راكباً و يدلّ عليه:

ما رواه عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: ما عبد اللّه بشيءٍ أشّد من المشي و لا أفضل إنتهى.

و صحيحه الحلبي قلا سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن فضل المشي فقال عليه السلام الحسن بن علّي عليه السلام: قاسم ربّه ثلاث مرّات نعلاً ونعلاً و ثوباً و ثوباً و ديناراً و ديناراً و حجّ عشرين حجّة ماشياً على قدميه إنتهى.

و الأخبار في فضل المشي على الرّكوب كثيرة.

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وهي منافع الدنيّا و الأخرة كما روي أنّ الحجّ يُكثر المال و يحطّ الذّنوب.

و في عيون الأخبار في باب ذكر ما كتب به الرّضا عليه السلام إلى محمّد بن سنان في جواب مسائله في العلل، و علّة الحجّ الوفادة إلى اللّه عزّ وجلّ و طلب الزّيادة و الخروج من كلّ ما إقترف و ليكون تائباً ممّا مضى مستأنفاً لما يستقبل و ما فيه من إستخراج الأموال و تعب

الأبدان و حظرهما عن الشّهوات واللَّذات والتَّقرب بالعبادة إلى اللّه عزَّ وجلّ و الخضوع و الإستكانة و التَّذلل شاخصاً في الحرّ و البرد و الأمن و الخوف ذائباً في ذلك دائماً و ما في ذلك من المنافع لجميع الخلق و الرَّغبة و الرَّهبة إلى اللّه و منه ترك قساوة القلب و جبارة الأنفس و نسيان الذِّكر و إنقطاع الرّجاء و الأمل و تجديد الحقوق و حظر الأنفس من الفساد و منفعة من في شرق الأرض و غربها ومن في البّر والبحر ممّن يحجّ ومن لا يحجّ من تاجرٍ و جالبٍ و بائعٍ و مشترٍ و كاسبٍ و مسكين و قضاء حوائج أهل الأطراف و المواضع الممكن لهم الإجتماع فيها كذلك ليشهد منافع لهم إنتهىٰ.

و قوله تعالىٰ: وَ يَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللّٰهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَعْلُومٰاتٍ قال الحسن وقتادة الأيّام المعلومات عشرين ذي الحجّة و الأيّام المعدودات أيّام التّشريق و قال أبو جعفر عليه السلام الأيّام المعلومات أيّام التّشريق و المعدودات العشر لأنّ الذّكر الّذي هو التّكبير من أيّام التّشريق إنتهى.

و أنّما قيل لهذه الأيّام معلومات للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحجّ في أخرها.

أقول: روي في كتاب غوالي اللّئالي عن الصّادق عليه السلام أنّ الذّكر في قوله: وَ يَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللّٰهِ هو التّكبير عقيب خمسة عشر صلوات أوّلها ظهر العيد و عن الباقر عليه السلام مثله إنتهى و قيل الذّكر هو الذِّكر المطلق أو الذِّكر حال الذّبح.

و في معاني الأخبار بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال عليٌ في قوله عزّ وجلّ وَ يَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللّٰهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَعْلُومٰاتٍ، قال أيّام العشر إنتهى.

و بهذا الإسناد عن أبي عبد اللّـه أنّ الأيّـام المـعلومات هـي أيّـام التّشريق إنتهىٰ.

و في خبرٍ أخر عنه عليه السلام أنّه قال: المعلومات و المعدودات واحدة و قال في الدُّروس الأيّام المعدودات أيّام التّشريق و أخرها غروب الشّمس من الثّالث و الأيّـام المـعلومات عشـر ذي الحـجّة و هـو المرّوي في الصَّحيح عن علّي عليه السلام و في النّهاية بالعكس قوله: عَلَىٰ مٰا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ اَلْأَنْعٰامِ يعني ممّا يذبح من الهدي و هو من إضافة الصِّفة و البهيم هو الّذي لا يفصح و المراد بها في المـقام الإبل و البقر و الغنم، و المراد بالتَّسمية أي يذكروا إسم اللّه حين النَّحر و الذِّبح و قوله: فَكُلُوا مِنْهٰا وَ أَطْعِمُوا اَلْبٰائِسَ اَلْفَقِيرَ أي فكلوا من بهيمة الأنعام و أطعموا البائس و هو الّذي به ضَّر الجوع و الفقير هو الّذي لا شئ له و المعنى أمرنا اللّه أن نأكل منها و نطعم البائس الفقير قالوا هذا الأمر ليس للوجوب بل هو للنَّدب.

روىٰ في الكافي عن السّكوني عن أبي عبد اللّه في قول اللّه عزّ وجلّ وَ أَطْعِمُوا اَلْبٰائِسَ اَلْفَقِيرَ قال عليه السلام: هو الزّمن الّذي لا يستطيع أن يخرج لزمانة إنتهى.

و في رواية أبي بصير عنه عليه السلام أنّ الفقير هو الّذي لا يسأل النّاس و المسكين أجهد منه و البائس أجهدهم إنتهى.

فظهر من هذه الرّوايات أنّ البائس هو الفقير الشّديد الحاجة و ظاهر الآيـة الدّلالة على لزومهم الذّبح أو النّحر على الحاجّ مطلقاً ولكن النَّص و الإجماع خصَّه بالمتَّمتع و القارن.

و من الفقهاء من يقول بأنّ الأمر للوجوب فيجب الأكل، و الإطعام من دون تعيين مقدار ما يؤكل و ما يتَّصدق به و بذلك قال إبن إدريس و إستقر بـه فـي

المختلف و تفصيل الكلام فيه موكول إلى الفقه و ذهب بعضهم إلى وجوب قسمته أثلاثاً قوله تعالى:

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ

قيل التَّفث بفتح التّاء و الفاء مناسك الحجّ من الوقوف و الطّواف و السّعي و رمي الجمار و الحلق بعد الإحرام من الميقات.

و قال إبن عبّاس و إبن عمر التَّفث جمع المناسك و قيل التَّفث قشف الإحرام و قضاءه بحلق الرّأس و الإغتسال.

في الفقيه بأسناده عن عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه أنّ التّفث هو الحلق و ما في جلد الإنسان إنتهى.

و في رواية البزنطي عن الرّضا عليه السلام في تفسير التَّفث أنّه قصّ الشّارب و الأظافر و طرح الوسخ و طرح الإحرام عنه إنتهى.

و قوله: **وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ** فالمراد به أنواع البرّ و ما نذروا من نحر الإبل و غيره و قوله: **وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ** أمرٌ من اللّه تعالى بالطّواف بالبيت، و أمّا علّة وجوب الطّواف.

فقد روي في عيون الأخبار عن الرّضا عليه السلام أنّه قال: في علّة الطّواف أنّ اللّه عزّ وجلّ قال للملائكة: إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فرَّدوا على اللّه هذا الجواب فندموا فلاذوا بالعرش و إستغفروا فأحبَّ اللّه أن يتَّعبد بمثل ذلك العباد فوضع في السَّماء الرّابعة بيتاً بحذاء العرش يسمّى الضّراع ثمّ وضع في السَّماء الدُّنيا بيتاً يسمّى المعمور بحذاء الضّراع ثمّ وضع هذا البيت بحذاء البيت المعمور ثمّ أمر آدم فطاف به فتاب اللّه عزّ وجلّ عليه فجرى ذلك في ولده الى يوم القيامة إنتهى.

في حديثٍ آخر رواه في قرب الأسناد بأسناده عن الرّضا عليه السلام في تفسير قول اللّه تعالىٰ: لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ قال يَقلم الأظافر و طرح الوسخ عنك و الخروج عن الإحرام و ليطّوفوا بالبيت العتيق طواف الفريضة إنتهى.

و الظّاهر أنّ المراد طواف الحجّ الّذي هو ركنٌ فيه بلا خلاف و هو المعبّر عنه في أكثر الأخبار بطواف الزّيارة و يمكن أن يراد ما يشمل طواف النّساء لأنّه واجب به يحصل تحليل النّساء كما يشعر به صيغة المبالغة.

و روي الشّيخ عن أحمد بن محمّد قال قال أبو الحسن في قوله تعالى: وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ، قال طواف الفريضة و طواف النّساء إنتهى.

و في حديثٍ آخر عن الصّادق عليه السلام في قوله: وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ، قال: هو طواف النسّاء.

و أمّا وجه التَّسمية بالعتيق فقد ذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: أنّ لا يملكه أحد من النّاس و يدلّ عليه:

ما رواه في الكافي عن الشّمالي قال قلت لأبي جعفر في المسجد الحرام لأيّ شئٍ سمّي العتيق فقال عليه السلام: أنّه ليس من بيت وضعه اللّه في الأرض إلاّ له ربٌّ و سكانٌ يسكنونه غيره هذا البيت فأنّه لا ربّ له إلاّ اللّه تعالى و هو الحرم ثمّ قال عليه السلام أنّ اللّه خلقه قبل الأرض ثمّ خلق الأرض من بعده فدحاها من تحته و في روايةٍ أخرى أنّه سمّي بذلك لأنّه بين حرٍّ عتيق من النّاس لا يملكه أحد.

الثّاني: أنّه أعتق من الغرق و يدلّ عليه:

ما رواه علّي بن إبراهيم في تفسيره في الصّحيح عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: لمّا أراد هلاك قوم نوح و ذكر حديثاً طويلاً

وقال فيه سمّي العتيق لأنّه أعتق من الغرق و فى روايةٍ رواها في العلل عن أبي خديجة و زاد فيه فقلت له إصعد الى السّماء فقال عليه السلام لا لم يصل اليه الماء و رفع عنه، و فى رواية المحاسن عن سعيد الأعرج عتق الحرم معه كفّ عنه الماء إنتهى.

الثّالث: لأنّه أوّل بيتٍ وضع للنّاس كما مرَّ فسمّي بذلك لقدم عهده.

الرّابع: أنّه سمّي بذلك لأنّه كريم بناه كريم كما يقال عتاق الخيل للكرام منها.

الخامس: أنّه أعتق من الجبابرة و حفظه اللّه منهم كإبرهة و غيره أو لأنّ من دخله كان عتيقاً من النّار:

ذٰلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُمٰاتِ ٱللّٰهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعٰامُ إِلّٰا مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثٰانِ وَ ٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ

حرمات اللّه ما حرَّمه اللّه في الشّرع، و قيل المراد بالحرمات هنا البيت الحرام و البلد الحرام و الشّهر الحرام، و المراد بتعظيم الحرمات مراعاتها على ما قرِّر في الشّرع و قد يستدلّ بهذه الآية على عدم جواز أن يرفع أحد بناءً فوق لكعبة لأنّ ذلك من الحرمات و الشّعائر المأمور بتعظيمها و بذلك قال الشّيخ و جماعة و قال الأكثر بالكراهة للأصل و بظهور إرادة الكراهة من الخير في قوله: **فَهُوَ خَيْرٌ**، ومن التَّعظيم كذلك و للبحث فيه مقامٌ آخر، و قوله: **أُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعٰامُ إِلّٰا مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ**، يعني ما يتلى عليكم في كتاب اللّه من الميتة و الدَّم و لحم الخنزير و الموقوذة، والمترديّة، و النَّطيحة، و ما أكل السَّبع، وما ذبح على النُّصب، و أمّا أحلّت لكم الأنعام قيل المراد بها، الإبل و البقر و الغنم في حال إحرامكم، إلاّ ما يتلى عليكم من الصَّيد فأنّه يحرم على المحرم قاله الشّيخ في التبّيان، و هو واضح.

و قوله: **فَاجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ وَ ٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ**، فقال المفسّرون من العامّة لأنّ توحيد اللّه و نفي الشّركاء عنه و صدق القول أعظم الحرمات لأنّ الشّريك من باب الزُّور لأنّ المشرك يزعم أنّ الوثن يستحقّ العبادة فكأنّه قال فأجتنبوا عبادة الأوثان الّتي هي رأس الزُّور و أجتنبوا قول الزُّور كلّه و، من، في من الأوثان لبيان الجنس و يقدّر بالموصول عندهم أي الرّجس الّذي هو الأوثان و به قال صاحب الكشّاف و تبعه الرّازي و غيره من المفسّرين.

و قال الشّيخ قدس سره في التّبيان في تفسير الكلام معنى، من، لتبين الصفّة و التّقدير فأجتنبوا الرّجس الّذي هو الأوثان و روى أصحابنا أنّ المراد به اللّعب بالشّطرنج و النَّرد و سائر القمار و أجتنبوا قول الزُّور يعني الكذب.

و روى أصحابنا أنّه يدخل فيه الغناء و سائر الأقوال الملهية بغير حقٍّانتهى.

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ

أصل الحنف الإستقامة و قيل للمائل القدم، أحنف تفاؤلاً بالإستقامة و قيل أصله الميل.

قال الرّاغب في المفردات الحنف هو الميل عن الضّلال الى الإستقامة و جمعه حنفاء و تحنَّف فلان أي تحرّى طريق الإستقامة و سمَّت العرب كلّ من حجَّ أو ختَّن حنيفاً تنبيهاً أنّه على دين إبراهيم إنتهى.

أقول: لعلَّ هذا هو الوجه في ذكره في المقام أي أنّ من حجَّ ولم يشرك باللّه فهو حنيفٌ ثمّ قال تعالى و من يشرك باللّه الخ.

قال صاحب الكشّاف في المقام و يجوز في هذا التّشبيه أن يكون من المركّب و المفرّق فأن كان تشبيهاً مركّباً فكأنّه قال من أشرك باللّه فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية بأن صوَّر حاله بصورة حال من خرَّ من السّماء

فإختطفته الطُّير فتَّفرق فزعاً في حواصلها أو عصفت به الرّيح حتّى هوت به في بعض المطاوح البيعدة، و إن كان مفرّقاً فقد شبَّه الإيمان في علُّوه بالسّماء و الذّي ترك الإيمان و أشرك باللّه بالسّاقط من السّماء و الأهواء التّي تنوزع أفكاره بالطّير المختطفة و الشّيطان الّذي يطَّوح به في وادي الضّلالة بالرّيح التّي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره لا بأس به إلاّ أنّ تفسير الكلام لا يحتاج إلى هذه التّكلفات و ذلك لأنّ اللّه شبَّه المشرك باللّه بمن خرَّ و سقط من السّماء و إستلبه الطَّير و رمى به الرّيح في مكانٍ بعيد و هو كناية عن هلاكه و شقاوته و أنّه لا يملك لنفسه نفعاً و لا ضّراً يوم القيامة أو أنّه تعالى شبَّه أعمال المشرك بِأنّها تذهب فلا يقدر على شيءٍ منها و حاصل الكلام أنّ الشّرك باللّه لا ينتج إلاّ السّقوط في الدُّنيا و الأخرة و الخروج عن مقام الإنسانيّة.

ذٰلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعٰٓائِرَ ٱللّٰهِ فَإِنَّهٰا مِنْ تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ

قيل ذلك إشارة، إلى الأمر المقدّر و تقدير الكلام ذلك الأمر من يعظّم شعائر اللّه و الشّعائر علامات مناسك الحجّ كلّها و هى رمي الجمار و السَّعي بين الصّفا و المروة ذلك و قيل هي البدن و تعظيمها إستسمانها و إستحسانها.

و قال زيد بن أسلم الشّعائر ستّ، الصّفا و المروة و البدن و الجمار و المشعر الحرام و عرفة و الرُّكن و تعظيمهما إتمام ما يفعل فيها و قيل غير ذلك.

أقول: لا يبعد أن يكون المراد بالشّعائر معناها العامّ الشّامل شعائر الحجّ و غيرها من أنواع الشّعائر المندرجة تحت قوانين الشّريعة من الواجبات و المندرجات كالصّلاة و الصّوم و الجهاد و الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر و غير ذلك و لذلك قال بعضهم شعائر اللّه دين اللّه و قوله فأنّها من تقوى القلوب، قيل أي من خشيتها.

أقول: و أنّما ذكرت القلوب لأنّها مراكز التّقوى الذّي إذا ثبتت فيها و تمّكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء و من المعلوم أنّ قلب المتّقي يكون خاشعاً خاضعاً للّه تعالى و أنّما قال من تقوى القلوب ولم يقل من التّقوى مثلاً لأنّ المنافق قد يظهر التّقوى و قلبه خالٍ عنها فلا يكن مجدّاً في أداء الطّاعات و أمّا المخلص، فالتّقوى باللّه في قلبه فيبالغ في أدائها على سبيل الإخلاص و قدّر الزّمخشري في الكلام و قال تقديره من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات و لا يستقيم المعنى إلاّ بتقديرها لأنّه لابدّ من راجعٍ من الجزاء إلى، من، إنتهى و لقائلٍ أن يقول أين الرّاجع في هذا التّقدير.

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ

الضّمير في، فيها، عائد على البدن على قول الجمهور و المنافع درّها و نسلها و صوفها و ركوب ظهرها إلى أجلٍ مسمّى قيل إلى أن تنحر و يتصدّق بلحومها و يؤكل منها و قيل الأجل المسمّى الخروج عن مكّة، و قيل معناه إلى الخروج و الإنتقال من هذه الشّعائر إلى غيرها و قيل لأجل يوم القيامة، و قوله، ثمّ محلّها إلى البيت العتيق، فثُم للتّراخي في الوقت ثمّ أستعيرت للتّراخي في الأفعال و المعنى أنّ لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم و دينكم و أنّما يعبد اللّه بالمنافع الدّينية و أعظم هذه المنافع و أبعدها في النّفع محلّها إلى البيت أي وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت كقوله تعالى هدياً بالغ الكعبة، و المراد نحرها في الحرم الّذي هو في حكم البيت لأنّ الحرم هو حريم البيت و هذا أعني قوله و محلّها إلى البيت العتيق، يدلّ على أنّ المراد بالشّعائر ليس كلّها بل المراد بعضها كما هو أحد الأقوال في المسألة و اللّه أعلم.

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلٰى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿۳۴﴾ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصّابِرِينَ عَلٰى ما أَصابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلٰوةِ وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿۳۵﴾ وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللّٰهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذٰلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿۳۶﴾ لَنْ يَنالَ اللّٰهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لٰكِنْ يَنالُهُ التَّقْوٰى مِنْكُمْ كَذٰلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللّٰهَ عَلٰى ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿۳۷﴾ إِنَّ اللّٰهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللّٰهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوّانٍ كَفُورٍ ﴿۳۸﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللّٰهَ عَلٰى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿۳۹﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللّٰهُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللّٰهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّٰهِ كَثِيرًا وَ لَيَنْصُرَنَّ اللّٰهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿۴۰﴾

◀ اللّغة

أُمَّةٍ: بضّم الألف و فتح الميم المشّددة الجماعة و المراد بهما في الآية أتباع النّبي قال في المفردات الأمّة كلّ جماعةٍ يجمعهم أمرٌ مّا، إمّا دينٌ واحد أو زمان واحد أو مكانٌ واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو إختياراً و جمعهما أمم إنتهى.

مَنْسَكاً: بفتح السّين على قراءة الجمهور و بكسرها على قراءة الكسائي و هما لغتان و هو المكان للعبادة المألوفة الّذي يقصده النّاس و قيل المنسك المنهاج و هو الشّريعة جعل اللّه لكلّ أمّةٍ من الأمم السّالفة منسكاً أي شريعة،
و قال مجاهد منسكاً يعني عبادةً في الذّبح و النّسكة الذَّبيحة.

ٱلْمُخْبِتَ: من الخبت و هو المكان المطمّئن و قيل المنخفض و معناهما واحد.

وَجِلَتْ: الوجل الخوف و الخشية.

ٱلْبُدْنَ: بضّم الباء و سكون الدّال المهملة والنُّون جمع، بدنة، و هي الإبل المبدئة بالسّمن يقال بدنت النّاقة إذا سمنتها و قيل أصل البدن الضُّخم وكلّ ضخم بدن و بدن بدناً إذ أضخم، و قيل البدن البقرة و البعير.

صَوَآفَّ: بفتح الصّاد جمع صافة و هي المستّمرة في وقوفها على منهاج واحدٍ فالصَّف إستمرار جسمٍ يلي جسماً على منهاج واحدٍ و التّسمية حال نحرها دون حال قيامها.

وَجَبَتْ: الوجوب الوقوع يقال وجبت الشّمس إذا وقعت في المغيب للغروب.

جُنُوبُهَا: أي نحرها و قيل وجوب الجنوب وقوعها على الأرض للذّبح من وجب الحائط وجبةً إذا سقط.

ٱلْقَانِعَ: الّذي لا يسأل.

وَ ٱلْمُعْتَرَّ: الّذي يعتريك من النّاس.

خَوّٰانٍ: هو الّذي يظهر النّصيحة و يضمر الغِّش للنّفاق و قيل هو من ذكر إسم غير اللّه على الذَّبيحة.

صَوٰامِعُ: بفتح الصّاد وكسر الميم جمع صومعة و هى معبد اليهود.

بِيَعٌ: بكسر الباء و فتح الياء معابد النّصارى و قيل أنّ البيع كنائس اليهود و سيأتي الكلام فيهما في التّفسير.

◄ الإعراب

ٱلَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ ٱللّٰهُ يجوز أن يكون نصباً على الصِّفة أو البدل أو على إضمار أعني و أن يكون رفعاً على تقدير، هم ٱلْبُدْنَ الجمهور على النَّصب بفعلٍ محذوف أي جعلنا البدن و يقرأ بالرّفع على الإبتداء صَوٰآفَّ حال من الهاء لَنْ يَنٰالَ ٱللّٰهَ الجمهور على الياء لأنّ اللّحوم و الدّماء جمع تكسير فتأنيثه غير حقيقي، و يقرأ بالتّاء أيضاً ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا هو نعتٌ للّذين الأوّل، أو بدل منه، أو في موضع نصب، بأعني.

◄ التّفسير

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنٰا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللّٰهِ عَلىٰ مٰا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعٰامِ فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه جعل لكلّ أمّةٍ من الأمم السّالفة مَنسَكاً قرأه الكسائي بكسر السّين و الجمهور بفتحها و هو الحثّ و ذلك لأنّ قياس، مفعل، ممّا مضارعه، يفعل بضّم العين فمفعل بفتحها في المصدر و الزّمان و المكان نحن فى هكذلك و لذلك قيل أنّ الكبير من الشّاذ لأنّه على خلاف القياس.

و قال الأزهري الفتح و الكسر في السّين لغتان، و قال المجاهد المنسك الذّبح و إراقة الدّماء يقال نسك إذا ذبح و الذَّبيحة نسيكة و جمعها نسك، المنسك في كلام العرب المعتاد في خيرٍ و برٍّ.

و قال بعضهم منسكاً أي مذهباً من طاعة اللّه يقال نسكاً نسك قومه إذا سلك مذهبهم.

و قال الفَرّاء منسكاً أي عيداً.

و قال قتادة حجّاً، و قال الحسن المنسك المنهاج و هو الشّريعة و المعنى جعل اللّه لكلّ أمّةٍ من الأمم السّالفة منسكاً أي شريعةً كقوله تعالى: **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكًا هُمْ ناسِكُوهُ**[١].

أقول: الظّاهر أنّ المراد بالمنسك في الآية هو عبادة الذّبح بدليل قوله تعالىٰ: **لِيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللّٰهِ عَلىٰ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعامِ** فهذا الكلام قرينة على أنّ المراد به ما ذكرناه في الآية و هذا لا ينافي إطلاقه على غير الذّبح في موضع أخر و ذلك لأنّ المعنى جعلنا ذلك للأمم و تعبّدنا هم به ليذكروا إسم اللّه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام و من المعلوم أنّ ذكر إسم اللّه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام لا يكون إلاّ عند الذّبح و أن قيل أنّ المنسك مطلق العبادة الشّاملة للذّبح و غيره لا بأس به.

قالوا المراد بالأنعام في الآية الإبل و البقر و الغنم إذا أرادوا تذكيتها و فى ذلك دلالة على وجوب التّسمية عند الذّبح ثمّ قال تعالى: **فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ،** لا شريك له في العبادة و الملك، فله: **أَسْلِمُوا** و بشّر المخبتين، فقوله أسلموا معناه إستسلموا و إنقادوا له و بشّر المخبتين أي المتّواضعين و قيل يعني المطمئنين إلى ذكر ربّهم في جميع شئونهم.

ٱلَّذِينَ إِذا ذُكِرَ ٱللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ ٱلصّابِرِينَ عَلىٰ ما أَصابَهُمْ وَ ٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلٰوةِ وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ

١- الحجّ = ٦٧

الظّاهر أنّ اللّه تعالى وصف المخبتين في هذه الآية فكأنّه قيل و ما المخبتين اللائقين بالبشارة، فقال الّذين **ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ**، و الأوصاف التّي ذكرها اللّه لهم في الآية أربعة:

أحدها: قوله: **ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**، و هذا هو الأصل و سائر الأوصاف من فروعه و الوجل إستشعار الخوف.

ثانيها: قوله: **وَ ٱلصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ**، هذا هو الوصف الثّاني لهم و هو الصَّبر على ما أصابهم فأنّ الدُّنيا دارٌ بالبلاء محفوفة و الغدر معروفة،

وقد مدح اللّه تعالى في كثير من الأيات الصّابرين، على البلايا و المصائب قال تعالىٰ: **وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَ ٱلْجُوعِ** إلىٰ قوله: **وَ بَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ**(١) و الأيات كثيرة.

ثالثها: قوله: **وَ ٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ**، أي إتيان الصّلاة بشرائطها يقال فلان أقام الصّلاة إذا أتى بها مع جميع شرائطها و لأجل ذلك قال تعالىٰ: **وَ ٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ** و قد مرّ الكلام سابقاً في هذا الباب و قلنا أنّ إتيان الصّلاة غير إقامتها

رابعها: قوله: **وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**، و قد مَرَّ الكلام فيه أيضاً غير مَرَّةٍ و لا سيّما في أوائل البقرة عند قوله تعالىٰ: **وَ الّذينَ يُؤمِنُونَ بِالْغَيْب وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** فلا نعيد الكلام في المقام.

وَ ٱلْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَآئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَ ٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

قرأ الجمهور، البدن بالنّصب بفعلٍ مضمر يدلّ عليه جعلناها أي و جعلنا البدن و ذلك كقوله تعالى: **وَ ٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ**(٢).

١- البقرة = ١۵۵ ٢- يٰس = ٣٩

و من الفرّاء من قرأ بضّم الدّال و الجمهور على سكونها، و الضَّم هو الأصل فيها لأنّها جمع بدنة و هى الإبل المبدنة بالسّمن.

قال الزّجاج يقولون بدنت النّاقة إذا سمنتها و يقال لها بدنة من هذه الجهة و قيل أصل البدن الضُّخم و كلّ ضخم بدن و البُدنة النّاقة و تجمع على بدن و تقع على الواحد و الجمع قال عطاء البدن البقرة و البعير و قوله: **جَعَلْنٰاهٰا لَكُمْ مِنْ شَعٰائِرِ اَللّٰهِ**.

قيل معناه جعلناها لكم فيها عبادة للّه بما في سوقها إلى البيت و تقليدها بما ينبئ أنّها هدي ثمّ نحرها للأكل منها و إطعام القانع و المعتّر و قيل، من شعائر اللّه، معناه من معالم اللّه، و قيل معنى من شعائر اللّه، من أعلام الشّريعة التّي شرعها اللّه و أضافها إلى إسمه تعظيماً لها، وقوله: **لَكُمْ فِيهٰا خَيْرٌ** قال إبن عبّاس نفعٌ في الدّنيا و أجرٌ في الأخرة.

و قال النّخعي من إحتاج إلىٰ ظهرها ركب و إلى لبنها شرب و قوله: **فَاذْكُرُوا اَسْمَ اَللّٰهِ عَلَيْهٰا**، أي عند النَّحر و المراد بالذّكر التَّسمية، (صَوّاف) حال من الهاء أي بعضها إلى جنب بعضٍ و قال الزّمخشري أي قائمات قد صففن أيديهنّ و أرجلهنّ و قرئ، صوافن، من صفون الفرس و هو أن يقوم على ثلاث وينصب الرّابعة علىٰ طرف سممكه لأنّ البدنة تعقل أحدى يديها فتقوم على ثلاث، و قرئ صوافي، أي خوالص لوجه اللّه إنتهى.

و قوله: **فَإِذٰا وَجَبَتْ جُنُوبُهٰا**، وجوب الجنوب و قوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط و وجبت الشّمس وجبة غربت و المعنى فإذا وجبت جنوبها و سكنت نسائها حلَّ لكم الأكل منها فكلوا منها و أطعموا القانع و المعتّر، قيل القانع و المعتّر المتّعرض بغير سؤالٍ، و قيل القانع الرّاضي بما عنده و بما يعطى من غير سؤالٍ من قنعت قنعاً و قناعةً، و المعتّر المتعرّض بسؤالٍ، **كَذٰلِكَ سَخَّرْنٰاهٰا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**، أي مثل ذلك ذلَّلنا هذه

الأنعام لكم تصرفوها على حسب إختياركم لكي تشكروا على نعمه الّتي أنـعم اللّه بها عليكم.

لَنْ يَنٰالَ ٱللّٰهَ لُحُومُهٰا وَ لاٰ دِمٰاۤؤُهٰا وَ لٰكِنْ يَنٰالُهُ ٱلتَّقْوىٰ مِنْكُمْ كَذٰلِكَ سَخَّرَهٰا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللّٰهَ عَلىٰ مٰا هَدٰاكُمْ وَ بَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ

قال مجاهد أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذّبح و تشريح اللّحم منصوباً حول الكعبة و نضح الكعبة حواليها بالدّم تقرّباً إلى اللّه فنزلت هذه الأية.

و عن إبن عبّاس قريبٌ منه و المعنى لن يصيب رضا اللّه اللُّحوم المتّصدق بها و لا الدّماء المهراقة بالنّحر و المراد أصحاب اللّحوم و الدّماء و المعنى لن يرضى المضّحون و المقرّبون ربّهم إلى بمراعاة النِّية و الاخلاص و الإحتياط بشروط التّقوى في حلّ ما قرب به و غير ذلك من المحافظات الشّرعية و أوامر الورع فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التّضحية و التّقريب و إن كثر ذلك منهم.

و قال بعض المفسّرين معنى الكلام لن يتّقبل اللّه اللّحوم و لا الدّماء و لكن يتّقب التّقوى فيها و فى غيرها بأن يوجب في مقابلتها الثّواب، و قيل لن يبلغ رضا اللّه لحومها و لا دماؤها و لكن ينالها التّقوى منكم هكذا فسّروا الأية بأس به و الذّي يخطر بالبال في معنى المراد هو أنّ اللّه تعالى بصدد بيان نقطةٍ أخرى و هي أنّ مجّرد الذّبح و الهدي لا يكفي في الإمتثال إذا لم يكن بقصد القربة أن يكون العمل للّه و بداعي أمره بل اللاّزم فيه هو مراعاة التّقوى و ذلك لقوله تعالىٰ: **إِنَّمٰا يَتَقَبَّلُ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ** و إنّما أتى بكلمة، لن، الّتي هي لنفس الأبد دون، ما و لا و ليس و غيرها من حروف النّفي لدّلالة على أنّ هذا الحكم أعني به عدم القبول يستمر الى الأبد و لا يخّتص بزمانٍ و مكانٍ خاصّ و السّر فيه أنّ اللّه تعالى غنّيٌ بالذّات لا يحتاج الى غيره فكُّل نفعه في الدّنيا و الآخرة يرجع الى صاحبه و إذا كان العمل لغير اللّه فلا نفع فيه فالمعنى أنّ اللّحم و

الدَّم لن يصلا الى اللّه و الّذي يصل إليه و يتَّرتب الثّواب عليه هو الخلوص في العمل قال اللّه تعالى: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَ ٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**[1] ولذلك قال: **كَذٰلِكَ سَخَّرَهٰا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللّٰهَ عَلىٰ مٰا هَدٰاكُمْ** أي هداكم الى الثّواب و قوله: **وَ بَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ** معناه بشّرهم برحمة اللّه و قبول الأعمال منهم.

إِنَّ ٱللّٰهَ يُدٰافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ خَوّٰانٍ كَفُورٍ

قيل معنى، يدافع، ينصر، أي أنّ اللّه ينصرهم و يدفع عنهم عدُّوهم تارَةً بالقهر و أخرى بالحجّة و قوله: **إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ خَوّٰانٍ كَفُورٍ** أي أنّه لا يحبّ الخَّوان و هو الّذي يظهر النَّصيحة و يضمر الغِّش للنّفاق أو لأقتطاع المال أنّ من ذكر إسم غير اللّه على الذَّبيحة فهو الخَّوان و الكفور هو الجحود لنعم اللّه قاله الشّيخ في التّبيان.

أقول: روي أنّ المؤمنين لمّا كثروا بمكة أذاهم الكفّار و هاجر من هاجر الىٰ أرض الحبشة أراد بعض مؤمني مكّة أن يقتل من أمكنه من الكفّار و يحتال و يغدر فنزلت الآية قيل قوله: **كَفُورٍ** و وعد فيها بالمدافعة و نهىٰ عن الخيانة و خصَّ المؤمنين بالدَّفع عنهم و النُّصرة لهم و علَّل ذلك بأنّه لا يحبّ أعدائهم الخائنين.

أقول: لم يدلّ دليلٌ على صحّة الرّواية الّتي ذكروها في شأن النزول و على فرض صحَّتها فالحكم عامّ و أن كان المورد خاصّاً، فالمعنى أنّ اللّه يدافع عن المؤمنين و لا يحَّب الخائنين الكافرين بنعمه و هذا الحكم عامّ يشمل الكُّل في جميع الأزمنه و ذلك لأنّ الخائن لا يحّبه إلاّ الخائن و اللّه تعالى منَّزه عن القبائح و الظّاهر أنّ قوله (يدافع) أي يدافع عنهم أعدائهم كيف يشاء ولم يذكر اللّه ما يدفعه عنهم ليكون أفخم و أعظم و أعَّم.

١- فاطر = ١٠

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ

قيل أنّ هذه الآية نزلت في المهاجرين الّذين أخرجهم أهل مكّة من أوطانهم و هاجروا مع الرَّسول و بعده الى المدينة فلّما قووا فيها أمرهم اللّه بالجهاد و بَين في الآية أنّه أذن لهم في قتال من ظلمهم و أخرجهم من أوطانهم و المأذون فيه محذوف أي في القتال لدلالة، يقاتلون، عليه و علّل للأذن بأنّهم ظلموا قيل كانوا يأتون رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم من بين مضروبٍ و مشجوج فيقول لهم إصبروا فأنّي لم أومر بالقتال قيل أنّها أوّل آيةٍ أذن فيها بالقتال بعد مات نهىٰ عنه في نيّف و سبعين آيةً و قال بعضهم نزلت في قومٍ خرجوا مهاجرين فأعترضهم مشركوا مكّة فأذن لهم في مقاتلتهم و أنّ اللّه علی نصرهم لقدير، وعد بالنّصر و الأخبار بكونه يدفع عنهم.

ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ وَ لَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَوَاتٌ وَ مَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَ لَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ

بعد الإذن في القتال في الآية السّابقة بين حال المأذونين فقال: **ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ** بل ظلماً محضاً، **إِلَّآ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ** و المعنى إلاّ أن يقولوا الحقّ فكأنّه قال **ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا** بغير حَق إلاّ الحَق الّذي هو قولهم: **رَبُّنَا ٱللَّهُ**، وقيل، إلاّ، بمعنى، لكن، و تقديره لكّهنم يقولون ربّنا اللّه فهو إستثناء منقطع فهو كقولك ما غضبت علَّي إلاّ إنّي منصف، و ما تبغض فلاناً إلاّ أنّه يقول الحَق أي جعلت ذلك ذنبه، و قال الفرّاء تقديره إلاّ بأن يقولوا و على هذا فتكون، أن، في موضع الجّر و قال بعض المفسّرين، الّذين أخرجوا في موضع جّرٍ، نعتٌ، للّذين، أو بدل أو في موضع نصب بأعني، أو في موضع رفع على إضمار، هم، و الاّ أن يقولوا، إستثناءٍ منقطع، و أن يقولوا في موضع نصب لأنّه منقطع لا يمكن توجّه العامل عليه فهو مقدّر بلّكن، من حيث

المعنى لأنّك لو قلت، **ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَٰرِهِمْ**إلاّ أن يقولوا ربّنا اللّه لم يصّح بخلاف قولك ما في الدّار إلاّ حمار فأنّ الإستثناء، منقطع و يمكن أن يتّوجه إليه العامل فيقول ما في الدّار إلاّ حمار، فهذا يجوز فيه النَّصب و الرَّفع، النَّصب للمجاز و الرَّفع ليتمم و أجاز أبو إسحاق فيه الجَّر على البدل و تبعه الزَّمخشري فقال: **أَنْ يَقُولُوا**، في محلّ الجَّر على الأبدال من حَّقٍ أي بغير موجب سوى التَّوحيد الّذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار و التَّمكين لا موجب الإخراج و التَّبشير و مثله، **هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا**[1] إنتهى.

أقول: و ما أجازاه من البدل لا يجوز لأنّ البدل لا يكون إلاّ إذا سبقه نفيٌ أو نهيٌ أو إستفهام في معنى النَّفي نحو ما قام أحد إلاّ زيد و لا يضرب أحد إلاّ زيد و هل يضرب أحد إلاّ زيد و أمّا إذا كان الكلام موجباً أو أمراً فلا يجوز البدل لا يقال قام القوم إلاّ زيد على البدل و لا يضرب القوم إلاّ زيد على البدل لأنّ البدل لا يكون إلاّ حيث يكون العامل يتسلّط عليه، و قال البيضاوي، و الّذين أخرجوا من ديارهم، يعني مكّة، بغير حَّقٍ، أي بغير موجبٍ إستّحقوا به، **إِلَّآ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ** على طريق قول النّابغة:

و لا عيب غير أنّ سيوفهم بهّن فلولٌ من قراع الكتائب

و قيل منقطعٌ إنتهى.

أقول: هذا ما ذكرناه في تفسير الآية و لا بأس به و الّذي يخطر بالبال في حلَّ الإشكال هو أنّه تعالى لمّا ذكر في الآية السّابقة الإذن لهم في القتال و علّله بأنّهم ظلموا فكأنّه قيل من هؤلاء الّذين ظلموا، فقال تعالى: **ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَٰرِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ** أي أخرجوا ظلماً لأنّهم لم يصدر منهم ذنبٌ إستحقّوا به للإخراج من أوطانهم إلاّ قولهم ربّنا اللّه أي إلاّ أنّهم قالوا بالتَّوحيد و هذا ليس ممّا يوجب الإخراج بل الموجب له هو الفساد في الأرض ففي الآية ذمٌّ للكُّفار الّذين عدّوا التّوحيد من الفساد الموجب للإخراج و حاصل الكلام أنّهم

١- المائدة = ٥٩

أخرجوا بسبب قولهم ربّنا اللّه و هذا مثل قولك قتلوا زيداً بإيمانه، و قولك لا ذنب لزيد إلاّ أنّه مؤمن و أمّا قوله: **وَ لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ** فقرا، نافع و لولا دفاع اللّه، و لهدمت بالتّخفيف، و المعنى لخربت صوامع، أي صوامع الرُّهبانية و هى للنّصارى، و بيع، بكسر الباء و فتح الياء لهم أيضاً، و صلوات، و هى كنائس اليهود سمّيت بها لأنّها يصلّي فيها، و مساجد، و هى للمسلمين، **يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا**، صفة للأربع و قيل لمساجد خاصّة خصّت بها تفضيلاً، **وَ لَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ** البتّة، من ينصر دينه، أنّ اللّه لقَّويٌ عزيز، و فى الآيات أبحاث:

أحدها: ما أراد بهذا الدفّع أو الدِّفاع الّذي أضافه الى نفسه، قيل المراد به هو إذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفّار فكأنّه قال تعالىٰ: **وَ لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ ٱلنَّاسَ** أهل الشِّرك بالمؤمنين من حيث أن يأذن لهم في جهادهم و ينصرهم على أعدائهم لأستولى أهل الشِّرك على أهل الأديان و عطّلوا ما يبنونه من مواضع العبادة و لكّنه دفع عن هؤلاء بأن أمرهم بقتال أعداء الدّين ليتفرَّغ أهل الدّين للعبادة و بناء البيوت لها و لهذا المعنى ذكر الصَّوامع و البيع و الصّلوات و أن كانت لغير أهل الإسلام إنتهى ما ذكره الرّازي في تفسيره ثمّ نقل عن المفسّرين وجوهاً آخر.

أحدها: قال الكلبي يدفع اللّه بالنَّبيين عن المؤمنين و بالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد.

ثانيها: روي أبو الجوزاء عن إبن عبّاس أنّه قال يدفع اللّه بالمحسن عن المسيئ و بالّذي يصلّي عن الّذي لا يصلّي و بالّذي يتَّصدق عن الّذي لا يتَّصدق و بالّذي يحِّج عن الّذي لا يحّج و عن إبن عمر عن النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ اللّه يدفع بالمسلم الصّالح عن مئة من أهل بيته و من جيرانه ثّم تلى هذه الآية.

ثالثها: قال الضّحاك عن إبن عبّاس يدفع بدين الإسلام وبأهله عن أهل الذّمة.

رابعها: قال مجاهد يدفع عن الحقُّوق بالشّهود و عن النُّفوس بالقصاص إنتهى كلامه.

و قال بعض المفسّرين من العامّة ما هذا لفظه قال علّي إبن أبيطالب و لولا دفع اللّه بأصحاب محمّد الكفّار عن التّابعين فمن بعدهم و أخذ الزَّمخشري قول علّيٍ و حسّنه و ذيَّل عليه فقال دفع اللّه بعض النّاس ببعضٍ إظهاره و تسليط المؤمنين منهم على الكافرين بالمجاهدة و لولا ذلك لأستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم و على متّعبداتهم فهدّموها و لم يتركوا للنّصارى بيعاً و لا لرهبانهم صوامع و لا لليهود صلوات و لا للمسلمين مساجد و لغلب المشركون في أمّة محمّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على المسلمين و على أهل الكتاب الّذين في ذمّتهم و هدموا متَّعبدات الفريقين إنتهى كلامه.

و قال قوم دفع ظلم الظَّلمة بعدل الولاة و قالت فرقة بدعاء الأخيار و الأقوال كثيرة و ما نقله عن علّي عليه السلام و حسَّنه الزّمخشري هو الحقّ ثمّ أنّ الصَّوامع و البيع معناهما واضح لا خفاء فيه و أنّما الكلام في الصَّلاة فقال الجمهور صلوات جمع صلاة، و قرأ بعضهم، **صُلُوات**، بضّم الصّاد و اللاّم و قرأ بعضهم، صلوات، بكسر الصّاد و سكون اللاّم، و حكى عن الجحدري بضّم الصّاد و فتح اللاّم و عن الكلبي بفتح الصّاد و سكون اللاّم و قيل، صلوات، هي مسجد النّصارى بضّمتين من غير ألف و بثاء منقوطة بثلاث، و قرأ عكرمة، بكسر الصّاد و إسكان اللاّم و واو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء منقوطة بثلاث و قيل أنّها عبّرانية و ينبغي أن تكون قراءة الجمهور يراد بها الصَّلوات المعهودة في الملل و كيف كان فالصَّلوات لليهود و قيل غير ذلك و أمّا قوله: **وَ لَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُۥٓ** إلىٰ أخر الآية فمعناه واضح لا خفاء فيه و من المعلوم أنّ اللّه ينصر من نصر دينه.

ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتَوُا ٱلزَّكٰوةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَ لِلّٰهِ عٰاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عٰادٌ وَ ثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَ قَوْمُ إِبْرٰاهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَ أَصْحٰابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسٰى فَأَمْلَيْتُ لِلْكٰافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰا وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ فَهِيَ خٰاوِيَةٌ عَلٰى عُرُوشِهٰا وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهٰآ أَوْ اٰذٰانٌ يَسْمَعُونَ بِهٰا فَإِنَّهٰا لاٰ تَعْمَى ٱلْأَبْصٰارُ وَ لٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذٰابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ ٱللّٰهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهٰا وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهٰا وَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يٰآ أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ إِنَّمآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾

◀ اللّغة

فَأَمْلَيْتُ: الإملاء التّأخير أي أخَّرت عقابهم و حلمت عنهم.

نَكِيرِ: بفتح النُّون وكسر الكاف كالنّذير المراد به المصدر أي إنكاري.

فَكَأَيِّنْ: للتّكثير.

خَاوِيَةٌ: أي ساقطة.

عُرُوشِهَا: جمع عرش و هو السَّقف.

مُعَطَّلَةٍ: التَّعطيل إبطال العمل بالشّئ.

مَشِيدٍ: الشَّيد الجصّ و قيل رفيع و هو المرفوع بالشَّيد.

◄ الإعراب

فَكَأَيِّنْ في موضع نصب بما دلَّ عليه، أهلكناها، أو في موضع رفع على الإبتداء **وَ بِئْرٍ** معطوفة على قريةٍ **ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ** صفة مؤكّدة معجزين حال.

◄ التّفسير

ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ آتَوُا ٱلزَّكٰوةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَ لِلّٰهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ

الظّاهر أنّ قوله: **ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ**، صفة من تقدَّم ذكره من المهاجرين في سبيل اللّه قيل وتقديره، لينَّصرن اللّه من ينصره.

ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ، أي أعطيناهم كلّ ما لا يصحّ الفعل إلاّ معه لأنّ التّمكسن إعطاء ما يصّح معه الفعل و المعنى لينَّصرن اللّه الّذين إن مكّناهم و أعطيناهم القدرة على الفعل **أَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ** قيل إقامة الصّلاة الإتيان بها بشرائطها **وَ آتَوُا ٱلزَّكٰوةَ** إذا وجبت على أموالهم **وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ** قيل فيه دلالة على وجوبهما إلاّ أن يدلّ على أنّه نفل لأنّ الإحتياط يقتضي ذلك و إستدلّوا على ذلك بأنّ ما رغَّب اللّه فيه فقد أراده و كلّ ما أراده من العبد فهو واجب فالنَّفل يحتاج إلى دليلٍ.

أقول: في هذا الإستدلال نظر و ذلك لأنّ الكبرى في القضيّة ليست بصحيحة فأنّ الإرادة تتّعلق بالنَّفل أيضاً و بعبارةٍ أخرى ما أراده من العبد أعمّ من الوجوب و النَّدب فأن ثبت أنّ الإرادة تعلَّقت بالفعل مع المنع من النّقيض

فهو واجي و إلاّ فهو ليس بواجب و لا يمكن أن يقال أنّ الإرادة لا تتّعلق بالنَّفل و تفصيل الكلام في الأصول.

و أمّا وجوب الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر فهو ثابت كتاباً و سنّةً و إجماعاً و معقلاً و قد مرَّ الكلام سابقاً بما لا مزيد عليه فلا نحتاج في إثباتهما بما ذكره المستدّل في المقام و قوله و للّه عاقبة الأمور، معناه تصير الأملاك لله تعالى لبطلان كلّ ملكٍ سوى ملكة و قيل توّعد للمخالف ما ترّتب على التّمكين.

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عٰادٌ وَ ثَمُودُ

في هذه الآية تسلية للرّسول بتكذيب من سبق من الأمم المذكورة لأنبيائهم و وعيدٌ لقريش إذ مثّلهم بالأمم المكذّبة المعذّبة و أنّما أسند الفعل بعلامة التّأنيث و قال، كذّبت، من حيث أراد الأمّة أو القبيلة أي كذّبت الأمّة قبلهم قوم نوح و قد تقدّم الكلام في قصّة نوح و الطُّوفان و قصّة عاد و ثمود **وَ قَوْمُ إِبْرٰاهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ** و قد مرَّ الكلام فيهما أيضاً.

وَ أَصْحٰابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسٰى فَأَمْلَيْتُ لِلْكٰافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ

المراد بأصحاب مدين، قوم شعيب النّبي و قوله: **كُذِّبَ مُوسٰى** لم يقل و قوم موسى، لأنّ قومه بنيإسرائيل و كانوا أمنوا به و أنّما كذّبه قوم فرعون، فأمليت للكافرين، أي أمهلت لهم و أخّرت عنهم العذاب مع علمي بفعلهم و إستحقاقهم له، ثمّ أخذتهم، أي هؤلاء الكفّار الّذين كذّبوا الأنبياء فكيف كان إنكاري عليهم و تبديل حالهم الحسنة بالسّيئة و حياتهم بالهلاك و معمورهم بالخراب و هذا إستفهام فيه معنى التّعجب كأنّه قيل ما أشدَّ ما كان إنكاري عليهم و فى الكلام إرهابٌ لقريش و محصّل الكلام في الآية هو نزول العذاب

على الكفّار المكذّبين بعد الإمهال و الإملاء و أنّما أمهلهم إتماماً للحجّة ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيا من حيَّ عنها.

و إعلم أنّ قوم نوح فأهلكهم اللّه بالطُّوفان بعد تكذيبهم إيّاه:

كما قال اللّه تعالىٰ: **فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ اَلَّذِينَ مَعَهُ فِى اَلْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِنَآ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْمًا عَمِينَ**[١].

و أمّا قوم عاد و هم قوم هود النّبي فأنّهم أيضاً كذّبوه و قالوا أنّا لنظّنك من الكافرين فأهلكهم اللّه:

كما قال اللّـه تـعالىٰ: **فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ اَلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ قَطَعْنٰا دٰابِرَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيٰاتِنٰا وَ مٰا كٰانُوا مُؤْمِنِينَ**[٢].

و أمّا قوم ثمود فهم أصحاب صالح النّبي و قد عقروا النّاقة فوقعوا في العذاب:

كما قال اللّه تعالىٰ: **فَعَقَرُوا اَلنّٰاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ**[٣] إلىٰ أن قال: **فَأَخَذَتْهُمُ اَلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ**[٤].

و قد ذكرنا قصصهم في تلك السُّورة و هكذا قوم إبراهيم و قوم موسى فلا نعيد الكلام بذكرها في المقام حذراً عن الإطناب و قد مرَّ الكلام في تلك السُّورة في أصحاب مدين و هم قوم شعيب فأنّهم كذّبوا شعيباً فأهلكهم اللّه أيضاً:

قال اللّه تعالى: **وَ لَمّٰا جٰآءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا شُعَيْبًا وَ اَلَّذِينَ اٰمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ أَخَذَتِ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا اَلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ**[٥].

وسيأتي الكلام فيها في المستقبل أيضاً.

١- الأعراف = ٦۴
٢- الأعراف = ٧٢
٣- الأعراف = ٧٧
۴- الاعراف = ٧٨
۵- هُود = ٩۴

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰا وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ فَهِيَ خٰاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِهٰا وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ

فَكَأَيِّنْ للتّكثير و هى ظالمة، جملة حاليّة و المعنى و كم من قريةٍ أهلكناها لمّا إستّحقوا الإهلاك حال كونها ظالمة لنفسها، و المراد أهل القرية أي أنّهم إستّحقوا العذاب لكونهم ظالمين على أنفسهم بتكذيبهم الرُّسل و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد، و فى هذا الكلام إشارة بل تصريح بأنّ العذاب في الدّنيا و الأخرة بسبب أعمال العبد و هو كذلك صرَّح بذلك كثيرٌ من الأيات و قوله خاوية على عروشها أي تهَّدمت الحيطان على السّقوف و قيل على عروشها أي سقوفها و ذلك لأنّ العرش يطلق على السَّقف، و بئرٍ معطلّةٍ و قصرٍ مشيدٍ.

قال الزّمخشري معنى المعطلّة أنّها عامرة منها الماء و معها ألات الإستثناء إلاّ أنّها عطلّت أي تركت لا يستقي منها الهلاك أهلها و المشيد المحصّص أو المرفوع البنيان و المعنى قريةٍ أهلكناها أي أهلها و كم بئرٍ عطَّلناه عن سقاتها و قصرٍ مشيدٍ أخليناه عن ساكنيه فترك ذلك لدلالة معطلّة عليه إنتهى.

فقوله: **وَ بِئْرٍ وَ قَصْرٍ**، معطوفان على من قريةٍ و من قرية تمييزٌ، لكأيّن و كأيّن، تقتضي التّكثير فدلّ ذلك على أنّه لا يراد بقرية و بئر و قصر، معيّن و إن كان الإهلاك يقع في معيّن لكن من حيث الوقوع لا من حيث دلالة اللّفظ ثمّ أنّ بعض المفسّرين قد عيَّن هذه البئر و نقل عن إبن عبّاس أنّها كانت لأهل عدن من اليمن و هو الرَّس.

و عن كعب الأحبار أنّ القصر بناه عاد الثّاني و هو منذر بن عاد بن إرم بن عاد و قال غيره أنّ البئر بحضر موت و القصر مشرفٌ على قلّة الجبل لا يرتقىٰ إليه و قالوا غير ذلك و الكلّ لا دليل عليه فلا حاجة إلى نقله.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهٰآ أَوْ آذٰانٌ يَسْمَعُونَ بِهٰا فَإِنَّهٰا لاٰ تَعْمَى ٱلْأَبْصٰارُ وَ لٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ

لمّا أخبر اللّه تعالى عن إهلاك الأمم الماضية بسبب كفرهم و عنادهم و تكذيبهم الأنبياء قال أفلم يسيروا في الأرض يمكن أن تكون الهمزة للإستفهام الإنكاري أي أنّهم ساروا فيها و رأوا أثارهم و ديارهم و مع ذلك لم يعتبروا بها عناداً و كفراً منهم و يحتمل أن تكون للحث على السَّفر ليشاهدوا مصارع الكفّار فيعتبروا ثمّ قال تعالى: **فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** أي إذا ساروا و رأوا مصارعهم فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أي بالقلوب أو أذانٌ يسمعون بها صحّة ما ذكرناه عمَّن أخبرهم بصحّته من الّذين عرفوا أخبار الماضين و على هذا فتكون الفاء للتّفريع أي أن سافروا و علموا و عقلوا ما ذكرناه هكذا فسَّروا الكلام و الّذي يختلج بالبال هو أنّ الفاء ليست للتّفريع لأنّ التّعقل و الإعتبار لا يتَّفرع على الرّؤية و بعبارةٍ أخرى رؤية الشّئ لا تلازم الإعتبار به فأنّ كثيراً من النّاس بل أكثرهم يرون الأثار و لا يعتبرون بها قال أميرالمؤمنين عليه السلام ما أكثر العبر و أقلَّ الإعتبار و على هذا فالمعنى أفلم يسيروا في الأرض لأجل التَّعقل و الإستماع عن أخبار الماضين ليعتبروا بها فالمراد بالسَّير هو السَّير للتَّعقل لا مطلق السّير ولو كان بقصد السّياحة مثلاً و أنّا بعد ما إحتملنا ذلك رأينا في تفسير البيضاوي ما يؤيّد ذلك فأنّه قال في قوله تعالىٰ: **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ** ما هذا لفظه، حثٌّ لهم على أن يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا و هم و أن كانوا قد سافروا لم يسافروا لذلك فتكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يعقل من التّوحيد بما حصل لهم من الإستبصار و الإستدلال إنتهىٰ.

فقوله و أن كانوا قد سافروا لم يسافروا لذلك فتكون لهم قلوب يعقلون بها الخ دليل على ما ذكرناه فأنّ قوله لم يسافروا لذلك أي للتَّعقل و الإعتبار.

و أمّا قوله: **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَ لَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ** فقال الزّمخشري، فأنّها الضّمير ضمير الشّأن و القصّة يجئ مذّكراً و

مؤنّثاً و فى قراءة إبن مسعود فأنّه، و يجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسّره الأبصار و فى تعمى ضميرٌ راجعٌ إليه و المعنى أنّ أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها و أنّما العمى بقلوبهم أو لا يعتدّ بعمى الأبصار فكأنّه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب إنتهى كلامه.

أقول في الآية إشارة إلى نقطةٍ خفيّة دقيقة و هى الحوّاس أعني بها الباصرة و السّامعة و اللاّمسة و الذّائقة و الشّامة وظيفتهما الإدراك المجّرد و أمّا حسن المدرك أو قبحه فهو من وظائف العقل الذّي مدركٌ للكلّيات فالمدرك بأحدى القوى ينتقل إلى العقل و هو الحاكم فيه و محلّه القلب و بهذا يفترق الإنسان عن الحيوان ألا ترى أنّ هذه الحوّاس موجودة في الحيوان أيضاً بل هي فيه أشدَّ و أقوى منها في الإنسان في أكثر الحيوانات إلاّ أنّه ليس للحيوان فيها تّعقل و تدَّبر فلو كان الإنسان أيضاً كذلك فما الفرق بينه و بين الحيوان و على هذا ينبغي أن يكون الإنسان متّعقلاً متّدبراً فيما يراه بعينه أو يسمع بأذنه و هكذا و هذا هو المتّرقب منه فمن رأى شيئاً ببصره و لا يعقله فكأنّه لم يبصره إذا عرفت هذا.

فقوله تعالىٰ: **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَ لَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ** معناه أنّ كثيراً من النّاس يرون الأثار و لكن لا يعقلوها فعبّر عن عدم التّعقل بعمى القلوب مجازاً:

كما قال اللّه تعالىٰ: **لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا** الى قال: **أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**[١] واللّه أعلَم.

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ

١- الاعراف = ١٧٩

أي يستعجلونك يا محمّد بالعذاب قيل أنّه ﷺ كان يحذّر قريش نقمات اللّه و يوعدهم بذلك دنياً و أخرةً و هم لا يصدّقون بذلك و يستبعدون وقوعه فكان إستعجالهم على سبيل الإستهزاء و أنّ ما توّعدنا به لا يقع و أنّه لابعث و لا نشور و فى قوله: **وَ لَنْ يُخْلِفَ اَللّٰهُ وَعْدَهُ**، إشارة إلى أنّ ذلك واقع لا محالة لكن لوقوع العذاب أجل لا يتّعداه و أضاف الوعد إليه تعالى لأنّ رسوله هو المخبر عنه تعالى فوعده ﷺ وعده ثمّ أنّه تعالى أنكر عليه إستعجالهم بالمتّوعد به من العذاب العاجل و الآجل فكأنّه قال و لم يستعجلون به كأنّهم يجّوزون الفوت و الخلف ولم يعلموا أنّه يجّوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف و اللّه عزّ وجلّ لا يخلف الميعاد و ما وعده ليصيبهم و لو بعد حين و هو سبحانه حليمٌ لا يعجل ثمّ قال و أنّ يوماً عند ربّك كألف سنّةٍ ممّا تعدُّون.

إختلفوا في هذا التّشبيه فقيل في العدد أي اليوم عند اللّه ألف سنة من عددكم و فى الحديث يدخل فقراء المسلمين الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم و ذلك خمس مائة عامٍ و عليه فالمعنى، و أن طال الإمهال فأنّه في بعض أيّام اللّه.

و قيل التّشبيه وقع في الطُّول للعذاب فيه و الشّدة أي و أنّ يوماً من أيّام عذاب اللّه لشّدة العذاب و طوله كألف سنة من عدّوكم فكان ذلك اليوم الواحد كألف سنة من سنّي العذاب و المعنى أنّهم لو عرفوا حال الآخرة ما أستعجلوه، و قيل التّشبيه بالنّسبة الى علمه تعالى و قدرته و إنفاق ما يريد كألف سنة و أقتصر على ألف سنة و أن كان اليوم عنده كما لا نهاية له من العدد و لكون الألف منتهى العدد و دون تكرار.

و قال إبن عبّاس أراد باليوم من الأيّام الّتي خلق اللّه فيها السّموات و الأرض.

و قال إبن عيسى يجمع لهم عذاب ألف سنة في يومٍ واحدٍ و لأهل الجّنة سرور ألف سنة في يوم واحدٍ، و قال الفّراء تضّمنت الآية عذاب الدّنيا و الآخرة و أريد العذاب في الدنيا أي لن يخلف اللّه وعده في إنزال العذاب بكم في الدّنيا و أنّ يوماً من أيّام عذابكم في الآخرة كألف سنة من سني الدّنيا فكيف تستعجلون العذاب و الأقوال في هذا التَّشبيه كثيرة.

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهٰا وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهٰا وَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ

قلنا أنّ، كأين، للتّكثير أي و كم من قرية و المقصود أهلها فهو من قبيل قوله تعالى و أسئل قريةٍ، أي و أسئل أهلها، أمليت، الإملاء و الإملال و التّأخير نظائر و المعنى أخَّرت العذاب عنها و أن شئت قلت أمهلتها و هى ظالمة، الواو للحال أي حال كونها ظالمة و لا يبعد أن يكون الإمهال و التّأخير لأجل التّوبة و الرّجوع عمّا كانوا عليه من العصيان فقوله: **ثُمَّ أَخَذْتُهٰا**، أي بعد الإملاء و الإمهال أخذتها بالعذاب و فى هذا الكلام إشارة الى أنّ اللّه تعالى رؤوفٌ بعباده و هو كذلك و قوله: و **إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ**، إشارة الى أنّ الأمور تصير إليه.

قُلْ يٰا أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ إِنَّمٰا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

أمر اللّه نبيَّه أن يقول للمشركين أيّها النّاس إنّما أنا لكم نذيرٌ، أي مخوّفٌ من عذاب اللّه و موضّحٌ لكم ما يجب عليكم فعله و ما يجب عليكم تركه قال اللّه تعالى: **إِنَّمٰا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ**(۱) فذكر النّذارة دون البشارة لأنّ الحديث مسوقٌ للمشركين و قوله: **يٰا أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ** نداءٌ لهم و هم المقول فيهم (**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ**) و المنجز عنهم بإستعجال العذاب و حصر النَّذارة فيه لأنّ المعنى ليس لي بتعجيل العذاب و لا تأخيره عنكم و إنّما هو بيد اللّه و إرادته و إنّما أنا منذركم به وما على الرّسول إلاّ البلاغ:

۱- الرّعد = ۷

فَالَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ

و المراد بالإيمان هو التّصديق بوحدانيّته ونبوّة رسوله ثمّ العمل و لذلك أردف الإيمان بالعمل الصّالح و قال: **وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ** و فيه إشارة بل دلالة على أنّ الايمان لا يتحقق إلاّ بالعمل الصّالح و مجرّد الإعتقاد و الإقرار لا يكفي في تحقّقه فمن كان مؤمناً له مغفرة من اللّه لمعاصيه و رزقٌ كريم أي مع إكرامهم بالثّواب الّذي لا يقاربه تعظيم و لا تبجيلٌ ففي الآية السّابقة أثبت للرسّول الإنذار و فى هذه الآية أثبت البشارة.

■

وَ ٱلَّذِينَ سَعَوْا فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿۵۱﴾ وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿۵۲﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿۵۳﴾ وَ لِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿۵۴﴾ وَ لَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿۵۵﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿۵۶﴾ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿۵۷﴾ وَ ٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿۵۸﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿۵۹﴾ ذَٰلِكَ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿۶۰﴾

◀ اللّغة

مُعَٰجِزِينَ: قيل عاجز أي سابق و عجز أي سبق.

أُمۡنِيَّتِهِۦ: بضمّ الألف و كسر النُّون و فتح الياء معناها الفكرة بلغة قريش.

فَتُخۡبِتَ: الإخبات الأطمئنان.

بَغۡتَةً: أي فجأة.

لَعَفُوٌّ غَفُورٌ: مبالغة من العفو و الغفران.

◀ الإعراب

مُعَٰجِزِينَ حال و يقرأ، معجزين أيضاً إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ قيل هو إستثناء من غير الجنس قُلُوبِهِمۡ مرفوع بإسم الفاعل و هو القاسية فَيُؤۡمِنُوا هو معطوف على، ليعلم، و كذلك فتخبت فِي مِرۡيَةٍ بالكسر و الضَّم و هما لغتان يَوۡمَئِذٍ منصوب بقوله، للّه، و للّه الخبر.

◀ التّفسير

وَ ٱلَّذِينَ سَعَوۡا فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ

قيل في معناه أنّ الّذين يعجزون المؤمنين في قبول هذه الأيات أي يعجزونهم من إقامتها بجحدهم تدبير اللّه لها، و قيل معناه يعجزونهم عن تصحيحها و السّعي الإسراع في المشى.

و قال مجاهد معناه من إتباع آيات اللّه هذا كلّه على قراءة معجزين بغير ألف.

و أمّا على قراءة، معاجزين، كما عليها المصاحف كلّها و هى المشهور فالمعنى أنّهم يجادلون عجز الغالب و منهم من قرأ، معجّزين، بالتّشديد و معناه طلب إظهار العجز و قال إبن عبّاس معنى، معاجزين، ماقيّن، و قيل معنى، معجزين، مسابقين.

و قال بعض المفسّرين السّعي الطّلب و الإجتهاد في ذلك يقال سعى فلان في أمر فلان، فيكون بإصلاحٍ و فسادٍ و قد يستعمل في الشّر يقال فيه سعى بفلان سعاية أي تحيَّل و كاد في إيصال الشّر اليه و سعيهم بالفساد في آيات حيث طعنوا فيها فسّموها سحراً و شعراً و أساطير الأوّلين و ثبّطوا النّاس عن الإيمان بها.

قال الزّمخشري، عاجزه، سابقه، فالمعنى سابقين أو مسابقين في زعمهم و تقديرهم طامعين أنّ كيدهم للإسلام يتّم لهم إنتهى.

و قال أبو علّي الفارسي، معجزين معناه ناسبين أصحاب النّبي الى العجز كما تقول فسقت فلاناً إذا نسبته الى الفسق.

أقول: معنى الآية لا خفاء فيه و لا يحتاج الى هذه التّخريجات و المعنى، الّذين سعوا في آياتنا بالرّد و الإبطال، معاجزين، أي مسابقين مشتّاقين للساعين فيها بالقبول و التّحقيق من عاجزه فأعجزه و عجزه إذا سابقه فسبقه لأنّ كلاًّ من المتسابقين.

يطلب إعجاز الأخر عن اللّحاق به:

وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَانَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَاتِهِ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

روي عن إبن عبّاس و إبن جبير و غيرهما في سبب نزول الآية أنّه لمّا تلى النّبي: **أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَ ٱلْعُزَّىٰ وَ مَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ**(١).

ألقى الشّيطان في تلاوته، تلك الغرانيق العلى و أنّ شفاعتّهن لترجى، و معنى الآية التّسلية للنّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و أنّه لم يبعث اللّه نبيّاً و لا رسولاً إلاّ إذا تمنّى

١- النّجم = ١٩ / ٢٠

يعني، تلا، ألقى الشّيطان في تلاوته بما يحاول تعطيله فيرفع اللّه ما ألقاه بمحكم آياته و قيل، الأمنيّة الفكرة بلغة قريش.

و قال مجاهد كان النّبي ﷺ إذا تأخّر عنه الوحي تمنّى أن ينزل عليه فيلقي الشّيطان في أمنيّته فينسخ اللّه ما يلقي الشّيطان و يحكم آياته.

و قال الجبائي أنّما كان يغلط في القراءة سهواً فيها و ذلك جائز على النّبي لأنّه سهوٌ لا يعري عنه بشر و لا يلبث أن ينبّهه اللّه تعالى عليه.

و قال غيره أنّما قال ذلك في تلاوته بعض المنافقين عن إغواء الشّياطين و أمرهم أنّه من القرآن، و قال الحسن أنّما قال هي عند اللّه كالغرانيق العلى يعني الملائكة في قولكم و أنّ شفاعتهّن لترجى في إعتقادكم و التّمني في الآية معناه التّلاوة.

قال الشّاعر:

تمنّى كتاب اللّه أوّل ليلةٍ   و آخره لاقى حمام المقادر

و قال الجبائي أنّما سهى النّبي في القراءة نفسها فأمّا الرّواية بأنّه قرأ تلك الغرانيق العلى و إنّ شفاعتهّن لترجى، فلا أصل لها لأنّ مثله لا يغلط على طريق السّهو و أنّما يغلط في المتشابه إنتهى ما ذكره في التّبيان في تفسير الكلام.

و قال بعض المفسّرين من العامّة أنّ الأنبياء كانوا حريصين على إيمان قومهم و أنّه ما منهم أحداً إلاّ و كان الشّيطان يراغمه بتزيين الكفر لقومه و بثّ ذلك اليهم و إلقاءه في نفوسهم كما أنّه ﷺ كان أحرص النّاس على هدى قومه و كان فيهم شياطين كالنّضر بن الحرث يلقون لقومه و للوافدين عليه شبهاً يثبّطون بها عن الإسلام و لذلك جاء قبل هذه الآية **وَ ٱلَّذِينَ سَعَوْا فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ** و سعيهم بإلقاء الشبّه في قلوب من إستحالوه و نسب ذلك الى الشّيطان لأنّه المغوي و المحرّك شياطين الإنس للإغواء كما قال لأغوينّهم، إنتهى.

و قيل أنّ المراد بالشّيطان هنا هو جنس يراد به شيطان الإنس و الضّمير في، أمنيّته، عائد الى الشّيطان أي في أمنيّته نفسه أي بسبب أمنيّته، نفسه و مفعول، ألقي، محذوف لفهم المعنى و هو الشّر و الكفر و مخالفة ذلك الرّسول أو النّبي لأنّ الشّيطان ليس يلقي الخير و معنى فينسخ اللّه ما يلقي الشّيطان أي يزيل تلك الشبّه شيئاً فشيئاً حتّى يسلم النّاس كما قال، و رأيت النّاس يدخلون في دين اللّه أفواجاً إنتهى.

أقول نحن نذكر قصّة الغرانيق بتمامها ثمّ نتكلّم فيها.

قال الرّازي في تفسيره ذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآية أنّ الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم لمّا رأى إعراض قومه عنه و شقّ عليه ما رأى من مباعدتهم عمّا جاءهم به تمنّى أن يأتيهم من اللّه ما يقارب بينه و بين قومه و ذلك لحرصه على إيمانهم فجلس ذات يوم في نادٍ من أندية قريش كثير أهله و أحبَّ يومئذٍ أن لا يأتيه من اللّه شيئاً ينفروا عنه و تمنّى ذلك فأنزل اللّه سورة، **والنَّجم اِذا هَوىٰ** فقرأها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حتّى بلغ قوله أفرأيتم اللاّت و العزّى و مناة الثّالثة الأخرى، ألقى الشّيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى منها الشّفاعة ترتجى، فلمّا سمعت ذلك قريش فرحوا و مضى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم في قرائته فقرأ السُّورة كلّها فسجد المسلمون لسجوده و سجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمنٌ و لا كافر إلاّ سجد سوى الوليد بن المغيرة و أبي أصيحة سعيد بن العاصي فأنّهما أخذا حفنةً من التّراب من البطحاء و رفعاها الى جبهتهما و سجدا عليها لأنّهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السُّجود و تفّرقت قريش و قد سرَّهم ما سمعوا و قالوا قد ذكر محمّد آلهتنا بأحسن الذّكر فلمّا أمسى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أتاه جبرئيل فقال ماذا صنعت تلوت على النّاس ما لم آتك به عن اللّه و قلت ما لم أقل لك فحزن رسول اللّه حزناً شديداً و خاف من اللّه خوفاً عظيماً حتّى نزل قوله تعالى:

وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ

هذا رواية عامّة المفسّرين الظّاهرين و أمّا أهل التّحقيق فقد قالوا هذه الرّواية باطلة موضوعة و إحتجّوا عليه بالقرآن و السنّة، و المعقول إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

ثمّ شرع في الإستدلال على بطلان الرّواية مفصلاً بما لا مزيد عليه و نقل عن محمّد بن إسحاق بن خزيمة أنّه سأل عن هذه القصّة فقال هذا وضعٌ من الزّنادقة و صنّف فيه كتاباً و قال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي هذه القصّة غير ثابتة من جهة النّقل ثمّ أخذ يتكلّم في أنّ رواة هذه القصّة مطعنون فيهم فقد روي البخاري في صحيحة أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ سورة، و النّجم، و سجد فيها المسلمون و المشركون و الإنس و الجنّ وليس فيه حديث الغرانيق و روي هذه الحديث من طرقٍ كثيرة و ليس فيها ألبتة حديث الغرانيق هذا ما ذكره الرّازي في ردّ الحديث من طرق السنّة ثمّ شرع في ردّه من طريق العقل فقال و أمّا المعقول فمن وجوهٍ:

أحدها: أنّ من جوّز على الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم تعظيم الأوثان فقد كفر لأنّ من المعلوم بالضّرورة أنّ سعيه صلى الله عليه وآله وسلم كان في نفي الأوثان.

ثانيها: أنّه كان يمكنه في أوّل الأمر أن يصلّي و يقرأ القرآن عند الكعبة آمناً أذى المشركين له حتّى كانوا ربما مدّوا أيديهم اليه و أنّما كان يصلّي إذا لم يحضروها ليلاً أو في أوقات خلوة و ذلك يبطل قولهم.

ثالثها: أنّ معاداتهم للرسّول كانت أعظم من أن يقرّوا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنّه عظّم آلهتهم حتّى خرّوا سجّداً مع أنّه لم يظهر عندهم موافقته لهم.

رابعها: قوله: **فَيَنْسَخُ ٱللَّهُ مٰا يُلْقِي ٱلشَّيْطٰانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ آيٰاتِهِ** و ذلك لأنّ إحكام الأيات بإزالة ما يلقيه الشّيطان عن الرّسول أقوى من نسخه بهذه الأيات الّتي تبقى الشّبهة معها فإذا أراد اللّه إحكام الأيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآناً فبأن يمنع الشّيطان من ذلك أصلاً أولى.

خامسها: و هو أقوى الوجوه لو جوَّزنا ذلك إرتفع الإمامان عن شرعه و جوّز في كلّ واحدٍ من الأحكام و الشّرائع أن يكون كذلك و يبطل:

قال اللّه تعالى: **يآ أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ وَ ٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنّٰاسِ**[1].

فأنّه لا فرق في العقل بين النّقصان عن الوحي و بين الزّيادة فيه فهذه الوجوه عرَّفنا على سبيل الإجمال أنّ هذه القصّة موضوعة أكثر ما في الباب أنّ جمعاً من المفسّرين ذكروها لكنّهم ما بلغوا حدّ التّواتر و خبر الواحد لا يعارض الدّلائل العقلّية و النَّقلية المتواترة إنتهى ما ذكره و حققّه في المقام.

و قال الطّبرسيؒ في المجمع في قوله تعالى: **إِذٰا تَمَنّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطٰانُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِ** ما هذا لفظه قال المرتضىؒ لا يخلو التّمني في الآية من أن يكون معناه التّلاوة كما قال حسّان بن ثابت:

تمنّى كتاب اللّه أوّل ليلةٍ   و آخره لاقىٰ الحمام المقادر

أو يكون التَّمني فأن كان المراد التّلاوة فالمعنى أنّ من أرسل قبلك من الرُّسل كان إذا تلى ما يؤديّه الى قومه حرَّفوا عليه و زادوا فيما يقوله و نقَّصوا كما فعلت اليهود و أضاف ذلك الى الشّيطان لأنّه يقع بغروره فينسخ اللّه ما يلقي الشّيطان أي يزيله و يدحضه بظهور حجَجه و خرج هذا على وجه التَّسلية للنّبي لمّا كذب المشركون عليه و أضافوا الى تلاوته من مدح آلهتهم ما لم يكن فيها، و أن كان المراد تمَّني القلب فالوجه أنّ الرّسول متى تمّنى بقلبه

۱- المائدة = ۶۷

ما يتّمناه من الأمور و وسوس إليه الشّيطان بالباطل يدعوه إليه و ينسخ اللّه ذلك و يبطله بما يرشده إليه من مخالفة الشّيطان و ترك إستماع غروره قال و أمّا الأحاديث المرويّة في هذا الباب فهي مطعونة مضغطة عند أصحاب الحديث، إلى أن قال و لا يجوز أن يقع مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السّورة و نظمها ثمّ لمعنى ما تّقدمها من الكلام و قد قال اللّه سبحانه: **كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ**[1] و قال: **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰٓ**[2] الى آخر كلامه.

أقول: إنّما ذكرنا ما نقله الرّازي من العّامة و الطّبرسي من الخّاصة بطوله و تفصيله لتعلم أنّ حديث الغرانيق من الموضوعات بإجماع المحقّقين من العامّة و الخّاصة إذا عرفت هذا.

فنقول مضافاً الى ما ذكروه في وجه البطلان أنّه قد ثبت عقلاً و نقلاً عصمة النّبي و هذا ممّا لا كلام فيه إلاّ أنّ أكثر العامّة قالوا بها بعد البعثة و أمّا قبلها فلا

و قال بعضهم بعدمها بعد البعث أيضاً إلاّ في تبليغ الأحكام و أمّا الخاصّة فقالوا بعصمة الأنبياء قولاً واحداً قبل البعثة و بعده و على هذا فالعصمة ثابتة في حقّ الرّسول في تبليغ الأحكام الشرعيّة بالإجماع المرّكب و لا شكّ أن تبليغ الآيات من الأحكام فإذا فرضنا صحّة إلقاءِ الشّيطان على لسانه يلزم عدم الإعتماد و هو كما ترى ينافي عصمته هذا أوّلاً.

ثانياً: قد ثبت أنّ الشّيطان لا يقدر على إغواء المخلصين من عباد اللّه فضلاً عن الأنبياء و الرُّسل و الأوصياء و قد دلَّت الآيات عليه و من المعلوم أنّ إلقاء الشّيطان في أمنيته لا يكون إلاّ بعد تسلّط الشّيطان على النّبي و هو مناف لصريح الآيات كما حكى اللّه تعالى عنه بقوله: **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ**[3] و لا يكون عبداً أخلص في عبادته من النّبي و الرّسول.

١- الفرقان = ٣٢ ٢- الاعلى = ۶

٣- ص = ٨٣ / ٨٢

ثالثاً: أنّ اللّه تعالى قال في الرّسول **وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**(۱) فلو صحّ إلقاء الشّيطان على لسانه لصَّح إلقائه في جميع الأحكام لأنّ حكم الأمثال واحد.

فأن قلت: لعَّل من جوَّز ذلك حمله على السّهو يجوز على النَّبي على مسلك العامّة و بعض الخاصّة.

قلت: أمّا أوّلاً لا يجوز عليه السَّهو على مذهب الحَّق لأنّه ينافي العصمة كما ثبت في محلّه.

ثانياً: لا يمكن حمله على السَّهو لأنّ السّاهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السُّورة و نظمها ثمّ لمعنى ما تقدّمها من الكلام و هو ظاهر على المتّأمل هذا تمام الكلام في تفسير الآية و سيأتي البحث فيه في سورة النَّجم إنشاء اللّه.

و أمّا قوله: **ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** معناه يُبقي آياته و دلائله و أوامره محكمة لا سهو فيها و لا غلط، و أمّا ما قاله بعض المفسّرين من أنّ المراد بالشّيطان هو جنسه يراد به شياطين الإنس و الضّمير في أمنيّته، عائد على الشّيطان أي ما ألقى الشّيطان في، أمنيته، نفسه أي بسبب أمنيّة نفسه و مفعول، ألقى محذوف لفهم المعنى و هو الشّر و الكفر و مخالفة ذلك الرّسول و النَّبي لأنّ الشّيطان ليس يلقي الخير و معنى فينسخ اللّه ما يلقي الشّيطان أي يزيل تلك الشُّبه شيئاً فشيئاً الى آخر كلامه فهو و أن كان بمحَّلٍ من الإمكان إلاّ أنّه مخالف لظاهر الآية مضافاً الى أنّ جمهور المفسّرين على خلافه و اللّه أعلم بحقيقة كلامه.

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ

۱- النّجم = ۴ / ۳

الفتنة الإبتلاء و الإختبار و الّذين في قلوبهم مرض عامّة الكفّار و المنافقين و الشّاكين و القاسية قلوبهم خوّاص من الكفّار كأبي جهل و النَّضر و عتبة و قيل المشركون المكذّبون، و أنّ الظالمين أي و أنّ هؤلاء المنافقين و المشركين و أصله و إنّهم، فوضع الظّاهر موضع المضمر قضاءً عليهم بالظُّلم، و الشَّقاق المشاقّة أي، أي في غير شقٍّ الصّلاح و وصفه بالبعيد مبالغةٌ في إنتهائه و أنّهم غير مرجُو رجعتهم منه و معنى الآية أنّه تعالى يجعل ما يلقيه الشّيطان من الأمنيّة، فتنة أي إمتحاناً و إختباراً للّذين في قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم.

أن قلت: كيف يصّح أن يجعل اللّه ما يلقيه الشّيطان فتنة.

قلت: ذكروا في معنى الجعل أمرين:

أحدهما: الحكم و التّسمية كما تقول جعلت حسني قبيحاً و يكون المراد أنّه ينسخ ما يلقي الشّيطان طلباً للفتنة و الإغواء.

الثّاني: أنّه أراد ليجعل نسخ ما يلقي الشّيطان فتنة لأنّ نفس فعل الشّيطان لا يجعله اللّه فتنة لأنّ ذلك قبيح و هو تعالى منزّه عنه و عليه فمعنى الفتنة في الآية المحنة و تغليظ التكليف للّذين في قلوبهم مرض، أي شكّ و نفاق و قلّة معرفة هكذا قيل في معنى الجعل ونحن نقول لا إشكال في حمل الكلام على ظاهره و أن يكون المراد بالفتنة و الإختبار و الإمتحان كما دلّت بل صرَّحت به الأيات فلا نحتاج إلى هذه التّأويلات.

وَ لِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الواو للعطف أي أنّ اللّه يحكم أياته ليجعل ما يلقي الشّيطان فتنةً و ليعلم الّذين أوتوا العلم أنّه الحقّ، و المقصود أنّه فتنة أي إختبار لمن كان في قلبه مرض و سببٌ للوصول إلى الحقّ للّذين أوتوا العلم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَ رَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا**(١).

و أمّا الّذين أوتوا العلم باللّه و صفاته و أنّ أفعاله صوابٌ فأنّهم يعلمون أنّه الحقّ من ربّك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، أي تطّمئن إليه و تسكن و يعلمون أنّ اللّه لهاد الذّين أمنوا، به و برسوله، إلى صراطٍ مستقيم و قد تكلّمنا فيه عند قوله تعالى: **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ**(٢) في سورة الحمد و قلنا أنّ الصّراط المستقيم صراط علّيٍ و أهل بيته.

وَ لَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ

الضّمير في (منه) عائد علىٰ القرآن و قيل على الرّسول و قيل على، ما ألقى الشّيطان، و المرية بكسر الميم الشكّ و المعنى أنّ الكُفّار لا يزالون في شكّ من القرآن أو الرّسول و يستّمر الشكّ فيهم حتّىٰ تأتيهم السّاعة أي القيامة بغتةً أي فجأةً أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، أي يوم القيامة و قيل عذاب يوم بدر و الحقّ هو الأوّل و أنّما سمِّي عقيماً لأنّهٗ لا ليلة بعده يوم و قيل لأنّه لا مثل له في عِظم أمره، و حتّى، غاية لإستمرار مريتهم فالمعنى حتّى تأتيهم السّاعة أو عذاب يومٍ عقيمٍ فتزول، مريتهم و يشاهدون الأمر عياناً و جملة هذه الآية توّعد و تهديدٌ.

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ

التّنوين في، يَومئذٍ، تنوين العِوض والجملة المُعّوض منها هذا التّنوين هو الّذي حُذف بعد الغاية والتّقدير المُلك يوم نَزُول مِريَتَهُم لِلّه والظّاهر أنّ المراد

١- الأحزاب = ١٢

٢- الفاتحة = ٦

بهذا اليوم هو يوم القيامة من حيث أنّه لا مُلك لأحَدٍ فيه من ملُوك الدّنيا كما قال تعالىٰ: **لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ**[١] و إستّدل بعضهم علىٰ ذلك بأنّ اللّه تعالىٰ قَد مَلَّك في الدّنيا أقواماً كثيرة أشياءً كثيرة والملك عبارة عن إتّساع المَقدُور لِمَن له تدبير الأُمور فاللّه تعالىٰ يملك الأُمور لنفسه ولكّ مالكٍ سواه فأنّما هو مُمَلَّك له بحكمه إمّا بدليل السّمع أو بدليل العقل إنتهىٰ كلامه.

أقُول: الحقّ أنّ المُلك لِلّه تعالىٰ في الدّنيا والأخرة إذ لا مالك في الوجُود إلاّ هُو تعالىٰ والسِّر فيه أنّه خالق الأشياء كلّها و ما سواه كائناً ما كان فهو مخلوق له قائمٌ به بل لا وجود له مستّقلاً لأنّه موجودٌ به و ما كان كذلك فهو مَملُوك له تعالى فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه و إذا كان مملوكاً فهو المالك لا غيره فله الملك قطعاً في جميع المراحل و أمّا تخصيصه بلا قيامة حيث قال يومئذٍ أي يوم القيامة لأنّه يوم الحكم و الفصل كما قال يحكم بينهم و إن شئت قلت الملك بضمّ الميم الحقّ الدّائم للّه تعالى و لذلك قال له الملك و له الحمد.

و **قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَآءُ وَ تَنْزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ**[٢] فالملك ضبط الشّئ المصرّف بالحكم و الملك بكسر الميم كالجنس له فكلّ ملكٍ ملك وليس كلّ ملكٍ ملكاً و حاصل الكلام هو أنّ اللّه تعالى لمكان خالقيّته هو مالك الملك و الحاكم فيما سواه **فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ** جزاءً بما عملوا في الدّنيا من الأعمال و أنّما قال، جنّات، بلفظ الجمع لكون الجنان سبعاً، جنّة الفردوس، جنّة عدنٍ، و جنّة النَّعيم، و دار الخلد، و جنّة المأوى و دار السّلام، و علّيين.

و أصل الجنّ ستر الشّئ عن الحاسّة ثمّ أنّ المراد بالعمل الصّالح هو كلّ عملٍ يحكم بحسنه العقل و الشّرع و ما ليس كذلك فهو غير صالح فلا يتّرتب عليه الثّواب و فى هذه الآية إشارة إلىٰ أنّ الإيمان لا يتحقّق إلاّ بالعَمل فالعمَل شرطٌ في تحقّقه و من المعلوم أنّ المشروط ينتفي بإنتفاء شرطه فالإيمان

١- غافر = ١٦ ٢- آل عمران = ٢٥

ينتفي بإنتفاء العمل و هذا هو الحقّ عندنا معشر الشّيعة خلافاً لأكثر العامّة حيث ذهبوا إلى أنّ الإيمان يحصل بمجرّد الإعتقاد و لا يكون العمل شرطاً في حصوله ولم يعلموا أنّ الأثار مترتبة على الوجود الخارجي و أمّا الذّهني فلا يتّرتب عليه الأثر و على هذا فالإيمان الموجود في الخارج يتّرتب عليه الثّواب و هو لا يوجد في الخارج إلاّ بالعمل و لذلك قال تعالى أمنوا و عملوا الصّالحات.

وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ

قيل نزلت الآية في قومٍ من المشركين أتوا جماعة من المسلمين فقاتلوهم في الأشهر الحرم بعد أن نهاهم المسلمون عن ذلك فأبوا فنصروا عليهم و قيل أنّ النّبي عاقب بعض المشركين لمّا مثّلوا بقومٍ من أصحابه يوم أحد و العذاب المهين هو العذاب الّذي يهينهم و يذلّهم في الأخرة و ذلك لأنّ الهوان الإذلال بتصغير القدر و الظّاهر أنّ المراد بالأيات هو أيات الكتاب كما عليه جمهور المفسّرين و الحقّ عندنا هو أنّ المراد بها معناها العامّ الشّامل للأيات التّكوينية و التّشريعية و المراد بالأيات التّكوينية الموجودات الخارجيّة التّي هي مخلوقة للّه تعالى، و بالأيات التّشريعية الأيات القرآنيّة و الكفر بهما و تكذيبهما إنكارهما و القول بأنّهما ليسا من اللّه تعالى فالكافر بالتّكوينيات منكرٌ لوجود الخالق و فى التّشريعيات منكرٌ لوجود التكلّم و أنّ القرآن كلام اللّه و كلاهما كفرٌ باللّه هذا إن أردنا التّكوينيات بمعناها العامّ الشّامل لجميع الموجودات الخارجيّة و أمّا أنّ قلنا بأنّ المراد بها مصاديقها الأتّم الأكمل أعني بها الأنبياء و الأوصياء فالأمر أوضح و أظهر و أيّ فرقٍ بين إنكار النّبي أو الوّصي و بين إنكار القرآن و أنّه كلام اللّه.

وَ ٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ

قيل لمّا مات عثمان بن مظعون و أبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض النّاس من قتل من المهاجرين أفضل ممّن مات حتف أنفه فنزلت الآية و حكم اللّه فيها بالتّسوية بينهما و عدم الفرق بين الموتتين هكذا قيل و الحقّ أنّ الآية نزلت في الّذين خرجوا من ديارهم و أوطانهم بغضاً للمشركين الّذين كانوا يؤذونهم بمكّة ثمّ قتلوا في سبيل اللّه أو ماتوا حتف أنفهم فحكم اللّه تعالى بعدم الفرق بين القتل و الموت حتف الأنف و ذلك لأنّ الملاك و هو الهجرة إلى اللّه خالصاً لوجهه الكريم موجود فيهما و قوله: **لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا**، قيل هو الجنّة و ما فيها من النّعم و قيل هو عبارة عن التّقرب إلى اللّه الّذي يعبّر عنه بمقام العنديّة المشار إليه بقوله عند ربّهم يرزقون، و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ** الرِّزق بكسر الرّاء يقال للعطاء الجاري تارةً دنيوياً كان أم أخروياً و للنّصيب تارةً، و لما يصل إلى الجوف ويتّغذىٰ به تارةً، يقال أعطى السّلطان رزق الجند، كما يقال رزقت علماً و فهماً، و الرّازق يقال لخالق الرِّزق و معطيه و المسّبب له و هو اللّه تعالى و قد يقال ذلك للإنسان الّذي يصير سبباً في وصول الرِّزق، و الرّزاق لا يقال إلاّ للّه تعالى شكّ أنّ اللّه تعالىٰ خير الرّازقين.

إمّا لأنّ أصل الرّزق بيده و إمّا لأنّه أي الرّزق منه تعالى على سبيل التّفضل و لذلك يعطي المؤمن و الكافر و هو واضح فهو خير الرّازقين.

لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ

أي ليدخلّنهم اللّه المهاجرين في سبيل اللّه الّذين قتلوا أو ماتوا في طاعته، مدخلاً يرضونهالجنَّة و معنى، يرضونه، يختارونه إذ فيه رضاهم و قرأ نافع، مدخلاً بفتح الميم يريد المصدر أو إسم المكان و تقديره مكاناً يرضونه.

و أمّا قوله: **وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ** قيل في معناه، أنّه تعالى عليمٌ بأحوالهم حليمٌ عن ماجلة الكفّار بالعقوبة و لا مشاعة فيه.

ذٰلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ ٱللّٰهُ إِنَّ ٱللّٰهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ

قيل نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم الكفّار في الأشهر الحرم فأبى المؤمنون من قتالهم و أبى المشركون إلاّ القتال فلمّا إقتتلوا جدَّ المسلمون و نصرهم اللّه و مناسبة الآية لما قبلها واضحة و هو أنّه تعالى لمّا ذكر ثواب من هاجر و قتل أو مات في سبيل اللّه أخبر أنّه لا يدع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم و قال إبن جريح الآية في المشركين بغوا على رسول اللّه و أخرجوه و التّقدير و الأمر ذلك إنتهى.

ثّم وصف اللّه نفسه بأنّه عفوٌّ غفورٌ، و هما مبالغتان في العفو و المغفرة قال الزّمخشري فأن قلت كيف طابق ذكر العفُّو الغفور هذا الموضع.

قلت: المعاقب مبعوث من جهة اللّه عزّ وجّل على الإخلال بالعقاب و العفو عن الجاني على طريق التّنزيه لا التّحريم و مندوب إليه و متّوجب عند اللّه المدح أن أثر ما ندب إليه و سلك سبيل التّنزيه فحين لم يؤثّر ذلك و أنتصر و عاقب و لم ينظر في قوله تعالى: **فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللّٰهِ**[١] و أن تعفو أقرب للتّقوى، و لمن صبر و غفر أنّ ذلك لمن عزم الأمور فأنّ اللّه لعفوٌّ غفور، أي لا يلومه على ترك ما بعثه عليه و هو ضامن لنصره في كرَّته الثّانية من إخلاله بالعفو و إنتقامه من الباغي عليه و يجوز أن يضمن له النَّصر على الباغي و يعّرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو و يلوّح به بذكر هاتين الصّفتين أو دلّ بذكر العفو و المغفرة على أنّه قادر على العقوبة لأنّه لا يوصف بالعفو إلاّ القادر على ضدّه (ذلك) أي ذلك النَّصر بسبب أنّه قادر إنتهى كلامه.

أقول: ما ذكره لا بأس به و الّذي يختلج بالبال في وجه ذكر الوصفين في المقام هو أنّه تعالى متّصف بهما فأن كان المقام مقام العفو فهو عفوٌّ و أن كان

١- الشّورى = ٤٠

المقام مقام المغفرة فهو غفورٌ أي أنّه غافر الذّنب و توضيح الكلام إجمالاً هو أنّ العفو ضدّ الإنتقام و هو إسقاط ما يستّحقه من قصاصٍ أو غرامة و أمّا الغفور فهو الّذي يغفر الذّنوب و هو لا يكون إلاّ اللّه تعالى و لذلك لا يطلق هذا اللّفظ و ما يشتّق منه من الغافر و المغفرة و الغفران و أمثال ذلك على غيره تعالى فالمخلوق لا يتّصف بالغفور و يتَّصف بالعفو يقال فلان عفى عن فلان و لا يقال غفر له و اللّه يتّصف بهما.

و قال الرّاغب في المفردات المغفرة من اللّه هو أن يصون العبد من أن يمَّسه العذاب و كيف كان لا شكّ في مدح العفو و قد حثّت الأيات و الأخبار على حسنه و سيأتي الكلام فيه إنشاء اللّه تعالى و كفى للعفو فضلاً و شرافةً أنّه من أجمل الصّفات الإلهيّة و قد يمدح اللّه تعالى في مقام الخضوع و التَّذلل.

قال سيّد السّاجدين عليه السّلام، أنت الّذي سمَّيت نفسك بالعفو فأعف عنّي، وقال عليه السلام: أنت الذّي عفوه أعلى من عقابه، و العفو لا يكون إلاّ من القادر على الإنتقام و لذلك يقال العفو عند القدرة.

■

ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللّٰهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهٰارِ وَ يُولِجُ
ٱلنَّهٰارَ فِى ٱللَّيْلِ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿۶۱﴾
ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَ أَنَّ مٰا يَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ هُوَ ٱلْبٰاطِلُ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿۶۲﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰاءِ مٰاءً فَتُصْبِحُ
ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللّٰهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿۶۳﴾ لَهُ مٰا
فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ وَ إِنَّ ٱللّٰهَ لَهُوَ
ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿۶۴﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا
فِى ٱلْأَرْضِ وَ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ
يُمْسِكُ ٱلسَّمٰاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ
إِنَّ ٱللّٰهَ بِالنّٰاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿۶۵﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِى
أَحْيٰاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنْسٰانَ
لَكَفُورٌ ﴿۶۶﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنٰا مَنْسَكًا هُمْ نٰاسِكُوهُ
فَلٰا يُنٰازِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَ ٱدْعُ إِلىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ
لَعَلىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿۶۷﴾ وَ إِنْ جٰادَلُوكَ فَقُلِ ٱللّٰهُ
أَعْلَمُ بِمٰا تَعْمَلُونَ ﴿۶۸﴾ ٱللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيٰمَةِ فِيمٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿۶۹﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ
ٱللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا فِى ٱلسَّمٰاءِ وَ ٱلْأَرْضِ إِنَّ ذٰلِكَ فِى
كِتٰابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ يَسِيرٌ ﴿۷۰﴾ وَ يَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰانًا وَ مٰا لَيْسَ
لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿۷۱﴾ وَ إِذٰا
تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ تَعْرِفُ فِى

وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿۷۲﴾

◀ اللّغة

يُولِجُ: الولوج الدّخول في مضيقٍ.

مُخْضَرَّةً: الخضرة أحد الألوان بين السّواد و البياض و هو إلى السّواد أقرب و لهذا سمّي الأسود أخضر و بالعكس.

لَكَفُورٌ: مبالغة في الكفران.

مَنْسَكًا: أي مذهباً و قيل المنسك الموضع المعتاد لعمل خيرٍ أو شرّ المألوف لذلك.

يَسْطُونَ: السَّطوة إظهار الحال الهائلة للإخافة يقال سطا عليه سطوةً.

أَفَأُنَبِّئُكُمْ: متكلّم وحدة من فعل المضارع من نبَّئ مثل صرف من النّبأالخبر.

◀ الإعراب

فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ أنّما رفع الفعل هنا و أن كان قبله لفظ الإستفهام لأمرين:

أحدهما: أنّه إستفهام بمعنى الخبر أي قد رأيت فلا يكون له جواب.

الثّانی: أنّ بعد الفاء ينتصب إذا كان المستفهم عنه سبباً له و يجوز أن يكون فتصبح بمعنى، أصبحت و هو معطوف على، أنزل، فلا موضع له مُخْضَرَّةً حال و هو إسم فاعل و قرئ شاذاً بفتح الميم و تخفيف الضّاد مثل مبقلة و مجزرة أي ذات خضرة وَ ٱلْفُلْكَ في نصبه وجهان:

أحدهما: أنّه منصوب بسخَّر معطوف على، ما.

الثّاني: أنّه معطوف على إسم، إنّ، أَنْ تَقَعَ مفعول له أي كراهة أن تقع و قيل هو في موضع جرّ أي من أن تقع، و قيل في موضع نصب على بدل الإشتمال يَكَادُونَ الجملة حال من الذّين أو من الوجوه ٱلنَّارُ مبتدأ، ووَعَدَهَا الخبر و قيل هو خبر مبتدأ محذوف أي هو النّار و يقرأ بالنّصب على تقدير، أعني.

◀ التّفسير

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَ يُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ

المشار إليه في الكلام محذوف و تقدير الكلام ذلك الأمر.

و قال الزّمخشري ذلك أي ذلك النّصر سبب أنّه قادر و من أيات قدرته البالغة أنّه يولج اللّيل في النّهار يولج النّهار في اللّيل فعلى هذا يكون المشار إليه هو النَّصر في الآية السّابقة و هو قوله: **لَيَنْصُرَنَّهُ ٱللَّهُ** فكأنّه قيل كيف ينصره فقال تعالى أنّ اللّه قادرٌ على نصره كما هو قادر على إيلاج اللّيل في النّهار و يمكن الجمع بين القولين بأنّ مراد القائل من الأمر، هو هذا المعنى، و أمّا إيلاج اللّيل في النّهار فقد مرَّ في شرح اللُّغات أنّ الولوج الدّخول في مضيقٍ قال اللّه تعالىٰ: **حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ**[1].

قال بعض المحقّقين في قوله: **يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَ يُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ** تنبيهٌ علىٰ ما ركَّب اللّه تعالى عليه العالم من زيادة اللّيل في النّهار و زيادة النّهار في اللّيل و ذلك بحسب مطالع الشّمس و مغاربها و الوليجة كلّ ما يتَّخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله من قولهم فلان وليجةٌ في القوم و ليس من أهله إذ لحق بهم إنساناً كان أو غيره إنتهى.

١- الاعراف = ٤٠

و قال البيضاوي بسبب أنّ اللّه قادر على تغليب بعض الأمور على بعضٍ و من ذلك إيلاج أحدهما في الأخر بأن يزيد فيه ما ينقص منه أو بتحصيل ظلمة اللّيل في مكان ضوء النّهار بتّغيب الشّمس و عكس ذلك بإطلاعها إنتهى.

و قال الرّازي في تفسيره لهذا الكلام السّؤال السّابع، ما معنى إيلاج اللّيل في النّهار و إيلاج النّهار في اللّيل.

الجواب فيه وجهان:

أحدهما: يحصل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك بغيبوبة الّشمس و ضياء ذلك في مكان ظلمة هذا بطلوعها كما يضئ البيت بالسّراج و يظلم بفقده.

ثانيهما: أنّه سبحانه يزيد في أحدهما ما ينتقص من الأخر من السّاعات إنتهى.

أقول: و إلى القول الأخير يعني الزّيادة و النّقصان فيهما بحسب السّاعات قال الطّنطاوي في تفسيره المسمّى بالجواهر عند تفسيره لهذه الآية حيث قال ما هذا لفظه أي ذلك النّصر للمظلوم بسبب أنّه قادرٌ على ما يشاء و من عجائب قدرته أنّه يدخل ساعات اللّيل في النّهار فيأخذ اللّيل في القصر و النّهار في الطُّول و ذلك في فصلي الشّتاء و الرَّبيع و يدخل ساعات النّهار في اللّيل فيجعلها في اللّيل و يأخذ النّهار في النَّقص و اللّيل في الزيادة و ذلك في فصلي الصَّيف و الخريف و لا يأخذ أحدهما من الأخر إلاّ على مقدار ما أخذ الأخر منه و ذلك في بلاد مصر لا يعدوا أربع ساعات فأقصر نهار عندنا عشر ساعات و أطوله ١٤ و هكذا العكس فلا يأخذ النّهار من اللّيل و لا يأخذ اللّيل من النّهار إلاّ بحسابٍ واحدٍ فلذلك جعلت الإنتقام من الباغى على مقدار جرمه لا يزيد و لا ينقص كما جعلت كلّ ليلٍ لا يأخذ من كلّ نهار إلاّ ما أخذه الأخر منه إنتهى موضع الحاجة من كلامه و إن أردت الإطّلاع على تفصيل ما ذكره فعليك بمراجعة كتابه[1].

١- ج ١١ ص ٥٩

و قوله: **أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ** معناه واضح فأنّهما من صفاته الثّبوتية إلاّ أنّهما يرجعان إلى علمه بالمسموعات و المبصرات لا أنّه يسمع و يبصر بألة السّمع و ألة البصر كما هو في حقّنا كذلك.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ

أي ذلك الوصف بخلق اللّيل و النّهار و الإحاطة بما يجري فيهما و إدراك كلّ فعلٍ و قولٍ بسبب أنّ اللّه تعالى هو الحقّ الثّابت الّذي لا تغيُّر في ذاته و أنّ كلّ ما يدعى إلهاً دونه باطل الدَّعوة و أنّه لا شئ أعلى منه شأناً و أكبر سلطاناً و أنّ اللّه هو العلّي الكبير، فالعلّي القادر الّذي كلّ شئٍ سواه تحت معنى صفته أنّه قادرٌ عليه و وصفه بأنّه الكبير يفيد أنّ كلّ شئٍ سواه يصغر مقداره عن معنىٰ صفته لأنّه القادر الذّي لا يعجزه شئ و العالم الذّي لا يخفى عليه شئ.

و إعلم أنّ الحقّ يطلق على معانٍ:

أحدها: يقال لِ**مُوجِد** الشّئ بكسر الجيم بسبب ما يقتضيه الحكمة و لهذا قيل في اللّه تعالى هو الحقّ.

الثّاني: يقتل لِ**لموجَد** بفتح الجيم بحسب مقتضى الحكمة و لهذا يقال فعل اللّه حقٌّ.

الثّالث: يقال للإعتقاد المطابق للواقع كقولنا إعتقاد فلان في الثّواب و العقاب حقّ و الجنّة حقّ و النّار حقّ كلّ ذلك لكون الإعتقاد مطابقاً للواقع.

الرّابع: يقال للثّابت الّذي لا يتّغير و لا يتّبدل.

الخامس: يقال للموجود الّذي لا سبيل للبطلان اللّه و اللّه تعالى حقٌّ بقولٍ مطلق بجميع هذه المعاني إذا عرفت معنى الحقّ فقد عرفت معنى الباطل أيضاً فأنّ الأشياء تعرف بأضدادها و على هذا فما سوى الحقّ هو الباطل كما قيل إلاّ كلّ شئٍ ما خلا اللّه باطلٌ و كلّ نعيمٌ لا محالة زائلٌ.

و هذا معنىٰ قوله: **وَ أَنَّ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ ٱلْبٰاطِلُ**، و العاقل لا يدعو الباطل و لا يعتمد على ما هو باطلٌ عاطلٌ في ذاته.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰاءِ مٰاءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللّٰهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

الإستفهام إنكارّي أي ترى أنّ اللّه كذلك و المراد بالماء المنزل من السّماء هو ماء المطر هو الّذي يحي الأرض بعد موتها و الخطاب و أن كان للنّبي ظاهراً إلاّ أنّ المراد به جميع المكلّفين، و المعنى ألم تعلموا أنّ اللّه أنزل من السّماء ماءً يعني غيثاً و مطراً فتصبح الأرض بذلك الماء أي بسببه مخضّرةً بالنّبات قلنا في شرح اللّغات أنّ الخضرة أحد الألوان بين البياض و السّواد و هو إلى السّواد أقرب و لهذا سمّي الأسود أخضر و بالعكس و فيه قال الشّاعر:

قد أعسف النّازح المجهود عسفة   في ظّل أخضر يدعو هامه البوم

و لذلك قيل سواد العراق للموضع الذّي يكثر فيه الخضرة و منه المخاضرة و هي المبايعة على الخضر و الثّمار قبل بلوغها و الخضيرة نخلةٌ ينتشر بسرها أخضر و كون الأرض مخضّرة أمرٌ محسوسٌ يراه كلّ ناظرٌ حتّى الحيوان و لا شكّ أنّ ذلك بسبب الماء المنزل من السّماء و إلى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله حيث قال:

تفكّر في نبات الأرض و أنظر   إلى أثار ما صنع المليك

ففي رأس الزّبرجد شاهدات   بأنّ اللّه ليس له شريكُ

و قال السّعدي بالفارسيّة:

برگ درختان سبز در نظر هوشيار

هر ورقش دفترى است معرفت كردگار

و قوله: **إِنَّ ٱللّٰهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**، هما من صفاته تعالى، و إعلم أنّ اللّطيف إذا وصف به الجسم فهو ضدّ الجثل و هو الثّقيل يقال شعرٌ جثل أي كثير و قد يعبّر

باللّطافة و اللُّطف عن الحركة الخفيفة و عن تعاطي الأمور الدَّقيقة و قد يعبّر باللّطائف عمّا لا تدركه الحاسّة و يصحّ أن يكون وصف اللّه به على هذا الوجه و أن يكون لمعرفته بدقائق الأمور و أن يكون لرفقة بالعباد في هدايتهم:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمٰا يَشٰآءُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ لَطِيفٌ بِعِبٰادِهِ**(٢).

و قد يعبّر عن التُّحف المتوّصل بها إلى المودّة باللُّطف و لهذا قيل، تهادّوا و تحابُّوا، و قد ألطف فلان أخاه بكذا فاللّه تعالى لطيفٌ بعباده بهذه المعاني و هو واضح و أمّا الخبير، فقيل أنّه العارف ببواطن الأمر و منه الخبرة بضّم الخاء و قيل الخبير العالم بالأخبار.

و قيل أنّه بمعنى مخبر و اللّه تعالى خبيرٌ لأنّه عارف ببواطن الأمور خبيرٌ لأنّه عالمٌ بأخبار أعمالنا، خبيرٌ بمعنى أنّه مخبرٌ يوم القيامة لقوله تعالى: **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**(٣) أي يخبركم بما عملتم به في الدنيا فثبت أنّه تعالى لطيفٌ خبيرٌ بعباده و هو المطلوب.

لَهُ مٰا فِى اَلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِى اَلْأَرْضِ وَ إِنَّ اَللّٰهَ لَهُوَ اَلْغَنِىُّ اَلْحَمِيدُ

اللاّم في قوله: **لَهُ** للملك أو للإختصاص أي أنّ السّموات و الأرض و ما فيهما يتعلّق به و ملكٌ له أو يختصّ به و الوجه فيه هو أنّه تعالى خلق السّماوات و الأرض و ما فيهما من الخلق و لا شكّ أنّ الخالق مالكٌ لمخلوقه حقّاً و إذا كان كذلك فله الحكم في خلقه بما يشاء و كيف يشاء و هذا ممّا لا يحتاج إلى الدّليل لوضوحه.

و قوله: **وَ إِنَّ اَللّٰهَ لَهُوَ اَلْغَنِىُّ اَلْحَمِيدُ**، الغنّي، بفتح الغين يقال علىٰ ضروب:

١- يوسف = ١٠٠   ٢- الشّورى = ١٩

٣- المائدة = ١٠٥

أحدها: عدم الحاجات مطلقاً و ليس ذلك إلاّ للّه تعالى و هو المراد في هذه الآية و أمثالها و الدّليل علىٰ ذلك أنّه تعالىٰ لو لم يكن غنيّاً فلا محالة يكون فقيراً لعدم الواسطة بين الفقر و الغنىٰ إذا أخذ بقولٍ مطلق و الفقر نقصٌ لأنّه فقد كمالٍ و كلّ ناقصٍ مخلوق و المفروض أنّه خالق و بعبارةٍ أخرى الغنىٰ كمال و الفقر نقص و قد ثبت أنّ الواجب تعالى جامع لجميع الكمالات مبَّرءٌ عن النّقائص و أمّا النّقل فلقوله تعالى: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَميدُ**[١].

و تقديم المسند إليه يفيد الحصر فهو الغنّي المطلق و هو المطلوب و سيأتي الكلام فيه تفصيلاً.

و أمّا **الحَميد** بفتح الحاء فهو يصحّ أن يكون في معنى المحمود و أن يكون في معنى الحامد و هو أيضاً من أسمائه تعالى كما تقول في الدّعاء، يا حميد بحقّ محمّدٍ و يا عالي بحقّ علّيٍ ويا فاطر بحقّ فاطمة و يا محسن بحقّ الحسن ويا قديم الإحسان بحقّ الحسين.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ وَ ٱلْفُلْكَ تَجْرى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمْسِكُ ٱلسَّمٰآءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ ٱللّٰهَ بِالنّٰاسِ لَرَءُوفٌ رَحيمٌ

أي ألم تعلم يا محمّد أنّ اللّه سخّر لكم ما في الأرض، و الإستفهام أيضاً للإنكار كالآية السّابقة و هكذا الكلام في الخطاب حيث أنّ المراد به جميع المكلّفين و أن كان المخاطب هو النّبي ظاهراً و قوله: **سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ** من الجماد و الحيوان و النّبات و المعنى أنّ اللّه قد ذلّل لكم ما في الأرض تتّصرفون فيه كيف شئتم و ذلك ظاهرٌ محسوسٌ لنا فالحجر مع صلابته و الحديد مع حدّته و النّار مع هيبتها و سطوتها قد سخّرها اللّه تعالى لنا هذا

١- فاطر = ١٥

في الجماد و أمّا في الحيوان فالإبل و البقر و الفيل و غيرها من الحيوانات مع عظم جثّتها و شدّة قوتها قد سخَّرها اللّه تعالى للإنسان الضَّعيف بل للصَّبي المميّز و ليس هذا إلاّ أنّ اللّه سخَّرها للإنسان حتّى ينتفع بها من حيث الأكل و الرّكوب و حمل المتاع و غير ذلك من المنافع المتّرتبة على وجودها بسبب تسخيرها لنا و هذا واضح لا خفاء فيه و فى هذا الكلام دلالة على قدرة اللّه و أنّه خلق ما في الأرض للإنسان لينتفع بها و لولا ذلك لما كان الإنسان قادراً على التَّعيش و إدامة الحياة على وجه الأرض فينبغي له أن يشكر ربّه على هذا النِّعم التّي أن تعدُّوها لا تحصوها، ثمّ أشار اللّه تعالى الى الفلك الّتي تجري بأمره.

قال بعض المفسّرين الأقرب أنّ المراد و سخَّر لكم الفلك أيضاً لتجري في البحر و كيفيّة تسخير الفلك هو من حيث سخَّر الماء و الرّياح لجريها فلولا صفتها على ما هما عليه لما جرت بل كانت تغوص في الماء أو تقف تعطب فنَّبه على نعمه بذلك و إنّما قال بأمره لأنّه سبحانه لمّا كان هو المجري لها الرّياح نسب ذلك الى أمره، و قوله **وَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ** فالمراد بالسّماء جنس السّماء ليشمل جميع كرات السّماوية إشارة الى أنّ الكرات معلَّقة في الفضاء و الممسك لها هو اللّه تعالى و هو كذلك:

كما قال تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا**[۱].

و فى قوله: **أَنْ تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ** إشارة الى إمكان وقُوعَها على الأرض لو أذن اللّه به و سيأتي الكلام في هذا الباب في موضعه ثمّ قال تعالى: **إِنَّ ٱللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ** أي أنّ المنعم بهذه النِّعم الجامعة لمنافع الدّين و الدّنيا قد بلغ الغاية في الإحسان و الإنعام فهو أذن رؤوفٌ رحيمٌ، و فيه إشارة الى أنّ رأفة اللّه و رحمته صارت باعثة على إعطاء النِّعم و هو كذلك.

۱- فاطر = ۴۱

وَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَكَفُورٌ

لمّا ذكر اللّه تعالى أنّه الّذي سخَّر لكم ما في الأرض من الجماد و النَّبات و الحيوان و ذلَّلها لكم و كذلك سخَّر لكم الفلك الّتي تجري في البحر بأمره قال و هو الّذي أحياكم بعد إن كنتم جماداً و تراباً و نطفةً و علقةً و مضغةً و هى الموتة الأولى المذكورة في قوله تعالى: **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ** ثمّ يميتكم بعد الحياة ثمّ يحييكم يوم القيامة للحساب إمّا الجنّة و إمّا إلى النّار ثمّ أخبر عن الإنسان بأنّه كفورٌ أي جحودٌ لنعم اللّه المتّظافرة المتوالية و المراد بالإنسان جنسه و الحكم بإعتبار الأغلب.

و قيل المراد به الأسود بن عبد الأسد و أبو جهل و أبّي بن خلف و هذا على طريق التّمثيل إنتهى.

أقول و هذا ممّا لا دليل عليه و الحقّ ما ذكرناه:

قال اللّه تعالىٰ: **كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰٓ أَنْ رَاٰهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَانَ ٱلْإِنْسَانُ عَجُولًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **قُتِلَ ٱلْإِنْسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ**(٥) وأمثال هذه الأيات كثيرة.

و حاصل الكلام هو أنّ اللّه تعالىٰ حكم في الآية بأنّ الإنسان يجحد النِّعم و يكفر بها أي كثيراً من أفراد الإنسان لولا أكثرهم كذلك و هذا أمرٌ محسوسٌ إذا ضدّ الكفران الشُّكر على النّعم و قد قال اللّه تعالى: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ**(٦) و إذا كان الشّكر قليلاً فلا محالة يكون الكفران كثيراً و بذلك صدر الحكم و هو المطلوب.

١- العَلق = ۶
٢- إبراهيم = ٣۴
٣- الإسراء = ١١
۴- الكهف = ۵۴
۵- عَبَس = ١٧
۶- سباء = ١٣

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَ ٱدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ

قيل أنّها نزلت بسبب جدال الكفّار بليل بن ورقاء و بشر بن سفيان الخزّاعيين و غيرهما في الذّبائح و قولهم للمؤمنين تأكلون ما ذبحتم و هو من قتلكم و لا تأكلون ما قتل اللّه فنزلت بسبب هذه المنازعة.

و الظّاهر أنّ الآية بصدد بيان حكم كلّي و هو أنّ اللّه تعالى جعل لكلّ أمّةٍ من الأمم السّابقة منسكاً و مذهباً هم ناسكوه أي يلزمهم العمل به هذا إذا قلنا أنّ المنسك هو المذهب و إن قلنا أنّ المنسك الموضع المعتاد لعمل خيرٍ أو شرٍّ و هو المألوف لذلك و مناسك الحجّ من هذا لأنّها مواضع العبادات فيه فهي متعبّدات الحجّ قالوا و فيه لغتان فتح السّين و كسرها.

و قال إبن عبّاس منسكاً أي عيداً و قال مجاهد و قتادة متعبّداً في إراقة الدّم بمنى و غيرها وكيف كان فقد نهى اللّه تعالى في الآية عن منازعتهم النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في الأحكام و ذلك لأنّ الأديان في الأحكام مختلفة بحسب مقتضيات الزّمان كما أنّ الأنبياء و الرّسل أيضاً كذلك فلا تصحّ المنازعة في تفاوت الأحكام ثمّ أمر اللّه تعالى بنبيّه بالدّعوة فقال و أدع إلى ربّك أنّك لعلى هدىً مستقيم، أي أدع النّاس إلى توحيد ربّك و طاعته فأنّ هذا هو الغاية القصوى للنّبوة و قوله: **إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ**، معناه واضح لأنّ من يدعو النّاس إلى الطّريق المستقيم و هو النّبي أولى بأن يكون كذلك فأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له.

وَ إِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ

أي إن جادلوك على وجه المراء و التّعنت الّذي يعمله السّفهاء فلا تجادلهم على هذا الوجه و أدفعهم بهذا القول و قل لهم اللّه أعلم بما تعملون و هذا أدبٌ من اللّه حسن و ينبغي أن يأخذ به كلّ أحدٍ هكذا فسّره الشّيخ في التّبيان.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، سياق الآية السّابقة يؤيّد أنّ المراد بهذا الجدال المجادلة و المراء في أمر إختلاف منسكه صلّى الله عليه وآله وسلّم مع الشّرائع السّابقة بعد الإحتجاج عليهم بنسخ الشّرائع و قد أُمِر بإرجاعهم إلى حكم اللّه من غير يشتغل بالمجادلة معهم بمثل ما يجادلون و قيل المراد بقوله: **وَ إِنْ جٰادَلُوكَ** مطلق الجدال في أمر الدّين و قيل الجدال في أمر الذّبيحة و السّياق السّابق لا يساعد عليه إنتهى.

أقول: أمّا قولهم أنّ المراد بالمجادلة الجدال على وجه التّعنت و المراء فهو حقّ لا مرية فيه لأنّ المجادلة بالتّي هي أحسن لا كلام في حسنها بل الأمر بها في الشّريعة المقدّسة قال اللّه تعالى: **اُدْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ اَلْمَوْعِظَةِ اَلْحَسَنَةِ وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**[1].

بل نقول أساس الموعظة و التّبليغ على المجادلة الحسنة و هو ظاهر و أمّا الجدال بغير حقّ فهو مذمومٌ عقلاً و شرعاً فكلّ أيةٍ أمر اللّه فيها بالجدال لا يعنى بها إلاّ بالتّي هي أحسن و لك أيةٍ نهى اللّه عنها فالمراد المراء و التّعنت إذا عرفت هذا فنقول:

أنّ هذه الآية ليس فيها نهيٌ عن الجدال بل نقول أنّها عن المجادلة بالتّي هي أحسن و ذلك لأنّ اللّه تبارك و تعالى قال لنبيّه و إن جادلوك فقل اللّه أعلم كلامٌ فيه رفقٌ و لين و ليس فيه شيئ من الغلظة و الخشونة حتّى يخرج الكلام من الحسن و الرّفق و أيّة مجادلةٍ أحسن منه.

اَللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰمَةِ فِيمٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

و ذلك لأنّ اللّه تعالى نعم الحكم يوم القيامة فهو يحكم بين المجادلين بأحسن وجهٍأصدق من اللّه قيلاً فهو أحكم الحاكمين.

١- النّحل = ١٢٥

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَ ٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ

لمّا تقدَّم ذكر الفصل بين الكفّار و المؤمنين يوم القيامة أعقب تعالى ذلك بأنّه عالمٌ بجميع ما في السّماء و الأرض فلا تخفى عليه أعمالكم و أنّ ذلك في كتابٍ قيل هو أمّ الكتاب الذّي كتبه اللّه قبل خلق السّموات و الأرض كتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة و قيل المراد به هو اللّوح المحفوظ و قوله: **إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ** معناه أنّ العلم بذلك على اللّه سهلٌ يسير أي غير متعذّرٍ عليه و الوجه فيه واضح لأنّه خالق السّموات و الأرض و ما فيهما من أنواع المخلوقات و الخالق عالمٌ بخلقه إذ الخلق مسبوق بالعلم و كيف يعقل أن يخلق الخالق شيئاً و لا يعلم ما خلقه و قوله في كتابٍ، يحتمل أن يكون المراد به كتاب التّكوين و يدلّ عليه تنكير الكتاب فأنّه لم يقل في الكتاب أو المراد به كتابٌ لا يعلمه إلاّ اللّه أو كتاب المحو و الإثبات و اللّه أعلم.

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ

أخبر اللّه تعالى في الآية عن حال الكفّار الذّين يعبدون مع اللّه الأوثان و الأصنام فقال أنّهم يعبدون من دون اللّه ما لم ينّزل به سلطاناً، أي حجّةً و برهاناً و أنّما قيل للبرهان سلطان لأنّه يتّسلط على إنكار المنكر فكلّ محقٍّ في مذهبه فله برهان يتّسلط به على الإنكار لمذهب خصمه.

و قال بعض المفسّرين في قوله: **لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** أي حجّةً و برهاناً سماويّاً من جهة الوحي و السّمع و فى قوله: **وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** أي دليل عقلّي ضرّوري أو غيره.

أقول: و لعلَّ القائل أخذ قوله من كلام الرّازي في تفسيره لهذه الآية حيث

قال ما هذا لفظه، فبيَّن أنّ عبادتهم لغير اللّه ليست مأخوذة عن دليلٍ سمعّي و هو المراد بقوله ما لم ينّزل به سلطاناً و لا عن دليلٍ عقلّي و هو المراد من قوله: **وَ مٰا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** به من علم و إذا لم يكن كذلك فهو عن تقليدٍ أو جهلٍ أو شبهةٍ فوجب في كلّ قولٍ هذا شأنه أن يكون باطلاً فمن هذا الوجه يدلّ على أنّ الكافر قد يكون كافراً و أن لم يعلم بكونه كافراً و يدّل أيضاً على فساد التّقليد إنتهى.

أقول: ما ذكره الرّازي و تبعه غير واحدٍ من مفسّري العامّة من أنّ قوله تعالى: **مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰانًا**، أريد به الدّليل السَّمعي و قوله: **وَ مٰا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** الدّليل العقلّي، لا دليل عليه و أنّما هو من إستخراجات ظنّه و وهمه لأنّ الآية تدلّ على من عبد شيئاً من غير حجّةٍ و لا برهان يؤيّده العقل السّليم فهو ظالمٌ و من المعلوم أنّ ما لم ينّزل له دليل من العقل لا سبيل للعلم إليه فقوله و ما ليس لهم به علم، في الحقيقة تفسير و توضيح لقوله: **مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰانًا**.

و أمّا تخصيص قوله ما لم ينّزل به سلطاناً، بدليل السّمع و قوله ما ليس لهم به علم، بدليل العقل، فلا نفهم معناه مع أنّ الثّاني متَّرتبٌ على الأوّل وجوداً و عدماً و حاصل الكلام أنّ ما لم ينّزل به سلطاناً هو بعينه ما ليس لهم به علم، فالواو في قوله: **وَ مٰا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** ليس للعطف بل للتّفسير وكيف كان في الآية إشارة بل دلالة على أنّ العاقل يتَّبع عقله و لا يتَّبع هواه و إذا كان كذلك فلا يأخذ بما لا دليل عليه من العقل و هذا حكمٌ كلّي في جميع الأمور من التّوحيد و النّبوة و الإمامة و غيرها إلاّ أنّ التّوحيد هو الأصل في الباب و قوله: **وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**، معناه ليس للظّالم على نفسه بإرتكاب المعاصي و ترك المعرفة باللّه من ينصره و يدفع عنه العذاب في الدّنيا و العقاب في الأخرة.

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ في وُجُوهِ الَّذينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكُمُ النّارُ وَعَدَهَا اللّٰهُ الَّذينَ كَفَرُوا وَ بِئْسَ الْمَصيرُ

في هذه الآية إخبارٌ عنه تعالى بعناد هؤلاء الكفّار و أنّهم لا يقبلون الحّق لشّدة عنادهم فقال: **وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا** آياتنا، أي آيات الكتاب و غيره من حجج اللّه بواسطة أنبيائه كالمعجزات و خوارق العادات فأنّها أيضاً من الآيات الظّاهرات البّينات، تعرف يا محّمد في وجوه الّذين كفروا و جحدوا ربوبيّته، المنكر، من القول كقولهم هذا من أساطير الأوّلين، يكادون يسطون، أي قاربوا أن يوقعوا بمن يتلوها المكروه قولاً و فعلاً، و السَّطوة إظهار الحال الهائلة للإضافة و لذلك يقال أنّ الإنسان يخاف سطوات اللّه و نقامته، قيل السَّطوة و الإستطالة و البطشة نظائر في اللُّغة ثمّ قال لنّبيه (قل يا محّمد لهؤلاء الكفّار) أفأنّبكم أي فأخبركم، بشَّرٍ من ذلكم، أي من إعتدائكم و ظلمكم على التّالي لآيات اللّه و قيل بشِّر ممّا يلحق التّالي منهم وكأنّ قائلاً قال ما ذلك الشّر فقيل في جوابه النّار أي هو النّار الّتي وعدها الّذين كفروا بآيات اللّه و بئس المصير، و قيل، النّار، مبتدأ و وعدها الخبر، و الأمر سهلٌ و قال بعضهم أنّ الكفّار قالوا أنّ محمداً و أصحابه شَّر خلق اللّه فنزلت.

■

يٰآ أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَـهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبٰابًا وَ لَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبٰابُ شَيْئًا لٰا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطّٰالِبُ وَ ٱلْمَطْلُوبُ ﴿۷۳﴾ مٰا قَدَرُوا ٱللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللّٰهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿۷۴﴾ ٱللّٰهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلٰآئِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ ٱلنّٰاسِ إِنَّ ٱللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿۷۵﴾ يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ إِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿۷۶﴾ يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱرْكَعُوا وَ ٱسْجُدُوا وَ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ ٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿۷۷﴾ وَ جٰاهِدُوا فِي ٱللّٰهِ حَقَّ جِهٰادِهِ هُوَ ٱجْتَبٰيكُمْ وَ مٰا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرٰاهِيمَ هُوَ سَمّٰيكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هٰذٰا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدٰآءَ عَلَى ٱلنّٰاسِ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ آتُـوا ٱلزَّكٰوةَ وَ ٱعْتَصِمُوا بِاللّٰهِ هُوَ مَوْلٰيكُمْ فَـنِعْمَ ٱلْمَوْلٰى وَ نِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿۷۸﴾

اللّغة

ذُبٰابًا: الذباب كغراب معروف و جمعه في الكثر، ذبّان، بالكسر و فى القلّة، أذبَّة، بكسر الذّال و الواحدة، ذبابة و أصله من الذّب و هو الطَّرد.

ٱجْتَبٰيكُمْ: الإجتباء الإختيار.

حَرَجٍ: بفتح الحاء و الرّاء الضّيق و يعبّر عنه بالتّكليف بما لا يطاق.
مِلَّةَ: بكسر الميم و فتح اللاّم المشّدد الجماعة.

◀ الإعراب

يَسْلُبْهُمُ يتّعدى الى مفعولين و شَيْئًا هو الثّاني حَقَّ جِهَادِهِ هو منصوب على المصدر مِلَّةَ أَبِيكُمْ أي مثل ملَّة أبيكم محذوف المضاف و أقام المضاف إليه مقامه هُوَ سَمّٰكُمُ الضّمير لإبراهيم عليه السّلام.

◀ التّفسير

يٰٓا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَ ٱلْمَطْلُوبُ

لمّا ذكر اللّه تعالى أنّ الكفّار الّذين يعبدون ما لا دليل عليه و يتركون عبادة من خلقهم ذكر ما عليه معبوداتهم من إنتفاء القدرة على خلق أقّل الأشياء و أحقر الموجودات تجهيلٌ عظيمٌ لهم حيث عبدوا من هذه صفة فقال يا أيّها النّاس الخطاب عامٌّ لجميع المكلّفين من النّاس، ضرب مثلٌ فأستمعوا له، قيل الخطاب للمؤمنين أراد اللّه يبّين لهم خطأ الكافرين و الحّق أنّ الخطاب عامٌّ يشمل من نظر في أمر عبادة اللّه فأنّه يظهر له قبح ذلك و إتّفقوا على أنّ، ضرب، مبّنيّ للمفعول و لم يذكر الضّارب في الآية هل هو اللّه أو غيره فيقتل الضّارب للمثل هو اللّه تعالى ضرب مثلاً لما يعبدونه من دونه أي بيّن شبهاً لهم و ليعبدوهم و قيل ضارب المثل هم الكفّار جعلوا مثلاً للّه تعالى أصنامهم و أوثانهم فقال تعالى فإسمعوا أنتم أيّها النّاس لحال هذا المثل و نحوه ما قال الأخفش قال ليس هاهنا مثلٌ و أنّما المعنى جعل الكفّار للّه مثلاً.

و قيل هو مثل من حيث المعنى لأنّه ضرب مثل من يعبد الأصنام بمن يعبد ما لا يخلق ذباباً.

قال الزّمخشري فأن قلت الّذي جاء به ليس بمثل فكيف سمّاه مثلاً.

قلت: قد سميّت الصِّفة أو القصّة الرّائعة المتّلقاة بالإستحسان و الإستغراب مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم إنتهى.

و قوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ** قرأ الجمهور، تدعون، بالتّاء و قرأ الحسن و يعقوب و من تبعهما بالياء وكلاهما مبنّيّ للفاعل و قرأ اليماني و موسى الأسواري بالياء مبنياً للمفعول فعلى الأوّل الخطاب للمكلّفين و على الثّاني فالمراد الكفّار أي أنّهم يدعون من دون اللّه الخ.

و على الثّالث فالمراد الأصنام و الأوثان و كيف كان أفاد اللّه في هذا الكلام أنّ كلّ ما يدعى للعبادة من دون اللّه فهو لا يقدر على أن يخلق ذباباً و لو إجتمعوا له، أي إتّفقوا جميعاً على خلقه فهو من قبيل قوله تعالى في القرآن:

قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَ ٱلْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا [١].

و المقصود بيان عجزهم في المقامين و هو ظاهر لا خفاء فيه و أنّما أتى بكلمة لن، دون، لا، مع، أنّ، لن، أخت، لا، في نفي المستقبل لأنّ كلمة، لن، لنفي الأبد أي أنّهم لا يقدرون عليه أبداً و لو إجتمعوا له ففيه مضافاً على ما ذكرناه من نفي الأبد تأكيدٌ على عدم قدرتهم عليه فكأنّ خلق الذّباب منهم مستحيلٌ و هو كذلك ثمّ قال تعالى: **إِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ** أي كيف يمكن لهم خلق الذّباب و هم لا يقدرون على إستنقاذه ما يسلب الذّباب منهم مع أنّه أي الإستنقاذ من الذّباب أسهل بمراتب من خلقه إذا كان كذلك فلا يكون معبوداً و هو المطلوب.

١- الإسراء = ٨٨

و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ الخالق المعبود لابدّ له من أن يكون قادراً علىٰ الخلق و الإيجاد و إلاّ يكون ضعيفاً حقيراً و كلّ ضعيفٍ محتاج إلى من هو أقوى منه و بعبارةٍ أخرى كلّ عابدٍ محتاج إلى معبوده فأن كان المعبود أخر يتسلسل و التّسلسل باطل فالإحتياج في المعبود باطل و هذا أصلٌ لا خلاف فيه فينتج أنّ المعبود الّذي يتّضرع العابد إليه و يستّمد منه في حلّ مشكلاته ينبغي أن يكون غير محتاج إلى غيره في جميع الشّئون و لا نعني بالقدرة إلاّ هذا إذا عرفت هذه المقدّمة العقليّة فنقول كلّ موجودٍ في عالم الوجود متّصف بالضّعف و الإحتياج سوى اللّه تعالى الّذي خلق الخلق فكلّ معبودٍ سواه مخلوق له و إعتماد الضّعيف لا معنى له و أنّما قلنا ما سوى اللّه ضعيفٌ لأنّه لا يقدر على إستنقاذ ما يسلب الذّباب منه فضلاً عن خلقه و إيجاده و هذا دليل على ضعفه فيلزم من كونه معبوداً خضوع الضّعيف للضّعيف و أن شئت قلت إحتياج الضّعيف إلى مثله في الضّعف و الحقارة و هو ممّا لا يقبله العقل السّليم و على هذا فمعنى الآية أنّ الّذين تدعون من دون اللّه للربوبيّة و المعبوديّة لن يقدروا على خلق الذّباب الحقير الصّغير بل و لا على إستنقاذ الشّئ منه فكيف إتّخذتموها للعبادة و هذا واضح.

و قوله: **ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَ ٱلْمَطْلُوبُ** فقال إبن عبّاس يعني من الأوثان و الأصنام، و المطلوب، من الذّباب.

أقول: لا يبعد أن يكون المراد بالطّالب العابد و بالمطلوب المعبود، يعني ضعف العابد و المعبود لأنّهما مخلوقان لغيرهما و كلّ مخلوقٍ ضعيف و إذا كانا في الضّعف على حدٍّ سواء فلا معنى لترجيح أحدهما على الأخر بأن يكون معبوداً لغيره و المفروض هو مثله و هذا هو الظّاهر في معنى الآية و أمّا تفسير إبن عبّاس و من تبعه لهذا الكلام فلا نفهم معناه و ذلك لأنّ الذُّباب لا يكون مطلوباً بل المطلوب كناية عن المعبود و اللّه أعلم بما أراد من كلامه.

ثمّ أنّ هذا كلّه بناءً على أنّ الضّارب للمثل هو اللّه تعالى كما هو رأي أكثر المفسّرين و قال قومٌ، أراد اللّه أنّ الكافرين ضربوا لي الأمثال من الأصنام الّتي عبدوها فإستمعوا لما ضرب لي من الأمثال ثمّ أخبر عنها كيف هي و كيف بعدها ممّا جعلوه مثلاً و يدلّ عليه قوله بعد هذه الآية **مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ** و قيل المطلوب الألهة و الطّالب الذّباب فضعف الألهة أن لا منعة لها و ضعف الذّباب في إستلابه ما على الألهة.

و قال الزّمخشري و قوله ضعف الطّالب و المطلوب كالتّسوية بينهم و بين الذّباب في الضَّعف ولو حقّقت وجدت الطّالب أضعف و أضعف لأنّ الذّباب حيوان و هو جماد و هو غالب و ذاك مغلوب و الظّاهر أنّه إخبار بضعف الطّالب و المطلوب و قيل معناه التَّعجب أي ما أضعف الطّالب و المطلوب.

أقول: هذا ما قيل في تفسير الكلام فأقض ما أنت قاض و أظُن أنّ ما إحتملناه أظهر و حاصل الكلام في تفسير الآية و ما يستفاد منها هو أنّه ما أقبح للرّجل الذّي يدّعي العقل عبادة الأصنام و الأوثان التّي هي من الجماد و لا تقدر على شئٍ أصلاً و هو ظاهر.

مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ

إختلفوا في معناه فقال الحسن معناه ما عظّموه حقّ تعظيمه إذ جعلوا له شريكاً في عبادته و هو قول المّبرد و الفّراء و قال قوم معناه ما عرفوه حقّ معرفته.

و قال أخرون ما وصفوه حقّ صفته و قال بعضهم أي ما عرفوه حقّ معرفته حيث عبدوا من هو منسلخٌ عن صفاته و سمّوه بإسمه و لم يأهلّوا خالقهم للعبادة ثمّ ختم بصفتين منافيتين لصفات ألهتهم من القوّة و الغلبة إنتهى.

أقول: الجامع بين الأقوال هو عدم معرفة الخالق فأن جميع الأقوال يرجع إليه و ذلك لأنّ عدم التّعظيم و التّوصيف و غير ذلك من النّقائص متوقف على

عدم معرفته اللّه واقعاً و ذلك لأنّ من عرف اللّه يعلم أنّه قادر على كلّ شئ فلا يوصفه بالضَّعف و يعلم أنه عالم بكلّ شيءٍ فلا يوصف بالجهل و أنّه قائمٌ بالقسط فلا يوصف بالظّلم و أنّه واجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة فلا نقص فيه ذاتاً وصفةٍ بل هو جامع لجميع الكمالات من العلم و القدرة و الحياة و غيرها من الصّفات و هذا ظاهر لا كلام فيه فمن وصفه بغير ما هو يليق به فلم يعرفه حقّ معرفته هذا كلّه بحسب ظاهر الآية و أنّها ناظرة إلى الكفّار الّذين يدعون من دون اللّه كما يدلّ عليه سياق الآية و الّذي يقتضيه النّظر عند التّأمل و التّدبر هو أنّ اللّه تعالى لم يعرف كما هو حقّه و لن يعرف أبداً و ذلك لأنّ المعرفة لا تحصل إلاّ بسبب العلم و العلم لا يحصل إلاّ بإحاطة المدرك على المدرك و حيث أنّ المخلوق كائناً ما كان متّصف بالتّناهي ذاتاً و صفةً فكما أنّه محدودٌ في وجوده محدودٌ في صفاته فأنّ الصّفات من توابع الوجود و من جلمة الصّفات العلم فالإنسان الّذي هو أشرف المخلوقات لا يقدر على الإحاطة بكنه ذاته تعالى حتّى تحصل له المعرفة كاملاً فما ظنُّك بغيره من المخلوق و الدّليل على ذلك عقلاً هو أنّ إحاطة المخلوق بكنه ذاته تعالى مستلزمٌ لخروجه عن التّناهي و قد فرضناه متناهياً و هذا خلفٌ و لأجل هذه الدّقيقة قال سيّد البشر صلوات اللّه عليه ما عرفناك حقّ معرفتك و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

آنجا كه عقاب پر بريزد   از پشه لاغرى چه خيزد

فقوله تعالى: **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** من الأصول المسلّمة العقليّة الكليّة الشّاملة لجميع الخلق إلاّ أنّ الميسور لا يترك بالمعسور و ما لا يدرك كلّه لا يترك كلّه فكلّ مخلوقٍ يعرفه بقدر إستعداده و فهمه و عقله و هذا ممّا لا كلام فيه.

ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ

كلمة، من للتّبعيض و المعنى أنّ اللّه يصطفي أي يختار من الملائكة رسلاً أي من بعض الملائكة و من النّاس أي و كذلك يصطفي من النّاس رسلاً فالآية تدلّ على أنّه ليس جميع الملائكة رسلاً كما أنّ النّاس ليس جميعهم أنبياء كذلك و فى قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**، إشارة إلى أنّه تعالى عالمٌ بالمسموعات كما أنّه عالمٌ بالمبصرات فلا يخفى عليه شئ لا في الأرض في السّماء و قد مرَّ الكلام فيه سابقاً.

و قلنا أنّ اللّه تعالى لا يسمع و لا يبصر بالألة لتنَّزهه عن الجسميّة و التّركيب

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ إِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ

إذا ثبت أنّ اللّه سميعٌ بصيرٌ بقولٍ مطلق فهو يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم، قيل المراد بقوله: **مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**، يعني ما بين أيدي الخلائق من القيامة و أحوالهايكون في مستقبل أحوالهم، **وَ مَا خَلْفَهُمْ**، أي و ما يخلفونه من دنياهم، المعنى يعلم ما بين أيديهم أي أوّل أعمالهم و ما خلفهم، أخر أعمالهم و إليه ترجع الأمور، يعني يوم القيامة ترجع الأمور إلى اللّه فهو الذّي يحكم بين العباد يوم القيامة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَ ٱسْجُدُوا وَ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ ٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

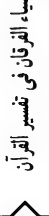

أنّما خاطب المؤمنين لأنّهم الّذين يركعون و يسجدون و يعبدون اللّه و يفعلون الخيرات فهم المفلحون يوم القيامة قطعاً و إعلم أنّ الرّكوع لغةً الخفض و الإنحناء و ضدّه الرَّفع، قال الشّاعر:

لا تهين الفقير علّك أن   تركع يوماً و الدّهر قد رفعه

و شرعاً هو إنحناء المصّلى حتّى تصل كفّاه ركبتيه، و السّجود، لغة الخضوع

و شرعاً وضع الجبهة على ما يصحّ السّجود عليه و وضع بقيّة الأعضاء السّبعة على الأرض أو غيرها إذا عرفت ذلك.

فالمراد هنا الرّكوع في الصّلاة و السّجود فيها و خصَّهما من بين بقيّة أفعال الصّلاة لأنّهما أعظم الأفعال و بهما يحصل الإرغام التّام و مع ذلك هما من أركان الصّلاة تبطل الصّلاة بتركهما عمداً أو سهواً إجماعاً.

قال بعض المفسّرين أنّ المراد بالرّكوع و السّجود هنا الصّلاة تسمية للشّئ بإسم أعظم أجزاءه ولم يقل، صلّوا، لدفع تئّهم إرادة الدّعاء قوله: **وَ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ،** أي و إعبدوه بفعل ما تعبَّدكم من العبادت كالصّوم و الزّكوة و الحجّ و نحوها، و إفعلوا الخير، أي لا تقتصروا على فعل الصّلاة و الواجبات من العبادات بل إفعلوا غيرها من أنواع البِّر كصلّة الرِّحم و مكارم الأخلاق و نحو ذلك من أنواع القرب و قيل الخير النّفع الذّي يحّل موقعه و تعمّ السّلامة به و نقيضه الشّر إنتهى.

أقول: الخير لا يحتاج إلى التّفسير فكلّ عملٍ أو قولٍ صدَّقه العقل و الشّرع فهو خير و ضدّه الشَّر و قوله: **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ،** معناه لكي تفلحون فأنّ التّرجي لا معنى له بالنّسبة إليه تعالى لكونه علاّم الغيوب.

وَ جٰاهِدُوا فِي ٱللّٰهِ حَقَّ جِهٰادِهِ هُوَ ٱجْتَبٰيكُمْ وَ مٰا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرٰاهِيمَ هُوَ سَمّٰيكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هٰذٰا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى ٱلنّٰاسِ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ آتُوا ٱلزَّكٰوةَ وَ ٱعْتَصِمُوا بِاللّٰهِ هُوَ مَوْلٰيكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلٰى وَ نِعْمَ ٱلنَّصِيرُ

في الآية أبحاث:

الأوّل: في تفسير قوله تعالى: **وَ جٰاهِدُوا فِي ٱللّٰهِ حَقَّ جِهٰادِهِ هُوَ ٱجْتَبٰيكُمْ**

الجهاد بكسر الجيم مصدر قال في المنجد، جاهد مجاهدة و جهاداً إنتهى.

و في الشّرع هو إستفراغ الوسع في مدافعة العدّو و هو من الواجبات بشرائطه المقررة في الفقه و قال بعضهم هو بذل النّفس و المال لإعلاء كلمة الإسلام و الإقرار بها و إقامة شعائر الإيمان و هو من أعظم أركان الإسلام و فضله عظيم حتّى ورد في الخبر عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال فوق كلّ برٍّ برّ حتّىٰ يقتل في سبيل اللّه فليس فوقه برّ و عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّ الجهاد بابٌ فتحه اللّه لخاصة أوليائه الى أن قال عليه السلام و الجهاد لباس التّقوى و درع اللّه الحصينة و حصنه الوثيقة من تركه رغبةً عنه ألبسه اللّه ثوب الذلّة و شمله البلاء و فارق الرّخاء و ضرب اللّه على قلبه بالأشباه و ريثّه بالصّغار و القماه و سيم الحنف و منع النّصف و أديل الحقّ بتضييعه الجهاد و غضب اللّه بتركه نصرته الخ.

و للجهاد شرائط و أحكام نفصلّه في الكتب الفقهية و أنّما قال حقّ جهاده أي جهاداً حقّاً كما ينبغي بجذب النّفس و خلوصها عن شوائب الرّياء و السُّمعة مع الخشوع و الخضوع و الجهاد مع النّفس الأمارّة و اللوّامة في نصرة النّفس العاقلة المطمئنة و هو الجهاد الأكبر و لذلك ورد عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه رجع عن بعض غزواته فقال رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر و قيل الجهاد بمعنى رتبة الإحسان هو أنّك تعبد ربّك كأنّك تراه فأن لم تكن تراه فأنّه يراك و الأيات في فضله كثيرة جدّاً قال بعض المحققين و الجهاد ثلاثة أضرب:

مجاهدة العدو الظّاهر، و مجاهدة الشّيطان، و مجاهدة النّفس و تدخل ثلاثتها في قوله تعالىٰ: **وَ جَٰهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ** إنتهىٰ.

و أعلم أنّ الجهاد تارةً يكون بآلات الحرب لدفع الكفّار و تارةً يكون ببذل المال و تارةً ببذل النّفس و تارةٌ بالقلم و تارةً باليد و تارةً باللّسان و هكذا.

فقوله تعالىٰ: **حَقَّ جِهَادِهِۦ** يشمل الكّل و أمّا قوله: **هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ** معناه هو إختاركم للجهاد لإعلاء كلمته و جهاد أعداء فيكون ذلك خطاباً متوّجهاً الىٰ من إختاره اللّه بفعل الطّاعات.

الثّاني: قوله: **وَ مٰا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي اَلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** الحرج محرّكةً الضِّيق و الشِّدة و العسر و فيه دلالة على أنّ اللّه تعالى: **لاٰ يُكَلِّفُ اَللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا**[١].

قال بعض المفسّرين معناه لم يجعل عليكم ضيقاً في دينكم و لا مالا مخرج منه و ذلك أنّ منه ما يتّخلص منه بالتّوبة و منه ما يتّخلص منه بردّ المظلمة وليس في دين الإسلام ما لا سبيل الى الخلاص من عقابه إنتهى.

أقول: ما ذكروه في معنى الحرج في الآية لا بأس به إلاّ أنّ المراد من نفي الحرج في هذه الآية بقرنية السّياق هو نفي الحرج في الجهاد كما إذا كان المتكلّف مريضاً أو أعمى أو غير ذلك و أن كان نفي الحرج فيه أيضاً من مصاديق نفي الحرج في الدّين و كيف كان فالأمر سهلٌ قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعثت الى الشّريعة السَّمحة السَّهلة و في روايةٍ الى حنفيّة سمحة و الأصل في الحكم هو قوله تعالى: **لاٰ يُكَلِّفُ اَللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا** هذا و قوله: **مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرٰاهِيمَ هُوَ سَمّٰاكُمُ اَلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هٰذٰا** قيل في معناه أنّه يرجع جميعهم الىٰ ولادة إبراهيم و على هذا فحرمّة إبراهيم على المسلمين كحرمة الوالد على الولد و قيل لمّا كان أكثرهم من ولده كالرّسول و رهطه و جميع العرب طلب الأكثر فأضيف اليهم و جاء قوله ملّة إبراهيم بإعتبار عبادة اللّه ترك الأوثان و الأصنام و هو المسوق له الأيات المتّقدمة فلا يدلّ ذلك على الإتّباع في تفصيل الشّرائع و الظّاهر أنّ الضّمير في قوله تعالى: **هُوَ سَمّٰاكُمُ**، عائد على إبراهيم و هو أقرب مذكور و لكلّ نبّي دعوة مستجابة و دعا إبراهيم عليه السّلام فقال: **رَبَّنٰا وَ اجْعَلْنٰا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنٰا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنٰا مَنٰاسِكَنٰا وَ تُبْ عَلَيْنٰا إِنَّكَ أَنْتَ اَلتَّوّٰابُ اَلرَّحِيمُ**[٢] فأستجاب اللّه له فجعلها أمّة محمّد صلى الله عليه و آله و سلم و قيل الضّمير يعود الى اللّه و به قال إبن عبّاس و مجاهد أي أنّ

١- البقرة = ٢٨٦
٢- البقرة = ١٢٨

اللّه هو سمّاكم المسلمين، و الحقّ أنّ الضّمير يعود على إبراهيم بدليل قوله: **وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنآ أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**[١] و قوله: **مِنْ قَبْلُ** أي من قبل القرآن، و فى هذا، يعني القرآن و قيل معناه في هذا الأوان **لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ** و المعنى ليكون الرّسول شهيداً عليكم بطاعة من أطاع في تبليغه و عصيان من عصى و تكونوا شهداء على النّاس بأعمالهم و أنّ الرسّل قد بلغتهم من كتاب ربّهم و سنّة نبيّهم و إذ خصّكم بهذه الكرامة فأعبدوه و ثقوا به و لا تطلبوا النصّرة و الولاية إلاّ منه فهو خير مولى و ناصر ثمّ أمرهم بإقامة الصّلوة فقال: **فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَ ٱعْتَصِمُوا بِاللَّهِ** أي بدينه **هُوَ مَوْلَيٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَ نِعْمَ ٱلنَّصِيرُ** أي أنّ اللّه تعالى نعم المولى لكم و نعم النَّصير، أي النّاصر و الدّافع عن الخلق هو اللّه تعالى و لنشر الى بعض ما ورد في تفسير الآية.

ماروواه الكليني في أصول الكافي بأسناده عن بريد العجلي قال قلت لأبي جعفر قوله تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَ ٱسْجُدُوا وَ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ ٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَ جَاهِدُوا فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَيٰكُمْ** قال عليه السلام: إيّانا عني و نحن المجتبون ولم يجعل اللّه تعالى في الدّين من حرج فالحرج أشدّ من الضّيق، **مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**، إيّانا عني خاصّته هو سمّاكم المسلمين، اللّه عزّ وجلّ سمّانا المسلمين من قبل في الكتب التّي مضت، و فى هذا القرآن **لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ**، فرسول اللّه الشّهيد علينا بما بلّغنا عن اللّه تبارك و تعالى و نحن الشّهداء على النّاس يوم القيامة فمن صدق يوم القيامة صدقناه ومن كذب كذّبناه إنتهى.

١- البقرة = ١٢٨

و عن فضيل بن عياض عن أبي عبد اللّه قال سألته عن الجهاد أسنّةً هو أم فريضة فقال الجهاد على أربعة أوجه فجهادان فرض، و جهادٌ سنّة لا يقام إلاّ مع فرضٍ، و جهاد سنّةٍ، فأمّا أحد الفرضين فمجاهدة الرّجل نفسه عن معاصي اللّه و هو من أعظم الجهاد، ومجاهدة الذّين يلونكم من الكفّار فرضٌ.

و أمّا الجهاد الذّي هو سنّة لا يقام إلاّ مع فرض فأنّ مجاهدة العدّو فرضٌ على جميع الأمّة ولو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب وهذا هو من عذاب الأمّة وهو سنّة على الأنام أن يأتي العدُّو مع الأمّة فيجاهدهم و أمّا الجهاد الّذي هو سنّة فكلّ سنّةٍ أقامها الرّجل و جاهد في إقامتها و بلوغها و إحيائها فالعمل و السَّعي فيها من أفضل الأعمال فأنّه أحيا سنّة قال النّبي من سنَّ سنّةً حسنة فله أجرها و أجر من عمل بها من غير أن ينتّقص من أجورهم شئ إنتهىٰ.

و عن محاسن البرقي بأسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالىٰ: يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَ ٱسْجُدُوا إلىٰ قوله من خَرَج في الصّلاة و الزّكاة و الصّوم و الخير إذا توَّلوا اللّه و رسوله و أولوا الأمر منّا أهل البيت قبل اللّه أعمالهم إنتهى الأحاديث نقلناها عن تفسير نورالثّقلين[١].

ختامه مسك و فى ذلك فليتنافس في المتنافسون، هذا أخر الكلام في تفسير الجزء السّابع عشر من هذا السّفر الجليل.

■

١- ج ٣ ص ٥٢٣

الفهرست

■

■